



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -



كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة والأدب العربي

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الدراسات الدلالية العربية

آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بين الدلالة السياقية  
والحقائق العلمية

إشراف الأستاذ الدكتور:

عبد الناصر بوعلي

إعداد الطالبة:

حبيبة زغلامي

أعضاء لجنة المناقشة:

رئيساً	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د. عبد الحكيم والي دادة
مشرفاً ومقرراً	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د. بوعلي عبد الناصر
عضواً	جامعة تلمسان	أستاذ التعليم العالي	أ.د. هشام خالدي
عضواً	جامعة وهران 01	أستاذ التعليم العالي	أ.د. عبد الحليم بن عيسى
عضواً	جامعة أدرار	أستاذ التعليم العالي	أ.د. إدريس بن خويا
عضواً	جامعة أدرار	أستاذة محاضر (أ)	د. أحمد بن عمار

السنة الجامعية: 2021م-2022م



مُقَدِّمَةٌ

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل الوجودَ متَّسِقًا في كائِناته وموجوداته، وأنزل الكتاب متناسقًا في نظمهِ وسِياقهِ، متناعِمًا في حقائقهِ مع حقائق الكون بما أبحر عيون النَّاظِرِينَ، وأبصر به قلوب الغافلين، فتجلَّت لنا دلائل وحقائق معجزات ، بانتظام واتساق الكتاب المنشور، مع الكتاب المسطور. والصَّلَاة والسَّلَام على أفصح من نطق.. سيدنا محمد ﷺ سيد البلغاء والفصحاء، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين. أمَّا بعد:

تعدُّ مسألة الاهتمام باللُّغة (الدال) والتَّفكير (المدلول) والواقع (المرجع) من أقدم المسائل التي تزامنت مع ظهور الإنسان الواعي في الحياة الاجتماعيَّة؛ وذلك لأنَّها ملازمة لوجود الإنسان وحياته، فمحَرَّر اللُّغة هو الواقع والتَّفكير، ونحن نستخدم اللُّغة لأجل التَّفكير في الواقع، فاللُّغة بمثابة مرآة للواقع، والتَّفكير انفتاح على الواقع.

إنَّ إشكالية مطابقة اللُّغة للواقع والتَّفكير العلمي في النَّصِّ القرآني تعدُّ من أهمِّ القضايا لدى المسلم المعاصر؛ فهي تكشفُ عن دلائل ومعانٍ لغويَّة، وحقائق وإشارات علميَّة. كما أنَّ لها أثر كبير في فهم كلام الله تعالى، وتقريب المعنى بما يناسب الإدراك والفهم. وبالتالي تربط النَّاس بكتاب الله تعالى وتزيل الفجوة بينهم وبين القرآن الكريم؛ فبتفاعل لغة القرآن الكريم بالواقع (الآفاق والأنفس) والتَّفكير العلمي فيه، تتجلَّى المعاني وتتضح الدَّلالات من اللَّفظ والنَّصِّ القرآني، وتبرز وجوه الإعجاز القرآني وتتعدَّد من قراءة إلى قراءة ومن تفكُّر إلى تفكُّر ومن سِياقٍ إلى سياق. فالتَّفكير العلمي هو السَّبيل الوَحيد لرؤية الأدلَّة التي يحملها القرآن الكريم، والتي تُثبِتُ مصداقيَّة نَزولِهِ من عند الله تعالى. يقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: 53].

يتموضع إشكالُ هذا البحث في هذا المقام المعرفيِّ، حيث يسعى إلى معالجة ظاهرتي الدَّلالة السِّياقية والحقيقة العلميَّة في نصوص الإعجاز العلمي، من خلال استقصاء تساؤلين جوهريين: كيف يفهم النَّصِّ القرآني، ويتحدَّد معنى ألفاظه وتناسب آياته وترباطها، ويعرف مراد المخاطب وغرض الخطاب انطلاقًا من بنيته اللُّغويَّة؟ وما وظيفة العلم الحديث وما وصل إليه من اكتشافات في فهم النَّصِّ القرآني استنادًا إلى الواقع "الآفاق والأنفس"؟

أمَّا التَّسْأُولُ الْأَوَّلُ فَيَفْتَحُ بَابًا عَلَى اسْتِكْشَافِ الْقِرَائِنِ السِّيَاقِيَةِ لِعَوِيَّةٍ كَانَتْ أَمْ غَيْرَ لِعَوِيَّةٍ وَأَثَرَهَا الدَّلَالِي فِي تَوْجِيهِ دَلَالَةِ النَّصِّ الْقِرْآنِيِّ، وَأَمَّا التَّسْأُولُ الثَّانِي فَيَفْتَحُ بَابًا عَلَى الْاِكْتِشَافَاتِ وَالْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي لَهَا صِلَةٌ بِالْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ وَفَاعِلِيَّتِهَا فِي تَفْجِيرِ دَلَالَةِ الْعِبَارَةِ الْقِرْآنِيَّةِ.

مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ السِّيَاقَ يُعَدُّ الْقَلْبَ النَّابِضَ لِعِلْمِ الدَّلَالَةِ، وَجَوْهَرُ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ فِي أَيِّ بِنَاءٍ نَصِّيٍّ أَوْ كَلَامِيٍّ. فَهُوَ إِطَارٌ عَامٌ تَنْتَظِمُ فِيهِ عُنَاوِرُ النَّصِّ وَوَحْدَاتِهِ اللُّغَوِيَّةُ، وَمَقْيَاسٌ تَتَّصِلُ بِوَسِطَتِهِ الْجُمْلُ فِيمَا بَيْنَهَا وَتَتْرَابُطُ، وَبِيئَةٌ لِعَوِيَّةٍ وَتَدَاوُلِيَّةٌ تَرَعَى مَجْمُوعَ الْعُنَاوِرِ الْمَعْرِفِيَّةِ الَّتِي يُقَدِّمُهَا النَّصُّ لِلْقَارِيءِ. وَالدَّلَالَةُ السِّيَاقِيَّةُ هِيَ الدَّلَالَةُ الْحَاصِلَةُ مِنْ مَرَاعَاةِ مَا يَحِيطُ بِاللَّفْظِ أَوْ التَّرْكِيبِ أَوْ النَّصِّ مِنْ كَلَامٍ سَابِقٍ أَوْ لَاحِقٍ، وَقَدْ يَشْمَلُ النَّصَّ كُلَّهُ وَمَا يَحِيطُ بِهِ مِنْ مَلَابَسَاتٍ غَيْرِ لَفْظِيَّةٍ أَوْ ظُرُوفٍ تَتَعَلَقُ بِالْمَخَاطَبِ وَالْمَخَاطَبِ وَطَبِيعَةِ مَوْضُوعِ الْخِطَابِ وَغَرَضِهِ وَالْمُنَاسِبَةَ الَّتِي اقْتَضَتْ وَالزَّمَانَ الَّذِي قِيلَ فِيهِ الْكَلَامُ. وَعَلَيْهِ فَإِنَّهُ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ يَفْسَّرَ أَوْ يُفْهَمَ النَّصُّ الْقِرْآنِيُّ بَعِيدًا عَنِ دَلَالَتِهِ، كَمَا أَنَّ السِّيَاقَ يَفْرُضُ نَفْسَهُ عَلَى كُلِّ تَفْسِيرٍ؛ لِأَنَّ التَّرْكِيبَ لَا يَنْعَزِلُ عَنِ السِّيَاقِ بِنَوْعِيهِ، اللَّغْوِيِّ الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى النَّصِّ وَالَّذِي يَنْجَلِي فِي الْجَوَانِبِ النَّحْوِيَّةِ وَالصَّرْفِيَّةِ وَدَلَالَةِ الْمَفْرَدَاتِ، وَغَيْرِ اللَّغْوِيِّ الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى مَا حَوْلَ النَّصِّ مِنْ ظُرُوفٍ خَارِجِيَّةٍ تَفْرُضُ نَفْسَهَا عَلَيْهِ وَتُسَهِّمُ إِسْهَامًا فَعَّالًا فِي تَشَكُّلِ الْمَعْنَى وَذَلِكَ مِثْلُ سَبَبِ النُّزُولِ، وَمَكَانِهِ وَزَمَانِهِ، وَالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ، وَالْمَعْطِيَّاتِ التَّأْرِيخِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ.

إِنَّ النَّظَرَ فِي كِتَابِ اللَّهِ يَجِدُ نَفْسَهُ أَمَامَ الْعَدِيدِ مِنَ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ، الَّتِي تَزْحَرُ بِالْعَدِيدِ مِنَ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُبْهَرَةِ، وَالَّتِي اسْتَطَاعَ عُلَمَاءُ الْعِلْمِ الْحَدِيثِ أَنْ يَصِلُوا بَعْدَ طَوْلٍ عَنَاءٍ وَبَحْثٍ إِلَى أَنَّ تِلْكَ الْإِشَارَاتِ وَالِدَّلَالَاتِ الْعِلْمِيَّةِ قَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، مِنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ عَامٍ وَيَزِيدُ، وَلَا شَكَّ فِي كَوْنِ ذَلِكَ يَعْدُ كَشْفًا مُبْهَرًا، وَأَدَاةً جَدِيدَةً تَسْتَحْدِمُ فِي الدَّعْوَةِ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلَّ، بِإِثْبَاتِ صِدْقِ نَسْبَةِ الْقُرْآنِ لِمَنْزَلِهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ فَتَحَتْ تِلْكَ الْاِكْتِشَافَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُتَوَافِقَةَ مَعَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ، الْبَابَ إِلَى تَفْسِيرٍ جَدِيدٍ؛ وَهُوَ تَفْسِيرٌ عِلْمِيٌّ لِلآيَاتِ الْقِرْآنِيَّةِ بِضَوَابِطِهِ الَّتِي حَدَّدَهَا الْعُلَمَاءُ. وَلَقَدْ شَاعَ مِصْطَلَحُ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ فِي عَصْرِنَا، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَوْجِهِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، الَّتِي كَشَفَتْ عَنْهَا الْعُلُومَ الْكُونِيَّةَ وَالطَّبِيعِيَّةَ. فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يَحْتَوِي عَلَى أَلْفٍ وَثَلَاثُمِئَةٍ آيَةٍ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْكَوْنِ، وَعَنِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، فِيهَا حَقَائِقُ عِلْمِيَّةٌ غَايَةٌ فِي الْأَصَالَةِ وَالْمَوْضُوعِيَّةِ وَالْإِعْجَازِ.

وَبِنَاءً عَلَى هَذَا أَتَقَيَّ مَوْضُوعَ هَذَا الْبَحْثِ الَّتِي جَاءَتْ صِيغَةُ عُنْوَانِهِ كَالتَّالِي: "آيَاتُ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بَيْنَ الدَّلَالَةِ السِّيَاقِيَّةِ وَالْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ".

ثمة جملة من الدوافع الكامنة وراء اختيار هذا الإشكال المزدوج موضوعاً للدراسة منها: قلّة الدراسات العلميّة - حسب علم نا- التي تناولت تطبيق المنهج السياقي ببعديه الداخلي والخارجي على النصّ القرآني أو النصوص الأدبيّة المختلفة ، والتي تجمع بين الدليل اللغوي والبرهان العلمي في التحليل. ومن الدوافع الأهمية الكبرى لموضوع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم إذ يُعدُّ من الموضوعات المتصلة بقضايا العصر، فالإعجاز العلمي هو اللُغة التي تنقل إعجاز القرآن إلى جميع اللُغات وسبيل الدّعوة خاصّة مع الذين لا يتكلمون العربيّة، ولا يُدركون الإعجاز البياني في القرآن وهو ممتدُّ على مدى العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك لما اشتمل عليه القرآن من إشارات كونية وحقائق علمية وتشريعية يكشف عنها العلم تباعاً ، وبالإضافة إلى ذلك رحابته وسعة البحث فيه. ومنها أنّ العمل في البحث عن الدّلالة السياقية يهيئ لنا الإمام بعلم العربية كافّة إذ يتطرق إلى أصواتها وصرفها ونحوها ومعجمها وبلاغتها وتفسيرها، والعمل في البحث عن الحقيقة العلمية يهيئ لنا الإطلاع على العديد من العلوم التجريبية المكتسبة كعلم الفلك والجيولوجيا والفيزياء والأحياء والطب. كما أنّ اختيار القرآن الكريم مضموناً لهذه الدّراسة رغبة في خدمة كتاب الله بما يناسب الأجيال المعاصرة، والوقوف على دقة استعمال الألفاظ في القرآن الكريم في الإشارة إلى الظواهر العلمية، وفي إبراز منهج جدير لفهمه وتدبره ، ورغبة في بيان الحقائق التي أدرك العلم طرفاً من أسرارها.

تكمن أهمية هذه الدّراسة في أنّ: توظيف المنهج السياقي تطبيقياً يصلح الباحث علمياً ويكون له ملكة تفسيريّة من خلال تحليل النصّ وفك شفراته ومحتواه ثم الكشف عن مقاصده الدّلالية. وبيان خطورة إغفال الدّلالة السياقيّة في تحليل النصوص وتوجيه المعنى، وذلك لأنّها جديرة بحسم دلالة اللفظ في ثنايا النصوص ولاسيما آيات القرآن الكريم التي تحتاج أكثر من غيرها من النصوص إلى الاقتراب أكثر من مدلولاتها لكونها سماويّة مُقدّسة وترتبط مباشرة بالناس. كما تتجلى أهميّة هذه الدّراسة أيضاً في أنّها إعمال لأمر التدبر في القرآن كتاب الله المقروء من خلال البحث في الدّلالة السياقية وأثرها في التعبير القرآني ، واستجابة لدعوى التّفكّر في الكون فهو كتابه المنظور من خلال التّعرف على بعض الحقائق العلميّة الحديثة ودلالاتها في القرآن، فتجعلنا نقرأ القرآن بعين غير التي كنا نقرؤه بها وبفهم غير الذي كنا نفهمه به. يقول تعالى: ﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَذَّبَرُوا عَيْنَيْهِمْ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: 29]، ويقول: ﴿ أَوَلَمْ يَنْفَكُرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الروم: 8].

كما أن هذا البحث يسعى إلى تحقيق جملة أهداف معرفية: منها التعريف بالسياق باعتباره أداة معرفية وإجرائية حديثة حققت نجاحاً معتبراً في دراسة النصوص على اختلاف أنساقها المعرفية في حقول العلوم الإنسانية المختلفة، فضلاً عما للسياق من جذور عميقة في تراثنا العربي عني به جمع من العلماء القدامى في فهم دلالات اللفظ في النص القرآني. ومنها إثبات توافق الحقائق القرآنية مع الحقائق العلمية وكشوفاتها الحديثة، وتأكيد التطابق بين آيات كتاب الله المسطور، وآيات كون الله المنظور، وذلك بمحاولة الربط بين دلالة سياق الآيات الكونية في القرآن الكريم وبراهين الحقائق العلمية، بأسلوب ميسر وسهل. وإثبات عدم التعارض بين النص القرآني وبين الحقائق العلمية الحديثة وعدم التناقض بينهما. ومنها توسيع النظرة إلى فهم النص القرآني، والارتقاء إلى آفاق إعجازه العلمي، الذي أخذ يتألق في الدراسات المعاصرة، ويتلاقى مع كثير من النظريات العلمية الحديثة، ويشد الأنظار إليها.

لقد ترسّمت في البحث عدّة مناهج لتحقيق الأهداف والإجابة عن الإشكالات: منها المنهج التاريخي لتأصيل الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ولتتبع المسار التاريخي وسرد بعض الأحداث في النشأة والتطور لنظرية السياق. والمنهج الوصفي التحليلي الذي يمهّدنا كثيراً في الملاحظة والتحليل والاستنتاج. والمنهج الإحصائي الاستقرائي لإحصاء المصطلحات المفاتيح من نصوص القرآن الكريم التي انطلق منها البحث، وكذا إحصاء آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم من مختلف الموسوعات والمؤلفات التي عنت به وتجزئتها ودراستها بعمق، ورصد ما قاله العلماء والمفسرون اللغويون في معناها ودلالاتها.

تنوّعت المؤلفات التي شكّلت مرجعاً أساسياً لهذه الدراسة بين المؤلفات اللغوية والدراسات القرآنية، وبين القديمة والحديثة. فأهم مصادر الدرس النظري والإجرائي للدلالة السياقية أمهات كتب التراث العربي، في المعاجم والنحو والبلاغة والتفسير والحديث وأسباب النزول والأصول والفقه. وكذلك الأمر بالنسبة للمراجع التي تناولت جوانب تتصل بهذا الموضوع فقد تنوّعت هي الأخرى بين علم اللغة وعلم الدلالة والسياق والصوتيات والنحو والصرف. نذكر منها: دلالة السياق للطلحي، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين لعبد النعيم خليل، منهج السياق في فهم النص لعبد الرحمن بودرع، نظرية السياق القرآني - دراسة تأصيلية دلالية نقدية لهثني عبد الفتاح محمود. المناسبة في القرآن - دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين اللفظ والسياق اللغوي، ومن الإعجاز اللغوي في القرآن

دراسة لغوية أسلوبية في مناسبة اللفظ لسياق الحال لمصطفى شعبان المصري. ومؤلفات عبد الحميد الهنداوي في الإعجاز الصوتي والصرفي والدلالي والأسلوبي.

وأما مراجع الدرس النظري والإجرائي للحقيقة العلمية والإعجاز العلمي في القرآن الكريم التي اعتمد عليها البحث فأهمها مؤلفات زغلول النجار في تفسير الآيات الكونية، وآيات الإعجاز العلمي في الأرض والسماء والجبال وغير ذلك. ومختلف موسوعات الإعجاز العلمي نحو: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الآفاق لمحمد راتب النابلسي، الموسوعة المصورة في الإعجاز العلمي عبد الدائم الكحيل، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية لأحمد جاد. وأيضاً كتاب فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق لنعيم الحمصي. وتأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة لمؤلفيه عبد المجيد الزنداني وسعاد يلدروم ومحمد الأمين ولد الشيخ. والمعجزة الخالدة "مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة"، لمؤلفيه أحمد أبو الوفاء عبد الآخر وكارم السيد غنيم. والضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي في القرآن والسنة والمسائل الحديثة في العلم والإيمان لراشد سعيد شهوان.

أما الدراسات السابقة الإجرائية التي حاولت استثمار المنهج السياقي ببعديه اللغوي وغير اللغوي لتوصيف آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم فإنها لا توجد على حد علمنا إلا التزّر القليل متناثرة هنا وهناك في مؤلفات أو أطروحات أو مقالات مختلفة، ونحو ذلك أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها بعنوان: "الضوابط اللغوية في التفسير العلمي للقرآن الكريم"، تقدّمت بها: هدى هشام إسماعيل الزبيدي، نوقشت بجامعة بغداد سنة 1425هـ/2005م. والتي كانت محور اهتمامها معرفة دقة استعمال الألفاظ في القرآن الكريم في تفسير الظواهر العلمية، وعدم تحميل النص لتفسير علمية غير مرادة بها، وفي فصول دراستها استشهدت بضوابط لغوية في التفسير العلمي؛ وذلك بحسب المستويات اللغوية المعروفة. وأيضاً ما قدّمه عماد الدين مخلوف عبد الحليم في كتابه "تأملات فنية في الآيات الكونية- دراسة جمالية وفق نظرية التصوير الفني في القرآن"، ط1، 2017م، الذي عرض فيه نماذج من آيات الإعجاز العلمي وفسرها انطلاقاً من سياقها العام وفق نظرية التصوير الفني، وهدفه من ذلك محاولة إبراز جماليات ودقة تصوير القرآن الكريم لمناظر ومشاهد الطبيعة الكونية التي تحيط بنا، لتوضيح ما فيها من جمال أسلوب، ورقة معان حسية وذهنية اشتملت عليها هذه الآيات. وقد استعان ببعض الصور الفوتوغرافية الملتقطة لبعض من مشاهد الكون لتقريب الصورة الحقيقية إلى ذهن القارئ.

اقتضت طبيعة الدراسة تقسيم البحث إلى مدخل وباين في كل باب فصلين، وفق منهجية تنتقل من العام إلى الخاص، ومن النظري إلى التطبيقي. فالمدخل عنوانه: " النصُّ القرآني بين النظام اللغوي والتفكير العلمي"، يهدف إلى مناقشة قضية مطابقة اللغة للتفكير العلمي في النصِّ القرآني، بعرض جملة نقاط تتعلق بمعرفة النصِّ القرآني وخصائصه وموضوعاته، و مميزات الصياغة اللغوية والخصائص الأسلوبية للنظم اللغوي القرآني، وصفات التفكير العلمي في القرآن ومجالاته، والعلاقة بين اللغة والتفكير وتأثير القرآن فيهما.

الباب الأول نظري بعنوان: " الإعجاز والسياق في القرآن - دراسة مصطلحية. ضمَّ فصلين: الأول عنوانه " حقيقة الإعجاز العلمي في القرآن "؛ يبحث في المفاهيم اللغوية والاصطلاحية للقرآن والعلم والمعجزة والإعجاز والحقيقة العلمية، وتأصيل وتأريخ الإعجاز القرآني عامة والإعجاز العلمي خاصة، ثم منهجية أبحاث الإعجاز العلمي وضوابطها. فجاء الفصل مقسماً إلى خمسة مباحث وهي:

- الأول: القرآن والعلم، موقف القرآن من العلم
- الثاني: المعجزة والإعجاز، مفهومهما والفرق بينهما
- الثالث: الإعجاز القرآني مسيرته التاريخية وأهم أنواعه
- الرابع: الإعجاز العلمي في القرآن تحديداً وتأريخاً
- الخامس: الحقيقة العلمية وضوابط ومنهجية البحث في الإعجاز العلمي

الفصل الثاني: جاء بعنوان "مجالات دراسة السياق قديماً وحديثاً"، عرّفت فيه الدراسة السياق لغة واصطلاحاً، ثم تعرّضت بإيجاز إلى النظرية السياقية الحديثة وروادها، وقبل ذلك ألقت الضوء على بعض النظريات والتطبيقات التي وردت في تراثنا العربي، بحثاً فيها عن الأصول النظرية والتطبيقية لنظرية السياق في ثلاث بيئات عند النحويين والبلاغيين ودارسي القرآن. فجاء الفصل مقسماً إلى خمسة مباحث وهي:

- الأول: مفهوم السياق في المعجم والاصطلاح وأهميته
- الثاني: السياق في دراسات النحاة واللغويين
- الثالث: السياق في دراسات البلاغيين
- الرابع: السياق عند دارسي القرآن
- الخامس: السياق في دراسات اللغويين العربيين

الباب الثاني تطبيقي موسوم بـ: "آيات الإعجاز العلمي - دراسة تطبيقيّة"، فقد بني على إحصاء وتصنيف وتحليل بعض النصوص القرآنية التي تضمّنت إعجازاً علمياً سواءً في السّماء والأرض، أو في الإنسان والحيوان، وهو يمثّل مقارنة لعناصر السّياق في آيات الإعجاز العلمي؛ ففي هذا الباب عمدت الدراسة إلى جمع آيات الإعجاز العلمي وتصنيفها، وذلك من موسوعات وكتب مختلفة تناولت الإعجاز والتفسير العلمي للقرآن الكريم، ثمّ تحيّرت شاهداً أو أكثر عمدت إلى تحليله، مبتدئة بأكثرها ذكرًا مستنيرة بما تقدّمه الدّلالة اللّغويّة من معان ثريّة، ترفد الدّلالة السّياقيّة. انطلقت من المستوى "الصّوتي" الذي يتناول الأصوات وخصائصها ومقاطعها الصّوتيّة ودلالاتها، مُرورا بالمستوى "الصّري" الذي تتغيّر فيه صيغ الألفاظ من خلال الإفراد، أو التثنية، أو الجمع، أو التذكير، أو التأنيث، أو التجريد، أو الزيادة، أو الزّمن، أو غيرها، ثم مرورًا بالمستوى "النّحوي" وفيه يُلفت النّظر إلى تراكيب الجمل، أو الأساليب النّحويّة وعلاقتها بالسّياق. ويتخلّل كل مستوى من هذه المستويات الثلاثة "الصّوتيّة والصّرفيّة والنّحويّة" المستوى "المعجمي" الذي يتناول دلالة الألفاظ، ويضعه بعض الدّارسين تحت المستوى الدّلالي. وانتهاءً بالسّياق "الخارجي" غير اللّغوي الذي يُعنى بمجموع الطّروف الخارجيّة التي تُحيط بالنّص، سواءً منها الاجتماعيّة أو الثقافيّة أو البيئيّة أو التّاريخيّة.

ثم بحث عن ما يقابلها - أي الآيات المعجزة - من حقائق علميّة حسب ما جاء به العلماء وقرّره، وفي الأخير حاولت أن تستنتج إن كان هناك تعانق دلالي بين المفهومين اللّغوي والعلمي للآية المعجزة، أو بالأحرى تعانق واتّفاق بين المفهوم - أو التفسير - العلمي لهذه الآية ودلالاتها اللّغويّة السّياقيّة.

وبذلك فقد ضمّ الباب فصلين: ١ لفصل الأول عنوانه: "آيات خلق السّماء والأرض بيّن الدّلالة السّياقيّة والحقائق العلميّة"، وقد جاء مقسمًا إلى خمسة مباحث:

- الأول: إحصاء آيات الإعجاز العلمي في السّماء والأرض وتصنيفها
- الثاني: السّياق الصّوتي والحقائق العلميّة في آيات خلق السّماء والأرض
- الثالث: السّياق الصّري والحقائق العلميّة في آيات خلق السّماء والأرض
- الرابع: السّياق النّحوي والحقائق العلميّة في آيات خلق السّماء والأرض
- الخامس: السّياق الخارجي والحقائق العلميّة في آيات خلق السّماء والأرض

الفصل الثاني بعنوان: "آيات خلق الإنسان والحيوان بين الدّلالة السّياقيّة والحقائق العلميّة" مقسمًا

إلى خمسة مباحث:

- الأول: إحصاء آيات الإعجاز العلمي في الإنسان والحيوان وتصنيفها
- الثاني: السّياق الصّوتي والحقائق العلميّة في آيات خلق الإنسان والحيوان
- الثالث: السّياق الصّري والحقائق العلميّة في آيات خلق الإنسان والحيوان
- الرابع: السّياق النّحوي والحقائق العلميّة في آيات خلق الإنسان والحيوان
- الخامس: السّياق الخارجي والحقائق العلميّة في آيات خلق الإنسان والحيوان

لقد واجهتنا جملة من العوائق والصعوبات حين مسيرتنا مع البحث نذكر منها: أن قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم من القضايا التي خاض فيها طوائف مختلفة تحمل ثقافات متنوعة "درسها الطبيب الجيولوجي المهندس عالم الفضاء..."، فتكون مصادرها متنوعة ومراجعتها متشعبة. وبالإضافة إلى ذلك اتصال موضوع دلالة السياق القرآني بعلوم مختلفة كعلوم اللغة والبلاغة والتفسير، وهذا مما يتطلب مَنًا الاستعانة بالعديد من المصادر والمراجع في مختلف الشُّعب والاختصاصات. ومن الصُّعوبات أيضًا جِدَّة وحدائث الموضوع؛ فإنه لم يتطرق بالدراسة تفصيلًا بحيث يستقصي دلالات السياق الداخلي والسياسي الخارجي ووجوه الإعجاز العلمي في النص القرآني كلها في دراسة واحدة. ومما أثار عائقًا أيضًا قلة كتب المتخصصين في اللغة العربية وعلوم القرآن والتفسير في مجال التفسير والإعجاز العلمي للقرآن الكريم، فلم يتجاوز عدد المؤلفين في هذا الشأن من المتخصصين عدد أصابع اليد الواحدة. أضف إلى ذلك أن دراسة القرآن الكريم تعدُّ صعبة وليست بالشَّيء الهين وذلك لاتخاذنا كل إجراءات الحيطة من الوقوع في الزَّلل، والحذر قدر الإمكان من الاجتهاد في التأويل لتلك الآيات حين تحليلها.

ومهما يكن فقد كانت مسيرة هذا البحث، شيقَّة ممتعة نافعة جديرة بالدراسة، وذلك لأن كل الصُّعوبات تهون والعقبات تتدَلَّل وتتسع الآفاق للمقصد المنشود، أمام خدمة كتاب الله وخدمة اللغة العربية. وما كان لهذا البحث أن يكتمل على صورته النَّهائية المتواضعة لو لا لمسة أستاذنا "عبد النَّاصر بوعلي" الذي شجَّعنا على المضى فيه منذ أن كان فكرة، ورافق هذه الدِّراسة منذ بدايتها وأشرف عليها برحابة صدر وصبر وحلم وتفهم فأتقدَّم له بجزيل الشُّكر والامتنان وخالص التَّقدير والعرفان.

هذا من فضل الله علينا أن هدانا لما فيه الخير، وشرَّفنا بالبحث في هذا العلم الجليل، وأمتعنا بالنظر في كتابه بعين الإجلال والإعظام والإيمان بقداسته... فإن أحسنا في بعض الأمر فهو من توفيق الله، وإن كانت الأخرى فمن نفسي، وحسبنا أننا حاولنا أن نعيش مع القرآن الكريم في هذه الدِّراسة. فنسأل الله العليَّ القدير أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله ذخرا لنا في الدُّنيا والآخرة. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

كـ الباحثة: حبيبة زغلامي

ورقلة في: 2021/12/12م

مُدخل:

## النَّصُّ الْقُرْآنِيُّ بَيْنَ النَّظْمِ اللُّغَوِيِّ وَالتَّفْكِيرِ الْعِلْمِيِّ

﴿ كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِيَذُبُّوا عَنْ إِيْتِمِهِمْ وَيَتَذَكَّرُوا أُولَ الْأَلْبَابِ ﴾

[ص: 29]

«إِنَّ الْكَلِمَةَ صَوْتٌ نُجَسِدُ فِيهِ أَفْكَارَنَا، وَلَمَّا كَانَ جَسَدُ الشَّيْءِ عَلَى مِثَالِ مَا نُجَسِدُهُ فِيهِ، فَإِنَّ أَفْكَارَنَا الصَّوْتِيَّةَ إِنَّمَا هِيَ عَلَى مِثَالِ هَذِهِ الْأَفْكَارِ، الَّتِي نُجَسِدُهَا فِيهَا، وَإِذَا تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ هُنَاكَ ضَابِطًا، أَوْ ضَوَابِطَ، تَحْكُمُ أَصْوَاتِنَا الَّتِي هِيَ أَجْسَادُ أَفْكَارِنَا، فَإِنَّ هَذَا الضَّابِطَ، أَوْ هَذِهِ الضَّوَابِطَ، تَحْكُمُ الْأَفْكَارَ الَّتِي جَسَدَتْ فِيهَا أَيْضًا».

محمّد عبير "الشيء في ذاته"

مُعَلِّمٌ لِبِنَاءِ الْوُجُودِ كَمَا هُوَ مُعَلِّمٌ لِلْعِلْمِ وَالْفَلَسَفَةِ. دَارُ الْقَلَمِ، دِمَشْقُ-سُورِيَا، دَطَاءُ، ص: 5-6

إنَّ اللُّغة هي دَلالاتِ يَستخدِمُها الإنسانُ لِتَطوِيرِ عَمليَّةِ التَّفكيرِ، ولِتخزينِ المَعلُومَاتِ في ذاكرته؛ لأنَّ الإنسانَ يُفكِّرُ ضِمْنَ لُغة، فتكون هي الوعاء الذي يحتوي العلم والمعارف (1)، فاللُّغة «ظَهَرَتْ مع بَدءِ الوَعْيِ والتَّفكيرِ عند الإنسان، كونه كائناً اجتماعياً، وتطوّرت مع تطوُّره بشكل طَرديٍّ، فكلِّما اتَّسعت معارفه ومداركه اتَّسعت لُغته؛ لِتستوعِبَ هذا التَّطوُّر، وأصبحت اللُّغة هي الوسيط الذي يَعتَمِدُ عليه الإنسانُ في عَمليَّةِ التَّواصلِ مع بني جنسه، والحافظَةُ للعلم والمعارف؛ لنقلها إلى الأجيالِ اللاحقة، فإبداعُ اللُّغة عند الإنسانِ هو من أكبر الإبداعاتِ وأهمِّها على الإطلاق» (2). لذا فَمَسْأَلَةُ الاهتمامِ باللُّغة والتَّفكيرِ تُعدُّ من أقدمِ المسائلِ التي تَزَامَت مع ظُهور الإنسانِ الواعي في الحياةِ الاجتماعيَّة، فمحرِّرُ اللُّغة هو التَّفكير، ونحن نستخدم اللُّغة لأجلِ التَّفكيرِ في الواقع، فاللُّغة بمثابة مرآة للتَّفكير. والتَّفكير انفتاحٌ على الواقع.

وإنَّ إشكاليَّةَ مُطابَقةِ اللُّغة للتَّفكيرِ العلميِّ في النصِّ القرآني تُعدُّ من أهمِّ القضايا لدى المسلمِ المعاصر؛ فهي تكشفُ عن دلائلٍ ومعانٍ وفوائدٍ لغويَّةٍ وبيانيَّةٍ وحقائقٍ علميَّةٍ. كما أنَّ لها أثرٌ كبيرٌ في فهمِ كلامِ الله تعالى، وتَقريبِ المعنى بما يُناسبُ الإدراكَ والفهم. وبالتالي تَربطُ النَّاسَ بكتابِ الله تعالى وتُزيلُ الفجوةَ بينهم وبين القرآن الكريم. فبتفاعلِ لُغة القرآن الكريم بالتَّفكيرِ العلميِّ، تتجلى المعاني وتتضح الدَّلالاتُ من اللَّفظِ والنَّصِّ القرآني، وتبرزُ وجوهُ الإعجازِ القرآني وتتعدَّدُ من قِراءةٍ إلى قِراءةٍ ومن تفكُّرٍ إلى تفكُّرٍ ومن سياقٍ إلى سياقٍ. ومن أجلِ مُناقشةِ وخوضِ ما نحن بِصدده (النَّصُّ القرآني بين النظام اللُّغوي والتَّفكيرِ العلميِّ) لا مناص من عَرَضِ جُملةِ نقاطٍ تتعلَّقُ بمعرفةِ النَّصِّ القرآنيِّ وخصائصه وموضوعاته، و مميَّزاتِ الصِّياغةِ اللُّغويَّةِ والخصائصِ الأسلوبيةِ للنَّظْمِ اللُّغويِّ القرآنيِّ، وخصائصِ التَّفكيرِ العلميِّ في القرآن ومجالاته، والعلاقة بين اللُّغة والتَّفكيرِ وتأثير القرآن فيهما.

### أولاً: النَّصُّ القرآنيُّ، خصائصه وموضوعاته

يُعدُّ النَّصُّ واللُّغة في نظريَّة اللسانيات الحديثة بجميَّةً حقيقةً لعلاقة الدال بالمدلول "كما هو عند دي سوسير". وهو أيضاً ترهينٌ (Actualisation) واستعمالٌ وظيفيٌّ لهذين المفهومين. فكلُّ نصٍّ هو عبارة عن منظومة لغويَّة لها قوانينها وآلياتها وترهينٌ لألفاظها في سياقاتها المختلفة (3).

(1) - ينظر: سامر إسلامبولي: القرآن بين اللغة والواقع. تقديم: سمير حسن ومحمد الحيش. دار الأوتل، دمشق، سورية، دط، 2005م، ص: 76.

(2) - المرجع نفسه. ص: 76.

(3) - ينظر: حسين خمري: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال. الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، منشورات الاختلاف الجزائر-العاصمة-الجزائر، ط1، 1428هـ/2007م، ص: 266.

فالنّصّ هو أحدُ بَحَلِيَّاتِ اللّغة، لذا فخاصيّة التّعلّق بينهما تبدو جليّة؛ ذلك لأنّ النّصّ لا يُنتج إلاّ بواسطة اللّغة التي يَسْتَعْمَلُهَا أداة للتّعبير. فاللّغة بالنّسبة للنّصّ هي الأداة والهدف في الوقت ذاته، ودور النّصّ هو إعادة ترتيب المواد اللّغويّة وجعل بعضها بسبب من بعض وخلق علاقات جديدة بينها. وبهذه الطّريقة يعمل النّصّ على كشف مزايا التّعبير في هذه اللّغة وهذا النّظم الجديد للوحدات اللّغويّة ينتج معاني جديدة لم تُطرق من قبل (1). وقد عرّف النّصّ على أنّه «مجموعة من الأحداث الكلاميّة، التي تتكوّن من مُرسِلٍ للفعل اللّغويّ وملتقٍ، وقناة اتصال بينهما، وهدف يتغيّر بمضمون الرّسالة، وموقف اتصال اجتماعي يتحقّق فيه التّفاعل» (2). لذا فالنّصّ «كيان متداخل المستويات، يخاطب مُتلقياً (قارئاً)، وإنّه عمليّة إنتاجيّة يُعيد (القارئ) بها بناءه على وفق قواعد نظامه التي تشكّل بها، ومن حيث كونه أداة للتّواصل بين طرفين، فهو نسيجٌ لغويٌّ وجهاز مفهومي» (3).

وقد بيّنت «الدراسات الأنتروبولوجية الحديثة أهميّة اللّغة في المجتمعات البدائيّة ودورها الخطير حيث كانت تمارس عليها فتننتها وطقوسها السّحرية. وفي المجتمعات المعاصرة نلاحظ أنّ الكلمة المطبوعة (أو النّصّ) تُحاطُ بهالة طقوسيّة وصحّب كبيرين يمدّانها بكلّ أسباب القوة والدّوام ويساعدانها على الانتقال لتصبح عنصراً مُكوّناً للثقافة. وبهذا المفهوم يصير كلّ نصّ أسطورة [...] وهو ما يعني أنّ كل نصّ ينبثق من واقع معيّن يُعبّر عنه بالضرورة، كما يعني أيضاً أنّ النّصوص الخالدة التي خرجت عن إطار الأدب إلى إطار أسطوريّ قد جعلت قيمتها قيمة عابرة للزمان والمكان وفي كلّ رحلة تستقطب المزيد من القراء والرّواة» (4). ويُعدّ القرآن الكريم من أسمى النّصوص السّماويّة المنزلة الخالدة والمعجزة في آنٍ واحدٍ. وهو نصّ إلهيّ المصدر، عربيّ اللّغة. فالله سبحانه وتعالى حين أوحى للرّسول محمد ﷺ بالقرآن اختار النّظام اللّغويّ الخاصّ بالمستقبل الأوّل. وذلك لأنّ اللّغة أهم أدوات الجماعة في إدراك العالم وتنظيمه. كما إنّ أوهيّة مصدر النّصّ لا تنفي واقعيّة محتواه ولا تنفي من ثمّ انتماءه إلى ثقافة البشّر (5).

يرى نصر حامد أبو زيد في مؤلّفه "مفهوم النّص" أنّ القرآن يصف نفسه بأنّه رسالة. وإنّ

- (1) - ينظر: حسين خمري: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال. ص: 267.
- (2) - سعيد حسن بحيري: علم لغة النّصّ المفاهيم والاتجاهات. مكتبة لبنان ناشرون بيروت - لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط1، 1997م، ص: 110.
- (3) - فرحان بدري الحربي: الأسلوبية في النقد العربي الحديث دراسة في تحليل الخطاب. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2003م. ص: 35-36.
- (4) - حسين خمري: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال. ص: 266.
- (5) - ينظر: نصر حامد أبو زيد: مفهوم النّص. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، بيروت-لبنان، ط1، 2014م، ص: 24.

الرَّسالة» تُمثل علاقة اتصال بين مُرسل ومُستقبل من خلال شفرة، أو نظام لغوي. ولمّا كان المرسل في حالة القرآن لا يمكن أن يكون موضوعاً للدّرس العلمي، فمن الطّبيعي أن يكون المدخل العلمي لدّرس النصّ القرآني مدخل الواقع والثّقافة، والواقع الذي ينتظم حركة البشر المخاطبين بالنّص وينتظم المستقبل الأوّل للنّص وهو الرّسول، والثّقافة التي تتجسّد في اللّغة»<sup>(1)</sup>.

بالتّالي « فالنّصّ القرآني هو دلالات، يستطيع المخاطب أن يفهمها من جرّاء إسقاطها على محلّها من المدلّولات في الواقع، وبهذا العمل؛ يكون المخاطب قد تلقّى النّصّ الذي صدر من المتكلّم، وإذا لم يتمّ المخاطب بإسقاط النّصّ على محلّ الخطاب "الدّلالات على المدلّولات" يتّفي عنه صفة التّلقّي والقراءة للنّصّ، ويصبح تالياً ناقلاً للنّصّ لغيره من المتلقّين العاملين القارئين «<sup>(2)</sup>. فالنّصّ القرآني لما نزل من السّماء إلى النّاس نزل عمودياً، وعندما صار بين النّاس صارت حرّكته أفقيّة، ينتقل من مُجتمعٍ إلى آخر، فصفة حركة النّصّ العموديّة كانت مُجرّد نُزولٍ وتلاوةٍ من قِبل الرّسول ﷺ. وتُركت وظيفة القراءة للنّصّ القرآني للنّاس، ولم تنزل معه، وبالتّالي؛ ليست هي إلهيّة، وإمّا هي إنسانيّة، فلكلّ مُجتمع قراءته الخاصّة به المرتبطة بأدواتها المعرفيّة وحاجيّاته»<sup>(3)</sup>.

إذا فالنّصّ القرآني «نصّ لغويّ يمكن أن نصّفه بأنّه يُمثّل في تاريخ الثّقافة العربيّة نصّاً محوريّاً، وليس من قبيل التّبسيط أن نصّف الحضارة العربيّة الإسلاميّة بأنّها حضارة "النّصّ فيه»<sup>(4)</sup>. وإنّ الذي أنشأ هذه الحضارة، وأقام الثّقافة والعُلوم هو جدل الإنسان مع الواقع من جهة، وحواره مع النّصّ من جهة أخرى - بكلّ ما ينتظم في هذا الواقع من أبنية اقتصادية واجتماعيّة وسياسيّة وثقافيّة - فللقرآن في حضارتنا دورٌ ثقافي لا يمكن تجاهله في تشكيل ملامح الحضارة وفي تحديد طبيعّة علومها»<sup>(5)</sup>.

### 1- خصائص النّصّ القرآني:

إنّ المراد بالخصائص الصّفات التي تُميّز الشّيء وتُحدّده، وخصائص القرآن الكريم هو كلّ ما يتميّز به من كلّ وجهٍ عن الحديث النبويّ، والأحاديث القدسيّة، وسائر الكُتب السّماويّة فضلاً عن سائر كلام البشّر، ومن الخصائص العامّة للقرآن الكريم مثلاً: أنّه آخر الكُتب المنزّلة، ونزوله مُنجمّاً

(1) - نصر حامد أبو زيد: مفهوم النّص. ص: 24.

(2) - سامر إسلامبولي: القرآن بين اللّغة والواقع. ص: 79.

(3) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 78-79.

(4) - نصر حامد أبو زيد: مفهوم النّص. ص: 9.

(5) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 9.

وُنزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَافٍ، وَتَيْسِيرِ حِفْظِهِ وَتَبْلَاوَتِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْخَصَائِصِ الْمَعْرُوفَةِ<sup>(1)</sup>. وَلَا يُمْكِنُنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ الضِّيقِ سَرْدُ كُلِّ خَصَائِصِ الْقُرْآنِ لَذَا سَوْفَ نَذَكُرُ بَعْضًا مِنْهَا مِمَّا لَهَا أَوْثَقُ الصَّلَةِ وَالْإِرْتِبَاطِ بِمَوْضُوعِ الْبَحْثِ.

أ- إِنَّهُ كِتَابٌ مُعْجَبٌ: مِنْ خَصَائِصِ كَلَامِ اللَّهِ هُوَ إِعْجَازُهُ، فَقَدْ كَانَتْ مُعْجَزَةُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هِيَ رِسَالَتُهُ، فَالرِّسَالَةُ هِيَ الْمَعْجَزَةُ وَالْمَعْجَزَةُ هِيَ الرِّسَالَةُ. حَيْثُ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْ تَكُونَ «الرِّسَالَةُ الْخَاتِمَةُ وَالْمَعْجَزَةُ شَيْئًا وَاحِدًا، أَيْ إِنَّ حَقَائِقَ الرِّسَالَةِ وَإِبْثَاتِ صِحَّتِهَا يَجْمَعُهُمَا فِي كِتَابٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ؛ فَبِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ خُتِمَتِ الرِّسَالَاتُ، وَكَمُلَ الدِّينُ وَأُقِيمَتِ الْحُجَّةُ عَلَى النَّاسِ كَافَّةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]»<sup>(2)</sup>. وَقَدْ تَحَدَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَشْرِكِينَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، ثُمَّ تَحَدَّاهُمْ بِعَشْرِ سُورٍ، ثُمَّ تَحَدَّاهُمْ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ، فَعَجَزَ جَمِيعُ الْخَلْقِ أَنْ يُعَارِضُوا مَا جَاءَ بِهِ ثُمَّ سَجَّلَ عَلَى الْخَلْقِ جَمِيعًا الْعَجْزَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88].

وَلَقَدْ تَعَدَّدَتْ جَوَانِبُ الْإِعْجَازِ الْقُرْآنِيِّ بِمَعْنَى عَجْزِ الْبَشَرِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِشَيْءٍ مِثْلِهِ بِتَعَدُّدِ الزَّوَايَا الَّتِي يَنْظُرُ مِنْهَا إِنْسَانٌ مُحَايِدٌ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَمِنْ هَذِهِ الْجَوَانِبِ: الْإِعْجَازُ اللُّغَوِيُّ، وَالْإِعْجَازُ الْعَقْدِيُّ "الْإِعْتِقَادِيُّ"، وَالْإِعْجَازُ التَّعْبُدِيُّ، وَالْإِعْجَازُ التَّشْرِيْعِيُّ، وَالْإِعْجَازُ التَّارِيخِيُّ، وَالْإِعْجَازُ التَّرْبَوِيُّ، وَالْإِعْجَازُ النَّفْسِيُّ، وَالْإِعْجَازُ الْاِقْتِصَادِيُّ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَوْجُهِ الْإِعْجَازِ. وَفِي عَصْرِنَا ظَهَرَ نَوْعٌ مِنَ الْإِعْجَازِ أُطْلِقَ عَلَيْهِ "الْإِعْجَازُ الْعِلْمِيُّ" وَيُقْصَدُ بِهِ مَا تَضَمَّنَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ إِشَارَاتٍ وَدَلَالَاتٍ عَلَى حَقَائِقِ عِلْمِيَّةٍ كَانَتْ مَجْهُولَةً لِلنَّاسِ وَقَدْ نُزِلَ الْقُرْآنُ وَتُعْتَبَرُ سَابِقَةً لِعَصْرِهَا<sup>(3)</sup>.

ب- إِنَّهُ كِتَابٌ الزَّمَنِ: وَمِنْ خَصَائِصِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ صِلَاحِيَّتُهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَلِلْقُرْآنِ عَطَاءٌ مُتَّجِدٌ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَمَصْرٍ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ وَجِيلٍ ذَلِكَ لِأَنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ لِلْعَالَمِينَ وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أُمَّةٍ بَعِيْنَهَا، يَقُولُ الشُّعْرَاوِيُّ: «يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ عَطَاءٌ لِكُلِّ جِيلٍ، وَإِلَّا لَوْ أَفْرَغَ الْقُرْآنُ عَطَاءَهُ الْإِعْجَازِي فِي قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ مِثْلًا لِاسْتِقْبَالِ الْقُرُونِ الْأُخْرَى بِأَعْطَاءٍ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ قَدْ جَمَدَ، وَالْقُرْآنُ مُتَّجِدٌ

(1) - ينظر: تركي بن سعيد بن فهد الهويمل: خواص القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية. "أصل الكتاب رسالة دكتوراه"، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الرياض - السعودية، ط1، 1429هـ، ص: 29-30.

(2) - سمية زكي رشيد وياسر أحمد عبد الله العكيدي: معجزة القرآن الكريم. مجلة التربية والعلم، مجلد16، عدد1، 2009 م، ص: 201.

(3) - ينظر: علي محمد محمد الصلابي: المعجزة الخالدة الإعجاز العلمي في القرآني الكريم براهين ساطعة وأدلة قاطعة. دار المعرفة، دط، ص: 4-5. شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يجمد أبداً، سَخِيٌّ يُعْطِي دَائِماً، قَادِرٌ عَلَى العَطَاءِ لِكُلِّ جِيلٍ بِمَا يَخْتَلِفُ عَنِ الجِيلِ الَّذِي قَبْلَهُ وَبِنَفْسِ الآيَةِ، أَيُّ أَنَّ هُنَاكَ آيَاتٌ مِنَ القُرْآنِ تُعْطِينَا عُمُقاً جَدِيداً فِي مَعْنَاهَا، ذَلِكَ العُمُقُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَصِلُ إِلَيْهِ بِالفَهْمِ الدَّقِيقِ فِي أَوَّلِ وَقْتِ نُزُولِ القُرْآنِ «(1)». فَالرِّسَالَةُ الخَاتِمَةُ ائْتَمَرَتْ بِعَالِمِيهَا زَمَاناً وَمَكَاناً وَاسْتَمَرَّتْهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ. وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَأَوْحَى إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأَنْزِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأَنْعَامُ: 19]؛ فَالمراد بقوله: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ - عِنْدَ عَدَدٍ مِنَ المَفْسِّرِينَ - مَنْ بَلَغَهُ هَذَا القُرْآنُ عَلَى مَرِّ الأَزْمَانِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ (2).

ج - إِنَّهُ كِتَابٌ شَامِلٌ لِأُمُورِ الحَيَاةِ: وَمِنْ خِصَائِصِ الرِّسَالَةِ المَحْمُودِيَّةِ شُمُولِيَّتُهَا لِكُلِّ الأَحْكَامِ وَجَمِيعِ الأُمُورِ المَتَعَلِّقَةِ بِالحَيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالاِقْتِصَادِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89] وَقَوْلُهُ: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأَنْعَامُ: 38] فِي القُرْآنِ «أُصُولُ كُلِّ شَيْءٍ»، وَلَوْ ذُكِرَ فِيهِ كُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ لِأَصْبَحَ فِي أَسْفَارٍ وَمَجْلَدَاتٍ كَبَارٍ يُشَقُّ حَمَلُهَا وَمُدَارِسَتِهَا عَلَى النَّاسِ، وَأَنَّ هَذِهِ الأُصُولَ تَشْمَلُ جَمِيعَ الأَشْيَاءِ إِمَّا نَصّاً وَإِمَّا دِلَالَةً وَمَعْنَى أَوْ قِيَاساً وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ لِاسْتِثْمَارِ النُّصُوصِ» (3).

د - إِنَّهُ كِتَابٌ مَعَارِفِيٌّ: وَمِنْ خِصَائِصِ كِتَابِ اللَّهِ أَنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى عِلْمٍ دُونَ عِلْمٍ، فَإِنَّهُ اشْتَمَلَ عَلَى مَعَارِفٍ تَقُومُ بِهَا الحُجَّةُ، وَيَعْمُ بِهَا التَّنْفُوعُ وَأَطْرَافُهَا أُطْرُافٌ لِهَدَايَةِ النَّاسِ. يَقُولُ الرَّافِعِيُّ: لَقَدْ كَانَ القُرْآنُ الكَرِيمُ "سَبَبُ العُلُومِ الإِسْلَامِيَّةِ وَمَرْجِعُهَا كُلِّهَا، بَأَنَّهُ مَا مِنْ عِلْمٍ إِلَّا وَقَدْ نَظَرَ أَهْلُهُ فِي القُرْآنِ وَأَخَذُوا مِنْهُ مَادَّةَ عِلْمِهِمْ، أَوْ مَادَّةَ الحَيَاةِ لَهُ، فَكُنْتُ كَانَتْ سَطْوَةُ النَّاسِ فِي الأَجْيَالِ الأُولَى مِنَ العَامَّةِ وَأَشْبَاهِ العَامَّةِ شَدِيدَةً عَلَى أَهْلِ العُلُومِ النَّظَرِيَّةِ إِلَّا أَنْ يَجْعَلُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ القُرْآنِ نَسْباً مِنَ التَّأْوِيلِ وَالاِسْتِشْهَادِ وَالنَّظَرِ" (4). «وَمَا زَالَ العُلَمَاءُ حَتَّى وَقَتِنَا هَذَا يَكْتُبُونَ وَيَكْتُبُونَ فِي عُلُومِ شَيْءٍ، وَمَعَارِفٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَهَمَّ يُوثِقُونَ قَوْلَهُمْ وَيَدْعَمُونَ آرَائِهِمْ بِآيَاتٍ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّ هَذَا القُرْآنَ حَوَى مِنَ المَعَارِفِ أَصُولَهَا أَوْ أَشَارَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ بُحُوثِهَا» (5).

هـ - إِنَّهُ كِتَابٌ لَا يُصَادِمُ الحَقَائِقَ العِلْمِيَّةَ: وَمِنْ خِصَائِصِ القُرْآنِ الكَرِيمِ أَنَّهُ لَمْ وَلَنْ يُصَادِمَ

(1) - محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن. أخبار اليوم، إدارة الكتب والمكتبات، دط، دت، ص: 22.  
(2) - ينظر: عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين دراسة وتطبيق. سلسلة الدراسات القرآنية 4، سلسلة محكمة تصدر عن جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، دبي، ط1، 1428هـ/2007م، ص: 18-19.  
(3) - المرجع نفسه، ص: 21.  
(4) - ينظر: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي: خصائص القرآن الكريم. مكتبة العبيكان، الرياض السعودية، ط9، 1417هـ-1997م، ص: 69-70.  
(5) - المرجع نفسه، ص: 72.

حقيقة علمية. فالقرآن أنزل منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمن، عرض لكثير من مظاهر الوجود الكونية، وعرض لمعارف شتى وعلوم متعددة، ومع هذا كله لم يسقط العلم كلمة من كلماته، ولم يُصَادِمِ جُزئية من جُزئياته، ممَّا بَوَّأ القرآن مكانةً لم يُشاركه فيها كتابٌ من قبله ولا من بعده، فما زالت آياته عالية لا يطأها شيءٌ من ذلك لا لشيءٍ إلا لأنها كلام من وسع كل شيءٍ وعلماء، وكفى بهذا إثباتاً لخاصية من خصائص القرآن الكريم، لا يشترك معه فيها كتاب (1).

## 2- محتويات النص القرآني، الثابت والمتغير

إنَّ الناظر والمتأمل بتمعنٍ إلى محتويات النص الرسالي يرى أنه يتألف من موضوعين رئيسيين وهما:

أ- الجزء الثابت: ويتمثل هذا الجزء في القوانين العامة الناظمة للوجود كله ابتداءً من خلق الكون حتى الساعة ونفخة الصور والبعث والجنة والنار. وهو الجزء العام الذي تنطبق عليه عبارة: ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: 27] وقوله: ﴿قُرْآنٌ مُّجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: 21-22] ففي اللوح المحفوظ يوجد القانون العام الصارم لهذا الوجود، ولا تغيير أو تبديل لهذا القانون لأجل أحدٍ وهو ليس مناط الدعاء الإنساني (2).

ب- الجزء المتغير: وهو القانون الخاص الجزئي في أحداث الطبيعة الجزئية وظواهرها وأفعال الإنسان بعد وقوعها. وهو مناط التصرف والدعاء والمعرفة، لكنه لا يلغي القانون العام بل يعمل ضمنه (3). وهذا الجزء المتغير من القرآن عبّر عنه بأنه مأخوذ من إمام مبین في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 12]. فالإمام المبین يحتوي على شقين (4):

- أحداث وقوانين الطبيعة الجزئية: مثل تصرف الرياح واختلاف الألوان وهبته المذكور والإناث والزلازل وهي قابلة للتصريف، وغير مكتوبة سلفاً على أي إنسانٍ وغير قديمة. و نحو ذلك قوله في سورة الأنعام: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59]

(1) - ينظر: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي: خصائص القرآن الكريم. ص: 75-76.

(2) - ينظر: محمد شحرور: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة. الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سورية-دمشق، دط، دت، ص: 74

(3) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 77.

(4) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 74-76.

فَعِنْدَمَا يُورِدُ لَفْظَ "كِتَابٍ مُبِينٍ" فِي الْقُرْآنِ يَتَكَلَّمُ فِيهِ عَنِ جُزْئِيَّاتِ ظَوَاهِرِ الطَّبِيعَةِ، كَالْحَرَكَةِ المِيكَانِيكِيَّةِ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ وَالْمَوْجِعَ ﴿وَلَا حَبَّةَ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ﴾ وَالْحَرَكَةَ الكِيمِيَاءِيَّةِ ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾. هَذَا الْجُزْءُ وَالَّذِي سَمَّاهُ بِعِبَارَةِ "كِتَابٍ مُبِينٍ" فِيهِ التَّصْرِيفُ وَالتَّغْيِيرُ وَهُوَ مَنَاطُ التَّدْخُلِ الإِلَهِيِّ وَفَقًّا لِلنَّوَامِيسِ الكَوْنِيَّةِ الَّتِي ارْتَضَاهَا وَقَرَّرَهَا، وَمَنَاطُ الدُّعَاءِ، وَهُوَ أَيْضًا مَنَاطُ الْعُلُومِ كُلِّهَا الطَّبِّ الْعَلَّكَ الفِيزِيَاءِ الكِيمِيَاءِ... مَا عَدَا الفَلَسَفَةَ وَالتَّارِيخَ (1).

- أفعال الإنسان الواعية: وهو ما نُسِمِيهِ القَصَصَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الرَّتِلَآءِ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿يوسف: 1-3﴾. فَقَدْ أَشَارَ إِلَى أَنَّ تَتَبَعَ أَفْعَالِ الْإِنْسَانِ الْمَسْجَلَةَ عَلَيْهِ بَعْدَ وَقُوعِهَا يَتَمُّ فِي ﴿إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ لِيُمَيِّزَهُ عَنِ ﴿لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿يس: 12﴾، وَقَدْ أوردَ مِنْهُ أَحْدَاثًا مُتَكَامِلَةً لِتَتَبَعَ تَطَوُّرَ التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ، وَتَطَوُّرَ الْمَعَارِفِ فِي النُّبُوَاتِ وَالتَّشْرِيحِ فِي الرِّسَالَاتِ، أَي كَيْفَ تَفَاعَلَ الْإِنْسَانُ مَعَ الْقَانُونِ الْعَامِّ لِلْوُجُودِ وَالْقَوَانِينِ الْجُزْئِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ، وَكَيْفَ تَفَاعَلَ مَعَ الرِّسَالَاتِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى (2).

وعليه، فَإِنَّ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ يَتَأَلَّفُ مِنْ مَوْضُوعَيْنِ رَئِيسِيَيْنِ مَوْضُوعٌ ثَابِتٌ وَآخَرٌ مُتَغَيِّرٌ وَذَلِكَ لِكُونِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الإِلَهِيَّةِ «مُوجَّهَةً إِلَى الْمُجْتَمَعَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ قَاطِبَةً عِبْرَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَهِيَ رِسَالَةٌ خَاتَمَةٌ لَمَّا قَبْلَهَا كَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَتَّصِفَ بِصِفَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ نَفْسَهُ مِنْ حَيْثُ الثَّبَاتِ وَالتَّغْيِيرِ، وَتَحْقُقِ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ بِنْيَةِ التَّشْرِيحِ الاجْتِمَاعِيِّ لِلرِّسَالَةِ عَنِ التَّشْرِيحَاتِ السَّابِقَةِ. إِذْ كَانَتْ الرِّسَالَاتُ السَّابِقَةُ عَيْنِيَّةً فِي تَشْرِيحِهَا وَزَمَكَانِيَّةً فِي تَوْجُّهِهَا، أَمَّا الرِّسَالَةُ الْكَامِلَةُ الْجَامِعَةُ فَلَقَدْ نَزَلَتْ ابْتِدَاءً إِنْسَانِيَّةً عَامِلِيَّةً مُتَجَاوِزَةً فِي خِطَابِهَا الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ لِتَسْتَوْعِبَ كُلَّ الْأَمَكِنَةِ مَعَ اخْتِلَافِ الْمُجْتَمَعَاتِ وَتَطَوُّرِهَا» (3). وَفِي مَا يَأْتِي سَنَفَصِّلُ فِي مُمَيِّزَاتِ الصِّيَاغَةِ اللُّغَوِيَّةِ لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ الَّتِي انْفَرَدَ بِهَا عَنِ بَقِيَّةِ الرِّسَالَاتِ السَّابِقَةِ، وَفِي خِصَائِصِهِ الْأَسْلُوبِيَّةِ الْمُعْجِزَةِ الَّتِي تَحَدَّى بِهَا الْعَرَبُ.

(1) - ينظر: محمد شحرور: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة. ص: 74-75.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 75-76.

(3) - سامر إسلامبولي: ظاهرة النص القرآني تاريخ ومعاصرة. الأوائل للنشر والتوزيع سورية، دمشق، ط1، 2002م، ص: 146.

## ثانياً: النظام اللغوي للنص القرآني

لقد جاء القرآن الكريم بكلّ نظامٍ «يَكْفُلُ للبشرية الحياة السعيدة المطمئنة في الدنيا والآخرة، فكان النظام التشريعي والنظام الاجتماعي والنظام الاقتصادي. ومن تلك الأنظمة أيضاً النظام اللغوي، فاللغة في كلِّ أمة هي البوتقة التي تصبُّ فيها حضارة تلك الأمة وثقافتها ومعرفتها»<sup>(1)</sup>. وإن كان مفهوم النظام اللغوي في عُرف اللسانيات الحديثة هو «المهيكل العام، أو البناء الذي تندرج تحت كلياته الجزئيات أو العناصر أو الظواهر اللغوية»<sup>(2)</sup> (\*)، فإنَّ النظام اللغوي للنصِّ القرآني يملكُ خصوصيةً يتفرد بها عن الأساليب الأخرى، ويحفظه من الدخيل والاختلاف واللحن، فهو يهدف إلى الغايات السامية والحكم الإلهية بالإضافة إلى الأسرار الفنية والجمالية، وهو ليس مقصوداً لذاته بقدر ما هو المنهاج الصحيح لتدبر القرآن والوقوف على مقصديته لكونه بعيداً عن كلِّ اعتبارٍ، فهو وجهٌ إعجازي<sup>(3)</sup>.

وإذا كانت اللغة عبارة عن نظامٍ من الرموز «للدلالة على المعاني الموجودة في ذهن المتكلم، فإنَّ القرآن الكريم بلغ حدَّ الكمال في التعبير عن مُراد الله، سواء في الألفاظ أو النظم»<sup>(4)</sup>. وقد أكدَّ عبد القاهر الجرجاني أنَّ الإعجازَ إنما هو في النظم والتأليف وهو «توحي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم»<sup>(5)</sup>، وبين الإمام الخطابي الإعجازَ بقوله: «وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظٌ حاملٌ ومعنى به قائمٌ، ورابطٌ لهما ناطقٌ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدَّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه»<sup>(6)</sup>.

(1) - فهد محمد الشعابي الحارثي: الأتصال اللغوي في القرآن الكريم: دراسة تأصيلية في المفاهيم والمهارات. منتدى المعارف، بيروت - لبنان، ط1، 2014م، ص: 12.

(2) - عبد الرحمن بودرع: مفهوم كلمة نظام. منتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية. www.m-a-arabia.com  
 (\*) - «لقد قامت نظرية فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure في دراسته للغة على نهج لساني جديد مفاده النظر إلى اللغة باعتبارها نظاماً من الدوال، أو العلامات اللغوية في مقابل المدلولات، وتترابط هذه العلامات فيما بينها في نسيج من العلاقات المنظمة، لا يتفرد فيها عنصر من غيره من العناصر داخل هذا النظام، فإذا خرج عنصر من هذا النسيج الجامع أو النظام والبناء، ولم تكن له علاقة بغيره من العناصر، فقد قيمته الحقيقية، وقد شبه دي سوسير علاقة العنصر بباقي العناصر داخل النسيج اللغوي العام برقعة الشطرنج، حيث تستمد كل قطعة من قطع الشطرنج قيمتها من موقعها الذي تحتله على رقعة الشطرنج». www.m-a-arabia.com

(3) - ينظر: يوسف يوسف: النظام اللغوي في القرآن الكريم مقارنة قسدية سورة الكهف أنموذجاً. أطروحة دكتوراه في اللغة والأدب العربي، جامعة وهران، الجزائر، 2013-2014م، ص: 257. وينظر: حسن منديل حسن العكيلي: النظام اللغوي للقرآن الكريم في دراسات القدامى والمعاصرين، موقع محمد سعيد ربيع الغامدي www.mohamedrabee.com

(4) - عبد الوهاب محمود إبراهيم حنايشة: التفكير وتنميته في ضوء القرآن الكريم. أطروحة ماجستير في أصول الدين، جامعة النجاح الوطنية، نابلس فلسطين، 2009م، ص: 34.

(5) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. تحقيق: محمد رضوان الداية وفايز الداية، دار الفكر دمشق، سورية، ط1، 1428هـ/2007م، ص: 375.

(6) - الخطابي (أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم): بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، ص: 27.

وإنَّ كانت اللُّغة ظاهراً اجتماعيةً (social Phenomenon)، لها قواعدها وأصولها التي يبتدعها المجتمع أو يُوفَّق إليها لتلبية احتياجاته اليومية؛ فهي على المستوى الإبداعي (منظومة): (System) تتحقَّق فيه التَّركيب (Syntax): نحواً (Grammar) وصرفاً (Morphology) واستعارةً (Metaphor) وصوتاً (Phoneme)، تتفاوتُ مُستوى وقيمةً بحسبِ حُطُوطِ المُبدعين من الدَّراية والحساسة حتى يصلُ المستوى في القرآن الكريم إلى الجدارة بوصفِ (الإعجاز) الذي يمكن إثباته والإقناع به بواسطة الدرس اللُّغوي التحليلي البياني المعلَّل. أو فيما أمكن إثباته والإدهاش به بواسطة مناهج موضوعية أخرى: علمية وجدلية وتأمليّة كونيّة شتى<sup>(1)</sup>. فالنَّظام اللُّغوي للنَّصِّ القرآني يُبنى على تعلق بعضه ببعض في المستويات كافة: الصَّوتية والصَّرْفية والتَّحويلية والبلاغية والدَّلالية يقول الباحث عالم سبيط النيلي: « إنَّ في القرآن نظاماً مُحكمً شديد الصَّرامة، مُنتشرٌ في جميع أجزائه، بحيثُ أنَّ اللَّفظَ -مفردة كان أو حرفاً- والترتيب أو التسلسل المعين للألفاظ في كلِّ تركيبٍ هو جزءٌ من هذا النَّظام، والخطأ في تصوُّر شيءٍ منه في أيِّ موضعٍ يُؤدي إلى الخطأ في تصوُّر فروعٍ كثيرةٍ مُتصلةٍ بذلك الموضوع. فالعبارة الأصحُّ ليس قولنا "إنَّ في القرآن نظاماً مُحكمًا" بل "القرآن هو بداتُه نظامٌ مُحكمٌ"<sup>(2)</sup>.

كما أنَّ هذا النَّظام « يجعل النَّصَّ القرآني نصّاً مفتوحاً يحمل معنىً مُتحرِّكاً يُوافق حركة التَّاريخ وتحوُّلات الفكر الإنساني في مُختلف العصور، يُناسب المتغيَّرات الزمانيَّة والمكانيَّة، على الباحث تدبُّره والانطلاق منه في دراسة لغة القرآن الكريم "العربية" وظواهرها المختلفة»<sup>(3)</sup>. فهذا النَّظام اللُّغوي هو من أسباب حفظ القرآن منذ نُزوله وإلى يومنا هذا من غير تغيُّر أو تطوُّر لفظي في نصِّه، فاللفظ ثابتٌ والمعنى متحرِّكٌ، وهو أيضاً من أهمِّ وجوه إعجاز القرآن، ذلك أنَّ نظامه اللُّغوي يشبه نظام الكون المبني على التشابه والترابط أيضاً، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:40] وهو دليل على أنَّ خالق الكون هو قائل القرآن الكريم، وهذا إثبات علمي لمعجزة نبينا الكريم محمد ﷺ<sup>(4)</sup>.

فالقرآن الكريم يعرض النَّظم اللُّغوي «أو تلك الأنظمة الداخليَّة العميقة، بأسلوبٍ بليغٍ ومؤثِّر، على أنَّ ثنائيَّة الكَشْفِ والعَرَضِ تلك، هي الأخرى تجري على وفق نظامٍ لِسانيٍّ، لا يتعارض بموجبه جمال العَرَضِ مع الغاية الكامنة وراء تَكُونِ المعروض، أي لا يتعارض بموجبه النَّظام الحارِجي

(1) - ينظر: أمين الرباط وعبد الحكيم العبد: بعض وجوه الإعجاز في القرآن والسنة في ضوء علم اللسانيات وبلاغة الخطاب، اللغة: بين الوظيفية والإبداعية "ظاهرة-نظرية-جمالية"، مركز اللغات والترجمة أكاديمية الفنون، مجلة فكر وإبداع، دت، ص: 11-12.

(2) - عالم سبيط النيلي: النظام القرآني مقدمة في المنهج اللفظي. مكتبة بلتو، بغداد، ط2، 2003م، ص: 22.

(3) - حسن العكيلي: النظام اللُّغوي للقرآن الكريم. [www.mohamedrabeea.com](http://www.mohamedrabeea.com)

(4) - ينظر: المرجع نفسه.

مع النظام الداخلي، سواءً فيما يتعلق بالقرآن نفسه من حيث هو كلمة والمراد منها، أي شكلاً ومعنى، أم فيما يتعلق بالقرآن المبين وما يُبينه، باعتبار أن القرآن هو النظام الداخلي للموجودات الشَّيْئِيَّةِ جَمِيعاً<sup>(1)</sup>. فإذا ما تدبَّرنا النظام اللغوي الداخلي العميق للنص القرآني حقَّ تدبُّره، لتمكُّنا من استلال النظام الداخلي الكائن في أنفسنا وفي الأشياء من حولنا، حياة أو موتاً، علقه أو عظاماً، جبلاً أو نهرًا، أرضاً أو سماءً.. وما استلال المعنى الكائن في الأشياء وفي الأنفس حينها، إلاَّ تحرير النظام من غلظة المادة وتُخونتها، على الوفق نفسه، الذي تُحرَّر بموجبه الطَّاقة من المادة، والرُّوح من الجسد، والنَّار من الشَّجر، والكهربائيَّة من الماء، والمغناطيسيَّة من المعدن، والنوويَّة من الذرَّة، والمعنى من اللَّفظ، والمجرَّد من المحسوس، والأعداد من الأشياء، والمعيَّار أو القيمة من الحادثة أو الواقعة... ففي النص القرآني خلاصة الكون وعلمه وتبيان كلِّ شيءٍ<sup>(2)</sup>.

فبم تتميز الصِّياغة اللغويَّة لهذا النصِّ المعجزِ مُقارنَةً بغيره من النصوصِ السَّماويَّة؟ وما هي أهم خصائص أسلوب النظم القرآني ولاسيما المتعلقة بموضوع البحث "الإعجاز العلمي"؟

### 1- مُمَيِّزَاتُ الصِّياغَةِ اللُّغويَّةِ لِلنَّصِّ القُرْآنِيِّ:

يتميز القرآن عن غيره من الكتبِ السَّماويَّةِ السَّابِقَةِ بأنَّه يجمعُ بين أمرين عَظِيمين: المنهج والمعجزة. فالمنهج يتمثل في الرِّسالة القرآنيَّة التي تدلُّ النَّاسَ على الطَّرِيق الذي يجبُ أن يَهْتَدُوا به لمعرفة الله فيتَّبِعُوهُ، ولقد كانت هذه وظيفة كلِّ الرِّسالاتِ السَّماويَّةِ السَّابِقَةِ كالإنجيل والزُّبور والتَّوراة. أمَّا المعجزة فقد أودعها الله في القرآن العظيم دون سائر الكتبِ المنزَّلة، وجعلها خالدةً مُستمرَّةً، يَسْتنبط منها كلُّ جيل بمقدار تفكُّره وتدبُّره للقرآن، كلُّ في مجاله وتخصُّصه، على خلاف الرِّسالاتِ السَّابِقَةِ الأخرى التي ارتسمت بالتَّاريخ والمكان والزَّمان. ولقد عبَّر القرآن الكريم عن كون معجزته في ماهيَّة الصِّياغة اللُّغويَّة للنصِّ القرآني، وبَيَّن الله تعالى هذه الحقيقة في القرآن الكريم من خلال ثلاثِ نقاطِ هامَّة؛ وهي:

أ- القرآنُ قولُ الله تعالى وكلامُهُ: فالكلامُ هو المعنى الكائنُ في الذات، والقولُ هو صياغةُ هذا المعنى في قالبٍ لغويٍّ، وذلك داخل هذه الذات، واللَّفْظُ هو إخراجُ الكلامِ المصنوعِ بقالبٍ لغويٍّ؛ أي هو إخراجُ القولِ من الذاتِ إلى الخارجِ في عالمِ الحسِّ والمادة. يقول تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:18] فالكلامُ ذاته يمكنُ صياغته في أكثر من قالبٍ لغويٍّ. فالقرآن هو كلام الله

(1) - عباس أمير: الإعجاز القرآني التبيان-التكون- القراءة. دار أسامة، الأردن-عمان، دط، دت، ص: 111.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 111.

تعالى، وهو أيضاً قوله، فالله تعالى هو من صاغ القرآن الكريم، وقد بين ذلك في أكثر من موضع في القرآن ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 68] وقوله: ﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 5]، ولذلك فالله تعالى يتحدّى الإنسان والجنّ على أن يأتوا بنصّ كالنصّ القرآني، يقول تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88]. بينما الكتب السماوية الأخرى هي كلام الله تعالى فقط وليست قوله. فالمعنى من الله تعالى، ولكنها من صياغة المخلوقات، فالتوراة صاغتها الملائكة، والإنجيل صاغه عيسى عليه السلام وبالتالي فصياغتها اللغوية تتناسب مع علم هذه المخلوقات ومع قدرتها على صياغة ما علمته، ولذلك لم يتحدّ الله البشر بأن يأتوا بنصّ مثل نصوص الكتب السماوية السابقة، ولم يبيّن لنا الله تعالى في القرآن الكريم أنّ الكتب السماوية الأخرى من قوله تعالى (1).

ب- انفراد القرآن بالتنزيل من عند الله تعالى: (من الفعل نزل)، في حين يشترك مع الكتب الأخرى كونه منزلاً من عند الله تعالى (من الفعل أنزل)، والفرق بين الإنزال والتنزيل هو: إنّ إنزال الأمر أو الشيء "من الفعل أنزل" من ساحة إلى ساحة، يعني تحوُّله بما يوافق قوانين الساحة التي أنزل إليها، لجعله مسخراً داخل إطار هذه الساحة. بينما تنزيل الأمر أو الشيء "من الفعل نزل" من ساحة إلى ساحة، لا يعني تحوُّلاً في ماهية المنزل، كما هو الحال في تحوّل ماهية المنزل، فالتنزيل يعني ثبات ماهية المنزل ما بين ساحتي التنزيل. فالقرآن انفراداً بالتنزيل من عند الله تعالى، وهناك الكثير من الآيات الكريمة التي تُبيّن ذلك، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان: 23]، فالقرآن الكريم كما هو دون أيّ تحوّل نزل من اللوح المحفوظ بصياغته التي صاغه الله تعالى بها، وهنا مكمّنٌ معجزته، وانفردّه عن باقي الكتب السماوية. فالكتب السماوية جميعها دون استثناء أنزلت من عند الله تعالى كونها مناهج عبادة، في الوقت الذي ينفرد فيه القرآن الكريم بالتنزيل من عند الله تعالى، كونه معجزةً ملتحمَةً بالمنهج، وفي النصّين القرآنيين التاليين أكبر دليل على ذلك (2): ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: 43]، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: 136].

(1) - ينظر: عدنان الرفاعي: المعجزة الكبرى "معجزة إحدى الكبر". دار الخير، دمشق-سوريا، ط1، 2006م، ص: 29-30.

(2) - ينظر: المرجع نفسه، ص: 31-33.

ج- انفراد القرآن بعمق التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى: فلما كانت صياغة القرآن الكريم من الله تعالى، وعلمه لا تُحيطُ به المخلوقات، ونهاية قدرته فوق حدود إدراكهم، كانت الدلالات التي يحملها النصُّ القرآني لا مُتناهية، ولا يُمكنُ للمخلوقات أن تُحيطَ بها، وقد بيّن الله جلّ علاه في كتابه هذه الحقيقة، يقول تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف: 109]، ويقول تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: 27]. فالقرآن الكريم يحملُ تبياناً لكلِّ شيءٍ في هذا الكون، يقول جلّ ثناؤه: ﴿ وَرَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: 89]. وعليه، فالقرآن الكريم ينفردُ بعمق التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى بينما باقي الكتب السماوية دلالاتها - كفكرٍ - محدودةٌ وضمن إطارٍ أزمنةٍ محدّدة. وذلك لأنَّ صياغة هذه الكتب من المخلوقات، وقدرة المخلوقات محدودة، فهذا يعني أنَّ الدلالات التي يحملها النصُّ في الكتب السماوية الأخرى محدودة<sup>(1)</sup>.

مما سبق يمكننا أن نُلخِّص مُميّزاتِ الصِّياغة اللُّغويّة للنصِّ القرآني والفرق بينه وبين الرِّسالاتِ السماويّة الأخرى في هذا الجدول:

الميزة	القرآن الكريم فقط	جميع الكتب السماوية
القول / الكلام	قول الله تعالى "صياغة المعنى في نصّ لغويّ من قبيل الله تعالى"	كلام الله تعالى "معنى من الله تعالى والصياغة من المخلوقات"
التنزيل / الإنزال	تنزيل من عند الله تعالى "نُباتُ حالة المُنزل"	إنزال من عند الله تعالى "تحوّل في ماهية المُنزل"
التأويل / الدلالات	عمق التأويل "الذي لا يعلمه إلا الله تعالى"	عمق الدلالات الظاهرة "الذي تُدرّكه المخلوقات"

إذًا، فالقرآن الكريم يمتاز عن الكتب السماوية الأخرى بكونه قول الله تعالى، ويشترك معها بكونه كلام الله تعالى، فلو لم يكن القرآن الكريم قول الله الذي صاغه سبحانه وتعالى مباشرة، صياغةً مُطلقةً تتعلّق بقدرته المطلقة على صياغة المعاني التي يعلمها علما مُطلقاً، لو لم يكن ذلك، لَمَا تحدّى الله تعالى الإنس والجنّ على أن يأتوا بنصّ من القرآن الكريم، ولَمَا كان القرآن الكريم مُعجزةً الرّسالة الخاتمة للبشريّة إلى قيام الساعة، حيث تلتحم المعجزة بالمنهج، في ذات النصّ القرآني<sup>(1)</sup>.

## 2- خصائص أسلوب النصّ القرآني:

يُعرّف أسلوب النصّ القرآني بأنّه: « الطريقتُ الخاصّة التي انفرد بها القرآن في إفادة المعاني بالألفاظ. وحول هذا المعنى ذكر محمد صادق الرّافعي أنّ القرآن إنّما ينفردُ بأسلوبه لأنّه ليس وضِعاً إنسانياً البتّة، ولو كان من وضع إنسانٍ لجا على طريقة تُشبه أسلوباً من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد»<sup>(2)</sup>.

ولقد جاء النصّ القرآني بأساليبٍ مُتنوّعة في « توجيهاته، ووجوه خطابه، نظراً لاختلاف المخاطبين في أحوالهم ومستوياتهم وتعدّد الأغراض التي تصدّر إليها والمواضيع التي عالجها والحقائق المختلفة التي كشف لهم عنها»<sup>(3)</sup>. لذا فالحديث عن خصائص الأسلوب القرآني لا يتسع لها المقام في مثل هذا البحث للإفاضة فيها وإنّما نُشيرُ إلى لمحاتٍ سريعة على البعض منها - ممّا لها صلة بمجال هذا البحث - والتي بما تتحقّق معرفة آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وإدراك مواطنها حيث يقول أحمد أبو الوفاء عبد الآخر: « ولا نتجاوز الحقيقة حين نقول: إنّ معرفة الإعجاز العلمي تقوّم أساساً على الأسلوب القرآني، ونستطيع أن نُقرّر بأنّ الإعجاز العلمي يُعرف من خلال الإعجاز البلاغي»<sup>(4)</sup>. لذا فمن أهمّ هذه الخصائص ما يأتي:

أ- السّياق القرآني: يُقصدُ بالسّياق القرآني الارتباط الذي يُوجدُ بين الآيات بما قبلها وبما بعدها، وترتيب مقاطعها وتسلّسل موضوعاتها ويكون مُرشداً على مواطن الإعجاز العلمي. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شَمَخَتْ وَأَسْفَيْنَا مَاءً فَرَاتًا ﴾ [المرسلات: 27]، فالحكمة في ترتيب

(1) - ينظر: عدنان الرفاعي: المعجزة الكبرى. ص: 51.  
(2) - سعيد إسماعيل علي: القرآن الكريم رؤية تربوية. دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1421هـ-2000م. ص: 159.  
(3) - المرجع نفسه. ص: 159.  
(4) - أحمد أبو الوفاء عبد الآخر، كارم السيد غنيم: المعجزة الخالدة "مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة"، ط1، 1426هـ-2005م، ص: 158.

سَقِيَا النَّاسِ المَاءَ بَعْدَ الجِبَالِ الشَّائِخَةِ ذَاتِ السُّطُوحِ البَارِدَةِ تَكَاثِفَ بِالتَّجْمَعِ وَبِالتَّبَرِيدِ، وَبِهَذَا الأَنْحَارِ الَّتِي تَمُدُّ النَّاسَ بِالمَاءِ العَذْبِ أَصْلُهَا مِنْ مِيَاهِ البَحَارِ المَالِحَةِ الَّتِي هِيَ مَصْدَرُ السَّحَابِ. وَجَاءَتْ كَلِمَةُ "فُرَاتًا" لِلتَّنْبِيهِ إِلَى نِعْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كَمَا أَنَّهُ بِمَفْهُومِ المَخَالَفَةِ، أَيِ "المَاءِ المَالِحِ" تَكْمُنُ الإِشَارَةُ العِلْمِيَّةُ إِلَى مَصْدَرِ السَّحَابِ، وَهُوَ مِيَاهُ البَحَارِ المَالِحَةِ<sup>(1)</sup>.

ب- مُخَاطَبَةُ العَامِّ وَالعَاصِ: فَالْقُرْآنُ الكَرِيمُ لَا يَعلُو عَن أَفْهَامِ العَامَّةِ وَلَا يَقْصُرُ عَن مَطَالِبِ الخَاصَّةِ، إِنَّهُ يُخَاطَبُ جَمِيعَ طَبَقَاتِ البَشَرِ، الصِّغَارَ وَالكِبَارَ، الذُّكُورَ وَالإِنَاثَ، العُلَمَاءَ وَالجُهْلَاءَ، الأَذْكَيَاءَ وَالأَغْبِيَاءَ، الرُّؤَسَاءَ وَالمُرُؤُوسِينَ، كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ التَّنَوُّعِيَّاتِ يَرِدُ مَوْرِدُ القُرْآنِ فَيَنْهَلُ مِنْهُ وَيَرَى فِيهِ مَطْلَبَهُ وَيُدْرِكُ مِنْ مَعَانِيهِ مَا يَكْفِيهِ، فَلَا يَصْدُرُ إِلاَّ وَقَدْ ارْتَوَى مِنْ هَذَا الوَحْيِ الإِلَهِيِّ العَظِيمِ<sup>(2)</sup>. فَالْقُرْآنُ الكَرِيمُ «إِذْ سَمِعَهُ العَامَّةُ فَهَمُّوا مِنْهُ عَلَى قَدْرِ اسْتِعْدَادِهِمْ -لِغَةِ وَفِكْرًا وَثِقَافَةً- وَنَالُوا مِنْهُ مَا يُرْضِي عُقُولَهُمْ وَيُريحُ نُفُوسَهُمْ... وَالخَاصَّةُ -مُتَقَفُونَ وَمُتَخَصِّصُونَ- إِذَا سَمِعُوا نَفْسَ الآيَاتِ، فَهَمُّوا مِنْهُ أَكْثَرَ. وَالمُتَخَصِّصُونَ فِي العُلُومِ الكَوْنِيَّةِ يُدْرِكُونَ المَعْطِيَّاتِ العِلْمِيَّةِ المَوْجُودَةَ بِآيَاتِ القُرْآنِ الكَوْنِيَّةِ، فَكَلِمَةُ "الأَرْضِ" إِذَا سَمِعَهَا العَامَّةُ فَهَمُّوا مِنْهَا انْبِسَاطُ الأَرْضِ، وَالمُتَخَصِّصُونَ يَفْهَمُونَ مِنْهَا كُرُوبِيَّةَ الأَرْضِ»<sup>(3)</sup>. فَهُوَ يَزْخَرُ بِالآيَاتِ الَّتِي يَفْهَمُهَا العَامُّ وَالخَاصُّ، بِسِرِّ مِنْ أَسْرَارِ الأَسْلُوبِ القُرْآنِيِّ وَتِلْكَ هِيَ الغَايَةُ القُصُوى. فَلِنَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خَلَقْتَهَا ﴿١٧﴾ وَإِلَى الأَسْمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سَطِحتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكَرْنَا إِنَّمَا أَنْتَ مُدَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: 17-22] فَهَذِهِ الآيَاتُ تَدْعُو العَامَّةَ إِلَى التَّأَمُّلِ فِيمَا خَلَقَ اللَّهُ لِمَعْرِفَةِ الخَالِقِ مِنْ جِهَةٍ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى نَحْتُ الخَاصَّةَ مِنَ العُلَمَاءِ إِلَى الارتفاعِ عَن تِلْكَ الدَّرَجَةِ لِمَعْرِفَةِ تِلْكَ المَخْلُوقَاتِ وَتَكْوِينِهَا، إِذْ تُعْرَفُ العُلَمَاءُ عَلَى عَجِيبِ خَلْقِ الجَمَلِ، وَالكَوْنِ وَسِعَتِهِ وَنِظَامِهِ الدَّقِيقِ وَالجِبَالِ وَأَهْمِيَّتِهَا فِي تَنْبِيهِ تَوَازَنِ الأَرْضِ وَهِيَ تَسْبِحُ فِي الفُضَاءِ<sup>(4)</sup>.

ج- مُخَاطَبَةُ العَقْلِ وَالعَاطِفَةِ مَعًا: فِي كُلِّ إنْسَانٍ قُوَّتَانِ؛ الأُولَى: قُوَّةُ تَفَكُّيرٍ تَعُوضُ بِأَحْتِثَةٍ عَنِ الحَقَائِقِ المُسْتَرَسَلَةِ وَالمَعَانِي البَاطِنَةِ. وَالثَّانِيَّةُ: قُوَّةُ عَاطِفَةٍ وَوَجْدَانٍ تَطْفُو تَبْحَثُ عَنِ الجَمَالِ الظَّاهِرِ فِي القَشْرَةِ البَادِيَةِ، وَالنَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ إِذَا أَنْ تَعُوضُ مَعَ تِلْكَ أَوْ تَطْفُو مَعَ هَذِهِ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعُوضُ أَوْ

(1) - ينظر: أحمد أبو الوفاء عبد الآخر، كارم السيد غنيم: المعجزة الخالدة. ص: 158-159.  
(2) - ينظر: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي: خصائص القرآن الكريم. ص: 34. وينظر: محمد شلبي شتيوي: من قضايا القرآن دراسة وتحليل. سلسلة مقارنة الأديان، النجدي للصف والإخراج التصويري، ط2، 1428هـ-2008م، ص: 61.  
(3) - أحمد أبو الوفاء عبد الآخر، كارم السيد غنيم: المعجزة الخالدة. ص: 158.  
(4) - ينظر: حليلة مدرس بوداود: معجزة حروف القرآن. دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران-الجزائر، دط، دت، ص: 176.

تطفو في آنٍ واحدٍ، أو لحظةٍ واحدةٍ. وهاتان الثُّمُوتَانِ عند أيِّ إنسانٍ كائناً من كان عالماً أو أديباً أو حكيماً لا يعملان إلاّ مُناوِبةً كُلِّمَا قَوِيَتْ وَاحِدَةٌ، اضمَحَلَّتِ الأخرى. فإنْ تكلَّم المتكلم ووفى بحقِّ العقلِ بخسِّ حقِّ العاطفة، وإنْ وفى حقَّ العاطفة بخسِّ حقِّ العقلِ، حتَّى بات النَّاسُ يُقسَمونَ الأساليبَ البَشَريَّةَ إلى نوعين لا ثالث لهما: أسلوبٌ علميٌّ، وأسلوبٌ أدبيٌّ. وقُسِّمَتِ الدِّرَاسَةُ في عُصُورِنَا هذِهِ إلى علميَّةٍ أو أدبيَّةٍ (1). فلا يُمكن أن نَظفرَ بِهَاتَيْنِ الثُّمُوتَيْنِ على السَّواءِ في كلامِ البَشَرِ وليست من سُنَنِ اللهِ في النَّفْسِ البَشَريَّةِ، بل « اختصَّ اللهُ بهذا في كتابه "القرآن الكريم" فجمع في آياتِهِ بل الآية الواحدة "قُوَّةَ الحَقِيقَةِ البُرْهَانِيَّةِ" حتَّى يُقنع بِحُجُجِهِ أربابَ دَفَائِقِ الحَقَائِقِ البَاطِنَةِ، و"قُوَّةَ المَنعَةِ الوِجْدَانِيَّةِ" حتَّى يشبع مُتذوقي القِشْرَةِ السَّطْحِيَّةِ للعبارة، فهو كلامُ اللهِ جَلَّ شأنه الذي لا يَشغُلُهُ شأنٌ عن شأنٍ، فهو القادر على أن يُخاطِبَ العقلَ والقلبَ معاً بِلِسَانٍ واحدٍ وأن يمزجَ الحقَّ والجَمالَ فلا يَبيغان، ويُخرجُ من بينهما شَرابَ خالصٍ سائِغٍ للشَّارِبِينَ» (2).

فها هي الآياتُ العِلْمِيَّةُ تُعرضُ حَقَائِقَ الكونِ وروعته ودقَّةَ قَوَانِينِهِ ونَظْمَهُ وانضباطَ أَجْرامِهِ واتِّساقَ أَجْزَائِهِ ومَجْرَآتِهِ، منظومةً في سِلكٍ واحدٍ، وواردةً في سِياقٍ واحدٍ مُؤتلفٍ مُتَشابِكٍ مُتعاضِدٍ متساندٍ لتؤدِّيَ دورها في الفِكرِ والوِجْدانِ، فترسي دَعَائِمَ اليقينِ بربِّ العالمينَ وعبادِهِ المرسلينَ والمُثولِ بين يديه يومَ القِيامَةِ (3). يقول اللهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٌ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ قِيلَ لَا مَا نَذَكَّرُوتَ ﴿٦٣﴾ [النمل: 60-61]. ولو تأملنا أسلوبَ هذه الآياتِ الكريمةِ لوجدناهُ يُفنعُ العقلَ، ويمتَعُ العاطفةَ في آنٍ واحدٍ.

د- سُمُوُّ الأُسْلُوبِ الْقُرْآنِيِّ فِي الأَعْرَاضِ العِلْمِيَّةِ: بما أَنَّ الأُسْلُوبَ العِلْمِيَّ لُغَةُ العَقْلِ المدقَّقِ، فإنَّنا نجدُ أُسْلُوبَ بُغَاءِ الكُتَّابِ حينَ يُعرضُ إلى بيانِ فِكرَةٍ عِلْمِيَّةٍ يَتَّجِهُ إلى العَقْلِ لِيُعْذِيهِ بالمَعْرِفَةِ، فتمتازُ عِبائِرُهُم عِنْدئذٍ بالتحديدِ والاستِثْفاءِ، وتعوَّلُ على المصطلحاتِ العِلْمِيَّةِ وتعمدُ إلى السُّهولةِ والإيضاحِ، لَذا يَحْسِرُ هذا الأُسْلُوبُ الجِزَالَةَ والفِخامةَ والقُوَّةَ والإثارةَ العاطفيَّةَ والأَنعامَ المؤثِّرةَ

(1) - ينظر: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي: خصائص القرآن الكريم. ص: 35-36.

(2) - المرجع نفسه. ص: 37.

(3) - ينظر: حسن ضياء الدين عتر: المعجزة الخالدة. دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط3، 1415هـ-1994م، ص: 2654.

الموحية. وقلما تجد فيه جمالاً فنياً أو استخلاصاً للعظات والعبير<sup>(1)</sup>.

بينما القرآن الكريم حين يعرض إلى بيان فكرة علمية يظل أسلوبه في المنزلة العليا فصاحة وبلاغة، فحين نقرأ مثلاً نصاً تشريعياً منه، نجد خالياً من جفاف الأسلوب العلمي أو جموده، إذ تبدى في القرآن براعة الصياغة التشريعية المرهفة المهادفة، فنعجز عن استبدال كلمة بأخرى أو تقديم فقرة على أخرى، فهو يربط الحكم التشريعي بالوجدان الديني ربطاً وثيقاً عميق الإيحاء قوي التأثير، ويثبثك من خلاله نفحة روحية سامية، تحفز همتك عن التزام حكم الله والسعي لمرضاته. وتجد النص متصلاً مترابط الأحكام لا ينتقل من مسألة إلى أخرى إلا بعد استيفاء حكمها التشريعي، فلا يعود إلى الإشارة إليها إلا لانتصال جديد وثيق معها. ومع أن العرض التشريعي غرض مرهف حساس دقيق يحرفه لفظ واحد عن مجراه المقصود، فإن القرآن العظيم يهرك بالجمع البارع بين الدقة التشريعية والجمال الأدبي الفذ على نحو فريد<sup>(2)</sup>.

نحو ذلك هذا النص التشريعي الذي تحدث فيه عن شأن مالي هو الدين والزهن، قال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُكُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بِيحْسٍ مِنْهُ شَيْءًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: 282].

حيث نلاحظ دقة الصياغة وتساوق النغم مع الفكرة التشريعية وتسلسلها إلى الخاطر. ففي قوله مثلاً:

﴿تَدَايَنُكُمْ بِدِينٍ﴾ فإننا لا نستطيع أن نستغني عن كلمة ﴿بِدِينٍ﴾ لأن الضمير سيعود عليها بعد قليل ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ فوجودها في مكانها في النص ضرورة حساسة. ويتجلى التأثير الوجداني قوياً محرّضاً، فقد أمر الله الكاتب أن يكتب دون إباء أو تلوّك؛ طالما أن الله منّ عليه ووفقه لتعلم الكتابة وأصول تدوين الحقوق، فليكن وفيّاً لفضل الله عليه وليلبّ من طلب إليه أن يكتب له. ثم أخذ الله بناصر الضعيف وهو المدين وجعله سيّد الموقف فلا يُستضعف ولا يُهضم حقه: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وحفظاً بذلك حقّ الدائن، لأن الإملاء من المدين إقرار صريح بالحق المترتب عليه دون لبس أو احتمال. وبعد أن جعل سلطة الإملاء للمدين حمّله المسؤولية كثيراً في قلبه هيبة الله ليستشعر جلاله وعظمته ويستذكر حسابه، فيكون ذلك حافزاً قوياً يحفزه على الصدق والأمانة؛ وذلك بقوله:

(1) - ينظر: حسن ضياء الدين عتر: المعجزة الخالدة. ص: 267.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 267-268.

﴿وَلَيْتَاقَ اللَّهِ رَبَّهُ، وَلَا يَبْحَسُ مِنْهُ شَيْئًا﴾ وفي ذلك حكمة تشريعية إلهية ظاهرة<sup>(1)</sup>.

هـ- دِقَّةُ اللَّفْظِ الْقُرْآنِيِّ فِي التَّعْبِيرِ الْعِلْمِيِّ: يرى ابن رشيقي: "أَنَّ اللَّفْظَ جِسْمٌ وَرُوحَهُ الْمَعْنَى، وارتباطه كارتباط الروح بالجسم، فيضعف بضعفه ويقوى بقوته". فالألفاظ أوعية المعاني لذا لا بد لها أن تكون قوية في الإيحاء والتصوير والتشخيص، بانتقائها وتجنب تنافرهما ووضعها في موضعها بدقة<sup>(2)</sup>. ولقد «كان القرآن آية في وضع اللفظ موضعه اللائق به بما يغوص فيه المفكر ويستنبط ما استطاع من أحكام ومن دُررٍ فتفوق وارتقى الأسلوب بالنظر إلى ما تميّز به عن أساليب البشر، منها الدقة في اللفظ، والدقة في وضعه، والدقة في اختياره والدقة في الوصف، والدقة في المعنى وفي التناسق والتصوير»<sup>(3)</sup>. ولنا مثال في دقة وضع اللفظ في القرآن الكريم وأهميته في تحديد المعنى وفي الفهم العلمي للنص القرآني. قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الحجر: 22]، فلقد ثبت علمياً أن الرياح تقوم بتلقيح السحاب بما يجعلها تمطر. والمفتاح اللفظي البياني لفهم هذه الحقيقة الكونية هو "فاء السببية". وهكذا يكون دقة وضع اللفظ في كل جزء من النص القرآني ولو على مستوى الحرف أهميته في تلمس الإشارات العلمية<sup>(4)</sup>.

و- ثراء المعاني وتعدد الأفهام للآية الواحدة: فمن المميزات التي ينفرد بها القرآن الكريم أن الآية الواحدة منه لها وجوه متعددة، وجمال متجدد، وأحكام كلها صحيحة. ففي كل قراءة وكل تمنع وتفكر وتدبر تكشف حكماً أو قضية أو فكرة جديدة، والقرآن في هذا كله لا تناقض في أفكاره ولا خلل في بيانه، ولا تضارب في أحكامه لأنه كتاب أحكام آياته من لدن حكيم خبير<sup>(5)</sup>. وفي سعة القرآن الكريم وثراء معناه وقابليته لتعدد الأفهام من غير تعارض يقول الإمام سهل بن عبد الله التستري: «لو أعطيت العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم، لم يبلغ نهاية ما أودعه في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفتة، وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه»<sup>(6)</sup>، فإذا قرأنا نصاً قرآنياً، نراه واضح المعنى، وإذا أمعنا النظر فيه لأحت منه معاني جديدة، ولهذا فإن الآيات القرآنية التي تناولت الكونيات نزلت محملة بفيض من

(1) - ينظر: ينظر: حسن ضياء الدين عتر: المعجزة الخالدة. ص: 268-269.

(2) - ينظر: حليلة مدرس بوداود: معجزة حروف القرآن. ص: 77.

(3) - المرجع نفسه. ص: 78.

(4) - ينظر: أحمد أبو الوفاء، كارم السيد غنيم: المعجزة الخالدة. ص: 160

(5) - ينظر: محمد شلبي شتيوي: من قضايا القرآن دراسة وتحليل. ص: 63.

(6) - الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله): البرهان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة-مصر، ط3، 1404هـ-1984م، 9/1.

الأسرار التي تنكشف تباعاً بحسب ما يظهر من نتائج، وبحسب ما ينتج عنها من اكتشافات. ومثال ذلك قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ مَهْدًا ۖ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبا: 6-7]، فعند مطابفة المعنى الوارد في التفسير تراه مقتضياً ولا يخرج من المعنى اللغوي. وعند قراءة العلماء المتخصصون لهاتين الآيتين وتدبرهم في الكلمتين: "مهّاداً"، و"أوتاداً"، يستخرجون منهما أيضاً من المعارف الكونية، ويجدون فيهما الكثير من الحقائق العلمية<sup>(1)</sup>.

### ثالثاً: التفكير العلمي في النص القرآني

لقد خلق الله - سبحانه وتعالى - الإنسان وكرّمه وميّزه عن سائر خلقه من الكائنات الأخرى بأن وهبه من نعمة العقل، ومن قدرة على التفكير تمكّنه من النظر والبحث في الأشياء والأحداث، واستخلاص الكليات من الجزئيات، واستنباط النتائج من المقدمات. فعملية التفكير يتوصّل الإنسان إلى معلومات جديدة تُضاف إلى ذخيرة معلوماته السابقة. ويقوم الإنسان بصفة مستمرة بعملية تنظيم المعلومات القديمة، يستعيدّها في ذاكرته، ويتخيّلها ويُقارن بعضها ببعض، ويُنظّمها بطريقة جديدة تُساعده على اكتشاف معلومات وحقائق جديدة، وهذا هو أساس تطوّر البحث العلمي خلال عصور التاريخ المختلفة، وسبب ما يحدث من تقدّم مستمرّ في العلوم النظرية والتطبيقية<sup>(2)</sup>. فالتفكير يرتبط بمصالح الناس المختلفة التي تربطهم بالبيئة، وبالتفكير نحلّ صورة الواقع، كما تُحدّد خواصّ الأشياء والظواهر، كما أنّه بالتفكير يعرف الإنسان حقيقة الأشياء فيؤثّر فيها ويُطوّرها. ومن هنا كان التفكير ضرورة إنسانية لا غنى للإنسان عنه منذ بدء خلقه إلى أن يقضي الله أمره ويتهيئ الوجود<sup>(3)</sup>.

#### 1- مفهوم التفكير العلمي:

إذا ما نظرنا إلى المفهوم اللغوي للفظ "تفكير" نجد أنّ المعاجم اللغوية تناولت تعريفات عديدة له تحت مادّة "ف ك ر" و فيما يأتي عرض لبعض التعريفات:

جاء في معجم مقاييس اللغة: «الفاء والكاف والراء تردّد القلب في الشّيء، يقال: تفكّر إذا

(1) - ينظر: أحمد أبو الوفاء، كارم السيد غنيم: المعجزة الخالدة. ص: 160-159.  
(2) - ينظر: محمّد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس. دار الشروق، القاهرة- مصر، ط7، 1421هـ/2001م، ص: 137.  
(3) - ينظر: نايف حامد همام الشريف: التربية الإسلامية وقضية التفكير العلمي. رسالة دكتوراه في الأصول الإسلامية للتربية، جامعة أم القرى، السعودية، 1411هـ/1990م. ص: 22.

رَدَّدَ قَلْبَهُ مُعْتَبِرًا»<sup>(1)</sup>. وفي لسان العرب: «الفَكْرُ [بالفتح] والفِكْرُ [بالكسر]: إِعْمَالُ الحَاظِرِ فِي الشَّيْءِ»<sup>(2)</sup>. وفي الصَّحاح يقول الجوهري: «التَّفَكُّرُ: التَّأْمُلُ. والاسم: الفِكْرُ والفِكْرَةُ، والمصدر: الفَكْرُ بالفتح [...] وأفَكَّرَ فِي الشَّيْءِ وفَكَّرَ فِيهِ وَتَفَكَّرَ: بِمَعْنَى، وَرَجُلٌ فَكِّيرٌ، مِثَالُ فِسِّيْقٍ: كَثِيرٌ التَّفَكُّرِ»<sup>(3)</sup>. وفي المعجم الوسيط: التَّفَكِيرُ: إِعْمَالُ العَقْلِ فِي مُشْكَلَةٍ لِلتَّوَصُّلِ إِلَى حَلِّهَا. والفِكْرُ: إِعْمَالُ العَقْلِ فِي المَعْلُومِ لِلتَّوَصُّلِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَجْهُولٍ، والفِكْرَةُ والفِكْرُ الصُّورَةُ الذَّهْنِيَّةُ لِأَمْرٍ مَا<sup>(4)</sup>. وفي المفردات في غريب القرآن يقول الأصفهاني: «الفِكْرَةُ: قُوَّةٌ مُطْرَقَةٌ لِلْعِلْمِ إِلَى المَعْلُومِ. والتَّفَكُّرُ جَوْلَانٌ تِلْكَ القُوَّةُ بِحَسَبِ نَظَرِ العَقْلِ. وَذَلِكَ لِلإِنْسَانِ دُونَ الحَيَوَانَ، وَلَا يُقَالُ إِلَّا فِيمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَحْضُرَ لَهُ صُورَةٌ فِي القَلْبِ، وَهَذَا رُوي: "تَفَكَّرُوا فِي آيَةِ اللَّهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ؛ إِذْ كَانَ اللَّهُ مُنْزَهًا أَنْ يُوصَفَ بِصُورَةٍ"»<sup>(5)</sup>. فَمفهوم التَّفَكِيرِ فِي المَعَامِجِ اللُّغَوِيَّةِ العَرَبِيَّةِ جَاءَ بِمَعْنَى التَّأْمُلِ، إِعْمَالِ الحَاظِرِ، إِعْمَالِ العَقْلِ، تَرَدُّدِ القَلْبِ... وَذَلِكَ التَّأْمُلُ وَإِعْمَالُ العَقْلِ إِنَّمَا يَكُونُ مَوْجَّهًا نَحْوَ أَمْرٍ مَعَيَّنٍ كالتَّأْمُلِ فِي شَيْءٍ أَوْ فَهْمٍ مَعْنَى مَا أَوْ كَحَلِّ مُشْكَلَةٍ، أَوْ مَعْرِفَةِ وَاكتشافِ مَجْهُولٍ.

أَمَّا التَّفَكِيرُ فِي اصْطِلَاحِ العُلَمَاءِ فَقَدْ تَعَدَّدَتْ وَتَبَايَنْتْ تَعْرِيفَاتُهُ، فَكُلُّ يَعْرِفُهُ مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرُهُ

بِحَسَبِ مَجَالِ تَخْصُّصِهِ، وَفِي مَا يَأْتِي سَنَعْرُضُ عَدَدًا مِنْهَا:

عَرَفَهُ مُحَمَّدٌ المَجَالِي بِقَوْلِهِ: «التَّفَكْرُ هُوَ تَفَاعُلٌ مُسْتَمَرٌّ فِي العَقْلِ الإِنْسَانِيِّ، يُصَوِّرُ رُؤْيً وَمَشَاهِدَ وَحِوَارًا لَا صَوْتٍ لَهُ إِلَّا فِي الوجودِ الدَّاخِلِيِّ لِلفَرْدِ، وَمَرَجِعُ التَّفَكِيرِ الرَّئِيسُ هُوَ العَقْلُ الَّذِي وَهَبَهُ اللَّهُ لِلإِنْسَانِ تَتَوَقَّدُ مَلَكَةُ التَّفَكِيرِ لَدَيْهِ دُونَ انْقِطَاعِ لِحِظَةٍ وَاحِدَةٍ، مِنْذُ الحَيَاةِ وَحَتَّى المَوْتِ»<sup>(6)</sup>. وَعَرَفَهُ "بَارْتَلِيْت" بِقَوْلِهِ: «أَنَّ التَّفَكِيرَ هُوَ عَمَلِيَّةٌ تَوْسِيعُ الدَّلِيلِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي يُبَلِّغُهُ بِحَيْثُ يَتِمُّ مَلَأُ الفَحْجَاتِ فِيهِ؛ وَيَتِمُّ هَذَا بِالانتقالِ مِنْ خُطُواتٍ مُتتَابِعَةٍ مُتْرَابِطَةٍ يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهَا آتِيًا، أَوْ فِيمَا بَعْدَ»<sup>(7)</sup>. كَمَا عَرَفَهُ "جِرَوَان" بِقَوْلِهِ: «التَّفَكِيرُ فِي أبْسَطِ تَعْرِيفٍ لَهُ عِبَارَةٌ عَنِ سِلْسِلَةِ مِنَ النِّشَاطَاتِ

(1) - ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا): معجم مقاييس اللغة. تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، مصر، (دط)، 1399هـ / 1979م، 4/446. مادة: (ف ك ر).  
(2) - ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب. طبعة جديدة محققة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، دط، 65/5. مادة: (ف ك ر).  
(3) - الجوهري (اسماعيل بن حماد): الصحاح - تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط 4، 1990م، 783/2. مادة: (ف ك ر).  
(4) - ينظر: المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية. مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط 4، 1425هـ - 2004م، ص: 698.  
(5) - الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسن بن محمد): المفردات في غريب القرآن. مكتبة نزار مصطفى الباز، دط، 497-496/2.  
(6) - محمد خازر المجالي: مصطلح "التفكير" كما جاء في القرآن الكريم - دراسة موضوعية. مجلة الشريعة والقانون، العدد 23، ربيع الأول 1426هـ - مايو 2005م، ص: 34.  
(7) - عبد الكريم بكار: فصول في التفكير الموضوعي منطلقات ومواقف. دار القلم، دمشق - سورية، ط 5، 1429هـ - 2008م، ص: 13.

العقلية التي يقوم بها الدماغ عندما يتعرّض لمثير يتمُّ استقباله عن طريق واحدٍ أو أكثر من الحواس الخمسة [...] والتفكير بمعناه الواسع عملية بحث عن معنى في الموقف أو الخبرة. وقد يكون هذا المعنى ظاهراً حيناً وغامضاً حيناً آخر، ويتطلب التوصل إليه تأملاً وإمعان نظراً في مكونات الموقف أو الخبرة التي يمرُّ بها الفرد. ولذلك فهو يتضمن استكشافاً وتجريباً، ونتائجه غير مضمونة»<sup>(1)</sup>.

ولقد قام "سامر إسلامبولي" بتحليل معنى مصطلح "التفكير" من خلال دلالات حروفه كما يأتي<sup>(2)</sup>:

- 1- بذل الجهد في تحصيل المعلومات، عن الشيء المعني بالدراسة، وهذا دلالة حرف "التاء".
  - 2- ضمُّ المعلومات إلى بعضها، بصورة متجانسة مع عدم القطع بصوابها وحفظ خط الرجعة "الفاء".
  - 3- التوقف والتأكد من المعلومات، وعدم استبعاد أي معلومات متعلقة بالموضوع "الكاف".
  - 4- أخذ الوقت الكافي للدراسة، ومراجعة النتائج، وعلاقتها بالمقدمات "الياء".
  - 5- الالتزام بالأمر الأربعة، بصورة مستمرة ومكررة، وعدم الوقوف أبداً "الراء".
- ثم وصل إلى هذا التعريف قائلاً: «التفكير هو استكمالاً للمعرفة الناقصة، وتحليل وتركيب، واستنتاج واستقراء، واستنباط، واستنبات للمجهول من المعلوم، لمعالجة الحاضر والتحكم بالمستقبل»<sup>(3)</sup>.

مما سبق من تعريفات يتضح أن "التفكير" نشاط عقلي، يحدث حين مواجهة مشكلة أو معرفتها أو حلها، ويتمُّ عبر خطوات متتالية مترابطة منسجمة، وهذا هو التفكير الفعّال. وهناك تفكير غير فعّال وهو: «التفكير السطحي الذي يهتمُّ بالظاهر ويفشل في الاستفادة من الخبرات والمعلومات السابقة، ويعجز عن البحث والتحري عن المعلومة. ويميل صاحب التفكير السطحي إلى تصديق ما يسمع أو يرى دون فحص أو تمحيص»<sup>(4)</sup>. ومنه فالتفكير ينقسم إلى نوعين تفكير فعّال وتفكير غير فعّال والذي يهتُّنا من هذه الدراسة هو التفكير الفعّال وهو المقصود به التفكير العلمي.

وفي تعريف التفكير العلمي يرى بعض الباحثين:

أنه: «بمجموعة من المبادئ التي تُوجّه العلماء عند البحث عن المعرفة، ويميل آخرون إلى النظر

(1) - فتحي عبد الرحمن جروان: تعليم التفكير مفاهيم وتطبيقات. دار الفكر، عمان-الأردن، ط3 (مزيدة ومنقحة)، 1428هـ/2007م، ص: 40.

(2) - ينظر: سامر إسلامبولي: دراسة في الروح والنفس والتفكير. تقديم: جودت سعيد وندرة البازجي، دط، دت، ص: 161.

(3) - المرجع نفسه، ص: 162.

(4) - موقع جامعة الملك عبد العزيز <http://www.kau.edu.sa>

إلى عمليّة التّفكير العِلْمِيِّ على أنّها: مجموعة من الخطوات المتسلسلة التي تقود إلى حلّ المشكلة»<sup>(1)</sup>. ويرى عبد الكريم بكار أنّ التّفكير العِلْمِيِّ هو وَحْدَهُ التّفكير المجدي الذي يمكّننا من الاستنتاج من المقدمات والوقائع؛ وقد عرّف على أنّه نشاط عقلي هادف مرّ يتصرّف بشكل مُنظّم في محاولةٍ لحلّ المشكلات، وتفسير الظواهر المختلفة والتنبؤ بها والحكم عليها باستخدام منهجٍ مُعيّن يتناولها بالملاحظة الدّقيقة والتّحليل؛ وقد يُخضعها للتّجريب في محاولةٍ للوصول إلى قوانين ونظريات<sup>(2)</sup>.

وقد عرّف التّفكير العِلْمِيِّ في القرآن بأنّه: «إعمال العقل من أجل اكتشاف حقيقة مجهولة، أو البرهنة على حقيقة موجودة، مما يتعلّق بأمر الدّنيا والآخرة، في خطوات علميّة، منطقيّة مقصودة، منظمّة، مدروسة، مُحاطة بالتّوجيه الرّباني في قواعد كليّة، أو إجراءات تفصيليّة، سواء كان مجال التّفكير هي العلوم الشرعيّة أم الإنسانيّة أم الطبيعيّة، وسواء كان ميدانه الغيب<sup>(\*)</sup> أم الشّهادة»<sup>(3)</sup>. فلا يُوجد في القرآن الكريم إلّا وصفٌ واحد للتّفكير وهو أنّه "علمي" منطقي، مُنضبط، مقنّع، قائم على توجيهات ربّانيّة تُحدّد مساره، وترسم طريقه، ليصل إلى نتائج صحيحة فيما يتناوله من قضايا. لذا فقد وُصف التّفكير العِلْمِيِّ في القرآن الكريم بـ "العلمي" ليُفرك بينه وبين التّفكير العشوائي<sup>(4)</sup>.

والتّفكير العِلْمِيِّ في القرآن ينقسم إلى نوعين تفكّر في الدّليل القرآني وتفكّر في الدّليل العياني، يقول الإمام ابن القيم: «التّفكير في القرآن نوعان: تفكّر فيه ليقع على مُراد الرّب تعالى منه. وتفكّر في معاني ما دعا عباده إلى التّفكير فيه. فالأوّل تفكّر في الدّليل القرآني، والثاني تفكّر في الدّليل العياني. فالأوّل تفكّر في آياته المسموعة، والثاني تفكّر في آياته المشهودة، ولهذا أنزل الله القرآن ليُتدبّر ويُتفكّر فيه ويُعمل به، لا مجرد التّلاوة مع الإعراض عنه»<sup>(5)</sup>.

لقد حتّى الله تعالى الإنسان على التّفكير في كتابه الكريم وآياته المتلوّة وتدبّرها، وفهم المراد منها، يقول الله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]، وقوله: ﴿أَفَلَا

(1) - عبد الكريم بكار: فصول في التّفكير الموضوعي منطقات ومواقف. ص: 41.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 14.

(\*) - يقصد الباحث بالغيّب هنا، ما غاب عن حواس الإنسان، ممّا هو موجود في عالم الشّهادة، حتّى يُكشّف.

(3) - خليل بن عبد الله بن عبد الرحمن الحدري: منهجية التّفكير العِلْمِيِّ في القرآن الكريم وتطبيقاتها التربويّة في المؤسسات الجامعيّة المعاصرة "تصور مقترح". رسالة دكتوراه في الأصول الإسلاميّة للتربية، جامعة أم القرى، السعودية، 1422هـ، ص: 63.

(4) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 64.

(5) - ابن القيم الجوزية (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب): مفتاح دار السعادة ومنتشور ولاية العلم والإرادة. تحقيق: عبد الرحمن بن حسن قائد، دار علم الفوائد، دط، دت، 536/1-537.

يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿ [محمد: 24]، وغير ذلك من الآيات. يقول الزركشي: «القرآن كله لم ينزله منزله تعالى إلا ليُفَقِّهَهُ وَيُعَلِّمَهُ، ولذلك خاطب به أولي الألباب الذين يعقلون والذين يعلمون، والذين يفقهون، والذين يتفكرون، ليدبروا آياته ويتذكروا أولو الألباب»<sup>(1)</sup>.

كما حثَّ اللهُ تعالى الإنسانَ التَّفَكِيرَ فِي كِتَابِ الْكَوْنِ الْمَفْتُوحِ وَآيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ أَوْ الْمُرْتِيَةِ فِي الْآفَاقِ وَالْأَنْفُسِ. يقول اللهُ تعالى: ﴿ سَأُزَيِّجُهُمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ نَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿ [فصلت: 53]، وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنْفَكُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ۗ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿ [الروم: 8]، وقوله: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿ ٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿ ٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿ [الطارق: 5-7]، فهذه الآيات وأمثالها دعوة صريحة إلى التَّفَكِيرِ فِي الْكَوْنِ، والنَّظَرِ فِي الظُّوَاهِرِ الْكُونِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ، وتأمُّلِ بَدِيعِ صَنْعِهِ، ومُحْكَمِ نِظَامِهِ. فقد حثَّ اللهُ تعالى الإنسانَ على الملاحظة والتَّفَكِيرِ وَالبَحْثِ وَتَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَمَعْرِفَةِ سُنَنِ اللَّهِ وَقَوَائِينِهِ فِي جَمِيعِ مِيَادِينِ الْعُلُومِ الْمُخْتَلِفَةِ. ولم يحث القرآن الإنسانَ على التَّفَكِيرِ وَالبَحْثِ الْعِلْمِيِّ فِي الظُّوَاهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ فَقَطْ، وَإِنَّمَا حَثَّهُ أَيْضًا عَلَى التَّفَكِيرِ فِي نَفْسِهِ، فِي أَسْرَارِ تَكْوِينِهِ الْبَيُولُوجِيِّ وَالنَّفْسِيِّ. وهو بذلك يدعوه إلى ارتياد ميادين العلوم البيولوجية والفسولوجية والطبيعية والنفسية<sup>(2)</sup>.

لقد زخر النُّصُ القُرْآنِيَّةُ بِالآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى مَكَانَةِ التَّفَكِيرِ؛ وَالقرآن لم يستعمل "العقل" بصيغة الاسم الجامد، وإنما استعمل مشتقاته الفعلية: "تَعْقِلُونَ" ثلاث وعشرون " 23" مرة، يَعْقِلُونَ اثنتان وعشرون " 22" مرة، عَقَلُوهُ مرة واحدة، يَعْقِلُهَا مرة واحدة، نَعْقِلُ مرة واحدة. من مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿ [الأنفال: 22]، وقوله تعالى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ [آل عمران: 118]، وقوله تعالى: ﴿ أَنْظَمْعُونَ أَنْ يَوْمَسُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ، مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿ [البقرة: 75]، وقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿ [العنكبوت: 43].

إنَّ هَذَا الْإِغْفَالَ لِلْفِظِ الْعَقْلِ، وَالْإِقْتِصَارَ عَلَى مُشْتَقَاتِهِ الْفِعْلِيَّةِ يُلْمَحُ إِلَى أَنَّ الْقُرْآنَ نَاطِرٌ إِلَى الْعَقْلِ بِاعْتِبَارِهِ قُوَّةَ نَفْسِيَّةٍ، وَوَضِيفَةَ حَيَوِيَّةٍ، يَنْبَغِي أَنْ تُسْتَثْمَرَ فِي حَلِّهَا، لِتُؤَدِّيَ دَوْرَهَا الْمُنَوِّطَ بِهَا،

(1) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن. 145/2.

(2) - ينظر: محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس. ص: 137-139.

والذي اعتبره الإسلام حكماً عادلاً، ومرجعاً لا يُختلف في حجّيته، ولا يُستتاب في نتائجه<sup>(1)</sup>.

لقد ورد مصطلح التّفكّر في القرآن الكريم ثماني عشرة "18" مرة، يتّفكّرون إحدى عشر "11" مرة، تتّفكّرون ثلاث "3" مرّات، يتّفكّروا مرتين، تتّفكّروا مرّة واحدة، فكّر مرّة واحدة، وردّت « في سور متعدّدة، وسياقات مختلفة، وموضوعاتٍ فرعيّةٍ متنوّعة، يجمعها في العموم الحاجة إلى عمق التّفكير الموصل إلى الأمر الذي يُريده الله تعالى، لا مجرد الوقوف عند الحواس، كالسمع والبصر والعقل، أو مجرد التّدكر»<sup>(2)</sup>. و« إنّ التّفكير في الاستخدام القرآني، لم يأت -أيضاً- بصيغة الاسم وإنما أتى بصيغة الفعل "فكّر، تتّفكّرون، يتّفكّرون"؛ وذلك ليدلّ على أنّ التّفكير هو فعل، وليس مجرد صفة يمتلكها الإنسان، فالمفكر قيمته الحقيقيّة في عمليّة تفكيره، وما يصدر عنه من أفكار، فإذا انتفى عنه الجانب العملي فقدّ الجانب النظري قيمته»<sup>(3)</sup>.

كما دعا الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم الناس دعوةً صريحة إلى التّفكير والتأمّل وترويج طريق العلم، وأكد على ذلك في مواطن عدّة. ومن ذلك، قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَأَحَدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [سبأ: 46]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 50]، وقوله جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: 8].

وقد ورد للتّفكير في القرآن الكريم معانٍ متقاربة، منها: التّدكر والنظر والاعتبار والتّدبر والاستبصار، يقول عبّاس محمود العقاد: « فالقرآن الكريم يعبر عنه بكلمات متعدّدة تشترك في المعنى أحياناً وينفرد بعضها بمعناه على حسب السّياق في أحيانٍ أخرى. فهو الفكر والنظر والبصر والتّدبر والاعتبار والذكر والعلم وسائر هذه الملكات الذهنية التي تتفق أحياناً في المدلول ولكنها لا تُستفاد من كلمة واحدة تعني عن سائر الكلمات الأخرى»<sup>(4)</sup>.

جدير بالذكر أنّ الفارئ والمتأمّل لآيات الله يُلاحظ أنّ لفظ "التّدبر" استخدم في القرآن الكريم للآيات الشرعيّة في المصحف الشريف، أمّا لفظ "التّفكّر" فقد استخدم في أغلب الآيات

(1) - ينظر: محمد بكر نوفل، فريال محمد أبو عواد: التفكير والبحث العلمي. دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 1431هـ-2010م، ص: 20-21.

(2) - محمد خازر المجالي: مصطلح "التفكير" كما جاء في القرآن الكريم-دراسة موضوعية. ص: 22.

(3) - سامر إسلامبولي: دراسة في الروح والنفس والتفكير. ص: 160.

(4) - عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلاميّة. نهضة مصر للطباعة، القاهرة، دط، ص: 9.

القرآنيّة لآيات الكونيّة مثل السّماء، والأرض، والليل والنّهار، الجنّات، الأنهار، الجبال، الرياح (1). «فإنّ التّدبّر» الذي هو المنهج الرّباني لقراءة القرآن؛ يُحيل الإنسان على "التّفكير" الذي هو المنهج الرّباني لقراءة الكون، فيكون كلّ متدبّر للقرآن مُتفكراً في الكون، فتقرأ - بقراءة القرآن - كلّ آيات الله المنظورة والمقرّوءة سواء (2). فالتّدبّر والتّفكير كلاهما، يُعدّان بمثابة الضّوء المسلّط على الأشياء، فيكشف التّدبّر حقائق الآيات القرآنيّة، ويكشف التّفكير حقائق الآيات الكونيّة.

إذا فالتّدبر نوع من التّفكير ومن العجيب أنّه جاء مُقترنا بالقرآن، كما في: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]، وقوله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]، فالله لا يُريدنا أن نقف عند ظاهر النصّ فقط، بل بالتّفكير إلى درجة التّدبر والوصول إلى دُبر النصّ، بمعنى التعمّق في مدلولاته والوقوف على ما أمكن من لؤلؤه ووجوه هدايته (3).

في فائدة التّدبر والتّفكير يقول ابن القيم: «وكلٌّ من التّدبر والتّفكير له فائدة غير فائدة الآخر. فالتّدبر يفيد تَكَرُّر القلب على ما عمله وعرفه ليرسخ فيه ويثبت، ولا يتمحي فيذهب أثره من القلب جملة. والتّفكير يفيد تَكَثِير العلم واستحلاب ما ليس حاصلاً عند القلب. فالتّفكير يحصّله والتّدبر يحفظه. ولهذا قال الحسن: ما زال أهل العلم يعودون بالتّدبر على التّفكير، وبالتّفكير على التّدبر، ويُنَاطِقُونَ القلوب حتى نَطَقَتْ بالحكمة. فالتّفكير والتّدبر يَدَارِ العِلْمَ، وسَقِيَهُ مطارحته، ومُذَاكَرته تَلْقِيحُهُ كما قال بعض السّلف: ملاقاتُ الرّجال تَلْقِيحٌ لألبابها. فالمذاكرة بها لِقَاحُ العَقْلِ» (4).

وعليه، فلاهميّة الفكر ولِعَظَم شأنه وضرورته أعطاه القرآن المكانة العالية الفدّة الرّفيعة، وهذا ما جعل زُواد وعُلماء وزهّاد أمثال الحسن البصري يقولون في فضله: "تفكر ساعة خير من قيام ليلة". ومن كلام الشافعي: "استعينوا على الكلام بالصّمت، وعلى الاستنباط بالفكر" (5). ويقول الغزالي: «إنّ الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العُلوم ومصيّدة المعارف والفهوم» (6).

- (1) - ينظر: محمد بكر نوفل و فريال محمد أبو عواد: التفكير والبحث العلمي. ص: 21.
- (2) - فريد الأنصاري: بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إِبصار آيات الطريق. دار السلام، القاهرة-مصر، ط1، 1430هـ-2009م، ص: 44-45.
- (3) - ينظر: محمد خازر المجالي: مصطلح "التفكير" كما جاء في القرآن الكريم-دراسة موضوعية. ص: 36-37.
- (4) - ابن القيم الجوزية: مفتاح دار السعادة و منشور ولاية العلم والإرادة. 526-525/1.
- (5) - ينظر: يوسف القرضاوي: العقل والعلم في القرآن الكريم. مكتبة وهبة، القاهرة-مصر. ط1، 1416هـ-1996م، ص: 45-46.
- (6) - أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين. دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط1، 1426هـ/2005م، ص: 1798.

هذا عن فضل الفكر أمّا عن ثمرته فقد جاء في الإحياء: أن ثمره الفكر هي العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة، وإذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح، والفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، لأنه الذي ينقل من المكاره إلى المحاب، ويهدي إلى استئثار العلوم ونتائج المعارف والفوائد<sup>(1)</sup>. فكما اهتم القرآن الكريم بالدعوة إلى التفكير والتأكيد على ذلك، اهتم بثمرة التفكير وهو العلم والمعرفة في مواضع مختلفة وسياقات عديدة منه. وفيما يأتي سنتعرف أكثر عن مجالات التفكير العلمي وخطواته في النصُّ القرآني.

## 2- مجالات التفكير العلمي:

إن مجالات التفكير العلمي في القرآن الكريم شاملة لكل من مجال العلوم الشرعية "الدينية" ومجال العلوم الإنسانية "الاجتماعية"، ومجال العلوم الطبيعية "التطبيقية". ويتفرع عن كل مجال من هذه المجالات العلمية علوم كثيرة متخصصة، وفي ما يأتي توضيح ذلك:

### أ- مجال العلوم الإنسانية "الاجتماعية": إن هذا المجال المعرفي يدور حول محورين أساسيين:

الأول: التعرف على الطبيعة البشرية من حيث سماتها وخصائصها وحالاتها وأطوارها وهذا ما تركز عليه الدراسات النفسية. والثاني: التعرف على المناشط الاجتماعية للإنسان في علاقاته المختلفة، وتشكيلات تلك العلاقات وأنساقها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها وهي محط اهتمام العلوم الاجتماعية المختلفة. وهناك من قسم العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى عدة فروع منها: علم الاجتماع، وعلم الإنسان، وعلم السياسة، والاقتصاد، والتاريخ، والجغرافيا، وعلم النفس<sup>(2)</sup>.

ولا يشكُّ متأمل لكتاب الله، ما اشتمل عليه «من حديث عن النفس الإنسانية من حيث تكوينها، وأحوالها، وغاياتها، وطرائق تهذيبها وتركيبها، وكيف تتكوّن المجتمعات المثالية في الأرض، وما هي دعائم تكوينها وبنائها، وما هي عوامل دمارها وانهارها»<sup>(3)</sup>. ونحو ذلك قوله تعالى في التفكير في

نفس الإنسانية: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 20-21]، وقوله:

(1) - ينظر: أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين. ص: 1801-1802. ومحمد خازر المجالي: مصطلح "التفكير" كما جاء في القرآن الكريم- دراسة موضوعية. ص: 31.

(2) - ينظر: نايف حامد همام الشريف: التربية الإسلامية وقضية التفكير العلمي. ص: 216. وينظر: خليل بن عبد الله بن عبد الرحمن الحدري: منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم. ص: 87.

(3) - خليل بن عبد الله بن عبد الرحمن الحدري: منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم. ص: 87.

﴿ أَوْلَمْ يَنْفَكُرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ۗ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ﴾ [الروم: 8]، وقوله: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: 7-10]. ومن الآيات التي تدعو إلى التفكر في الظواهر الاجتماعية قوله تعالى: ﴿ أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ أَن تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعْفَاءٌ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: 266]، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطٰكُمْ بِوٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ وِفْرَادٍ ۖ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: 46].

ب- مجال العلوم الطبيعية "التطبيقية": إن العلوم الطبيعية والتطبيقية هي: « العلوم المتعلقة بتيسير أمور الناس على ظهر هذه الأرض، وهي قاسم مشترك بين الأمم والشعوب، والمعرفة فيها تراكمية، يُبنى فيها الآخر على الأول، ويفيد فيها المتأخر من المتقدم «(1). ومن هذه العلوم: علم الطب والصيدلة، علم الفلك، علم الفيزياء، علم الكيمياء... وقد دَعَا القرآن في آياتٍ عديدةٍ إلى التفكير في الكون وما يحتوي من سماء وأرض وليل ونهار وجبال وبحار وأثمار، أشجار وثمار وحيوانات وطيور وغيرها من كائنات ومخلوقات، ومن تلك الآيات قوله: ﴿ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَارًا ۗ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا يُغْشَىٰ الْأُتْرَاقَ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: 3]، وقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۗ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجنات: 13].

ج- مجال العلوم الشرعية "الدينية": إن المهمة الكبرى التي خلق الإنسان من أجلها هي عبادة الله تعالى، وفي طليعة هذه العبادة إقامة الشعائر الدينية، وهي الأصل لتحقيق مفهوم العبودية لله تعالى، لذا لا بد أن تقوم على أسس علمية منطقية واعية حينما تعرض الحق على الناس من جهة، وتبين لهم بطلان الباطل من جهة أخرى.

والقرآن يدعو إلى إعمال العقل والتفكير في الآيات التي تُبين الحكمة من التشريع، وذلك للتأكد على تلك المنهجية العلمية الواعية، التي تجمع وتحلل وتستنبط وتعمم، وقد جاءت بنية العلوم الشرعية، وما يتعلق بها من علوم أخرى وفق تلك المنهجية المنضبطة في فقهها الأكبر والأصغر، فقه

(1) - خليل بن عبد الله بن عبد الرحمن الحدري: منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم. ص: 71.

العقيدة وفقه العبادة (1). وقد جاءت الدعوة إلى التفكير العلمي في القضايا الشرعية والحكمة من التشريع في آيات قرآنية كثيرة نذكر منها: قوله في الطلاق: ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿[البقرة: 241-242]. وفي الصوم يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿[البقرة: 183-187].

الملاحظ أنَّ هذه الآيات وغيرها قد ربطت بين عرض القضية الشرعية وبين أعمال العقل والتفكير لاستنباط الأحكام الشرعية ومعرفة الحكمة من التشريع، فيكون ذلك مُنطلقاً لرسم الطريق الصحيح لحياة الناس وممارساتهم اليومية، ومواجهة التغيرات التي قد تطرأ عليهم في كل المجالات والشؤون المختلفة.

في الأخير يجدر بنا أن نُذكر أنَّ هـلابدَّ للتفكير العلمي من خطوات منظمة يصل بها الإنسان إلى فهم ما يدور حوله من أحداثٍ وظواهر طبيعية واجتماعية مختلفة، مما يؤدي به إلى التوصل إلى قرارات معينة أو حقائق مُحددة أو استنتاجات تتعلق بفهم تلك الظواهر وإدراك الغاية من وجودها.

تتبلور أبرز خطوات التفكير العلمي والتي تُؤدي في النهاية إلى الوصول إلى نتائج وثمرات العلم في الآتي (2):

- 1- جمع الحقائق التي تتصل بموضوع مُعيَّن ومراقبة الظواهر التي تتعلق به وتدوينها.
- 2- وصف الحقائق التي تم جمعها أو وصف الموضوع الذي يدرسه.
- 3- التحليل لمعرفة كنه الأشياء وحقيقتها.
- 4- التبويب والتقسيم حسب الخواص والمميزات.
- 5- شرح الظواهر الطبيعية أو الحقائق التي تعرض له.

(1) - ينظر: خليل بن عبد الله بن عبد الرحمن الحديري: منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم. ص: 66.  
(2) - ينظر: نايف حامد همام الشريف: التربية الإسلامية وقضية التفكير العلمي. ص: 78.

## رابعاً: العَلاقةُ بَينَ اللُّغةِ وَالتَّفَكِيرِ العِلْمِيِّ

## 1- / أهِمِّيَّةُ اللُّغةِ فِي التَّفَكِيرِ:

تعدُّ اللُّغةُ أَدَاةَ الإنسانِ الرئيْسيَّةَ في التَّواصلِ وَالتَّعبيرِ، وَوسيلتهِ الأُوْلَى في التَّفَكِيرِ وَالتَّعليمِ. فَللُّغةِ وَظيفَتَيْنِ الأُوْلَى هي حَامِلُ الفِكرِ وَالوَظيفةُ الثَّانيةُ هي التَّواصلُ بَينَ مُتكلِّمٍ وَمُخاطَبٍ. حيثَ يَرى عالمُ النَّفسِ فيجوتسكي vygotsky « أَنَّ لِلُّغةِ وَظيفَتَيْنِ مُستقلَّتَيْنِ: الاتِّصالُ "الخارجي" مع الأُترابِ مِنَ بَنِي البَشَرِ، وَمَا يُعَادِلُ هَذَا في الأهِمِّيَّةِ مِنَ الاستِخدامِ "الدَّاحلي" لِأفكارِ المرءِ. إِنَّ مُعجزةَ الإدراكِ البَشَريِّ هي أَنَّ كلاً مِنَ هَذَيْنِ النِّظَامَيْنِ يَستخدِمَانِ نفسَ الشَّفرةِ اللُّغَوِيَّةِ وَمِن ثَمَّ يُمكنُ تَرجمةُ الوَاحِدِ مِنْهَا إلى الأَخرِ بِدرجةٍ مَا مِنَ التَّحَاجِ»<sup>(1)</sup>.

تَظْهَرُ أَهمِّيَّةُ اللُّغةِ كَوسيلةٍ لِلتَّفَكِيرِ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا بِاعتبارِها أُوْلَى: أَلْفَاظٌ مُعبَرةٌ عَنْهُ؛ « فَالأَلْفَاظُ نَفْسُهَا وَحَدَاتُ دَلَالِيَّةٍ تَواصِلِيَّةٍ تُطابِقُ مَا يُقابِلُهَا مِنَ المَعَانِي وَالتَّصَوُّراتِ وَالأَحكامِ، فَاللُّغةُ أَلْفَاظٌ تُقابِلُهَا مَدلولَاتُ، وَمِنْهُمَا يَكُونُ الفِكرُ المُنطَبِقُ مِنَ البِئْئَةِ وَالوَاقِعِ وَالتَّصَوُّرِ، فَاللُّغةُ عِبارةٌ عَنِ رَموزٍ وَتَحدِيدَاتٍ لِوَاقِعِ تَواصِلِيٍّ، وَحَقائِقُ لَفْظِيَّةٍ تُطابِقُ مَعَانِيهَا، لِأَنَّ التَّفَكِيرَ يُؤَلِّفُ الصُّورَ العَقْلِيَّةَ وَالعَمَلِيَّاتِ الدَّهْنِيَّةَ»<sup>(2)</sup>. وَثانِيًا: بِاعتبارِها رُموزًا لِلمَفاهِيمِ؛ « الَّتِي هِيَ مِنَ أَهمِّ مَكُوناتِ التَّفَكِيرِ، فَالإنسانُ يُفَكِّرُ مِنَ خِلالِ المَفاهِيمِ وَالمَعَانِي الكَلِمِيَّةِ، وَهَذَا مَا جَعَلَ الإنسانَ قَادِرًا عَلى تَناولِ جَميعِ الأَشياءِ فِي تَفَكِيرِهِ بِطَريقةٍ رَمزِيَّةٍ، فَهُوَ يَستطيعُ عَنِ طَريقِ اللُّغةِ أَنْ يَميِّزَ بَينَ المَفاهِيمِ وَيُقارِنَ بَينَها، كَمَا يَستطيعُ اكتِشافَ العَلاقاتِ الَّتِي تُربُطُها، وَالمَبادِئُ وَالقَوانِينِ الَّتِي تُحكِّمُها، وَهَذَا مَا سَاعَدَ عَلى سُرعةِ البَحْثِ العِلْمِيِّ وَتَقَدُّمِهِ»<sup>(3)</sup>. إِذَا « فَاللُّغةُ، بِاعتبارِها رُموزًا لِلمَفاهِيمِ، قَد مَكَّنتِ الإنسانَ مِنَ تَناولِ جَميعِ المَفاهِيمِ فِي تَفَكِيرِهِ بِطَريقةٍ رَمزِيَّةٍ، مِمَّا سَاعَدَهُ عَلى أَنْ يُحَقِّقَ مَا حَقَّقَهُ مِنَ تَقَدُّمِ هائلٍ فِي اكتِسابِ المَعْرِفَةِ وَتَحْصِيلِ العُلومِ وَالصَّناعاتِ المَختلِفةِ»<sup>(4)</sup>.

أيضًا من أهمية اللغة في الفكر أنَّها تمثِّلُ بعددًا رمزيًّا يُميِّزُ إنسانًا من إنسان، ومنها يَتميِّزُ فِكرَ المجموعاتِ البَشَريَّةِ، وَهي الوِعاءُ الَّذِي يَنمو بِهِ هَذَا الفِكرُ، وَيحفظُ هَذَا التَّميِّزُ، وَالوسيلةُ الَّتِي يَنْتِجُ بِها العِلْمُ وَالمَعْرِفَةُ. وَهَذَا مَا جَعَلَهَا مَحَلَّ اِهتمامِ عُلَماءِ الاجْتِماعِ، وَاللِّسانِيَّاتِ، وَالإعلامِ، وَالاقتصادِ، وَالسِّياسةِ، عَلى حَدِّ سِواءٍ. وَجَعَلَ مِنْهَا مَدَارَ الإِصلاحاتِ وَلاسيماَ التَّعليمِ، وَبِناءِ القِيَمِ، وَإعدادِ

(1) - جوديث جرين: التفكير واللغة. ترجمة وتقديم: عبد الرحيم جبر. الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1992م، ص114.

(2) - مهدي صالح سلطان: في المصطلح ولغة العلم. كلية الآداب-جامعة بغداد، بغداد، 2012م، ص:10.

(3) - عبد الوهاب محمود إبراهيم حنايشة: التفكير وتنميته في ضوء القرآن الكريم. ص: 31-32.

(4) - محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس. ص: 158.

إنسان المستقبل في كلِّ البلدان... فوظيفةُ اللُّغةِ أبعد من التَّواصل الذي اتَّفَقَ عليه أهلُ الاختصاصِ، فلهذا الفضلُ الكبيرُ في تبادلِ المعلوماتِ بين البَشَرِ، وتحقيقِ الحاجاتِ والرَّغباتِ الاجتماعيَّةِ<sup>(1)</sup>.

فسيَّرُ تقدُّمُ المجتمعاتِ البشريَّةِ وتطوُّرها وجودُ اللُّغةِ، فمن خلالِ استخدامِ اللُّغةِ في مجالاتِ التَّفكيرِ والتَّعبيرِ والاتِّصالِ، وكذلك في مجالاتِ التَّعليمِ والتَّعلُّمِ والحِفظِ والنَّقْلِ، استطاعَ الإنسانُ أن يرتقي حضارياً في شتَّى مناحي الحياة، فاللُّغةُ لم تقتصر على أن تكون أداة نقل وتسجيل للحياة والأفكارِ، بل إنَّها ساعدت على نُمو الفكرِ ورقي الحَيَاةِ<sup>(2)</sup>. يقول فهد الحارثي: «أنَّ اللُّغةَ «وعاء الحضارة والثَّقافة والعِلْمِ، تحفظُها استماعاً أو كتابةً، وتنقلها للأجيالِ رِوايةً أو قراءةً، فهي الخِزَانة التي تحفظُ للأُمَّةِ عقائدها الدينيَّةَ، وراثتها الثَّقافيَّةَ، ونشاطاتها العلميَّةَ... - بل - هي ذاكرةُ الإنسانيَّةِ وواسطةُ نقلِ الأفكارِ من الآباءِ إلى الأبناءِ، ومن الأسلافِ إلى الأُحفادِ»<sup>(3)</sup>.

ومن مَهامِ اللُّغةِ أيضاً تحديدهُ طبيعةِ التَّفكيرِ، فبها تُطَبِّعُ خصائصُ تفكيرِ أهلها، والقائلون بهذه النَّظريَّةِ متأثِّرون بالنزعةِ الاجتماعيَّةِ، التي تدَّعي أنَّ المجتمعَ يصنعُ فكرَ أفرادِهِ، فلا تَفكيرٍ ولا لُغةَ من دُونِ مُجتمعٍ؛ ووُجودها بوجوده ولن تكون اللُّغةُ من دُونِ مُجتمعٍ، يقول سايبير: «لو أننا ألغينا المُجتمعَ، وأبقينا الإنسانَ وحيداً، في أحضانِ هذه الطبيعة؛ فإنه سيَمشي لا مُحالةً عند بلوغهِ السَّنِّ المناسبِ لذلك، على فَرَضِ أنَّ الحَيَاةَ بلا مُجتمعٍ مُمكنةٌ، ولكنَّه لن يتكلم، أي لن يتعلَّم كيف يُوصل ما يدور في نفسه إلى العالمِ الخارجِي، طبقاً للنَّظامِ التَّقليدي المصطلح عليه كذلك في كلِّ المجتمعاتِ، والذي يُسمى الكلامِ»<sup>(4)</sup>.

وعلى تعريفِ ابنِ جنِّي فإنَّها -اللُّغةُ-: «أصواتٌ يُعبَّرُ بها كُلُّ قَوْمٍ عَن أغراضِهِمْ»<sup>(5)</sup>؛ «وفي هذا التَّعريفِ بيانٌ للوظيفةِ الاجتماعيَّةِ للُّغةِ التي تجمَعُ القومَ أو الفئمةَ من الفئاتِ الاجتماعيَّةِ على استعمالِ معيَّنٍ للُّغةِ، يميِّزهم عن غيرهم، ويناسبُ الاهتماماتِ المعينيَّةِ التي يجمعهم، أو المهنيَّةِ المشتركةِ بينهم، فتؤدِّي باللُّغةِ تلكَ الأغراضِ، فالأطباءُ مثلاً يستخدمون اللُّغةَ لتبادلِ المعلوماتِ الطبيَّةِ فيما بينهم، فتتأثَّرُ لغتهم بطبيعةِ مهنتهم، وتُصَبِّحُ لهم خصوصياتٍ لغويَّةَ تُميِّزها عن اللُّغةِ العامَّةِ، في المستوياتِ الصوتيَّةِ والصرفيَّةِ والنحويَّةِ التركيبيَّةِ والدلاليَّةِ. ويكتسبُ أهلُ المهنةِ لغتهم الخاصَّةَ في أثناء

(1) - ينظر: مهدي صالح سلطان: في المصطلح ولغة العلم. ص: 21.

(2) - ينظر: فهد محمد الشعابي الحارثي: الاتصال اللغوي في القرآن الكريم. ص 38

(3) - المرجع نفسه. ص 38.

(4) - ينظر: مهدي صالح سلطان: في المصطلح ولغة العلم. ص: 7.

(5) - ابن جنِّي (أبو الفتح عثمان): الخصائص. تحقيق محمد علي النجار. دار الكتب المصرية، مصر، (د ط)، 33/1.

تدربهم على المهنة ومزاوتها، ليتمكنوا من التواصل بسهولة مع بقية أبناء المهنة»<sup>(1)</sup>.

كما تُعدُّ اللغة منطلق الفكر نفسه وذلك لأنها تُتيح للفكر تكوين القضايا في صياغة صحيحة دالة على مستويات متعددة؛ فعندما يقع الاختلاف في الأفكار والآراء فقد يكون الباعث على هذا الاختلاف في الغالب خلافاً في استعمال اللغة أو توجيه الدلالة؛ وقد يكون الاختلاف منهجياً وقد يكون موضوعياً، ولكن للغة دور مهم في تعميق هذا الخلاف بين الآراء<sup>(2)</sup>.

وعليه، فالذي يُحدّد أهمية اللغة، وحاجة الإنسان إليها في الحياة الاجتماعية، « هو أنّها وسيلة للتفكير، ولا يمكن للإنسان أن يفكر إلا من خلالها فاللغة أم التفكير، وما كان للمعرفة أن تأتي إلى حيز الوجود من دون اللغة... وقد استطاعت الأبحاث اللغوية أن تقرّر أنّ الفرد يكتسب من اللغة طرق التفكير الشائعة في المجتمع الذي نما فيه، وأنّ اكتساب اللغة اكتساب بالضرورة لطرق التفكير»<sup>(3)</sup>.

## 2 - أثر التفكير في اللغة:

إنّ الإنسان يحتاج إلى اللغة في كلّ عملياته العقلية، فهو يستخدمها في التخيل والتذكر والتفقه، والتدبر، كما يربط خبراته الماضية بحاضره، ويستنتج من كلّ ذلك ما يجب عليه أن يفعله في مواجهة ما يعترضه من مشكلات، وما التفكير إلا استخدام للرموز من خلال العمليات العقلية المختلفة.

وتأثير الفكر في اللغة تأثير متبادل، فالتفكير يُطوّر اللغة ويُقيّمها لتكون قادرة على استيعاب هذا الفكر المتطور، فالفكر البشري لا يقف عند حدّ وهو يسعى دائماً إلى الكمال، وهو يحتاج في مسيرته إلى لغة سامية تُعبّر عنه كما أنّ اللغة عامِل مُهم في تنظيم التفكير وتيسيره وتوضيحه<sup>(4)</sup>. « فاللغة والفكر توأمان، فلا فكر بدون لغة، ولا لغة بدون فكر، لأنّ اللغة مُرتبطة بالحياة ومُتولّدة عنها، سواء أكانت منطوقة أو مكتوبة، فاللغة مادّة التعبير اللفظي والكتابي.. وإنّ أحدنا عاطلٌ من الفكر إن لم تكن له لغة، وفرض إنسان بدون لغة معناه فرض إنسان بدون

(1) - مهدي صالح سلطان: في المصطلح ولغة العلم. ص: 21-22.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 10.

(3) - فهد محمد الشعابي الحارثي: الاتصال اللغوي في القرآن الكريم. ص: 35-36.

(4) - ينظر: عبد الوهاب محمود إبراهيم حنايشة: التفكير وتتميته في ضوء القرآن الكريم. ص: 32.

فكر.. فالفكرة تتكوّن في رُؤوسنا بكلمات أو بعبارة أدق بأشباح كلمات»<sup>(1)</sup>.

فالذي يُميّز الإنسان عن الجماد والحيوان هو أنه كائن يعي وجوده، ووعيه للوجود فكرٌ ناطقٌ؛ ولا يكون الفكر إلا ناطقاً؛ كما لا يكون النطق إلا فكراً، قال الجاحظ: «الفصيح هو الإنسان، والأعجم كلُّ ذي صوت لا يفهم إرادته إلا ما كان من جنسه [...] ووجدنا كون العالم بما فيه حكمة، ووجدنا الحكمة على ضربين: شيءٌ يجعل حكمةً وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشيءٌ يجعل حكمةً وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل من جهة الدلالة على أنه حكمة؛ واختلفا من جهة أن أحدهما دليلٌ لا يستدلُّ، والآخر دليلٌ يستدلُّ، فكلُّ مُستدلِّ دليلٌ وليس كلُّ دليلٍ مستدلاً، فشارك كلَّ حيوانٍ سوى الإنسان، جميع الجماد في الدلالة؛ وفي عدم الاستدلال، واجتمع للإنسان أن كان ذليلاً مستدلاً، ثمَّ جعل للمستدلِّ سببٌ يدلُّ به على وجوده استدلاله، ووجوده ما نتج له الاستدلال وسُموا ذلك بياناً»<sup>(2)</sup>، قال جلّ ثناؤه:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: 4] .

وقد تعمّق الفيلسوف النمساوي لودفيغ فيتكنشتاين Ludwig Wittgenstein في علاقة الفكر باللغة، وكان يعتقد: «أنَّ حُدود اللغة التي أفهمها هي حُدود عالمي، كما كان يعتقد أيضاً أنَّ الفلسفة عبارة عن معركة ضدَّ البلبلة التي تحدث في عقولنا نتيجة لاستخدام اللغة، فسبب المشكلات الفلسفية والشكوك الفلسفية كلها ليست إلا استخداماً خاطئاً.. والفكر هو القضية ذات المعنى، وإنَّ دور الفكر في الرسالة هو إنتاج المعنى، وهذا المعنى لا يمكن التعرف عليه خارج اللغة.. فقد جعل مشكلة المعنى ومشكلة الفكر مشكلة واحدة، وجعل علاقتهما باللغة هي علاقة واحدة أو هي العلاقة ذاتها»<sup>(3)</sup>.

إذا فالتفكير عملياً هو دراسة وتجربة وتقليم للمعلومات، والبحث على أدوات تُستخدم في تسخير الأشياء للإنسان، والتفكير وظيفته هو إنتاج لولادة المجتمع، فعندما وُلد المجتمع الإنساني في الجنس البشري، زامن ذلك عملية بداية ظهور التفكير عنده، ضرورة اجتماعية، وهذا التفكير؛ لا يمكن أن يتمَّ إلا ضمن حقلٍ وبحالٍ يستخدمه الإنسان في عملية الدراسة، وجدولة المعلومات

(1) - مهدي صالح سلطان: في المصطلح ولغة العلم. ص: 6.

(2) - الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر): كتاب الحيوان. تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ط2، 1384هـ-1965م، 31-32. وينظر: مهدي صالح سلطان: في المصطلح ولغة العلم. ص: 7-8.

(3) - مهدي صالح سلطان: في المصطلح ولغة العلم. ص: 6.

وحفظها مستخدماً عملية التقليل، فكان اللسان الفطري ذات المقاطع الشائبة، والأصوات الفطرية، هما الأساس والحقل الذي استخدمه الإنسان الفطري في عملية التفكير، فاستجاب له نتيجة تفاعلها معه، فتمّ توسعه وظهور كلمات ذات مقاطع ثلاثية، وصارت بمثابة جسم يُمثل أفكار الإنسان، وارتبطت مع الفكر والتفكير بعلاقة جدلية، كلما توسع التفكير، توسعت مفردات اللسان معه لتسعّه، وصاراً كإلهما مظهراً من مظاهر المجتمع، والتقدم، والتطور، ونَتَجَ عن التفكير صفة الفاعلية والعلم<sup>(1)</sup>.

## خامساً: تأثير النص القرآني في اللغة والتفكير العلمي

### 1- تأثير النص القرآني في اللغة:

أنزل الله - سبحانه وتعالى - القرآن الكريم على خاتم المرسلين محمد ﷺ ليكون أعظم وأجل برهان على نبوته، ولقد أنزلت هذه المعجزة «على قوم أولي بأسٍ لغويٍّ وبياني شديد. وهذه المعجزة ناسبَت حال القوم الذين برعوا فيه. كان مُشركوا مَكَّةَ وما جاورها من الديار والقُرى قد برعوا في العربية والفصاحة والخطابة والبيان وإليهم انتهت رياسة علم المعاني والبيان والبديع. وللقرآن الكريم الفضل الكبير على اللغة العربية كوعاء شرفٍ يحمل معانيه العظيمة»<sup>(2)</sup>.

لقد أثر القرآن الكريم في اللغة العربية بأن صفّاهَا من أكدارها، وأجرّاهَا في ظاهرها على بواطن أسرارها. ثمّ هو بما تناول بها من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال الإعجاز، وصوّرها بالحقيقة وأنطقها بالحجاز، وما ركبها به من المطاوعة في تقلب الأساليب، وتحويل التراكيب إلى التراكيب، قد أظهرها مظهراً لا يقضي العجب منه، لأنه جلالها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصته، ولهذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود؛ لأنها هي لغتهم التي يعرفونها، ولكن في جزالة لم يمضغ لها شبح ولا قيصوم<sup>(\*)</sup>، وورقة غير ما انتهى إليهم من أمر الحاضرة. وهذا معنى ليس أظهر منه في إعجاز القرآن<sup>(3)</sup>.

فكانت اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية

(1) - ينظر: سامر إسلامبولي: علمية اللسان العربي وعالميته. تأسيس نظرية دلالة الأصوات العربية فيزيائيًا. تقديم: مازن الروع. دراسة نهضوية، دمشق- سوريا، ط1، 2011م، دت، دط، ص: 42-43.

(2) - رانا أمان الله: دور القرآن الكريم في نشر اللغة العربية وبقائها، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب لاهور، باكستان، العدد 22، 2015م، ص: 79.

(\*) - يقال: فلان يمضغ الشبح والقيصوم، إذا كان عربياً خاض البداوة. وهما نبتتان من نبات البادية.

(3) - ينظر: مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. راجعه واعتنى به: درويش الجويدي. المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، دط، 1424هـ-2003م، ص: 64

للمعاني التي تقوم بالنُّفوس، فلهذا أنزلَ أشرفَ الكُتُبِ بأشرفِ اللُّغات، على أشرفِ الرُّسُلِ (1). وإنَّ هذه اللُّغة «لم تُبهر بِجمالها ورِقَّةِ ألفاظها وفصاحتها أهلها فحسب، بل بَهَرَت النَّاطِقِينَ بِغَيْرِهَا عِنْدَما دَرَسُوهَا وَعَرَفُوهَا أَسْرَارَهَا، يَقُولُ الْمُسْتَشْرِقُ أرنست رينان (Ernest Renan): "إنَّ مِنْ أَعْجَبِ الْأُمُورِ أَنَّ تَبَّتْ تِلْكَ اللُّغَةُ الْقَوِيَّةُ، وَتَصِلُ إِلَى دَرَجَةِ الْكَمَالِ عِنْدَ أُمَّةٍ مِنَ الرُّجُلِ. تِلْكَ اللُّغَةُ الَّتِي فَاقَتْ أَحْوَاثَهَا بِكَثْرَةِ مُفْرَدَاتِهَا، وَدِقَّةِ مَعَانِيهَا، وَحُسْنِ نِظَامِ مَبَانِيهَا" (2).

وإنَّ للُّغة العربية مكانتها الدِّينية، فهي لغة الاتِّصال الرِّباني ولغة القرآن الكريم، فلا يكون فهم القرآن وتلاوته وأداء عبادته إلَّا بفهمها، يقول محمد الأوراغي: «استمرت العربية حاملةً للدُّكر المحفوظ كما أنزله ربُّ العالمين على خاتم النَّبِيِّينَ، وبقيت مذ اختارها الله للعبارة عن شرعه، لغةً الاتصال مع الخالق بكلامه. وهي تنفرد بهذه الخاصية لافتقادها في غيرها من اللُّغات المنتشرة في عالم اليوم. بل ليس من بين اللُّغات البشريَّة لغة تُشارك العربية في حمل الخطاب الإلهي محفوظاً من التَّحريف ومصوناً من الزِّيادة والنُّقصان. وليس من بينها ما يحفظ كلامَ الله المتنسِّكِ به كحفظ العربية له» (3).

وإنَّ للُّغة العربية أيضاً مكانتها الحضاريَّة في حفظها لِتراث الأُمَّة وثقافتها، ونقلها لتلك الحضارة من جيل إلى جيل، فهي لغة التَّواصل الحضاري، ففي مؤلِّفه "لسان حضارة القرآن" يقول محمد الأوراغي: «تحوَّلت العربية إلى لغةٍ حضاريَّة، ولم تبق لغةً قوميَّةً مُذ اختارها الله عزَّ وجلَّ وعاءً لكلامه، وأداةً لتبليغ رسالته إلى الخلق. بهذا الاختيار صارت العربية تتبَّع الإسلام في الانتشار... وبالعربية دوَّنَ المسلمون حضارة القرآن، وهي بلا شكَّ، أعظمُّ حضارةٍ في عصرها، ومُنطلقُ الإنسان المعاصر في بناء حضارته الحاليَّة» (4).

فبالعربية يستمرُّ تواصل الأجيال، ويستفيد الخلف من ثقافة السَّلف «ويزيد عليها من أجل تنمية حصيلة العلمية وتطوير قدراته العمليَّة. وبغير العربية ينقطع التواصل الحضاري، فلا فكر السَّلف في شتى الحقول المعرفيَّة يبقى حيًّا، وكأنَّ بأصحاب حضارة القرآن ما أبدعوا في الآداب والفلسفة وعلم الكلام، ولا كانت لهم الرِّيادة في الرِّياضيات وعلم الفلك والجغرافيا ومناهج العلوم وفلسفتها، ولا برعوا في العلوم الإنسانيَّة كاللِّسانيات والاجتماعيات والشَّرعيات وعلم التاريخ. ولا

(1) - ينظر: فهد محمد الشعابي الحارثي: الاتصال اللغوي في القرآن الكريم. ص: 41.

(2) - المرجع نفسه. ص: 43.

(3) - محمد الأوراغي: لسان حضارة القرآن، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت - لبنان، منشورات الاختلاف: الجزائر العاصمة - الجزائر، دار الأمان، الرباط، ط1، 1431هـ - 2010م، ص: 50-51.

(4) - المرجع نفسه. ص: 50.

شَارَكُوا بِالْإِبْتِكَارِ وَتَصَحِيحِ أخطاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي الكيمياءِ والفيزياءِ والميكانيكا والبصريات والطبِّ وعِلْمِ التَّشْرِيحِ والصَّيْدَلَةِ والجغرافيةِ الفَلَكِيَّةِ، وعُلُومِ النَّبَاتِ والمعادنِ والمتحجِّراتِ وفُنُونِ الصِّنَاعَاتِ والعِمارةِ، ونحو ذلك من فُرُوعِ المَعْرِفَةِ المَحْفُوظَةِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ فِي أَضْحَمِ مَكْتَبَةِ عَرَفِهَا التَّارِيخِ البَشَرِيِّ إِلَى ما قَبْلَ العَصْرِ الحَدِيثِ. وَبِغَيْرِ العَرَبِيَّةِ سَوْفَ يَحْتَفِي أَضْحَمُ ثَرَاثِ بَشَرِي. وَبِنَقْطِ العَمَلِ بِحِضَارَةِ القُرْآنِ»<sup>(1)</sup>.

لذا « نَجِدُ أَنَّ مَهْضَمَتَنَا الفُكْرِيَّةَ تَرْتَبِطُ ارْتِباطًا وَاضِحًا بِالنَّهْضَةِ اللُّغَوِيَّةِ، وَلَيْسَ هَذَا غَرِيبًا، لِأَنَّ المَعْجِزَةَ القُرْآنِيَّةَ هِيَ مَعْجِزَةٌ لُغَوِيَّةٌ، لِذَلِكَ كَانَتْ هَذِهِ اللُّغَةُ هِيَ الَّتِي تَفْصَحُ عَنِ هَذَا الفِكرِ، وَتَرْسِخُ انْتِمَائِهِ وَوَجْهَتِهِ، مِثْلَمَا كَانَتْ قَدِيمًا، وَيَطْلُبُ أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ فِي الوَقْتِ»<sup>(2)</sup>.

## 2- تَأْيِيدُ النَّصِّ القُرْآنِيِّ فِي التَّفَكِيرِ:

إِنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ نَصٌّ لُغَوِيٌّ يَتَعَلَّقُ خِطَابُهُ بِالإِنْسَانِ -أُسْرَةً وَمَجْتَمَعًا- ، مُحتَوِيًا الأُسُسَ الفِكرِيَّةَ لعِلاقَةِ الإنسانِ بِالكَوْنِ والحِياةِ، وَمَا بَعْدَ الحِياةِ، وَطَرِيقَةَ التَّفَكِيرِ، وَالْمَنْهَجَ العِلْمِيَّ والتَّارِيخِيَّ، إِلَى جَانِبِ وَضْعِ شَرَعِ اجْتِمَاعِي حُدُودِي قائمٍ عَلَى الثَّبَاتِ، وَفِيهِ خَاصِيَّةُ التَّحْرُكِ ضِمْنَ مُتَغَيِّرَاتٍ، تَرَكَهَا لِحَرَكَةِ الإنسانِ بِصِفَتِهِ الاجْتِمَاعِيَّةِ؛ فَضَمَّنَ بِذَلِكَ صِفَةَ التَّطَوُّرِ، وَالْحَرَكَةَ لِلْمَجْتَمَعَاتِ نَحْوِ الأُمَمِ والتَّقَدُّمِ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ مُحَافِظًا عَلَى الصَّلَاحِيَّةِ كَصِفَةٍ لَهُ عَلَى أَرْضِ الوَاقِعِ، وَاسْتَمَرَّتْ صِلَاحِيَّتُهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، مِنْ جِزَاءِ رِبْطِ خِطَابِهِ بِمَحَلِّهِ مِنَ الوَاقِعِ، وَفَقِ الثَّابِتِ وَالمُتَغَيِّرِ<sup>(3)</sup>.

لِذَا فَفَقِدَ أَثَرَ القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي العَقْلِ الإِنْسَانِيِّ وَتَفَكِيرِهِ مُنْذُ نُزُولِهِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ بِآثَارِهِ النَّامِيَّةِ مُعْجِزَةٌ أَصِيلَةٌ فِي تَارِيخِ العِلْمِ كُلِّهِ عَلَى بَسِيطِ هَذِهِ الأَرْضِ، مِنْ لَدُنْ ظَهَرِ الإِسْلَامِ إِلَى ما شَاءَ اللهُ. وَ« لَوْ لَمْ يَكُنِ القُرْآنُ الكَرِيمُ لَكَانَ العَالَمُ اليَوْمَ غَيْرَ ما هُوَ فِي كُلِّ ما يَسْتَطِيلُ بِهِ، وَفِي تَقَدُّمِهِ وَانْبِساطِ ظِلِّ العَقْلِ فِيهِ وَقِيَامِهِ عَلَى أَرْجَائِهِ، وَفِي ثَمُّوهِ وَاسْتَبْحَارِ عُمرانِهِ. فَإِنَّمَا كَانَ القُرْآنُ أَصْلَ النَّهْضَةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَهَذِهِ كَانَتْ عَلَى التَّحْقِيقِ هِيَ الوَسِيلَةُ فِي اسْتِبْقَاءِ عُلُومِ الأَوَّلِينَ وَتَهْدِيئِهَا وَتَصْفِيئِهَا، وَإِطْلَاقِ العَقْلِ فِيما شَاءَ أَنْ يَرْتَعَ مِنْهَا<sup>(\*)</sup>، وَأَخَذِهِ عَلَى ذَلِكَ بِالبَحْثِ والنَّظَرِ والاسْتِدْلَالِ

(1) - محمد الأوراغي: لسان حضارة القرآن. ص: 51-52.

(2) - مهدي صالح سلطان: في المصطلح ولغة العلم. ص: 8.

(3) - ينظر: سامر إسلامبولي: علمية اللسان العربي وعالميته. ص: 17.

(\*) - يقول الرافعي: «كان العلم عند الأمم التي انطوت قبل الإسلام مما لا يستطيعه إلا طبقات تمتاز به وتبينها الأمم من نفسها كما تبين سائر الطبقات الإلهية، من الملوك والكهنة والأبطال وغيرهم، الذين هم آلهة الأمة، أو أبناء آلهتها، أو الواسطة إلى الآلهة، فكانت العلوم من خصائص الكهنة عند المصريين والأشوريين، وفي أبناء الأشراف خاصة عند الغرناطيين والرومان، وفي طائفة من الشبان يقع عليهم الاختيار عند الهنود واليونان. (بتبع) ... =

والاستنباط، وتوفير مادّة الرّؤية عليه بما كان سبباً في طلب العلم للعمل، ومزاولة هذا لذلك، إلى صفاتٍ أخرى ليس هذا موضع بسطها [...] وهذا كلّهُ كان أساس التّاريخ العلمي في أوروبا. فما من موضع في هذا "الأساس" القائم إلّا وأنت واجدٌ من دونه قطعة من الآداب الإسلاميّة أو العقول الإسلاميّة، أو الحضارة الإسلاميّة، فالقرآن من هذا الوجه إنّما هو الباب الذي خرج منه العقل الإنساني المسترحل، بعد أن قطع الدّهر في طفولةٍ وشباب [...] وهذا كله لم يعرفه أساتذة اليوم "الأوروبيون" إلا في القرن السّادس عشر للميلاد؛ وهم قد أخذوه وأخذوا معه كثيراً من الفضائل الاجتماعيّة عن المسلمين وعلمائهم، لا يكابر في ذلك مُنصفوهم وذوو الأحلام منهم»<sup>(1)</sup>.

ففي القرآن «غير ما يكفل للهيأة الاجتماعيّة سعادتها وسلامتها في معاشها ومعادها ممّا حواه من الدّساتير الأخلاقيّة والقضائيّة والإداريّة والسياسيّة وعظمة الأمثال والقصص - فيه إشاراتٌ وآياتٌ بيّنت في مسائل ما برحت العلوم الطبيعيّة تُحاول الكشف عن كنهها منذ عصور، ولاسيما في علم التّكوين والتّحريب "القيامة" الذي دلّ الآن بنظريات الإحصائيين من علماء الفلك ومباحثهم ومشاهداتهم في طور التّقدم والارتقاء وإنّك لا تكاد تغلب من المصحف الشّريف بضع صفحات حتى تجد آية في أسرار الكائنات وأحوال السّماء منظومة في نسقها من أبداع المناسبات»<sup>(2)</sup>.

إذا فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي استوعب كل جوانب الحياة، بكلّ ما تحمله الكلمة من معاني، فإذا تدبّر فيه علماء العقيدة والشريعة، أو علماء الحضارة والتّاريخ، أو علماء النّفوس والاجتماع، أو علماء الكون والأحياء.. رجع كل منهم بزاد يُعينه على فهم تخصّصه والإبداع فيه، فكل يأخذ منه في إطار تخصّصه وعلى مقدار فهمه لجانب ما من جوانب الحياة وزاوية ما من زوايا معرفة الكون وأسراره. وهذه الخاصيّة تجعل التّدبر الكلّي لموضوعات القرآن، تفسيرا وفهما حيويّاً وعميقاً يمتلك معرفة مَفْتُوحَة على النَّصِّ وعلى الواقع على حدّ سواء<sup>(3)</sup>.

وكانت الدنيا القديمة على ذلك أو نحوه لا يصلح العلم إلا أن يكون نظراً وجدالاً بين طائفة تتنافس فيه. لا شيء إلا لأنه عملها وبه وزن أقدارها. ومتى كانت المناقصة ضيقة محصورة لا يشايح الناس عليها بعلم ولا يصوبون فيها ولا يخطئون فهي منافسة أهواء وشهوات ونزغات، يكون فيها العلم سلماً تحطم منها تحت كل قدم ثقيلة درجة. فلما جاء الإسلام حتّى على طلب العلم وعلى النظر والاعتبار والاستنتاج؛ وجعل شعائره دعوته مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: 108] وقوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الحل: 125]؛ وترادفت أخبار الحثّ على طلب العلم وفي كلام النبي ﷺ حتى قال ﷺ: «اطلبوا العلم ولو في الصين» فكان هذا سبباً في إطلاق الحرية العلميّة للناس جميعاً، وخاصة أهل الأخلاق منهم الذين هم الطبقة الوسطى في كل أمة، والذين بهم قوام الأمة، إذ يحملون ما فوقهم ويمنعون عما تحتهم، وبذلك نضجت المناقشات العلميّة وأنت ثمارها، وأفضى الأمر في العلوم إلى ما وقع من الامتحان والاختبار؛ ثم الاختراع والاستنتاج». مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. ص: 97.

(1) - مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. ص: 97-99.

(2) - المرجع نفسه. ص: 110.

(3) - ينظر: يونس ملال: منهج تدبر القرآن الكريم في ظل جدلية النص والعقل والواقع. دط، دت، ص: 5.

## استنتاج:

وأخيراً نستنتج مما سبق ما يأتي:

- 1- التفكير العلمي هو السبيل الوحيد لرؤية الأدلة التي يحملها القرآن الكريم، والتي تُثبت مصداقية نزوله من عند الله تعالى. يقول تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53] فالتبيين بالحق القرآني هو نتيجة رؤية آيات الآفاق والأنفس، ورؤية آيات الآفاق والأنفس هي نتيجة من نتائج التدبر العقلي السليم<sup>(1)</sup>.
- 2- أن لإعمال العقل بالتدبر والنظر في النظم اللغوي تتجلى دلالة السياق من النص القرآني، وبإعماله بالتفكير العلمي والتأمل في الآفاق والأنفس يوصل إلى اكتشاف الحقائق العلمية فيه. فلأصل في تحديد دلالة السياق من النص القرآني والأصل في اكتشاف الحقائق العلمية فيه هو إعمال العقل بالتدبر والتفكير؛
- 3- أهم وسيلة لمعرفة دلالات النظام اللغوي للنص القرآني هي التدبر في سياق آياته وموقع الكلام من الوقائع والأحوال، فالله سبحانه وتعالى جعله محلاً للتدبر والتفكير يقول تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29] «فالتدبر في آياته هو أول إقليد لفتح هذا الباب. فمن نظر في مطالب الآيات على حدتها ولم يتأمل في مناسبة أجزاء السورة عميت عليه الحكمة وحسن نظامها، لأن أكثر الحكم مخبوءة تحت دلالات النظام و إنّه لا يبرز إلا بالتدبر»<sup>(2)</sup>.
- 4- أن أكبر سبب وأعظمه في اكتشاف آيات الإعجاز العلمي هو التفكير العلمي في القرآن الكريم والتدبر لآياته الكريمات والتفكير في الكون والإنسان والآفاق.
- 5- القرآن الكريم معجزة الله الكبرى في الأرض، ومنهجها الذي لا ينضب وكل حرف من حروف القرآن الكريم ينبض فلسفة تُصوّر الكليات في ظاهر الصياغة القرآنية، من حيث هي كليات، وفي باطنها من حيث هي جزئيات.

(1) - ينظر: المهندس عدنان الرفاعي: المعجزة الكبرى. ص: 14.

(2) - عبد الحميد الفراهي الهندي: دلائل النظام. المطبعة الحميدية، ط1، 1388هـ، ص: 2.

الباب الأول:  
الإعجاز والسباق في القرآن  
دراسة مصطلحية

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ  
فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾  
قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ  
أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

[البقرة: 31-32]

**تمهيد:**

إنَّ تحديدَ المصطلحاتِ وضبطَ المفاهيمِ يُعدُّ منَ الأمورِ المعرفيةِ المهمَّةِ في البَحثِ العِلْمِيِّ الأكاديميِّ، فَهِيَ تُنيرُ للدَّارسِ الطَّرِيقَ التي يَسلكها وتُوضِّحُ لَهُ ما الأُمورِ التي يدرُسُها، وما الجوانبِ المتعلِّقةِ بها، فتمكِّنه من قياسِ مدى استيعابه لما درسه، وكذا من تحقيقِ أهدافِ البَحثِ المنشودةِ.

لذا نجدُ في مُستهلِّ البَحثِ اللِّساني أنَّ تحديدَ المصطلحِ أولويَّةٌ منهجيَّةٌ، وهذا التَّحديدُ في جُملةِ إمَّا أنْ يَقتضي (1):

- 1- إعادةَ المفهومِ إلى أصلِهِ ودِراسَتِهِ في بيئتهِ العِلْمِيَّةِ التي صدرَ منها فيكونُ تَأصِيلاً للمصطلحِ.
- 2- وإمَّا أنْ يَعني بيانَ اختلافِ العُلَماءِ حولَ مفهومه وتَقليبَ دلالتِهِ على أوجهها المختلفةِ. وإنَّ تحقيقَ هذا الهدفِ أو ذلكَ يتطلَّبُ تعاضُدَ دراساتٍ عدَّةٍ وفي ميادينٍ مختلفةٍ.

وتزدادُ الحاجةُ أكثرَ إلى ذلكَ التَّحديدِ إذا كانت تلكَ المصطلحاتُ كَلِماتٍ فَضفاضةً، واسِعةً الدَّلالةً، تُحتملُ أكثرَ منَ معنَى بحسبِ السِّياقِ الذي وَرَدت فيه؛ ولذا سيبدأُ البَحثُ بتحديدِ عَتَباتِ العُنونِ المَتمثِّلةِ في القرآنِ، الآيةِ، العِلْمِ، المعجزةِ، الإعجازِ العِلْمِيِّ، الحَقِيقةِ العِلْمِيَّةِ في الفِصلِ الأوَّلِ من هَذَا البَابِ، وفي فَصلٍ ثانٍ يُخصِّصُ للدَّلالةِ السِّياقيَّةِ وما يتعلَّقُ بها من مَفاهيمِ نظريَّةِ.

(1) - ينظر: رزيق بوزغاية: قيام الساعة في القرآن الكريم مدلولية النص ومرجعته. رسالة دكتوراه في اللغويات، قسم اللغة وأدابها، جامعة منتوري، قسنطينة، 2012م-2013م، ص: 21.

## الفصل الأول:

### حقيقة الإعجاز العلمي في القرآن

﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ  
فَتُخِيتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ  
مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: 54]

يقول محمد راتب النابلسي: « إِنَّ الْحَقَّ لَا يَسْ خُلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الشَّيْءُ الثَّابِتُ، وَالْهَادِفُ. بخلاف الباطل، فإنه الشيء الزائل والعابث، إِنَّ الْحَقَّ دَائِرَةٌ تَتَقاطَعُ فِيهَا أَرْبَعَةُ خُطُوطٍ؛ خُطُّ الثَّقَلِ الصَّحِيحِ، وَخُطُّ الْعَقْلِ الصَّريحِ، وَخُطُّ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، وَخُطُّ الْوَاقِعِ الْمَوْضُوعِيِّ، فَالثَّقَلُ الصَّحِيحُ كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مَعَ بَيَانِ الْمَعْصُومِ ﷺ، وَالْعَقْلُ الصَّريحُ مِيزَانٌ مِّنْ خَلْقِ اللَّهِ أَوْدَعَهُ اللَّهُ فِي الْإِنْسَانِ لِيَتَعَرَّفَ مِنْ خِلَالِهِ إِلَى اللَّهِ، وَالْفِطْرَةُ مِيزَانٌ آخَرٌ مُتَطابِقٌ مَعَ الشَّرْعِ الْإِلَهِيِّ، وَهُوَ مَرْكُوزٌ فِي أَصْلِ كِيَانِ الْإِنْسَانِ لِيَكْتَشِفَ مِنْ خِلَالِهَا خَطَأَهُ، وَالوَاقِعُ خَلُقَ اللَّهُ تَحْكُمُهُ الْقَوَانِينُ الَّتِي فَتَنَهَا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْفُرُوعُ الْأَرْبَعَةُ مِنْ أَصْلِ وَاحِدٍ فَهِيَ مُتَطابِقَةٌ فِيهَا بَيْنَهَا».

موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الآفاق. دار المكتبي سورية دمشق،

ط2 "منقحة ومعدلة"، 1426هـ-2005م، ص: 7.

## المبجج الأول: القرآن والعلم، موقف القرآن من العلم

ما كان الله ليخلق الناس عبثاً، ولا ليرتكهم في هذه الأرض سُدى ، فمنذُ أزيد من أربعة عشر قرناً أنزل القرآن فكان صوت الحق الذي قامت به السموات والأرض، ومعانيه هي الأشعة التي تألق فيها الوحي الأعلى، وتعرض لها الأولون والآخرون، واستطاعوا بما أن يعرفوا: من أين جاءوا، وكيف يحيون، وإلى أين يصيرون. فمعاني القرآن قديمة جديدة، فيها خلاصة كاملة للرسالات الأولى، وللنصائح التي بُذلت للإنسانية من فجر وجودها، ومثلت رافع للحكم البالغة التي قرعت آذان الأمم في شتى العصور واستعراض دقيق للأشفية السماوية التي احتاجت إليها الأرض جيلاً بعد جيل. إنه لذلك يجمع الحقائق الثابتة، ومجلى عناية الله بعباده مذ خلقوا، وإلى اليوم، وإلى أن تنفض هذه الدنيا<sup>(1)</sup>. وفي هذا المبحث سنعرض لمفهومي القرآن والعلم، ومعرفة موقف القرآن من العلم.

### المطلب الأول: تحديد مفهوم القرآن، أسماؤه وأوصافه

يمثل القرآن الكريم واقعا لغوياً فريداً، فقد توافرت له من وسائل الحفظ وطرق التوثيق ما لم يتوافر لأي نص آخر، ديني أو غير ديني. واجتمعت فيه كل مظاهر الأداء الفني والبلاغي واحتوى من وسائل التأثير، وأسرار التعبير ما لا يتناول إليه أي عمل سابق أو لاحق<sup>(2)</sup>. ويعد القرآن من أشهر الكتب على الإطلاق، فهو غني عن التعريف، لذا لا نجد الأولين من أئمة المسلمين يُعنون بتعريفه، وكانوا إذا تكلموا عنه تكلموا عن بيانه للأحكام، وبيان السنة له، غير أن المتأخرين خاضوا في هذا الموضوع<sup>(3)</sup>، فأخذ القرآن الكثير من التعريفات اللغوية والاصطلاحية التي حاولت أن تحدد مفهومها له، وسنشير إلى بعضها فيما يأتي:

### 1/- المفهوم اللغوي للقرآن

اتفق الباحثون القدماء والمحدثون على أن لفظ "قرآن" اسم علم وليس بفعل أو حرف يُطلق على هذا الكتاب الحكيم المجموع بين دفتي المصحف، لكن دار بينهم الكثير من الجدال والخلاف في أمور خمسة: من جهة الاشتقاق أو عدمه، ومن جهة كونه مهموزا أو غير مهموز، ومن جهة كونه مصدرا أو وصفا. ومن جهة معناه الجمع والضم أو بمعنى التلاوة والترديد، ومن جهة أصله من اللغة

(1) - ينظر: محمد الغزالي: نظرات في القرآن. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط6، 2005م، ص: 8-9.

(2) - ينظر: أحمد عمر مختار: لغة القرآن دراسة توثيقية فنية. مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ط2، 1418هـ-1997م، ص: 7.

(3) - ينظر: سعيد إسماعيل على: القرآن الكريم رؤية تربوية. ص: 102.

العربية أو اللغة الآرامية. وسنذكر ذلك بإيجاز في ما يأتي:

فالقائلين بأن لفظ القرآن "مهموز" - أي أنّ الهمزة فيه أصلية، من: "قرأ" - فقد اختلفوا على رأيين<sup>(1)</sup>:

1- أنّ القرآن: مصدر "قرأ" بمعنى: "تلا" كالرُجْحَان والعُفْرَان، ثم نُقل من المصدر وجعل اسماً للكلام المنزّل على نبيّنا محمد ﷺ ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاصْبِرْ لَهُ، وَارْتَبِطْ بِهِ﴾ [القيامة:18]؛ أي: قراءته. ومن القائلين بهذا القول: "اللحياني"<sup>(\*)</sup>.

2- أنّ القرآن: وصفٌ على وزن فُعْلَان مُشتق من "القرء" بمعنى الجمع، ومنه: "قرأ الماء في الحوض إذا جمعه"، "وقرأت الشيء قرأناً: جمعته وضممت بعضه إلى بعض"، ومن القائلين بهذا القول: "الزجاج".

والقائلين بأن لفظ القرآن "غير مهموز" اختلفوا في أصل اشتقاقه على قولين<sup>(2)</sup>:

1- أنه مُشتق من "قرنت الشيء بالشيء" إذا ضممت أحدهما إلى الآخر. قالوا: فسُمي القرآن به: لِقْرَانِ السُّورِ والآيات والحروف فيه. ومنه: قرن البعيرين إذا جمع بينهما. ومنه سُمي الجمع بين الحجّ والعمرة في إحرام واحد قران، ومن القائلين بهذا القول: "الأشعري"<sup>(\*\*)</sup>.

2- أنه مُشتق من "القرائن" جمع قرينة؛ لأنّ آياته يُصدّق بعضها بعضاً ويُشبه بعضها بعضاً. ومن القائلين بهذا القول: "الفرّاء".

وفي معنى لفظ "القرآن" يقول بعض العلماء: «إنّ لفظ "القرآن" مُشترك معنوي موضوع للدلالة على المشخّص المكتوب بين دفتي المصحف خاصة، وموضوع كذلك للدلالة على مُطلق ما نُزل الذي يعُمُّ الكلّ والأجزاء. وفي كلّ موطن من هذه المواطن، أو في كلّ مقام من هذه المقامات تتكفّل القرينة ببيان المراد من اللفظ»<sup>(3)</sup>. وقد ورد "القرآن" بهذين الاستعماليين؛ فمن استعمله على

(1) - ينظر: محمود أحمد صالح الدوسري: عظمة القرآن الكريم. دار ابن جوزي للنشر والتوزيع، الدمام - السعودية، ط1، 1426 هـ، ص: 46 - 47.

(\*) - هو علي بن مبارك اللحياني "ابو الحسن" من بني لحيان بن هذيل بن مدركة، وقيل سمّي به لعظم لحيته، النحوي، من كبار أهل اللغة، ومن مشايخه: الكسائي، ومن تلامذته: القاسم بن سلام، ومن أشهر مصنفاته: "النوادر"، توفي في حدود 201 هـ. انظر: معجم المؤلفين، "490/2". الموسوعة الميسرة، "1643/2". نقلا عن م س ص: 47.

(2) - انظر: محمود أحمد صالح الدوسري: عظمة القرآن الكريم. ص: 47 - 48.

(\*\*) - هو الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، من ذرية الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري... له من الكتب: "الموجز" و"الإبانة" ومقالات الإسلاميين وغير ذلك توفي سنة 270 هـ، انظر: محمود أحمد صالح الدوسري: عظمة القرآن الكريم. ص: 48.

(3) - عدنان محمد زرزور: علوم القرآن الكريم وإعجازه. دار الإعلام، الأردن، عمان، ط1، 1426 هـ-2005م، ص: 52.

الكُلُّ المشخص قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: 21-22]، فإنَّ المحفوظ في اللوح هو كلُّ القرآن. ومن استعماله بمعنى مُطلق ما نزل، والذي يصدق على الكُلِّ والجزء قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98]، فطلب الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء أكان المقروء كله أم بعضاً منه. وفي هذه الحالة يكون إطلاق لفظ "القرآن" على البعض مجازاً، من باب تسمية الجزء باسم الكُل كقوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْدِعَهُمْ فِيءَ آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوْعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: 19] (1).

وفي الأصل اللُّغوي للفظ "قُرْآن" ، يرى بعض الباحثين أنه مأخوذ من "قَرَأَ" بمعنى "تلا" وهذا الفعل أصله في اللغة الآرامية ثم دخل العربية قبل الإسلام بزمنٍ طويل وتداوله العرب. ودليلهم في ذلك (2):

- 1- أن لهجات الآرامية المختلفة كانت تسود كل بلاد فلسطين: سوريا وبين النهرين وبعض العراق، وأيضاً جوار العرب لليهود الذين كانت لغتهم الدينيّة الآرامية، عجل في انتشار كثير من الألفاظ الدينيّة الآرامية ومن تلك الألفاظ: "قرأ، كتاب، تفسير، تلميذ، فُرقان، قَيوم، زنديق".
- 2- وأنَّ العرب في الجاهليّة حين عرفوا لفظ "قَرَأَ" استخدموه بمعنى غير معنى "التلاوة" فكانوا يقولون: هذه الناقة لم تقرأ سلى قط، يقصدون أنها لم تحمل ملقوحاً ولم تلد ولدًا.

في حين يضعف أحد الباحثين هذا الرأى، ودليله في ذلك (3):

- 1- أن ما ورد في لسان العرب يُوحى باستعمالات العرب لمادّة "قَرَأَ" فيه معنى "تلا".
  - 2- وأنَّ البَحْث في أخذ اللُّغات من بعضها وأيّهما أخذت من أختها خاصّة في العصر القديم، لم ينتبه الباحثون فيه - حتى الآن - إلى رأي قاطع، فلا يصح بناء الفروض والاحتمالات عليه.
- وفي الحكمة من تسمية هذا الكتاب "قُرْآنًا" من بين كتب الله تعالى؛ يقول الراغب لأصفهاني: «لِكَوْنِهِ جَامِعًا لثَمَرَةٍ كُتِبَ؛ بَلْ لِحَمِيهِ ثَمَرَةٌ جَمِيعِ الْعُلُومِ، كَمَا أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111] وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89]» (4).

(1) - ينظر: عدنان محمد زرزور: علوم القرآن الكريم وإعجازه. ص: 52.

(2) - ينظر: سعيد إسماعيل على: القرآن الكريم رؤية تربوية. ص: 103-104.

(3) - ينظر: عبد العزيز عبد المعطي عرفة: قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية. عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ-1985م، ص: 24.

(4) - الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم دمشق-سورية، الدار الشامية بيروت-لبنان، ط4، 1430هـ-2009م، ص: 669، مادة: "قَرَأَ".

## 2/- المَفْهُوم الاصطلاحِي للقرآن

لقد ذَكَر العلماء مِنَ الأَصُولِيين والْفُقهاء وأهل العَرَبِيَّة تَعْرِيفًا اصطلاحِيًّا للقرآن الكَرِيم يَقْرَبُ معناه ويُمَيِّزه عَن غَيْرِهِ، فَعَرَّفُوهُ بِأَنَّهُ: « كَلَامُ اللَّهِ، الْمَنْزَلُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، الْمَعْجَزُ بِلَفْظِهِ، الْمَتَعَبَّدُ بِتِلَاوَتِهِ، الْمَكْتُوبُ فِي الْمَصَاحِفِ، الْمَنْقُولُ بِالتَّوَاتُرِ »<sup>(1)</sup>. وَعَرَّفَهُ الشَّرِيفُ الْجِرْجَانِي بِقَوْلِهِ: « الْقرآنُ: هُوَ الْمَنْزَلُ عَلَى الرَّسُولِ الْمَكْتُوبُ فِي الْمَصَاحِفِ الْمَنْقُولُ عَنْهُ نَقْلًا مُتَوَاتِرًا لَا شُبْهَةَ، وَالقرآنُ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ، هُوَ الْعِلْمُ اللَّذَنِي الْإِجْمَالِي الْجَامِعُ لِلْحَقَائِقِ كُلِّهَا »<sup>(2)</sup>. وَأَوْجَزَهُ بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ: « الْقرآنُ: كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، الْمَنْزَلُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، الْمَتَعَبَّدُ بِتِلَاوَتِهِ »<sup>(3)</sup>.

فالملاحظ مما سبق من تعريف القرآن أنه يختصُّ بِسِمَاتٍ تَمَيِّزِيَّةٍ شَكَّلَتْ تَعْرِيفًا شَامِلًا لَهُ، وَجَعَلَتْ مِنْ لَفْظِ "قرآن" اسْمًا يَنْفَرِدُ بِذَاتٍ وَاحِدَةٍ دُونَ غَيْرِهَا.

## 3/- أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ وَأَوْصَافُهُ:

سَمَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِأَسْمَاءٍ عَدِيدَةٍ مَتَنوعَةٍ وَوَصَفَهُ بِصِفَاتٍ جَلِيلَةٍ عَظِيمَةٍ، وَإِنْ كَانَتْ كَثْرَةُ الْأَسْمَاءِ وَالْأَوْصَافِ تَدُلُّ عَلَى شَرَفِ الْمَسْمُومِ وَالْمَوْصُوفِ، فَإِنَّهُ لَا أَشْرَفَ وَلَا أَفْضَلَ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَلَا أَجْدَرَ مِنْهُ بِالْحِظْوَةِ بِكُلِّ شَرَفٍ وَرَفْعَةٍ، وَذَلِكَ لِعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ وَسُمُوِّ دَرَجَتِهِ، وَكَذَا لِأَنَّهُ أَصْلُ جَمِيعِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ، وَأَسَاسُ كُلِّ الْفُنُونِ الْمُرشِدَةُ لِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. يَقُولُ تَعَالَى: ﴿ وَرَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: 89]، وَلِضَيْقِ الْمَقَامِ لَا يُمْكِنُ إِحْصَاءُ كُلِّ أَسْمَاءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَحَصْرُ أَوْصَافِهِ لِذَا نَذَكُرُ أَشْهَرَهَا:

### أ- أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ:

لقد وَقَعَ الْاِخْتِلَافُ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي عَدَدِ أَسْمَاءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَفِي كِتَابِ "الْبُرْهَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ" أورد الزُّرْكَشِي خَمْسَةَ وَخَمْسِينَ اسْمًا، وَقَدْ أوردَهَا أَيْضًا الشُّيُوطِي فِي "الإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ"، أما الْفَيْرُوزُ أَبَادِي فِي "بِصَائِرِ ذَوِي التَّمْيِيزِ فِي لَطَائِفِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ" أورد ثَلَاثَةَ وَتَسْعِينَ اسْمًا مِنَ الْقُرْآنِ لِلْقُرْآنِ<sup>(4)</sup>. وَأورد الطَّبْرِي فِي تَفْسِيرِهِ "جَامِعُ الْبَيَانِ عَنِ تَأْوِيلِ آيِ الْقُرْآنِ" أَرْبَعَةَ أَسْمَاءٍ لِلْقُرْآنِ، وَذَكَرَ أَنَّ لِكُلِّ اسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْأَرْبَعَةِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مَعْنَى وَوَجْهٌ غَيْرُ مَعْنَى الْآخَرِ وَوَجْهَهُ،

(1) - محمود أحمد صالح الدوسري: عظمة القرآن الكريم. ص: 49.

(2) - الشرف الجرجاني(علي بن محمد بن علي): كتاب التعريفات. تحقيق: محمود رأفت الجمال، المكتبة التوفيقية، القاهرة-مصر، ط1، 2013م، ص: 141.

(3) - عدنان محمد زرزور: علوم القرآن الكريم وإعجازه. ص: 53.

(4) - ينظر: سعيد إسماعيل علي: القرآن الكريم رؤية ترويحية. ص: 110 - 111.

وأوردَ لكلِّ اسمٍ منها ما يدلُّ عليها من الآياتِ فكانت هذه الأسماء الأربعة من أشهر الأسماء التي سَمِيَ بها الله تعالى كتابه الكريم وهي كما يأتي (1):

**الْقُرْآنُ:** قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سَهْرٌ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 185] لقد قيل في تعليل تسمية القرآن "قُرْآنًا" أنه زوعي في هذه التسمية كونه متلواً بالألسن.

**الكِتَابُ:** قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: 3]، وفي سبب تسمية القرآن "كِتَابًا" كونه زوعي في هذه التسمية كونه مُدَوَّنًا بالأقلام.

**الْفُرْقَانُ:** قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1]، يقول بعض العلماء أن "الْفُرْقَانَ" مصدر أطلق على القرآن فصار علماً عليه. والراجح أن هذا المصدر أستعمل بمعنى اسم الفاعل، أي أنه كلام فارق بين الحق والباطل.

**الذِّكْرُ:** قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: 6]، فتأويل اسمه "الذِّكْرُ" مُحْتَمِلٌ مَعْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ ذِكْرٌ مِنَ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ، ذَكَرَ بِهِ عِبَادَهُ، فَعَرَفَهُمْ فِيهِ، وَالْآخَرُ: أَنَّهُ ذِكْرٌ وَشَرَفٌ وَفَخْرٌ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَ بِمَا فِيهِ.

### ب- أوصافه القرآن:

لقد وصف الله تعالى كتابه بأوصافٍ كثيرة من أبرزها (2):

**الْكَرِيمُ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿ [الواقعة: 77-78] وَصَفَ اللهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ كَرِيمٌ، اسْمٌ عَلَى مَعْنَى عَطَاءِ اللهِ الَّذِي يَنْفَرُ بِهِ مِنَ الذِّكْرِ وَالْعِلْمِ وَالْهُدَايَةِ وَالْعِزَّةِ وَالتَّوْفِيقِ.

**الْحَكِيمُ:** قَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ [لقمان: 1-2]، وَقَوْلُهُ: ﴿يَسَّ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾ [يس: 1-2]، فِي هَذَيْنِ الْآيَتَيْنِ وَصَفَ اللهُ سُبْحَانَهُ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ حَكِيمٌ.

**الْعَزِيزُ:** قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: 41]؛ بِمَعْنَى أَنَّ كِتَابَ اللهِ يَصْعَبُ مَنَالُهُ، وَيَمْتَنِعُ وُجُودُ مِثْلِهِ، أَوْ مُحَاكَاةَ قَوْلِهِ.

**الْمَجِيدُ:** قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ﴾ [ق: 1] الْمَجِيدُ، بِمَعْنَى السَّعَةِ فِي الْكَرَمِ وَالْجَلَالِ.

إِذَا، فَالْمُلَاحَظَةُ أَنَّ كُلَّ اسْمٍ مِنَ أَسْمَاءِ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الْحِفْظِ وَالتَّوْفِيقِ الَّتِي هَيَّأَهَا اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لِكِتَابِهِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّ كُلَّ وَصْفٍ مِنْ أَوْصَافِهِ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي تَضَمَّنَهَا

(1) - ينظر: الطبري "أبو جعفر محمد بن جرير": جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1422هـ-2001م، 89/1-96. وينظر: عدنان محمد زرزور: علوم القرآن الكريم وإعجازه. ص: 68-69.

(2) - ينظر: سعيد إسماعيل علي: القرآن الكريم رؤية ترويحية. ص: 110.

القرآن، ويُوحي بدلالات يستدعيها المقام والسِّياق الذي صيغت فيه.

وعليه، فمن خلال استعراضنا لمفهوم القرآن الكريم لغةً واصطلاحاً، وذكرنا لبعض أسمائه وأوصافه، تبين لنا أنه كتاب جليل وفوق قدرة البشر واستطاعتهم، لذا فالتفاسير حوله تعددت وتنوعت، ومنه تشعبت الدراسات بتشعب الوجاهات والمشارب، فكان القرآن الكريم ولا يزال المصدر الأول لكل علم، كما يقول أبو حامد الغزالي: «فإني أنبئك على رقدتك أيها المسترسل في تلاوتك المتخذ دراسة القرآن عملاً المتلقف من معانيه ظواهر وجمالاً، إلى كم تطوف على ساحل البحر مغمضاً عينيك عن غرائبها؟ أو ما كان لك أن تتركب مثن جئتها لتبصر عجائبها وتُسافر إلى جزائرها لا جتاء أطايبها؟ وتغوص في عمقها فتستغني بنيل جواهرها؟ أو ما تُعير نفسك في الحرمان عن دُررها وجواهرها بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها؟ أو ما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط؟ ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها؟»<sup>(1)</sup>.

ويروق لنا في هذا المقام أن تختم هذه التعريفات برائعة ذهبيّة - نسوقها بطولها لنفاسيتها - قد دجّتها براعة: سعيد النورسي حول مفهوم القرآن، حيث يقول: «فإن قلت: القرآن ما هو؟ قيل لك: هو الترجمة الأزليّة لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم.. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المسترسلة في صحائف السموات والأرض.. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحادثات.. وكذا هو لسان العيب في عالم الشهادة.. وكذا هو خزينة للمخاطبات الأزليّة الشبكانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية.. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي.. وكذا هو خريطة للعالم الأخرى.. وكذا هو القول الشارح والتفسير الواضح والبرهان القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه.. وكذا هو مربب للعالم الإنساني، وكالماء كالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية.. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد المهدي إلى ما خلّق البشر له.. وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك هو كتاب حكمة، وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة، وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر، وكما أنه كتاب واحد لكن فيه كتب كثيرة في مقابل جميع حاجات الإنسان المعنوية، كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل..»<sup>(2)</sup>.

(1) - أبو حامد الغزالي الطوسي: جواهر القرآن. تحقيق: محمد رشيد رضا القباني، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط3، 1411هـ/1990م، ص: 21-22.

(2) - بديع الزمان سعيد النورسي: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز. تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ط3، 2002م، ص: 22.

## المطلب الثاني: مفهوم العلم لغة واصطلاحاً

للفظة "العلم" تعاريف كثيرة يستطيع الباحث أن يملأ بها عدّة صفحات. كما يختلف معناها ومغزاها من تعريف إلى آخر تبعاً لاختلاف وجهات النظر لموضوع العلم وطبيعته. يرى جيمس كونانت (James.B Conant): أن الاختلاف في تعريفات العلم راجع إلى رأيين، بل نظرتين ينظرهما الناظر إلى العلم. نظرة ترى العلم شيئاً ثابتاً جامداً، ونظرة ترى العلم شيئاً متحركاً دائم الحركة. فالنظرة الأولى، النظرة الإستاتيكية، نظرة الثبوت والجمود، تضع في بُورَة الصورة، من العلم ذلك الجزء الذي يحتوي القواعد والقوانين والنظريات، ومعها ذلك الفيض العظيم مما كشف العلم، ونظم، وانتظم من حقائق. والعلم عند أهل هذه النظرة وسيلة غايتها تفسير عوامض هذا الكون الذي نعيش فيه. أما النظرة الأخرى، النظرة الديناميكية، فترى العلم شيئاً غير ثابت ولا جامد. تراه شيئاً متحركاً. تراه نشاطاً متصلاً. وكل ما جمع العلم من حقائق، فأخطر ما فيها أن منها يستطيع الباحث أن يثب إلى حقائق أخرى<sup>(1)</sup>.

ولأن هذه اللفظة العربية "العلم" تستعمل بمعنى عام، يشمل المعنى الذي تعنيه الحضارة المادية الحديثة وتزيد عليه، حيث تشمل مفهوم العلم في مجال البحث التجريبي وفي مجال البحوث الفلسفية والدينية والإنسانية. وهذا على خلاف مفهوم العلم في الحضارة العربية التي أفضت هذه الأخيرة عن وصف العلمية، بحجة كونها مسائل غيبية لا يمكن إخضاعها للتجارب المخبرية، ومن أجل ذلك كان لزاماً علينا أن نبيّن المقصود بهذه الكلمة ونستعرض مدلولاتها اللغوية، ومعانيها الاصطلاحية بشيء من التفصيل، حتى لا يختلط الأمر على قارئه. فللتعريف دور كبير في رفع الالتباس في المعاني، لاسيما إذا كان للفظ معاني متعدّدة.

## 1- / العلم لغة:

العلم لغة مصدر لكلمة "علم" وهو ضدُّ الجهل ومرادف للمعرفة واليقين والإدراك. وقد جاء في "لسان العرب" أن: « العلم نقيض الجهل، علمٌ علماً وعلّم هو نفسه [...] وعلّمْتُ الشيءَ أعلمُهُ علماً: عَرَفْتُهُ»<sup>(2)</sup>، فقد عَرَفَهُ بأنّه المعرفة. وفي "المصباح المنير" عَرَفَ العلمُ بأنه اليقين، فقال: « العلمُ: اليقين، يُقال: "علم" "يعلم" إذا تيقن، وجاء بمعنى المعرفة أيضاً، كما جاءت بمعناه، ضمّن كلُّ واحدٍ

(1) - ينظر: جيمس براينت كونانت: مواقف حاسمة في تاريخ العلم. ترجمة: أحمد زكي، دار المعارف، القاهرة-مصر، ط2، 1963م، ص: 44-45.

(2) - ابن منظور: لسان العرب. 417/12. مادة: (ع ل م).

مَعْنَى الآخِرِ لاشْتِرَاكِهِمَا فِي كَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مَسْبُوقًا بِالْجَهْلِ، لِأَنَّ الْعِلْمَ وَإِنْ حَصَلَ عَنْ كَسْبٍ فَذَلِكَ الْكَسْبُ مَسْبُوقٌ بِالْجَهْلِ»<sup>(1)</sup>. وفي "المفردات في غريب القرآن" عرّف العلم بأنه الإدراك، فقال: « العلم إدراك الشيء بحقيقته؛ وذلك ضربان؛ أحدهما: إدراك ذات الشيء. والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه. [...] والعلم من وجه ضربان: نظري وعملي، فالنظري ما إذا علم فقد كمل نحو العلم بموجودات العالم، والعملية ما لا يتم إلا بأن يعمل كالعلم بالعبادات»<sup>(2)</sup>.

وفي المعاجم الأجنبية نجد "قاموس اللغة الإنجليزية" الجديد قد عرّف العلم (Science): « بأنه المعرفة المنسقة (Systematized knowledge) التي تنشأ عن الملاحظة والدراسة والتجريب، والتي تتم بغرض تحديد طبيعة أو أسس أو أصول ما تتم دراسته، إنه فرع من فروع المعرفة أو الدراسة، خصوصاً ذلك الفرع المتعلق بتنسيق وترسيخ الحقائق والمبادئ والمناهج بواسطة التجارب والفروض»<sup>(3)</sup>. وعن أصل ومصدر هذا المصطلح "علم" (Science) جاء في الموسوعة البريطانية: « مصطلح العلم يأتي من الكلمة اللاتينية (Scientia) التي تعني "معرفة" وهو يُستعمل لوصف مجموعة كبيرة من المواضيع التي تتناول البحث عن المعرفة حول الكون وكل ما فيه. كل هذه المواضيع على حدة تُسمى علم - على سبيل المثال: علم الفيزياء أو علم الكيمياء»<sup>(4)</sup>.

## 2/- العلم اصطلاحاً:

وعن التحديد الاصطلاحي لمفهوم "العلم" عند العلماء السلف فهو يتسم بالدقة والإيجاز، كما يختلف باختلاف معرفيه، تبعاً لمجال تخصصهم. فقد عرّفه "الفلاسفة" بأنه: « حصول صورة الشيء في العقل»<sup>(5)</sup>. وعرّفه "العلماء والمتكلمين" بأنه: « ما استيقنته وتبينته، وكل من استيقن شيئاً وتبينه فقد علمه، وعلى هذا من لم يستيقن الشيء، وقال به تقليداً فلم يعلمه»<sup>(6)</sup>.

(1) - الفيومي (أحمد بن محمد بن علي المقرئ): المصباح المنير. تحقيق عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة - مصر، ط2، دت، ص: 427.

(2) - الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد): المفردات في غريب القرآن. ص: 446. مادة: (ع ل م). (3) - Webster, s. Twentieth Century: dictionary of English Language. 1960, p: 1622.

نقلا عن: رجاء وحيد دويدي: البحث العلمي أساسياته النظرية وممارساته العلمية. دار الفكر دمشق - سورية، ط1، 1423هـ - 2002م، ص: 23.

(4) - العطري بن عزوز: صياغة الإنسان بين العلم والإيمان. دار الأوطان، الجزائر، ط2، 2012م، ص: 17.

(5) - الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات. ص: 126.

(6) - أبو عمر يوسف بن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله. تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام - السعودية، ط1، 1414هـ - 1994م، 787/2.

وعرّفه "علماء الشريعة" بأنه: « العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقِهِ »<sup>(1)</sup>. وفي كتاب التعريفات نجد الجرجاني يُعرّفه بأنه: الاعتقاد الجازم المطابق للواقع. وقيل هو إدراك الشيء على ما هو به. وقيل هو صفة راسخة تُدرِك بها الكليات والجزئيات. وقيل هو وصول النفس إلى معنى الشيء<sup>(2)</sup>.

أمّا تعريف العلم عند الباحثين المعاصرين فنجدُه أكثر شمولاً كما يُحدِّدُ المعنى الذي نَقصده، فقد عرّفته رجاء دويدري بقولها: « إنَّ العلمَ يَضُمُّ كُلَّ بَحْثٍ عن الحقيقة، يَجري مُنْزَهاً عن الأهواءِ والأغراضِ، يعرِضُ الحقيقةَ صادقة، بمنهج يركِّزُ على دعائم أساسية »<sup>(3)</sup>. كما عرّفه أيمن المصري بقوله: إنَّ العلمَ « هو سلسلة القضايا التي يتعلّق بها علم الباحث عن موضوع بعينه، وتشكّل أحواله الذاتية وأحكامه الخاصة به، وتُسمّى بـ "مسائل العلم" [...] ».

فعلية إذا أردنا أن نعرّف أيّ علم، فعلياً أن نُشير إلى العنوان الكلي الذي تندرج تحته مجموع مسائله، وهو البحث عن أحوال موضوعه الخاصة به أو كما يُسمّيها الحكماء "العوارض الذاتية لموضوع العلم". فعلى سبيل المثال: إذا أردنا تعريف علم النحو - وموضوعه الكلمة من حيث البناء والإعراب - نقول: هو العلمُ الباحث عن العوارض الذاتية للكلمة من حيث البناء والإعراب. وإذا أردنا أن نعرّف علم الطبيعيات - وموضوعه الجسم من حيث التغير والسكون - نقول: هو العلمُ الباحث عن العوارض الذاتية للجسم من حيث التغير والسكون، وكذلك علم الفلسفة: هو العلمُ الباحث عن العوارض الذاتية للموجود المطلق. وهكذا سائر العلوم<sup>(4)</sup>.

وفي التّعرّف العربيّ "للعلم" نجدُه يتّسم بالجمع بين العلمِ كنظريةٍ وكتطبيق، والجمع بين العلمِ كمنهج للبحث وكمضمون معرفي، وأنَّ العلمَ يعتمد على التجربة والملاحظة<sup>(5)</sup>. فقد عرّفه جيمس كونانت (James.B Conant) بقوله: « إنَّ العلمَ سلسلة من تصوّرات ذهنيّة (concepts) ومشروعات تصوّريّة (conceptual schemes) مترابطة متواصلة هي جميعاً نتيجة لحدّين، الملاحظة والتجريب، ومن شأنها أنّها تُثمر الجديد من الملاحظة والجديد من التجريب »<sup>(6)</sup>. ويُعرّفه أوجست كونت (Auguste Comte) « معرفة القوانين الحقيقية للظواهر الطبيعيّة، ولا طريق له إلاّ التجربة »<sup>(7)</sup>.

(1) - أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين. ص: 43. كتاب: "العلم".

(2) - ينظر: الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات. ص: 126.

(3) - رجاء وحيد دويدري: البحث العلمي أساسياته النظرية وممارساته العلمية. ص: 23.

(4) - أيمن المصري: أصول المعرفة والمنهج العقلي. المركز الثقافي العربي، دت، دط، ص: 14.

(5) - ينظر: العطري بن عزوز: صياغة الإنسان بين العلم والإيمان. ص: 18.

(6) - جيمس براينت كونانت: مواقف حاسمة في تاريخ العلم. ص: 46-47.

(7) - العطري بن عزوز: صياغة الإنسان بين العلم والإيمان. ص: 17.

ومَّا سَبَقَ مِنْ تَعْرِيفِ لِكَلِمَةِ "العِلْم" لُغَةً واصْطِلَاحًا عِنْدَ العَرَبِ والعَرَبِ نَسْتَنْتِجُ:  
- أنَّ العِلْمَ هُوَ الإِحَاطَةُ التَّامَةُ بِالشَّيْءِ وَحَقِيقَتِهِ وَكَلِّيَّاتِهِ وَجُزْئِيَّاتِهِ. لَذا فَهُوَ غَيْرُ مُرَادِفٍ لِلْمَعْرِفَةِ  
أَوْ اليَقِينِ أَوْ الإِدْرَاقِ لِأَنَّهَا -هَذِهِ المِصْطَلِحَاتُ- تَنَحَصِرُ فِي الإِحَاطَةِ الجِزْئِيَّةِ أَوْ البَسِيطَةِ لِلشَّيْءِ، فَهِيَ  
أَخْصٌ مِنَ العِلْمِ.

- وَأَنَّ مَفْهُومَ العِلْمِ عِنْدَ العَرَبِ أَشْمَلٌ وَأَوْسَعُ مِنْ مَفْهُومِهِ عِنْدَ العَرَبِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اشْتَمَلَ كُلَّ  
مِنَ العُلُومِ الطَبِيعِيَّةِ وَالْعُلُومِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، أَمَّا عِنْدَ العَرَبِ فَقَدْ اقْتَصَرَ مَفْهُومُهُ عَلَى العُلُومِ  
الطَبِيعِيَّةِ القَابِلَةِ لِلدَّرَاسَةِ بِالمَنْهَجِ التَّجْرِبِيِّ، غَيْرَ أَنَّ لَاحِقًا -فِي العَصْرِ الحَدِيثِ- حَاوَلَ بَعْضُ العُلَمَاءِ  
اسْتِخْدَامَ المَنْهَجِ التَّجْرِبِيِّ وَتَوْظِيفَ الأَدْوَاتِ الإِحْصَائِيَّةِ لِدرَاسَةِ بَعْضِ الظُّوَاهِرِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالاِجْتِمَاعِيَّةِ.  
وَفِي مِمَّا يَأْتِي سَنُضَعُ مَخْطَطَيْنِ الأَوَّلَ يَبَيِّنُ تَصْنِيفَ العِلْمِ حَسَبِ "إِحْصَاءِ العِلْمِ" لِلْفَارَابِيِّ، وَالثَّانِي  
تَصْنِيفَ العِلْمِ عِنْدَ العَرَبِ "الأَوَائِلُ والأَوَاخِرُ".

### 3/- تَصْنِيفُ العِلْمِ عِنْدَ العَرَبِ:

قَامَ الفَرَابِيُّ فِي كِتَابِهِ "إِحْصَاءِ العِلْمِ" بِإِحْصَاءِ العِلْمِ المَعْرُوفَةِ فِي عَصْرِهِ؛ أَي فِي القَرْنِ العَاشِرِ  
مِيلَادِي، عِنْدَمَا بَلَغَتِ الحِضَارَةُ العَرَبِيَّةُ أَوْجَ نَضْجِهَا وَازْدَهَارِهَا، وَلَقَدْ كَانَتْ غَايَتُهُ مِنْ ذِكْرِ العِلْمِ فِي  
هَذَا الكِتَابِ الإِحْصَاءَ وَالإِحَاطَةَ بِوُجُودِ هَذِهِ العِلْمِ وَمَوْضُوعَاتِهَا. وَفِي مَقْدِمَةِ الكِتَابِ عَدَّدَ الفَرَابِيُّ  
مَنَافِعَ هَذَا الكِتَابِ وَهِيَ ثَلَاثَةٌ<sup>(1)</sup>:

الأولى: تَبْصُرَةٌ مِنْ يَرِيدُ أَنْ يَتَعَلَّمَ عِلْمًا مِنْ هَذِهِ العِلْمِ فَيَجِدُ هَذَا العِلْمَ وَمَوْضُوعَاتِهِ.

الثانية: إِكْسَابُهُ القُدْرَةَ عَلَى المِقَارَنَةِ بَيْنَ هَذِهِ العِلْمِ لِيَعْلَمَ أَيُّهَا أَفْضَلُ وَأَنْفَعُ وَأَوْثَقُ.

الثالثة: إِكْسَابُهُ القُدْرَةَ عَلَى اِخْتِبَارِ مَدَى إِحَاطَةِ مَدَّعِي العِلْمِ بِهَا وَتَضَلُّعِهِمْ مِنْهَا.

فَالكِتَابُ يَعْطِي القَارِئَ فِكْرَةً عَنِ مَخْتَلَفِ العِلْمِ المَشْهُورَةِ، تَعِينُهُ عَلَى مَعْرِفَةِ مَحْتَوِيَّاتِهَا، وَقِيَمَتِهَا

والمَنَافِعَ الَّتِي تَقْدِمُهَا.

وَقَدْ قَسَمَ الفَرَابِيُّ كِتَابَهُ إِلَى خَمْسَةِ فِصُولٍ: الأَوَّلُ عِلْمَ اللُّسَانِ، وَالثَّانِي عِلْمَ المَنْطِقِ، وَالثَّالِثُ عِلْمَ

التَّعَالِيمِ، وَالرَّابِعُ العِلْمَ الطَبِيعِيَّ وَالعِلْمَ الإِلَهِيَّ، وَالخَامِسُ العِلْمَ المَدِينِيَّ وَعِلْمَ الفِقْهِ وَعِلْمَ الكَلَامِ.

وَيَتَفَرَّعُ عَنِ كُلِّ عِلْمٍ أَجْزَاؤُهُ الخَاصَّةُ بِهِ. أَنْظَرُ: شَكْلٌ -1-.

(1) - يَنْظُرُ: أَبُو نَصْرِ الفَرَابِيِّ: إِحْصَاءُ العِلْمِ. تَقْدِيمُ وَشَرْحُ: عَلِيُّ بُو مَلْحَمٍ، دَارُ الهَلَالِ، بَيْرُوت-لُبْنَانِ، ط1، 1996م،  
ص: 5-8.

المخطط الأول: تصنيف العلوم حسب "إحصاء العلوم" للفارابي (1):



شكل -1-

(1) - ينظر: أبو نصر الفارابي: إحصاء العلوم.

المُخطط الثاني: تصنيفُ العلومِ عنِ العربِ "الأوائل والأواخر" (1):



شكل -2-

(1) - رجاء وحيد دويدي: البحث العلمي أساسياته النظرية وممارساته العلمية. ص: 37.

### المطلب الثالث: موقف القرآن من العلم

إن مضمون العلم الذي أمر به القرآن الكريم، هو جملة المعارف التي يدركها الإنسان بالنظر في ملكوت السموات والأرض، وما خلق من شيء، ويشمل الخلق هنا كل موجود في هذا الكون ذي حياة أو غير ذي حياة؛ فالعلم في القرآن يتناول كل موجود، فهو علم أعم من العلم الذي يراد لأداء الفرائض والشعائر؛ لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام، إذ كان خير عبادة لله أن يهتدي الإنسان إلى سر الله في خلقه، وأن يعرف حقائق الوجود في نفسه ومن حوله<sup>(1)</sup>. يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:9]، وقال رسول الله ﷺ «فضل العالم على العابد كفضلي على أذنائكم» [رواه الترمذي].

#### 1- مادة "علم" في القرآن ودلالاتها:

##### أ- إحصاء جذر "علم" في القرآن:

لقد تعرض القرآن في آيات كثيرة منه إلى موضوع العلم، من خلال المفردة اللغوية "علم" وقد قمنا بإحصاء اسم العلم متكرراً أو معرفاً ومشتقاً فوجدناه قد ورد في القرآن الكريم في أربعة وخمسين وثمانمائة "854" مورداً. فلفظ العلم تكرر تسع وعشرين "29" مرة، وعلم اثني وستين "62" مرة، وكل من لفظ معلم وعلماء والعلماء ورد مرة واحدة، العليم تكرر اثني وثلاثين "32" مرة، وعليه تكرر ست ومائتين "106" مرة، وعالم تكرر ثلاث عشرة "13" مرة، وهناك صيغ أخرى تكرر كثيراً أيضاً. كما تكرر فعل "تعلمون" في خطاب الجمع ست وخمسين "56" مرة، بالإضافة إلى ثلاث "3" مرات بصيغة "فستعلمون"، وخمس "5" مرات بصيغة "تعلموا"، وأربع وثمانين "84" مرة بصيغة "يعلمون"، وخمس "5" مرات "يعلموا"، ونحو إحدى وأربعين "41" مرة تكرر فعل "علم"، و"يعلم" ثلاث وثمانين "83" مرة، تعلم عشرة "10" مرات. وغير ذلك مما يشتق من جذر "علم" وما يتعلق به.

وكل هذا التكرار لهذه المادة ومشتقاتها دليل يؤكد على فضل العلم وبإلغ أهميته في نظر القرآن الكريم، ودعوة لتبنيه الأذهان إلى أهمية البحث وإعمال النظر والفكر. وفيما يأتي نضع جدولاً لإحصاء جذر "علم" في سور القرآن الكريم.

### جدول إحصاء جذر "ع ل م" في القرآن

رقم	السورة	ع ل م	رقم	السورة	ع ل م	رقم	السورة	ع ل م
01	الفاتحة	01	30	الروم	10	59	الحشر	02
02	البقرة	102	31	لقمان	08	60	المتحة	04
03	آل عمران	40	32	السجدة	03	61	الصف	02
04	النساء	27	33	الأحزاب	09	62	الجمعة	04
05	المائدة	29	34	سبأ	09	63	المنافقون	02
06	الأنعام	44	35	فاطر	06	64	التغابن	05
07	الأعراف	28	36	يس	08	65	الطلاق	03
08	الأنفال	19	37	الصفات	07	66	التحریم	02
09	التوبة	32	38	ص	04	67	الملك	04
10	يونس	14	39	الزمر	12	68	القلم	05
11	هود	14	40	غافر	10	69	الحاقة	02
12	يوسف	33	41	فصلت	07	70	المعارج	02
13	الرعد	08	42	الشورى	08	71	نوح	01
14	إبراهيم	03	43	الزحرف	08	72	الحن	03
15	الحجر	12	44	الدخان	05	73	المزمل	03
16	الحل	28	45	الجاثية	08	74	المدثر	01
17	الإسراء	10	46	الأحقاف	03	76	الإنسان	01
18	الكهف	12	47	محمد	06	77	المرسلات	01
19	مریم	04	48	الفتح	07	78	النبأ	02
20	طه	10	49	الحجرات	08	81	التكوير	03
21	الأنبياء	17	50	ق	03	82	الانفطار	02
22	الحج	14	51	الذاريات	02	83	المطففين	01
23	المؤمنون	06	52	الطور	01	84	الانشقاق	01
24	النور	20	53	النجم	08	87	الأعلى	01
25	الفرقان	03	54	القمر	01	96	العلق	04
26	الشعراء	25	55	الرحمن	03	100	العاديات	01
27	النمل	15	56	الواقعة	05	102	التكاثر	04
28	القصص	15	57	الحديد	07			
29	العنكبوت	23	58	المجادلة	04			
		المجموع الكلي						
		عدد الآيات						
		عدد السور						
		854						
		756						
		85						

#### ملاحظة:

- تكررت لفظ "علم" 582 مرة، في 78 سورة و484 آية.
- تكررت لفظ "عليم" 161 مرة، في 43 سورة و161 آية.
- تكررت لفظ "عالم" 91 مرة، في 39 سورة و91 آية.
- تكررت لفظ "علوم" 13 مرة، في 9 سورة و13 آية.
- تكررت لفظ "علاّم" 7 مرة، في 6 سورة و7 آية.

## ب- دلائل لفظ "علم" في القرآن:

لقد جاء لفظ "العلم" في أغلب مواضعه في القرآن الكريم بمعنى معرفة الشيء على ما هو عليه، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود:5]، غير أن العلم ورد في مواضع أخرى من القرآن على دلالات أخرى وهذه الدلالات والمعاني الخاصة بلفظ العلم ذكرها النيسابوري في كتابه "وجوه القرآن" على ستة عشر وجهًا وهي (1):

أحدها: ضد الجهل، كقوله: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة:32]، وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:22].  
والثاني: الإلهام، كقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31]، وقوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:5].

والثالث: البيان، كقوله: ﴿وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:145]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَلْهَامٌ بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران:19].  
والرابع: التمييز، كقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة:143]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبأ:21].

والخامس: التعليم، كقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:151]، وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن:1-2].

والسادس: الثبوت، كقوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [البقرة:197].

والسابع: الرؤية، كقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران:142]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا

(1) - ينظر: النيسابوري (أبو عبد الرحمن إسماعيل بن أحمد الحيري): وجوه القرآن. تحقيق وتعليق: نجف عرشي، مراجعة: ناصر النجفي. مؤسسة الطبع والنشر الأستانة الرضوية المقدسة، ط2، 1432هـ، ص: 401-403. كتاب العين، باب العلم.

الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورأسه بالغيب إن الله قوي عزيز ﴿الحديد: 25﴾.  
 والثامن: الإنبات، كقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال: 22-23].  
 والتاسع: الحفظ، كقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۗ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: 114].

والعاشر: الفهم، كقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۗ وَكُلًّا ءَايَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۗ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۗ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: 79]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَايَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: 15].  
 والحادي عشر: اسم الله، يا حيُّ يا قيُّوم، كقوله: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايِكَ بِهِ ۗ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: 40]، قال ابن عباس: اسم الله الأعظم، يعني يا حيُّ يا قيُّوم.

والثاني عشر: الصدق، كقوله: ﴿فَإِنْ طَلَفَهَا فَلَاجُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة: 230].  
 والثالث عشر: الثواب، ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنْفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت: 11].  
 والرابع عشر: الثبوت، كقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: 19].

والخامس عشر: العمل، كقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: 9].  
 والسادس عشر: العلم شرط من أشرط السَّاعة، كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُون ۗ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [الزخرف: 61]، يعني أنَّ عيسى عليه السلام شرط من أشرط السَّاعة.

الملاحظ أنَّ هذه الدلالات التي جاء عليها لفظ "العلم" في القرآن الكريم، كُلُّها تحمل معاني محدَّدة، يقتضيها السِّياق الذي جاءت فيه، ورغم ذلك نجد أنَّه لا تعارض بينها ولا تنافر بل هي في المحصلة ترجع إلى المعنى الرَّئيس من لفظ "العلم"، وهو العلم بالشيء ومعرفة على حقيقته. وما يعنيه ثراء معاني هذه الكلمة وغنى دلالاتها في القرآن الكريم هو الاهتمام البالغ والعناية الفائقة التي حظي بها العلم في القرآن، وذلك من خلال رفع مكانته، وزيادة فضله، والدعوة إليه، والحثُّ على طلبه.

## 2/- العلم كما وصفه الله في القرآن ودما إليه:

### أ- العلم كما وصفه الله في القرآن:

على كثرة الآيات التي تحدتت عن العلم فإنه لم يرد في القرآن الكريم تحديداً دقيقاً لمفهوم العلم - ولعل الحكمة في ذلك « أن يكون العلم ميداناً واسعاً ليس لجوانبه عدو، ومضمناً كبيراً ليس لنهايتها حد، ليشمل كل ما ينتفع به العبد في أمور دينه ودنياه »<sup>(1)</sup> - ولكن في مقابل ذلك نجد أن النص القرآن ذكر وصفاً بليغاً للعلم وذلك بأنه؛ « نور خارج عن ذواتنا وعن ذوات الأشياء، به نجد أنفسنا، ونعلم الواقع الخارجي، وهذا العلم مخلوق إلهي يضعه الله في قلب من يشاء، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور:40]. وقول الله تعالى: ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:122]»<sup>(2)</sup>.

وإن وصف العلم بأنه نور، كما عبرت به الآيات، « فهو حالة تشبيهية لتقريب المعنى إلى الأذهان، فيما أن النور يكشف به الظلام وتبصر به الطريق، فالعلم يكشف به الضلال، ويكون بصائر لمعرفة الحياة »<sup>(3)</sup>. ففي قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ [الرعد:16]، يبين لنا الله تعالى أن الظلمة مثال لحال من لا يعلم وأن النور مثال لحال من يعلم، فتبين من ذلك أن عدم العلم يشبه الظلام. وفي قوله جل ثناؤه: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:9] وهو استفهام إنكاري معناه أنه لا يستوي عالم وجاهل<sup>(4)</sup>.

فالنور هو « أقصى ما يمكن أن نصيف به حقيقة العلم أنه حقيقة موجودة، بسيطة نورانية تكشف نفسها بنفسها وتكشف غيرها، والإنسان واجد لتلك الحقيقة بعد أن كان فاقداً لها، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:78]، ودليل خروج هذا النور عن ذات الإنسان، آية القبض والبسط، فيسئطه الله على روح الإنسان فيعلم، ويرى، ويشعر، ويقبضه فيجهل وينسى، ويفقده عند النوم، والشكر، والإغماء. قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة:245]»<sup>(5)</sup>.

(1) - خليل بن عبد الله بن عبد الرحمن الحديري: منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم. ص: 48.

(2) - معتصم السيد أحمد: الهرمنيوطيقا في الواقع الإسلامي بين حقائق النص ونسبية المعرفة. دار الهادي، بيروت-لبنان، ط1، 1430هـ-2009م، ص: 117.

(3) - المرجع نفسه. ص: 119.

(4) - ينظر: سعيد إسماعيل علي: القرآن الكريم رؤية تربوية. ص: 281.

(5) - معتصم السيد أحمد: المرجع نفسه. ص: 119.

وعليه فالعلم نور الله في الكون وذلك لكشف الحقيقة المتمثلة في فعل الله وأثره في الوجود، وضيء للطريق الطبيعي المؤدّي لرؤية آثار الخالق وإدراك وجوده ووحدانيته. والقرآن يربط الإنسان روحياً بخالق الكون<sup>(1)</sup>.

### ب- دعوة القرآن للعلم والحث عليه:

عند النظر في المصادر التي تناولت مناسبة النزول لآيات القرآن الحكيم نجد أنها تذكر أنّ أوّل ما نزل دعوة صريحة للعلم حيث أمرت بالقراءة وهي مفتاح العلم، وتوّمت بالقلم وهو أوّل أداة لنقل العلم وتحصيله، قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: 1-5]. في توضيح معنى هذه الآيات يقول القرضاوي «أمرت الآيات الكريمة بالقراءة مرتين والأمر لرسول الله بالأصالة، ولكل من يأتي خطابه بالتبّع. والقراءة هي وسيلة التّعلم، ومفتاح العلم، سواء فسّرنا القراءة بالمعنى الحقيقي، وهي القراءة للكتاب المسطور، أم فسّرناها بالمعنى المجازي، وهي القراءة لكتاب الكون المشهود على نحو ما قال الشاعر:

تأمل سُطُورَ الكَائِنَاتِ، فَإِنَّهَا مِنْ المَلَأِ الأَعْلَى إِلَيْكَ رَسَائِلُ  
وقَدْ حُطَّ فِيهَا لَوْ تَأَمَّلْتَ سَطْرَهَا: الأَكْلَ شَيْءٌ مَا خَلَا اللهُ بَاطِلٌ»<sup>(2)</sup>.

فَالوحي الإلهي استهلّ خطابه للرسول ﷺ بالأمر ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1]، وأردف هذا الأمر بأمر آخر بالقراءة ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: 3]. ويبدو أنّ الأمر الثاني بالقراءة ليس تأكيداً محضاً للأمر الأوّل، وإنما «طُلبت من الرسول قراءتان: قراءة تأتي عبر التعلّق بقدرته الله المطلقة في الحركة الكونية، ودون كيفية محدّدة، تتجلى في الاتجاه بالعلقة إلى مرحلة الإنسان، كما تتجلى في الاتجاه بالحياة إلى الموت والموت إلى الحياة. وهي قراءة كونية شاملة لآثار القدرة الإلهية وصفاتها وخلقتها للظواهر ذات المعنى، وتحديد هدف حق للخلق. قراءة خالصة لقدرة الله في كتاب كونيّ مفتوح. هنا تأتي القراءة باسمه المقدّس، أي قراءة بالله بوصفه خالقاً والخلق صفة يتفرّد به الله»<sup>(3)</sup>. وقراءة ثانية «ليست هي باسمه ولكن بمعنيته» لذلك لم تأت الآية في الشطر الثاني على نحو المقدمة، فلم يقل «واقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْأَكْرَمُ» ولكن «اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ» فجعل العطف على الربوبية وأعطى الأمر الثاني «اقْرَأْ» اتجاهها مستقبلاً، والأمر واضح بالنسبة إلى حركة الواو في القراءة الثانية.

(1) - ينظر: عبد العليم عبد الرحمن خضر: الطبيعيات والإعجاز العلمي للقرآن الكريم. الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط1، 1406هـ-1986م، ص: 20.

(2) - يوسف القرضاوي: العقل والعلم في القرآن، ص: 207.

(3) - محمد أبو القاسم حاج محمد: العالمية الإسلامية الثانية - جدلية الغيب والإنسان والطبيعة. دار الهادي، بيروت - لبنان، ط1، 1425هـ-2004م، ص: 228-229.

فدليل المعية هنا في "ورثك". ثم يتخذ الله في القراءة الثانية صفة ذاله على نوعية القراءة المطلوبة، وهي قراءة متعلقة بصفة كون الله كريماً فيما خلق. أي كرم التسخير وتشكيل الظواهر ذات المعنى بالنسبة للإنسان. أي إنها قراءة في عالم الصفات التي تتجلى في الخلق، وعالم الصفات عالم موضوعي، ولذلك جاءت القراءة هـ نا عبر علم متعلق بالقلم، والقلم بالنسبة للإنسان "وسيط خارجي" لمعرفة موضوعية وليست ذاتية<sup>(1)</sup>.

إذاً، ففي هذه الآية بالذات تم الربط والجمع بين علمين: علم رباني مفتوح على السجل الكوني، متعلق بقدره الله المطلقة. وعلم موضوعي قائم على أطر موضوعية محددة في الكون المنظم وشروط الحركة وقوانينها وأشكال الظواهر وخصائصها الطبيعية. فهما قراءتان "ربانية وإنسانية" تتم الأولى بالله والثانية بمعينه. وكل قراءة هي وجه للقراءة الأخرى وتدل عليها وتعود إليها<sup>(2)</sup>.

والقرآن - كما يقول عبد الجليل مرتاض - في كثير من آياته يحث الإنسان الجديد على العلم وذلك بالبحث والتقصي والتجريب، فيما يمجج ويسكن حوله من آيات ربانية ماثلة في عناصر كونية، هي كلها حجة عليه، وبإمكانه بالثقافة والبحث العلمي أن يروضها ويجعلها طوع بانه، وهذا ما حاول السلف المبكر أن يستوعبه ويضطلع به. فالقرآن يثبث الشعور العلمي بما يحيط بالقوم، وبدون استثناء، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية: 17-20]، أو كقوله: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِبْرِ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ ﴿[الرحمن: 33]﴾<sup>(3)</sup>.

### 3- / مَجَالَاتُ الْعِلْمِ فِي الْقُرْآنِ وَمِنْهَجُهُ فِي مَعَالِجَتِهَا:

#### مجالات العلم في القرآن

أشار القرآن الكريم إلى جميع أنواع العلم ومجالاته التي تتصل بكل منافع الناس في دينهم ودنياهم، وأشار إلى الكثير من الحقائق العلمية التي ثبت بعضها بعد تقدم العلم والاكتشافات، والتي لم يظهر الكثير منها حتى الآن ولا تزال في طي الغيب. والقرآن حينما يتحدث عن العلوم، فليس معنى ذلك أنه يضع التفاصيل التي تُبنى عليها هذه العلوم، أو الطرق التي يجب أن تتبعها في دراستنا لها، بالأسلوب التعليمي المعروف، وإنما المقصود أنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته

(1) - محمد أبو القاسم حاج محمد: العالمية الإسلامية الثانية - جدلية الغيب والإنسان والطبيعة. ص: 228-229.

(2) - ينظر: المرجع نفسه، ص: 229.

(3) - ينظر: عبد الجليل مرتاض: علم اللسان الحديث في القرآن. دار هومة، الجزائر، دط، 2013م، ص: 11-12.

لصلاح دينه وديناه، ولبلوغه درجة الكمال جسداً وروحاً، وتُركت معرفة هذه التفاصيل، واستنباط تلك الطرق لعقول البشر، التي وهبها الله قوة التفكير نستطيع بها أن نتبكر وتستنبت النظريات، ولأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ليسيئوا للناس جزئياً<sup>(1)</sup>. والقرآن كما هو معلوم أيضاً أنه « لم يجيء ليعلمنا العلوم، بل جاء ليحثَّ العقول على تعلم العلوم والنظر في الكون والإنسان، لتتكشف الأسرار الغامضة، على أن يتعاون الوحي مع العقل في استقراء الحقائق من الكتابين، فالقرآن كلام الله وكتابه المسطور، والكون خلق الله وكتابه المنظور والحقيقة مبنوثة فيهما»<sup>(2)</sup>.

ولقد اشتمل القرآن على 6236 آية منها حوالي 750 آية كونيّة وعلميّة، احتوت قوانين ومبادئ وخطوطاً رئيسيّة من علم الفلك، وعلم الجيولوجيا، وعلم الجين والوراثة، والطب الوقائي والتّعددين، والصنّاعة، والتجارة، والمال والاقتصاد وغيرها، سبقت بما جاء فيها بقرون ما اكتشفه وتأكد منه العلم اليوم. واحتوت باقي الآيات على كلّ علم مفيد للإنسان، فيه علم العقيدة بالله وعلم القانون وعلم الأخلاق وعلم الاجتماع. وكلّ ما يتصل ببناء المجتمع، وفي رسم شخصيّة المسلم الكامل خُلُقاً وأدباً وعِلماً وفيما يجب أن يحتديه من المثلى العُلَيَا، وما يتحلّى به من مكارم الأخلاق. وهي كاملة مُفصّلة في التنزيل والحديث والسيرة. وقد وقّاهَا أكثر الباحثين حقّها بشروح مُستفيضة في عشرات الألوف من الأبحاث. وفيه علم التّربية وعلم البلاغة، لا بل هو البلاغة بحدّ ذاتها. وهو الذي أعنى اللّغة العربيّة بمعاني المفردات وأمدّها بما مثيراً قارئه للبحث عن حقائقها وماهياتها<sup>(3)</sup>.

### 1- أقسام الآيات القرآنيّة ذات الدلالات العلميّة

لقد صنّف الباحثون الآيات القرآنيّة التي تتضمّن إشارات علميّة إلى ثلاث فئات رئيسيّة

هي<sup>(4)</sup>:

أولاً- الآيات التّصريحية: وهي الآيات التي ذُكرت فيها الإشارات العلميّة لظاهرة كونيّة صراحةً:

مثل قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس: 38].

ثانياً- الآيات التّلميحية: وهي الآيات التي وُردت فيها الإشارة العلميّة للآية الكريمة على

(1) - ينظر: حسن عباس الأنصاري: العلم في رحاب الله - الأدلة العلمية على وجود الله ووحدانته. المكتبة العالمية، القاهرة، مصر، دط، دت، ص: 138. وينظر: سعيد إسماعيل علي: القرآن الكريم رؤية تربوية. ص: 294.

(2) - العطري بن عزوز: صياغة الإنسان بين العلم والإيمان. ص: 35.

(3) - ينظر: عدنان الشريف: من علم الطب القرآني الثوابت العلمية في القرآن الكريم. دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط5، 2001م. ص: 10-11. وينظر: سعيد إسماعيل علي: القرآن الكريم رؤية تربوية. ص: 294.

(4) - ينظر: نضال رسمي محمد العامودي: أثر إثراء محتوى منهاج العلوم بمضامين الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في تنمية مهارات التفكير العلمي والمبادئ العلمية لدى طلاب الصف السابع بغزة. رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة-فلسطين، 1435هـ-2013م، ص: 18.

شكل إشارة سريعة، دون ذكرها مباشرة، ولكنها تحت على تأمل الظاهرة وتدعو إلى التفكير العلمي فيها مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125].  
ثالثاً- الآيات التضمينية: وهي الآيات التي تكون فيها الإشارة العلمية تحتاج إلى استنباط من قبل العلماء في مجال تخصصهم أو اهتمامهم وكذلك علماء التفسير مثل قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41].

فالإشارات العلمية لتلك الآيات جاءت إجمالية ومختصرة؛ لأن القرآن الكريم نزل على أمة شبه أمية، يسود فيها الجهل، لذا يمكن فهم فحواها العام بسهولة، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد حضّ الناس على التفكير المتعمق في تلك الآيات وخصّ بالذكر أولي العلم كما أخبرنا جل ثناؤه: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 49]<sup>(1)</sup>.

## 2- أمثلة لبعض مجالات العلم في القرآن

وفيما يأتي أمثلة لبعض مجالات العلم كما أشارت إليها آيات قرآنية<sup>(2)</sup>:

1- مجال الفلك: ومن أمثلة الآيات المتصلة به، قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: 33]. وقوله: ﴿وَأَيُّهُمُ اللَّهُمَّ إِلَهُ الْيَلِّ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾<sup>(37)</sup> وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ<sup>(38)</sup> وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ<sup>(39)</sup> لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 37-40].

2- مجال الجغرافيا: نجد من الآيات الأمثلة التالية: قوله جل ثناؤه: ﴿وَاللَّيْلِ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 15]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: 53].

3- علوم الاجتماع: ومن أمثلة الآيات التي تناولت الصلات البشرية قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21]، و﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: 13].

(1) - ينظر: نضال رسمي محمد العامودي: أثر إثراء محتوى منهاج العلوم بمضامين الإعجاز العلمي في القرآن. ص: 18-19.

(2) - ينظر: سعيد إسماعيل علي: القرآن الكريم رؤية تربوية. ص: 294-297.

4- علوم الطب وعلوم النفس: ومن أمثلة الآيات التي وصفت تكوين الإنسان العقلي

والجسماني، قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: 5-7]، وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: 7-10].

5- علوم الطبيعة والكيمياء: ومن أمثلة آيات القرآن التي تشير إلى تكوين الجَمادات قوله جل جلاله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَلْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَلْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: 73]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: 25].

إذا فقد تعرّض القرآن الكريم لكثير من المجالات والميادين العلمية في آياته الكريمة، وعالجها في إطار المنهج العام للقرآن الكريم الذي سنتحدث عنه فيما يأتي:

### ب- المنهج العلمي للقرآن الكريم في معالجة مجالات العلوم

لقد تضمّن القرآن الكريم منهجاً علمياً ودعاً إليه، بوصفه أولاً: كتاب هداية وتشريع ودستوراً جامعاً للحياة الإنسانية المثلى إلى يوم الدين. وليس كتاباً في الطب أو الفلك أو تاريخ الأحياء، وبوصفه ثانياً: الطريق الصحيح لاكتشاف بعض السنن والقوانين، وبوصف هذا التقدّم والاكتشاف من عمل الإنسان في جميع العصور.

فعلميّة القرآن لا تكمن في عدد السنن والقوانين والحقائق العلميّة التي أشار إليها أو "أسهم" فيها في "تاريخ تطوّر العلم" أو تاريخ العلم، ولكن في "المنهج العلمي" الذي جاء به، والشروط النفسانية والاجتماعية التي أشاعها، أي في المناخ العقلي والعلمي الذي أوجده. والذي يسمّح للإنسان أن يفكر ويلاحظ ويحرّب، دون أن يصدّه عن ذلك صاعداً، أو يقف في وجهه معترضاً (1).

وفيما يأتي سنتكلّم عن المنهج العلمي للقرآن الكريم، ولكن قبل ذلك يجدر بنا المقام الإشارة إلى المنهج العام للقرآن الذي عالج به كثيراً من مجالات العلوم.

### ب1- المنهج العام للقرآن الكريم: لقد عالج القرآن الكريم كثيراً من مجالات العلوم إلا أن معالجته

كانت في إطار المنهج العام للقرآن الكريم والذي يتمثّل فيما يأتي (2):

(1) - ينظر: عدنان محمد زرزور: علوم القرآن الكريم وإعجازه. ص: 395-356.  
 (2) - ينظر: سعد الدين السيد صالح: المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم. دار المعارف القاهرة مصر، ط2، 1993. ص: 181-183.

أولاً: أنه كتاب الكليات لا الجزئيات: ومن هنا كانت معالجته هذه العلوم مُعالجة كلية، ثم جاء العلماء وأخذوا هذه الكليات فبنوا عليها ما بنوا من النظريات والحقائق الجزئية. فالفقهاء أخذوا ما ورد في القرآن من أحكام الحلال والحرام وبسطوا القول فيها، فكان نتيجة ذلك ظهور علم الفقه والأصوليون نظروا إلى ما فيه من أدلة وبراهين وألفاظ عامة وخاصة وظاهرة ومُجملة، ومُحكمه ومُتشابهه، وأدلة وأقيسه فبنوا على ذلك علمي أصول الفقه، والمنطق الإسلامي. والفلاسفة المنصفون نظروا إلى ما فيه من حقائق إلهية وكونية وإنسانية فكان من ذلك علم الفلسفة الإسلامية الذي هدّم كل الفلسفات السابقة التي اعتمدت على مجرد العقل غير المعصوم. وعلماء النفس نظروا إلى ما فيه من أحاديث عن النفس الإنسانية وغرائزها وقواها فكانت النتيجة ظهور علم نفس إسلامي أصيل. وعلماء الاقتصاد نظروا إلى ما فيه من القوانين الكلية التي تحكم نشاط الإنسان الاقتصادي ومعاملاته فوضعوا بناءً على ذلك علم الاقتصاد الإسلامي. وعلماء السياسة أيضاً استنبطوا مما ورد في القرآن عن أصول العلاقة بين الحاكم والمحكوم، النظرية السياسية الإسلامية. وكذلك فُل عن علوم التوحيد والاجتماع وعلوم اللغة وغيرها. واليوم ينظر علماء الأجنّة والفلك والطبيعة وغيرهم في القرآن فيستنبطون ما فيه من الحقائق العلمية، ولا شك أن اتساع مجالات الإعجاز العلمي في القرآن إنما شكّل بُرهاناً آخر على أن هذا القرآن لا يمكن إلا أن يكون من عند الله رب العالمين.

ثانياً: فصل القرآن بين طبائع العلوم ومناهجها:

- ففيمّا يتعلّق بعلوم العقيدة التي ترتبط بالعقائد التي لا مجال للعقل فيها، حسَم القرآن فضايها حتى لا يضلّ العقل فيها.
- وأمّا علوم الشريعة، فقد أشار إلى كلياتها وتركّ للعلماء الاجتهاد في الأحكام الكلية وتطبيقها على ما يستجدّ من الحالات الجزئية.
- وأمّا العلوم العملية والتجريبية، فقد كشف القرآن عن بعض حقائقها العلمية ولكنه لم يحدّد قوانينها الجزئية ولا كيفية الوصول إليها، بل تركّ الأمر كاملاً للإنسان وأطلق فيه العنان لعقله وفكره ونظره يُبدع ويستنتج كما يشاء.

ثالثاً: العطاء المتجدّد لكلّ عصرٍ ولكلّ عقلٍ فأيات القرآن الكريم لا ينتهي عطاؤها أبداً: ولا

شكّ أن موضوع العلم واهتمامات العقل تختلف من عصرٍ إلى عصرٍ على حسب حاجات الناس وظروفها، ففي عُصور البلاغة والفصاحة والبيان كان القرآن هو المعجزة البيانية التي أفحمت أساطين

البيان، وفي العصر الحديث عصر العلوم التجريبية والنظريات العلمية، وجه العلماء أنظارهم إلى القرآن الكريم فوجدوا فيه الكثير من الحقائق العلمية التي وصل إليها العلماء المتخصصون من خلال التجارب والأبحاث والمختبرات. وليس هذا أمراً غريباً، إنما هي طبيعة القرآن الذي يحمل بين طياته دليل صدقه لأهل العصور على مرّ الدهور.

ب2/- **خُطُواتِ المنهج العلمي في القرآن:** لقد رسمت الآيات القرآنية خطوات هذا المنهج ومرآجه، على النحو التالي<sup>(1)</sup>:

1- أَرَاخَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عَنِ كَاهِلِ الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ كُلِّ مَا يَعُوقُهُ عَنِ الْمَلَاخِظَةِ وَالتَّفَكُّرِ، سَوَاءَ أَكَانَ ذَلِكَ مِنْ مَوْرُوثَاتِ الْبَيْئَةِ "أَيُّ الْمَاضِي" قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتِ وَالتَّنْذُرِ عَنِ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101]. أَوْ مِنْ ضَعْفِ الْمُجْتَمَعِ "الْحَاضِرِ مِنْ حَوْلِ الْإِنْسَانِ" قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُتَفَرِّقِينَ وَفِرَادَىٰ تُفَرِّقُونَ﴾ [سبأ: 46].

2- أَوْضَحَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ بِجَلَاءِ، وَفِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، أَنَّ الْكُونَ خَاضِعٌ لِسُنَنِ كَوْنِيَّةٍ ثَابِتَةٍ، وَأَنَّهُ يَتَّصِفُ بِالْحَرَكَةِ، وَالانْتِظَامِ، وَالْكَمِّيَّةِ، وَالتَّقْدِيرِ وَالتَّصْنِيفِ. فَوْقَ مَا جَاءَ فِيهِ مِنْ وَصْفٍ شَامِلٍ لِلطَّبِيعَةِ لَمْ يَقْصُرْ عَلَى السَّمَاءِ دُونَ الْأَرْضِ، وَلَا عَلَى الْجَمَادِ دُونَ النَّبَاتِ، وَلَا عَلَى الْإِنْسَانِ دُونَ الْحَيَوَانِ.

3- صَوَّرَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عِلَاقَةَ الْإِنْسَانِ بِالطَّبِيعَةِ عَلَى أَنَّهَا عِلَاقَةٌ مَخْلُوقٍ بِمَخْلُوقٍ، وَعَلَى أَنَّهَا عِلَاقَةٌ مَخْلُوقٍ سَامٍ بِمَخْلُوقٍ مُسَخَّرٍ، فَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ، وَالفَلَكُ وَالأَنْهَارُ وَالبِحَارُ.. وَكُلُّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مُسَخَّرٌ لِلْإِنْسَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَبْنِغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ <sup>ع</sup> إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 12-13].

4- وَعَنِّي عَنِ الْبَيَانِ أَنَّ نُشِيرَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ أَمْرِ الْإِنْسَانِ بِالنَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالاِعْتِبَارِ وَالتَّضَرُّبِ فِي الْأَرْضِ، وَالبَحْثِ فِي مَيَادِينِ التَّارِيخِ وَالتَّبِيعَةِ وَالتَّنَفُّسِ وَالمُجْتَمَعِ وَمَا وَرَدَ فِيهِ كَذَلِكَ مِنْ مَادَّةِ "العقل" و"النظر" ونحو ذلك، فِي عَشْرَاتِ الْمَوَاضِعِ، وَفِي شَتَّى السِّيَاقَاتِ وَالمَجَالَاتِ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ <sup>ع</sup> ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النُّشَاةَ الْآخِرَةَ <sup>ع</sup> إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: 20].

(1) - ينظر: عدنان محمد زرزور: علوم القرآن الكريم وإعجازه. ص: 397-403.

5- وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِشَارَاتٌ كَثِيرَةٌ حَوْلَ بَعْضِ الْقَضَايَا الْكُوْنِيَّةِ وَالسُّنَنِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَحَوْلَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ... جَاءَتْ كإِطَارٍ أَوْ حَوَافِزٍ لِلْعَقْلِ الْإِنْسَانِي، تُضَافُ كِتَابَةً عَلَى هَذَا الْمَنْهَجِ وَتِلْكَ الْمَقْدِّمَاتِ، وَعَلَى نَحْوِ يَتَمُّ إِدْرَاكُهُ وَالْوُقُوفُ عَلَيْهِ خِلَالَ الْعُصُورِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْإِشَارَاتِ لَمْ يُرَدِّ لَهَا أَنْ تَكُونَ بَدِيلًا عَنِ الْعَقْلِ الْإِنْسَانِيِّ أَوْ التَّجْرِبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْمَنْهَجُ يُمَثِّلُ الطَّرِيقَ الَّذِي يَهْدِي الْإِنْسَانَ حَتَّى لَا يَضِلَّ فِي تَعَامُلِهِ مَعَ الطَّبِيعَةِ كَمَا ضَلَّتْ مِنْ قَبْلِ أُمَّمٍ وَشُعُوبٍ كَثِيرَةٍ، فَإِنَّ هَذِهِ الْإِشَارَاتِ -التَّطْبِيقِيَّةِ- تَأْتِي فِي بَابِ الشُّوَاهِدِ عَلَى الْبُعْدِ الزَّمَانِيِّ لِلْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ لَا يَلْحَقُهُ بَاطِلٌ فِي قَادِمَاتِ الْأَيَّامِ... بَلْ تَأْتِي فِي بَابِ التَّأَكِيدِ الْمُسْتَمِرِّ عَلَى مَصْدَرِ هَذَا الْكِتَابِ الْخَالِدِ، وَأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ. كَلَّمَا ارْتَقَتْ بِالْإِنْسَانِ بَحَارِهِ وَعُلُومُهُ، أَوْ كَلَّمَا عَادَ إِلَى تِلْكَ الْإِشَارَاتِ فَفَهِمَ مِنْهَا مَا لَمْ يَكُنْ قَدْ عَرَفَهُ أَوْ وَقَفَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53].

وما يمكن أن نستنتجه مما سبق أن "الامْتِثَالَ" لهذين المنهجين العام والعلمي، ولخطواتهما التي جاءت في القرآن الكريم هي التي تؤدي إلى معرفة القوانين والوقوف على السنن.. الأمر الذي يتمكن معه العالم فيما بعد (عالم الطبيعة ومفسر القرآن) من إجراء المطابقة بين الاكتشاف ونصوص القرآن. أو يتمكن من إقامة الدليل الحسبي والبرهان المادّي على صحّة "الفرضية" التي أوحّت له بها بعض الآيات، فيترجّح عنده آنذاك صحّة فهمه للآيات التي أشارت إلى تلك الظاهرة، ويقدم لنا ما يطلق عليه: التفسير العلمي للقرآن، أو التفسير العلمي لآيات الكون والإنسان في القرآن الكريم.

## المبحث الثاني: المعجزة والإعجاز، المصطلح والمفهوم

إن من نعم الله تعالى أنه لم يخلق الناس ويدعهم وشؤونهم، بل أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومُنذرين يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، ويبيّنون لهم ما يصلحهم، ويحجزونهم عما فيه الشر والأذى. وإن من حقّ الناس أن يسألوا كل رجل يزعم أنه مُرسل لهم من عند الله: ما دليلك على صدق قولك؟

لذا فقد أيّد الله سبحانه هؤلاء الرُّسل عليهم السّلام بالمعجزات، تصدقهم في دعوى النبوة، حتى لا تبقى شبهة تُحيك في النفس ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:42]<sup>(1)</sup>. وفيما يأتي سنعرّف بالمعجزة وأنواعها وشروطها، مشتقاتها ودلالاتها في القرآن، ومعنى كون القرآن معجزة وأهم خصائص المعجزة القرآنية، والفرق بين المعجزة والإعجاز.

### المطلب الأول: تحديد مفهوم المعجزة، شروطها وأنواعها

#### 1/- مفهوم المعجزة والفرق بينها وبين الاختراخ:

##### أ- مفهوم المعجزة لغة واصطلاحاً:

\* مفهوم المعجزة لغة: أصل مادة "مُعْجَزَة" في اللغة هو: "العجز"، جاء في معجم مقاييس اللغة:

مادة: "ع ج ز" العين والجيم والزاي أصلان صحيحان، فالأول يدلُّ على الضعف؛ عَجَزَ عن الشيء يَعْجِزُ عَجْزاً، فهو عاجز؛ أي ضعيف. يقولون: "المرء يَعْجِزُ لا مَحَالَةَ". ويقال: أعجَزي فلان، إذا عَجِزْتَ عن طلبه وإدراكه. ويقال: لن يُعْجِزَ اللهُ تعالى شيئاً، أي لا يعجز الله تعالى عنه متى شاء. أمّا الأصل الآخر يدلُّ على مؤخّر الشيء، فالعَجْزُ: جمع أعجاز، يقولون: عَجِز الأمر، وأعجاز الأمور. ويقولون: "لا تَدَبَّرُوا أعجازَ أمورٍ ولتَ صدورها" (2). فمادة "عجز" في مقاييس اللغة تدلُّ على معنيين: الضعف عن إدراك الشيء، وأيضاً آخر الشيء أو مؤخرته.

أمّا في لسان العرب فقد وجدنا أنّ مادة "ع ج ز" لها عدّة دلالات مُتقاربة، منها:

- العَجْزُ: نقيض الحِزْم، عَجَزَ عن الأمر يَعْجِزُ وَعَجِزَ عَجْزاً فيهما؛ ورجل عَجِزٌ وَعَجِزٌ: فهو عاجز. يقال: أعجَرتُ فلاناً إذا أَلْفَيْتَهُ عاجِزاً.
- العَجْزُ: الضَّعْفُ، تقول: عَجِزْتُ عن كذا أعجِزُ أي أضعف عنه.

(1) - ينظر: فضل حسن عباس وسناء فضل عباس: إعجاز القرآن الكريم، دط، دت، ص: 9-10.

(2) - ينظر: ابن فارس: مقاييس اللغة. 232/4-233. مادة: "ع ج ز".

- العَجْزُ: التَّشْيِيطُ، تقول: عَجَزَ الرجلُ وعاجزَه؛ أي سبقه. فحقق نسبة العجز للآخر.
- العَجْزُ: ترك ما يَحِبُّ فعله بالتَّسْوِيفِ.
- وعَجَزُ الشَّيءِ: آخره. وَعَجَزَ بيت الشعر: خلاف صدره.
- المعجزةُ: بفتح الجيم وكسرها، مفعلة من العَجَز: عدم القدرة. والمعجزة: مُفرد وجمعها مُعْجِزَات (1).

ف "المعجزة" مشتقة من الفعل الماضي الرباعي: أعجز. نقول: أعجز، يُعجز، إعجازاً، فهو مُعْجِزٌ، والنبِيُّ قَدَمٌ مُعْجِزَةٌ. وتُطلق "المعجزة" على الآية التي أجزاها الله على يد رسوله، والتي قَدَّمها النبي لقومه، لتكون دليلاً له على نبوته.

والراجع أن التاء (\*) التي فيها للمبالغة. حيث أريد المبالغة في إثبات عجز الكافرين أمام معجزة النبي ﷺ، وعدم قدرتهم على معارضتها ونقضها، وبهذا تكون المعجزة قد أعجزتهم (2). وقد تكون التاء في معجزة للنقل، كما في «حقيقة وذبيحة، وكافة، أي النقل من الوصفية إلى الاسمية، فلفظ حقيقة أصله وصف، ولكن جاءت التاء لتقلبه إلى الاسمية كأنما تنوي الوصف فيه. وهكذا ذبيحة ونطيحة، ألا ترى أننا نقول هذا اللفظ حقيقة، وهذا الكبش ذبيحة» (3).

\* مفهوم المعجزة اصطلاحاً: إنَّ للعلماء في تعريفهم للمعجزة اصطلاحاً آراء عديدة وإن كانت مختلفة فهي كلها تصبُّ في قالبٍ واحدٍ؛ وقد اصطفينا منها ما يأتي:

عرَّفها السيوطي: بأنها «أمرٌ خارقٌ للعادة، مقرونٌ بالتَّحدِّي، سألٌ عن المعارضة» (4). وعرَّفها الشريف الجرجاني بقوله: «المعجزة: أمرٌ خارقٌ للعادة، داعٍ إلى الخير والسَّعادة مقرونٌ بدعوى النبوة، فُصد به إظهارُ صدق من ادَّعى أنه رسولٌ من الله» (5). وجاء في المقدمة لابن خلدون: «إنَّ المعجزات هي أفعالٌ يعجز البشر عن مثلها، فسميت بذلك معجزة، وليست من جنس مقدور

(1) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب، 370-369/5. مادة: "ع ج ز".  
 (\*) - فالتاء التي تلحق الأسماء، قد تكون للتأنيث كما في مؤمن ومؤمنة ومحسن ومحسنة، فالتاء تأتي في الأوصاف لتميز الأنثى من الذكر. وقد تكون التاء للمبالغة، كما في علامة ونسابة، يقال رجل علامة ونسابة، إذا كان كثير العلم ومُستَهراً بمعرفة الأنساب. وقد تكون للنقل؛ أي النقل من الوصفية إلى الاسمية، كما في قولنا هذا اللفظ حقيقة وهذا الكبش ذبيحة. ينظر: فضل حسن عباس: إعجاز القرآن. منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمان-الأردن، ط2، 1997م، ص:8.  
 (2) - ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني. دار عمار، عمان الأردن، ط1، 1421هـ-2000م، ص:18.  
 (3) - فضل حسن عباس: إعجاز القرآن. ص: 8.  
 (4) - السيوطي (أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر): الإتيان في علوم القرآن. تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، مجمَع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، دط، دت، 1873/5.  
 (5) - الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات. ص: 176.

العباد، وإنما تقع في غير محلِّ قُدْرَتهم»<sup>(1)</sup>.

الملاحظ من هذه التعريفات وغيرها لعلمائنا الأوائل، أنها اتَّسمت بالإيجاز والاختصار لذا بَعدُها جاءت غير مُكتملة للأركان والشروط، وفي المقابل بَعد المتأخِّرين في تعريفاتهم للمعجزة أشمل وأدق وأكمل، وفيما يأتي نذكر منهم:

عرفها هشام طالب: « المعجزة "miracle" هي كل ظاهرة كونية خارقة للعادة لا تألف العين رؤيتها... لأنها تخرج عن المعتاد الطبيعي، وتبعث على الدهشة والإعجاب، وأحياناً الخوف والحذر. وتُقابلها في اللغة: "الآية" كما وردت في القرآن الكريم »<sup>(2)</sup>. كما عرَّفها عبد السلام حمدان اللوح بأنها: « أمر خارق للعادة يُظهره الله على يدِ مُدَّعي النبوة على وفق مُرادِه تصديقاً له في دَعواه مَقرونًا بالتحدِّي مع عدم مُعارضته، وذلك كله في زمنِ التَّكليف»<sup>(3)</sup>. وقد ذكر شعبان محمد إسماعيل أن: « المعجزة هي: الأمر الخارق للعادة المقترن بالتحدِّي، السَّالمُ عن المعارضة، الدَّالُّ على صدق مدَّعي النبوة؛ لتكون إلتزاماً للمعاندين المكابرين وتثبيتاً لقلوبِ أهلِ ملته الملبِّين لدعوته، والمصدِّقين لنبوته فيزدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها»<sup>(4)</sup>.

فالمعجزة هي خرق لنواميس الكون أو لقوانين البشر يُعطيها الله تعالى لرسله وأنبيائه ليبدل على منهجه ويثبتهم به، ويؤكد للناس أنهم رُسله تُؤيدهم السَّماء وتُنصرهم، والسَّماء حين تؤيد وتُنصر، تُقف قوانين البشر عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئاً<sup>(5)</sup>. فكل رسول حين يأتي ليلبِّغ منهجه يُطالب بإثبات ما يقول، لذا جاءت مع كل رسول معجزة تثبت صدقه في رسالته، وفي بلاغه عن الله.

### ب- الفرق بين المعجزات الإلهية والمخترعات العلمية:

إنَّ لغرابة الاختراعات العلميَّة واندھاش النَّاس منها، ولظهورها على يد نسبة ضئيلة جدًّا من النَّاس فقد يَعُدُّها البعضُ مُعجزاتٍ لذا ففي هذه الجزئية من البَحث سنعرِّف بالاختراع ونذكر الفرق بينه وبين المعجزة:

- (1) - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي): المقدمة. بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء-المغرب، دط، 2005م، 1/149.
- (2) - هشام طالب: بناء الكون ومصير الإنسان - نقض لنظرية الانفجار الكبير. دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط1، 1427هـ - 2006م، ص: 62-63.
- (3) - عبد السلام حمدان اللوح: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. - أصل الكتاب رسالة ماجستير - آفاق للطبع والنشر، غزة-فلسطين، ط2، 1423هـ - 2002م، ص: 6.
- (4) - شعبان محمد إسماعيل: المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية. دار ابن حزم، بيروت-لبنان، ط1، 1430هـ - 2009م، 1/195.
- (5) - ينظر: محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن. ص: 6.

فقد جاء في معاجم اللغة العربية مادة "خ ر ع" أن الحاء والراء والعين أصل واحد، وهو يدلُّ على الرِّخاوة والضُّعف والشَّقُّ (1). يُقال كلُّ ضَعِيفٍ خَرَعٌ والخُرْعُ الرَّجْلُ ضَعْفٌ وانكسر وانخرَعَتْ له لِنْتُ. يُقال اخرج فلان عُوداً من الشَّجَرَةِ إذا كَسَرَهَا واختَرَعَ الشَّيْءَ اربَّحَهُ وقيل اختَرَعَهُ اشتَقَّهُ ويُقال أنشأه وابتدَعَهُ (2). فالملاحظ أنَّ الدَّلالة المعجمية لجدر "خ ر ع" تقترب وتشتبك مع دلالة "ع ج ز" في الضُّعف. وجاء في مُعجم اللغة العربية المعاصرة: اختَرَعَ يَخْتَرِعُ، اختراعاً، فهو مخترَعٌ، والمفعول مخترَعٌ. واختراع مفرد: ج اختراعات وهذا اللَّفظ يدلُّ على: ابتداء: اكتشاف في مجالٍ علميٍّ أو تقنيٍّ، أو يدلُّ على حيلةٍ أو طريقةٍ علميةٍ يقال: اختَرَعَ التَّلَافُزَ: ابتدعه وأنشأه وصمَّمه ويُقال: اختَرَعَ كَذِبَةً: لَقَّعَهَا، اختلقها لغرضٍ ما "اختَرَعَ قِصَّةً/خَطَّةً" (3). إذاً فمادة "خ ر ع" في اللغة تحمل معنيين؛ فقد تدلُّ على الشَّقِّ والكسر والضُّعف والرِّخاوة، وقد تدلُّ على الابتداء والابتكار والتصميم والإنشاء.

أما تعريف الاختراع (Invention) اصطلاحاً هو: «كُلُّ فِكْرَةٍ جَدِيدَةٍ وَمُفِيدَةٍ وَقَابِلَةٍ لِلتَّطْبِيقِ الصَّنَاعِيِّ؛ أَيْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْاِخْتِرَاعُ جَدِيدًا وَمِنَ الْمُمْكِنِ صَنْعُهُ وَتَطْبِيقُهُ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ بِسَهُولَةٍ وَيُسْرٍ. بَعْدَهَا يُنْمَحُ الْمُخْتَرَعُ حُقُوقُ بَرَاءَةِ اِخْتِرَاعٍ (\*)» (4). فالاختراع يمرُّ بمجموعة من الخطوات والمراحل المختلفة، إلى أن يصل إلى شكله النهائي. فتكون البداية في عملية إيجاد الفكرة المناسبة، وتحليلها ودراستها، ودراسة إمكانية تطبيقها على أرض الواقع، ومن ثمَّ يتم البدء بعمل مُخَطَّطٍ للتكاليف المتوقعة، ويتمُّ تجميع أجزاء الاختراع والمباشرة في تجميعها، وبعد الانتهاء من التجميع يتم إجراء الفحوصات، ودراسة إمكانية عملها كما هو مُتَوَقَّع، وبعد ذلك يتم الحصول على براءة الاختراع (5).

أمَّا عن الفرق بين الاختراعات والمعجزات فقد جاء في تفسير المراغي: أنَّ عبد العزيز إسماعيل في مؤلفه "الإسلام والطب الحديث" يقول: قد يقول البعض: إنَّ العلوم تتقدَّم، وإنَّه لو كان بعض الاختراعات الموجودة الآن موجودة في مُدَّة الأنبياء لُغِدَّتْ مُعْجَزَات. ونقول: أنَّ هذا القول دليلٌ

(1) - ينظر: ابن فارس: مقاييس اللغة. 170/2. مادة "خ ر ع".

(2) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. 67/8-69. مادة "خ ر ع".

(3) - ينظر: أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة. مساعدة: فريق عمل، عالم الكتاب: القاهرة، مصر، ط1، 1429هـ - 2008م، 633/1. مادة "خ ر ع".

(\*) - براءة الاختراع هي: "حق امتياز خاص يمنح بشكل رسمي لمخترع في فترة زمنية محددة مقابل سماحه للعامة بالاطلاع على الاختراع. وبشكل عام فإنَّ الحق الذي يُمنح لصاحب الاختراع هو منع الآخرين من صناعة أو استخدام أو بيع أو عرض ذلك الاختراع دون الحصول على موافقة من صاحب براءة الاختراع". أمَّا المخترع فهو: "شخص يقوم باختراع شيء وإيجاد حل لأي مشكلة. ويجب على المخترع أن تتوفر فيه ثلاثة عوامل أساسية لإنجاز اختراعه وهي المعرفة، القدرة على معرفة المشكلة، والقدرة الفنية الإبداعية" <https://ar.m.wikipedia.org>

(4) - <https://ar.m.wikipedia.org>

(5) - ينظر: [www.mawdoo3.com](http://www.mawdoo3.com)

على أنّ الرُّوح الحقيقي للمعجزات لم يُفهم، لأنّ كل الاختراعات العلميّة تُبنى على السُّنن الطبيعيّة، وكلُّها مبنيّة على قواعد علميّة لا تتغيّر، فإن ظهر لها استثناء فإن سببه هو قاعدة علميّة أخرى يبحث العالم عنها حتى يجدها، فكلُّ ما يظهر مُدهشاً في نتيجته من المخترعات مثل الكهرباء والتلفزيون والحاسوب وغيرها هو من الاستعانة بهذه القواعد. بعكس المعجزات فإنها من طراز آخر، وهي مهما صغرت نتائجها، خلق سنة جديدة.

ومثال ذلك قصّة سيدنا إبراهيم وعدم احتراقه بالنار، فإنّ العلم بتقدمه يستطيع أن يُعطي الإنسان بشيء غير قابل للاحتراق ويضعه في النار فلا يحترق، وهذا يُشبه المعجزة، ولكنه اختراع استعان صاحبه فيه بالتواميس الطبيعية. أمّا المعجزة فهي أن تضع الإنسان كما هو جسماً ولحمًا في النار فلا يحترق، فيكون عدم احتراقه حينئذ هو المعجزة، وهي خرق للسنة الطبيعيّة التي تقضي باحتراق الجسم متى وضع في النار. وأيضا الطيب الذي يُعيد للقلب ضرباته ليس كمن يُحي الموتى، لأنّه استعان بالسُّنن الطبيعيّة، وأمّا إحياء الموتى فهو خرق لهذه السُّنن.

ولذا فإنّ أساس المعجزة وعظمتها ليس في نتائجها وغرابتها، فالدهشة من سماع الأبكم يتكلم ربّما كانت أقل من سماع الراديو لأوّل وهلة، ولكنّ أهميّة المعجزة في طريق صنعها بدون السُّنن العاديّة، وهي لذلك لا تتكرّر أبداً إلاّ بإذن الله لأنّ الإنسان لا يعرف قاعدتها، ولا يدرك طريقة صنعها. أمّا الاختراع فإنّه اكتشافٌ لناмос طبيعي ولذا هو يتكرّر دائماً في الظروف نفسها على يد كل إنسان (1).

كما يرى الشعراوي أنّ: معجزات الله "جل ذكره" التي يُؤيّد بها رُسله، أو يُريدها آية من آياته، تختلف عن معجزات البشر، في أنّ الله "سبحانه" يجعل الضعيف قوياً وغير القادر قادر؛ أي أنّ الله عندما يريد أن يُحقّق المعجزة يُعطي القوّة أو القدرة لمن يختاره لتحقيقها، فقد أعطى القوّة للطير لتغلب الفيل عكس المنطق تماماً، وأعطى القدرة لموسى فغلب السحرة وأعطى ليعسى عليه السلام قدرة شفاء المرضى وإحياء الموتى، كلُّ هذا بإذن الله. وهنا الاختلاف بين الإعجاز الإلهي وأيّ إعجازٍ آخر. فأنّ حين تُريد أن تجعل رجلاً ضعيفاً يحمل حملاً ثقيلاً لا تستطيع أن تنقل إليه قوتك ليحمل هذا الحمل ولكنك تستطيع أن تحمله عنه. وأيّ اختراع جديد يخدم الإنسان لا يستطيع أن يُعطي الإنسان قدرة خارقة ولكنه يُساعده باستخدام شيء خارجي. أمّا الله "سبحانه" فإنه وحده

(1) - ينظر: أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط 1، 1365هـ-1946م، 157/3-159.

المستطيع أن يجعل الضعيف قوياً والعاجز قادراً، والقوي لا حول ولا قوة له. ومن هنا فإذا انتصر رجل ضعيف على رجل قوي فإنك تعلم أن الضعيف قد نصره الله "سبحانه وتعالى" (1).

لذا فلا يخفى على أحد أن أي شيء مُخترع ليس بخارق للعادة، وإنما هو أمر مُكتسب له قوانينه ومبادئه. أمّا المعجزة فإنها خارقة للعادة، فهي لا تعتمد على قوانين الطبيعة ولا على خواص المادة، بل هي منحة من الله لرسوله، يثبت بها قدمه ويُقيم له الحجّة على صدقه، لينشر رسالته التي أرسله بها (2).

## 2/- شروط المعجزة الإلهية وأنها:

أ- شروط تحقق المعجزة الإلهية: من خلال التعريفات السابقة للمعجزة يتبين أنه لا يمكن أن تقوم أو تتحقق إلا بشروط. وقد ذكر معظم العلماء - كالقرطبي والصابوني - أن للمعجزة خمسة شرائط. ومنهم من زادها شرطين فأصبحت سبعة. وهذه الشروط أساسية فإن اختل منها شرط واحد فقدت المعجزة وظيفتها ولم تكن دليلاً على صدق النبوة، وهي كالاتي (3):

**أولاً:** أن تكون ممّا لا يقدر عليها إلا الله رب العالمين: فيجب أن تكون المعجزات ممّا لا يقدر عليها البشر وهو ما يُسمى بعدم القدرة على المعارضة، مثل: انشقاق القمر، وإحياء الموتى.

**ثانياً:** أن تخرق العادة وتكون مخالفة للسُنن الكونية: لأنّ غير الخارق لا يحصل به الإعجاز. وهذه المعجزة خارقة للعادة وليست خارقة للعقل، بمعنى أنّها لا تتعارض مع المنطق العقلي البشري بشرط أن يكون هذا العقل واعياً مُتفتّحاً كبيراً، وليس صغيراً ضيقاً مُنغلقاً. والمعجزة الخارقة للعادة قد تكون بالقول، كالقرآن وتسيب الحصى، أو تكون بالفعل كنبع الماء من بين أصابع سيدنا محمد ﷺ، وانشقاق الحجر لتخرج منه الناقة. أو تكون بالتّرك مثل عدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم، وعدم غرق موسى وقومه.

**ثالثاً:** أن يستشهد بها مدعي الرسالة على صدق دعواه: أي يجعلها الرسول دليل صدق رسالته لإثباتها ويتسبب هذا الأمر إلى الله عزّ وجلّ. فلو ادعى إنسان أن معجزته أن ينقلب الجماد إلى

(1) - ينظر: محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن. ص18-19.

(2) - ينظر: حسن ضياء الدين عنتر: المعجزة الخالدة. ص: 37.

(3) - ينظر: القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر): الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ-2006م، 1/112-115. ومحمد علي الصابوني: التبيان في علوم القرآن. دار البعث قسنطينة-الجزائر، ط3، 1407هـ-1986م. ص: 97-98. ومصطفى مسلم: مباحث في إعجاز القرآن. دار مسلم، الرياض، السعودية، ط2، 1416هـ-1996م، ص: 16-18. وصلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني. ص: 18-20.

حيوان أو إنسان، ولم يتقلب لا يدلُّ على صدق دعواه.

**رابعاً:** أن تقع على وفق دعوى النبي المتحدِّي بتلك المعجزة: لا على خلافه لأنها حينذاك تكون تكديماً له. فقد روي أن "مسيلم الكذاب" كان يقول إذا تفلت بهذا الماء فار التبع وزاد، فطلب منه أصحابه أن يتفل بالبر ليجعل فيها الماء فغارت البر فدل هذا على كذبه.

**خامساً:** ألا يأتي أحد بمثل تلك المعجزة على وجه المعارضة: فإن عورضت بطل كونها معجزة. ولم تدل على صدق صاحبها، فلو استطاع أحد شق القمر أو فلق البحر لم تعد معجزة.

**سادساً:** التحدي بها: وهذا شرط أساسي في المعجزة لإثباتها عجز الجاحدين وإقامة الحجة عليهم فإن عدم التحدي لمعجزة لا يبرزها كدليل وبرهان، لكي لا يقول قائل فيما بعد: إنه لو تحدي بالمعجزة القوم لتمكنوا من الإتيان بها.

**سابعاً:** أن تكون مقارنة للدعوى غير متقدمة عليها: فلا يجيء ذلك الأمر متقدماً على الدعوى، بل مقارناً لها، أي يكون في زمن التكليف لأن المعجز تصديق من الله لرسوله، فلا يعقل يجيء التصديق قبل دعوى النبوة. فهي بمثابة الشاهد، ولا يقوم الشاهد إلا بعد قيام الدعوى، أمّا إذا تقدّم على دعوى الرسالة، فيكون من قبيل "الإرهاص". وهي الأمور التي تتقدّم على الرسالة وتمهد لها لتهيئة الناس وتفهمهم بأن هذا الشخص سيختاره الله ويصطفيه لنبوته. كتظليل السحابة لرسول الله ﷺ وهو في سفره إلى الشام قبل البعثة، وككلام عيسى عليه السلام في المهدي.

وهكذا تتحدد المعجزة بشروطها، فإن تحققت تلك الشروط كانت المعجزة دالة على نبوة صاحب الدعوى التي ظهرت على يده، وإن احتل شرط طعن ذلك في حجيتها ودالاتها وخرجت عن كونها معجزة، ولم تدل على صدق صاحب الدعوى.

**ب- أنواع المعجزات الإلهية تنقسم المعجزات الإلهية إلى نوعين وهما<sup>(1)</sup>:**

**أولاً:** معجزات حسية: وهي المعجزات التي تُشاهد بالأبصار فهي مؤقتة تزول بوفاة النبي الذي جاء بها، كعصا صالح، وعصا موسى، وحنين الجذع للرسول محمد ﷺ. فهذه المعجزات محدودة

(1) - ينظر: السيوطي: الإتيان في علوم القرآن. 1873/5-1874. وأحمد عمر أبو شوفة: المعجزة القرآنية. تقديم: أحمد دلولي ومحمود دلولي، دار الكتب الوطنية: بنغازي-ليبيا، ط3، 2006م، ص:30-31. وحسين علي ريس: إعجاز القرآن في بنان الإنسان. مجلة ديالى، عدد:58، 2013م، ص:110-111.

بحدود الزمان والمكان الذي ظهرت فيه وانقرضت بانقراض أعصارهم.

**ثانياً: معجزات عقلية:** وطبيعة هذه المعجزة بصفة عامة يصدقها العقل ولا يمنعها والعلم لا ينقضها والواقع يؤيدها وهي باقية مستمرة إلى قيام الساعة ، وتمثل هذه المعجزة في القرآن الكريم الذي خرق العادة في أسلوبه وبلاغته، وإخباره بالمعجيات. فلا يمرُّ عصرٌ من الأعصارِ إلا ويظهرُ فيه شيءٌ مما أُخبر به أنه سيكون، يدلُّ على صحَّة دعواه. ومعجزة القرآن تُشاهدُ بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر؛ لأنَّ الذي يُشاهد بعين الرُّأس ينقرض بانقراض مُشاهدِهِ، والذي يُشاهد بعين العقل باقٍ يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً.

وإنَّ أكثرَ معجزات بني إسرائيل كما يقول الشُّيوطي حسيَّة لِبِلادتهم، وقلةٌ بصيرتهم. وأكثرُ معجزات هذه الأمة عقليةٌ، لفرط ذكائهم، وكَمال أفهامهم، ولأنَّ هذه الشريعة لما كانت باقيةً على صفحات الدهر إلى يوم القيامة، خُصَّتْ بالمعجزة العقلية الباقية ليرأها ذوو البصائر، كما قال ﷺ: ((ما من الأنبياء نبيٍّ إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً)). [أخرجه البخاري. في صحيحه: 247/13]

فلقد كانت المعجزات الإلهية من جنس ما برع به أهل ذلك العصر ففي عهد موسى عليه السلام برع النَّاس بالسَّحر فكانت معجزته العصا: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٧﴾ فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَيَطَّلَ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: 117-118]. وفي الجاهلية قبل الإسلام اشتهر العربُ بالفصاحة والبلاغة والبيان، فهم يُجيدون العربية ملكة لا صناعة أباً عن جدٍ، ووصلوا إلى مُنتهى الغاية في فنون الكلام. فأنزل الله سبحانه وتعالى "القرآن الكريم" على قلب نبيِّه مُحَمَّد ﷺ ليكون معجزة قولية تخاطب العقل باقية ودائمة بدوام مُلك الله، وقد تحدَّى الله به الثقلين فقال عزَّ من قائل: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: 88].

## المطلب الثاني: المعجزة في القرآن مشتقاتها، دلالاتها وخصائصها:

### 1/- لفظ "معجزة" المشتقات والدلالة في القرآن

#### أ- مشتقات مادة "ع ج ز" في القرآن

لقد وردت مشتقات وصيغ مادة "ع ج ز" في ستة وعشرين (26) موضعا في القرآن الكريم. حيث نجد لفظ "عجز" تكرر سبع عشرة (17) مرة، و"عجوز" أربع (4) مرّات، و"معاجز" ثلاث (3) مرات، ولفظ "أعجاز" مرتين. وقد جاءت في صيغة الفعل الماضي، والفعل المضارع وصيغة المبالغة، وجمع "عَجَزَ"، واسم الفاعل من "عاجَزَ" بصورة جمع المذكر السالم، واسم الفاعل من "أعجز" بصورة المفرد، وبصورة جمع المذكر السالم. وفي ما يأتي تفصيل ذلك (1):

**أولاً:** "عَجَزَ": ورد الفعل الماضي "عَجَزَ" مرة واحدة في قوله: ﴿قَالَ يَتُولِيحَ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْفَرَابِ فَأُوْرِي سَوْءَةَ أَخِي﴾ [المائدة:31]؛ ومعنى "أعجزت": أضعف إدراكي وعقلي، وجهلت، وهو استفهام إنكاري.

**ثانياً:** "يُعْجِزُ": ورد الفعل المضارع "يُعْجِزُ" - وهو من الفعل الماضي الرباعي "أعجز" - أربع مرات [الأنفال:59، فاطر:44، الجن:12 ذكر فيها مرتين] وقد جاء الفعل المضارع فيها منفي. وأنّ المرات الأربعة واردة في سياق المعركة بين الحقّ والباطل، وأنها تقرّر حقيقة عدم قدرة المخلوقات كلّها على تعجيز الله، وأنها كلّها عاجزة ضعيفة أمام قوّة الله. ومنها قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الجن:12]؛ معنى "نُعْجِزُ" نفوت ونغلب، فقد ورد في هذه الآية مرتين وفي المرتين منفيّ بحرف "لن". والجنُّ يعترفون بعدم قدرتهم على إعجاز الله وتعجيزه سبحانه، لا في الأرض ولا في السّماء، ولو أمعنوا في الحرب.

**ثالثاً:** "عَجُوزٌ": وهي صيغة مبالغة من الفعل الثلاثي "عَجَزَ"، وقد وردت أربع مرات في

القرآن [هود:72، الذاريات:29، الشعراء:170-171، الصافات:134-135] نحو قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَتُولِيحَ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود:72]، والملاحظ أنّ "عجوز" مرفوعة، لأنّها خبر، وهي في سياق تكريم الله لهذه العجوز المؤمنة، حيث جعلها تنجّب من بعلمها الشيخ إبراهيم عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ [الشعراء:170-171]. والملاحظ أنّ "عجوزاً"

(1) - ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. دار الكتب المصرية، مصر، ص: 446، مادة: ع ج ز. وصلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني. ص: 24-29. وفلاح خير الدين: أثر اختلاف القراءات القرآنية في بيان صور الإعجاز القرآني. رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران-الجزائر، 2013-2014م، ص: 87.

في هذا الموضوع جاءت منصوبة على الاستثناء، فهي مستثناة من أهل لوط - عليه السلام - المؤمنين الناجين، لكفرها بالله، الذي جعلها مع الكافرين الهالكين الغابرين.

**رابعاً: "أعجاز":** وقد وردت "أعجاز" مرتين في القرآن، وهي في المرتين مضافة إلى النخل وفي سياق واحد وهو سياق الحديث عن هلاك قوم عاد. قال تعالى: ﴿وَمَا عَادٌ فَاهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَفَرَى الْقَوْمُ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۗ﴾ [الحاقة: 6-7]. وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۖ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ۗ﴾ [القمر: 19-20]. والمقصود بأعجاز النخل أواخرها التي تلي الأرض.

**خامساً: "معجزين":** وهي جمع "معجز". وهو اسم فاعل من الفعل الماضي الرباعي "عاجز". والألف في الكلمة تُسمى "ألف المفاعلة"، وهي تدل على المشاركة؛ أي أن المعجزة كانت بين طرفين، كل منهما أراد تعجيز خصمه، وإيقاعه في العجز. وقد وردت هذه الكلمة "معجزين" ثلاث مرات في القرآن [الحج: 51، سبأ: 5، سبأ: 38] والملاحظ أنها وردت كلها في سياق واحد وعلى صورة واحدة، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ ۗ﴾ [الحج: 51]. ف"معجزين" جاءت حالاً منصوبة، وصاحب الحال هم الكفار، الذين يُحاربون دين الله، ويُريدون أن "يعاجزوا" الله ويغلبوه، ويسعون معجزين في إبطال آياته. والنتيجة من معاجرتهم لله وآياته ودينه هي عجزهم وانتصار دين الله.

**سادساً: "مُعْجِز":** وهو اسم فاعل من الفعل الرباعي "أعجز". والمعجز هو الذي جعل غيره عاجزاً أمامه. وقد ورد هذا اللفظ مرة واحدة في قوله جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۗ﴾ [الأحقاف: 32]. وهذه الآية تنفي قدرة أي شخص كافر على تعجيز الله، وتقرر أن الكافر لن يكون معجزاً لله، وإذا لم يكن الكافر معجزاً لله فسيكون عاجزاً أمام الله.

**سابعاً: "مُعْجِزِينَ":** وهي جمع كلمة "معجز" التي هي اسم فاعل من "أعجز". وقد وردت هذه الكلمة إحدى عشرة مرة في القرآن [التوبة: 2، التوبة: 3، الأنعام: 134، يونس: 53، هود: 20، هود: 33، النحل: 45-47، النور: 57، العنكبوت: 22، الزمر: 50-51، الشورى: 30-31] وكلها في سياق واحد، هو مُحاربة الكفار لدين الله، وظنهم أنهم بذلك يُعجزون الله، فنفت الآيات عنهم تعجيزهم لله. كما وردت الكلمة في المرات كلها في سياق النفي كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تَوْعَدُونَ لَأَن يَأْتِيَنَّكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۗ﴾ [الأنعام: 134].

إنَّ الملاحظ ممَّا سبق أنَّ كلمة "معجزة" لم ترد في القرآن الكريم، كما أنَّ دلالة مُشتقات مَادَّة "عجز" في القرآن لا تَحْمِلُ أَيَّ معنى لمفهوم المعجزة كما رأينا سالفاً في تعريفنا للمعجزة اصطلاحاً. وفي هذا الصِّدَد يقول عبد الله المصلح: «رغم قرب هذا المصطلح -الدَّال على الأمر الخارق المقرون بالتَّحْدِي السَّام عن المعارضة- إلى الدَّهن إلاَّ أنَّني لم أجده في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ دالاً على هذا المعنى، وما وجدته من مادة "عجز" في القرآن والسنة لم أر فيه ما يدلُّ على هذا المصطلح»<sup>(1)</sup>. ولكن في المقابل نجد أنَّ هناك ألفاظاً مستخدمة قرآنيًا في الدلالة على معنى "المعجزة" قريبة من معناها وتدلُّ على ما تدلُّ عليه، وتُطلق على ما قدَّمه الرُّسل لأقوامهم من حُجج وبراهين. وهذه الألفاظ هي: "الآية، البيِّنة، البصيرة، السُّلطان، البرهان".

### ب- الألفاظ القرآنية الدالة على معنى "المعجزة":

من الكلمات القريبة دلالياً من معنى "المعجزة" في القرآن المبين ما يأتي:

**أولاً:** "الآية": ورد لفظ الآية نكرة ومعرفه جمعا ومفرداً في القرآن الكريم تسع وسبعين وثلاثمائة 379 مرة [آية:83، الآية:1، آيات:262، الآيات:33]. ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:109]. والآية في معناها اللُّغوي: العلامة الدالة على الشيء، والشخص، وهي: على وزن فعلة محركة أو فاعلة. وجمعها آياتٌ وآيٌّ وآيٌّ، وجمع الجمع آيَاءٌ<sup>(2)</sup>، وقد عرَّفها الراغب الأصفهاني بأنها: «العلامة الظاهرة. وحقيقته لكلِّ شيءٍ ظاهرٍ هو ملازمٌ لشيءٍ لا يظهُرُ ظُهوره. فمتى أدرك مُدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر الذي لم يُدرکه بذاته إذ كان حُكْمُهُمَا سَوَاءً، وذلك ظاهرٌ في المحسوسات والمعقولات»<sup>(3)</sup>. أمَّا في معجم ألفاظ القرآن فقد عرَّف الآية على أنها<sup>(4)</sup>:

1- جملة أو جمل أثر الوقف في نهايتها غالباً. كقوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:106].

2- علامة ومُعجزة وعبرة. مثل في قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

(1) - عبد الله بن عبد العزيز المصلح: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه. دار جياذ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط3، 1432هـ/2011م، ص: 15.

(2) - ينظر: الفيروزبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب): معجم القاموس المحيط. ترتيب وتوثيق: خليل مأمون شيخا. دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط2، 1428هـ-2007هـ، ص: 73، مادة: "أ ي ي".

(3) - الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن. 41/1. مادة أي.

(4) - ينظر: مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، طبعة منقحة، 1409هـ-1989م، 111/1. مادة: أ ي ي.

يُوقِنُونَ ﴿البقرة:118﴾. إذن، فلفظ "الآية" قد يأتي بمعنى المعجزة؛ أي هي: العلامة الظاهرة على قدرة الله، التي تدلُّ دلالة واضحة على ما يقدمه النبي من خوارق وبراهين لقومه؛ لأنها ظاهرة الدلالة على نبوته<sup>(1)</sup>. والقرآن الكريم عبّر عن المعجزة بالآية في كثير من الآيات منها قول تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۗ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿النمل:12-13﴾.

**ثانياً:** "البينة": ورد جذر "ب ي ن" في القرآن الكريم حوالي واحد وأربعون ومئتان (241) مرة فمثلاً: البينات تَكَرَّرت خمس وثلاثون (35) مرة، بينات عشرون (20) مرة، بينة عشرون (20) مرة، البينة (2) مرتين. مبین: أربع وثمانون (84) مرة. وأصل "البينة" في اللغة كما جاء في القاموس المحيط: من بان الشيء بياناً: اتَّضَحَ، فهو بَيِّنٌ جمع: أُبَيِّنَاءُ. و بِنْتُهُ، بالكسر، وبيئته وتبينته وأبنته واستبينته: أوضحتها، وعزفتها، فبان وتبين واستبان<sup>(2)</sup>. وقد عرّف الأصفهاني البينة بأنها: «الدلالة الواضحة عقلياً كانت أو محسوسة»<sup>(3)</sup>. وفي معجم ألفاظ القرآن عرّفت على أنّها الحجّة الواضحة<sup>(4)</sup>. كقوله تعالى:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البينة: 1-4]. والتعبير عن المعجزة بالبينة تكرر كثيراً في القرآن الكريم، ومثال ذلك ذكر البينة الدالة على المعجزة في سياق حديث قوم هود لهود يطلبون منه أن يأتيهم ببرهان وبينة على صدق رسالته لكي يُسلموا له ويُقرّوا بنبوته، في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود:53]. وعليه فالبينة في القرآن الكريم جاءت بمعنى المعجزة أي هي الحجّة الدامغة، والدلالة الظاهرة الواضحة على دعوة النبي وصدق ما جاء به.

**ثالثاً:** "البصيرة": ورد جذر "ب ص ر" في القرآن الكريم حوالي سبع وأربعون ومئة (147) مرة. وهي من البيان والوضوح، وقد جاء في أساس البلاغة: أبصر الشيء، وبصُرَ به وقد بصُرَ بعمله إذا صار عالماً به وهو بصير به، ويقال: هذه آية مُبصرة، وأبصر الطريق استباناً ووضوحاً<sup>(5)</sup>. وفي معجم

(1) - ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني. ص: 21.

(2) - ينظر: الفيروزبادي: معجم القاموس المحيط. ص: 146، مادة: "ب ي ن".

(3) - الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن. 88/1، مادة ب ان.

(4) - ينظر: مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن. 181/1، مادة: ب ي ن.

(5) - ينظر: الزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر): أساس البلاغة. دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، طبعة جديدة منقحة ومصححة، 1433هـ-2012م، ص: 44-45، مادة: ب ص ر.

الفلظ القرآن عَرَّفَ البَصِيرَةَ على أَنَّهَا الحِجَّةُ الواضحة، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:108] (1).

وقد عبَّرَ القرآن الكريم عن المعجزات بالبصائر في قوله: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِبَصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ (١٠٤) وكذلك نَصَرَفَ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:104-105]، وردت في هاتين الآيتين كلمتان هما: بصائر، وآيات. وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ ﴾ وَعَآئِنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا ﴾ [الإسراء:59]. نجد أنَّ "مُبْصِرَةً" بمعنى "بصيرة" « وليس المراد أنَّ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً بعينها، ترى وتُشاهد فيهما ما أمامها، فهذا أمرٌ معروفٌ، لأنَّ الله لم يخلق النَّاقَةَ عمياء، وإنما خلقها مُبْصِرَةً بعينها. إنما المراد أنَّ النَّاقَةَ بصيرةٌ واضحة ودليلٌ ظاهر، على نُبوَّةِ صالح عليه السلام » (2). فلفظة "مُبْصِرَةً" تحمل معنى "المعجزة" لأنها « دالَّةٌ على وحدانية من خلقها وصدق الرسول الذي أُجيب دُعاؤه فيها » (3).

**رابعاً:** "السُّلْطَانُ": ورد لفظه "سُلْطَانُ" في القرآن الكريم حوالي سبع وثلاثون (37) مرة. وهي تدلُّ على القُوَّة والغلبة والحجَّة والبرهان الساطع فقد جاء في مقاييس اللُّغة مادة "س ل ط": « السَّيْنُ واللامُ والطَّاءُ أصلٌ واحدٌ، وهو القُوَّة والقهر، من ذلك السَّلْطَانَةُ، من التَّسَلُّطِ والقهر، ولذلك سُمِّيَ السُّلْطَانُ سُلْطَانًا، والسُّلْطَانُ الحِجَّةُ » (4). وذكر مُعْجَمُ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ دَلَالَتَيْنِ لِلْفِظِ سُلْطَانٌ وهما (5):

1- القهر والغلبة: ومثال ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَ أَقْنِي الْأَمْرَ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم:22].

2- الحجَّة والبرهان: قال تعالى: ﴿ أَتَجِدُ لُونِي فِي سَمَاءٍ سَمِيَتْهُمَا أَنْتَ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [الأعراف:71].

فلفظة "سُلْطَانُ" قَرِيبَةٌ مِنْ مَعْنَى "المعجزة"، وقد عبَّرَ القرآن الكريم عن المعجزة بالسُّلْطَانِ في سياق الحديث عن الأُمَّمِ السَّالِفَةِ فِي مَوَاجَهَتِهَا لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ

(1) - ينظر: مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن. 138/1. مادة: ب ص ر.  
(2) - صلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرياني. ص:22.  
(3) - ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي): تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض-السعودية، ط2، 1420هـ-1999م، 91/5.  
(4) - ابن فارس: مقاييس اللغة. 95/3. مادة: "س ل ط".  
(5) - ينظر: مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن. 582/1-583. مادة: "س ل ط".

إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿إبراهيم: 10-11﴾.

خامساً: "البرهان": ورد هذا اللفظ في القرآن ثماني (8) مرات. والبرهان على وزن "فُعْلَان"، وهو

الدليل والحجة البيّنة الفاصلة، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ فَدَّجَاءُكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 174] (1). وجاء في المفردات في غريب القرآن «البرهان أوكد الأدلة وهو الذي يقتضى الصدق أبداً، لا محالة» (2).

وقد عبّر الله سبحانه وتعالى في الذكر الحكيم عن المعجزة بأنها: "برهان"، فسمي معجزتي موسى عليه السلام - اليد والعصا - برهائين. وذلك في قوله: ﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ يَصْفَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ [القصص: 32] (3).

إذاً، فما يمكن أن نستنتجه مما سبق:

أن المعاني اللغوية لهذه الكلمات الخمسة "الآية، البيّنة، البصيرة، السلطان، البرهان" كلها تقريباً تشترك في الدلالة على الحجة والبيان والدليل. وهي قريبة من معنى "المعجزة" لكن لا يمكن أن تكون مرادفة لها وذلك لأنه أولاً: لا يوجد ترادف في القرآن كما يرى معظم العلماء، وثانياً: أنها تشمل جزء من معنى المعجزة المتمثل في الدليل على نبوة مدعي الرسالة لا المعنى الكلي المتمثل في الأمر الخارق للعادة. كما رأينا في تعريف المعجزة سابقاً.

والجدير بالذكر أن المتتبع لآيات القرآن المبين يجد أنه لم ترد فيه لفظي "معجزة" و"إعجاز"، وأن هذه الكلمات الخمسة "الآية، البيّنة، البصيرة، السلطان، البرهان" هي التي تُطلق في القرآن المجيد على معجزات الأنبياء؛ أي ما قدمه الرسل من دلائل وبراهين وحجج لأقوامهم للدلالة على صدق رسالتهم وتأييد الله لهم. لذا نجد بعض العلماء والباحثين يفضلونها فـ «الأولى استعمال المصطلح القرآني؛ لفضيلته وشرفه وإشراقه وحيويته، وتمام دلالاته. فنقول: القرآن هو آية النبي ﷺ،

(1) - ينظر: مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن. 130/1. مادة: ب ر ه ن.

(2) - الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن. 57/1. مادة: ب ر ه.

(3) - ينظر: حسن ضياء الدين عتر: المعجزة الخالدة. ص: 78.

والتأفة آية صالح عليه السلام، وأعطى الله رسله آيات وبيّنات، صدّقهم بها»<sup>(1)</sup>. مع جواز استخدام كلمتي "معجزة" و"إعجاز" فنقول: معجزة رسول الله ﷺ، وإعجاز القرآن الكريم يقول الخالدي: «يجوز ذلك للتقارب الكبير بين معنى المعجزة ومعاني الكلمات القرآنية، ولانطباق معانيها على معنى المعجزة، ومن المعلوم أنه "لا مشاحّة في الاصطلاح"»<sup>(2)</sup>.

كما يجدر بالذكر أيضاً أنّ مصطلح المعجزة ظهر في وقت متأخر بعض الشيء عندما دُوّنت العلوم ومنها علم العقائد في أواخر القرن الثاني الهجري وبداية الثالث، ولعل اختيارهم لهذا المصطلح بدلاً من الآية والكلمات الأخرى لإزالة الدلالة المشتركة في الآية من القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ [البقرة:106]، وبين الآية بمعنى العلامة البارزة الدالة على وجود الخالق سبحانه وتعالى ووحدانته كما في قوله تعالى: ﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران:190]، وبين الآية بمعنى البناء العالي، كما في قوله تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ [الشعراء:128]. وكذلك الخروج من الدلالات المشتركة في الكلمات الأخرى<sup>(3)</sup>.

## 2/- المقصود بمعجزة القرآن وخاصيتها:

### أ- معنى كون القرآن معجزة

لقد بيّن القاضي عبد الجبار معنى أن القرآن معجز في قوله: «فمعنى قولنا في القرآن أنه معجز: أن يتعدّر على المتقدمين في الفصاحة فعلٌ مثله في القدر الذي اختصّ به»<sup>(4)</sup>. وفي هذا التعريف نلاحظ أنه حصر معجزة القرآن في أسلوبه البياني، لكن في الحقيقة معجزة القرآن أكبر وأوسع من ذلك؛ فمعنى كون القرآن معجز هو أنه يتعدّر على البشر سواء أكانوا فصحاء أو علماء أو عامة الإتيان بمثله في أسلوبه الرفيع ونظمه البديع أو في معانيه التي لا تنتهي أو في أخباره العجيبة الماضية أو المستقبلية أو في سموّ تشريعه وقوّه حججه وبراهينه، أو في إشاراته العلمية التي يكتشف العلماء كلّ يوم دليلاً يثبت صحتها أو في أيّ من معجزاته الأخرى. فالقرآن لا يُخلَق على كثرة الرد ولا تُحدّ معانيه بحدّ. والدليل على كون القرآن معجزة من الله تعالى أنه تحققت فيه كل شروط المعجزة المتفق عليها من لدن العلماء ومن أهمّها ما يأتي:

(1) - صلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني. ص: 23.  
 (2) - المرجع نفسه. الصفحة نفسها.  
 (3) - ينظر: مصطفى مسلم: مباحث في إعجاز القرآن. ص: 13-14.  
 (4) - القاضي عبد الجبار الأسد آبادي: المغني في أبواب العدل والتوحيد. مطبعة دار الكتب المصرية، 1380هـ-1960م، 226/16. نقلاً عن حسن ضياء الدين عتر: المعجزة الخالدة. ص: 106-107.

\*شَرَطُ خَرَقِ الْعَادَةِ: وقد بيّن الرماني معنى كون القرآن ناقصاً للعادة أو خارقاً لها في قوله: «وأما نَقْضُ الْعَادَةِ فَإِنَّ الْعَادَةَ كَانَتْ جَارِيَةً بِضُرُوبٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَلَامِ مَعْرُوفَةً، مِنْهَا الشُّعْرُ، وَمِنْهَا السَّجْعُ، وَمِنْهَا الخُطْبُ، وَمِنْهَا الرِّسَالُ، وَمِنْهَا الْمُنْتَوَرُ الَّذِي يَدُورُ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْحَدِيثِ، فَأَتَى الْقُرْآنُ بِطَرِيقَةٍ مُفْرَدَةٍ خَارِجَةٍ عَنِ الْعَادَةِ لَهَا مَنَزِلَةٌ فِي الْحَسَنِ تَفُوقُ بِهِ كُلَّ طَرِيقَةٍ» (1). فقد كان العرب قبل الرسالة السماوية ذوو لسن وفصاحة وبلاغة وحكم وقد تميزوا وخصوا بذلك بما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأتوا من دراية اللسان ما لم يؤت إنسان، فكانت بلاغتهم بارعة، وألفاظهم ناصعة جامعة، لذلك جاءت معجزة الرسول ﷺ الكبرى "القرآن الكريم" فكانت بيانية بلاغية من جنس ما أُبدع به القوم حتى تكون عليهم حجة، لأنه لا يعرف مقام البلاغة إلا من على أعلى درجات الفصاحة البلاغية، ومن عرف بسلامة سليقته وسرعة بديهته، لذلك لما سمعوا القرآن يتلى عليهم استولى على مسامعهم وصار حديث نواديهم تهتز له ألباهم وأفئدتهم (2).

\*شَرَطُ كَوْنِهِ مَقْرُونًا بِالتَّحْدِي: فقد تحدى القرآن الكريم كل الخلائق إنس وجن بأساليب مختلفة ومراحل متعددة؛ تحداهم بأن يأتيوا بمثله كله في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88]. وتحداهم بعشر سور مثله مفتريات فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَعْظَمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: 13]. وتحداهم بسورة مثله ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَعْظَمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: 38]. وتحداهم بسورة من مثله طويلة كانت أم قصيرة فقال جل ثناؤه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23] وتحداهم بحديث مثله، فقال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: 34]. وهذا التحدي واقع للخلائق إلى يوم القيامة وأمرة على صدق الرسول محمد ﷺ.

ولقد تمثلت منهجية القرآن في تحدي المعارضين والكافرين في القضايا التالية (3):

أولاً: لم يكن التحدي هدفاً مجرد ذاته وإنما وسيلة إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وإثبات أن

القرآن من عند الله وليس من عند محمد ﷺ.

(1) - الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تحقيق وتعليق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، 1976م، ص: 111.  
(2) - ينظر: نعمان شعبان علوان: مقدمة في الإعجاز القرآني. مجلة الجامعة الإسلامية "سلسلة الدراسات الإنسانية"، المجلد الثامن عشر، العدد الأول، يناير 2010م، ص: 423-424.  
(3) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 426.

ثانياً: لقد تمثل التحدي في كل القرآن قليله وكثيره، ولم ينحصر في زاوية واحدة.

ثالثاً: التدرج في التحدي: حيث بدأ التحدي بالقرآن كله، ثم بعشر سور مثله مفتريات، ثم بسورة مثله أو من مثله ثم بحديث مثله.

رابعاً: الدليل على التدرج طلبه المماثلة وبعض المماثلة فقلوه: "مثله" ليس المطلوب الإتيان بنفس القرآن في معانيه ومضامينه وأخباره ولكن المطلوب الإتيان بمثله بياناً في فصاحته وبلاغته وأساليبه. وأما قوله "من مثله" فهو طلب لبعض المماثلة مع القرآن في بيانه، وهو بهذا آخر مراتب التدرج وأقل درجة مما تقدم ومع ذلك عجزوا.

خامساً: طلب منهم أن يستعينوا بمن شاءوا إنساناً وحنناً حتى لا يبقى لهم عُذر، لأنهم لو منعوا من الاستعانة بالآخرين لقالوا: لو اتحدنا لانتصرنا ولجئنا بمثل القرآن، إلا أنهم لما سمح لهم بأن يستعينوا بمن شاءوا ثم فشلوا وعجزوا لم يبق لهم عُذر أو حجة يحتجون بها.

فأسلوب القرآن الكريم في تحدي المعارضين له يدل على شدة عجزهم وضعفهم عن معارضته، فقد جاء مع هذا التحدي «الإخبار عن عجزهم حاضراً ومستقبلاً، وهذا يؤكد أن القرآن كلام الله سبحانه، فمثل هذه الثقة الحازمة الجازمة في الإخبار عن عجزهم أبداً مهما تقلبت الأيام، وتطاولت الأزمان، وامتد عمر الإنسان، وتشعبت علومه وازدادت معارفه وفنونه، دليل قاطع على أنه كلام الله، وأن الإنسان سيبقى عاجزاً عن معارضة سورة واحدة من سور القرآن الكريم، فلا قدرة ليشير على مثل هذا، لأنه كلام الله سبحانه العليم الحكيم الخبير»<sup>(1)</sup>.

\*شَرَطُ سَلَامَتِهِ عَنِ الْمُعَارِضَةِ: لقد أجمع زوارة التاريخ والسيرة والآثار على أن: «أساطين البلغاء وفحول الشعراء من مشركي العرب لم تحدتهم أنفسهم بمعارضة القرآن، ولم يُنقل عن أحدٍ منهم أنه حاول أن يأتي بمعارضة للقرآن، مع شدة حرصهم على صد الناس عن الإسلام، والتكذيب برسالة محمد ﷺ»<sup>(2)</sup>. فهذا الشرط ثابت واضح ولكن نُقل عن بعض السفهاء الحمقى أنهم حاولوا معارضة القرآن فلم يأتوا إلا بالمضحكات والسخافات التي أخرجلتهم أمام البشر، وجعلتهم أضحوكة لدى العقلاء، فبأءوا بعضبٍ من الله وسخرية من الناس، وكان مصرعهم هذا كسباً جديداً للحق، وبرهاناً ناصعاً على أن القرآن كلام الله الذي لا يستطيع معارضته مخلوق<sup>(3)</sup>.

(1) - عبد الحميد محمود طهاز: المعجزة والإعجاز في سورة التمل. دار القلم، دمشق، دار المنارة، بيروت، ط2، 1422هـ-2001م، ص: 17-18.

(2) - محمد علي الصابوني: التبيان في علوم القرآن. ص: 144.

(3) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 144.

## ب- خصائص مُعجزة القرآن:

لقد جاءت مُعجزة القرآن الكريم من نوعٍ خاصٍ فريد، حيث تميّزت واختلّفت عن المعجزات الحسيّة السابقة بعدة مزايا نذكر منها:

\***أنها مُعجزة رُوحية عقلية:** فلقد كان التّعويل في العصور الأولى على الحوارق الماديّة فحسب، لذا كانت مُعجزات الأنبياء السابقين مُعجزات "ماديّة حسيّة" تتناسب مع العصر والزّمان الذي بُعثوا فيه، وحين اكتملت المدارك البشريّة وارتقى الفكر الإنساني ووصلت البشريّة إلى أرقى مراحل نُضجها العقلي جاء الإسلام وغطّ من شأن الإعجاز المادي، وتوّه بالإعجاز العقلي والقيم المعنويّة للرّسالات فكانت مُعجزة سيّدنا مُحَمَّد ﷺ تُدرِك بالعقل، ولا تُحتاج إلى أيّ نوع من الحسّ<sup>(1)</sup>، يقول الصابوني: « إذا كانت مُعجزات الأنبياء السابقين مُعجزات "ماديّة حسيّة" فإنّ مُعجزة مُحمد بن عبد الله مُعجزة "رُوحية عقلية" وقد خصّه الله بالقرآن مُعجزة العقل الباقي على الزّمان، ليبرها ذُو القلوب والبصائر، فيستبشروا بضيائها وينتفعوا بهديها في المستقبل والحاضر»<sup>(2)</sup>.

ومن ثمّ كان القرآن كتاباً إنسانياً، توجّه -مباشرةً- إلى العقل البشري يُخاطبه ويفكّ عنه آصره، ويردّ عنه اعتباره. وقد أكّد القرآن المبين أنّ أصحاب هذا العقل وحده هم الذين يستطيعون فهمه وتبين معانيه. يقول تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَنْذَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد:19]. بل إنّ أصحاب هذا العقل وحده، هم الذين يفهمون رسالة الوجود ويفقهون أسرار الكون، قال جلّ ثناؤه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران:190]. وبذلك كانت مُعجزة نبي الإسلام وخاتم الأنبياء وسيّد المرسلين عقليّة<sup>(3)</sup>.

\***أنها مُعجزة مُستمرة خالدة:** لقد قامت المعجزات الحسيّة في أوقاتٍ خاصّة وأحوالٍ خاصّة ومشهد أناسٍ مُعيّنين، غيبتهم الأرض بعدئذٍ. ومع أنّها انقضت بانقضاء وقتِ حدوثها فلم يستمر وجودها؛ فهي تُقيم الحجّة على صدق الأنبياء الذين ظهرت على أيديهم للأجيال المتعاقبة. فإنّ كثيراً منها قد نقل على نحوٍ يفيد العلم اليقيني بحصولها، فيلزم كل من بلّغته أن يسلم بنبوّتهم ويُدعّن لشريعتهم<sup>(4)</sup>. يقول الشعراوي أنّ هذه المعجزات السابقة « الكونيّة المحسّنة.. أي التي يحسّ بها

(1) - ينظر: محمد الغزالي: عقيدة المسلم. دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، دط، دت، ص: 189-190. ومحمد علي الصابوني: التبيان في علوم القرآن. ص: 88-89.

(2) - محمد علي الصابوني: التبيان في علوم القرآن. ص: 86-87.

(3) - ينظر: محمد الغزالي: عقيدة المسلم. ص: 191.

(4) - ينظر: حسن ضياء الدين عتر: المعجزة الخالدة. ص: 113.

الإِنْسَانُ وَيَرَاهَا تَقَعُ مَرَّةً وَاحِدَةً.. مَنْ يَرَاهَا فَقَدْ آمَنَ بِهَا.. وَمَنْ لَمْ يَرَاهَا تُصْبِحْ خَبْرًا بَعْدَ ذَلِكَ.. عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَعْجَزَاتُ لَا تَتَكَرَّرُ أَبَدًا [...] عَلَى أَنَّ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْمَعْجَزَاتِ السَّابِقَةِ وَجَدْنَا هَذِهِ الْمَعْجَزَاتُ فِعْلًا مِنْ أَعْمَالِ اللَّهِ.. وَفِعْلُ اللَّهِ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَنْتَهِيَ بَعْدَ أَنْ يَفْعَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.. الْبَحْرُ انشَقَّ لِمُوسَى.. ثُمَّ عَادَ إِلَى طَبِيعَتِهِ.. النَّارُ لَمْ تَحْرُقْ إِبْرَاهِيمَ.. وَلَكِنَّهَا عَادَتْ إِلَى خَاصِيَّتِهَا فِي الْإِحْرَاقِ.. وَلَكِنَّ مُعْجَزَةَ النَّبِيِّ ﷺ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ.. وَهِيَ كَلَامُهُ.. وَالْفِعْلُ بَاقٍ بِإِبْقَاءِ الْفَاعِلِ لَهُ.. وَالصَّفَةُ بَاقِيَةٌ بِبَقَاءِ الْفَاعِلِ نَفْسَهُ»<sup>(1)</sup>.

فَقَدْ كَانَتْ مُعْجَزَةُ الْقُرْآنِ مُعْجَزَةً خَالِدَةً ثَابِتَةً مُسْتَمِرَّةً، لِأَنَّهَا خَاتِمَةُ الرِّسَالَاتِ، فَهِيَ عَامَّةٌ لِكُلِّ الْعُهُودِ وَالْأَعْصُرِ، مُسْتَمِرَّةٌ فِي تَحْدِيثِهَا مَوَاهِبَ الْبَشَرِ وَبَاقِيَةَ بَقَاءِ الْإِنْسَانِ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا. وَقَدْ ذَكَرَ الصَّابُونِيُّ أَنَّ الْعَلَامَةَ الزَّرْقَانِيَّ يَقُولُ: «وَهُنَا نَلْفَتُ النَّظَرَ إِلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ بِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ الْكَثِيرَةِ قَدْ كُتِبَ لَهُ الْخُلُودُ، فَلَمْ يَذْهَبْ بِذَهَابِ الْأَيَّامِ، وَلَمْ يَمُتْ بِمَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ، بَلْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى فَمِ الدُّنْيَا يُحَاجُّ كُلَّ مُكَذِّبٍ، وَيَتَحَدَّى كُلَّ مُنْكَرٍ، وَيَدْعُو أُمَّمَ الْعَالَمِ جَمْعًا إِلَى مَا فِيهِ مِنْ هِدَايَةِ الْإِسْلَامِ، وَسَعَادَةِ بَنِي الْإِنْسَانِ. وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ الْفَرْقُ جَلِيًّا بَيْنَ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّ الْإِسْلَامِ ﷺ وَمُعْجَزَاتِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ أَرْكَى الصَّلَاةِ وَأَمَّ التَّسْلِيمِ. فَمُعْجَزَاتُ مُحَمَّدٍ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ آيَاتٌ مُؤَلَّفَةٌ، وَهِيَ مُتَمَتِّعَةٌ بِالْبَقَاءِ إِلَى الْيَوْمِ، وَإِلَى مَا بَعْدَ الْيَوْمِ، وَحَتَّى يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا. أَمَّا مُعْجَزَاتُ سَائِرِ الرُّسُلِ فَمَحْدُودَةٌ الْعَدَدِ، قَصِيرَةٌ الْأَمَدِ، ذَهَبَتْ بِذَهَابِ زَمَانِهِمْ، وَمَاتَتْ بِمَوْتِهِمْ، وَمَنْ يَطْلُبُهَا الْآنَ لَا يَجِدُهَا إِلَّا فِي خَبَرٍ كَانَ، وَلَا يَسْلَمُ شَاهِدٌ لَهُ بِهَا إِلَّا هَذَا الْقُرْآنُ»<sup>(2)</sup>.  
وَلِلَّهِ دُرُّ الْقَائِلِ حَيْثُ يَقُولُ<sup>(3)</sup>:

جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَانصَرَمَتْ \* \* وَجِئْنَا بِكِتَابٍ غَيْرِ مُنْصَرَمٍ  
آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُودُ \* \* يَرْسِمَنَّ جَمَالَ الْعَتَقِ وَالْقَدَمِ

\* أَنَّهَا مُعْجَزَةٌ وَرِسَالَةٌ فِي كِتَابٍ وَاحِدٍ: لَقَدْ كَانَتْ مُعْجَزَاتُ الْأَنْبِيَاءِ شَيْئًا آخَرَ غَيْرَ الرِّسَالَاتِ الَّتِي يَدْعُونَ إِلَيْهَا وَيُبَشِّرُونَ بِهَا. فَعَصَا مُوسَى غَيْرُ تَوْرَاتِهِ، وَطَبَّ عِيسَى غَيْرُ إِنْجِيلِهِ. إِلَّا أَنَّ اللَّهَ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مُعْجَزَةَ الرِّسَالَةِ الْأَخِيرَةِ شَيْئًا لَا يَنْفَصِلُ عَنْ جَوْهَرِهَا. حَيْثُ جَعَلَ حَقَائِقَ الرِّسَالَةِ وَدَلَائِلَ صِحِّحَتِهَا كِتَابًا وَاحِدًا. وَجَعَلَ مِنْ أُصُولِ الدَّعْوَةِ وَأَسَالِيبِ عَرْضِهَا، الْبُرْهَانَ الْأَكْبَرَ

(1) - محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن. ص 17-18.

(2) - محمد علي الصابوني: التبيان في علوم القرآن. ص: 87-88.

(3) - المرجع نفسه. ص: 87.

لدعوى الرسالة، والسناد الأعظم لصدق صاحبها (1). يقول ابن خلدون: « فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا صلوات الله عليه. لأن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي، وتأتي المعجزة شاهدة به، وهذا ظاهر. والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى، وهو الخارق المعجز، فدلالته في عينه، ولا يفتقر إلى دليل أجني عنه، كسائر الخوارق مع الوحي، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه، وهذا معنى قوله ﷺ "ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأنا أرحم من أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة" [رواه البخاري في صحيحه]» (2).

فأقوى وأعظم معجزة هي القرآن الكريم؛ لأنه أوضح المعجزات دلالة وهو بذاته الوحي المدعى؛ لاتحاد الدليل "الرسالة أو النص" مع المدلول "المعجزة الخارقة" في آياته. فلا يوجد في القرآن آية بل وحتى حرف منه يخلو من دلالة موحية، تتولد منها حقيقة كاملة تنطق بأن هذا القرآن هو كلام الله ومعجزته في خلقه وبذلك كان المصدقين والتابعين له أكثر من كل مكان وفي كل زمان. ويصدق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ [العنكبوت: 50-51].

وعليه، فقد كانت معجزة محمد ﷺ القرآن عقليّة رُوحية، ومستمرة خالدة، ورسالة معجزة في الوقت ذاته؛ لأنها خاتمة الرسالات فاقتضت أن تكون كذلك. فهذه المزاي الفريدة التي اختصت بها الرسالة الخاتمة وتميزت بها عن سائر المعجزات السماوية الأخرى شهدت على صدق دعوى الرسول الذي حمل بين يديه وفي قلبه وعلى لسانه هذه المعجزة الخالدة. ودلت على أنها من لدن الله أنزلها الله نوراً وروحاً يهدي به من يشاء. يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ [الشورى: 52].

(1) - ينظر: محمد الغزالي: عقيدة المسلم. ص: 190.

(2) - ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون): المقدمة. تحقيق وتقديم عبد السلام الشداوي، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، ط1، 2005م، 1/151.

## المطلب الثالث: مفهوم الإعجاز والفرق بينه وبين المعجزة

### 1/- إعجاز القرآن لغةً وإصطلاحاً:

\*الإعجاز لغةً: إنَّ الأصل اللُّغوي لكلمة "إعجاز" هو الجذر الثلاثي "ع ج ز"، تقول: عَجَزَ، يَعِجِزُ، عَجَزًا، فهو عَاجِزٌ، والمفعول مَعْجُوزٌ عَنْهُ (1). وهذه الكلمة "إِعْجَازٌ" مصدرُ الفعل الرباعي "أَعَجَزَ". تقول: أَعَجَزَ، أَعَجَزَ، يُعِجِزُ، إِعْجَازًا، والمفعول: مُعْجَزٌ (2).

أما معنى الإعجاز في اللغة فهو السَّبْقُ والقُوَّةُ والعَلَبَةُ فقد جاء في لسان العرب أنَّ: «الإِعْجَازُ: هو القُوَّةُ والسَّبْقُ، يقال: أَعَجَزَنِي فلان أي فَاتَنِي، [...] وقال الليث: "أَعَجَزَنِي فلانُ إذا عَجَزْتَ عن طَلَبِهِ وإِدْرَاكِهِ» (3). وجاء في أساس البلاغة: «وَطَلَبْتُهُ فَأَعَجَزَ وَعَاجَزَ إذا سَبَقَ فَلَمْ يُدْرِكْ [...] وهو من عَاجَزْتُهُ أي سَابَقْتُهُ فَعَجَزْتُهُ» (4).

\*الإِعْجَازُ إِصْطِلَاحًا: لقد تعددت واختلقت تعريفات العلماء والباحثين لمصطلح الإعجاز نذكر منهم: الشريف الجرجاني الذي عرّفه بقوله: «الإِعْجَازُ: في الكلام: هو أن يُؤدِّي المعنى بطريقٍ هو أبلغ من جميع ما عداه من الطُّرُقِ» (5). وعرّفه مصطفى صادق الرافعي بقوله: «وإنما الإعجاز شَيْئَان: -ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته. -ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه؛ فكان العالم كُله في العجز إنساناً واحداً ليس له غير مُدَّتِهِ المحدودة بالغة ما بلغت؛ فيصير من الأمر المعجز إلى ما يُشبهه في الرأي مقابلة أطول الناس عمراً بالدَّهر على مداه كُله» (6). وعرّفه هشام طالب بقوله: «أما الإعجازُ: فهو تأكيدُ وصفِ المعجزة على اتّصافها بالصِّفة ذاتها، وهي على وزن "مِفْعَال". وقد اتَّفَق اللُّغَوِيُّونَ على استخدامها للتعبير عن كلِّ ما يفوق فهم الإنسان وإدراكه الآبي» (7). وعرّفه مناع القطان: «الإِعْجَازُ: إثباتُ العَجَزِ... والعَجَزُ في التَّعَارِيفِ: اسمٌ للقصورِ عن فِعْلِ الشَّيْءِ، وهو ضدُّ القُدْرَةِ، وإذا نَبَتِ الإِعْجَازُ ظَهَرَتْ قُدْرَةُ المعجزة» (8).

(1) - ينظر: ابن فارس: مقاييس اللغة. 232/4. مادة: "ع ج ز"، وأحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة. 1459/2. مادة: "ع ج ز".

(2) - ينظر: أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة. 1459/2. مادة: "ع ج ز".

(3) - ابن منظور: لسان العرب. 370/5. مادة: "ع ج ز".

(4) - الزمخشري: أساس البلاغة. ص: 488. مادة: "ع ج ز".

(5) - الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات. ص: 28.

(6) - مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط8، 1425هـ-2005م، ص: 98.

(7) - هشام طالب: بناء الكون ومصير الإنسان. ص: 63.

(8) - مناع القطان: مباحث في علوم القرآن. مكتبة وهبة، القاهرة-مصر، دط، دت، ص: 250.

إِذَا فَلِإِعْجَازٍ فِي الْإِصْطِلَاحِ يُطْلَقُ عَلَى:  
 الْعَجْزِ وَالضَّعْفِ وَعَدَمِ الْقُدْرَةِ عَنِ الْمُجَابَهَةِ وَالْمُؤَاجَهَةِ.  
 اسْتِمْرَارِيَّةِ هَذَا الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ عَنِ التَّحَدِّيِّ وَالْمُعَارَضَةِ.  
 الْفَائِتِ وَالسَّابِقِ لِحُصْمِهِ فَجَعَلَهُ عَاجِزاً عَنِ طَلْبِهِ وَإِدْرَاكِهِ.  
 إِثْبَاتِ عَدَمِ الْقُدْرَةِ وَنِسْبَةِ الْعَجْزِ إِلَى الْعَيْرِ وَإِظْهَارِ ضَعْفِهِمْ.

الملاحظ أنَّ هناك علاقة بين المفهومين اللغوي والاصطلاحي في نسبة العجز إلى العير، وفي إثبات وإظهار ضعفهم وعجزهم لعدم قدرتهم على المواجهة والمعارضة والسبق والفوز.

### \* معنى "إعجاز القرآن":

"إعجاز القرآن": مركب إضافي، وهو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: "هذا إعجاز القرآن". وكلمة "إعجاز": مصدر وإضافتها إلى "القرآن" من باب "إضافة المصدر لفاعله". والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به، والتقدير: "أعجز القرآن الثقلين عن أن يأتوا بمثله".

ولقد تتطرق العديد من العلماء إلى تعريف هذا المصطلح وفيما يأتي اصطفاينا منها ما يأتي:  
 عرّفه الصّابوني بقوله: « وإعجاز القرآن معناه: إثبات عجز البشر -مُتفَرِّقِينَ ومُجْتَمِعِينَ- عن الإتيان بمثله. وليس المقصود من "إعجاز القرآن" هو تعجيز البشر لذات التعجيز، أي تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بمثله القرآن، فإن ذلك معلوم لدى كل عاقل، وإنما الغرض إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صادق»<sup>(1)</sup>.

وعرّفه فضل حسن عباس: « ومعنى هذا أن القرآن الكريم دلّ بما فيه من بيان على أنه من عند الله، وثبت عجز الناس عن أن يأتوا بمثله»<sup>(2)</sup>.

وعرّفه مناع القطان: « والمراد بالإعجاز هنا: إظهار صدق النبي ﷺ في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة وهي القرآن وعجز الأجيال بعدهم»<sup>(3)</sup>.

كما عرّفه الخالدي بقوله: « معنى "إعجاز القرآن" هو: "عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن، وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توفر ملكتهم البيانية، وقيام الداعي على ذلك، وهو

(1) - محمد علي الصابوني: التبيان في علوم القرآن. ص: 89.

(2) - فضل حسن عباس: إعجاز القرآن. ص: 14.

(3) - مناع القطان: مباحث في علوم القرآن. ص: 250.

استمراراً تحديهم، وتقرير عجزهم عن ذلك". وإذا كان الكافرون عاجزين عن معارضة القرآن، فإن القرآن معجز لهم، وتحقق بعجزهم عن معارضته إعجازه لهم. وإعجاز القرآن للمُنكرين له يدل على أنه كلام الله، وليس كلام أي مخلوق آخر، فلو كان كلام بشر لما عجز المنكرون عن معارضته! وهذا يدل على أن محمداً هو رسول الله ﷺ (1).

ومنه فالمقصود بإعجاز القرآن هو: إثبات عجز الثقلين عن الإتيان بمثله أو بشيء من مثله. وإظهار عجز العرب والأجيال المتعاقبة بعدهم عن تحدي معجزة القرآن سواء في أسلوبه البياني أو أخباره الغيبية أو أي من وجوه إعجازه الأخرى. وهذا ما يدل على قدرة المعجز وهو الله سبحانه وتعالى وأن القرآن معجزته الكبرى، كما يدل على صحة نبوة الرسول ﷺ وصدق رسالته.

## 2- الفرق بين الإعجاز والمعجزة:

بعد تعريفنا للمعجزة والإعجاز - وهما من الأصل الثلاثي "عجز" ومصدرين لنفس الفعل "أعجز" غير أن كلمة معجزة: من اسم الفاعل "معجز"، وكلمة إعجاز: من اسم المفعول "معجز" - لاحظنا أن هناك من يخلط بين هاذين المفهومين ولا يكاد يفرق بينهما، لذا في هذه الجزئية من البحث نحاول أن نضع جدولاً نبين فيه العلاقة بين هاذين المصطلحين والفرق بينهما من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية:

(1) - صلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني. ص: 17.

### جدول يُبين الفرق بين المعجزة والإعجاز:

الإعجاز	المُعجزة
- الأصل اللغوي لكلمة "إعجاز" هو الجذر الثلاثي "ع ج ز".	- الأصل اللغوي لكلمة "معجزة" هو الجذر الثلاثي "ع ج ز".
- "الإعجاز" مصدر الفعل الماضي الرباعي "أعجز". نقول: أعجز، يُعجز، إعجازاً، فهو مُعجز (اسم مفعول).	- "المعجزة" مصدر الفعل الماضي الرباعي "أعجز". نقول: أعجز، يُعجز، إعجازاً، فهو مُعجز (اسم فاعل).
- معنى "الإعجاز" في المعاجم اللغوية: السبق والموث والعلبة.	- معنى "المعجزة" في المعاجم اللغوية: الضعف وعدم القدرة.
- معنى "الإعجاز" اصطلاحاً: يُطلق على أنصاف وإثبات الأمر بأنه: خارق للعادة، مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة.	- معنى "المعجزة" اصطلاحاً: تُطلق على الأمر الخارق للعادة، المقرون بالتحدي، السالم عن المعارضة.
- لا يوجد مصطلح "الإعجاز" في القرآن والسنة وإنما عُرف فيما بعد. وقد ورد معناه في القرآن فيما عُرف بآيات التحدي.	- لا يوجد مصطلح "المعجزة" في القرآن والسنة وإنما عُرف فيما بعد. وقد جاءت في القرآن بصيغة: "الآية، البينة، السلطان، البرهان، البصيرة".
- "الإعجاز" حُصَّ بالقرآن فقط. أنزله الله على رسوله محمد، فتحدى به قومه والثقلين، لإثبات نبوته وأن القرآن كتاب الله ومعجزته الباقية.	- "المعجزة" خصت الأنبياء دون غيرهم، فقد أجزاها الله على أيديهم، وقدمها الأنبياء لأقوامهم. لتكون دليلاً لهم على نبوتهم.
- "الإعجاز" ظاهرة معنوية لا ترتبط بزمان ومكان محددين، فهي مُتجددة ومستمرة وأزلية.	- "المعجزة" ظاهرة كوتية قد تكون حسية أو معنوية، مرتبطة بزمان ومكان محددين، فهي متوقفة.

ما يمكن أن نستنتجه من هذا الجدول أن الظاهرة الوحيدة التي أتصفت بصفات المعجزة وصفات الإعجاز في الوقت ذاته هو القرآن الكريم، فهو معجزة كوتية خارقة للعادة، مقرونة بالتحدي وسالمة عن المعارضة، غير محددة بزمان ومكان، صدقها العقل، ولم ينتقضها العلم، وأيدها الواقع ولم تنقض عجائبها، وإعجاز القرآن بوجوهه المتعددة تحدى المعارضين وأعجزهم وأثبت أنه المعجزة الإلهية الكبرى الباقية بقاء الدهر. وفي ما يأتي سنتعرف على المسيرة التاريخية لإعجاز القرآن وعن سر إدراك هذا الإعجاز. وأبرز وجوهه المتفق عليها عند العلماء.

### المبحث الثالث:

#### المسيرة التاريخية لإعجاز القرآن وأهم أنواعه

يُعدُّ الإعجازُ القرآني من أهمِّ الموضوعات وأجلها في علوم القرآن الكريم باعتبار أن الإعجاز يتعلَّق بالمعجزة، وهي أعظم مقاصد القرآن الكريم والتي بها تقوم الحجَّة على صدق الرسول ﷺ في دعوته<sup>(1)</sup>. وإذا كان « الحديث عموماً عن القرآن وعلومه كثيراً، ومتنوعاً، ومثوقاً، وله مذاق وحلاوة؛ فإنَّ الحديث عن إعجاز القرآن خاصَّة لهو أروع وأمتع؛ فهو يُرهِن على أجلِّ أوصاف القرآن وأشرفها؛ بأنَّه من عند الله، وأنَّه حقٌّ لا ريب فيه، كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42] »<sup>(2)</sup>.

#### المطلب الأول: مسيرة الإعجاز عبر التاريخ الإسلامي:

لقد مضى عصرُ النبوة، وحتى شطرٌ كبيرٌ من عصر العباسيين، ولم يتعرَّض أحدٌ لقضية الإعجاز القرآني، حيث كان المسلمون مشغولين بمعرفة الرسالة الجديدة في عقيدتها وشريعتها. وعاكفين على القرآن الكريم، قراءة ومدارسة، وقطع كثيرٌ منهم عُمره في العُدو والرواح عليه، حتى أنَّهم أحصوا كلماته كلمةً كلمةً، وعدُّوا حروفه حرفاً حرفاً، واستعانوا على فهمه وكشف محاسنه بدراسة كثير من العلوم والفنون<sup>(3)</sup>. وإن كانت كلمة "إعجاز" بهذه الصيغة والحروف لم تظهر ولم تتداول في آيات القرآن ولا في الأحاديث الشريفة، ولا في كلام الصحابة والتابعين، فإنَّ مضمون هذا المصطلح كان متعارفاً ومُتداولاً منذ اللحظة الأولى حين نُزول الوحي.

ولعلَّ أوَّل استعمالٍ لهذا المصطلح كما يقول الخالدي « كان بعد مُنتصفِ القرنِ الثالث الهجري. وقد ذكَّر العلماء أنَّ "محمد بن يزيد الواسطي" المعتزلي أوَّل من أَلَفَ في الإعجاز، حيث أَلَفَ كتاباً سماه "إعجاز القرآن"، ولكنَّ كتابه فُقِدَ في جُملة ما فُقِدَ من كُتُبِ التُّراث، وتُوفِّي الواسطيُّ سنة 306هـ. والدليل على أنَّ أوَّل استعمالٍ لمصطلح الإعجاز والمعجزة كان بعد مُنتصفِ القرنِ الثالث بين أيدينا، أَلَفَ قبل مُنتصفِ القرنِ الثالث، لم يُستخدم كَلِمَتِي إعجاز ومُعجزة، وإنما استخدم مَكَاهِمَا كَلِمَةً "آية". إنَّه كتاب "الدِّين والدَّولة في إثبات نبوة مُحَمَّد ﷺ"، ومؤلِّفه هو "عليُّ بنُ رَئِن الطبري" »<sup>(4)</sup>.

(1) - ينظر: أحمد أبو الوفاء عبد الآخر، كارم السيد غنيم: المعجزة الخالدة. ص: 11.

(2) - عبد العزيز بن محمد بن عبد الله السحيباني: جوامع كلم القرآن وشواهد الإعجاز. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ط1، 1429هـ/2008م، ص: 17.

(3) - ينظر: فويدر قيطون: الإعجاز النفسي في الخطاب القرآني - دراسة استقرائية تحليلية. أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2014/2015م، ص: 21.

(4) - صلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني. ص: 81.

وفي كتابه: "فكره إعجاز القرآن: منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق" لخص الباحث "نعيم الحمصي" فكرة إعجاز القرآن وتاريخها عبر التاريخ الإسلامي، وعرفنا بأشهر من كتب فيها، وأهم الكتب التي ألفوها في الإعجاز ووجوهه. وفيما يأتي سنذكر أشهر من تحدث عن إعجاز القرآن عبر القرون المتتالية:

### 1- القرن الثالث هجري: بدأ الكلام في الإعجاز بصورة علمية منظمّة في بداية القرن الثالث

أو أواخر القرن الثاني. ففي هذا العصر ظهرت أكثر النظريات الرئيسية في الإعجاز صدرت عن أحرار الفكر والمعتزلة والمتكلمين، وكثر الكلام في الدين والتبوء، ومُحَث في الإعجاز على أنه فرعٌ لهما<sup>(1)</sup>. ومن أهم من تكلم عن الإعجاز في هذا العصر "أبو إسحاق إبراهيم النطّام" "220هـ"، وهو أستاذ الجاحظ في الاعتزال، وكان يرى أنّ الإعجاز كان بالصّرفة، وهي أنّ الله صرّف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، ولم يصلنا شيءٌ من كتب النطّام أو أبحاثه وإنما عرفنا رأيه من الكتب الأخرى التي بحثت في هذا الموضوع. وتكلم عن الإعجاز في هذا القرن الجاحظ وله قولان: القول بالصّرفة حين كان لا يزال متأثراً بآراء أستاذه النطّام، والقول بإعجاز البياني حين استقلّ بنفسه. وقد وضع كتاباً في إعجاز القرآن من جهة النظم والأسلوب سمّاه: نظم القرآن، لكنّه لم يصلنا وإنما وردت بعض آرائه في البيان والتبيين وفي كتاب الحيوان وفي كتب غيره من المؤلّفين بعده في الإعجاز. كما تكلم عن الإعجاز في القرن الثالث "علي بن رن الطبري" في كتابه "الدين والدولة" والإعجاز عنده هو هدف القرآن الإصلاحي وتحقيقه هذا الهدف وأوامره ونواهيته وإخباره عن الجنة والنار وأسلوبه الطلي الرائع برغم أمية النبي ﷺ<sup>(2)</sup>.

### 2- القرن الرابع الهجري: من أهم من كان لهم كلام في موضوع الإعجاز في هذا العصر: أبو

الحسن الأشعري الذي كان في أول أمره معتزلياً ثمّ تحوّل إلى مذهب أهل السنة، وبندار الفارسي المتكلم، ومحمّد بن جرير الطبري المفسر، والرماني والخطّابي والواسطي المتكلمون الأدباء<sup>(3)</sup>.

### 3- القرن الخامس الهجري: لقد امتاز هذا العصر بوفرة المتكلمين والمؤلّفين في مسألة

الإعجاز، ويُعدُّ بحق عصرها الذهبي. وأشهر علماء الكلام الذين بحثوا هذه المسألة فيه اثنان من

(1) - ينظر: نعيم الحمصي: فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق. مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط2، 1400هـ-1980م، ص:50.

(2) - ينظر: المرجع نفسه، ص:54-57.

(3) - ينظر: المرجع نفسه، ص:57-58.

الشَّيعة وهما: الشَّريف المرتضي وداعي الدُّعاة. وثلاثة من رجال السُّنة، هم: البقلاني وكان أديباً، وابن سُراقة، وابن حزم الأندلسي. وأشهر الأدباء اثنان من رجال البيان: ابن سنان الخفاجي وعبد القاهر الجرجاني<sup>(1)</sup>.

4- القرن السادس الهجري: أشهر من تكلم عن قضيّة الإعجاز في هذا العصر: مُفسّران: الرَّخشي، وابن عطية. ومُتكلِّمان وهما: العزالي وله أبحاث واسعة في الفلّسفة، والقاضي عيَّاض وله مؤلّف في السيرة النَّبويّة. وفيلسوف وهو: ابن رشد الذي كان يسعى إلى التّوفيق بين الفلّسفة اليُونانية ومبادئ الدّين الإسلامي<sup>(2)</sup>.

5- القرن السابع الهجري: أشهر من تكلم في فكرة الإعجاز في هذا القرن: المفسّر المتكلم: فخر الدّين الرّازي، والأديب أحد علماء البلاغة: السّكاكي، والصّوفي المتكلم: ابن العربي. والمتكلمان: علي الآمدي وحازم القرطنجي<sup>(3)</sup>.

6- القرن الثامن الهجري: ومَن تحدّث عن الإعجاز في هذا القرن: الرّملياني في كتابه: "البيان في إعجاز القرآن" وابن تيميّة في كتابه: "جواب أهل العلم والإيمان"، والخطيب القزويني صاحب كتاب: "التلخيص لمفتاح السّكاكي"، وابن قيم الجوزيّة وهو فقيه مفسر ومُتكلّم في كتابه: "الفوائد المشوق إلى علم القرآن وعلم البيان"، وابن كثير والشّاطبي وهما مفسّران، والرّكشي صاحب كتاب "البُرهان في علوم القرآن"<sup>(4)</sup>.

7- القرن التاسع الهجري: أشهر من تكلم عن فكرة الإعجاز في هذا العصر ثلاثة وهم: ابن خلدون في مُقدّمته المشهورة، والفيروزبادي في كتابه: "تنوير المقباس في تفسير ابن عباس" والمزّاكشي في كتابه "شرح المصباح"<sup>(5)</sup>.

8- القرن العاشر الهجري: ومن الذين عُرف لهم كلامٌ عن إعجاز القرآن في هذا القرن هم: الشُّيوطي في كتابه الإتقان. وذكريّ الأنصاري وله كتاب بعنوان: "فتح الرّحمن بكشف ما يتلبّس في القرآن"، وابن كمال باشا في رسائله، وأبو السُّعود العمادي وله تفسير بعنوان: "إرشاد السّليم إلى

(1) - ينظر: نعيم الحمصي: فكرة إعجاز القرآن. ص: 66-67.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 91.

(3) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 99.

(4) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 112.

(5) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 156.

مزايا القرآن الكريم"، والخطيب الشَّريبي الذي تكلم عن الإعجاز في مؤلفه: "السَّراج المنير في الإعانة على معرفة بعض كلام ربنا الحكيم الخبير"<sup>(1)</sup>.

**9- القرن الحادي عشر الهجري:** لم يتكلم في هذا العصر عن الإعجاز إلاَّ اثنين وهما: عبد الرَّحيم السَّيِّلكوتي، والشَّهاب الخفَّاجي، على أنَّهما لم يتكلَّما فيه بكتابٍ مُستقلٍّ، بل في خلال حاشية كل منهما على تفسير البيضاوي المسمى "أسرار التَّنزيل"<sup>(2)</sup>.

**10- القرن الثَّاني عشر الهجري:** تحدَّث في هذا العصر عن الإعجاز ثلاثة وهم: أحمد الكواكبي في كتاب التَّفسير المعروف باسم: "التَّحرير". وشمس الدِّين الضَّرير المالكي الاسكندري له كتاب باسم "نُحفة الفقير في بعض ما جاء في التَّفسير". وسليمان العجيلي الشَّافعي الأزهري المعروف بالجمل له تفسير بعنوان: "الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدَّقائِق الخفية"<sup>(3)</sup>.

**11- القرن الثَّالث عشر الهجري:** من الذين تكلموا عن إعجاز القرآن في هذا القرن: المحدِّث الفقيه المفسِّر المجتهد محمد بن عبد الله الشُّوكاني الصَّنَعاني، له مؤلِّفات كثيرة تزيد عن السَّبعين مؤلف منها كتابه في التَّفسير الذي تحدَّث في جزء منه عن الإعجاز والمسمَّى "فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التَّفسير". والآلوسي الذي تكلم عن وجوه الإعجاز في مُقدمة تفسيره. وصديق خان الفَنوجي البُخاري له عدَّة مؤلِّفات منها: "فتح البيان في مقاصد القرآن" تحدَّث فيه عن الإعجاز البلاغي. ومحمد بن أحمد الإسكندراني الذي وُصف بأنَّه البارِع في الطَّبِّ الرُّوحاني والجسماني، ومن مؤلِّفاته: "الأسرار الثُّورانيَّة القرآنيَّة، فيما يتعلَّق بالأجرام السَّماوية والأرضيَّة والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنيَّة"، وكتاب "تبيان الأسرار الرِّبانيَّة في التَّبات والمعادن والخواص الحيوانيَّة". وقد اهتمَّ الإسكندراني باستخراج العلوم الحديثة من الآيات القرآنية ولم يتحدَّث عن الإعجاز صراحةً أو مباشرة، ولكنَّه يجعل قارئ كتبه يشعر بفكرة الإعجاز ضمَّنياً. وبذلك يمهد للنزعة العلميَّة في إثبات إعجاز القرآن التي قُوِّت في القرن الرَّابع عشر<sup>(4)</sup>.

**12- القرن الرَّابع عشر الهجري:** شهد هذا القرن نهضةً علميَّةً كبيرةً، لذلك كثر المتكلِّمون في الإعجاز من عُلماء وأدباء وباحثين، وقَدَّموا تحلِّلاتٍ ودراساتٍ نافعةً قيِّمة، وأضاف بعضهم لإعجاز إضافاتٍ جديدةً مُفيدَة.

(1) - ينظر: نعيم الحمصي: فكرة إعجاز القرآن. ص: 160.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 176.

(3) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 183.

(4) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 199، 209-210.

ويمكن أن نُقسِّم العلماء الذين تحدَّثوا عن الإعجاز في هذا العصر إلى قسمين<sup>(1)</sup>:  
القسم الأول: دُعاة الإعجاز البياني: من أشهرهم: مصطفى صادق الرافعي، ومحمد عبد الله دراز، وسيّد قطب، وأمين الخولي، ومحمد عبد العظيم الزرقاني، وعائشة عبد الرحمن.  
القسم الثاني: دُعاة الإعجاز العلمي: الذين قصرت اهتماماتهم على النزعة العلمية ومن أشهرهم على التوالي: عبد الله فكري، ومحمد توفيق صدقي، وطنطاوي جوهري، وعلي فكري ومحمد أحمد جاد المولى، وعمر المباري، محمود مهدي الاستامبولي، وموريس بؤكاي، ومحمد رشيد خليفة، ومحمد متولي الشعراوي.

### المطلب الثاني: سرّ الإعجاز في القرآن الكريم

لقد دار العلماء والمفكِّرون حول القرآن في كلّ اتجاه، ورصدوه من كلّ مطلع، وجاءوا إليه بكلّ ما يملكون من قوَى ذهنيّة، وملكات نفسيّة وروحيّة، يدرسونه ويتدارسونه، فما تركوا منه حرفاً إلاّ نظروا فيه نظراً مُردّداً، ولا كلمة إلاّ وقفوا إزاءها خاشعين مُتأملين، ولا آية إلاّ عاشوا فيها مُتعبدين مُتوسِّمين.. فقد كانت جميع العلوم التي اشتغل بها المسلمون منذ صحبوا القرآن إلى اليوم من أجل القرآن، ولحساب القرآن - فعلوم التفسير، والقراءات، والفقه، وعلم الكلام، والتحو والسير، والتاريخ، والفلك، والخطّ.. وغيرها - كانت غايتها الكشف عن أسرار القرآن الكريم، أو العمل على صيانة مادّته وحفظها. ولا شكّ أنّ كلّ علم من هذه العلوم كان يرصد القرآن من مرّقبٍ خاصّ، فيتجلّى فيه بعض ما في القرآن من آيات الرّوعة والجلال، والإعجاز<sup>(2)</sup>. يقول الرافعي: «فما أشبه القرآن الكريم في تركيب إعجازه وإعجاز تركيبه، بصورة كلاميّة من نظام هذا الكون الذي اكتنّفه العلماء من كلّ جهة، وتعاوروه من كلّ ناحية، وأخلقوا جوانبه بحثاً وتفتيشاً، ثمّ هو بعد لا يزال عندهم على ذلك خلقاً جديداً، ومراماً بعيداً»<sup>(3)</sup>.

ولقد أجهت بعض الدّراسات «اتجاهاً مُباشراً للبحث عن وجوه الإعجاز ودلائله في القرآن، فلم يكن من همّها شيء إلاّ أن تكشف النقاب عن هذا السرّ المحجّب.. فكانت من أجل هذا تدور حول القرآن في كلّ مدار، وتلتقي به في كلّ مجال، وتُنظر إليه من كلّ اتجاه.. وقد اجتمع من تلك

(1) - ينظر: نعيم الحمصي: فكرة إعجاز القرآن. ص: 216. وصلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني. ص: 84-85.

(2) - ينظر: عبد الكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين - دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها. دار الفكر العربي، ط1، 1974م، ص: 147-148.

(3) - مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. ص: 98.

الدراسات محصول وفير، يكمل بعضه بعضاً.. إذ كان لكل ذي نظر نظرة -مهما اتسعت آفاقها- لا تأخذ من القرآن الكريم إلا ما يأخذ النمل من أركان شامخ..»<sup>(1)</sup>.

لذا فالعلماء والمفكرون وإن أجمعوا على أن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى القائمة التي تشهد على صدق نبوة محمد الأمي، وعدم استطاعة أحد الإتيان بمثله، فإنهم اختلفوا في تعيين سر هذا الإعجاز ومنبعه في القرآن الكريم، وهذا راجع إلى عدة أسباب نذكر منها<sup>(2)</sup>:

أ- أن القرآن الكريم قد صرح في أكثر من آية أنه معجز، وتحداهم الله تعالى على أن يأتيوا بمثله، ولكنه لم يصرح بوجه هذا الإعجاز، على سبيل الحصر والتعيين، بل ترك إعجازه مطلقاً.  
ب- أن الدارسين لإعجاز القرآن قد انطلق كل واحد منهم من زاوية تخصصه، أو من الفن الذي برز وتبع فيه، ومن ثمة نجد كل دارس تمسك بالحقيقة من الزاوية التي نظر إليها، وقال من هنا ينبع إعجاز القرآن وهنا يكمن سره، والحقيقة أن كل واحد من هؤلاء يكون قد أمسك من جوانب الموضوع بحسب ما انكشف له، في حين أن القرآن الكريم معجز بتلك الوجوه كلها.

وعليه « كان الكشف عن وجه الإعجاز، والتعرف على دلائله مطلباً عزيزاً أثيراً.. انصرفت إليه همم الباحثين والدارسين من المسلمين وغير المسلمين، ليقعوا على السر الذي من أجله كان القرآن الكريم بهذه المكانة العالية التي لا يتأهلها أحد، ولا يطمع فيها بشر.. مع أنه كلام من الكلام المؤلف المعروف»<sup>(3)</sup>. فقد جاء في "البرهان في علوم القرآن" أن سهل بن عبد الله يقول: « لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم، لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفة. وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه؛ وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه، وكلام الله غير مخلوق، ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فهم محدثة مخلوقة»<sup>(4)</sup>.

والجدير بالذكر أن إعجاز القرآن يُدرك ولا يمكن وصفه، ومن وسائل إدراكه:

أ- الكياسة والتأدب: يقول عبد الكريم الخطيب: إن محاولة البحث في الإعجاز القرآني « مقام مهيب جليل كريم، تقوم دونه حجب وأستار من الرهبة والروعة والجلال، فإذا لم يكن الساعي إلى هذا المقام الكريم المهيب على شيء غير قليل من الكياسة والتلطف والتأدب - لم ير إلا أبواباً

(1) - عبد الكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين. ص: 148.

(2) - ينظر: منير الحاج الدراجي عريوة: سر الإعجاز القرآني وتمييزه ونظرياته: <http://diae.net>

(3) - عبد الكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين. ص: 151.

(4) - الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله): البرهان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. 9/1.

مُغْلَقَةٌ دُونَهُ، وَلَمْ يَظْفَرْ بِغَيْرِ الرَّدِّ وَالْحَرَمَانِ»<sup>(1)</sup>.

ب- الذَّوْقُ السَّلِيمُ: وهو استعداد فطريّ يقدر به صاحبه على تقدير الجمال والاستمتاع به، والذوق أصله هيئة من الله. يقول ابن خلدون: «وهذا هو الإعجاز الذي تقصّر الأفهام عن إدراكه، وإنما يُدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربيّ وحصول ملكته فيُدرك من إعجازه على قدر ذوقه»<sup>(2)</sup>.

ج- مَعْرِفَةُ الْبَلَاغَةِ وَالتَّفَقُّهُ فِي أَسَالِيهَا وَفُنُونِهَا، وهذا ما أشار إليه أبو هلال العسكري في قوله: «واعلم أنّ شأن الإعجاز عَجِيبٌ، يُدْرِكُ وَلَا يُمَكِّنُ وَصْفُهُ؛ كاستقامة الوزن تُدْرِكُ وَلَا يُمَكِّنُ وَصَفَهَا، وَكالملاحاة، وَلَا طَرِيقَ إِلَى تَحْصِيلِهِ لِذَوِي الْفِطْرِ السَّلِيمَةِ إِلَّا اتِّقَانُ عِلْمِي الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَالتَّمَرُّنِ فِيهِمَا»<sup>(3)</sup>.

فَسِرُّ الْإِعْجَازِ مُضْمَرٌ فِي كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ.. كَلِمَةٌ كَلِمَةٌ، وَآيَةٌ آيَةٌ، إِنَّهُ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ.. كَالرُّوحِ تُرَى آثَارُهَا، وَتُشَاهَدُ أَفْعَالُهَا، دُونَ أَنْ يَنْكَشِفَ لِلنَّاسِ شَيْءٌ مِنْهَا. وَالْقُرْآنُ "رُوحٌ" تَتَجَلَّى آثَارُهُ فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْمَنْظُومَةِ فِي آيَاتِهِ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: 52]، لَذَا فَسِرُّ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُكْتَشَفَ، وَإِنْ انْكَشَفَ -وَهَيْهَاتَ- لَعَرَفَهُ النَّاسُ، وَمَنْ تَمَّ لَمْ يَعِدْ بَعِيدًا عَنْ مُتَنَاوِلِ أَيْدِيهِمْ.. وَبِالتَّالِي كَانَ فِي مُسْتَطَاعِهِمْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ الْقُرْآنِ<sup>(4)</sup>..

ومنه فقد حار العلماء في الكشف عن هذا السرّ في إعجاز القرآن ولا يزالون يكشفون منه كلّ يوم جديدًا. ومن هنا تعدّد أوجه الإعجاز في القرآن الكريم بتعدد جوانب النظر فيه، فمنهم من رأى ذلك في روعة معانيه، وشموليتها، واتساقها، ودقّة صياغتها، وقدرتها على مخاطبة الناس باختلاف مداركهم وأزمانهم، وإشعاعها بجلال الرُّبُوبِيَّةِ فِي كُلِّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِهِ، ومنهم من رأى ذلك في جمال بيانه ودقّة نظمه وكمال بلاغته. ومنهم من أدرك أنّ إعجاز القرآن في كمال تشريعِهِ أَوْ فِي مَنْهَجِهِ التَّرْبُويِّ الْأَخْلَاقِي الْفَرِيدِ، أَوْ فِي الْأَحْدَاثِ التَّارِيخِيَّةِ أَوْ الْإِشَارَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا أَوْ غَيْرَهَا<sup>(5)</sup>، وفيما يأتي سنفصل في أبرز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم.

(1) - عبد الكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين. ص: 18.

(2) - نعمان شعبان علوان: مقدمة في الإعجاز القرآني. ص: 429.

(3) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن. 311/1.

(4) - ينظر: عبد الكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين. ص: 177.

(5) - ينظر: زغلول راغب محمد النجار: مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1430هـ-2009م، ص: 73-74.

## المطلب الثاني: أبرز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم

لقد خاطب القرآن منذ فجر الإسلام الإنسانية كلها بجميع شعوبها على اختلاف لغاتهم وطال بهم بالتسليم بأنه كلام الله وليس كلام البشر، لذا لا ينبغي أن يكون إعجازه قاصراً على اللغة والبيان ليتحدى فصحاء العرب فقط، فالقرآن صادق وصالح لكل زمان ومكان، ومُعجزته باقية مُتجددة يتبين للناس منها على مرّ الدهور وجه لم يكن يتبين وناحية لم يكن أحد يعرفها، وفيه أنباء لا تتجلى للبشر إلا بعد حين، وعطاؤه ممتد إلى قيام الساعة، فالمستقبل لا ينقطع كما في قوله تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: 87-88] (1).

وقد تتابع العلماء قديماً وحديثاً على استقراء أوجه إعجاز القرآن الكريم، وحاولوا حصر وجوه الإعجاز بعدد محدود بين مقلِّ ومُكثِّر.

فمن العلماء القدماء: أبو الحسن الرماني "ت 386هـ" في رسالته (في إعجاز القرآن) يرى وجوه الإعجاز تظهر في سبع جهات منها البلاغة وتحتها عشرة أقسام فصل الحديث عنها. والقرطبي "ت 671هـ" في مؤلفه (الجامع لأحكام القرآن) ذكر عشرة وجوه أكثرها بلاغية، وأبو الحسن الماوردي الشافعي "ت 450هـ" في (أعلام النبوة) ذكر عشرين وجهاً، والزركشي "ت 794هـ" في (البرهان في علوم القرآن) ذكر أحد عشر وجهاً، والشيوطي "ت 911هـ" في (الإتقان في علوم القرآن) ذكر وجوهاً كثيرة وآراء العلماء في الإعجاز.

ومن الباحثين المعاصرين: محمد الزرقاني في مؤلفه: (مناهل العرفان) ذكر أربعة عشر وجهاً. ومصطفى صادق الرافعي في كتابه: (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) ذكر وجوهاً أكثرها بلاغية. ومحمد عبد الله دراز في (النبا العظيم) أجمل وجوه الإعجاز في ثلاثة: اللغوي، والعلمي والإصلاحية الاجتماعية، وأحمد خلف الله في (القرآن يتحدى) ذكر مئات الوجوه، جعلها على أقسام، وكان كتابه أكثر شولاً وأعمق دقة (2).

لذا فقد تعددت أوجه الإعجاز في القرآن الكريم بتعدد جوانب النظر فيه، وفيما يأتي سنحاول إجمالاً ما ذكره العلماء من وجوه الإعجاز القرآني وجعلها قسمين رئيسيين وهما: الإعجاز اللغوي، والإعجاز الموضوعي. وكل قسم تتفرع عنه أوجه كثيرة.

(1) - ينظر: منصور محمد حسب النبي: الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث. دار المعارف القاهرة، مصر، دط، دت، ص: 6-7.

(2) - ينظر: حسن مندبل العكيلي: نظرات في إعجاز القرآن. بحث شارك به في ندوة إعجاز القرآن في كلية التربية للبنات، جامعة بغداد 2001/2002م، نشر في مجلة الكلية مجلد 15، عدد 1، للعام 2003. ص: 1-2.

## 1-/- الإعجاز اللغوي:

إنَّ المرادَ بالإعجازِ اللُّغويِّ في القرآنِ الكريمِ؛ هو ذلك الإعجازُ الذي «تحدَّى الله به العربَ الذين كانوا قد بلغوا الذُّرَّةَ في البيانِ شعراً، ونثراً، عند نزولِ القرآنِ الكريمِ وقد كانوا يُدرِّكون عجزهم ويتذوِّقون بلاغته بدوقهم وسليقتهم، والإعجازُ اللُّغويُّ موجودٌ في كلِّ سُورِ القرآنِ الكريمِ الطُّوالِ والقِصارِ، خِلافاً لأنواعِ الأخرى فالإعجازُ فيها جزئي لا كليّ كالإعجازِ العيبي، أو التَّشريعي، أو العلمي، وهو أوسعُ أنواعِ الإعجازِ ولِسَعَتِهِ لم يَسْتَطِعِ العُلَماءُ الإحاطَةَ به، وإمَّا تَرَكَوا بابَهُ مَفْتُوحاً لحكمِ الذُّوقِ والقبولِ عند النَّاسِ»<sup>(1)</sup>. لذا فإنَّه إذا أُطلقَ الإعجازُ القرآني أوَّل ما يتبادر إلى ذهنِ السَّامعِ أنَّ المرادَ منه اللُّغوي، وإذا كانت أوجه الإعجازِ القرآني كثيرة فإنَّ أهمَّها هو ذلك الإعجازُ اللُّغوي فكل إعجازٍ يُذكر في القرآن لا يخلو من اللُّغوي لأنَّ الألفاظَ هي القوالب التي تُؤدِّي بها المعاني وذلك التَّعبير نفسه مُعجز قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكَنُذُبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: 41-42]<sup>(2)</sup>. وفيما يأتي سنحاولُ تَفْهِيمَ أوجهِ الإعجازِ اللُّغويِّ في القرآنِ الكريمِ على حَسَبِ مستوياتِ التَّحليلِ اللُّغويِّ المختلفة: المستوى الصَّوتي، المستوى الصَّرْفِي، المستوى النَّحوي، المستوى المعجمي المستوى الدَّلالي، المستوى البلاغي.

أ- الإعجازُ الصَّوتي الإيقاعي: إنَّ المقصودَ بالإعجازِ الصَّوتيِّ للقرآنِ الكريمِ هو: «مُجِيئُهُ على هَيْئَةٍ خاصَّةٍ من جهةِ البناءِ الصَّوتيِّ، أو التَّشكيلِ الصَّوتيِّ سواءً لِكَلِمَاتِهِ أو جُمْلِهِ وآيَاتِهِ، أو على المستوى الموسيقي أو الإيقاعي في السُّورةِ بِأَسْرِهِا ومَدَى مُوَافَقَةِ ذلكِ وأنَّساقِهِ وتَوَاؤُمِهِ مع المعاني والمقاصد التي تقصد إليها السُّورة على نحو المواءمة والمطابَّقة العجيبة التي يستبعد وقوعها في مثل كلام البشر، بهذه الدَّرَجَةِ من المطابَّقة والموافقَّة والمواءمة لمعاني الكلام»<sup>(3)</sup>. فالنَّصُّ القرآني مُعجَزٌ بِترتيبِ حُرُوفِهِ باعتبارِهِ من أصواتِها ومخارجِها، وبالوَقْعِ الموسيقي والإيقاعي لألفاظِهِ وآيَاتِهِ، ومُناسَبَةِ ذلك لسياقِها ونسَقِها الدَّلاليِّ ومَقاصدِ السُّورِ والآياتِ مُناسَبَةِ طَبِيعِيَّةِ لِصِفَاتِ الحُرُوفِ من هَمْسٍ وجَهْرٍ، وشِدَّةٍ ورخاوةٍ، وتَنغِيمٍ وتكريرٍ وغيرِها. ومن حيث ما يُصاحِبُ الكَلِمَةَ من ظواهرِ صَوْتِيَّةِ كالتَّنْبِيرِ والتَّنغِيمِ. يقول سيد قطب: فقد يرسم اللفظ القرآني الواحد بجرسه صورة كاملة شاخصة، فعندما تسمع قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقْوِمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَنِينٍ مِّن رَّبِّي وَءَانِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ

(1) - صديق أحمد مالك: الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم. مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، العدد 23، 1432هـ-2011م، ص: 25.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 16.

(3) - عبد الحميد هندأوي: الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم. دار عباد الرحمن، القاهرة، مصر، ط 1، 1434هـ-2013م، ص: 12.

أَنْزَلْنَاهُمْ كَمَا أَنْزَلْنَا كُرْهُونَ ﴿٢٨﴾ [هود:28] فتحسُّ أن كلمة ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ كَمَا أَنْزَلْنَا كُرْهُونَ﴾ تُصَوِّرُ جَوَّ الإِكْرَاهِ بِإِدْمَاجِ كُلِّ هذِهِ الضَّمَائِرِ فِي التَّنَطُّقِ، وَشَدَّ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ، كَمَا يُدْمَجُ الكَارِهُونَ مَعَ مَا يَكْرَهُونَ، وَيُشَدُّونَ إِلَيْهِ وَهَم نَافِرُونَ. وَهَكَذَا يَبْدُو لَوْنُ التَّنَاسُقِ أَعْلَى مِنَ البَلَاغَةِ الظَّاهِرِيَّةِ وَأَرْفَعُ مِنَ الفَصَاحَةِ اللَّفْظِيَّةِ (1).

**ب- الإعجاز الصرفي:** إِنَّ مِنْ خِصَائِصِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مَا تَمْتَّازُ بِهِ مِنْ اتِّسَاعِ الأَبْنِيَّةِ، وَكثْرَةِ الصِّيغِ الَّتِي تَسْتَوْعِبُ المَعَانِي الكَثِيرَةَ، فَالتَّصْرِيفُ يُشْرِي اللُّغَةَ بِمَا يُبَيِّنُهَا لِمَوَادِّهَا مِنَ المَعَانِي الوظيفِيَّةِ الكَثِيرَةِ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنِ المَعْنَى مَحْمُولاً عَلَى هَيْئَةِ اللَّفْظِ، وَمِنْ ثَمَّ فَهِيَ تُحَقِّقُ غَايَةً عَزِيْزَةً وَهِيَ الإِبْجَازُ. وَالتَّنَاطُرُ فِي مُفْرَدَاتِ القُرْآنِ الكَرِيمِ يَجِدُهَا مُخْتَارَةً بِحَيْثُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَضَعُ مُفْرَدَةً مَكَانَ أُخْرَى لَا يَسْتَطِيعُ، لِتَغْيِيرِ المَعَانِي بِذَلِكَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَمَامِ القُدْرَةِ وَالحِكْمَةِ، وَهَذَا يَكْمُنُ الإِعْجَازُ (2).

فالقُرْآنُ الكَرِيمُ مُعْجَزٌ بِفَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ، وَتَنَوُّعِ دَلَالَاتِ مُفْرَدَاتِهِ بِتَنَوُّعِ اشْتِقَاقَاتِهَا الصَّرْفِيَّةِ وَمِثَالِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْلَعَرَبُوا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتٍ وَيَقِضْنَ﴾ [الملك:19]، قَالَ الزَّمخَشَرِيُّ: «فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ قِيلَ: ﴿وَيَقِضْنَ﴾، وَلَمْ يُقَلْ: وَقَابِضَاتٍ؟ قُلْتَ: لِأَنَّ الأَصْلَ فِي الطَّيْرَانِ هُوَ صَفُّ الأَجْنِحَةِ؛ لِأَنَّ الطَّيْرَانَ فِي الهَوَاءِ كَالسَّبَّاحَةِ فِي المَاءِ، وَالأَصْلُ فِي السَّبَّاحَةِ مَدُّ الأَطْرَافِ وَبَسْطُهَا. وَأَمَّا القَبْضُ فَطَارِيءٌ عَلَى البَسْطِ لِلاِسْتِظْهَارِ بِهِ عَلَى التَّحْرُكِ، فَجِيءَ بِمَا هُوَ طَارِيءٌ غَيْرُ أَصْلٍ بِلَفْظِ الفِعْلِ، عَلَى مَعْنَى أَهَنَّ صَاقَاتٍ، وَيَكُونُ مِنْهِنَّ القَبْضُ تَارَةً بَعْدَ تَارَةٍ، كَمَا يَكُونُ مِنَ السَّابِحِ» (3)، فَلَقَدْ اخْتَارَتِ الآيَةُ اسْمَ الفَاعِلِ للتَّعْبِيرِ عَنِ الحَدِثِ فِي اللَّفْظَةِ الأُولَى وَاخْتَارَتِ الفِعْلَ المَضَارِعَ للتَّعْبِيرِ عَنِ الحَدِثِ فِي اللَّفْظَةِ الثَّانِيَّةِ، فَقَدْ عَدَلَتْ عَنِ الاسْمِ إِلَى الفِعْلِ، وَالأَصْلُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَعْبَّرَ عَنِ الحَدِثِ بِالفِعْلِ، وَمَعَ ذَلِكَ أَتَتْ بِالاسْمِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الثُّبُوتِ. وَمَا ذَلِكَ إِلاَّ رِعَايَةً لِلْمَعْنَى الدَّقِيقِ الَّتِي أَرَادَتِ الآيَةُ أَنْ تَرْمِزَ إِلَيْهِ وَتَدَلُّ عَلَيْهِ. «فَكَأَنَّ الآيَةَ قَدْ رَمَزَتْ بِذَلِكَ - فَضْلاً عَنِ إِثْبَاتِ حَدِيثِي الصَّفِّ وَالقَبْضِ - إِلَى أَنَّ الصَّفِّ هُوَ غَالِبُ فِعْلِ الطَّيْرِ فِي جَوِّ السَّمَاءِ وَأَنَّ القَبْضَ يَكُونُ عَارِضاً، وَهَذَا المَعْنَى وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَقْصُوداً بِالأَصَالَةِ مِنَ الكَلَامِ، فَإِنَّ اخْتِيَارَ الآيَةِ لِهَاتَيْنِ الصِّيغَتَيْنِ قَدْ شَمَلَ هَاتَيْنِ الدَّلَالَتَيْنِ دُونَ أَنْ يَزِيدَ فِي لَفْظِ الكَلَامِ بَلْ عَبَّرَ عَنِ المَعْنَى بِهَيْئَةِ اللَّفْظِ نَفْسِهِ وَليْسَ بِلَفْظِ آخَرَ، وَلَوْ خُوِّلَتْ تِلْكَ الصِّيَاغَةُ، وَأُرِيدَ التَّعْبِيرُ عَنِ تِلْكَ المَعَانِي، لَقِيلَ "يَصْفُقْنَ غَالِباً وَأَحْيَاناً قَابِضَاتٍ" وَفِيهِ مِنَ الرِّكَائِكَ وَالتَّطْوِيلِ مَا

(1) - ينظر: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن. دار الشروق، القاهرة، مصر، ط17، 1425هـ/2004م، ص:91-92.

(2) - ينظر: يوسف المرعشي: إعجاز القرآن والدلالات الصرفية. دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1432هـ/2011م، ص:14.

(3) - الزمخشري: (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار العبيكان، الرياض، السعودية، ط1، 1418هـ-1998، 175/6.

فيه، فضلاً عن أن المعنى المراد إضافته ليس مقصوداً من الكلام بالأصالة؛ وإنما هو متمم لبيان القدرة وتمام الحكمة، فكان تضمينه في هيئة الكلمة وبنيتها أولى من الإتيان بلفظٍ جديدٍ يخصه»<sup>(1)</sup>.

**ج- الإعجاز النحوي التركيبي:** ففي النصّ القرآني إعجازٌ نحوي لا مثيل له يتمثل في نظمه البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب من شعر أو نثر. يقول الجرجاني: «... فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء مما عدناه [...] لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف [...] وكنا قد علمنا أن ليس النظم شيئاً غير توخّي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم، وأنا إن بقينا الدهر نجهد أفكارنا حتى نعلم للكلمة المفردة سلكاً ينظمها وجامعاً يجمع شملها ويؤلفها ويجعل بعضها بسبب من بعض غير توخّي معاني النحو وأحكامه فيها، طلبنا ما كلُّ محالٍ دونه»<sup>(2)</sup>.

فالقرآن معجز من ناحية النظم والإلتام بين آياته وسوره ومفرداته، وفي الاستخدام الفريد للتركيب النحوية فيه، سواء كان ذلك من ناحية التقديم والتأخير، أو الحذف والإضافة، أو الإظهار والإضمار، أو الحصر والاختصاص أو نحو ذلك. ومثال ذلك من أسرار إعجاز التقديم والتأخير في النصّ القرآني قوله تعالى في سياق حديثه عن الأنعام ومنافعها: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: 6]، فإن الترتيب في الواقع يبدأ بالسرح والجمال واقع في الحالتين "السرح والإراحة" إلا أنه قدّم الإراحة، لأنّ الجمال في حالة مجيئها من المرعى آخر النهار وهي ممتلئة البطن، دائرة الضروع، أركى وأكثر وقعاً في النفوس<sup>(3)</sup>.

**د- الإعجاز المعجمي المفرداتي:** إذا نظرنا إلى المفردة القرآنية، نرى أنّها تبرز فيها الكثيرة من جوانب الإعجاز ومن ذلك<sup>(4)</sup>:

\* أن ألفاظ القرآن الكريم دقيقة ومُحكمة إحصائياً دقيقاً، ففي المواضع التي ذكرت فيها لا يوجد أفصح منها في بيانها، فقد جاء في المحرر والوجيز لابن عطية قوله: «كتابُ الله لو نُزعت منه لفظةٌ ثم أُدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد»<sup>(5)</sup>.

\* ألفاظ القرآن عذبة، وجزلة، ومُنتقاة، يقول الإمام الراغب الأصفهاني: «فألفاظ القرآن هي

(1) - عبد الحميد هنداي: الإعجاز الصرفي للقرآن الكريم - دراسة نظرية تطبيقية. دار عباد الرحمن، القاهرة، مصر، ط1، 1434هـ-2013م، ص: 76.

(2) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 375.

(3) - ينظر: صديق أحمد مالك: الإعجاز اللغوي في القرآن. ص: 30.

(4) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 28-29.

(5) - ابن عطية (أبو محمد عبد الحق الأندلسي): المحرر والوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تقديم: مجد مكي، دار ابن حزم، طبعة جديدة منقحة ومرتبطة، دت، ص: 29.

لُبُّ كَلَامِ الْعَرَبِ وَزُبْدَتُهُ وَوَأَسِطَّتُهُ وَكَرَائِمُهُ، وَعَلَيْهَا اعْتِمَادُ الْفُقَهَاءِ وَالْحُكَّامِ فِي أَحْكَامِهِمْ وَحِكْمِهِمْ، وَإِلَيْهَا مَفْرَعُ حُدَاقِ الشُّعْرَاءِ وَالْبُلْغَاءِ فِي نَظْمِهِمْ وَنَثْرِهِمْ»<sup>(1)</sup>.

فَاللَّفْظَةُ الْقُرْآنِيَّةُ تَتَمَيَّزُ بِجَمَالِ وَقَعِهَا فِي السَّمْعِ بِطَرِيقَةٍ تَتَسَقُّ وَجَمَالَ الْفِطْرَةِ وَسَلَامَتِهَا وَبِاتِّسَاقِ عِلَاقَتِهَا بِالْمَعْنَى مِمَّا يُحَقِّقُ الْقَصْدَ وَالْمَعْنَى الْمُرَادَ، وَتَمَيَّزُ دَلَالَتِهَا عَنْ دَلَالَاتِ الْكَلِمَاتِ الْأُخْرَى فِي نَفْسِ اللَّغَةِ بِعَمَقِهَا وَشُمُولِيَّتِهَا وَسِعَتِهَا، كَمَا أَنَّهَا تَتَسَمُّ بِخَفْتِهَا عَلَى السَّمْعِ، وَسُهولة نطقها فتدُلُّ على المعنى بيسر وسهولة<sup>(2)</sup>. وقد نَبَّهَ لذلك الجاحظ فقال: «وقد يَسْتَحْفُ النَّاسُ أَلْفَاظًا فَيَسْتَعْمَلُونَهَا وَغَيْرُهَا أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهَا، أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَمْ يَذْكُرْ فِي الْقُرْآنِ "الْجُوعَ" إِلَّا فِي مَوْضِعِ الْعِقَابِ أَوْ فِي مَوْضِعِ الْفَقْرِ الْمَدْقِعِ وَالْعِجْزِ الظَّاهِرِ؟ وَالنَّاسُ لَا يَذْكُرُونَ "السَّعْبَ" وَيَذْكُرُونَ "الْجُوعَ" فِي حَالِ الْقُدْرَةِ وَالسَّلَامَةِ. وَكَذَلِكَ ذَكَرَ "المَطَرُ" فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ الْقُرْآنَ يَلْفِظُ بِهِ إِلَّا فِي مَوْضِعِ الْإِنْتِقَامِ، وَالْعَامَّةُ وَأَكْثَرُ الْخَاصَّةِ لَا يَفْصِلُونَ بَيْنَ ذِكْرِ الْمَطَرِ وَذِكْرِ الْغَيْثِ. وَلَفْظُ الْقُرْآنِ الَّذِي عَلَيْهِ نَزَلَ أَنَّهُ إِذَا ذَكَرَ "الأَبْصَارَ" لَمْ يَقُلْ "الأَسْمَاعَ"، وَإِذَا ذَكَرَ "سَبْعَ سَمَوَاتٍ" لَمْ يَقُلْ "الأَرْضِينَ"، أَلَا تَرَاهُ لَا يَجْمَعُ الأَرْضَ عَلَى أَرْضِينَ، وَلَا السَّمْعَ عَلَى أَسْمَاعٍ! وَالْجَارِي عَلَى أَفْوَاهِ الْعَامَّةِ غَيْرُ ذَلِكَ، لَا يَتَفَقَّهُونَ مِنَ الأَلْفَاظِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِالذِّكْرِ وَأَوْلَى بِالاسْتِعْمَالِ»<sup>(3)</sup>.

#### هـ- الإعجاز الدلالي السياقي: إنَّ من أعظم وجوه الإعجاز في القرآن ثراء دلالته واتساع معانيه

وتوافقها مع السياق؛ فتتعاوض ولا تتعارض، وتتآزر ولا تتعادر؛ بحيث ترسم صوراً للمعاني وإرارة الظلال، منسجمة الألوان، متعدّدة الأغصان والأفنان، مع كونها ترجع إلى أصل واحد<sup>(4)</sup>. ومن أوجه الإعجاز الدلالي الموظفة لخدمة السياق القرآني؛ اتساع المعنى وتعدّده في القرآن الكريم، ومن جماليات اتساع المعنى في القرآن الكريم اتساع الدلالة المعجمية من خلال المشترك اللفظي في القرآن الكريم؛ فالمعلوم أنَّ الاشتراك بين الألفاظ واقع في لغة العرب بما لا ينكره من له أدنى اطلاع على لغتهم، وذلك كما في لفظ "العين" فقد تُفسَّر بأثما الباصرة أو البئر أو الجاسوس. ومن أمثله في القرآن الكريم كلمة: ﴿عَسَسَ﴾ في قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ [التكوير: 17] يقول ابن كثير: «قال كثير من علماء الأصول: إنَّ لفظة ﴿عَسَسَ﴾ تُستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك،

(1) - الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن. ص: 4.

(2) - ينظر: رشاد محمد سالم: مع القرآن الكريم في إعجازه اللغوي لطائف وأسرار. دار عباد الرحمن، القاهرة، مصر، ط 4، 1437هـ - 2017م، ص: 83.

(3) - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين. تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط 7، 1419هـ/1998م، ص: 20.

(4) - ينظر: عبد الحميد هندأوي: الإعجاز الدلالي للقرآن الكريم - دراسة نظرية تطبيقية. دار عباد الرحمن، القاهرة، مصر، ط 1، 1434هـ - 2013م، ص: 5.

فعلى هذا يصح أن يُراد كلُّ منهما «(1). فكلمة ﴿عَسَسَ﴾ مُشترك لفظي قد تأتي بمعنى الإقبال والإدبار والسِّياق القرآني لا يأبي هاذين المعنيين ولا يُعارضهما بل يَحْتَمِلُهُمَا جَمِيعًا يقول الباحث عبد الحميد هنداوي « لا شكَّ أنَّ كلاً من إقبال اللَّيْلِ وإدباره سَاعَتَانِ شَرِيفَتَانِ، وآيتان عَظِيمَتَانِ دَالَّتَانِ على قُدرة الله تعالى؛ فلذا فقد أقسم بهما تَويهاً بِشأْنَهُمَا، وتعظيم النَّبي ﷺ لهَاتَيْنِ السَّاعَتَيْنِ بِالذِّكْرِ وَالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ تَأَبَّتْ بِنصوصٍ كَثِيرَةٍ لَيْسَ هُنَا مَحَلُّ ذِكْرِهَا؛ لِذَا فلا يَبْعَدُ أن يكون المراد بالقَسَمِ كلاً من هَاتَيْنِ السَّاعَتَيْنِ الشَّرِيفَتَيْنِ، وسِيَّاق الكلام يُساعده ولا يُعارضه»(2).

**و- الإعجازُ البلاغيُّ الأسلوبي:** إنَّ المقصودَ من الإعجازِ البلاغيِّ الأسلوبيِّ في القرآن الكريم هو: « ذلك النوع من الإعجاز الذي أبدأ فيه أسلافنا القول وأعادوا من جهة النظر في أساليب القرآن خبريها وإنشائيها وما تشمل عليه من وجوه الفصاحة والمعاني والبيان والبديع مما أفاضت فيه دراسات تنأى عن الحصر في القديم والحديث »(3). فكلُّ ألفاظِ القرآنِ فصيحَةٌ سليمةٌ من جميع العيوب، وليس فيه لفظٌ يَنْبُو عن السَّمْعِ أو يَتَنافَرُ مع ما قبله أو ما بعده، كما أنَّها مُطابِقةٌ لمقتضى الأحوالِ في أعلى مُستوى بلاغيٍّ، فإِذَا « استعرضنا آيات القرآن الكريم من أوَّل سورة "الفاحة" إلى آخر سورة "الناس" على تعريفِ الفصاحة والبلاغة، وشروط الألفاظِ الفصيحة والكلامِ البلاغيِّ، لوجدنا كل آية قد تحققت فيها الفصاحة والبلاغة، في أجهي صورهما، ولوجدنا أنَّ معاني الكلمات تنسابُ إلى القلبِ قَبْلَ أن تُبهرنا الألفاظُ بِجمالها السَّاحر، سواء في ذلك السُّور والآيات التي تَلَفَت أنظارنا إلى الآفاق، لِنستدلَّ على الصَّانع من لوحة إبداعه الرَّائعة، أو الآياتِ المتعلِّقة بمبدأ البعث والنشور، والموقف والحساب، أو ما يتعلَّق منها بتنظيم شؤون الحاكم مع الرعية، أو الأسرة وحقوق أفرادها، وغيرها من الأمور التي تولى القرآن الكريم الحديث عنها. كلُّ تلك الآيات عليها الصبغة الزاهية من البيان الرَّائع والجمال اللَّفظي، في أبسط أسلوبٍ وأوضحه، وأقرته إلى الفهم والقلب»(4).

فالقرآن الكريم يتميَّز بأسلوبٍ خاصٍّ اختصَّ به عن سائر الكلام وتميَّز به عن الأسلوبِ السائد بين فصحاء الشعراء والخطباء، ولا يُدانيه أسلوبٌ من الأساليب. ومن أوجه إعجازِ أسلوب النَّصِّ القرآني مرونته ومطاوعته في التَّأويل، وهذه المرونة تجعله واسع الدلالة سبعة المورِد الذي تزدحم

(1) - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 338/8.

(2) - عبد الحميد هنداوي: الإعجاز الدلالي للقرآن الكريم. ص: 18.

(3) - عبد الحميد هنداوي: الإعجاز الأسلوبي في القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية. دار عباد الرحمن، القاهرة، مصر، ط 1، 1434هـ-2013م، ص: 14.

(4) - مصطفى مسلم: مباحث في إعجاز القرآن. ص: 127-128.

عليه الوفود ثم تصدر عنه وهي ريانة راضية. فتُشفي قلوب العامة وتكفي الخاصة وهي من أسباب خلود القرآن، فلم يستغلق فهمه على العرب الذين نزل القرآن بين ظهرائهم ولم يكن لهم إلا الفطرة السليمة الذواقة للجمال، وفهمه وتفاعل معه من جاء بعد ذلك من أهل العلوم والأفكار، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل، وقد أثبتت العلوم الحديثة المتطورة كثيراً من حقائقه التي كانت مخفية عن السابقين، وفي علم الله ما يكون من بعد<sup>(1)</sup>.

فلقد «فهم علماء السلف رضوان الله عليهم الآيات الكريمة: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ﴾ ﴿بَلْ قَدَرِينْ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: 3-4]، ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: 30]، غير ما فهمه العلماء المتأخرون بعد تطور العلوم الطبيعية والفلكية ولم يبعد عن الصواب من قال: "الزمن خير مُفسر للقرآن". وما ذاك إلا لأن القرآن كتاب الإنسانية الخالد الذي لا يستطيع جيل من الأجيال استفرغ ما فيه من العلوم والحكم والحقائق»<sup>(2)</sup>.

## 2/- الإعجاز الموضوعي:

لم يقتصر التحدي والإعجاز في القرآن الكريم على الوجوه اللغوية والبلاغية فقط بل تعدى ذلك إلى مضمونه وما يحتويه من مواضيع فكرية مختلفة، فالرسول بُعث للناس كافة من عربٍ وعجمٍ والقرآن هو المعجزة الخالدة الباقية مع مر الزمن، لذا فلا يمكن أن يكون التحدي به لغوياً لفظياً أسلوبياً موجّه بالخصوص إلى فئة معينة هم أهل البيان والبلاغة فقط، بل هو أيضاً مُعجزٌ من حيث معانيه وموضوعاته ومضامينه بكل ما تحتويه من شرائع وعبادات وأخلاق، ومن أخبارٍ وقصصٍ وأبناء غيبية، ومن حقائق علمية وأصول معرفية لشئى العلوم، ولذلك كان التحدي عاماً موجّها للعرب وغيرهم من الأمم الأخرى -الذين لا يتقنون اللغة العربية- في مختلف العصور والأمصار، وبالتالي يُقيم الحجة على العجم الذين لم ينزل القرآن بلسانهم. ومن هنا يمكن أن نقول أن النصّ القرآني مُعجزٌ في وجهي النص، وهما وجه الألفاظ واللغة والبلاغة، ووجه المعاني والمضمون والموضوع. وفيما يأتي يمكن تقسيم أبرز أوجه الإعجاز الموضوعي في القرآن إلى ثلاثة أنواع:

### أ- الإعجاز الإخباري: إن المراد بالإعجاز الإخباري هو إخبار القرآن الكريم بقضايا ووقائع

وحوادث ماضية أو مستقبلية لا يعلمها أحدٌ إلاّ علام الغيوب. كُلهَا دالة على إعجاز القرآن، وأنّه

(1) - ينظر: مصطفى مسلم: مباحث في إعجاز القرآن. ص: 152.

(2) - المرجع نفسه. ص: 153.

من عند الله الذي لا تخفى عليه خافية في الحاضر والماضي والمستقبل.

وهذا الإعجاز فيما تضمنه القرآن من الأنباء، أربعة أشياء<sup>(1)</sup>:

**أولها:** الإخبار عن الغيب المطلق، كالحبر عن الله وأسمائه وصفاته والملائكة وصفة الجنة والنار.

**وثانيها:** الإخبار عن الأمور السابقة والأمم السالفة والقرون الماضية، ولم يكن النبي ﷺ تعلم

ذلك، ولا قرأه في كتاب، كما قال في قوله عز وجل: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْمَعُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَزْتَابُ الْمُبْطُوتِ ﴾ [العنكبوت:48]. ومن أخبار قصص الأنبياء مع أقوامهم، قوله تعالى

في خاتمة قصة نوح عليه السلام: ﴿ قِيلَ يَنْوُحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ

سَمِعْتَهُمْ ثُمَّ يَمْسَهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ

هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقَبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ ﴾ [هود:48-49].

**وثالثها:** الإخبار عما يكون في مستقبل الزمان، كالإخبار عن الشيء قبل وقوعه في عهد النبي

ﷺ، أو عما سيكون بعد ذلك. كقوله تعالى: ﴿ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ [الأنفال:7]؛ أي

الاستيلاء على عير أبي سفيان أو الانتصار في غزوة بدر، فكانت الثانية. ومن هذا القبيل وعده جل

وعلا بأن يكون كتابه محفوظا عن الزيادة والنقصان محروسا عن التغيير والتبديل على طول الزمان،

وقد فعل، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:9]، والضمير في قوله: ﴿ لَهُ ﴾ عائذ

على الذكر، على الصحيح في تفسير هذه الآية. وهذا الحفظ المذكور في الآية شامل للفظه ومعناه،

في جميع الأحوال، في حال إنزاله من استراق الشياطين، وبعد إنزاله حين أودعه الله في قلب رسوله،

واستودعه في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل.

**ورابعها:** الإخبار عما تكنه النفوس وتخفيه الضمائر، مما لا يمكن أن يعلمه إلا الله، ولا يصل

إلى علم النبي ﷺ إلا بوحي الله. كالذي تراه في سورة التوبة من ذكر أسرار المنافقين، حتى خاف

الناس أن ينزل القرآن بأسمائهم يظهر حقائق ما في نفوسهم. كما قال سعيد بن جبيرة: قلت لابن

عباس: سورة التوبة، قال: التوبة؟، قال: بل هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ،

﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ، حتى ظنوا أن لا يبقى منا أحد إلا ذكر فيها [حديث صحيح متفق عليه، أخرجه البخاري

"رقم: 4600 ومسلم رقم: 3031].

(1)- ينظر: عبد الله بن يوسف الجديع: المقدمات الأساسية في علوم القرآن. مؤسسة الريان، بيروت-لبنان، ط1، 1422هـ-2001م. ص: 23-27. وينظر: عبد العزيز بن محمد بن عبد الله السحيباني: جوامع كلم القرآن و شواهد الإعجاز.

ب- **الإعجاز التشريعي:** والمراد بالإعجاز التشريعي كل ما جاء به القرآن من شرائع وقوانين « تشهد في استقامتها وعدلها وصلاحتها لكل زمانٍ أتمَّ من عند الله، وأن لا طاقةً للخلق أن يوجِدوا لها نظيراً، مهما بلغت العقول. ذلك أن التشريع مبني على تحقيق مصالح العباد في الدارين، ولا يُحيط بتلك المصالح أحدٌ من خلق الله، لقصور العلم، والتقصُّ بالطبع، لكنَّ الله سبحانه هو الخالق، فهو أعلمُ بخلقِهِ وحاجتِهِم وما يكونُ به صلاحُهُم وفسادُهُم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:14]»<sup>(1)</sup>.

وهذا الإعجازُ التشريعي مُتَحَقِّقٌ في (2):

**أولاً:** تَرْبِيَّةُ الْفَرْدِ: حيثُ يُحَرِّزُ وجدانه بعقيدة التوحيد: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1] ويأمرُهُ بأداء العبادات من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج. ويدعوه إلى الأخلاق الحسنة كالإيثار والجدود، والكرم، والصبر، والأمانة. ويعرس في نفسه المسؤولية الفردية ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ﴾ [المدثر:38].  
ثانياً: بناء الأسرة: فالأسرة نواة المجتمع، فيشرع الزواج ويُقيم رباط الأسرة على الود، والرحمة والسكن النفسي، والعشرة بالمعروف، ومراعاة خصائص الرجل وخصائص المرأة.  
ثالثاً: قيام الدولة: فالقرآن يقرّر كيفية قيام الدولة التي تسود المجتمع وخصائص حكومتها: فهي حكومة شورى: ﴿وَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:159]. وهي حكومة تقوم على العدل المطلق في نطاق القدرة البشرية: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ بِالْإِقْسَاطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّهُ أَوْ تَعْرِضُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:135]. كما يُقرّر صيانة الضروريات الخمس للحياة الإنسانية؛ إذ يستحيل قيام كيان اجتماعي يسوده العدل والأمن النفسي والاجتماعي إلا بالمحافظة على: "الدين، والنفس، والعرض، والمال، والعقل". ويُقرّر القرآن أيضاً العلاقات الدولية في الحرب والسلم بين المسلمين وجيرانهم أو معاهديهم، وهي أرفع معاملة عرفت في عُصور الحضارة الإنسانية.

ج- **الإعجاز العلمي:** إن المقصود بالإعجاز العلمي هو انطباق آيات القرآن على ما يكشفه العلم

من نظريات علمية؛ وذلك فيما ورد في هذا الكتاب من دلالات وإشارات ونظريات علمية ودل

(1) - عبد الله بن يوسف الجديع: المقدمات الأساسية في علوم القرآن. ص: 28.

(2) - ينظر: عبد الله عبد العزيز المصلح وعبد الجواد صاوي: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة "منهج التدريس الجامعي". دار جباد للنشر والتوزيع، ط1، 1429هـ/2008م. ص: 25-26.

عليه من الآيات في السماوات والأرض والأنفس، مما لم يكن ليحيط به علم بشر في عهد النبي ﷺ من تلقاء نفسه، ثم يبقي الناس يكتشفون أسرارَه في الكون، والقرآن قد سبق به منذ دهرٍ بعيدٍ تصرّيحاً وتلويحاً، كان يتلوه على الناس نبي أمي، لم يدرس علوم الفضاء ولا البيئة ولا البحار ولا الأجنّة، لينبئ العالم أنه رسول رب العالمين وأن هذا القرآن من علم الله الذي أحاط بكل شيء (1). يقول الله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا لَا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: 59].

ما يمكن أن نستخلصه مما سبق ما يأتي:

\* أن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم تعدّ أسراراً، يأذن الله جلّ ثناؤه بإظهارها كلما تحلّى المتفكر والمتدبر في آياته بالكياسة والتأدب والدّوق السليم، وعرف قواعد وأسس اللغة العربيّة وفنون البلاغة وأساليبها. وكلما زاد التدبر في النظم القرآني والتفكر في آيات الله الكونية كلما تجلّت نواح من نواحي إعجازه، وقام البرهان على أنه من عند الله.

\* أن ما يميّز أوجه الإعجاز في النصّ القرآني هو أنها متعدّدة ومُتجدّدة ومُطلقة لا يحدّها علم ولا زمن، فالعقول لم تصل حتى الآن إلى إدراك نواحي الإعجاز كلّها وحصرها في وجوه معدودات، ففي كل زمن تبرز وتظهر لنا أوجه جديدة لا تنقطع ولا تتناهى، تُبهرنا وتزيّدنا إيماناً بأن هذا القرآن هو آية الله ومُعجزته الباقيّة الخالدة في خلقه.

\* أن الإعجاز اللغوي عام موجود في كلّ آيات القرآن المبين بكلّ حروفها وألفاظها وتراكيبها ونظمها وأساليبها ودلالاتها، بخلاف الإعجاز الموضوعي وما يحتويه من أوجه عديدة ومختلفة فالإعجاز فيها جزئي؛ أي أنه يقع في بعض من آيات النصّ القرآني المعجز، وهذه الأوجه هي ظهرها الله جلّ ذكره على يد من يريد وقتما يريد.

(1) - ينظر: عبد الله بن يوسف الجديع: المقدمات الأساسية في علوم القرآن. ص: 29-30.

## المبحث الرابع. الإعجاز العلمي في القرآن تحديداً وتاريخياً

لقد رأينا فيما سبق أن معجزة القرآن الكريم إمتازت بكثيرٍ من المعجزات التي لا يمكن حصرها أو إحصاؤها، لكن من أهمها أنها معجزة خالدة مستمرة تُخاطب كل العقول الإنسانية بتفاوت مستويات مداركهم وثقافتهم وأفهامهم واختلاف زمانهم ومكانهم. فقد شاءت قدرة الله أن يجعل في هذا الكتاب معجزاتٍ لكل العصور فتتحقق ماثلة أمام العين تدلُّ وترشد إليها آياتٌ ونصوص ومعاني القرآن، يقول تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَفْرِّقٌ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 67].

وبما أننا في عصر الاكتشافات العلمية هذا العصر الذي رُفعت فيه راية العلم عاليةً، وغداً من يرتقي إلى أبعدٍ حدودٍ فيه يُرسم له وسام السبق والتّحدي في تخصصه. فوصل بذلك علماء وباحثون إلى عددٍ لا مُتناهي من الحقائق العلمية لسُنن كونيةٍ مختلفة، وما إن تُعرض حتى تسطع المعجزة القرآنية من جديدٍ فتظهر أن آية من القرآن أشارت إلى هذه الحقيقة صراحةً أو تلميحاً، وهنا يقوم برهان جديد على أن القرآن من عند الله تعالى، وبذلك كانت الأسبقية العلمية في آيات القرآن الكريم دالة على إعجازه وبرهانه علمي نصي على قدرة الله سبحانه. وفي هذا الصدد يقول راتب النابلسي<sup>(\*)</sup>: «لقد امتلك الإنسان في هذا العصر «أدقّ أجهزة البحث العلمي، وتمكّن من حشد جيوش من الباحثين، في شتى المجالات، يبحثون عن الأسرار المحجوبة في آفاق الأرض والسما، و في مجالات النفس البشرية، يجمعون المقدمات، ويرصدون النتائج، في رحلة طويلة عبر القرون، ولما أخذت الصورة في الاكتمال والحقيقة في التجلّي وقعت المفاجأة الكبرى، بتجلّي أنوار الوحي الإلهي، الذي نزل على محمد ﷺ قبل أكثر من ألفٍ وأربعمئة عام، بذكر تلك الحقيقة في آية من القرآن أو بعض آية، أو في حديث لرسول الله ﷺ أو بعض حديث بدقّة علمية معجزة وعبارات مشرقة»<sup>(1)</sup>.

فقد اشتمل القرآن في كثيرٍ من آياته على إشارات علمية عديدة لم تكن معلومة قبل ظهور الإسلام ولا في زمن الوحي، وهذه الإشارات هي ما يُطلق عليها في هذا العصر بالإعجاز العلمي. فما مفهوم الإعجاز العلمي في اصطلاح العلماء؟ وكيف كانت مسيرته التاريخية؟

(\*) - ولد محمد راتب النابلسي في دمشق "سوريا" في 29 يناير 1939م، وهو داعية إسلامي معاصر، له دروس ومحاضرات في الإعجاز العلمي والتفسير، والمنهج العلمي والمعرفة، أشهر بسلسلته عن أسماء الله الحسنى، وعن السمائل النبوية، وهو رئيس هيئة الإعجاز القرآني، له العديد من المؤلفات وشارك في العديد من المؤتمرات العالمية. عمل في حقل التعليم الجامعي، في كلية التربية بجامعة دمشق قرابة ثلاثين عاماً وهو يدرس مادة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في كليات الشريعة وأصول الدين ويشرف على مجلة نهج الإسلام التي تصدرها وزارة الأوقاف في سوريا. له مؤلفات عديدة من أبرزها: "موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة"، عشرون طبعة، مترجم إلى اللغة الإنكليزية، ويأتي في مجلدين: "آيات الله في الآفاق" "آيات الله في الإنسان". ينظر: <https://ar.m.wikipedia.org>

(1) - محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الآفاق. دار المكتبي سورية-دمشق، ط2، منقحة و معدلة، 1426هـ/2005م. ص: 19-20.

## المطلب الأول: مفهوم الإعجاز العلمي والفرق بينه وبين التفسير العلمي

## 1/- تعريف الإعجاز العلمي في اصطلاح العلماء

يتكوّن هذا المصطلح من كلمتين "الإعجاز" و"العلم" وقد جاء فيما سبق تعريفنا لهاتين الكلمتين في اللغة والاصطلاح وفصلنا في ذلك. و «لئن كان "إعجاز القرآن" مستحدث مؤلّد قد أخذ جدلاً واسعاً في ظهوره واصطلاحه؛ فإنّ الإعجاز العلمي مُركّب مُعاصرٌ مُستحدث من مركّب مؤلّد»<sup>(1)</sup>. لذا فقد تباينت وجهات نظر العلماء في تحديد تعريف لمصطلح الإعجاز العلمي وذلك على النحو التالي:

\*فقد عرّف عبد المجيد الزنداني<sup>(\*)</sup> الإعجاز العلمي بقوله: «هُوَ إخبارُ القرآن الكريم أو السنة النبويّة بحقيقة أثبتّها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانيّة إدراكها بالوسائل البشريّة في زمن الرسول ﷺ». وهذا ممّا يُظهر صدق الرسول محمد ﷺ فيما أخبر به عن ربّه سبحانه»<sup>(2)</sup>.

\*كما ذهب زغلول النجار<sup>(\*\*)</sup> إلى أنّ الإعجاز العلمي في القرآن «يقصدُ به سبقُ هذا الكتاب العزيز بالإشارة إلى عددٍ من حقائق الكون وظواهره التي لم تتمكّن العلوم المكتسبة من الوصول إلى فهم شيءٍ منها إلاّ بعد قرونٍ مُتطاولة من تنزّل القرآن الكريم، يزيد طولها على عشرة قرون كاملة في أقلّ تقدير لها. ولا يُمكن لعاقِل أن يتصوّر لهذه الحقائق العلميّة مصدرًا غير الله الخالق سبحانه وتعالى حيث لم يكن ممكناً لأيّ من البشر إدراكها في زمن الوحي ولا لقرونٍ عديدة من بعده، وفي إثبات ذلك تأكيد لأهل العلم في عصرنا أنّ القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وتصديق للنبي الخاتم والرسول الخاتم في نبوته ورسالته، وفي التبليغ عن ربّه»<sup>(3)</sup>.

(1) - مرهف عبد الجبار سفا: التفسير والإعجاز العلمي في القرآن ضوابط وتطبيقات. تقديم: نور الدين عتر، بديع السيد اللحام، حمزة حمزة، دار محمد الأمين، دمشق، سوريا، ط1، 1431هـ-2010م، ص:87.

(\*) - ولد عبد المجيد بن عزيز الزنداني الأرحبي البكلي في قرية الظهبي في مدينة الشعر من محافظة إب إحدى محافظات الجمهورية اليمنية في 1 يناير 1942م، وهو عالم وسياسي وداعية يمني، وهو المؤسس لجامعة الإيمان باليمن ومؤسس الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمكة المكرمة، أقرن اسمه بالإعجاز العلمي من خلال محاضراته التي يلقيها والكتب والمقالات التي يألّفها، ومن كتبه: البيّنة العلمية في القرآن الكريم. ينظر: <https://ar.m.wikipedia.org>

(2) - عبد المجيد الزنداني وسعاد بلدروم ومحمد الأمين ولد الشيخ: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، دت، ص:14.

(\*\*) - ولد زغلول راغب محمد النجار في قرية مشال مركز بسبون محافظة الغربية بمصر في 17/11/1933م، وحصل على بكالوريوس العلوم بمرتبة الشرف من جامعة القاهرة سنة 1955م وكان أول دفعته، فمُنحه الجامعة جائزة بركة لعلوم الأرض. ثم نال درجة الدكتوراه في الجيولوجيا "علوم الأرض" من جامعة ويلز ببريطانيا سنة 1963م، ومنحته الجامعة درجة زمالتها للأبحاث فيما بعد الدكتوراه، وتحصل على الأستاذية "درجة البروفيسور" في سنة 1972م. اشتغل عدة مناصب منها عمله أستاذا زائرا في جامعة كاليفورنيا، ومستشارا للتعليم العالي بالمعهد العربي للتنمية بالخبر بالسعودية، ومديرا لمعهد "مارك فيلد" للدراسات العليا ببريطانيا، وقد أشرف على أكثر من أربعين رسالة ماجستير ودكتوراه في الجيولوجيا في مصر، والسعودية، والخليج العربي. هذا فضلا عن كونه عضواً للجنة الاستشارية العليا لهيئة الإعجاز برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، كما أنّه يشغل رئاسة لجنة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر. له أكثر من مئة وخمسين بحثاً ومقالاً علمياً منشوراً، وخمسة وأربعين كتاباً باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية. له سلسلة من الأشرطة السمعية والبصرية والأسطواناتية المدمجة في مجالات متعددة أهمها "الإسلام والعلم".

ينظر: <https://ar.m.wikipedia.org>

(3) - زغلول النجار: مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. ص:145.

\* ويُعرّفه خالد فائق العبيدي بقوله: «الإعجاز العلمي كما سُمّي هو محاولة رَبط اكتشافات علمية ونظرياتٍ تطبيقية أثبتت في هذا العصر وخصوصاً بعد عصر الثورة الصناعية ولحدّ الآن مع ما تطرّق له القرآن العظيم قبل أكثر من 1400 عام خلّت لجعل المستمع أو المتلقّي أو القارئ أمام حقيقة واضحة وحليّة أن كون الله المنظور يُطابق كون الله المقروء وعليه فإنّ هذا الكتاب وهذا الدّين هو حقٌّ مُطلق شامل وكامل لكلّ زمانٍ ومكانٍ وبالتالي فهو الأولى بالإتباع والتّصديق والعمل»<sup>(1)</sup>.

\* كما ذهب عدنان الشّريف إلى أنّه: « الدّراسة العلميّة المنهجية لآيات الكتاب الكريم والأحاديث الشّريفة التي تشرحها، والتي تطرّقت في مضمّينها إلى مختلف فروع العلم المادّية. كعلم الفلك، والعلوم الأرضية، والعلوم الطبيّة، وعلوم الحيوان والنبات، وغيرها من العلوم. وهذه الدّراسة هي دراسة مقرونة بما ثبت اكتشافه من حقائق علمية وضعيّة لا جدال فيها بين العلماء وحسب. ولا تقوم أبداً على الرّبط بين الآيات الكريمة والنّظريات العلميّة التي مازالت موضع بحث ودرس»<sup>(2)</sup>.

\* بينما يعرفه راشد سعيد شهوان بأنّه: « علمٌ يضمُّ أيضاً مجموعة من المباحث تحت اسم مشترك. وهذه الموضوعات منها ما يتعلّق بالإعجاز النّفسي ومنها ما يتعلّق بالإعجاز الكوني والطبي، ومنها ما يتعلّق بالإعجاز التّشريعي والإعجاز التّأثيري والإعجاز التّاريخي والإعجاز التّربوي... إلخ، والإعجاز البياني هو القلب الذي تصبُّ فيه كل أنواع الإعجاز. والإعجاز العلمي يضمُّ مجموعة من المباحث والموضوعات التي تتعلّق بالآيات والأحاديث التي تُشير إلى الكون بطبيعته السّماوية والأرضية بأحيائه وجماداته، وعناصره وظواهره والسّنن الربانيّة التي تحكم ذلك كله»<sup>(3)</sup>.

\* وفي تعريفه للإعجاز العلمي انتقد مُرهف عبد الجبار سقا التعريفات التي لا تُميّز بين التّفسير العلمي والإعجاز العلمي كالذي يُعرّفه بأنّه استخراج معانٍ من بعض نُصوص الكتاب والسنة ، لأنّ استخراج المعاني يكون في التّفسير لا في تقرير الإعجاز. وتلك التعريفات التي لم تُراع الأصل اللغوي لفظ الإعجاز، كمن عرفه بإخبار القرآن الكريم بحقيقة أثبتّها العلم. وفي ذات السّياق حاول إيجاد تعريفاً علمياً خاصاً لهذا المركّب لا يخرج عن المعنى اللغوي، ولا تكون فيه العلوم المستقرّة حجّة في صحّة معاني القرآن بقوله: " إنّ تعريف الإعجاز العلمي هو سبق القرآن الكريم بزمن بعيدٍ في الدّلالة إلى حقائق في شئٍ منّاحي العلم قبل اكتشاف العلم لها واستقراره على اعتمادها".

(1) - خالد فائق العبيدي: المنظار الهندسي للقرآن الكريم. دار المسيرة، دط، دت، ص: 55-56.

(2) - عدنان الشّريف: من علم الطب القرآني التّوابع العلميّة في القرآن الكريم. ص: 15.

(3) - راشد سعيد شهوان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي في القرآن والسنة والمسائل الحديثة في العلم والإيمان. دار المأمون للنشر والتوزيع عمان-الأردن، ط1، 1431هـ-2010م. ص: 28.

فقوله: "سبق القرآن الكريم": مُستفادٌ من المعنى اللغوي، ويتوافق مع مقصد المنهج العملي لمن يشتغل بالإعجاز العلمي.

وقوله: "في الدلالة" لأنه يدخل في التعريف ما دل عليه النص القرآني صراحة من باب أولى، كأطوار خلق الجنين ففيه نُصوص صريحة. وإنَّ أغلب ما تكلم فيه أنه من الإعجاز العلمي يدخل في أنواع الدلالة المعروفة: كإشارة النص وعموم المعنى ودلالة الأولى والمفهوم... إلخ. وقوله: "إلى حقائق": ليخرج بذلك النظريات والفرضيات، وكل ما ليس حقيقة<sup>(1)</sup>.

وعليه، وفي ضوء هذه التعريفات وغيرها يمكن أن نضع تعريفا للإعجاز العلمي في القرآن بأنه: تلك الإشارات العلمية الواردة في النص القرآني الصريحة دلاليًا والموافقة للحقائق العلمية المكتشفة في العصر الحديث المستقرة والمتفق عليها، وبالتالي تُثبت سبق القرآن الكريم لها وتُظهر صدق الرسول ﷺ في نبوته ودعواه.

وبذلك يكون الإعجاز العلمي رسالة نصية بدلالات علمية وحقائق كونية من الله جلَّ علاه، مُنزلة قبل أربعة عشرة قرن على نبي أمي إلى الناس كافة "مسلمين وغير مسلمين"، وخاصة إلى الذين أوتوا نصيباً من العلم فلا يؤمنون إلا بلغة العلم وسيلة للتواصل والتخاطب وتبادل المعارف. يقول جلَّ ذكره: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 54].

## 2/- العلاقة بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي

يُعدُّ التفسير العلمي للقرآن لوناً جديداً من التفسير ظهر في العصر الحديث، يقوم على أساس «تحكيم الاصطلاحات العلمية في عبارات الآيات القرآنية». ويجتهد أصحاب هذا النوع من التفسير في استخراج مختلف العلوم من الآيات القرآنية<sup>(2)</sup>. فهو مُصطلح مُستحدث ظهر في القرن الرابع عشر الهجري، له علاقة متينة ووطيدة بالإعجاز العلمي وقريب جداً منه، لذا نجد أنَّ البعض يلتبس الأمر عليه ويختلط فلا يفرق بينهما، كأن يتحدث عن الإعجاز العلمي على أنه تفسير علمي للقرآن الكريم أو العكس. وفيما يأتي سنحاول أن نُحدِّد الفروق والعلاقة بينهما ولكن قبل ذلك لا بدُّ أن نعرِّف التفسير لغة واصطلاحاً وكذا التفسير العلمي في اصطلاح العلماء.

(1) - ينظر: مرهف عبد الجبار سقا: التفسير والإعجاز العلمي في القرآن ضوابط وتطبيقات. ص: 91-95.

(2) - عطية محمد عطية: الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم. دار يافا العلمية، عمان، الأردن، ط 1، 1432هـ/2012م، ص: 43.

## \* تعريف التفسير في اللغة والاصطلاح:

إنَّ معنى التفسير في اللغة هو التبيين والتوضيح والتفصيل والكشف، وهو مشتق من "الفسر" فقد جاء في مقاييس اللغة أن: « الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيان الشيء وإيضاحه»<sup>(1)</sup>. كما ورد في لسان العرب: «الفسر: البيان، فسر الشيء يفسره بالكسر وتفسره بالضم فسراً وفسره: أبانه والفسر: كشف المعطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل، واستفسرته كذا، أي سألته أن يفسره لي»<sup>(2)</sup>. وجاء في البحر المحيط: «والفسر: الإبانة والكشف لدلول كلام أو لفظ بكلام آخر هو أوضح لمعنى المفسر من السامع»<sup>(3)</sup>. والملاحظ أن لفظ تفسير في اللغة يستعمل للدلالة على معينين؛ الكشف عن الأمور المادية الحسية كالتعريف وكشف المعطى، أو الكشف عن الأمور المعنوية العقلية كالاستفسار أو الكشف عن معنى اللفظ المشكل. أما تعريف التفسير في الاصطلاح فقد تعددت وتباينت آراء العلماء فيه نذكر منها: تعريف الشريف الجرجاني حيث يقول: التفسير « في الشرح: توضيح معنى الآية، وشأنها، وقصتها والسبب الذي نُزلت فيه، بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة»<sup>(4)</sup>. وتعريف الزرقاني إذ يقول: «التفسير علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية»<sup>(5)</sup>.

## \* تعريف مصطلح التفسير العلمي:

في تعريف التفسير العلمي نجد أنه: تباينت آراء العلماء وتعددت أقوالهم في تحديدهم لهذا المصطلح وربما السبب في ذلك هو حداثة واختلاف مواقفهم منه تأييداً واعتراضاً من جهة، وعدم التفريق بينه وبين الإعجاز العلمي من جهة أخرى، ونذكر من أبرز هذه التعريفات ما يأتي: عرّفه الزندانى على أنه: «الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية»<sup>(6)</sup>. كما عرّفه يوسف القرضاوي بأنه: «التفسير الذي تُستخدم فيه "العلوم الكونية" الحديثة: حقائقها ونظرياتها لبيان مراميها، وتوضيح معانيه»<sup>(7)</sup>. وذهب محمد عدنان زرزور إلى أن التفسير العلمي يُراد به: «الاستناد إلى حقائق العلم التجريبي - ونظرياته - في شرح

(1) - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة. 504/4. مادة: "ف س ر".

(2) - ابن منظور: لسان العرب. 55/5. مادة: "ف س ر".

(3) - أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف): تفسير البحر المحيط. ت: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط1، 1413هـ-1993م، 9/1.

(4) - الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات. ص: 53.

(5) - محمد بن عبد الكريم الجزائري: توجيهات القرآن العظيم. مؤسسة المعالي للنشر والإعلام، ط1، 1434هـ-2013م، 230/1.

(6) - عبد المجيد الزندانى: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 24.

(7) - موقع مكتبة عين الجامعة، يوسف القرضاوي: نظرات في التفسير العلمي للقرآن. ص: 13.

آيات الطبيعة وخلق الإنسان والتي وردت في القرآن الكريم في سياقات شتى، ومواضع متعدّدة»<sup>(1)</sup>. ويرى مرهف عبد الجبار سقاً تعريف التفسير العلمي بأنه: «بيان معاني القرآن الكريم باستنباط مختلف العلوم الكونية والنفسية والعقلية، أو بتوظيف العلوم التطبيقية والبحثية والمعارف التجريبية الصحيحة بقدر الطاقة البشرية وفق القواعد الشرعية المقررة»<sup>(2)</sup>. كما يرى الشدي أن المراد بالتفسير العلمي هو: «استخدام العلم التجريبي في زيادة إيضاح معاني الآيات القرآنية وتوسيع مدلولها»<sup>(3)</sup>.

ولعل أقرب تعريف إلى أن يكون جامعاً مانعاً لمفهوم التفسير العلمي التعريف الذي ورد في كتاب "المعجزة الخالدة"؛ وذلك لأنه جعل التفسير العلمي نوعاً من أنواع التفسير "كالتفسير اللغوي والتفسير الفقهي"، وربطه بالحقائق العلمية وبالدلالة اللغوية والقواعد التحوية، هذه التي تُعد من أهم شروطه وضوابطه، وميّزه عن الإعجاز العلمي، وقّده بالآيات التي تحوي إشارات علمية أو كونية. وهذا ما لم يوجد في التعاريف الأخرى، حيث جاء فيه أن التفسير العلمي: «هو شكل من أشكال التفسير للآيات القرآنية بما ينكشف من المعارف الكونية التي أصبحت حقائق علمية، وحسب المدلول اللغوي للكلمة ودون "لي" للمعنى أو خروج به عن قواعد اللغة، وبدون تعسف في التأويل. ويندرج ذلك التفسير تحت مفهوم الإعجاز العلمي وما تنطوي عليه الآيات من الإشارات الكونية وما يحفل به القرآن من أمثلة وحقائق العلوم ومختلف المعارف. وبذلك ينتفع المفسر بما ظهر من معلومات كونية في تفسير الآية القرآنية»<sup>(4)</sup>.

ومنه، فالملاحظ أن هذه التعاريف جاءت متنوّعة ومختلفة وإن كانت كلها تصب في قالب واحد وهو "الاستعانة بالحقائق العلمية للكشف عن دلالات ومعاني الآيات القرآنية".

### \* الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي

هذا عن تعريف التفسير العلمي أمّا عن الفرق بينه وبين الإعجاز العلمي، فقد تفاوتت آراء الباحثين المعاصرين في التمييز بينهما يذكر الباحث محيي الدين عبد الله حسن في حديثه عن التفسير العلمي «أن من الباحثين من جعل المراد منهما واحداً كالدكتور أحمد عمر أبو حجر، فهو لم يميز بين التفسير العلمي والإعجاز، بل جعل غاية المراد من التفسير العلمي تحقيق الإعجاز القرآني؛ لإثبات أن القرآن الكريم من عند الله عز وجل»<sup>(5)</sup>. ومنهم من حاول التمييز بينهما مثل زغلول

(1) - محمد عدنان زرزور: علوم القرآن الكريم وإعجازه. ص: 389.

(2) - مرهف عبد الجبار سقا: التفسير والإعجاز العلمي في القرآن ضوابط وتطبيقات. ص: 62.

(3) - عادل بن علي الشدي: التفسير العلمي التجريبي للقرآن الكريم جذوره وتطبيقاته والموقف منه. مدار الوطن للنشر، الرياض، السعودية، ط1، 1431هـ/2010م، ص: 15.

(4) - أحمد أبو الوفاء عبد الآخر وكارم السيد غنيم: المعجزة الخالدة. ص: 16.

(5) - أحمد عمر أبو حجر: التفسير العلمي للقرآن الكريم مؤشرات وملاحم. موقع رياض العلم www.riyadhalelm.com

التجار، وعبد الله المصلح، ومرهف عبد الجبار سقا، ونادى درويش محمد، فقد جمعنا آرائهم وحاولنا تلخيصها في هذا الجدول الذي يُبين الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي<sup>(1)</sup>:

### جدول يُبين الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي:

التفسير العلمي	الإعجاز العلمي
- التفسير العلمي: محاولة فهم دلالة الآيات في كتاب الله في إطار المعرفة العلمية المتاحة للعصر الذي نعيشه أو يعيشه غيرنا.	- الإعجاز العلمي: إخبار القرآن الكريم بحقائق علمية سواء أثبتها العلم التجريبي أو لم يتوصل إليها بعد.
- لا يُشترط في التفسير العلمي التَّحَقُّق من القضية العلمية المراد بحثها أو تفسيرها. فيفسرها المفسر بما ظهر له من علوم ومعارف أُتيحت له في عصره، وبالتالي فهو تفسير واجتهاد لا يصل إلى مرتبة الإعجاز.	- يُشترط في الإعجاز العلمي التَّحَقُّق من القضية العلمية المراد بحثها فيجب أن تكون من الحقائق العلمية المسلم بها، والتي لا تقبل الشك.
- التفسير العلمي يتناول النظريات والإشارات الضمنية.	- الإعجاز العلمي خاص بما يتعلَّق بالتوفيق بين الحقائق الشرعية والحقائق الكونية.
- يجوز في التفسير العلمي للقرآن استخدام النظريات التي غلب عليها الظن العلمي أتمَّا صحيحة.	- أما الإعجاز العلمي في القرآن فلا يجوز استخدام غير الحقائق العلمية المستقرة.
- التفسير العلمي للقرآن يدخله الاجتهاد في العلوم المستخدمة في التفسير وفي كيفية استخدام العلوم والدلالة عليها من القرآن.	- بخلاف الإعجاز العلمي في القرآن فإنه لا بد من استقرار ووضوح هذه الدلالة.
- التفسير العلمي للقرآن يدخله الخطأ والصواب لكونه اجتهاد المفسر.	- أما الإعجاز العلمي فلا يصح أن يكون كذلك.
- التفسير العلمي إذا لم تراعى ضوابطه وشروطه يكون سبباً في وقوع الخطأ في فهم كتاب الله تعالى لسعة مجاله، ولذا فإن كثيراً من الباحثين المعاصرين انحرفوا فيه عن الصواب فوقعوا في أخطاء شنيعة عندما حاولوا ربط فهمهم للوحي بنظريات وفرضيات خاطئة.	- أما الإعجاز العلمي فهو أوضح من ذلك و أبعد، والخطأ فيه أقل إذ أنه غالباً ما يكون في عدم الربط بين الحقيقة الشرعية والكونية، إلا أن كثيراً من الباحثين لا يفرقون بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي.
- التفسير العلمي مختلف فيه، بل إنَّ من العلماء من يُجرِّمه.	- الإعجاز العلمي مُتَّفَق عليه بين أهل التفسير.

(1) - ينظر: عبد الله المصلح: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه. ص: 42-43. ومرهف عبد الجبار سقا: التفسير والإعجاز العلمي في القرآن ضوابط وتطبيقات. ص: 97-98. ونادى درويش محمد: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وصلته بمنهج الدعوة الإسلامية. مكتبة الإيمان القاهرة، مصر، ط1، 1432هـ-2011م. ص: 27. وعماد الدين عثمان: حوار مع زغلول النجار: مجلة الوعي الإسلامي. العدد 424 ذو الحجة 1421هـ- فبراير/ مارس 2001 ص: 15.

ما يمكن أن نستنتجه من هذا الجدول هو أنّ التفسير العلمي اجتهاد بشريّ لحسن فهم دلالة الآية القرآنية، إن أصاب فيه المفسر فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد لذا جاز للمفسر استخدام كل المعارف المتاحة له سواء كانت حقائق علمية أو فروضاً أو نظريات بشرط توفر الإخلاص والتجرد وصدق النيّة، والاستعانة بالأدوات اللازمة للتعرض لتفسير كلام الله من إمام باللغة العربيّة ومفرداتها وقواعدها وأساليب التعبير فيها، وبكلّ من أسباب النزول، والتأسخ والمنسوخ، والمأثور من التفسير، وجهود السابقيين في ذلك المجال.

أمّا الإعجاز العلمي فهو موقف تحدّي يُثبت فيه للناس كافّة أن هذا الكتاب، يجوي من حقائق هذا الكون ما لم يستطع الإنسان أن يصل إلى شيء من إدراكه إلا منذ عشرات قليلة من السنين. وهذا الموقف المتحدي لا يجوز أن يوظف فيه إلا الحقائق العلميّة القاطعة التي حسمها العلم ولم تعد مجالاً للخلاف، ولأنّه إذا وظفت فيه الفروض والنظريات ثم انهارت تلك الفروض والنظريات، وهي كلها عرضة لذلك، انهارت القضية وبطل التحدي، بل انقلب على صاحبه وعلى القضية التي استخدمت من أجل الانتصار لها، ومن هنا يتضح الفرق الكبير بين القضيتين<sup>(1)</sup>.

إذا فهذه أهمّ النقاط التي تُميّز وتُفرّق بين مُصطلحي التفسير العلمي والإعجاز العلمي، أمّا عن العلاقة بينهما فتمثّل في ما يأتي<sup>(2)</sup>:

\* أن كلّ إعجازٍ علميٍّ هو في الأصل تفسيرٌ علميٍّ وليس كل تفسيرٍ علميٍّ هو إعجاز علميٍّ فبينهما علاقة عموم وخصوص من وجه، والتفسير العلميّ أعم من الإعجاز العلميّ.

\* التفسير العلميّ للقرآن مقدّمة ضروريّة إلى الإعجاز العلميّ في القرآن، ولذلك فإنّ ما يُشترط للتفسير العلميّ للقرآن هو من شروط الإعجاز العلميّ في القرآن.

\* الإعجاز العلميّ ثمرّة التفسير العلميّ وغايته؛ فكأنّ التفسير العلميّ وسيلة لغاية: هي الإعجاز العلميّ.

وعليه، فالإعجاز العلميّ شكل أو صورة من صور التفسير العلميّ، فإذا ما تمّ التحقّق من القضيّة العلميّة المراد بحثها أو تفسيرها وأصبحت من الحقائق العلميّة المسلّم بها، انتقلت من مرحلة التفسير إلى مرحلة الإعجاز، فالتفسير العلميّ أو سَع من الإعجاز العلميّ بل يستوعب في ثناياه الإعجاز العلميّ ومن ثمّ يكشف عنه ويظهره.

(1) - ينظر: عماد الدين عثمان: حوار مع زغلول النجار، مجلة الوعي الإسلامي. ص:15.

(2) - ينظر: مرهف عبد الجبار سقا: التفسير والإعجاز العلمي في القرآن ضوابط وتطبيقات. ص:97-98.

## المطلب الثاني: المسيرة التاريخية لفكرة الإعجاز العلمي في القرآن

منذ اللحظة الأولى لنزول القرآن الكريم ظهر وجه الإعجاز العلمي فيه « كجزء من الإعجاز الموضوعي باعتبار أن اللغة والمعنى (الموضوع) هما وجهها الكلام، والقرآن الكريم هو كلام الله، وهو معجز بوجهيه: اللغوي والموضوعي. وذلك تمثيلاً مع إيمان المسلمين بأن القرآن الكريم معجز الرسول ﷺ وهو مطلق الإعجاز. ولقد عزز القول بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم -ضمن شموله الموضوع- قوله سبحانه وتعالى في شأن القرآن ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 38]» (1).

وإن فكرة الإعجاز العلمي في القرآن ليست مستحدثة تماماً، فقد بدأت منذ العصر العباسي حين ظهرت محاولات للتوفيق بين القرآن والعلوم الجديدة التي ظهرت في ذلك العصر، وملاحظة العلماء والمفسرين كثرة الآيات الكونية والإشارات العلمية في القرآن الكريم وكذا دعوته في مواضع عديدة إلى التأمل والتفكير في خلقه، ومن ذلك تنبؤها إلى أن كتاب الله مصدر عظيم للمعرفة والعلوم. ومن ثم أهتم العلماء المسلمين بإثبات إعجاز القرآن وأنه كتاب صالح لكل عصر وزمان وذلك بإبراز الجوانب العلمي فيه ثم تطورت وانتشرت هذه الفكرة في العصر الحديث. وفي ما يأتي سيتطرق البحث إلى نشأة فكرة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم عند علمائنا الأوائل، ثم تطورها وانتشارها في عصر النهضة العلمية العالمية.

## 1/- نشأة فكرة الإعجاز العلمي عند السلف:

لقد كانت بدايات ظهور فكرة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في القرن الخامس الهجري، وأول من بسط القول في ذلك أبو حامد الغزالي "ت505هـ" في كتبه: "إحياء علوم الدين" و"جواهر القرآن" و"تهافت الفلاسفة" فقد سبق العلماء وذهب « إلى أن في القرآن جميع العلوم الدينية والدنيوية، وأنها كامنة في مطاويه لا يُدرَكها إلا العالمون، فكأنه يرى أن هذا وجه من وجوه الإعجاز لأنه إنما ذكره قاصداً به أن يُبين عظمة القرآن» (2).

وقد ذكر في كتابه: "إحياء علوم الدين" أن بعض العلماء ذكروا أن القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم، إذ كل كلمة علم ثم يتضاعف ذلك إلى أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن، وحد ومطلع" ثم يقول: "إن كل ما أشكل فهمه على النظائر، واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات في القرآن له رُموز ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بإدراكها" (3).

(1) - أحمد أبو الوفاء عبد الآخر وكارم السيد غنيم: المعجزة الخالدة. ص: 25.

(2) - نعيم الحمصي: فكرة إعجاز القرآن. ص: 91.

(3) - ينظر: أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين. ج1 موقع الوراق، المكتبة الشاملة، ص298 (ترقيم إلكتروني). نقلا عن أحمد عمر أبو حجر: التفسير العلمي للقرآن الكريم مؤشرات وملاحم. مقال [www.riyadhalelm.com](http://www.riyadhalelm.com)

وفي كتابه "جواهر القرآن" الفصل الخامس: بعنوان "كَيْفِيَّةُ إِشْعَابِ سَائِرِ الْعُلُومِ مِنَ الْقُرْآنِ" يعرض للعلوم في القرآن الكريم ويقول: «إِنَّ الْعُلُومَ وراءَ هذه كثيرة: كعلم الطبِّ، والنجوم، وهيئة العالم، هيئة بدن الحيوان»<sup>(1)</sup>. ثم يقول: «هذه العلوم ما عدناها وما لم نعدّها مُعْتَرَفَةً من بحرٍ واحدٍ من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحرُ الأفعالِ، وقد ذكرنا أنّه بحرٌ لا ساحلَ له، وإنَّ البحرَ لو كان مِدَادًا لكلماتِهِ لنفدَ البحرُ قَبْلَ أن تَنفَدَ»<sup>(2)</sup>. ثمّ مثل ببعض الآيات التي لا يتمُّ تفسيرها في رأيه إلا بمعرفة بعض العلوم، كعلم الطبِّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: 80] حيث يقول: « وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطبَّ بكماله، إذ لا معنى للطبِّ إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه»<sup>(3)</sup>. ثم أكد الغزالي في الكتاب ذاته على أن القرآن يُشير إلى مجامع العلوم كلّها لذا لا بدّ من التّفكّر فيه لتفصيل ما أجمل فيه حيث يقول: «ولو ذهبتُ أفصّل ما تدلُّ عليه آياتُ القرآن من تفاصيل الأفعال لَطالَ، ولا تمكّن الإشارة إلا إلى مجامعها [...]، وكذلك كلُّ قسمٍ أجملناه لو شُعبَ لانشعبَ إلى تفاصيل كثيرة، فتفكّر في القرآن والتمس غرائبه، لتصادف فيه مجامع علم الأوّلين والآخريين، وجُملة أوائله، وإنّما التفكر فيه للتوصل من جملته إلى تفصيله وهو البحر الذي لا شاطئ له»<sup>(4)</sup>. فالغزالي بذلك يؤيّد التفسير العلمي للقرآن ويدعو إليه.

وإن كانت أسس النظرية العلمية للإعجاز ذكرت لأول مرة على لسان الغزالي فإن تطبيقها فعلياً على آيات القرآن الحكيم كان في القرن السادس الهجري على يد الفخر الرازي "ت606هـ" من خلال تفسيره الكبير "مفاتيح الغيب"؛ و «هو أول تفسير للقرآن عني عناية كبيرة بتتبع المسائل العلمية وبخاصة ما ينتمي إلى علم الهيئة "الفلك"»<sup>(5)</sup>. وقد تأثر الرازي كثيراً بالمؤلفات العلمية والفلسفية والثقافية التي تُرجمت في ذلك العصر "العصر العباسي"، فنجدّه مثلاً يُفسّر «الآيات الكونية ذات الصلة بعالم الوجود بحسب نظريات علماء اليونان في علم الفلك فراح، مثلاً، عند تفسير الآية: ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 29] إلى أنّ السماوات السبع المذكورة في القرآن هي أفلاك السيارات السبع "القمر، عطارد، الزهرة، الشمس، المريخ، المشتري وزحل" التي قررتها هيئة بطليموس اليونانية. ثم بعد اكتشاف الفلك الثامن، من النجوم الثابتة والتاسع المحيط بها

(1) - أبو حامد الغزالي: جواهر القرآن. ص: 44.

(3) - المرجع نفسه. ص: 45 - 46.

(4) - المرجع نفسه. ص: 47.

(5) - أحمد أبو الوفاء عبد الآخر وكارم السيد غنيم: المعجزة الخالدة. ص: 27.

جميعاً، وهو مصدر حركتها عندهم، عاد الفخر الرّازي إلى القول بأنّ النصّ القرآني الدّال على وجود سبع سماءات لا يقتضي بالضرورة عدم وجود أفلاك غيرها»<sup>(1)</sup>.

وكما ظهر في القرن الثامن الهجري بدرّ الدين الزّركشي "ت794" معتقداً ومؤمناً بنظرية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ومؤيداً بقوة للتفسير العلمي فيه حيث عقّد فصلاً في كتابه "البرهان في علوم القرآن" عنوانه: "في القرآن علم الأولين والآخرين". قال فيه: «وفي القرآن علم الأولين والآخرين وما من شيء إلاّ ويمكن استخراجه منه لمن فهمه الله تعالى حتى إنّ بعضهم استنبط عمر الرسول ﷺ - ثلاث وستون سنة- من قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:11]، فإنّها رأس ثلاث وستون سورة. وعقبها بالتعابن ليظهر التعابن في فقده»<sup>(2)</sup>.

وفي القرن العاشر الهجري توسّع جلال الدين السيوطي "ت: 911هـ" فيما جاء به العزالي قبله وعرض رأيه في الإعجاز بتفصيل، واستشهد عليه بالآيات والأحاديث وآثار السلف أثناء كلامه عن العلوم المستنبطة من القرآن، وهو أنّ القرآن مصدرٌ لجميع العلوم: دينية ودنيوية<sup>(3)</sup>.

ومنه ففكرة الإعجاز العلمي لها جذور عريقة في التاريخ الإسلامي منذ العصر العبّاسي على الرغم من قلة المؤيدين لها والمهتمين بها. وهؤلاء أهمُّ وأبرز العلماء المسلمين الأوائل الذين أيّدوا هذه الفكرة. مع العلم أنّ مصطلح الإعجاز العلمي لم يكن موجوداً قبل العصر الحديث فلم يتحدّث هؤلاء العلماء عن الإعجاز العلمي صراحةً أو مباشرةً، ولكنهم يجعلو قارئ كُتبهم يشعر بفكرة الإعجاز العلمي ضمناً.

## 2/- تطوّر فكرة الإعجاز العلمي في العصر الحديث (محصّر النهضة العلميّة)

لقد برزت جلياً النزعة العلميّة في تحليل إعجاز القرآن منذ نهاية القرن الثالث عشر الهجري، وبداية القرن الرابع عشر في مؤلّفات وتفاسيرٍ مستقلة عديدة أودع فيها أصحابها كلّ ما توصل إليه العصر من علوم ومعارف، مهتمّين بتتبع الآيات واستخراج العلوم من القرآن.

(1) - مريم شمس: الإعجاز الطبي في القرآن "دراسة نقدية تحليلية". تعريب: زهراء يكانه. دار الهدى بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ-2005م. ص: 59. وينظر: الرازي (محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر): التفسير الكبير

مفاتيح الغيب" دار الفكر بيروت، لبنان، ط1، 1401هـ-1981م. 170/2-172.  
(2) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن. 181/2-182. وينظر: عادل بن علي الشدي: التفسير العلمي التجريبي للقرآن الكريم. ص: 25-26.

(3) - ينظر: نعيم الحمصي: فكرة إعجاز القرآن. ص: 162.

وقد بدأت فكره الإعجاز العلمي بشكل عام مبكرة منذ ظهور ما يُعرف بالثقافة العلمية، فكانت محصورة في بعض الكتب التي ألفها علماء جمعوا بين الثقافة العلمية والثقافة الدينية، ولهذا فلم يأخذ "الإعجاز العلمي" نصيبه في الشهرة والإعلام.

ومن علماء ومؤلفي أوائل القرن العشرين الميلادي الذين خاضوا هذا المجال وحاولوا التعرف عن المدلولات العلمية الواردة بالآيات القرآنية والانتفاع بالمعلومات الكونية في التفسير العلمي للقرآن الكريم، نذكر:

**عبد الله فكري** : له كتاب في "مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية". حاول فيه التوفيق بين علم الفلك الحديث وبين نصوص القرآن. وفي تفسيره بعض الآيات، لا يذكر الإعجاز العلمي فيها ولكنه يُوحى به، ويمهد للمتأخرين عنه التصريح به. ومثال ذلك تفسيره الآية: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس:38] قال: إن المراد بها دوران الشمس حول محورها ودورانها مع تواجدها حول شيء آخر لتصل إلى هدفٍ يُراد لها<sup>(1)</sup>.

**طنطاوي جوهري** : الذي اشتهر بتفسيره الذي سماه بـ "الجواهر في تفسير القرآن الكريم" المشتمل على عجائب بدائع المكونات، وغرائب الآيات الباهرات" وفيه بالغ الجوهري كثيراً في التفسير العلمي، وخرج من التفسير إلى شرحه لمسائل علمية عديدة في مختلف الميادين. ويصح أن يُقال عنه: فيه كل شيء إلا التفسير<sup>(2)</sup>. كما أن للطنطاوي كتب أخرى منها كتاب: "القرآن والعلوم العصرية" يدعو فيه إلى الأخذ بالعلم الحديث والصناعة الحديثة ليكون للمسلمين مكانتهم اللائقة، ويتناول فيه أبواباً من العلم يُورد فيها من آيات كريمة قرآنية في خلق السماوات والأرض، وفي تلاقح النباتات والسحاب، وفي خلق الأشياء كلها وفق تراكيب بنسبة دقيقة معينة، وفي النبات وفي الحشرات والحيوان... ومقصده من ذلك هو بيان إعجاز القرآن وإن لم ينص عليه صراحة، بأن يُبين كيف احتوى العلوم والنظريات التي لم يعرفها الإنسان إلا في العصر الحديث<sup>(3)</sup>.

**الاستامبولي**: ففي سنة 1340هـ-1960م ألف محمود مهدي الاستامبولي كتاباً بعنوان: "دين

العَد، معجزات القرآن الكريم في العلم والسياسة والاجتماع"، ذكر في مقدمته أنه سيورد آيات تُدهش القارئ بما فيها من حكم عالية، ونظم دستورية راقية، وأخبار علمية أثبتت العلم في العصور

(1) - ينظر: نعيم الحمصي: فكرة إعجاز القرآن. ص:220.

(2) - ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: تعريف الدارسين بمناهج المفسرين. دار القلم، دمشق، ط3، 1429هـ-2008م، ص:567.

(3) - ينظر: نعيم الحمصي: فكرة إعجاز القرآن. ص:228-230.

الحديث، بعد مرور مئات السنين عليها، والعلماء أجدر من يؤمن بها. ومن تلك الآيات في العلم التي ناقشها قوله تعالى: ﴿بَلْ قَدَرِينِ عَلَّ أَنْ تُسَوِّىَ بِنَاهُ﴾ [القيامة:4]، استنتج المؤلف من هذه الآية اختلاف بصمات الناس أحدهم عن الآخر مما أوجد في عصرنا علم البصمات، وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿ [النمل:88]، يستنتج من ذلك أن الأرض تجري بسرعة هائلة إذا ما قيست بسرعة الإنسان. وغيرهما من الآيات<sup>(1)</sup>.

موريس بوكاي: لهذا الباحث المستشرق كتاب بعنوان: "دراسة الكتب المقدسة في ضوء

المعارف الحديثة" ينتهي فيه إلى نتيجتين هامتين:

الأولى: أن النص القرآني لم يعثره أي تحريف أو تغيير أو ضياع.

والثانية: أن ما فيه من المقولات العلمية لا يتناقض مع العلم الحديث.

كما وصل المؤلف بعد الموازنة بين القرآن وبين التوراة والأنجيل إلى الحكم بأن القرآن ليس من كلام النبي محمد ﷺ الرجل الأمي الذي لم يتلق أي تعليم، بل هو كلام الله، وإلى أنه صادق في رسالته، كما توصل إلى أن ليس مثله صحة رواية، ولا توافقاً مع العلم الحديث في قضايا العلم الواردة فيه.

والملاحظ أن المؤلف لم يشد عن المنهج العلمي، ولا يُبالغ في "النزعة العلمية" التي

تبناها، ليبين فضل القرآن على الكتب السماوية. كما أنه لم يذكر إعجاز القرآن صراحةً، ولكن

كلامه يؤدي إليه بيان صدق مقولاته العلمية وبتحقق هدفه وهو صدق الرسالة<sup>(2)</sup>.

محمد متولي الشعراوي: له كتاب بعنوان "معجزة القرآن" بين فيه إعجاز القرآن منذ خلق

الدنيا إلى الآن. ويعتبر تفسيراً علمياً مهماً وعميقاً لبعض معجزات القرآن بأسلوب سهل مفيد

شائق. ومما ذكره المؤلف معجزة إبراهيم في النار، وهي تقوم على أن الأصنام الآلهة قد خذلت

عبادها وعطلت ناموس الإحراق فيها، فلم ينج إبراهيم بالهرب، ولم تطفئ الأمطار النار، بل ﴿قُلْنَا

يَنَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69]<sup>(3)</sup>.

ومنذ العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين -التي انفجرت فيها ثورة المعلومات

والاتصالات، وتفتت وانتشرت على مدارها ظاهرة انعقاد المؤتمرات التي أدت إلى الالتقاء فيما بين

(1) - ينظر: نعيم الحمصي: فكرة إعجاز القرآن. ص: 238-239.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 242-243.

(3) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 293-294. وينظر: محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن. ص: 8.

العلماء وطرح الأفكار والدراسات والأبحاث التي سرعان ما تأخذ حظها من الشهرة في ظل إعلام إسلامي نشط - انكشف وجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم بكل وضوح. وبدأ الاهتمام بالتعريف عليه ودراسته بأسلوب علمي ومنهجية ذات ضوابط وشروط. وتسبق العلماء والباحثون بمزيد من الاهتمام إلى تكوين الجمعيات والهيئات وعقد الندوات والمؤتمرات العالمية، وتأليف الكتب، وكلها حريص على إظهار "الإعجاز العلمي في القرآن الكريم"، دون تجاوزات فكرية أو خروج عن ضوابط التفسير. وهكذا ذاع صيت "الإعجاز العلمي للقرآن الكريم" واسترد حقه من الشهرة والتقدير<sup>(1)</sup>.

ما نستنتجه مما سبق: أن القرن العشرين الميلادي كان أخصب العصور في معالجة فكرة الإعجاز العلمي وتطوره وذلك نتيجة لاهتمام العلماء والمفسرين إليه من جهة، و لتلاقي الفكر الديني بالعلم الحديث المادّي خصوصاً مع اكتشاف الكثير من النظريات العلمية من جهة أخرى.

### المطلب الثالث: موقف العلماء و آرائهم من الإعجاز العلمي

لقد أثارت قضية "الإعجاز العلمي في القرآن الكريم" بين العلماء والباحثين كثيراً من الجدال والأخذ والردّ فاختلقت آراءهم وتباينت مواقفهم منه، وبذلك انقسموا إلى فريقين: فريق يؤيد الإعجاز العلمي ويحيزه ويدعو إليه، ويرى فيه تجديداً للدعوة وهداية الناس إلى الله. وفريق يرفض وينكر الإعجاز العلمي ولا يحيزه، لأنه يراه « خروجاً بالقرآن عن الهدف الذي أنزل من أجله، وإقحاماً له في مجال متروك للعقل البشري، يُجرب فيه، ويصيب ويخطئ »<sup>(2)</sup>. وفيما يأتي سنعرض بإيجاز وجهات نظر الفريقين وأدلتهم في ذلك:

#### 1 -/ موقف المؤيدين للإعجاز العلمي وأدلتهم: وهذا الفريق بدوره ينقسم إلى فئتين: بين

مؤيدٍ مُسرفٍ مُوسعٍ من جهة، وبين مؤيدٍ مُعتدلٍ من جهةٍ أخرى.

أ- فئة المؤيدين الغلاة الموسعين: هذه الفئة فتحت الباب على مصراعيه، وأطلقت المسائل على عواهنها، دون تفرقة بين حقائق العلم وأوهامه، فأضاف أصحابها للقرآن الكريم كل العلوم والمعارف واستطردوا في علم التفسير دون ضوابط وثبوت، وبالغوا في « النزعة العلمية، وقصروا الإعجاز على الإعجاز العلمي، ووضعوا كل جهودهم في التركيز عليه، وتوسّعوا في صورته ووجوهه المعاصرة. بحماس

(1) - ينظر: أحمد أبو الوفاء عبد الآخر: المعجزة الخالدة. ص: 27-28.

(2) - عبد المجيد الزنداني: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 71.

غير محمود وأقوال غير صحيحة»<sup>(1)</sup>. وترى هذه الفئة « أن الإشارات الكونية في القرآن الكريم قد فُصِّدَت لذاتها، أي: لدلالاتها العلمية المحددة، مع التسليم بوجوب استخلاص الحكمة والعبارة منها والوصول إلى الهداية عن طريقها»<sup>(2)</sup>.

ومن هؤلاء السلف من علماء المسلمين، كالغزالي والرازي، والإسكندراني، أما من المحدثين فعلى رأسهم الشيخ طنطاوي جوهرى، والكثيرين الذين بالغوا في الإعجاز العلمي في كثير من المجالات، وقنوات الشبكات الإلكترونية في عصرنا الحاضر.

ومن أدلة ما ذهبوا إليه<sup>(3)</sup>:

الدليل الأول: ما اعتمده من الأدلة النقلية من القرآن والسنة والأثر: فمن قوله تعالى: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ تُرَا إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: 38]، وقوله -عز من قائل-: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: 89]. ومن السنة: قول النبي ﷺ: "سَتَكُونُ فِتْنٌ قِيلَ وَمَا الْمَخْرُجُ؟ قَالَ: كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ" [سنن الترمذي - كتاب فضائل القرآن - باب 14، جلد رقم 5، ص 172]، ومن الأثر: قول ابن مسعود: "مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ" [السيوطي: الإتقان في علوم القرآن. 125/2-126].

الدليل الثاني: جواز التفسير بالرأي، وهو الذي فتح المجال لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحده عقله. وهذا يدل على جواز فهم القرآن حسب كل عصر بما يمتاز به من علوم ومعارف.

الدليل الثالث: اشتغال القرآن على عجائب المخلوقات وتحديثه عن ملكوت السموات والأرض، ولفته الأنظار إلى الأفق الأعلى وما تحت الثرى، مما يثير إلى اشتغاله على سائر أنواع العلوم.

وقد ظن هؤلاء أن هذه الأدلة التي جاءوا بها قد فتحت لهم الباب على مصراعيه فأسرفوا وتوسَّعوا بدون حد.

ب- **فئة المؤيدين المعتدلين الواسطين:** وهذه الفئة وقفت مع قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم موقفاً وسطاً، فلم تؤيد على إطلاقه، ولم ترفضه مرة واحدة، وإنما وضعت له ضوابط وقواعد

(1) - راشد سعيد شهوان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي. ص: 41.

(2) - زغلون النجار: مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي. ص: 118.

(3) - ينظر: عبد السلام حمدان اللوح: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. ص: 144-146.

وقواعد، وتعاملت معه بتعقل دون إفراط ولا تفريط. وترى هذه الفئة بمنهجها المتوازن أن « التوفيق بين الاكتشافات العلمية الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم، وأن التفسير العلمي للقرآن الكريم وكل وجوه الإعجاز الشائعة اليوم، التشريعي، النفسي والتاريخي والتربوي...، تُعتبر فتحًا جديدًا للفكر الإسلامي، وثرًا للمعرفة، وإعجازًا مُتجددًا لرسالة القرآن الخالدة وسطوعًا لبيانه، وبابًا من أبواب الدعوة إلى الله، ومدخلًا لهداية الناس وتقوية لإيمانهم، إذا أتبع في الخطوات المتزنة الثابتة لأهل العلم من هذا الفن، وابتعد فيه عن التكلف والتزمت فيه الشروط والضوابط التي تسد الباب أمام الأعداء والمتسرِّعين»<sup>(1)</sup>.

وقد ذهب إلى هذا الرأي جمع من العلماء منهم: محمد عبده في "تفسير جزء عم"، محمد رشيد رضا في "تفسير المنار"، محمد الطاهر بن عاشور في "تفسير التحرير والتنوير"، وسيد قطب في "الظلال"، ومحمد جمال الدين القاسمي "محاسن التأويل"، وأحمد مصطفى المراغي "تفسير المراغي" ومصطفى صادق الرافعي "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، ومحمد عبد العظيم الزرقاني "مناهل العرفان في علوم القرآن"، ومحمد متولي الشعراوي: "المنتخب في تفسير القرآن"، ومنصور محمد حسب النبي "الكون والإعجاز العلمي للقرآن"، وكذلك زغلول النجار رافع لواء هذا الاتجاه في سلسلة كتبه "من آيات الإعجاز العلمي" التي تقع في سبعة أجزاء، وكذلك عبد المجيد الزنداني في "رسائل تثبت الإيمان"، وفي سلسلة كتبه "توحيد الخالق"، وما صدر له عن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في مكة المكرمة... وغيرهم<sup>(2)</sup>.

ومن أدلة ما ذهب إليه المعتدلون وحججهم<sup>(3)</sup>:

الدليل الأول: ما اعتمده من الأدلة النقلية من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿سَرِيهَمَ أَيَّتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: 53].

الدليل الثاني: إن كون الإسلام هو آخر الأديان إلى قيام الساعة يقتضي أن يكون القرآن الكريم معجزة مُتجددة، يتبين للناس منه على مرّ الدهور وجه لم يكن تبين، وناحية لم يكن أحد يعرفها، فكأن هذا التجدد في الإعجاز العلمي هو تجديد للرسالة الإسلامية.

الدليل الثالث: بحج القرآن الكريم بمسائل علمية دقيقة لم تكن معروفة في زمن النبي محمد ﷺ

(1) - راشد سعيد شهوان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي. ص: 46.  
 (2) - ينظر: عبد السلام حمدان اللوح: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. ص: 155. وراشد سعيد شهوان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي. ص: 47.  
 (3) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 156-160.

وما زال العلم الحديث يكشف عن حقائقها عصراً بعد عصرٍ، ممّا يدعو إلى القول بوجود معجزات علمية للقرآن الكريم.

الدليل الرابع: إن القرآن حاكم الناس إلى عقولهم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق، وطالبهم بالنظر في كل ما خلق الله من سماء وبحر وحيوان في أمة أمية لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها. وقد جاء العلم في هذا العصر يُميط اللثام عن نواح كثيرة من أسرارهِ وإعجازه.

الدليل الخامس: نحن في عصرٍ ينبي الإقناع فيه على الرؤية والمشاهدة والتجربة فالنتيجة فالنظرية فالتطبيق، وهي كلها وسائل ديناميكية للإقناع، والقرآن بين النظرية والتطبيق بين هذه وتلك قائم مُستمر بما يُثبت إعجازاً علمياً متجدداً.

الدليل السادس: إن القرآن الكريم يصف بعض حقائق الوجود المادية، بل ويتنبأ بما سيحي منها في المستقبل بدقة علمية وسلامة لفظية بما يُثبت له إعجازاً علمياً ينكشف عصرًا بعد عصرٍ بتقدم العلوم والمعارف.

الدليل السابع: إذا كانت الحقيقة العلمية تتفق تماماً مع نص الآيات القرآنية، فما الذي يمنع عقلاً وشرعاً من تفسير الآية طبقاً لتلك الحقيقة العلمية القاطعة ولاسيما أن العصر الذي نعيش فيه الآن لا يؤمن بغير لغة العلم وسيلة للتخاطب فضلاً عن الإقناع، ولاسيما أيضاً أن هذه اللغة العلمية هي اللغة الدولية التي لا لغة غيرها لمخاطبة غير المسلمين إذا أردنا أن نبليغ الدعوة إلى البشر أجمعين، خاصة وأن الإعجاز العلمي للقرآن لا يجرو أيّ مكابر أو ملحد أن يجد موضعاً للتشكيك فيه.

وعليه، فهؤلاء المؤيدين المعتدلين وقفوا موقفاً وسطاً حين وظفوا المعارف العلمية في فهم دلالة الآيات الكونية وفي الاستشهاد على الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فلم يتجاهلوا المسائل العلمية في القرآن الكريم، ولم يلتمسوا لكل مسألة علمية آية من كتاب الله، وذلك بوضع قواعد وضوابط بنوا عليها رأيهم في القول بالإعجاز العلمي.

## 2/- فريق المعارضين للإعجاز العلمي وأدلتهم:

في الوقت الذي نال فيه التفسير العلمي والإعجاز العلمي القبول والتقدير ودعا فيه فريق المؤيدين إلى استعمال نتائج الكشوف العلمية والبحوث التجريبية وما تجمّع لدى الإنسان من معارف في فهم دلالة الآيات الكونية وتفسيرها في ضوءها، تعرّض للرفض والإنكار بظهور فريق من العلماء والباحثين انتقدوا هذا الموقف واختاروا المنع والرفض وعدم القبول له لما يُؤدّي إليه من مفساد

في تفسير كلام الله تعالى. حيث يرى هذا الفريق أن: « هذا اللون من التفسير هو نوع من التفسير بالرأي الذي لا يجوز، وأنه خروج بالقرآن عن الهدف الذي من أجله أنزل، وإقحام له في مجال متروك للعقل البشري يجرب فيه ويصيب ويخطئ، واعتبر هذا الفريق أن المنهج العلمي في التفسير جُنوح إلى الاستطراد في تأويل بعض آيات القرآن الكريم على غير مقاصدها التشريعية والإيمانية، استناداً إلى القول بأن القرآن لم يأت لكي ينشر بين الناس القوانين العلمية ومعادلاتها ولا أسماء الكائنات وصفاتها، وإنما هو في الأصل كتاب هداية»<sup>(1)</sup>. كما يرون أن « تلك الإشارات لم ترد في القرآن الكريم لذاتها، وإنما وردت من قبيل الاستدلال على قدرة الله تعالى وإبداعه في خلقه، وقدرته على إفناء الخلق ثم بعثه، وإثبات وحدانية الخالق المطلقة فوق جميع خلقه، ومن ثم فلا يجوز تفسيرها في ضوء معطيات العلوم الحديثة؛ وذلك بدعوى انطلاق الكتابات العلمية من منطلقات مادية، منكرة لكل ما هو فوق المدرك المحسوس»<sup>(2)</sup>.

وهؤلاء المنكرون والرافضون لفكرة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ليسوا بالكثرة التي ينتشر بها علماء الفريق الأول. ونذكر من بينهم:

أ- المعارضون من العلماء المتقدمين: بدأت حركة الرّفْض للتفسير العلمي والإعجاز العلمي بصورة واضحة من بعض المفسرين في القرن السادس الهجري، كردّ فعل على ما فعله المفسر "الفخر الرازي" باستخدامه للمعارف الكونية في تفسيره للقرآن الكريم، وربما وجد معارضوه في عمله هذا، ومن جهة نظرهم، خروجاً على منهج التفسير التقليدي الذي ألفوه، ووجدوا منه إسرافاً في استخدام المعارف العلمية في التفسير.

ويعدّ الشاطبي "أبو إسحاق إبراهيم بن موسى النجدي الأندلسي" (ت790هـ): من أشدّ وأشهر من حملوا لواء الرّفْض من القدامى للتفسير العلمي، وتأثر بأفكاره وتابعه في الرّفْض بعض جاء بعده من العلماء، قدامى ومحدثين، حتى يمكن القول بأنه مؤسس "رابطة الرافضين"<sup>(3)</sup>. فقد عرض الشاطبي في كتابه "الموافقات في أصول الشريعة" هذه القضية، ورأى أنه لا يجوز تفسير القرآن بما جدّ من علوم، فالصحابة ومن تلاهم لم يتكلموا في شيء من هذا المدعى وهم أعرف بالقرآن وعلومه. حيث يقول: إن « كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد؛ فأضافوا إليه كل

(1) - راشد سعيد شهوان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي. ص: 35.

(2) - زغلول النجار: مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي. ص: 127.

(3) - ينظر: أحمد أبو الوفاء عبد الآخر: المعجزة الخالدة. ص: 135-136.

علمٍ يُذكر للمتقدمين أو المتأخرين؛ من علوم الطبيعيات، والتعاليم، والمنطق، وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها. وإلى هذا فإن السلف الصالح - من الصحابة والتابعين ومن يليهم - كانوا أعرَفَ بالقرآن وبعلمه وأودعَ فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحدٌ منهم في شيءٍ من هذا المدعى، سوى ما تقدم، وما ثبت فيه من أحكام التكليف، وأحكام الآخرة، وما يلي ذلك، ولو كان لهم خوضٌ ونظرٌ؛ لبلغنا منه ما يدلُّ على أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن، فدلَّ على أنه غير موجود عندهم. وذلك دليل على أن القرآن لم يُقصد فيه تقريرٌ لشيءٍ فيما زعموا<sup>(1)</sup>.

ب- المعارضون من العلماء المتأخرين : من العلماء المتأخرين الذين يُعارضون الأخذ بالتفسير العلمي للقرآن الكريم والإعجاز العلمي فيه ، محمود شلتوت "ت1964م" في "تفسير القرآن الكريم"، أمين الخولي "ت1965م" في "التفسير نشأته - تدرجه - تطوره"، محمد عزة دروزة في "القرآن المجيد تنزيهه وأسلوبه وأثره وجمعه وترتيبه"، شوقي ضيف في "سورة الرحمن وسور قصار - عرض ودراسة"، أحمد محمد جمال في "على مائدة القرآن مع المفسرين والكتّاب"، صبحي الصالح في "معالم الشريعة الإسلامية"، محمد كامل حسين في "الذكر الحكيم"، عبد المجيد المحتسب في "اتجاهات التفسير في العصر الزاهن"، علي عبد الواحد وافي في "التفسير العلمي للقرآن في الميزان"، عبد الكريم بن صالح الحميد في "الفرقان في بيان إعجاز القرآن"<sup>(2)</sup>.

ومن أدلة وحجج المانعين ما يأتي:

الدليل الأول: ما اعتمده من الأدلة التقلبية من القرآن الكريم والسنة النبوية: إذ يقولون: « إن هناك دليلاً واضحاً من القرآن على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون، وهذا الدليل هو ما روي عن معاذ أنه قال: يا رسول الله إن اليهود تغشانا ويكثرُونَ مسألتنا عن الأهلّة. فما بال الأهلل يبدو دقيفاً ثم يزيد حتى يستوي ويستدير، ثم ينقص حتى يعود كما كان. فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۗ قُلْ هِيَ مَوَاقِئُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189]»<sup>(3)</sup>. ومن السنة النبوية قوله ﷺ "مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ" أخرجه: الترمذي في سننه رقم 2950 و2951، وأحمد في مسنده: 233/1.

(1) - الشاطبي: ( أبو إسحاق إبراهيم بن موسى النجمي ) : الموافقات. تقديم: بكر عبد الله أبو زيد، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ-1997م، 127/2-128. وينظر: فضل حسن عباس: إعجاز القرآن الكريم. ص: 253.  
(2) - للتعمق في آراء ومواقف هؤلاء العلماء من الإعجاز العلمي ينظر: عادل بن علي الشدي: التفسير العلمي التجريبي للقرآن الكريم. ص: 39-44.  
(3) - عبد المجيد الزنداني: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 72.

الدليل الثاني: القرآن كتاب هداية وتشريع وليس كتاباً للعلوم والمعارف الكونية.  
 الدليل الثالث: الاهتمام بالإعجاز العلمي يصرف اهتمام الناس بعلوم القرآن التقليدية،  
 والتفسير العلمي يتعارض مع منهج التفسير.  
 الدليل الرابع: عدم التقيّد بالمفهوم اللغوي الصحيح للنصّ القرآني، وإبعاد الكلمات القرآنية عن معانيها فيما يُعرف "بليّ أعناق الآيات" وهي عبارة كثيراً ما يردّها المعارضون.  
 الدليل الخامس: الخوف من الرّبط بين تفسير القرآن وبين المعارف الكونية المتغيّرة، ممّا يؤثّر على مصداقية القرآن<sup>(1)</sup>.

وقد ناقش هذه الأدلّة والحجج فريق الجيزين للإعجاز العلمي وحاولوا الردّ عليها وسنختصر ذلك فيما يأتي:

الرد على الدليل الأول: يقول عبد المجيد الزنداني: «أمّا الاستدلال بما وردّ في سبب نزول الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾ [البقرة: 189]. فهو بحاجة إلى أن يثبت وإلّا فهو مُعارض بما رواه الطبري في تفسيره عن قتادة في هذه الآية: قالوا سألوا النبي ﷺ لم جعلت هذه الأهلّة؟ فأنزل الله فيها ما تسمعون ﴿هِيَ مَوَاقِئُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَجِ﴾ [البقرة: 189] فجعلها لصوم المسلمين وإفطارهم ولمناسكهم وحجّهم ولعدّة نساءهم ومحلّ دينهم في أشياء والله أعلم بما يصلح خلقه.  
 وزوي عن الربيع وابن جريح مثل ذلك. ففي هذه الروايات التي ساقها الطبري، إنّ السؤال هو: لم جعلت هذه الأدلّة؟ وليس السؤال ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يزيد حتى يستوي ويستدير ثم ينقص لذلك فإنّه لا دليل في الآية على إبعاد التفسير العلمي»<sup>(2)</sup>.

الردّ على الدليل الثاني: إنّ كون القرآن كتاب هداية وتشريع لا يمنع أن تردّ فيه إشارات علمية يوضّحها التعمّق في العلم الحديث، فقد تحدّث القرآن عن الإنسان والحيوان والنبات، كما تحدّث عن سائر الظواهر الكونية، ولم يكن هذا الحديث المستفيض منافيّاً لكون القرآن كتاب هداية، بل كان حديثه هذا أحد الطرُق التي سلّكها هداية الناس<sup>(3)</sup>.

الردّ على الدليل الثالث: لا يمكن أن يصرف الاهتمام بالإعجاز العلمي اهتمام الناس بعلوم القرآن التقليدية، لأنّه لا يخرج عن كونه وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني، ودراسته تُعتبر إضافة إلى

(1) - ينظر: أحمد أبو الوفاء عبد الآخر: المعجزة الخالدة. ص: 143-144.

(2) - عبد المجيد الزنداني: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 72.

(3) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 73.

علوم القرآن. أما التفسير العلمي فلا تعارض بينه وبين التفسير التقليدي، بل هو إضافة إليه، مما يزيد الاتساع في فهم القرآن<sup>(1)</sup>.

الردُّ على الدليل الرابع: أمّا أنّهم يعدّون التّفيد بالمفهوم اللّغوي الصّحيح للنّصّ القرآني، فهذا غير صحيح؛ لأنّ هناك قواعد وضموابط ومنهج يجب أن يلتزم به المشتغلون بدراسة الإعجاز العلمي وبالتفسير العلمي للقرآن الكريم، ومن أهمّها: احترام كافّة الأمور اللّغويّة<sup>(2)</sup>.

الردُّ على الدليل الخامس: أمّا قولهم إنّ الرّبط بين حقائق القرآن الثّابتة والنّظريات العلميّة المتغيّرة ممّا يؤثّر على مصداقيّة القرآن فهو أمرٌ مرفوضٌ، وأوّل من رفضه المتحمّسون للتفسير العلمي للقرآن<sup>(3)</sup>.

إذاً: فليس هناك مانع من إبراز الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما دام لا يربط حقائق القرآن بالنّظريات العلميّة المتغيّرة، ولا يلوي أعناق الآيات، ولا يصرفُ اهتمام الناس بعلوم القرآن التقليديّة... فقد وضع العلماء والباحثون للإعجاز العلمي شروطاً وقواعد وضموابط يُبنى عليها ولا يُستهان بها وهي التي سنحاول التّفصيل فيها في المبحث الآتي، كما نُشير إلى مجالاته وفوائده.

(1) - ينظر: أحمد أبو الوفاء عبد الآخر: المعجزة الخالدة. ص: 143-144.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 144.

(3) - ينظر: عبد المجيد الزنداني: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 73.

## المبحث الخامس: الحقيقة العلمية وروابط منهجية البحث

### في الإعجاز العلمي

#### المطلب الأول: تحديد مفهوم الحقيقة العلمية سماتها وأبعادها

لقد أخبرنا القرآن بالحقائق العلمية التي سوف تظهر بعد نزوله بالآلاف السنين؛ بحيث إذا قرأه العالم المعاصر المتسلح بأحدث نظريات العلوم وقوانينها، واكتشافاتها يجده قد أشار إليها إشارات واضحة، فعظمة المعجزة القرآنية تقف اليوم لتحدث أصحاب العلوم المختلفة، كعلم الفلك والفضاء، والطبيعة، والفيزياء النووية، والكونية، واله ندسة الوراثية؛ بل كل العلوم والنظريات والقوانين تعجزهم بنفس قوة الإعجاز البلاغي للعرب الفصحاء، فالقرآن ومُعجزاته العلمية التي يتحدّى بها العالم كأنه يُنزل اليوم موكباً لطبيعة العصر. يقول الله سبحانه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:14]، فخالق الكون هو الذي يتحدث عن كونه، وهو الذي يعلم ما خلق ومن خلق<sup>(1)</sup>.

#### 1- / الحقيقة العلمية تعريفها وأهميتها:

أ- مفهوم الحقيقة العلمية: الحقيقة العلمية مُركّب إضافي؛ فالحقيقة موصوف والعلمية صفة لها. وبما أننا تعرّضنا سابقاً لتعريف العلم لذا سنكتفي فقط بتعريف الحقيقة فيما يأتي:

\* الحقيقة لغة: لفظ مجاز في معناها، وهي على وزن "فَعِيلَة" مأخوذة من الحق، وجمعه حقوق وحقاق والحق بحسب اللغة: الثابت، لأنه نقيض الباطل المدوم، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ [الأنبياء:18]، والثاء فيه لنقل اللفظ من الوصفية إلى الاسمية<sup>(2)</sup>.

وقد جاء في لسان العرب مادة "حقق": "حقّ الأمرُ يحقُّ ويحقُّ حقاً وحقوقاً: صار حقاً وثبتت قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [القصص:63]؛ أي ثبت. وحقّه يحقّه حقاً وأحقّه كلاهما: أثبتّه وصار عنده حقاً لا يشكُّ فيه. وأحقّه صيره حقاً. وحقّه وحقّقه: صدّقه. ويقال: أحققت الأمر إحقاقاً إذا أحكمته وصحّحته. وحقّ الأمر يحقّه حقاً وأحقّه: كان منه على يقين [...] والحقيقة ما يصير إليه حقّ الأمر ووجوبه. وبلغ حقيقة الأمر أي يقين شأنه. وفي الحديث: "لا يبلغ المؤمن حقيقة الإيمان حتى لا يعيب مسلماً بعيب هو فيه"؛ يعني خالص الإيمان ومحضه وكُنْهه. وحقيقة الرجل: ما يلزمه حفظه ومنعه ويحقُّ عليه الدِّفاع عنه من أهل بيته.

(1) - ينظر: محمد آيت بتسقى: من أدلة الصدق والإعجاز في القرآن - الإعجاز العلمي. بحث في علوم القرآن، كلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية، شاه علم - ماليزيا. ص: ؟؟؟؟

(2) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. 49/10، مادة "ح ق ق". وينظر: الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات. ص: 75. وينظر: أبو البقاء الكفوي (أيوب بن موسى الحسيني): الكليات - معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. إعداد: عدنان درويش، محمد المصري. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1419هـ-1998م، ص: 362.

وجمعها الحقائق. والحقيقة في اللغة: ما أُقِرَّ في الاستعمال على أصل وضعه، والمجاز ما كان بضد ذلك. وحقُّ الشيء يُحَقُّ، بالكسر، حقاً أي وجب ولزم وفي التنزيل: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّي﴾ [السجدة:13]. وأحققت الشيء أي أوجبته. وتحقق عنده الخبر أي صح. وحقق قوله وظنه أي صدق. وكلام محقق أي رصين. والحق: صدق الحديث. والحق: اليقين بعد الشك<sup>(1)</sup>. وجاء في المصباح المنير: «"حَقَّقْتُ" الأمر "أَحْمُهُ" إِذَا تَيَقَّنْتُهُ أَوْ جَعَلْتُهُ ثَابِتًا لَازِمًا [...] و"حَقِيقَةُ" الشيء مُنْتَهَاهُ وَأَصْلُهُ الْمُشْتَمِلُ عَلَيْهِ»<sup>(2)</sup>.

وفي معجم الكلبيات لأبي البقاء الكفوي عرّف الحقيقة التي يبحث عنها أهل الحكمة بأنها: «الأحوال الثابتة للأشياء في نفسها، مع قطع النظر عن جعل جاعلٍ واعتبار مُعتبر. وهذه الحقيقة لا يتوصل إليها إلا بالعلم واليقين، بخلاف الاعتبارية التي هي المباحث المنوطة بالجعل والاعتبار، كالمباحث الشرعية والعرفية، فإن الظن يعتبر فيها عدم الوصول إلى اليقين»<sup>(3)</sup>.

إن الملاحظ مما سبق أنّ لفظ الحقيقة في المفهوم اللغوي جاء على معاني عدّة منها: الصدق والثبات واللُزوم واليقين والقطع والاستقرار والصحة، والرّصانة ومخالفة المجاز. وعليه فالحقيقة تتخذ مفهوميّن الأوّل على المستوى القيمي ويُقصد بها كل ما هو صادق وصحيح وثابت، والثاني على المستوى المعرفي وهي كل ما يتصل بالعلم والبحث واليقين ويتطابق فيها الحكم مع الموضوع المرصود، أو يتوافق فيها الحكم النظري مع الممارسة العملية.

\* الحقيقة العلمية في الاضطلاع: لقد تعرّض بعض الباحثين لتعريف الحقيقة العلمية في الاضطلاع ونذكر من بينهم عبد الله المصلح الذي عرّفها بأنها: «المفهوم الذي يتجاوز المراحل الفرضية والدراسات النظرية حتى أصبح ثابتاً مجمّعا عليه من قبل كافة العلماء المختصين كتمدد المعادن بالحرارة، وانكماشها بالبرودة، وتبخّر الماء عند درجة مئوية تحت الضّغط الجوي العادي، وتجمده عند الصّفر المئوي»<sup>(4)</sup>. كما عرّفها مفلح الأكلبي بأنها: «أية أفكار أو بيانات أو أحداث أو ظواهر واضحة، ثبتت صحتها عقلاً أو نقلاً، وقد تكون مادية أو معنوية»<sup>(5)</sup>. وعرّفها راشد

(1) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. 10/ 49 و52، مادة "ح ق ق".

(2) - الفيومي: المصباح المنير. 144/1، مادة "ح ق ق".

(3) - أبو البقاء الكفوي (أيوب بن موسى الحسيني): الكلبيات - معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. ص: 362.

(4) - عبد الله بن عبد العزيز المصلح: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه. ص: 28.

(5) - مفلح بن دخيل الأكلبي: المناهج التعليمية في العالم الإسلامي بين الإعجاز العلمي في القرآن والسنة والمعطيات المعاصرة. مقدمة للدورة الدولية: بعنوان: "مكانة الإعجاز العلمي في المنظومة التعليمية للدول الإسلامية" جامعة محمد بن عبد الله - فاس المغرب من: 21-22/مارس/2014م. ص: 9.

شهبان بقوله: « هي ما يثبت ثبوتاً قاطعاً في علم الإنسان بالأدلة المنطقية المقبولة »<sup>(1)</sup>. وعرفها عبد السلام اللوح بأنها: « الوصف الصادق الأمين لأية ظاهرة، أو حتى لأي جانب منها »<sup>(2)</sup>. وعرفتها رجاء دويدري بأنها: « حدث أو واقعة أو خبرة أو تغيير، تتصف بقدر كبير من الثبات، ويؤيد وجودها أدلة صادقة يمكن حصرها في بحث معين »<sup>(3)</sup>.

### ب- خصائص الحقيقة العلمية وأهميتها:

\* خصائص الحقيقة العلمية: وعلى هذا فإن من خصائص الحقيقة العلمية ما يأتي:

- القطعية: أنها نهاية ما وصل إليه العلم بصورة قاطعة وتكون غير قابلة للطعن والتقاش والاعتراض<sup>(4)</sup>.

- الثبات: أنها لا تبطل مع الزمن أبداً، ولكنها تتسع وتتنمى بنماء جهود العلماء المتتابعة؛ وذلك لأن المعرفة المكتسبة تراكمية تتسع جيلاً بعد جيل. والحقائق العلمية والقوانين التي تحكمها ما هي إلا تعبير عن السنن الربانية في الكون، تصف علاقات محددة، وتعلل ارتباط العناصر الكونية بالظواهر الكونية تعليلاً سببياً. وهذه السنن والحقائق والقوانين الكونية ما هي إلا أجزاء من الحكمة التي هي "ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقُّ بها". كما أخبر بذلك الرسول ﷺ<sup>(5)</sup>.

- الدقة والأمانة: كما أنه من خصائصها الدقة حين وصف ما يحدث بالفعل، لذا فالعلماء حين جمع الحقائق العلمية يجب أن يكون رائدهم الأول الحذر الشديد والدقة المتناهية، والأمانة التامة، ولا تُقبل أية "حقيقة" لدى جمهرة العلماء ويتم نشرها في المجلة العلمية المتخصصة لذلك الموضوع ما لم يتم التأكد من سلامة الخطوات التي اتبعت<sup>(6)</sup>.

- الموضوعية: كما تتسم الحقيقة العلمية باليقين الموضوعي، الذي يرتكز على أدلة منطقية مقلنة لأي عقل، وقابلة لأن تُنقل لكل الناس. وبذلك تختلف عن اليقين الذاتي المبني على رغباتنا<sup>(7)</sup>.

\* أهمية الحقيقة العلمية: يمكن إجمال أهمية الحقائق العلمية الثابتة والمجمع على صحتها من قبل

(1) - راشد سعيد شهبان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي. ص: 60.  
 (2) - عبد السلام حمدان اللوح: الإعجاز العلمي في القرآن. ص: 111.  
 (3) - رجاء وحيد دويدري: البحث العلمي أساسيات النظرية وممارستها العملية. ص: 116.  
 (4) - ينظر: عبد السلام حمدان اللوح: الإعجاز العلمي في القرآن. ص: 111.  
 (5) - ينظر: راشد سعيد شهبان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 60.  
 (6) - ينظر: عبد السلام حمدان اللوح: الإعجاز العلمي في القرآن. ص: 111.  
 (7) - ينظر: سامي الرشيد: الحقيقة العلمية. موقع جامعة الشرق الأوسط. <https://meu.edu.jo>

كافة علماء مجال معين في أنها تعمل (1):

- على دعم المفاهيم والتعميمات والنظريات أو المبادئ وتوضيحها.
- لتشكيل خلفية أساسية مهمة لطرح أو اقتراح فرضيات لمشكلة أو قضية معينة.
- كليات أساسية في بناء المعرفة الإنسانية.

## 2/- مستويات الحقيقة العلمية وأنواعها:

أ- مستويات الحقيقة العلمية: لقد فرق دالين " Van Dalen " بين مستويات ثلاثة للحقائق

هي (2):

\* مستوى الإحساس: وهو مستوى الحقائق التي يكون الإنسان فيها واعياً لها عن طريق الخبرة الحسية المباشرة، وهي ليست إلا إحساسات، هي خبرات خام، تُدرك مباشرة والإحساس بداية الإدراك، وهذا بدوره تفسير الإحساس.

\* مستوى الإدراك: وهو مستوى الحقائق التي يتعرف عليها الباحث، بواسطة وصف خبراته المباشرة وتفسيرها، حيث يُفسر الحس إحساساته في ضوء خبراته الماضية ومعارفه ليحصل على حقائق.

\* مستوى الاستدلال: وهو مستوى الحقائق التي يتعرف عليها الباحث بواسطة قيامه بالاستقراء والاستنتاج، وعملية التجريب والتعميم، وهنا يعمل الباحث عقله، ويستخدم عمليتي التجريد والتعميم، ويقوم بفاعلية الاستقراء والاستنتاج، وحيثما أمكن يلجأ إلى التجريب فيصل إلى الحقائق الموضوعية، وهكذا تؤكد الإنسان أن الأرض كروية.

هذا وإن المستويات الثلاثة متكاملة متواصلة، فبدون إحساس لا نصل إلى الحقائق، وبدون إدراك وتفسير لا نصل إلى الحقائق وبدون استدلال لا نصل إلى الحقائق.

ب- أنواع الحقيقة العلمية: وعلى هذا فإِنَّ الحقائق تكون على نوعين (3):

- \* الحقائق المادية المحسوسة: وتُشير إلى مجموعة المعارف والمعلومات التي ترتبط بالأشياء والأسماء والأماكن والأوزان وغيرها، ويمكن إدراكها وتكوين صورة عقلية ذات معنى لها.
- \* الحقائق المجردة أو الرمزية: وتُشير إلى مجموعة من المعارف والمعلومات التي لا نستطيع

(1) - ينظر: مفلح بن دخيل الأكلبي: المناهج التعليمية في العالم الإسلامي. ص: 10.

(2) - ينظر: رجاء وحيد دويدري: البحث العلمي. ص: 117-118.

(3) - ينظر: مفلح بن دخيل الأكلبي: المناهج التعليمية في العالم الإسلامي. ص: 9-10.

إدراكها بالحواس مباشرة؛ لذلك نلجأ إلى الرموز والأشكال والكلمات والألفاظ للدلالة عليها عن طريق رسم صورتها العقلية وإدراكها والتعبير عنها. وهي من حيث الإدراك والتعلم أصعب من الحقائق المحسوسة؛ حيث لا بد من إدراك الأشكال والرموز والكلمات والرسوم التي نستعين بها في رسم الصورة الذهنية لهذه الحقائق؛ فالحقائق الحسية تُعدُّ بمثابة القاعدة الأساسية للحقائق المجردة.

وقد قسم ابن تيمية الحقيقة إلى نوعين؛ هما<sup>(1)</sup>:

\* الحقيقة الكونية: وهي التي تتعلق بالوقائع العلمية ويشارك في شهودها المؤمن والكافر.  
\* الحقيقة الدينية: وهي التي تستند إلى طاعة الله في شريعته وينفرد المؤمن في شهودها دون غيره.  
كما يرى أن الإنسان يمتلك إرادته في الأمور التي تختص بالحقائق الدينية، بينما الكون مسير في الأمور التي تتعلق بالحقائق الكونية.

### 3/- المصطلحات المتصلة بالحقيقة العلمية:

هناك علاقة متينة بين هذه المفاهيم الثلاثة - الحقيقة العلمية والفرضية العلمية والنظرية العلمية - في البحث العلمي الذي يعتمد ويرتكز أساساً عليها ولا يمكن الاستغناء عنها. وهناك في الواقع فروق بينة وشاسعة بينها، وبما أننا عرفنا بالحقيقة فني ما يأتي سنتطرق للتعريف بالمصطلحين الآخرين ونذكر الفروق بينها:

#### أ- النظرية العلمية:

\* مفهوم النظرية: النظرية عبارة عن أفكار أو معلومات - تشمل ملخصاً عن ظاهرة ملاحظة - مرتبطة ومنظمة تساعدنا على تفسير مجموعة من الظواهر المعروفة أو المرصودة، ويعمل بها في مجال التوقع أو التنبؤ بما يوجد من ظواهر وعلاقات أو تفسير ظاهرة علمية سبق أن أثبتت حولها شكوك في التفسير<sup>(2)</sup>. « فالنظريات هي صياغات عامة لتفسير كيفية وقوع حدوث الظواهر، كالتنظريات المفسرة لأصل نشأة الكون وأصل الحياة»<sup>(3)</sup>.

\* مميزات النظرية: إن من خواص النظريات العلمية أنها لا تُلغى بعضها بعضاً، وإنما يُعمم اللأحق منها السابق، يقول عبد السلام اللوح أن محمد جمال الدين الفندي أشار إلى ذلك في قوله: « يظنُّ بعض النَّاس خطأ أنَّ تعاقب النظريات العلمية المتصلة بعلوم الكون معناه أنَّ النظرية الحديثة

(1) - ينظر: مفلح بن دخيل الأكلبي: المناهج التعليمية في العالم الإسلامي. ص: 10.

(2) - ينظر: عبد السلام حمدان اللوح: الإعجاز العلمي في القرآن. ص: 109. ورجاء وحيد دويدري: البحث العلمي. ص: 118.

(3) - راشد سعيد شهوان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 61.

تُلغى النظرية القديمة، ولكن هذا الفهم خاطئ، إذ إنَّ ظهورَ نظريَّةٍ حديثة كالتَّسبيَّة ما هو إلاَّ مُجرَّد تَعَميمٍ لنظريَّةٍ قَدِيمةٍ قَائِمةٍ مثل قَوَانِينِ نُيوتن. وعلى هذا النَّحو نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ، فِي مَجَالِ الْعُلُومِ الكونيَّةِ على الأقلِّ إنَّ تَعاقبَ النَّظَريَّاتِ مَعناه اَزديادُ تَعَميمِها واتِّساعُ نِطاقِ شُمولِها عَبرَ آفاقٍ أَوْسَعِ فِي الكونِ الفَسيحِ»<sup>(1)</sup>.

### \*الفرق بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية

- النَّظَريَّةُ العِلْمِيَّةُ قَابِلَةٌ لِلتَّعَدِيلِ وَالتَّطَوُّرِ أَوْ لِلتَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ وإِحلالِ أُخرى محلَّها، أمَّا الحَقِيقَةُ العِلْمِيَّةُ فَهِيَ ثابِتَةٌ وَقَطِيعَةٌ فِي نَتائِجِها.

- النَّظَريَّةُ العِلْمِيَّةُ لا تُخضعُ لِلتَّجَرِبَةِ وَالدَّلِيلِ وَالمِلاحِظَةِ فَهِيَ عِبارةٌ عَن مَفاهِمٍ وَتَفسيراتٍ وَشُرُوحاتٍ عِلْمِيَّةٍ لِظَاهِرَةٍ ما بِخِلافِ الحَقِيقَةُ العِلْمِيَّةُ فَهِيَ تُثَبِّتُ بِالتَّجَرِبَةِ وَالدَّلِيلِ وَالمِلاحِظَةِ.

- النَّظَريَّةُ السَّليمةُ الَّتِي يَتِمُّ الوُصُولُ إليها فِي دِراسةٍ عِلْمِيَّةٍ لا يُمكنُ عِبارَتُها حَقِيقَةً نُهايَّةً، وإِنَّمَا أَفضَلُ إِجابَةٍ يُمكنُ الوُصُولُ إليها، أمَّا الحَقِيقَةُ العِلْمِيَّةُ فَهِيَ نُهايةٌ ما وَصَلَ إِلَيْهِ العِلْمُ. فَهِيَ جُملةٌ أَوْ عِبارةٌ صَحيحةٌ عِلْمِيًّا.

### ب- الفرضية العلمية:

\*مفهوم الفرضية: إنها عبارة عن تخمين أو احتمال واستنتاج مبدئي يتوصل إليه الباحث ، ويصوغه ويتبناه مؤقتًا في حلِّ المشكلة أو شرح وتفسير ما يُلاحِظُه من الحقائق والظواهر (2) . ويُعدُّ الفرض من التعليلات والتفسيرات الأولى المرجحة للظواهر الكونية<sup>(3)</sup>.

### \*مميزات الفرضية: تتميز الفرضية بجملة من المزايا أهمها<sup>(4)</sup>.

- أنَّها تُوجِّهُ البَاحِثَ بِما يَجبُ عَمَلُه.

- أنَّها تُمكنُ البَاحِثَ مِن اسْتِخْلاصِ ظاهراتٍ خَبَريَّةٍ مُحدَّدةٍ، تُشتمَلُ عَليها المُشْكِلاتُ وَالفَرُضيَّةُ.

- أنَّ الفَرُضيَّاتِ تُسبِّبُ تَقَدُّمَ البَحْثِ العِلْمِيِّ بِوِاسِطةِ مُساعَدَتِها البَاحِثَ عَلى المُوافِقةِ عَلى النَّظَريَّةِ أَوْ عَدَمِ المُوافِقةِ عَليها.

وَإِذا كَانتِ الفَرُضيَّاتُ تُساعِدُ عَلى التَّقَدُّمِ العِلْمِيِّ، « فَإِنَّ البَاحِثَ الذِّي لا يُجْري بَحْثًا عَلى

(1) - عبد السلام حمدان اللوح: الإعجاز العلمي في القرآن. ص: 109.

(2) - ينظر: أحمد بدر: أصول البحث العلمي ومناهجه. المكتبة الأكاديمية، دط، دت، ص: 97.

(3) - ينظر: سعيد إسماعيل صيني: قواعد أساسية في البحث العلمي. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 1415هـ-1994م، ص: 49.

(4) - ينظر: رجاء وحيد دويدري: البحث العلمي. ص: 112.

أساس من فرضية مسبقة عن صلة بين متحولين أو أكثر، فإنَّ الحقائق التي يكتشفها لا تُبرهن على شيءٍ أو تنفي شيئاً، ولا يجوز للباحث أن يجمع الحقائق ويصوغ النظريات، ثمَّ ينتقي من هذه الحقائق ما يُناسب نظريته ويُهمل ما لا يُناسبها، بل أن يجمع الحقائق ومن ثمَّ يفترض الفرضية، ثم يضعها موضع الاختبار العلمي الموضوعي، مُحدداً سلفاً ما يتوقعه من صلة أو صلات، فإذا أثبت الاختبار صحة الفرضية صارت نظرية أو قانوناً، وهكذا فإنَّ الفرضية تُوجَّه الباحث دون تحيز، والبحث يكون إما عن صحة الفرضية أو عدم صحتها»<sup>(1)</sup>.

\* **علاقة الفرضية بالنظرية والحقيقة:** تتمثل علاقة الفرضية بالنظرية والحقيقة فيما يأتي<sup>(2)</sup>:

- الفروض خطوة نحو الحقيقة، تتحول إلى حقائق بمجرد أدلة كافية على صحتها وتصبح

الفروض قانوناً حينما تثبت صحتها.

- تتشابه الفروض مع النظريات في كونها تصورات أو تخيلات ذهنية لتفسير علاقة ما.

- مجال النظرية أكثر سعة من الفروض فالنظرية تشمل عدّة فروض، وبالتالي تتطلب جهوداً

أكبر لإثباتها، وتكون بعد إثباتها أكثر قدرة من الفروض على تفسير أكبر قدر من الظواهر.

- الفرق بين الفرضية والنظرية هو في الدرجة لا في النوع، « فالنظرية في مراحلها الأولى تُسمى

"الفرض" وعند اختبار الفرض بمزيد من الحقائق بحيث يتلاءم الفرض معها، فإنَّ هذا الفرض يصبح نظرية»<sup>(3)</sup>.

- بين الفرضيات والنظريات علاقة أخذ وعطاء، حيث «تستمد الفرضية قوتها من النظرية أو

المسلّمات الأكثر قوة، ويتم تطوير النظرية أو اختبارها بواسطة الفرضيات. وهكذا تقوم الفرضية

بوظيفتين: تنمية نظرية جديدة أو اختبار نظرية موجودة للتأكد من مصداقيتها. وقد تكون سبباً في

إلغاء نظرية أو تثبيتها أو تعديلها، والتعديل قد يكون بالإضافة أو بالتقليل لشموليتها»<sup>(4)</sup>.

إذا فالملاحظ أنَّ هناك رباط وثيق الصلة بين الحقيقة والفرضية والنظرية، وذلك لأنَّ مجموع

الفروض التي تقبل إضافة عناصر تفتقدها والقابلة للتعديل والتغيير والتطور قد تصبح نظرية علمية،

وهذه النظرية العلمية قد تصبح حقيقة علمية وذلك إذا ما خضعت للتجربة والتحصيص والبحث فإنَّ

(1) - رجاء وحيد دويدري: البحث العلمي. ص: 112-113.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 110

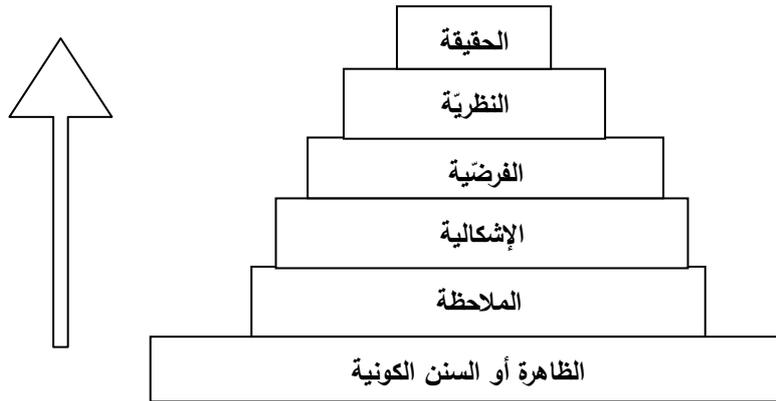
(3) - أحمد بدر: أصول البحث العلمي ومناهجه. ص: 97.

(4) - سعيد إسماعيل صيني: قواعد أساسية في البحث العلمي. ص: 51.

تَبَّتْ صِحَّتْهَا قُبِلَتْ وَأَصْبَحَتْ حَقِيقَةً عِلْمِيَّةً. لذا فمن العسير أن نرسم خطأً فاصلاً بين كل من الحَقِيقَةُ والفَرَضِيَّةُ والنَّظَرِيَّةُ.

وما يمكن أن نستنتجه ممَّا سبق: أنَّ العلم يتكوَّن من بناء تراكمي متدرِّج يبدأ من ملاحظة الظواهر والسُّنن ثمَّ طرح الإشكاليَّات واستنتاج الفرضيَّات ووضع النَّظَريات وتفسيرها وآخر ما يتوصَّل إليه الحقائق العلميَّة الواصفة بصدق الظَّاهرة أو جانب من جوانبها، وسنوضِّح ذلك في هذا الشَّكل الهرمي الذي يمثِّل المبادئ الأساسيَّة للعلم والعلاقة بين الحقيقة والمصطلحات المتَّصلة بها والتي كلُّها يتكوَّن منها العلم:

### العلاقة بين الحقيقة والمصطلحات المتَّصلة منها



وعليه، فالحقيقة العلميَّة هي آخر ما وصل إليه العلم، وهي وصف أمين صادق لأية ظاهرة أو جانب من جوانبها. غير أنَّ هناك من يرى أنَّه لا تُعدُّ الحقائق مسلَّمات لأنَّها قابلة للتغيُّر والتبدُّل مع مرور الزَّمن. لذا فالسُّؤال المطروح الآن هو ما علاقة المعجزة القرآنية بالحقيقة العلميَّة، وما هي المنهجية التي يعتمد عليها في الأخذ بالحقائق لاستخراج آيات الإعجاز العلمي في القرآن.

### المطلب الثاني: علاقة الحقيقة العلمية بالمعجزة القرآنية

لم يقف القرآن الكريم «في مجال الهداية عند حد توجيه نظر الإنسان للتفكير في حقائق الكون بل إنه كثيراً ما يبيح الكشف عن هذه الحقائق ولاسيما في أمور يكون العقل قاصراً عن الإحاطة بها أو إثباتها بالتجربة، كخبر نشوء الكون ومآله»<sup>(1)</sup>.

وانطلاقاً من هذا فإنَّ هُمكن اكتشاف حقيقة كونية من خلال فهم مُتبصِّرٍ لنصوصٍ قرآنية، كما يمكن إدراك وتطوير معنى أشمل لآية قرآنية من خلال فهم لحقيقة كونية قطعياً. أيَّ أنه يمكن أن تُقوم نتائج النظريات الكونية بمعيار فهم صحيح لآي القرآن، كما يمكن تقويم فهمنا الظني لآية قرآنية بما بُنت صِحته من قَوَين كونية. وهذه المزاوجة بين حقائق الكون في القرآن وحقائق القرآن في الكون تفتِّح بصيرة المؤمن في ارتياد آفاق من المعرفة الكونية واستكشاف صور من الإعجاز عنها<sup>(2)</sup>.

#### 1- الوحي الإلهي مصدر الحقائق العلمية:

أ- القرآن المصدر الأول للحقائق: لقد خلق الله سبحانه وتعالى الكون وأوجد سنناً كونية تتحكَّم فيما يجري فيه. ومن أهداف العلم الرئيسية اكتشاف هذه السنن الكونية أو ما تُسمى بالقوانين الطبيعية أو الحقائق الواقعية. وهذه الحقائق قد تندرج ضمن العلوم الطبيعية " الجُمادات والتبَّاتات والحيوانات " أو تندرج ضمن العلوم الإنسانيَّة " الرُّوح والفكر والنفس البشريَّة ". فالحقائق ليست إلاَّ نوعاً من المعرفة تميلُ إلى أن تكون ذات مصداقية عالية، وأحياناً تكون حقائق مُطلقة أي مطابقة للواقع.

ولا يقتصر مصدر الحصول على الحقائق العلمية على النظريات وما تتضمَّنه من التلقِّي أو الملاحظة أو التجربة أو الاستنتاج. وبعبارة أُخرى ليس الإدراك الحسي الوسيلة الوحيدة للحصول على هذه الحقائق؛ فهناك ثلاثة مصادر أساسية للحقائق العلمية: الوحي الربَّاني، الوضع والاتِّفاق، والاستقراء<sup>(3)</sup>.

فما أنَّ هناك علاقة بين القرآن والكون والتَّالي بين المعجزة القرآنية والحقائق العلمية، فقد عُدَّ الوحي الإلهي المصدر الأوَّل والأساسي من مصادر الحقائق الكونية. وقد أكَّد ووضَّح الشَّيخ

(1) - علي الطاهر شرف الدين: التواؤم بين آيات الله القرآنية وآياته الكونية. بحث مقدم ل: المؤتمر العلمي العالمي الثاني مؤتمر التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الكون، محرم 1430هـ -يناير 2009م، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية والسنة النبوية. ص: 16.

(2) - ينظر: المرجع نفسه، ص: 9.

(3) - ينظر: سعيد إسماعيل صيني: قواعد أساسية في البحث العلمي. ص: 37 و 43-44.

الشعراوي هذه القضية فقال: إنَّ حقائق الكون، وهي من خلق الله عزَّ وجلَّ، لا تتعارض مع القرآن الكريم، إذ أنَّ الكون من خلق الله، والقرآن الكريم هو كلام الله عزَّ وجلَّ الذي جاء لينظِّم علاقة الإنسان بخالقه وبالكون الذي يعيش فيه. فالقائل هو الخالق ولا يمكن أن يكون هناك إنسان أعلم بقوانين الكون من خالقه<sup>(1)</sup>.

ب- أنواع الحقائق العلمية في القرآن: ومع أنَّ القرآن الكريم مصدر من المصادر اليقينية للحقائق العلمية، فإنه يجب علينا أن نُميِّز بين نوعين من الحقائق فيه<sup>(2)</sup>:

أولاً: الحقائق التي لا تحتاج إلى اجتهادات بشرية للتعرف عليها. مثلاً قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:30] فنحن نستطيع أن نقطع بأنَّ الماء عنصر جوهري لكلِّ شيء حيٍّ لأنَّ الآية صريحة في ذلك.

ثانياً: الحقائق التي تحتاج إلى الاجتهادات البشرية للتعرف عليها. وهذه الحقائق العلمية ليست سوى اجتهادات بشرية لفهم الآيات القرآنية وهذا الفهم قد يُصيب وقد يُخطئ. نحو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:12] فلا تدري ما المقصود بالسَّموات السَّبع والأرضين السَّبع، على وجه القطع أو اليقين، وذلك بسبب اختلاف الأقوال في مدلولها. أهى الطبقات الجوية المختلفة أو الكواكب أم المجموعات الشمسية المتعددة؟ وبالنسبة للأرضين لا تدري هل المقصود بها الطبقات الجيولوجية المختلفة أو الكواكب..؟

وهناك حقائق علمية لم يحدِّثنا القرآن عن ماهيتها ولكن أخبرنا عن نتائجها وفعاليتها. ففقد أمكن نقل عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين في طرفة عين بنوع من أنواع العلم "سنة كونية". والسنة الكونية التي بموجبها تمَّ انجاز ذلك لا تزال من الغوامض التي لم يصل العقل البشري إلى معرفتها بعد، رغم التَّقدم العلمي الهائل. هذا مع أنَّ تلك القدرة نسبتها لله تعالى إلى العلم الذي علَّمه الله لأحد عباده، إذ يقول تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:40]، ولكننا لا ندري أيَّ قانون طبيعي هذا الذي تم استخدامه في انجاز تلك العملية. ويكمن الخطر في عدم التَّمييز بين هذين النوعين من الحقائق العلمية كما يقول سعيد إسماعيل

(1) - ينظر: محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن. ص:84.

(2) - ينظر: سعيد إسماعيل صيني: قواعد أساسية في البحث العلمي. ص:45-46

صيني في « أن يأتي تفسيرٌ لاحقٌ للآية الواحدة يتعارض مع التفسير الأول، تسنده أدلة أقوى فيؤدّي ذلك إلى فتح باب للشك في القرآن ومصداقيته. فمثل هذا التعارض - في حقيقة الأمر - لا يُنسب إلى القرآن الكريم، ولكن إلى التفسيرين أو الاجتهاديين البشريين. ولا علاقة بين هذا التعارض في الفهم وبين النصوص التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها»<sup>(1)</sup>.

## 2/- تصنيف الحقائق العلمية حسب الآيات الكونية:

في كثير من آياته يحث القرآن الكريم العقل ويحرضه على التدبر والتفكير والنظر في آيات الله. وفي ما سوى ذلك وهو يُقرّر ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:38] يُورد كثيراً من هذه الحقائق الكونية العلمية تصرّحاً أو تلميحاً. فالخطاب القرآني في ما يتعلّق بآياته تعالى الكونية جاء على ثلاثة وُجوه؛ إخبار عن حقائق يُمكن اختبارها، وحقائق لا يُمكن اختبارها وحقائق يمكن استنباطها، وفي ما يأتي تفصيل ذلك:

أ- حقائق قابلة للاختبار: والمقصود بالحقائق القابلة للاختبار تلك الحقائق التي يُمكن اختبارها وإثباتها بالتجربة أو المراقبة، ففي كثير من آياته أخبرنا الله تعالى عن حقائق يُمكن اختبارها، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات:47]، فالتساع السّماء الكوني حقيقة توصّل لها علماء الطبيعيات والكونيات وأثبتت حديثاً بالقياس الفلكي. وهي حقيقة لم يكن المفسرون الأوائل في وضع يُمكنهم من إدراكها<sup>(2)</sup>.

ب- حقائق غير قابلة للاختبار: ويُعنى بها إخبار عن حقائق علمية مُستنبطة من قانون طبيعي ولكن يستحيل اختبار صحتها بالتجربة أو القياسات العلمية، ونحو ذلك قضية بداية ونهاية الكون. فالقرآن الكريم يصف بداية خلق الكون في قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء:30]، ويصف نهايته في قوله: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۗ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۖ وَعَدَّا عَلَيْهَا ۗ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:104]. أمّا علماء الطبيعة فهم يصفون كيفية حدوث هذه البداية في الماضي السحيق قبل ما قد يصل إلى نحو عشرين بليون عامًا كما يتحدّثون عن نهاية الكون في المستقبل البعيد. ويسود الاعتقاد لدى علماء الكونيات أنّ المادّة الكونية - بما في ذلك الأرض - كانت رتقاً مُندمجاً

(1) - سعيد إسماعيل صيني: قواعد أساسية في البحث العلمي. ص:45.

(2) - ينظر: علي الطاهر شرف الدين: التواؤم بين آيات الله القرآنية وآياته الكونية. ص:5.

فانفجرت في انفجار هائل لم يستغرق من الزمن أكثر من برهة متناهية في الصغر، حيث انطلقت طاقة عظيمة جعلت درجة الحرارة تفوق عشرة بليون درجة، تناقص مقدارها عبر الزمان مع اتساع مُطرِد في البناء الكوني حتى بلغت درجة من البرودة أتاحت للجسيمات الأولية أن تتألف مكونة الذرات. ثم مع تزايد البرودة والانتساع تشكلت أجزاء الكون المنظور من مجرات ونجوم بالإضافة للمنظومة الشمسية بما فيها الأرض. ثم أن هذا الكون سيواصل اتساعه إلى أن يؤول إلى فناء حراري محتوم لم يحدث بعد، مما يؤكد بداية الخلق وعدم أزلية الكون، إذ لو كان أزلياً - كما يدعي الماديون - لكان هذا الفناء الحراري قد حدث في الماضي. ويُعتقد أنه عندما يحدث هذا الفناء الحراري بعدما يستنفد الكون كل طاقته في عملية الانتساع يصير خمود شامل يعقبه انكماش وانطواء إلى الداخل في أجزاء الكون ليعود كما بدأ.

هذا النموذج الذي يؤمن بصحته علماء الطبيعة يتحدث عن بداية ونهاية الكون، وكلاهما غيب لا تحيط عقولنا بكنهه. ومن المفارقة أن الكثير من الملاحدة الذين كفروا بالخلق يؤمنون بهذا النموذج الكوني الذي يدل على حقيقة الخلق. فها هو القرآن يُخاطبهم مُستقِرراً: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانا رتقا ففلقنهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ [الأنبياء:30] إلا أن هذه الإفادة القرآنية أشمل دلالة مما يُفرضي إليه النموذج الكوني إذ أنها لا تتعلق فقط بالكون أي بالسماء الدنيا بل تشمل الوجود كله بكل سمواته. وفي هذه الآية إعجاز بين من أن الذين كفروا - وليس الذين آمنوا - هم من رأوا هذه الحقيقة ابتداءً. كما يستقرهم بقوله تعالى: ﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده﴾ [العنكبوت:19]، حيث أكد القرآن نهاية عمر الكون بقوله تعالى: ﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾ [الأحقاف:3]، كما بين القرآن كيف ينتهي هذا الكون: ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾ [الأنبياء:104]، كذلك يؤكد القرآن أيلولة كل شيء إلى الهلاك: ﴿كل من عليها فان﴾ [الرحمن:26-27]. وهذه الآيات تتحدى الذين كفروا وتجعلهم في ورطة إن لم يؤمنوا بالخالق<sup>(1)</sup>.

ج- حقائق قابلة للاستنباط: والمقصود بذلك ما تتضمنه الآيات من إثارة لقضايا تتعلق بحقائق

(1) - ينظر: علي الطاهر شرف الدين: التواؤم بين آيات الله القرآنية وآياته الكونية. ص: 6.

في الكون كما تتعلّق بالغيّب وتدعو إلى التدبُّر والنظر والتّفكير في ملكوت الله واستنباط ما يُفضي إليه ذلك من علم عن الطّبيعة والحياة. فيمكنُ استنباطَ جملة من الحقائق عن الطّبيعة من خلال التّدقيق في النّصوص القرآنية مثال ذلك الحقيقة المستنبطة من الخبر القرآني: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس:92]. والدّالة على أنّ جسد فرعون مُقدّر له أن يبقى عبر القرون على الرّغم من أنّه لم ينج من العرق حسب قوله تعالى ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء:103]. وقد قدّر الله أن يُبرع قُدماء المصريين في كيمياء التّحنيط لتحقّق هذه المعجزة القرآنيّة إذ اكتشفت مُومياً هذا الفرعون في نهاية القرن الماضي لتكون شاهداً على إعجاز القرآن وحفظه.

كما يمكن استنتاج قلة الأكسجين بالارتفاع عن سطح الأرض ممّا يدلُّ عليه النصّ القرآني: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:125]. أو ضرورة ترك الحصاد مثل القمح في سنبله حفظاً له من التّسوس والآفات كما قد يُستنبط من قول يوسف عليه السلام: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ [يوسف:47]<sup>(1)</sup>.

وعليه، فالحقائق العلميّة في سياق النّصوص القرآنيّة تأتي إمّا بوجهٍ صريحٍ يدلُّ عليها، أو بتوجيه للعقل ليكشف عنها. فالقرآن وهو الكتاب الجامع لعلوم الوجود، يشمل علوم الكون بحسبه جزءاً من هذا الوجود. وإنّ مقدار ما نستمدّه من حقائق كونيّة من القرآن يزيد كلّما تدبّرنا آياته وكلّما أمعمنا النظر في آيات الكون<sup>(2)</sup>.

(1) - ينظر: علي الطاهر شرف الدين: التواؤم بين آيات الله القرآنية وآياته الكونية. ص: 7.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 7.

المطلب الثالث: منهج الأخذ بالحقيقتة العلمية وأهدافه أبحاث الإعجاز العلمي

1/- مَنَهج الأخذ بالحَقائِقِ العِلْمِيَّةِ مِنَ النِّصْرِ القُرْآنِيِّ المُعْجَبِ:

أ- مَوقِفِ البَاحِثِينَ مِنْ عِلاَقَةِ الإِعْجَازِ القُرْآنِيِّ بِالْحَقَائِقِ العِلْمِيَّةِ:

يَنقَسِمُ البَاحِثُونَ أَمَامَ الإِعْجَازِ القُرْآنِيِّ وَعِلاَقَتِهِ بِالْحَقَائِقِ العِلْمِيَّةِ إِلَى فَرِيقَيْنِ (1):

أحدهما: يُحاوِلُ إخْضَاعَ الحَقَائِقِ العِلْمِيَّةِ للقُرْآنِ الكَرِيمِ.

والفريق الثاني: يُبْكَرُ إخْضَاعَ الحَقَائِقِ العِلْمِيَّةِ للقُرْآنِ الكَرِيمِ.

وفي هذا الصدد يقول الشعراوي: إنَّ الذين مَنَعُوا مُجَانِبُونَ لِلصَّوَابِ، والذين عَالَمُوا مُجَانِبُونَ لِلصَّوَابِ أَيْضًا، لأنَّ القُرْآنَ كَلَامَ اللَّهِ، وَالكَوْنَ خَلَقَ اللَّهُ، وَحَقَائِقُ الكَوْنِ المَوْجُودَةِ فِيهِ وَالتِّي خَلَقَهَا اللَّهُ لا بَدَّ أَنْ تَنسَجِمَ مَعَ كَلَامِ اللَّهِ، فلا يَكُونُ هُنَاكَ تَضَارِبُ، فَإِنْ حَصَلَ ما ظاهِرُهُ التَّضَارِبُ، فإِما أَنَّكَ فَهَمْتَ حَقِيقَةَ قرآنيَّة، وهي ليست حَقِيقَةَ قرآنيَّة، وليسَ هذا المراد من الحَقِيقَةَ القُرْآنِيَّةِ، وإِما أَنَّكَ أتيت بِشيءٍ ليس حَقِيقَةَ علميَّة، وقلت: هو حَقِيقَةَ علميَّة، لكن إذا تَأَكَّدْنَا أن هذه حَقِيقَةَ قرآنيَّة، وهذا هو الفَرْقُ، وهذه حَقِيقَةَ علميَّة فلا بَدَّ أَنْ يَلْتَقُوا، لأنَّ قائلَ القُرْآنِ هو خالِقُ الكَوْنِ، إلاَّ أنَّ النَّاسَ لا يَفْطَنُونَ إلى أَهْمِيَّةِ تَحْديدِ ما هو العِلْمُ؟

لا يُقال: علم... إلاَّ إذا كانت فَضِيَّة، وأنت تُجْزِمُ بِها، وهي واقِعَةٌ، وعليها دَلِيلٌ، بغير ذلك لا يَكُونُ علمٌ، والعلم من أَجْلِ اكتِشافِ حَقائِقِ الكَوْنِ مَفْهُومٌ أَنَّهُ يَبْدَأُ بِالمِلاحِظَةِ، ثم النَّظَرُ، ثم الحَقِيقَةَ العِلْمِيَّةِ، فلا يُقال حَقِيقَةَ علميَّة، إلاَّ في نِهايَةِ المِطافِ بأنَّ تَسَلَّمَ، وكلَّ الجِزئِيَّاتِ تَنطَبِقُ على هذه الحَقِيقَةَ، ولا تَشَدُّ عنها حَقِيقَةَ، فإذا جِئْتَ لِتَحْضِعَ القُرْآنَ لِمِلاحِظَةِ علميَّةِ نَقولِ لِكَ هذا غَلَطٌ، لأنَّه من الجائِزِ أَلَّا تَنجَحَ المِلاحِظَةُ بِالتَّجْربَةِ، وإذا جِئْتَ لِتَحْضِعَ القُرْآنَ لِتَجْربَةِ علميَّةِ، نَقولُ أَيْضًا هذا غَلَطٌ، لأنَّه من الجائِزِ أَلَّا تَنفَعُ التَّجْربَةُ، وإذا أَرَدْتَ أَنْ تُخْضِعَ القُرْآنَ لِلنَّظَرِيَّةِ، نَقولُ لِكَ: هذا غَلَطٌ أَيْضًا، لأنَّ النَّظَرِيَّةَ يُمكنُ أَنْ تُخْطِئَ لكن إذا وَصَلْتَ إلى حَقِيقَةَ علميَّةِ نَقولُ لِكَ : إن لم يَكُنْ في القُرْآنِ ما يُؤيِّدُها، فليسَ فِيهِ قِطْعًا ما يُعَارِضُها.

والذين يَمْنَعُونَ أَنَّ القُرْآنَ قَدْ يَلْتَقِي بِبَعْضِ الحَقَائِقِ العِلْمِيَّةِ، نَقولُ لَهُمْ: لا، لكن حَقَّقُوا أَوَّلًا أَهْمًا

حَقِيقَةَ علميَّة، فإذا وَصَلْتَ مَسْأَلَةَ إلى مِرتَبَةِ الحَقِيقَةَ العِلْمِيَّةِ فالقُرْآنَ لا يُعَارِضُها، بل يَمْكَنُ أَنْ يُؤيِّدُها.

(1) - ينظر: شعبان محمد إسماعيل: المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية. 203/1.

فالقُرآن لم يجرى كِتَابِ عِلْمٍ، بمعنى أَنَّهُ لم يأت ليعلِّمنا الكيمياء ولا ليعلِّمنا الجغرافيا، وإنما يمسُّ حقائق الكون الموجودة بما يُؤدِّي إلى مصداق قوله: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53]. ولا يُمكن أن يُرينا الآيات في الأفاق وفي أنفسنا، إلا إذا اكتشفنا حقائق علمية، ثم وجدنا قرآنا يُؤيِّدها، أي ينصُّ على الحقيقة على أنَّها حقيقة، وهذا غير تعليمها لنا، فتعليمها نشاط ذهني، لكن إذا وصلت إليها نجد القرآن إمَّا أن يُؤيِّدها أو لا يعارضها، وهذا ما يجب أن نلتفت إليه في بحث القرآن من ناحية الحقائق العلمية<sup>(1)</sup>.

### ب- منهج الباحث في الأخذ بالحقيقة العلمية والنظرية العلمية

إنَّ الذي يفصل بين رأي هذين الفريقين -الفريق الذي يُخضع الحقائق العلمية للقرآن الكريم والفريق الذي يُنكر ذلك- هو المنهج الصحيح الذي يصدر عن كلِّ باحث. وفي ما يأتي سنختصر منهج الباحث في الأخذ بالحقيقة العلمية والنظرية العلمية؛ لإظهار جوانب إعجاز النصِّ القرآني في الآيات الكونية:

#### الحقيقة العلمية:

- ثبوت الحقيقة العلمية ثبوتا قاطعاً وتوثيق ذلك توثيقاً علمياً متجاوزة مرحلة الفرض والنظرية إلى القانون العلمي<sup>(2)</sup>.
- وجود الإشارة إلى الحقيقة العلمية في النصِّ القرآني بشكل واضح لا مربة فيه<sup>(3)</sup>.
- أن لا يتناقض العلم الصحيح مع النصِّ الصحيح. مع العلم أنَّ الحقيقة العلمية إذا وصلت لمستوى الحقيقة الثابتة، لا تتغير ولا تبطل بمرور الزمن، وإنما تزداد إيضاحاً مع ازدياد المعارف الإنسانية؛ لذلك فهي لا يمكن أن تتناقض ونص قرآني صريح الدلالة، مع التأكيد على أن كلام الله عزَّ وجلَّ هو الأصل فهو الخالق، والكون صنعته وإبداعه<sup>(4)</sup>.
- إن بدا تناقض بين حقيقة علمية ثابتة ونص قرآني، فلا بد في هذه الحالة من وجود خلل ما، إما في صياغة الحقيقة العلمية، أو في فهم النصِّ القرآني<sup>(5)</sup>.

(1) - ينظر: محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن. 84-86. وشعبان محمد إسماعيل: المدخل لدراسة القرآن. ص:203-206.

(2) - ينظر: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه. ص:30.

(3) - ينظر: المرجع نفسه. ص:30.

(4) - ينظر: هبة سعيد فارس: الإعجاز العلمي في آيات بداية الكون ونهايته دراسة موضوعية. رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة. 1432هـ-2011م، ص: 19.

(5) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 19.

## النظرية العلمية:

كما عرفنا سابقاً أنّ النظرية العلمية تمر بمراحل متعدّدة من الفروض العلمية حتى تصل إلى عدد من النظريات المقبولة التي يفضلون بها نظرية على أخرى، دون الادّعاء بالوصول إلى حقيقة راسخة أو قانون قطعي. ويبقى للمسلم نور من الله في آية قرآنية، يمكن أن يعينه على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة؛ لوجود إشارة لها في كتاب الله. فبعض النظريات لها من الإشارات اللطيفة في كتاب الله وسنة رسوله ما يمكن للعالم المسلم من تفضيل نظرية على نظرية، والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة لمجرد ذكرها في كتاب الله تعالى، وتكون بذلك قد انتصرتنا بالقرآن والسنة للعلم وليس العكس. وعلى هذا لا بد من ضرورة فهم الإشارات العلمية الواردة في القرآن على أساس من الحقائق العلمية الثابتة أولاً، فإن لم تتوافر فبالنظرية السائدة المقبولة التي يتجمّع لدى العلماء من الشواهد ما يمكن أن يعين على بلورتها وتصحيحها بالاستناد إلى القرآن والسنة الصحيحة والفهم السديد<sup>(1)</sup>.

ويتلخّص منهج الأخذ بالنظريات العلمية، في النقاط الآتية<sup>(2)</sup>:

- إذا وقع التعارض، رُفضت هذه النظرية؛ لأنّ العلم بالنقل، أكيد من العلم بالعقل، فهو وحي من الذي أحاط بكلّ شيء علماً.
- وإذا لم تتوافق بعض جزئيات النظرية مع النصّ القرآني، ففي هذه الحالة يؤخذ منها ما يتفق مع عقيدة الإسلام، ويترك ما لا يتفق.
- إذا وقع التوافق بين دلالة قطعية النص، وبين نظرية علمية، كان النصّ دليلاً على صحة تلك النظرية، ويرتقي بها إلى مقام الحقيقة.

وجدير بالإشارة أنّ هناك من العلماء من يرفض إخضاع النصّ القرآني للنظريات العلمية ولأمثال هذه التفسيرات، لأنّ البحث قد يكشف خطأ نظرية قديمة. ومنهم عبد الله المصلح الذي يعتقد ويحزم « أنّ النظرية السليمة التي يتم الوصول إليها في دراسة علمية لا يمكن اعتبارها حقيقة نهائية، وإنّما أفضل إجابة يمكن الوصول إليها، وهي قابلة للتغيير وإحلال أخرى محلّها، ولذا كان من ضوابط الإعجاز وجود الحقيقة العلمية الناصعة وعدم ربط آي القرآن بالنظريات القابلة للتبديل والتغيير»<sup>(3)</sup>.

(1) - ينظر: راشد سعيد شهوان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 61-62.  
(2) - ينظر: هبة سعيد فارس: الإعجاز العلمي في آيات بداية الكون ونهايته دراسة موضوعية. ص: 20.  
(3) - عبد الله بن عبد العزيز المصلح: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه. ص: 28-29.

وفي المقابل نجد من يردُّ على مثل هذا الاعتقاد بقوله: « إنَّ تفسير آيات القرآن الكريم بما يكشفه العلم على وفق قواعد التفسير وضوابطه من اللغة وغيرها ما هو إلا فهم لتلك الآيات فإنَّ تبين خطأ النظرية تبين خطأ ذلك التفسير، ولا يضير القرآن شيء لأنه أصل، وكل العلوم تابع، وهذا هو غاية جهد أهل العصر فاستأنسوا به في فهم آيات القرآن الكريم»<sup>(1)</sup>.

ثمَّ يستشهد ويستدل في ذلك بنص لمصطفى صادق الرافعي في مؤلفه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية الذي يقول فيه: « ذلك وأنَّ من أدلة إعجاز هذا الكتاب الكريم أنَّ يُخطئ النَّاسُ في بعض تفسيره على اختلاف العصور لِضعف وسائلهم العلميَّة ولقصر حيلهم أن تعلق بأطراف السَّموات أو تُحيط بالأرض، ثم تُصيب الطبيعة نفسها في كشف معانيه، فكلما تقدَّم النَّظر، وجمعت العلوم وزاغت إلى الكشف والاختراع، واستكملت آلات البحث، ظهرت حقائق الطبيعة ناصعة حتى كأنه غاية لا يزال عقل الإنسان يقطع إليها، حتى كأنَّ تلك الآلات حينما تُوجه لآيات السَّماء والأرض تُوجِّه لآيات القرآن أيضاً ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: 21]»<sup>(2)</sup>.

ومهما يكن فعلى الباحث أن يكون فطنًا كيِّسًا لبقًا حذرًا عند الخوض بمثل هذه القضايا، وعدم التسرع في استنباط المعلومات، والقفز إلى استنتاجاتٍ ظنيَّة غير مدعومة بالأدلة العلميَّة، والمعرفة اليقينيَّة، مع مراعاة الدقة العلميَّة في التفكير والاستنتاج، و هذا من أساسيات وأصول المنهج العلمي والبحث المعرفي.

## 2/- ضوابط ومنهجية الدراسة (المبدئية) في الإعجاز العلمي

قد رأينا فيما سبق كيف تعرَّضت قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم للنقد اللاذع، بسبب إفراط المتحمسين بتسرُّعهم في إثبات أو في الحديث عن نظرياتٍ علميَّة لا تزال محلَّ تجريبٍ وتفسيرها على آيات من القرآن الكريم بحملها على هذا المعنى، أو بسبب تفريط المعارضين لغيرتهم الشديدة عن القرآن الكريم وخوفهم من استخدام المعارف العلميَّة التي قد تُؤول إلى إفساد تفسير كلام الله أو الخروج به عن الهدف الذي من أجله أنزل. وبذلك كان من الضروري للمؤيدين المعتدلين من وضع وإيجاد منهجية وقواعد وأسس للتعامل مع الآيات القرآنيَّة في دراسة الإشارات العلميَّة وفي التفسير العلمي. يقول التائبسي إنَّه: « لدقَّة

(1) - عبد السلام حمدان اللوح: الإعجاز العلمي في القرآن. ص: 111.

(2) - المرجع نفسه. ص: 111.

البحث في الإعجاز العلمي لا بد من التبصّر فيه والحيطّة والحذر في عرضه، ذلك أنّه يتعلّق بتفسير الوحي الإلهي، وتفسيره كما لا يخفى له أسس وضوابط، إذ ليس كلّ من شاء أن يفسّر الوحي بما يراه فعل ومن هنا كان للبحث في الإعجاز العلمي الذي هو أهم فصل من فصول التفسير العلمي ضوابط لا بد من الأخذ بها، كي لا يكون هذا التفسير قولاً في كتاب الله بغير علم، ومن أجل أن يُحقّق الغاية منه دون مساس بمصداقيّة الوحي وثبوته وقُدسيّته <sup>(1)</sup>. فيا ترى فيم تتمثّل أهم الضوابط في التوفيق بين النصّ والاكتشافات العلميّة الحديثة ودلالاتها في القرآن الكريم؟ وما هي أبرز الطرق الإجرائية التي على الباحث عن حقائق الإعجاز العلمي مراعاتها؟

أ- ضوابط أبحاث الإعجاز العلمي: إنّ المقصود من لفظ "الضابط" في معجم اللغة هو: الإحكام والإتقان والدقّة والنظام والحفظ، فقد جاء في مقاييس اللغة أن: « الضاد والباء والطاء أصلٌ صحيحٌ، ضَبَطَ الشَّيْءَ ضَبْطًا. والأضْبَطُ الَّذِي يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ جَمِيعًا <sup>(2)</sup>. فضايط من الفعل ضَبَطَ: ضَبَطَ يَضِبُ، ضَبْطًا، فهو ضابِطٌ، والمفعول مضبوطٌ، يقول: ضَبَطَ لِسَانَهُ: حَفَظَهُ بِالْحَزْمِ حِفْظًا بَلِيغًا، ضَبَطَ عَمَلَهُ: أَتَقَنَهُ، أَحْكَمَهُ. والعُلُومُ المَضْبُوتَةُ: هي العُلُومُ المحْكَمَةُ أو الدَّقِيقَةُ التي تُقَوِّمُ على قِياسِ المقادير كالحسابِ والهندسة <sup>(3)</sup>. وقد ورد في معجم اللغة العربيّة المعاصرة أن: «ضايطٌ [مفرد]: ج ضابِطُونَ (للعاقل) وضايطٌ (لغير العاقل): 1- اسم فاعلٍ من ضَبَطَ. 2- ما يُضَبَطُ ويُنظَّمُ من المبادئ أو القواعد "لا بُدَّ من احترام الضوابط الأخلاقيّة في التعامل"، بلا ضابط: مُهْمَلٌ لا نظام ولا تحكُّم فيه» <sup>(4)</sup>.

أمّا المراد بالضوابط اصطلاحًا هو: «أصولٌ كُليّةٌ تُضَبَطُ فُرُوعًا تُدوِّرُ في بابٍ واحدٍ، أو أُمُورٌ كُليّةٌ جامعةٌ لأشياء وفروع تختص في بابٍ مُعيّن» <sup>(5)</sup>. ولكنّ المراد بهذه الضوابط في هذا السّياق، هي تلك القواعد والمفاهيم والشروط التي تُحدِّد مسارَ بحوث الإعجاز العلمي، وفق الأصول الشرعيّة المقرّرة، مع الالتزام بالجوانب الفنيّة والعلميّة المطلوبة <sup>(6)</sup>.

(1) - قتيبة فوزي جسام عبد الواحد الراوي: الإعجاز العلمي وعلاقته بالمنهج التجريبي المعاصر، مجلة الأستاذ، عدد 201 سنة 1433هـ-2012م، ص: 302.

(2) - ابن فارس: مقاييس اللغة. 386/3. مادة: "ض ب ط".

(3) - ينظر: معجم المعاني الجامع - معجم عربي عربي. نسخة إلكترونية. مادة: "ض ب ط".

(4) - أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة. عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008م، 1345/2، مادة: "ض ب ط".

(5) - راشد سعيد شهوان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي. ص: 14.

(6) - ينظر: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه. ص: 29.

وتكمن أهمية هذه الضوابط في كونها: مناط استرشاد للباحثين في الإعجاز العلمي، كما تُسهّم هذه الضوابط في علاج كثير من المزالق التي وَقَع فيها كثيرٌ من الباحثين في هذا المجال، لكي تنال الكتابات في هذا الموضوع الجديد الرضا والقبول. كما أن إلزام هذه الضوابط يُساعد كذلك على إنهاء الخلاف الفكري بين المؤيدين لموضوع الإعجاز العلمي والمعارضين له؛ لأنَّ جوهر الخلاف بينهم يرجع سببه إلى تلك المظاهر الارتجالية التي لا يصدر أصحابها عن منهج صحيح<sup>(1)</sup>.

وفيما يأتي يمكن إيجاز أهم الضوابط والقواعد التي توصل إليها الباحثون لترشيد وتحديد مسار البحث في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وتمنع من الوقوع في تلك الأخطاء التي ينبغي أن ننزه القرآن عنها<sup>(2)</sup>:

أ- علمُ الله مُطلقٌ، وعلمُ الإنسان محدودٌ: إنَّ علمَ الله هو العلمُ الشاملُ المحيطُ الذي لا يعترّيه خطأ ولا يشوبه نقصٌ، وعلمُ الإنسان محدودٌ، يقبل الازديادَ، ومُعَرَّضٌ للخطأ، وما يُعده اليوم حقيقةً يَنفيهِ في الغد، وأنَّ نُصوصَ الوحيِ قد نزلتْ بألفاظٍ جامعةٍ، تُحيطُ بكلِّ المعاني الصَّحيحة في مواضعها التي تتتابع في ظهورها جيلاً بعد جيلٍ، وأنَّ القرآنَ الكريمَ لا يَنجُه بالخطابِ إلى جيلٍ ومكانٍ مُعيَّنين، بل إلى البشريَّةِ كافَّةً في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إلى قيامِ السَّاعةِ، فينبغي عدمُ قَصْرِ دلالة آياته على حقيقةٍ واحدةٍ. والإشاراتِ الكونيةِ في القرآن الكريمِ قد صيغتْ صياغةً مُجملةً مُعجزةً، يفهم منها أهلُ كلِّ عصرٍ معنى من المعاني، يَتناسبُ مع ما توفَّر لهم من العلمِ بالكونِ ومكوّناته، وتظلُّ هذه المعاني تتسعُ باتِّساعِ دائرةِ المعرفةِ الإنسانيَّةِ باستمرارٍ في تكاملٍ لا يعرفُ التَّضادَّ.

ب- القرآنُ كتابٌ هدايةٌ وإعجازٌ: أن لا تَطْعَى تلك الأبحاثِ والدراساتِ الكونيةِ المتعلقة بالآياتِ الكونيةِ والاكتشافاتِ العلميَّةِ الحديثةِ، عن الهدفِ والعرضِ الأساسي للقرآنِ والمقصودِ الأسمى منه وهو الهدايةُ والإعجازُ. فالقرآنُ كتابٌ هدايةٌ وإرشادٌ وليس كتابٌ علومٍ وكونياتٍ.

ج- تَرْكُ التَّكْلِيفِ والتَّعَسُّفِ في تأويلِ الآياتِ: يَنبغي عَدَمُ الإسرافِ في التَّوفيقِ بين النَّصِّ الثَّراني وبين الاكتشافاتِ العلميَّةِ الحديثةِ إلى درجةِ التَّكْلِيفِ والتَّفَعُّلِ والتَّأويلِ وتحميلِ النُّصوصِ المتعلقة بالإعجازِ العلميِّ في القرآن الكريمِ ما لا تَحتملُ؛ لأنَّ الأصلَ فيها ظاهرُ اللَّفْظِ ولا يَعدِلُ عن ظاهرها إلاَّ بقريظةٍ قويَّةٍ. فلا نَبحُ عن دقائِقِ وخصائصِ الأمورِ الكونيةِ أو الإنسانيَّةِ أو الحيوانيَّةِ أو

(1) - ينظر: راشد سعيد شهوان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي. ص: 62-63.

(2) - ينظر: مصطفى مسلم: مباحث في إعجاز القرآن. ص: 171-175. والموسوعة القرآنية المتخصصة: إشراف وتقديم: محمود حمدي زقزوق. إعداد وتحرير: علي جمعة محمد وآخرون، دط، دت، ص: 698-699. وراشد سعيد شهوان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي. ص: 66-69.

النباتية، فنفضّل القول في ذلك، ونجعل تفاسير القرآن وكأنها كتبٌ لهذه العلوم البحتة المختصة، فلا نترك شاردة ولا واردة إلا ونرُطها بتفسير الآيات الكونية؛ لأن ذلك يُخرجنا عن حد الاعتدال في بذل الجهد في بيان مُراد الله من التفسير.

د- الحقيقة العلمية مناهة الاستدلال: لا بد أن يُفسر القرآن الكريم بالحقائق العلمية التي يعرف رجال العلم معناها وحدودها لا تبطل مع الزمن، ولكنها قد تزداد مع جهود العلماء المتابعة تفصيلاً وجلاءً. ويعد عن الساحة الفرضيات والنظريات العلمية التي لم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية.

هـ- استحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية: يستحيل التصادم بين الحقائق القرآنية وبين الحقائق العلمية لأتّهما من مشكاة واحدة. وينبغي أن يكون من المسلمات في أذهاننا أن الحقائق القرآنية المتعلقة بأيّ جانبٍ من جوانب الكون أو الإنسان والحيوان والنبات - إذا كانت قطعية الدلالة - لا يمكن أن تُصادمها حقيقة علمية توصل الجهد البشري إليها بناءً على جهود المختصين خلال التاريخ الحضاري للبشرية. وما يُثيره بعض الناس من توهم بوجود تناقض، فهو سوء فهم للحقيقة القرآنية والحقيقة العلمية معاً.

وينبغي أن نفهم في هذا المقام القواعد والأسس التالية<sup>(1)</sup>.

\* هناك نصوص من الوحي قطعية الدلالة، كما أن هناك حقائق علمية كونية قطعية.  
\* في الوحي نصوص ظنية في دلالتها، وفي العلم نظريات ظنية في ثبوتها.  
\* لا يمكن أن يقع صدام بين قطعي من الوحي وقطعي من العلم التجريبي، فإن وقع في الظاهر فلا بد أن هناك خللاً في اعتبار قطعية أحدهما، وهذه قاعدة جليّة قررها علماء المسلمين، وقد ألف غير واحد من العلماء كتباً تؤكد حتمية توافق العقل مع النقل.  
\* إذا وقع التعارض بين دلالة قطعية للنص، ونظرية علمية، رُفضت هذه النظرية، لأن النص وحي من الذي أحاط بكل شيء علماً، وإذا وقع التوافق بينهما كان النص دليلاً على صحة تلك النظرية. وإذا كان النص ظنياً، والحقيقة العلمية قطعية يُؤول النص بها، وحيث لا يوجد مجال للتوفيق فيقدم القطعي.

(1) - ينظر: محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الآفاق. ص: 24-25. وعبد المجيد الزنداني وسعاد يلدوم: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 25-26. وراشد سعيد شهوان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي. ص: 67.

ب- الشُّرُوطُ الْمَنْهَجِيَّةُ لِأَبْحَاثِ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ: قَبْلَ الْخَوْضِ فِي ذِكْرِ أُسُسٍ وَشُرُوطِ مَنْهَجِيَّةِ الْبَحْثِ

في الإعجاز العلمي للقرآن يجدر بنا أولاً التعريف بمصطلح "المنهجية" والفرق بينه وبين مصطلح "المنهج". فلنفظ "مَنْهَجِيَّةً" في معاجم اللغة العربية مصدر صناعي مِنْ مَنْهَجٍ/مَنْهَجٍ مُشْتَقٌّ مِنَ الْفِعْلِ: "نَهَجَ" و المنهج مُرادف للمِنْهَاجِ، ويُجمَعُ على مَنْاهِجٍ. والذي يَعْنِي الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ الْوَاضِحَ الْبَيِّنَ. وقد شرح ابن فارس المنهج بقوله: «النُّونُ وَالْهَاءُ وَالْجِيمُ أَصْلَانِ مُتَبَايِنَانِ: الْأَوَّلُ النَّهْجُ، الطَّرِيقُ. وَنَهَجَ لِي الْأَمْرُ: أَوْضَحَهُ. وَهُوَ مُسْتَقِيمُ الْمِنْهَاجِ. وَالْمَنْهَجُ: الطَّرِيقُ أَيْضًا، وَالْجَمْعُ الْمَنْاهِجُ. وَالْآخَرُ: الْانْقِطَاعُ. وَأَتَانَا فَلَانٌ يَنْهَجُ، إِذَا أَتَى مَبْهُورًا مُنْقَطِعَ النَّفْسِ، وَضَرَبَتْ فَلَانًا حَتَّى أَنْهَجَ، أَي: سَقَطَ» (1). جاء في لسان العرب: «نَهَجَ: طَرِيقٌ نَهَجٌ: بَيِّنٌ وَاضِحٌ وَهُوَ النَّهْجُ... وَطُرُقٌ نَهَجَةٌ وَسَبِيلٌ مَنْهَجٌ: كَنَهَجٍ وَمَنْهَجِ الطَّرِيقِ: وَضَحَهُ. وَالْمِنْهَاجُ: كَالْمَنْهَجِ. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48] وَأَنْهَجَ الطَّرِيقَ: وَضَحَ وَاسْتَبَانَ وَصَارَ نَهْجًا وَاضِحًا بَيِّنًا... وَالْمَنْهَاجُ: الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ. وَاسْتَنْهَجَ الطَّرِيقَ: صَارَ نَهْجًا. طَرِيقٌ نَاهِجَةٌ: أَي وَاضِحَةٌ بَيِّنَةٌ. وَنَهَجْتُ الطَّرِيقَ: أَبْنَيْتُهُ وَأَوْضَحْتُهُ» (2). ويقول الجوهري: «النَّهْجُ: الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ، وَكَذَلِكَ الْمَنْهَجُ وَالْمَنْهَاجُ، وَأَنْهَجَ الطَّرِيقَ، أَي اسْتَبَانَ وَصَارَ نَهْجًا وَاضِحًا بَيِّنًا» (3).

أَمَّا مَفْهُومُ الْمَنْهَجِيَّةِ اصْطِلَاحًا يَخْتَلِفُ عَنِ مَفْهُومِ الْمَنْهَجِ فَهِيَ غَيْرُ الْمَنْهَجِ بَلْ هِيَ أَعْمُ مِنْهُ، وَقَدْ عَرَفْنَاهَا عِنْدَ الْحَجَّارِ بِقَوْلِهِ: «الْمَنْهَجُ تَرْتِيبُ مَوْضُوعَاتٍ عَلَى وَفْقِ أَفْكَارٍ مُعَيَّنَةٍ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاضِحَةٍ لِلْوُصُولِ إِلَى نَتِيجَةٍ مُتَوَخَّاةٍ» (4). وَالْمَنْهَجِيَّةُ «هِيَ الْعِلْمُ الَّذِي يَدْرُسُ كَيْفِيَّةَ بِنَاءِ الْمَنْاهِجِ وَاخْتِبَارَهَا وَتَشْغِيلَهَا وَتَعْدِيلَهَا وَنَقْضُهَا وَإِعَادَةَ بِنَائِهَا، وَيَبْحَثُ فِي كُلِّيَّاتِهَا وَمُسَلِّمَاتِهَا وَأُطْرَافِهَا الْعَامَّةِ، فَهِيَ أَدْوَاتٌ لِلتَّفَكِيرِ وَالْجَمْعِ الْحَقَائِقِ» (5). وَعَرَفَتْ دَائِرَةُ الْمَعَارِفِ الْبَرِيطَانِيَّةِ الْمَنْهَجِيَّةَ بِأَنَّهَا «مُصْطَلَحٌ عَامٌّ لِمَخْتَلَفِ الْعَمَلِيَّاتِ الَّتِي يَنْهَضُ عَلَيْهَا أَيُّ عِلْمٍ وَيَسْتَعِينُ بِهَا فِي دِرَاسَةِ الظَّاهِرَةِ الْوَاقِعَةِ فِي مَجَالِ اخْتِصَاصِهِ» (6).

وهكذا فالمنهجية والمنهج حقيقتان متغايرتان إذ أنَّ المنهج أسلوبٌ يعتمدُهُ الْبَاحِثُ لِتَنْظِيمِ وَتَحْلِيلِ وَعَرْضِ الْأَفْكَارِ بُعْيَةَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَعْرِفَةِ، أَمَّا الْمَنْهَجِيَّةُ فَهِيَ أَعْمُ حَيْثُ تَشْمُلُ الْمَنْهَجَ وَطَرِيقَهُ

(1) - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة. 361/5. مادة "ن ه ج".

(2) - ابن منظور: لسان العرب. 383/2. مادة: "ن ه ج".

(3) - الجوهري إسماعيل بن حماد: الصحاح-تاج اللغة وصحاح العربية. 346/1. مادة: "ن ه ج".

(4) - عدي جواد علي الحجار: الأسس المنهجية في تفسير النص القرآني. العتبة الحسينية المقدسة، العراق، كربلاء. ط1، 1432هـ-2012م. ص: 22.

(5) - عدي جواد علي الحجار: الأسس المنهجية في تفسير النص القرآني. ص: 22.

(6) - موقع الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والإستراتيجية. <https://www.politics-dz.com>

البحث والدراسة وجمع الحقائق.

وتكمن أهمية المنهجية في كونها مقدمة ضرورية للتأسيس لأي علم، وأداة عمل وتسيير وتخطيط وتنظيم، وقضية رئيسية في بناء أي نسق معرفي، لأجل ضبط مسار الحركة الفكرية لإصابة الهدف الداعي للوصول إلى الاطمئنان العلمي<sup>(1)</sup>.

وإن المقصود بالمنهجية في هذا المقام هي تلك الطرق الإجرائية والشروط الأساسية التي لابد على الباحث عن حقائق الإعجاز العلمي وأوجهه ومجالاته في القرآن الكريم من مراعاتها وأخذها بعين الاعتبار من أجل أن يحقق الغاية دون مساس بمصداقية الوحي وقُدسيته. فبحوث الإعجاز العلمي يلزمها الانصاف بالمنهجية والموضوعية، لهذا فلا بد على الباحث في بحثه مراعاة الملامح الآتية<sup>(2)</sup>:

أ- جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع: ورد بعضها إلى بعض لتخرج بنتيجة صحيحة لا يعارضها شيء من تلك النصوص بل يؤيدها، فإن أي محاولة للتوفيق بين الاكتشافات العلمية الحديثة مرفوض إذا خالفت ما دل عليه القرآن في موضع آخر. وجمع القراءات الصحيحة المتعلقة بالموضوع إن وجدت، وكذلك روايات الحديث بألفاظها المختلفة. ثم معرفة ما يتعلق بالموضوع من سبب نزول أو نسخ، وهل يوجد شيء من ذلك أو لا.

ب- الاعتماد على المصادر المعتبرة: في ذلك دون غيرها كأمهات التفسير والحديث وكُتب غريب القرآن والسنة، مع الإشارة إلى جهود الدراسات السابقة إن وجدت. وعدم الاعتماد على الإسرائيليات أو الروايات الضعيفة.

ج- مراعاة التخصص العلمي: فلا يجوز لمن يكتب بحثاً في التفسير العلمي أن يكون كحاطب ليل يجمع معلوماته من هنا وهناك دون العودة لمصادر العلم ومراجعته. حتى لا يفقد البحث العلمي مصداقيته وبالتالي سيؤثر على مسار التفسير العلمي وناهيك عن تأثره بمصداقية الباحث.

د- بيان خطة التفسير: فينبغي أن يقدم البحث بخطة التفسير ومنهج العمل الذي يمشي عليه الباحث.

هـ- تحليل النصوص وشرحها: وذلك بمحاولة فهم النص الواقع تحت الدراسة على وفق فهم العرب إبان نزول الوحي وذلك لتغير دلالات الألفاظ حسب مرور الوقت، ولهذا يقتضي الأمر الإمام

(1) - ينظر: عدي جواد علي الحجار: الأسس المنهجية في تفسير النص القرآني. ص: 24.

(2) - ينظر: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه. ص: 30-35. ومرهف عبد الجبار سقا: التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم ضوابط وتطبيقات. ص: 193-194. وراشد سعيد شهوان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي. ص: 70-74.

بمسائل تُعِينُ على فهم النَّصِّ والتَّمَكُّن من تَقْدِيم مَعْنَى على آخَر، ومن تلك المسائل والقواعد المَتَّفِقِ عليها: أَلَّا يُخْرَجَ اللَّفْظُ من الحَقِيقَةِ إلى المَجَازِ إِلَّا بِقَرِينَةٍ كَافِيَةٍ. مُرَاعَاةُ السِّيَاقِ والسَّبَاقِ، ومِرَاعَاةُ قَاعِدَةِ: العِبْرَةُ بِعَمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ، ومَعْرِفَةُ مَعَانِي الحُرُوفِ وَأَوْجُهِ الإِعْرَابِ وَغَيْرَهَا من القَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ ودَلَالَاتِهَا والقَوَاعِدِ البَلَاغِيَّةِ وَخُصَائِصِهَا.

و- عَدَمُ تَحْمِيلِ النَّصِّ مَا لَا يَحْتَمِلُ: يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ البَّاحِثُ فِي هَذَا المَجَالِ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ صِدْقٌ وَحَقٌّ وَلَا يُمْكِنُ بِمَجَالٍ أَنْ يُخَالَفَ حَقِيقَةً عِلْمِيَّةً، لِأَنَّ مُنْزَلَ القُرْآنِ هُوَ الخَالِقُ العَالِمُ بِأَسْرَارِ الكَائِنَاتِ. وَمَعْرِفَةُ ذَلِكَ تَقْتَضِي مَنَّا التَّرْتِيثَ وَعَدَمَ تَحْمِيلِ النَّصِّ مَا لَا يَحْتَمِلُ من أَجْلِ أَنْ يُوَافِقَ مَا نَظَنُّهُ حَقِيقَةً.

ح- التَّثَبُّتُ وَالتَّحْقِيقُ: فِي كُلِّ خُطْوَةٍ من خُطُواتِ البَحْثِ، فيَجِبُ على البَّاحِثِ أَنْ يَلْتَزِمَ الدَّقَّةَ فِي بَحْثِهِ، وَالتَّثَبُّتَ من المَعْلُومَاتِ المَطْرُوحَةِ عَمَلًا بِقَاعِدَةِ البَحْثِ العِلْمِيِّ: "إِنْ كُنْتَ نَاقِلًا فَالصَّحَّةُ أَوْ مُدْعِيًا فَالدَّلِيلُ".

ط- تَحَرِّي الصِّدْقِ وَالمَوْضُوعِيَّةِ: على البَّاحِثِ أَنْ يَتَحَرَّى الصِّدْقَ وَالصَّوَابَ وَأَنْ يُخْلِصَ نِيَّتَهُ لِلَّهِ فِي تَبْيِينِ الحَقِّ لِلنَّاسِ من أَجْلِ هِدَايَتِهِمْ، وَأَنْ يَعْلَمَ خُطُورَةَ مَا يَتَنَاوَلُهُ وَيُعْبَرُ عَنْهُ، لِذَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَذَكَّرَ دَائِمًا قَوْلَهُ ﷺ: "مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بَعِيرٌ عِلْمٌ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ" [رواه الترمذي: 199/5 رقم 2950]. كَمَا يَنْبَغِي على البَّاحِثِ أَنْ يَتَّصِفَ كَذَلِكَ بِالصَّبْرِ مع تَوْفُرِ الكَفَاءَةِ العِلْمِيَّةِ المَكْتَسِبَةِ حَتَّى يُمَيِّزَ الحَقَّ من البَاطِلِ وَيَقْبَلَهُ وَيَلْتَزِمَ بِالمَوْضُوعِيَّةِ، وَمَعْنَاهَا هُنَا: حَضْرُ المَعْلُومَاتِ وَدِرَاسَتِهَا من غَيْرِ تَحِيُّزٍ لِفِكْرَةٍ أَوْ رَأْيٍ سَابِقٍ مع التَّعَيُّدِ بِالمَنْهَجِ العِلْمِيِّ فِي التَّوَثُّيقِ وَالاقتباسِ وَالإِحَالَاتِ.

ك- إِظْهَارُ وَجْهِ الإِعْجَازِ: فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ لَمْ يَبْقَ على البَّاحِثِ سِوَى أَنْ يُظَهِّرَ الرِّبْطَ بَيْنَ الحَقِيقَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالعِلْمِيَّةِ بِأَسْلُوبٍ وَاضِحٍ مُخْتَصِرٍ.

إِذَا فَهَدَهُ أَهْرُزُ وَأَهْمُ الضُّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ وَالشُّرُوطِ المَنْهَجِيَّةِ الَّتِي تَرشُدُ البَّاحِثِينَ لِضَبْطِ مَسِيرَةِ البَحْثِ فِي الإِعْجَازِ العِلْمِيِّ عِنْدَ المَعَالِجَةِ العِلْمِيَّةِ لِلآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ، وَتَدَهُمُ لِفَهْمِ كِتَابِ اللَّهِ فَهَمًّا صَحِيحًا، فَهِيَ عِبَارَةٌ عَن «مِرَاةٍ تَعَكِّسُ لَنَا مِقْدَارَ مَا يَجِبُ أَنْ يَتَحَلَّى بِهِ البَّاحِثُونَ فِي مِيدَانِ الإِعْجَازِ العِلْمِيِّ، فِي اسْتِطْلَاعِهِمْ لِلاكتشافاتِ العِلْمِيَّةِ الحَدِيثَةِ وَاسْتِنْبَاطِهِمْ وَاسْتِبْصَارِهِمْ لِلدَلَالَاتِهَا فِي القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَمَعْرِفَةُ أَوْجُهِ الإِعْجَازِ المَبْثُوتَةِ فِي مَوَاقِعِهَا، كَمَا تَعَكِّسُ لَنَا مِقْدَارَ مَا يَجِبُ على الدَّارِسِينَ من أَخْذِ الحَيْطَةِ فِي تَقْعِيدِ مَسَائِلِ الإِعْجَازِ، وَتَقْرِيرِ نَتَائِجِ البَحْثِ العِلْمِيِّ فِيهَا»<sup>(1)</sup>.

## 3/- أهداف أبحاث الإعجاز العلمي وأهميتها

لقد أدت أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن الكريم إلى تحقيق أهداف سامية وثمار يانعة. وفيما يأتي سنُجمل أهم أهداف هذه الأبحاث ودوافع الاهتمام بها، ثم أهميتها وفوائدها.

## 1/- دوافع الاهتمام بأبحاث الإعجاز العلمي وأهدافها

11/- مبررات الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي في القرآن: من دوافع ومبررات الاهتمام بقضية الإعجاز

العلمي في القرآن الكريم ما يأتي (1):

- إنَّ القرآن الكريم أنزل إلينا لِنفهمه، والآيات الكونية فيه لا يمكن فهمها فهمًا صحيحًا في إطار اللغة وحدها - على أهمية ذلك وضرورته - انطلاقًا من شمول الدلالة القرآنية، ومن كُليّة المعرفة التي لا تتجزأ.

- إنَّ الدعوة بالإعجاز العلمي هي الوسيلة المناسبة لأهل عصرنا - عصر العلم والتقنية -

وقد فتنَّ النَّاسُ فيه بالعلم ومُعطيَّاته فتنة كبيرة، ونَبَذَ أغلب أهل الأرض الدِّينَ وراء ظهرهم ونسوه، وأنكروا الخلق والخالق والبعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك من العيبيات؛ لأنَّ هذه الأصول قد شوَّهت في معتقداتهم تشويهًا كبيرًا ولم تعد مُقنعة لهم، وعلى ذلك فلم يبق أمام أهل عصرنا من وسيلة مُقنعة بالدِّين الإسلامي الحنيف قدر إقناع الإعجاز العلمي.

- إنَّ كلاً من الإسلام والمسلمين يتعرَّض اليوم لهجوم شرِّس في كافة وسائل الإعلام بغير حق.

والقائمون على تلك الوسائل من أعداء الدِّين، الذين يُنكرون سماوية الإسلام، وربانية القرآن الكريم، وثبوة خاتم المرسلين. وأهم الوسائل وأنجعها للردِّ على هذا الهجوم هو إثبات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم بالكلمة الطيبة والحجة الواضحة البالغة والمنطق السوي.

- إنَّ في إثارة قضية الإعجاز العلمي استنهاضاً لعقول المسلمين، واستثارة للتفكير الإبداعي

فيها، وتشجيعاً على استعادة الاهتمام بقضية العلوم والتقنية التي تخلَّفت فيها الأمة مؤخرًا تخلُّفًا كبيرًا. هذا بالإضافة إلى حاجة العلوم المكتسبة اليوم إلى التَّأصيل الإسلامي الدقيق إنصافاً لكل من العلم والدِّين.

- إنَّ القرآن الكريم نزل للنَّاس كافة: عَرَبهم وَعَجَمهم وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿بَلِّغُ لِلنَّاسِ

وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَنَحْدُ وَلِيَذْكُرُوا لَوْلَا الْأَلْبَابُ﴾ [إبراهيم: 52]. ومعنى الآية الكريمة أنَّ القرآن الكريم بلاغٌ لكلِّ النَّاسِ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ. وإذا كان جانب الإعجاز اللغوي مُيسراً للعرب كني

(1) - ينظر: زغلول راغب محمد النجاز: مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي. ص: 153-157.

يَفْهَمُوهُ، فَلَا بَدَّ وَأَنْ يَكُونَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنَ الْجَوَانِبِ الْأُخْرَى الْمَيَسَّرَةَ لِغَيْرِ الْعَرَبِ كِي يُؤْمِنُوا بِهِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:42].

2أ- /أه ذاف أبحاث الإعجاز العلمي: من الأهداف السامية التي تصبوا أبحاث الإعجاز العلمي للقرآن الكريم إلى تحقيقها ما يأتي (1):

- المحافظة على استمرارية معجزة القرآن الكريم بما يضمن دوام الحجّة على كلّ الناس في كلّ العصور، وذلك من خلال الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

- أن تزداد آيات القرآن الكريم الكونية وضوحاً على مرّ الزمان، وأن يكمل منها ما هو مجهول، وذلك من خلال الكشوف الكونية والمعارف العلمية.

- أن يظّل القرآن الكريم في قلب الثقافة الإنسانية، ومهمناً على منهاج الحياة، بما يعطيه من المعطيات العلمية المتجددة.

- إضافة دراسات جديدة إلى علوم القرآن تختص بالإعجاز العلمي فيه.

- استكشاف بعض جوانب الحكمة في الأوامر والنواهي التي وردت بالقرآن والسنة النبوية.

- تحقيق دفعة حضارية من خلال منهج البحث العلمي في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية.

- تصحيح الأخطاء التي صاحبت نظرة الإنسان المادية إلى ذاته، والاهتمام بدراسة أمراض

الحضارة المادية المترتبة على مخالفة الفطرة والخروج عن طاعة الله.

ب- /أهمية أبحاث الإعجاز العلمي وفوائدها:

ب1- /أهمية أبحاث الإعجاز العلمي (2):

- تجديد بينة الرسالة في عصر الكشوف العلمية: إذا كان المعاصرون لرسول الله ﷺ قد

شاهدوا بأعينهم كثيراً من المعجزات، فإن الله أرى أهل هذا العصر معجزة لرسوله تتناسب مع

عصرهم، ويتبين لهم بما أن القرآن حق، وتلك البينة هي بينة الإعجاز العلمي في القرآن

والسنة، وأهل عصرنا لا يدعون لشيء كإدعائهم للعلم، على اختلاف أجناسهم وأديانهم.

- تصحيح مسار العلم التجريبي: لقد جعل الله النظر في ملكوت السموات والأرض، الذي

(1) - ينظر: أحمد أبو الوفاء عبد الآخر: المعجزة الخالدة. ص: 202.

(2) - ينظر: محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الآفاق. ص: 29-30. وينظر: عبد المجيد الزنداني وآخرون: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 31-33.

تقوم عليه العلوم التجريبية طريقاً إلى الإيمان به، وطريقاً إلى الإيمان برسوله، وطريقاً إلى الإيمان بدينه الحق، الذي يدعو إلى العلم، والعلم يدعو إليه. وإنَّ بإمكان المسلمين أن يتقدموا لتصحيح مسار العلم في العالم، ووضعه في مكانه الصحيح، وجعله طريقاً إلى الإيمان بالله ورسوله، ومُصدّقاً لما في القرآن، ودليلاً على أحقية الإسلام.

- تنشيط المسلمين للاكتشافات الكونية، بدوافع إيمانية: إنَّ التّفكّر في مخلوقات الله عبادة من أجلّ العبادات، والتّفكّر في معاني الآيات عبادة من أرفع المستويات، وتقديمها للناس دعوة خالصة إلى الله، وهذا كله مُتحقّق في أبحاث الإعجاز العلمي في القرآن، وهذا من شأنه أن يُحفّز المسلمين إلى اكتشاف أسرار الكون، بدوافع إيمانية تعبّر بهم فترة التّخلّف التي عاشوها حِقبةً من الرّمن في هذه المجالات. وسيجد الباحثون المسلمون في كلام الخالق عن أسرار مخلوقاته أدلّة تُهدّهم في أثناء سيرهم في أبحاثهم، تُقرّب لهم النتائج، وتوفّر لهم الجهود.

## ب2- فوائذ وثمار أبحاث الإعجاز العلمي:

هناك فوائذ كثيرة لأبحاث الإعجاز العلمي في القرآن الكريم نذكر منها ما يأتي:

- التّوسّع في فهم القرآن الكريم: «لا شك أن استخدام المعلومات والمعارف العلمية في تفسير آيات القرآن الكريم سيُجعل معاني الآيات، خاصّة آيات القرآن الكونية أكثر وضوحاً، ورُبّما أكثر صواباً من تلك التّفاسير التي أكثرت من الاعتماد على الفهم المجازي وعلى صرف الآيات إلى أحداث يوم القيامة. وسيظلّ تفسير آيات القرآن كما هو، حسب النمط التقليدي، غير أنه سيضاف إليه التّفسير العلمي - أيّ تفسير الآيات على ضوء المعلومات العلمية - وبهذا تتسع دائرة فهم القرآن الكريم، كما تُدرك الحكمة من بعض التّعاليم والتّشريعات الواردة بالقرآن، ممّا يُضيف إلى القبول التّعبدية لها قبولاً عقلياً، ولا شك أن القبولين معاً أدعى للالتزام عن قُبول واحد»<sup>(1)</sup>.

- الأثر البالغ الذي تتركه في قلوب المسلمين: والذي يُترجم بزيادة اليقين عندهم لدى رؤيتهم هذه الحقائق الباهرة؛ لأنّها وردت على لسان النّبيّ الأميّ ﷺ وبزيادة إيمانهم بأنّ هذا الكتاب من عند الله، وامتلاء نفوسهم بعظمة الله ومكانة هذا الكتاب الذي احتوى على خواصّ الأشياء ودقائق المخلوقات حسب ما تصوّرها علوم الكون.

- أنّها تلزم المتشكّكين والطّاعنين في الأديان: ذلك أنّهم يدعون التّعارض بين الدّين والعلم، ويقولون إنّ الدّين لم يُثبته العلم بعد، ومن هنا يأتي الإعجاز العلمي في القرآن الكريم مُلزماً لهؤلاء وداحضاً شبههم. وتأتي بحوثه بالردّ العلمي الدّامغ على الأفكار التي تُشكّك في صحّة الرّسالة

المحمدية؛ حيث إنَّ عرضَ تلك الحقائق التي أخبر عنها نبيُّ أمِّي في زمنٍ يعمُّ الجهل بالعلوم البحتة، خاصةً في تلك الميادين الكونية؛ ولذلك فهذا الإعجاز يُعتبر مجالاً خصباً لإقناع المنصفين من العلماء برؤية القرآن الكريم، وصدق رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ.

- في إظهار الإعجاز العلمي للقرآن الكريم أسلوباً وطريقاً جديداً من طرق التبشير بالقرآن الكريم بين غير المسلمين واستمالتهم إلى الإسلام. هذا الطريق العلمي الذي يؤمنون به ويُكرهون ما عداه وبذلك يساهم أصحاب هذا الاتجاه في هداية الإنسانية الحائرة في الشرق والغرب والتي ما تزال تبحث عن مُرشدٍ تطمئنُّ إليه وتسلم له قيادتها وليس هناك سوى القرآن هادياً ومُرشداً. فالإعجاز العلمي هو اللغة التي تنقل إعجاز القرآن إلى جميع اللغات وقد ثبت هذا الأمر علمياً من خلال المؤتمرات العلمية التي عُقدت لمناقشة موضوع الإعجاز العلمي في القاهرة والسعودية، حيث بمرت كثيراً من العلماء الغربيين ممَّا سمعوه من الأبحاث العلمية التي قُدمت في هذه المؤتمرات والتي كشفت عن سبق القرآن في تقرير كثير من الحقائق العلمية التي وصل إليها العلماء الغربيون<sup>(1)</sup>.

- أمَّا السبب في إقبال الكثير من العلماء المعاصرين على الإسلام واقتناعهم به: « لإيمانهم بأنَّ هذه الحقائق العلمية التي لم يتوصل إليها الإنسان إلا مؤخرًا - لم تكن بالقطع متوقفة لبشرٍ في حياة سيدنا محمد ﷺ، أو قبل بعثته، أو بعدها، ولا لمئات السنين بعده... إنَّها الإشارات التي يسعى الناس وراء نُصوصها لتجليتها حقائقها وكشف دقائقها وبيان أسرارها، وتبقى النصوص مع ذلك خالدة عظيمة في ألفاظها وحروفها وجمالها وسياقها ومعانيها، بما فيها من حقائق مكنونة تتجلى للإنسان كلما ازدادَ علماً وممَّا فهمًا وارتقى وعياً»<sup>(2)</sup>.

وعليه فأبحاث الإعجاز العلمي في القرآن الكريم يمكنُ عدُّها من أهمِّ فُرُوض الكفايات بين المسلمين، لما لها من أهمية بالغة في فهم خطاب القرآن الكريم، وفي تقوية إيمان المؤمنين، ودعوة غير المسلمين إلى هذا الدين القويم، ودفع الفتن التي ألبسها الكفار ثوب العلم عن بلاد المسلمين، وفي حفز المسلمين إلى الأخذ بأسباب النهضة العلمية<sup>(3)</sup>، والتي سبقتها الإشارة القرآنية في قوله

تعالى: ﴿ سَتُرِيهِمْ عَيْنِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: 53].

(1) - ينظر: سعد الدين السيد صالح: المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم. ص: 177-179. وعبد الله المصلح: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 35-36.

(2) - كارم السيد غنيم: الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق. دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1415هـ-1990م، ص: 15.

(3) - ينظر: عبد المجيد الزنداني وآخرون: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 33.

## استنتاج:

ما يمكن أن نستخلصه ونستنتجه من محاور هذا الفصل ومضامينها ما يأتي:

\* أن القرآن أنزله الله سبحانه لكافة الخلق، عربيهم وأعجميهم، عالمهم وجاهلهم، فهو كتاب هداية وتشريع، ودستور جامع للحياة الإنسانية المثلى. وبما أن العلم هو اللُّغة المتداولة والمتعارف عليها في هذا العصر، لذا فلا بد أن يوجد في القرآن كل ما يتناسب مع حاله، وما يصلح دليلاً على إعجازه. وعلى ذلك كان الإعجاز العلمي لغة للتخاطب وسبيلاً للدعوة خاصة مع الذين لا يتقنون اللغة العربية ولا يفقهون بيانها وبلاغتها.

\* إذا كان الإعجاز البياني في القرآن إعجاز مقال، فإن الإعجاز العلمي في القرآن إعجاز حال؛ فخطاب القرآن معجز ليس بالبيان وحده، ولكنه معجز بآياته وبياناته وبراهينه وبصائره وسلطانه، ولسان حاله ولسان مقاله، وبكل وجوهه وصوره المتنوعة. والقرآن وإن لم يتعرض للإعجاز العلمي بلسان المقال، لأن من حكمة الله تعالى وبلاغة كتابه، أن يأتي خطابه مناسباً لما برع به قوم كل نبي في كل زمان، "مراعاة المقال لمقتضى الحال" كما يقول أهل البلاغة في تعريفها<sup>(1)</sup>.

\* أن استخراج وجه الإعجاز العلمي من النص، والتوفيق بين حقائق القرآن وآياته الكونية، وبين الاكتشافات العلمية الحديثة، له طرقه وقواعده، المتفق عليها بين العلماء، ولا يجوز أن تصدر عن غير المتخصصين، لأن ذلك يؤدي إلى التكلّف والتّغّل والتأويل للنصوص على غير مقاصدها الإيمانية والشّرعية، واهتزاز الثقة بالقرآن، وكتاب الله أجل من أن يكون حقلاً للعبث والتّجريب<sup>(2)</sup>.

\* أن الكشف عن جوانب الإعجاز العلمي في هذه الآيات ليس هو الغاية بحد ذاتها، بل هو وسيلة فعّالة لبلوغ غاية نبيلة، تتمثل في تثبيت العقيدة لدى المسلمين، وتجريد عقول ونفوس غير المسلمين من زيف المذاهب و زيف الأهواء.

\* أن بإظهار ما في كتاب الله تعالى من وجوه الإعجاز العلمي وبمراعاة ميادينه ومجالاته، تستمر إشراقات القرآن، ويستمر البناء العلمي والعطاء القرآني ويتم الانسجام والتناغم والتوافق بين الآيات القرآنية والحقائق الكونية، وبين كتاب الله المسطور وكتابه المنظور، وتنشأ البحوث والدراسات، وتوجد العقليات العلمية التي تبني الأمم وتقيم الحضارات<sup>(3)</sup>.

(1) - ينظر: راشد سعيد شهوان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي. ص: 56.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 76.

(3) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 34.

## الفصل الثاني:

### مبالات دراسة السياق قديماً ومديناً

يقول جون فيرث:

«إنَّ الافتراض الأساس... أنَّ كلَّ نصٍّ يعتبر مكوناً من مكونات سياق ظُرف معيَّن».

جون لانز: اللغة والمعنى والسياق. ترجمة عباس صادق الوهاب، مراجعة: ديوييل عزيز، دار الشروق الثقافية العامة، العراق، بغداد، ط1، 1987م.

يقول إقبال علوي:

«إذا كان التَّركيبُ يُوجد داخل النَّصِّ، فإنَّ الدَّلالة تُوجد داخل المَسيق».

إقبال علوي: دور السياق في التَّرجيح بين الأقاويل التفسيرية، مراجعة منهجية. مجلة روافد، الكويت، ط1، 2007م.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال:

«إنَّك لن تفقه كلَّ الفقه حتَّى ترى للقرآن وجوها كثيرة».

محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري: الطبقات الكبرى. تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1988م.

## تكملة:

اللغة خاصية إنسانية وأهم ميزة ينفرد بها الإنسان عن غيره من الكائنات الحية، وهي في أوجز وأبسط تعريفاتها: « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » (1)؛ أي أمها - اللغة - في حقيقتها رموز صوتية بحيث تدل هذه الأخيرة على معانٍ، في ظلّ اتّفاقات اجتماعية مختلفة، ونظام لسانيّ معيّن، وبذلك استطاع الإنسان وهو يعبر بهذه الرموز عن حاجاته وأغراضه أن يغطّي مجالات خبراته ومعارفه بمجرد الرّبط بين الصّورة السّمعية signifiant (الدال) والصّورة الدّهنية signifié (المدلول) لتحقيق الدّلالة (\*) signification. (2)

فهدف اللغة هو الإبلاغ والتبليغ والفهم والإفهام والبيان والتبيين وذلك من خلال عملية التّواصل اللّغوي التي تقوم عادة بين طرفين؛ الأول: المتكلّم الذي يرسل الرّسالة بنقل أفكاره وما يجول بخاطره للتّاني: المتلقّي الذي يقوم بعملية تحليل وتفسير وفهم للرّسالة، ومُحيط كلامي يضمّ الأحداث اللّغوية و« كل ذلك يؤثّر في اللغة لذا قالوا إنّ اللغة ظاهرة اجتماعية بينها وبين المجتمع تأثير متبادل فوجب أن تُدرس وتبنى أسسها على وفق مُحيطها بين متكلّمها وسامعها، وأن تُراعى الطّروف الخارجيّة التي تُحيط بها، فقد وجد الدّارسون المحدثون أنّ الكلمة لا معنى لها خارج سياقها الذي وردت فيه وهي ليست شيئاً مجرداً عن الواقع الذي توجد فيه بل إنّ وظيفتها هي التّفاعل مع

(1) - ابن جني: الخصائص. 33/1.

(\*) - الدلالة في اللغة: مصدر من الفعل دلّ - أي دلّ يدلّ دلالة - وتتنطق بفتح الدال أو كسرهما، والجمع أدلّة وأدلاء . جاء في لسان العرب مادة ( د ل ل ) معناها " دلّه على الشيء يدلّه دلالة فاندل: سدّه إليه... وقد دلّه على الطريق يدلّه دلالة ودلالة والفتح أعلى... فالدلالة إذا هي التّسديد والتّوجيه والإرشاد إلى الشّيء. ينظر: ابن منظور: لسان العرب. 291/5، مادة ( د ل ل ).

أما الدّالة في الاصطلاح فقد عزّفها الشّريف الجرجاني بقوله: "هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء

آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول". الشّريف الجرجاني: التّعريفات. ص: 86.

أي أنّ الدّالة هي ما توجب العلم بشيء (المدلول) بسبب العلم بشيء ملازم له وهو (الدال)؛ ونحو ذلك رؤيتك للدخان في السّماء من وراء قمة، والدخان (الدال) دليل على النار (المدلول)، والدّالة إيجاب العلم بالنّار بسبب العلم بشيء ملازم له وهو الدخان. ومثال آخر استماعك لصوت الجرس يدق؛ الدال=صوت الجرس/المدلول=وجود شخص بالباب/الدلالة=علمك بالشخص بالباب/المدلول) لإدراكك صوت الجرس (الدال). فالدلالة (اللغوية) إذا هي تضافر الدال (اللفظ) بالمدلول (المعنى).

(2) - ينظر: خليفة بوجادي: محاضرات في علم الدلالة مع نصوص وتطبيقات . بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العتبة، الجزائر، ط1، 2009، ص: 22.

هذا الواقع»<sup>(1)</sup>، هذا من جهة ومن جهة أخرى لما كان نظام اللغة مُتشابك العلاقات بين وحداته، ومفتوحاً دوماً على التَّجديد والتَّغيير في بنياته المعجمية والتركيبيَّة عداً تحديداً دلالة الكلمة يحتاج إلى مجموع السِّياقات التي تردُّ فيها<sup>(2)</sup>.

ومن هنا ظهر الاهتمام بالسِّياق (context) في ضوء الدِّراسات اللُّغوية الحديثة، كأداة تستند عليها اللغة لتحقيق هدفها الأسمى وهو التَّواصل<sup>(\*)</sup>، وكذا « بمثابة العنصر الفاعل في توضيح الكلام، بل في صحته والوصول به إلى درجة القبول في مبناه ومعناه. ومعنى ذلك أنَّ عدم الاهتمام به وأخذه في الحسبان، قد يميل الكلام إلى مجرد ضوضاء تُلقى في الهواء»<sup>(3)</sup>.

لذا يمكن أن نعتبر المثال الدَّائع الصَّيت في اللُّسانيات: « (الأفكار الخضراء العديمة اللون تنام بتَهْيُج) نموذجاً دالاً على افتقار الجملة بل المفردات ذاتها إلى المعنى، نظراً لافتقارهما كليهما إلى سياق

(1) - أسعد خلف العوادي: سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة. دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 1432هـ/2011م، ص:13.

(2) - ينظر: حكيمة جبي: السِّياق التداولي في كلبلة ودمنة لابن المقفع. مذكرة ماجستير في السميائيات وتحليل الخطاب، لغة وأدب عربي. جامعة ميلودي معمري، تيزي وزو - الجزائر، ص: 15.

(\*) - يستند التَّواصل اللُّساني حسب رومان جاكبسون (Roman Jakobson) إلى ستة عناصر أساسية لا يمكن أن يستغني عنها التَّواصل اللفظي وهي ممثلة في المخطط التالي:

- 1- السياق  
2 - المرسل.....3- الرسالة.....4- المستقبل  
5- قناة التَّواصل  
6- شفرة التَّواصل

Voire : R. Jakobson: Essais de linguistique générale. les éditions de minuit, Paris, 1963, p : 214

وينظر: الطاهر بومزير: التَّواصل اللُّساني والشعرية- مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون . الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت لبنان ومنشورات الاختلاف الجزائر العاصمة - الجزائر (ط1)، 1428 هـ / 2008م، ص 33- 34.

وقد اجتهد عبد الجليل مرتاض و أسقط هذه الترسيمية الجاكبسونية على عملية التبليغ في القر أن الكريم بالشكل

التالي:

المرسل	_____	الله جل جلاله
المرسل إليه	_____	محمد صلى الله عليه و سلم
السِّياق	_____	أسباب النزول
الرسالة	_____	القرآن نفسه
القناة أو الاتصال	_____	الوحي (جبريل عليه..)
المواضعة	_____	اللسان العربي

ينظر: عبد الجليل مرتاض: علم اللسان الحديث في القرآن. ص 56 - 57.

(3) - كمال بشر: التفكير اللُّغوي بين القديم والجديد. دار غريب، القاهرة، دط، 2005 م، ص 367-368.

يشرح التناقض الدلالي في الصفات (الخضراء - العديمة اللون)، والتراكيب الاستعاري (في الأفكار تنام بتهيج) «<sup>(1)</sup> فهنا في هذه الحالة إذ تتعطل الاختصاصات الوظيفية يظل أمر الدلالة الكلية مرهوناً بثلاث خطوات<sup>(2)</sup> :

- أ- اكتشاف القواعد النحوية العميقة على ضوء الأبنية السطحية للتوزيع الصوتي للجملة .  
 ب- قدرة العناصر المعجمية على إقامة مستوى من العلاقات فيما بينها على أساس دور علاقات الغياب في تفسير علاقات الحضور.  
 ج- اكتشاف السياق ليس كامتداد خطي، أو مجرد محيط لغوي، ولكن كفاعلية بنائية أو نصية. وتتوقف كل من التقطتين السابقتين وتحققهما على هذه الفاعلية.

وبما أن العلامة اللغوية « تتمتع بقدرة فائقة على توفيق أوضاعها الداخلية حسب التركيب الداخلة فيه، وكذا حسب متطلبات سياق ورودها، فهذا هو الدال تنوع مداليه إلى حد التضاد في المشترك اللفظي (polysemy)، وهذا هو المدلول يمتلك عدة دوال متنوعة كما في الترادف (synonymy) وإذا كان الحال هكذا في النظام اللغوي نفسه، فبالإمكان تصوّر مقدار الحرية المتاحة للتنفيذ الفردي للغة، خاصة حين يكون إبداعيا، وهذه الحرية التقويضية التي هي للتنفيذ اللغوي الفردي دفعت اللغويين، وخاصة علماء الدلالة، إلى الاهتمام أكثر فأكثر بسياقات الكلام، والسياق اللغوي على وجه التحديد، فيما عُرف بالنظرية السياقية (contextual theory) «<sup>(3)</sup> التي تمثل بؤرة علم الدلالة حيث إن الاهتمام بالسياق والبحث فيه والتنظير له كأداة إجرائية في الدرس اللساني الحديث هو وليد علم الدلالة اللغوي (la sémantique linguistique).

وهو علمٌ حديث النشأة<sup>(\*)</sup> في الغرب بالمقارنة مع باقي مستويات الدرس اللساني الأخرى

(1) - محمد فكري الجزار: لسانيات الاختلاف. الهيئة العامة لقصور الثقافة، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، سبتمبر 1995م، كتابات نقدية شهرية (43) \_ سور الأزيكية. ص: 149.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 150.

(3) - المرجع نفسه. ص: 148.

(\*)- يعتبر علم الدلالة علم حديث النشأة؛ " فقد ظهر الاهتمام بالدراسات الدلالية في أور وبا الغربية بادئ ذي بدء في المحاضرات التي كان يلقيها ريسيج (C.Reisig) في هال (Halle) حوالي 1825 م، في حديثه عن الفيلولوجيا اللاتينية. أما أول من استعمل مصطلح علم الدلالة (sémantique) فهو اللساني الفرنسي ميشال بريال (Michel Bréal) وذلك في مقاله الصادر عام 1883م، ثم ما لبث أن فصل القول في مسائل المعنى في كتابه الموسوم ب: محاولة في علم الدلالة : (Essai de sémantique) وذلك سنة 1897 م . ينظر: أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور . ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون- الجزائر، (ط4)، 2008م، ص 239.

كالأصوات والمعجم والتراكيب إذ لم يستطع فرض نفسه إلا في السنوات الأخيرة حيث تبين عدم إمكانية باقي المستويات الأخرى الاستغناء عنه<sup>(1)</sup> ويعتبه (محمود السعران) بأنه: « غاية الدراسات الصوتية والفونولوجية والنحوية والقاموسية، إنه قمة هذه الدراسات»<sup>(2)</sup>.

كما « يُعرّفه بعضهم بأنه (دراسة المعنى)، أو ( العلم الذي يدرس المعنى ) أو (ذاك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى ) أو ( ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توفرها في الرمز حتى يكون قادراً على حمل المعنى)»<sup>(3)</sup>.

وقد كان علم الدلالة في أول أمره يقتصر اهتمامه على دراسة معنى الكلمات من خلال ما يحدث من تطوّر دلالي عبر تاريخها الطويل، وما يعتري صورتها من تحولات ناجمة عن الاشتقاق والتوليد وغيرها من المظاهر اللغوية، غير أنّ المتأخرين من الباحثين في هذا الحقل اللغوي ارتأوا توسيع مجاله ليشمل دراسة معاني الجمل والتراكيب، لأنّ الكلمات باعتبارها زموراً صوتية مثيرة لأشياء غير ذواتها لا تُحدث دلالة كاملة إلا من خلال السياقات التي ترد فيها<sup>(4)</sup>. « فإذا كان علم الدلالة يعني دراسة المعنى، فإنّ هذا المعنى لا تبرزه إلا الكلمة، ولا حياة للكلمة إلا في إطار سياق يحويها، سواء كان هذا السياق مكتوباً مقروءاً، أو منطوقاً مسموعاً»<sup>(5)</sup>.

ومن هنا جاء الاهتمام بالسياق في الدرس الدلالي الحديث « باعتباره أداة إجرائية تلعب دوراً مركزياً في تحديد المعنى، إذ يكاد يتفق معظم الدلالين أنّ للكلمة معنى قاعدياً (sens de base) ومعنى سياقياً (sens contextuel) وبذلك يظهر أنّ أيّ اقتراب من قضية المعنى بحث على معرفة السياق»<sup>(6)</sup>.

وقد أشاد كثير من الدارسين بالنظرية السياقية، إذ عدوها التصور الأساسي لعلم الدلالة، فقد قال عبده التراجحي إنّها: « نظرية تستحق شيئاً من الحديث المفصّل لأنّها تمثل الآن ركناً من أركان الدرس اللغوي، والمعروف أنّ هذه النظرية تنتسب إلى مدرسة لندن اللغوية، وبخاصة إلى

(1) - ينظر: علي آيت أوشان: السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة. دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1421هـ/ 2000 م، ص15.

(2) - محمود السعران: علم اللغة، مقدمة للفاروق العربي. دار النهضة العربية، بيروت، (دت)، (دط)، ص: 261.

(3) - أحمد مختار عمر: علم الدلالة. عالم الكتب، القاهرة، (ط5)، 1998م، ص: 11.

(4) - ينظر بيار جيرو: علم الدلالة. ترجمة منذر عياشي، دار طلاس، سورية، 1988 (ط1)، ص: 20.

(5) - فتح الله أحمد سليمان: مدخل إلى علم الدلالة. مكتبة الآداب - القاهرة، (ط1)، 1412 هـ - 1991 م، ص: 8.

(6) - علي آيت أوشان: السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة. ص: 15.

الأستاذ فيرث، وهي تمثل أساس نظريته في المعنى وجزءاً مهماً من النظرية اللغوية في بريطانيا»<sup>(1)</sup>.

وإذا كانت «الدراسات اللغوية الحديثة قد أعطت قضية السياق أبعاداً كثيرة وبواته مكانة كبرى وسط النظريات والمناهج التي جعلت اللغة موضوعاً لها. كان ذلك في البداية على يد اللغويين، ثم جاء أصحاب النقد والأدب فاثروا الموضوع واستفادوا من النتائج اللغوية التي توصل إليها اللغويون في هذا المجال»<sup>(2)</sup>. فهذا لا يعني أن فكرة السياق من اكتشافات العصر وأنه أمر جديد كل الجدة في الدراسات اللسانية الحديثة بل إن النظر والبحث فيه والتطبيق له قدم قدم العلوم اللغوية ذلك لأن: «الهدف الأساسي أو المحصلة النهائية من أي دراسة لكل فرع من فروع اللغة هو الوقوف على المعنى، وذلك لأن المعنى هو الوسيلة الرئيسية في عملية التبليغ والتواصل»<sup>(3)</sup>.

من ذلك كانت «إشكالية تحديد المعنى من بين أهم المواضيع التي خاض فيها الدارسون اللغويون، هذا ما جعلهم يبحثون في الكشف عن الآليات التي بإمكانهم استعمالها للوصول إلى الفهم الجيد للمعنى الذي يحمله أي نص أدبي، فانطلقوا أولاً من المعجم وأقروا على أن القاموس لا يستطيع أن يحصر جميع السياقات التي تقع قبلها كل كلمة»<sup>(4)</sup>.

فكانت قضية السياق من ألقى القضايا باللغة والدلالة قديماً وحديثاً شرقاً وغرباً. حيث نجد أن التراث العربي بمختلف جوانبه وعلومه «حافل بمسائل السياق وقضاياها، ليس في مباحث المشترك اللفظي فحسب بل في كثير من المباحث التي تتعلق بالسياق اللغوي وجوانب أخرى كثيرة تشمل سياق الحال أو المقال بعناصره المختلفة، وفي مقدمتها طرفا الخطاب (المخاطب والمخاطب) وظروف الخطاب وملابساته المختلفة، وهذه العناصر الأخيرة كانت محور عمل البلاغيين من خلال ما عرف لديهم بالمقام، وكذلك النحاة الذين نصّبوا على وجوب الرجوع إلى مقام الكلام لتأويل الخطاب، لاسيما في تقدير المحذوف والإعراب»<sup>(5)</sup> وفي المقابل نجد أن المفسرين توجّوا كل هذه الأعمال وتبلورت عندهم حين طبّقوها على النصّ القرآني.

(1)- عبده الراجحي: فصول في علم اللغة. دار المعرفة الجامعية، 1998 م، ص337. وينظر: حسين محمد زغوط: المفاهيم النظرية لسياق الحال ومكوناته عند محمد الطاهر بن عاشور. مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 38، العدد 1، 2011م، ص: 165.

(2) - مسعود بودوخة: السياق والدلالة. بيت الحكمة، العلمة - الجزائر، (ط1)، 2012م، ص: 7.

(3) - نصر الدين بن زروق: دروس ومحاضرات في اللسانيات العامة. مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، (ط1)، 2011م ص: 102.

(4) - حكيمة حبي: السياق التداولي في كلبلة ودمنة لابن المقفع، ص: 15.

(5) - مسعود بودوخة: السياق والدلالة. ص 9.

فلسيّاك أهميّة كبيرة في النصّ القرآني « الذي يتركز رأساً على اللّغة، بما هي علاقات بين عناصر منتظمة، ممّا يُحقّق مُناسبة أو مُفارقة في المعنى، ويعتمد في هذا السّيّاق على الطّروف الحسيّة والنّفسيّة المحيطة بالنّصّ، وكذا المحيط الاجتماعي بما فيه من عادات وتقاليد، ممّا يؤكّد ضرورة المعرفة التّامة بأسباب التّزول، وأخبار العرب وحياتهم العقليّة والرّوحيّة والاجتماعية بصفة عامّة وهكذا، تمتدّ قرينة السّيّاق على مساحة واسعة تبدأ باللّغة وتنتهي بهذه القرائن المتعدّدة»<sup>(1)</sup>.

كما يُعتبر السّيّاق أيضاً وسيلة من وسائل إبراز وجه من وجوه الإعجاز اللّغوي للقرآن<sup>(2)</sup> فهو الميزان الذي ينضبط به التّوافق بين النصّ الشّرعي ومراده، والنّور الذي يمزّق غشاوة الإشكال عن الدّليل حين تكتنفه الاحتمالات، فيخرج من حيز العُموض إلى حيز التّجلي؛ إنّه إذا أداة مثلى للفحص عن المعاني، والتّرجيح بين الوجوه، وبناء الدّلالات، ومنع التّأويلات البعيدة<sup>(3)</sup>. وهذا ما سنكشف عنه حين نتبّع المسار السّيّاقى له - أي للسّيّاق - ولاسيما في الدّراسات العربيّة العريقة باختلافها وتنوعها، وكذا تطبيقاته الإجرائية على النصّ القرآني.

وقبل الخوض في كنه النّظرية السّيّاقية والبّحث في تطوّرها ومجالاتها، وأصولها وجذورها في التّراث العربيّ وعلومه المختلفة كالبلاغة والنّحو وعلوم القرآن والتّفسير وعلم أصول الفقه، كان ولا بدّ أن نعرّج و نلجّ المفهومين اللّغوي والاصطلاحي للفظ "السّيّاق" في المعجم والاصطلاح العربيّ والغربي وأهميته والفرق بينه وبين المصطلحات القريبة منه.

(1)- نعمان بوقرة: النظرية اللسانية عند ابن حزم الأندلسي قراءة نقدية في مرجعيات الخطاب اللساني. من منشورات

اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004 م، (دط)، ص49.

(2)- ينظر: حسام أحمد فرج: نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النصّ النثري. تقديم سلمان العطار ومحمود فهمي الحجازي. مكتبة الآداب، القاهرة ط2، 1430 هـ / 2009 م، ص: 22.

(3)- ينظر: قطب الريسوني: النصّ القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبير، مدخل إلى نقد القراءات وتأسيس علم التدبير القرآني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 1431 هـ / 2010 م، ص 83.

## المبحث الأول: مفهوم السباق في المعجم والاصطلاح وأهميته

لقد نال السباق رواجاً كبيراً واهتماماً بالغاً ودارت مناقشات طويلة في مفهومه من لدن العلماء باختلاف مشاربهم وتوجهاتهم - لعلاقته بالمعنى وتوجيهه للدلالة بالإضافة إلى كونه يُجسّد خاصية من أبرز خواص اللغة وهي كونها ظاهرة اجتماعية -، وقد ظهر ذلك جلياً في المعاجم العربية والغربية، قديمها وحديثها، العامة منها والمتخصصة، إذ لا نكاد نجد معجماً من هذه المعاجم اللغوية إلا وتطرّق لتعريف السباق.

ولرصد واستنطاق مفهوم السباق؛ كان لابد لنا العودة إلى هذه المعاجم والبحث في طياتها عن معاني هذه اللفظة من الناحية المعجمية اللغوية، لنعرّج بذلك إلى الدلالة الاصطلاحية له، وبالتالي نحاول أن نصل إلى الصورة الكاملة لهذا المصطلح.

### المطلب الأول: السباق في المعجم والاصطلاح العربي والغربي

#### 1/- السباق في المعجم والاصطلاح العربي

##### أ) - تعريفة السباق في المعجم العربي

##### \*- السباق في المعاجم العربية العامة

- السباق في المعاجم القديمة: السباق من الجذر اللغوي: ( س و ق ) وهي مصدر من الفعل: ( ساق ) « سَاقَ الإِبِلَ وَغَيْرَهَا يَسُوقُهَا سَوْقًا وَسِيقًا، فَهُوَ سَائِقٌ وَسَوَاقٌ، شَدَدَ لِلْمَبَالِغَةِ »<sup>(1)</sup>. وأصل السباق: سَوَاقٌ ثم أُبدلت الواو ياء لمناسبة كسرة ما قبلها<sup>(2)</sup>. والجمع: سُوقٌ وَسِيقَانٌ وَأَسْوَقٌ وَسُووقٌ وَأَسْوُوقٌ وَسُوُوقٌ هَمَزت الواو لتحمل الضمة<sup>(3)</sup>.

قال ابن فارس في (معجم مقاييس اللغة): « (سوق) : السّين والواو والقاف أصلٌ واحد، وهو حدو الشّيء. يقال سَاقَهُ يَسُوقُهُ سَوْقًا، والسّيقة: ما استيق من الدّواب. ويقال سُتُّتُ إلى امرأتي صداقها، وأسقته. والسُّوقُ مُشتَقَّةٌ من هذا لما يساق إليها من كلّ شيء، والجمع أسواق، والسّاق

(1) - ابن منظور: لسان العرب. 11 / 166، مادة: (س و ق).

(2) - ينظر: المصدر نفسه. ص: 167.

(3) - ينظر: الفيروزبادي: القاموس المحيط. ص 655، مادة: (س و ق). وينظر: ابن سيده (أبو الحسن علي بن إسماعيل) : المخصص. دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 52/2، مادة: (س و ق).

للإنسان وغيره، والجمع سوق، إنما سميت بذلك لأنّ الماشي ينساق عليها»<sup>(1)</sup>.

من معاني السّيق عند العرب ما أورده ابن منظور في معجمه (لسان العرب): «وقد انسأقت وتساوقت الإبل تساوقاً إذا تتابعت، وكذلك تقاودت فهي مُتقاودة ومُتساوقة... والمساوقة المتابعة كأنّ بعضها يسوق بعضها... وساق فلان من امرأته أي أعطاهها مهراً، والسّيق: المهر...؛ قيل للمهر سوق لأنّ العرب كانوا إذا تزوجوا ساقوا الإبل والعنم مهراً لأنّها كانت الغالب على أموالهم. وساق بنفسه سيّاقاً: نزع بها عند الموت، تقول: رأيتُ فلاناً يسوق سووقاً أي ينزع نزعاً عند الموت، يعني الموت؛ تقول هو يسوق نفسه ويفيظ نفسه وقد فأظت نفسه وفاظه الله نفسه. ويقال فلان في السّيق أي في النزع... والسّيق: نزع الرّوح. وفي الحديث: دخل سعيد على عثمان وهو في السّوق أي النزع كأنّ روحه تُساق لتخرج من بدنه»<sup>(2)</sup>.

وجاء في (معجم الصحاح) للجوهري مادة (س و ق): «السّاق: ساق القدم... ويقال: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحد، أي بعضهم على اثر بعض، ليس بينهم جارية. وساق الشجرة جذعها... وسوق الحرب حومة القتال، وتسوق القوم إذا باعوا واشتروا...»<sup>(3)</sup>.

وقد تطرّق الزمخشري في (أساس البلاغة) إلى الاستخدام المجازي لمادّة (س و ق) في قوله: «ومن المجاز: ساق الله إليه خيراً. وساق إليها المهر. وساقّت الرّيح السّحاب. وأردت هذه الدار بثمن فساقها الله إليك بلا ثمن... وهو يسوق الحديث أحسن سيق، وإليك يسّاق الحديث. وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقيه: على سرده... والمرء سيقه القدر: يسوقه إلى ما قدر له لا يعدّوه؛ قال: (من الطويل)

وَمَا النَّاسُ فِي سَيِّئٍ مِنَ الدَّهْرِ وَالْمُتَى \* \* وَمَا النَّاسُ إِلَّا سَيِّقَاتُ الْمَقَادِرِ»<sup>(4)</sup>.

الملاحظ أنّ هذه المادّة في المعاجم العربيّة القديمة تحمل عدّة دلالات منها دلالات ماديّة: كالمهر والموت أو نزع الرّوح عند الموت، وكذا دلالات معنويّة: كالحدو والتّتابع والتّقاود.

(1)- ابن فارس: معجم مقاييس اللغة. 3 / 17 ، مادة: (س و ق).

(2)- ابن منظور: لسان العرب . 10 / 166-167 ، مادة: (س و ق).

(3)- الجوهري: الصحاح - تاج اللغة وصحاح العربية. ص: 1498-1499 ، مادة: (س و ق).

(4)- الزمخشري: أساس البلاغة. ص: 375، مادّة: (س و ق).

ودلالات مجازية كسياق القدر؛ مآل ومصير الإنسان، وسباق الكلام؛ سرد الحديث وتتابعه وتسلسله.

- **السِّيَاق فِي الْمَعَايِمِ الْحَدِيثِيَّةِ:** جاء في (المعجم الوسيط): « يُقَال: سَاقَ اللهُ إِلَيْهِ خَيْرًا

ونحوه: بَعَثَهُ وَأَرْسَلَهُ وَسَاقَتِ الرِّيحُ التُّرَابَ وَالسَّحَابُ: رَفَعَتْهُ وَطَيَّرَتْهُ. وَسَاقَ الْحَدِيثَ، سَرَدَهُ وَسَلَّسَلَهُ، وَإِلَيْكَ سِيَاقُ الْحَدِيثِ: يُوجِّهُ، وَسَاقَ الْمَهْرَ إِلَى الْمَرْأَةِ: أَرْسَلَهُ وَحَمَلَهُ إِلَيْهَا... تَسَاوَقَتِ الْمَاشِيَّةُ وَنَحَوَهَا: تَتَابَعَتْ وَتَرَاحَمَتْ فِي السَّيْرِ... وَيُقَالُ بَنَى الْقَوْمُ بُيُوتَهُمْ عَلَى سَاقٍ وَاحِدَةٍ: عَلَى صَفٍّ وَاحِدٍ، وَوَلَدَتِ الْمَرْأَةُ ثَلَاثَةَ ذُكُورٍ عَلَى سَاقٍ وَاحِدَةٍ، وَسَاقَ عَلَى سَاقٍ: بَعْضُهُمْ عَلَى آثَرِ بَعْضٍ لَيْسَ بَيْنَهُمْ أَنْثَى»<sup>(1)</sup>.

وفي (معجم متن اللغة) مادة (س و ق): «سَيَاقًا وَسَوَاقًا وَسُوَاقًا الْمَرِيضُ: أَخَذَ فِي التَّرْعِ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَسَاقَ الْحَدِيثَ: أَحْسَنَ سِيَاقَهُ... سَاوَقَهَا فَتَسَاوَقَتْ وَانْسَاقَتْ: تَابَعَهَا فَتَتَابَعَتْ وَانْقَادَتْ... وَالسِّيَاقُ: الْمَهْرُ إِنْ كَانَ فِضَّةً أَوْ ذَهَبًا، نِزَاعُ الْمُحْتَضِرِ»<sup>(2)</sup>.

أما (المنجد في اللغة) فعرف السِّيَاقَ بما يأتي: «يقال: سَاقَ مَسَاقَ غَيْرِهِ، وَسَاقَ الْحَدِيثَ: سَرَدَهُ، وَسَاقَ إِلَيْهِ الْمَالَ أَرْسَلَهُ... تَسَوَّقَ بَاعَ وَاشْتَرَى، تَسَاوَقَتِ الْمَاشِيَّةُ؛ تَتَابَعَتْ... السِّيَاقُ: مَهْرُ الْمَرْأَةِ قِيلَ لَهُ ذَلِكَ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إِذَا تَزَوَّجُوا سَاقُوا الْإِبِلَ وَالْغَنَمَ مَهْرًا. سِيَاقُ الْكَلَامِ: أُسْلُوبُهُ وَجَرَاهُ. يُقَالُ: وَقَعَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ؛ أَي مُدْرَجَةٌ فِيهِ»<sup>(3)</sup>.

وفي (معجم اللغة العربية المعاصرة) نجد أن لمادة (س و ق) مَعَانٍ عِدَّةٌ؛ فَقَدْ تَدُلُّ عَلَى<sup>(4)</sup>:

- 1- القِيَادَةُ وَالتَّوْجِيهُ: كَسِيَاقَةِ السَّيَّارَةِ أَوْ الْقِطَارِ وَتَوَجِيهِهَا نَحْوَ الْوَجْهِةِ الَّتِي يُرِيدُهَا بِالتَّحْكَمِ فِي آلَاتِهَا، وَنَحْوُ: إِلَيْكَ يُسَاقُ الْحَدِيثُ؛ يُوجِّهُ.
- 2- السَّرْدُ وَالْقَصُّ: مِثَالُ: سَاقَ الْحَدِيثَ؛ أوردَه بِسَهولَةٍ وَسَلَاسَةٍ، وَسَاقَ الْقِصَّةَ قِصَّهَا.

(1)- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط. ص: 464، مادة: (س و ق).

(2)- أحمد رضا: معجم متن اللغة - موسوعة لغوية حديثة. دار مكتبة الحياة، بيروت، 1378هـ - 1959م، 3/ 252-253، مادة: (س و ق).

(3) - لويس معلوف: المنجد في اللغة والأدب والعلوم. المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط 19 (دت)، ص 363-365، مادة (س ا ق).

(4) - ينظر: أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة. 2 / 1137 - 1139، مادة: (س و ق).

3- التناسق والتلاؤم: نحو تناسق الشَّيْئَانِ؛ تَسَايَرًا، تَقَارَنًا، تَنَاسَقًا، تَلَاءَمًا، مثال: تَسَاوَقُ اللَّوْنِ مع ما يحيط به.

4- التَّعَاقِبُ: تَعَاقُبُ سِلْسِلَةٍ مِنَ الظَّاهِرَاتِ فِي وَحْدَةٍ وَنِظَامٍ، كَتَعَاقُبِ الظَّاهِرَاتِ الفِسيولوجيةِ والسَّيِّكولوجيةِ.

5- الظُّرُوفُ: وهي تلكُ الظُّرُوفِ التي يَقَعُ فيها الحَدَثُ أو يُسَاقُ فيها الكَلَامُ.

مما يلاحظ من هذه المعاجم الحديثة أنها سارت مسرى المعاجم القديمة ولم تأتِ بجديد في تعريفها للفظ (سياق)، غير أن معجم اللغة العربية المعاصرة اقترب كثيراً من المعنى الذي تدلُّ عليه كلمة (سياق)، وهذا ما سنلاحظه حين نتطرق إلى التعريف الاصطلاحي لها.

#### \*- السِّياقُ فِي المَعَاجِمِ العَرَبِيَّةِ المُتَخَصِّصَةِ :

وهي تلك المعاجم التي تخصصت في مجالٍ مُعَيَّنٍ ذُوْنِ غَيْرِهِ، وَبَحَثَتْ فِي دَلَالَاتِ مُصْطَلِحَاتِهِ وَعَرَفَتْهَا بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ .

- السِّياقُ فِي مَعَاجِمِ عِلْمِ اللُّغَةِ ( اللِّسَانِيَّاتِ ) : نجد أن ( مُعْجَمَ المِصْطَلِحَاتِ الأَلْسِنِيَّةِ ) قد تناول مُصْطَلِحَ السِّياقِ تَحْتَ مادَّةِ (context) بقوله: « وَيُقْصَدُ بِهَذَا التَّعْبِيرِ البِيئَةُ اللُّغَوِيَّةُ المَحيطةُ بالوَحدةِ الصَّوْتِيَّةِ أو البِنِيويَّةِ الصُّغْرَى، أو بالكلمة أو الجملة، وَيَعْنِي الوَحْدَاتِ التي تَسْبِقُ أو تَلِي وَحدةً لُغَوِيَّةً مُحدَّدةً. كما يَعْنِي هَذَا التَّعْبِيرُ (سياق) بِمُجموعَةِ العَوامِلِ الاجْتِمَاعِيَّةِ التي يُمْكِنُ أَنْ تُؤْخَذَ بعينِ الاعتبارِ لِدراسةِ العِلاقاتِ المَوْجُودَةِ بَيْنَ السُّلُوكِ الاجْتِمَاعِيِّ والسُّلُوكِ اللُّغَوِيِّ»<sup>(1)</sup>.

أما (المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات) يرى أن السِّياقَ بِمفهومِهِ اللِّسَانِيَّ هو ما يُصَاحِبُ الوَحْدَاتِ اللُّغَوِيَّةَ ( ما يَسْبِقُها أو يَلْحَقُها)، وَيُعَيَّنُ عَلى تَفْسيرِها وتَعْيِينِ دَلالَتِها<sup>(2)</sup>.

وفي (معجم علم اللغة النظري) يُعرِّفُ محمد علي الخولي السِّياقَ بِقوله هو: « البِيئَةُ اللُّغَوِيَّةُ المَحيطةُ بالفونيم أو المورفيم أو الكلمة أو الجملة»<sup>(3)</sup>.

(1) - مبارك مبارك: معجم المصطلحات الألسنية (فرنسي - إنكليزي - عربي). دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 1995 م، ص: 61، رقم: 470، مادة (context).

(2) - ينظر: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات. مطبعة النجاح، الدار البيضاء، (د ط)، 2002م، ص: 120. نقلاً عن: فضيلة عظيمي: أثر السياق في التركيب القرآني من خلال كتاب: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة بن ناصر الكرمانى ت505هـ. مذكرة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ص: 11.

(3) - محمد علي الخولي: معجم علم اللغة النظري. مكتبة لبنان، بيروت، (ط1)، 1982م، ص: 57.

- **السِّيَاق فِي مَعَايِمِ الْأَحَادِيثِ:** يعرف الدكتور محمد التونجي في معجمه (المفصل في الأدب) السِّيَاق بأنه: «مجرى أحداث عمل أدبي وثيق الترابط، يُسهّل عمليّة ربط الكلام وبناء النصّ بناءً مُحكّماً، في بدئه وخاتمته والحبكة بينهما، وإذا اقتطع من السِّيَاق كلاماً بدا في غير مكانه، حتى إذا أُعيد إلى مكانه من النصّ بدا مهما وربطاً للفقرات. وكثيراً ما يكون الكلام غامضاً، ولكنّه يفهم من السِّيَاق، أي من سير الأحداث سيراً منسّقاً»<sup>(1)</sup>.

وجاء في (معجم المصطلحات الأدبية)؛ السِّيَاق: «بناءً كامل من فقرات مترابطة، في علاقته بأيّ جزء من أجزائه أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معيّنة، ودائمًا ما يكون سِيَاق مجموعة من الكلمات وثيق الترابط بحيث يلقي ضوءاً لا على معاني الكلمات المفردة فحسب بل على معنى و غاية الفقرة بأكملها»<sup>(2)</sup>.

وللسِّيَاق أهميّة بالغة في النقد الأدبي، بحيث يُعدُّ النقاد انتزاع الاستشهادات من سِيَاقها وقراءة العبارات خارج سِيَاقها من الآفات الخطيرة... فهناك فقرات في كثير من الروائع الأدبية تبدوا بذاتها قاسية أو بدئية ولكنها تُصبح ذات معانٍ مختلفة إذا أُخذت في سِيَاقها<sup>(3)</sup>.

### ب) - مفهوم السِّيَاق في الاصطلاح العربي:

انطلق بعض الدارسين العرب في تعريفهم للسِّيَاق اصطلاحاً آخذين في ذلك بالتعريف اللغوي الذي هو: التّوالي، التّتابع، التّفاؤد...  
ومن هؤلاء نجد (تمام حسان) يقول: «المقصود بالسِّيَاق التّوالي، ومن ثمّ يمكن أن ننظر إليه من زاويتين:

أولهما: توالي العناصر التي يتحقّق بها السِّيَاق الكلامي، وفي هذه الحالة نُسَمِّي السِّيَاق (سِيَاق النصّ).

والثّانية: توالي الأحداث التي هي عناصر الموقف الذي جرى فيه الكلام وعندئذٍ نُسَمِّي السِّيَاق (سِيَاق الموقف)»<sup>(4)</sup>.

(1) - محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (ط 2)، 1419هـ / 1999م، 2 / 535.

(2) - إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية. التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، تونس - صفاقس، (د ط)، (د ت)، ص 201 - 202.

(3) - ينظر: المصدر نفسه. ص: 202.

(4) - تمام حسان: اجتهادات لغوية. عالم الكتب، القاهرة - مصر، (ط 1)، 2007، ص: 237.

كما يعرف أحد الباحثين السِّيَاقَ عموماً بأنه تتابع الكلام وتساوقه وتقاوده<sup>(1)</sup>.

والسِّيَاق أيضاً هو: «التتابع والسرد الذي سبق الكلام على هيئته ووصفه في أسلوبه الذي بُيئت جملته وعباراته عليه حتى أصبح سياقاً من الكلام يتبع بعضه بعضاً في نظمه الذي ورد الخطاب به»<sup>(2)</sup>.

كما ركز دارسون آخرون في تعريفهم للسِّيَاق اصطلاحاً على أنه العَرَضُ أو المقصد المراد من كلام المتكلم وما يدلُّ عليه ذلك الكلام من معاني، وهذا ما سنلاحظه في ما يأتي من تعريفات: يقول (ردة الله الطلحي): «كلمة سياق في تعبير المفسرين تُطلق على الكلام الذي خرج مخرجاً واحداً، واشتمل على غرض واحد، وهو المقصود الأصلي للمتكلم، وانتظمت أجزاؤه في نسق واحد، مع ملاحظة أن الغرض من الكلام أو المعاني المقصودة بالذات هي العنصر الأساسي في مفهوم النص»<sup>(3)</sup>.

وهناك من عرّف السِّيَاق في إطار القرآن الكريم بأنه الأغراض والمقاصد الأساسية التي تدور عليها جميع معاني القرآن إلى جانب أسلوبه البياني ونظمه المعجز في جميع تعبيراته<sup>(4)</sup>. وتوصّل صاحب رسالة (دلالة السِّيَاق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى - عليه السلام-) إلى هذا التعريف: «إنه العَرَضُ الذي تتابع الكلام لأجله مدلولاً عليه بلفظ المتكلم، أو حاله، أو أحوال الكلام، أو المتكلم فيه، أو السامع»<sup>(5)</sup>.

ومما يُلاحظ من هذه التعريفات الاصطلاحية الأخيرة أنها أيضاً لها علاقة بالمعنى اللغوي، فسوق المبيعات للسوق مثلاً لغرض البيع، والناس يجتمع فيه لغرض التسوق وهو البيع

(1)- ينظر: فهد بن شتوي بن عبد المعين الشتوي: دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام - دراسة نظرية تطبيقية. رسالة ماجستير، تخصص: تفسير وعلوم القرآن، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، 1426هـ - 2005م، ص: 27.

(2)- المرجع السابق. ينظر الهامش، الصفحة نفسها.

(3)- ردة الله بن ردة الطلحي: دلالة السياق. سلسلة الرسائل العلمية (33)، معهد البحوث العلمية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، (ط1)، 1424هـ، ص: 51.

(4)- ينظر: تهاني بنت سالم بن أحمد باحويرث: أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معنى المتشابه اللفظي في القصص القرآني - دراسة نظرية تطبيقية على قصص نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام. رسالة ماجستير، تخصص: تفسير وعلوم القرآن، جامعة أم القرى، 1427هـ - 2007م، ص: 40-41.

(5)- فهد بن شتوي بن عبد المعين الشتوي: دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام - دراسة نظرية تطبيقية. ص: 27.

والشراء. وسوق المهر إلى المرأة لغرض التقرب والتحبب إليها والزواج منها. وأن سياق الكلام هو تتابعه لغرض ومقصود معين كالإبلاغ والتبليغ والخطاب والتخاطب وتوجيه الدلالة المرادة من كلام المتكلم...

إذا ففي الوقت الذي عرّف فيه بعض الدارسين العرب السياق على أنه الغرض وأنه التابع والتوالي نجد آخرين يعرفونه على أنه المحيط أو الإطار أو الصورة أو العنصر الذي تحيا فيه دلالة الكلمة أو النص، وسنورد بعضها فيما يأتي:

السياق: «إطار عام تنتظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية، ومقياس تتصل بواسطته الجملة فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية تداولية ترمي مجموع العناصر المعرفية التي يُقدمها النص للقارئ»<sup>(1)</sup>.

وهو أيضاً الصورة الكلية التي تُنظم الصور الجزئية، ولا يفهم كل جزء إلا بموقعه من الكل<sup>(2)</sup>.

كما يُعرّف السياق على أنه: «العنصر الذي تحيا فيه اللفظة، وهذا ما يؤكد جانب الوظيفة الاجتماعية للغة ومن هنا فإن تعدد المعنى الوظيفي للأداة، ودلالاتها يكون حسب ما تُفيده من السياق، والسياق هو الذي يعكس تشابك العلاقات بين المعطيات الصرفية والنحوية... وهذا يعني أنّ اللغة نظام لربط الكلمات بعضها ببعض وفقاً لمقتضيات دلالتها العقلية لكي تتمكن من القيام بوظيفتها الأساسية كوسيلة للاتصال بين الناس»<sup>(3)</sup>.

(1) - عبد الرحمان بودرع: منهج السياق في فهم النص. سلسلة: كتاب الأمة، عدد: 111، 1427هـ- 2006م، ص: 27. وانظر الموقع: <http://www.almaktabah.net>

(2) - ينظر: المرجع السابق: الصفحة نفسها.

(3) - صلاح الدين زرال: الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري. الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة- الجزائر، (ط1)، 1429هـ- 2008م، ص: 367.

ما نستنتجه من هذه التعريفات اللغوية والاصطلاحية للسياق ما يأتي :

- 1- إن أصل مادة (س و ق) يدلُّ على التتابع والتوالي والتسلسل والسَّير في قطع واحد، فيتبيَّن أنَّ هذا المعنى اللُّغوي يتضمَّن مساحة من المعنى الاصطلاحى للسياق، فسياق الكلمات تسلسلها وتتابعها وتواليها في الجمل والعبارات.
  - 2- إنَّ « السِّياق في الحسِّ اللُّغوي وفي الدلالة اللُّغويَّة وبمجموع المعاني التي تدلُّ عليها تقليبات هذه الكلمة، يدلُّ على انتظام مُتوالٍ في الحركة لبلوغ غاية محدَّدة... فالتتابع بين الأشياء هو التساوق، ولا يكون مُتتابعاً إلا إذا كان له غاية لا بدَّ من وصولها <sup>(1)</sup>»، فالسياق يعني التتابع دون انقطاع أو انفصال لبلوغ غاية محدَّدة.
  - 3- الظَّاهر أنَّ مادَّة (س و ق) قد تطوَّرت مدلولها من سوق الأشياء المادِّية كالإبل وغيرها إلى الدلالة على الطَّريقة التي تُساق بها والظُّروف التي تُصاحبها وهذا المعنى اللُّغوي له علاقة بالمعنى الاصطلاحى لسياق الحال.
  - 4- لم نجد تعريفاً اصطلاحياً للسياق من قبل القدماء لذا عرضنا له تعريف المحدثين فحسب «وهذا لا يعني عدم معرفتهم، بل على العكس من ذلك، فقد بحثوا فيه كثيراً، وكتبوا بحوثاً مُستفيضة بهذا الشأن ولكن بتسمياتٍ مختلفة ومفاهيم أُخرى» <sup>(2)</sup> كالمقام والمقال والحال والمقتضى.
  - 5- من خلال استقراء هذه المفاهيم اللُّغوية والاصطلاحية يمكن أن نخلص إلى تعريف عام مُوجز يُحاول أن يجمع بينهم:
- السياق هو: تتابع مُنتظم مُتسلسل في ظرف مُعيَّن لغرض الوصول إلى غاية محدَّدة. فسياق النَّص مثلاً عبارة عن وحدات لغويَّة (أصوات وكلمات وجمل) مُتتابعة مُنتظمة، ذات موضوع محدَّد متَّسق مع الظُّروف والملابسات الخارجيّة المحيطة به، لغرض الوصول لغاية معيَّنة وهي تحقيق التَّواصل.
- 6- ومن هنا يتبيَّن أنَّ السِّياق ينقسم إلى قِسمين: سياق لغوي؛ يتمثل في البنية اللُّغوية. وسياق غير لغوي؛ يتمثل في الظُّروف المحيطة بالحدث اللُّغوي. وهذان السِّياقان مُتضافران ولا يتفرَّقان، غايتهما تحقيق الإبلاغ والتبليغ، ووظيفتهما توجيه دلالة النَّص.

(1)- المثنى عبد الفتاح محمود: نظرية السياق القرآني - دراسة تأصيلية دلالية نقدية. دار وائل للنشر، عمان، الأردن، (ط1)، 1429هـ - 2008م، ص: 14.

(2)- جاسم محمد عبد العبود: مصطلحات الدلالة العربية دراسة في ضوء علم اللغة الحديث. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1428هـ/2007م. ص: 133.

## 2/ التيساق في المعجم والاصطلاح العربي

## أ- تعريف التيساق في المعجم العربي

## \*- التيساق في المعجم العربية العامة:

إنَّ مُصطلح التيساق في أصله الأجنبي (contexte) مُشتقُّ من الكلمة اللاتينية (contextus) والتي في معناها العام تعني مجموعٌ مُنظَّم (1).

وفي قاموس الأكاديمية الفرنسية يعني المدخل (contexture): «نسيج؛ تسلسل عدّة أجزاء تُشكّل جسم أو كلٌّ. مثلاً: النسيج العضلي، نسيج الألياف. ونقول بالمعنى المجازي: نسيج الخطاب، أو تأليف فكري» (2).

فاللفظ (contexte) يتكون من: «السابقة اللاتينية con بمعنى (مع) + Texte اللاتينية أيضاً والتي كانت تعني في الأصل (النسيج) ثم استعملت في معنى الكلمات المصاحبة للمقطوعات الموسيقية ثم صارت تُستعمل في معنى (النص) أي تلك المجموعة من الجمل المترابطة مكتوبة كانت أو مَقروءة» (3).

وبعد التركيب صار للمصطلح مدلولات عدّة، لينتقل استعماله إلى الميدان العلمي، وهذا ما سنلاحظه في ما يأتي:

فقد جاء في معجم روبير (Le robert) قاموس المرادفات والمتضادات تحت مادة (contexte): «التيساق اسم مُذكر يعني: الوضعية أو الحالة، البيئة، الظروف، المناخ» (4).

أمّا معجم كنز اللغة الفرنسية (Le trésor) فقد وضع مفاهيم مختلفة للتيساق منها (5):

1- مجموع نصّ مُتشكّل من عناصر، يُمثّل كليّة دالّة، تتغيّر وتتأثر فيه معاني وقيمة عناصره عن معانيها وقيمتها إذا أخذت بطريقة معزولة عنه.

(1) - Hadumod Bussmann : Routledge dictionary of language and linguistics . traducers : Gregory P.Trauth and Kerstain Kezzazi, Routledge, New York, 2006 , P: 245.

(2) - Dictionnaire de l'académie française : source ebooks France , 5<sup>eme</sup> édition , JJ Smith. IMP-LIB ,Paris 1798,tome :1, p: 705 .

(3) - عبد الفتاح عبد العليم البركاوي: دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث - دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق. دار الكتب، مصر، دط، دت، ص: 45 .

(4) - Dominique Le Fur et autres : Le Robert ,Dictionnaire des synonymes, nuances et contraires. Le Robert ,Paris, 1<sup>ere</sup> édition ,2005, P :234 .

(5) - Paul Imbs et Bernard Quemada ,Trésor de la langue française informatisé.

2- مجموع وحدات تُشكّل: مُستوى تحليلي مُعيّن: (فونيم، مورفيم، وحدة معجمية، وحدة تركيبية، عبارة...) وتشكّل: المحيط الزمني (كلام) أو المكاني (كتابة) لوحدة ما، أو مقطع من خطاب.

3- وهو أيضاً: جميع الظروف المرتبطة بظاهرة حدوث حدث ما؛ أو بصيغة أخرى الظروف التي يقع فيها حدث معيّن.

وفي (معاجم اللغة الإنجليزية) مرادفات السياق context تتمثل في: الظروف، المحيط، العوامل، الحالة، البيئة، الوسط، التهيئة، الخلفية، المشهد، المناخ، الجو، المزاج، الشعور. كما يعرفه على أنه: الظروف التي يتشكّل فيها حدث أو تصريح أو فكرة، بحيث يكون الفهم أدق. والسيّاق أيضاً: مكتوب أو منطوق ما، يسبق أو يلحق مباشرة كلمة أو عبارة ويوضح معناها<sup>(1)</sup>. ويعرّف قاموس (الطالب للإنجليزية الأمريكية) السيّاق على أنه: «الأجزاء التي تسبق أو تتبع مباشرة كلمة، أو جملة... بحيث تؤثر في معناها»<sup>(2)</sup>.

ومن الواضح أنّ هذه المعاجم اللغوية العامة تُفرّق بين نوعين من السيّاق؛ نوع يعني الظروف المحيطة بحدث ما، ويتبيّن أنّ هذا المفهوم يُشير إلى السيّاق الحالي. أمّا النوع الثاني يعني كل ما يسبق كلمة أو عبارة ما ويوضح معناها. وهذا المعنى يتبيّن أيضاً أنّه يُشير إلى السيّاق اللغوي.

#### \*- السيّاق في المعاجم الغربية المتخصصة:

تشرح المعاجم المتخصصة في اللسانيات والمصطلحات الأدبية السيّاق بنوع من التفصيل والتحديد الدقيق، وقد أخذنا من تلك المعاجم الأجنبية المتخصصة نماذجاً وهي كالآتي:

قاموس (اللسانيات والصوتيات) الإنجليزي: يُعرّف السيّاق على أنه: «مصطلح عام يُستعمل في اللسانيات والصوتيات يُشير إلى أجزاء معينة من الكلام (أو النص) وهذه الأجزاء تكون قريبة أو بجوار الوحدة التي هي محور الاهتمام، ويُقصد بالوحدة (صوت أو كلمة)، ويتمّ تحديدها جزئياً أو كلياً من قبل سياقها، والذي يُحدّد من خلال علاقات وحداته؛... من أجل توضيح المعنى

(1) - www.oxforddictionaries.com

(2) - Cynthia A. Barnhart : student's dictionary of American English ,Facts of file . New York- USA, 2008- p: 141

المقصد»<sup>(1)</sup>.

أما قاموس (اللسانيات) الفرنسي فقد فرّق بين النوعين من السياق<sup>(2)</sup>:  
**الأول:** يُطلق على السياق أو السياق اللفظي: ويتمثل في مجموع النص الذي تقع فيه وحدة معينة؛ بمعنى العناصر التي تسبق أو تلحق وحدة معينة، وما يُحيط بها.  
**الثاني:** يُطلق على السياق الظرفي أو سياق الظرف: ويتمثل في مجموع الشروط الطبيعية، الاجتماعية، الثقافية، التي من خلالها يقع الخطاب أو الكلام. إنها المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقي حول الظروف الثقافية والنفسية وتجارب ومعارف كل منهما.

وجاء في القاموس (المحدّد للمصطلحات الأدبية) الانجليزي أنّ السياق هو: « تلك الأجزاء من النص التي تسبق وتلحق عبارة ما فتمنحها دلالة أعمق وأكثر تحديداً منه في حالة ما إذا قرئت معزولة. ويفهم معنى السياق بطريقة أشمل من خلال: العلامات المجاورة المباشرة (بما في ذلك علامات التنقيط مثل: المزدوجتين)، أو من خلال: الظروف التاريخية، الثقافية، الاجتماعية، والسير الذاتية، التي في حضمها نشأ النص (بما في ذلك ظروف المستمع أو القارئ) ... إن تفسير أي عبارة أو نص يُفودنا إلى فهمه في إطار سياقه وتُسَمَّى هذه العملية (contextualize) »<sup>(3)</sup>  
 فالكلمات والجملة لا يكون لها معنى إلا من خلال تسييقها أي وضعها في إطار سياقها.

ومن الواضح أنّ هذه المعاجم قد اهتمت أكثر بالتنوع الثاني من السياق المتمثل في سياق الحال، ووضعت له شروطاً من خلالها يتضح ويتحدّد معنى النص، ومن بين تلك الشروط: الظروف الاجتماعية والنفسية والثقافية والسير الذاتية... وبالإضافة إلى معارف وخبرات وتجارب كل من المرسل والمتلقي.

### ب) - مفهوم السياق في الاصطلاح العربي

أُستعمل مصطلح السياق في مجالات مختلفة، فتعددت مفاهيمه وتنوعت بتنوع التوجيهات

(1) - David Crystal: Dictionary of linguistics and phonetics. Blackwell Publishing, Malden M.A, USA - 6th edition, 2008 P: 108-109.

(2) - Jean Dubois : Dictionnaire de linguistique ,P :116.

(3) -Chris Baldick :The concise Oxford dictionary of literary terms. Oxford university press ,Oxford ,UK, 2001 , P: 50

والخلفيات العلمية فمنها اللغوية، والاجتماعية، والانثربولوجية، كما أنّ السّياق يعدُّ مصطلحاً محورياً في الدرس اللساني الحديث.

ويعود الفضل في استحداث مصطلح السّياق (contexte) في الثقافة الغربية إلى اللغوي الإنجليزي جون روبرت فيرث (ت 1960م) وذلك في مدرسة لندن، والتي عُرفت فيما بعد بما سمي بالمنهج السّياقي (contextual approach) (1).

« وقد عرّف (فيرث) السّياق بأنّه: (جُملةُ العنصرِ المكوّنة للموقفِ الكلامي) وهذه العناصر؛ عبارة عن مجموع الظروف التي تحيط بالكلام، وتشمل شخصية كل من المتكلم والسّامع وغيرهما ممّن يشهد الكلام، بالإضافة إلى السلوك اللغوي، والعوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللّغة، والسلوك اللغوي لمن يُشارك في الموقف الكلامي من زمان ومكان وغير ذلك» (2).

كما يشرح ستيفن أولمان (Stephen Ullmann) السّياق بقوله: «كلمة السّياق (contexte) قد استعملت حديثاً في معاني مختلفة، والمعنى الوحيد الذي يهّمُ مُشكّلتنا في الحقيقة هو معناها التقليدي، أي: (النّظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النّظم)، بأوسع معاني هذه العبارة، أنّ السّياق على هذا التفسير ينبغي أن يشمل لا الكلمات والحمل الحقيقية السابقة والأحقة فحسب، بل القطعة كلّها، والكتاب كلّّه، كما ينبغي أن يشمل -بوجه من الوجوه- كل ما يتّصل بالكلمة من ظروف ومُلابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلّقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشّأن» (3).

ومن وجهة نظر (سربر وولسن) للسّياق تداولياً (\*) : فقد عرّفاه على أنّه جزء (صغير) من المحيط المعرفي لفردٍ ما في لحظةٍ ما، واعتبراً أنّ السّياق ليس أمراً مُعطى دُفعة واحدة، إنّما يتشكّل قولاً إثر قول؛ حيث يتكوّن السّياق في الآن نفسه من المعارف الموسوعية التي تتوصّل إليها من خلال المفاهيم المنطقية والمعطيات التي يُمكن إدراكها مباشرة والمستفادة من المقام أو المحيط المادّي ومن

(1) - ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة. ص: 68. وينظر: محمد محمد بونس علي: المعنى وظلال المعنى - أنظمة الدلالة في العربية. طبعة مزيدة و منقحة، دار المدار الإسلامي، بيروت- لبنان، دط، 2007، ص: 117.

(2) - عبد الواحد حسن الشيخ: التنافر الصوتي والظواهر السياقية. مكتبة الإشعاع، ط1، 1419هـ / 1999م، ص: 30.

(3) - ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة. ترجمة وتقديم كمال محمد بشر. دار الشباب، الجيزة، مصر، دط، ص: 57.

(\*) - التداولية علم لساني حديث تنطرق إلى اللغة كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية معاً، فتتجاوز الدراسة النبوية (السكونية) للغة إلى دراستها في سياق استعمالها، ومراعاة كل ما يحيط بها من أحوال وما تخضع له من مقاصد المتكلمين. ينظر: باديس لهويميل: التداولية والبلاغة العربية. مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري - جامعة محمد خيضر، بسكرة - الجزائر، العدد 7، 2011، ص: 158.

المعطيات المستقاة من تأويل الأقوال السابقة. ويُسمَّى سبربر وولسن بجمع مصادر هذه المعلومات بالمحيط المعرفي للفرد<sup>(1)</sup>.

ومن هنا « تعددت أنواع السياقات التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالوظائف التي يؤديها النص: فهناك السياق التداولي، والسياس المعرفي، والسياس النفسي، والسياس الإدراكي، والسياس الثقافي، والسياس الاجتماعي»<sup>(2)</sup> وهذه السياقات تتضافر معاً في تحليل الخطابات أو النصوص.

ما يمكن أن نستخلصه من هذه التعريفات:

1- أنها تشابهت في شرحها وتعريفها للسياق، كما أنها أشارت إلى نوعيه الظرفي واللفظي، كلٌّ بأسلوبه الخاص.

2- أنها كلها - تقريباً - قد اشتركت في التعريف العام للسياق؛ المتمثل في: تلك الأجزاء أو العناصر التي تسبق أو تلحق وحدة معينة، فتسهم في توضيح معناها.

3- المعاجم العامة ركزت أكثر على السياق الحالي؛ أي الظروف التي تُحيط بالحدث، في المقابل نجد أن المعاجم المتخصصة تناولت النوعين وأسهمت كثيراً في شرح السياق اللغوي، وأطلقت عليه مسميات مختلفة مثل: السياق، السياق اللغوي، السياق اللساني، السياق اللفظي، وكلها تعني مُصطلح واحد بدلالة واحدة.

4- بالمقارنة بين التعريفات - اللغوية والاصطلاحية - العربية، والتعريفات الغربية نلاحظ أن هذه الأخيرة قد امتد مفهوم السياق فيها، ليشمل تلك الشروط التي يقع فيها النص سواء كانت اجتماعية أو ثقافية أو نفسية للمرسل والمتلقي والمقام... وبالتالي فقد أضافت التعريفات الأجنبية أنواعاً أخرى للسياق كالسياق الاجتماعي والثقافي والنفسي.

5- وأخيراً يمكن الإشارة إلى أن اللغويين الأنجليز قد أضافوا لمصطلح السياق اللاحقة (ualismuss) والتي « تُقابل في العربية الياء المشددة التي تلحق المصادر الصناعية في مثل الحرية، الواقعية، الخ ومن ثمَّ يُصبح معنى المصطلح (contextualismuss) (سياقية) والمراد بها نظرية السياق في المعنى، أو مذهب التحليل اللغوي المنسوب للسياق»<sup>(3)</sup>.

(1) - ينظر: أن رويول، جاك موشال: التداولية اليوم علم جديد في التواصل. ترجمة سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني. مراجعة: لطيف زيتوني. المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط1، 2003م، ص: 77.  
(2) - نوال لخلف: الانسجام في القرآن الكريم - سورة النور أنموذجاً. تقديم: بركاهم العلوي. مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الأبيار - الجزائر، دط، 1432هـ / 2012م، ص: 40.  
(3) - عبد الفتاح عبد العليم البركاوي: دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث. ص: 46.

### المطلب الثاني: التسباق القرآني خصائصه وأبعاده

بعد أن تعرفنا على مفهوم التسباق في المعجم والاصطلاح العربي والعربي، يجدر بنا المقام الآن أن نسلط الضوء على تعريف التسباق القرآني ونذكر أهمية الاحتكام إليه حين تفسير النص ثم أنواعه وأبعاده.

#### 1- مفهوم التسباق القرآني وأهميته:

##### (أ) - تعريفه التسباق القرآني:

لقد تفاوتت آراء الباحثين -مبدئياً- في تحديد وضبط مفهوم التسباق القرآني؛ حيث نجد عند بعضهم هو "النسق النصي ذاته" كما عند رفاعي سرور الذي عرف التسباق القرآني قائلاً: «هو مجموعة من الآيات التي تعالج موضوعاً واحداً في إطار السورة، بحيث لا تخرج عن الموضوع العام للسورة»<sup>(1)</sup>.

بينما نجد عند غيرهم هو "كل ما يُحيط بالنص"، كما في تعريف سعيد الشهراني، الذي يرى فيه أن التسباق القرآني «هو ما يُحيط بالنص من عوامل داخلية أو خارجية، لها أثر في فهمه، من سابق أو لاحق به، أو حال المخاطب، والمخاطب، و العرض الذي سبق له، والجزء الذي نزل فيه»<sup>(2)</sup>.

وبتأمل هذين المفهومين نجد:

\* أن الضبط الاصطلاحي في التعريف الثاني أدق وأكثر جلاءً، بل إن المعنى الأول متضمن في الثاني بالضرورة، باعتباره عاملاً من العوامل الداخلية للنص القرآني.

\* أن هذين المفهومين على تناقضهما الظاهري، إلا أن مؤداهما العملي واحد، فالدراسة السياقية تستدعي المعنى الأول، بحكم أن التسباق يصنع النص نفسه، فلا يتحدد السابق واللاحق، والمقطع، إلا بضبط النص محل التفسير. لتتدخل بعدها العوامل المحيطة بالدراسة السياقية داخلياً وخارجياً، وهو ما اهتم به النوع الثاني من التعاريف<sup>(3)</sup>.

(1)- عمر حيدوسي: السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث. رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية، تخصص

كتاب وسنة جامعة الحاج لخضر باتنة، 2012/2011م. ص: 364.

(2)- المرجع نفسه. ص: 365.

(3)- ينظر: المرجع نفسه. ص: 364-365.

- كَمَا نجد من الباحثين المعاصرين الذين أبدو ا في توضيح معنى السِّيَاق القرآني اصطلاحاً (المثنى عبد الفتاح محمود) في مؤلفه (نظرية السِّيَاق القرآني)، حيث يُعرِّف السِّيَاق - في إطار القرآن - انطلاقاً من الأصل اللغوي له بأنه: «تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية؛ لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال»<sup>(1)</sup>.
- ولشرح هذا التعريف وتحليله معناه وقف (المثنى) عند كل مفردة من مفرداته<sup>(2)</sup>:
- فقوله: "تتابع المعاني" يقصد به: ترابط المعاني الفرعية لخدمة المعنى الأصيل الوارد ذكره في السورة والمقطع.
- وقوله: "انتظامها": أي أن هذه المعاني تسير سيراً منتظماً مقصوداً من قبل المتكلم، غير مُشتتة ولا مُبعثرة.
- وقوله: "في سلك الألفاظ القرآنية": باعتبار أن اللفظ القرآني هو الحامل للمعاني وبه تظهر صورتها.
- وقوله: "لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود": الغاية الأصيلة للسِّيَاق القرآني هي إعطاء معنى تاماً كاملاً يؤدي الغرض الذي لأجله أنزل القرآن، فكان لابد لهذه المعاني المتتابعة من إبرازه وتوضيحه.
- وقوله: "دون انقطاع": أي من غير انقطاع المعاني التي تتحدث عنها الآيات، فلا يصح أن تقف الآيات رأساً دون أن تكتمل المعاني وتتجسد للرأي.
- وقوله: "دون انفصال": أي دون أن يكون هناك فاصل أجنبي، من غير أن يكون له داع، أو ارتباط بموضوع الآيات.

فالملاحظ من هذا التعريف والشرح لمصطلح السِّيَاق القرآني هو أن «هناك ارتباطاً معنويًّا بين آحاد النص القرآني، سواء أكان سورة، أم مقطعاً من سورة، أم آية في مقطع، و هذا الارتباط قد لا يبدو للنَّاطِر في الوهلة الأولى، فيظنُّ أنَّ المعاني مُتفكِّكة الأواصر لا ارتباطاً بين آحادها، وفي حقيقة الأمر هي مُتناسِّقة على أشدِّ ما يكون عليها الاتِّساق والارتباط؛ فقد تذكر قصة ثم يتلوها ذكر مواعظ، ثم أوامر ونواهٍ، ثم وعد ووعد، وهي تدور في فلك موضوع واحد مُترابط مُتناسِّق، والذي

(1) - المثنى عبد الفتاح محمود: نظرية السِّيَاق القرآني - دراسة تأصيلية دلالية نقدية. ص: 15 .

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 16 .

يكشف هذا الأمر ويُعين عليه دراسة المعاني باعتبار اتصافها وارتباطها بما قبلها وما بعدها، لا بدراستها مجتزأة مُفككة كل معنى قائم بذاته، فهذه سياسة غير حميدة، يُجُلُّ عنها الباحث في كتاب الله عزَّ وجلَّ»<sup>(1)</sup>.

### ب) - أهمية الاحتكام إلى السياق القرآني:

للسِّيَاق أثرٌ كبير في فهم النصِّ القرآني، فلا يُمكن إغفاله والتَّغاضي عنه، أو إهدار دلالاته وسائر القرائن الحاليَّة والمقاليَّة فيه. مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصيَّة هذا النصِّ وقُدسيَّته، فهو كلام الله جلَّ جلاله -عَلَّامُ الْغُيُوبِ الَّذِي لَا يَعْزِبُ عَنْهُ شَيْءٌ- فكلُّ حرف فيه له فائدة وغاية تُرجى. وما اختار لفظاً من الألفاظِ إلَّا لِتَحْقِيقِ مَعْنَى أَرَادَ إِيْصَالَهُ إِلَيْنَا، فَهَمَّهُ مِنْ فَهْمِهِ وَجَهْلُهُ مِنْ جَهْلِهِ. لذا فإنَّ « الاحتكام إلى السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ لَهُ أَمْهِيَّةٌ خَاصَّةٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ فَهِيَ تَرشِدُ إِلَى تَبْيِينِ الْمَجْمَلِ، وَالْقَطْعُ بِعَدَمِ احْتِمَالِ غَيْرِ الْمُرَادِ، وَتَخْصِيصِ الْعَامِ، وَتَقْيِيدِ الْمَطْلُوقِ، وَتَنْوَعِ الدَّلَالَةِ، وَهُوَ أَعْظَمُ الْقُرَائِنِ الدَّلَالَةِ عَلَى مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ»<sup>(2)</sup>.

كما أنَّ الاحتكام للسِّيَاق له أثرٌ كبير في التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، حَيْثُ أَنَّ مَعْرِفَةَ السِّيَاقِ لَهُ دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي بَيَانِ مَعَامِلِ الرَّبْطِ بَيْنَ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَاتِ وَتَوْضِيحِ مَطَانِ الْمَشْكَلِ فِي الْمُخْتَلَفَاتِ، وَحَلِّ مَوْهَمِ التَّعَارُضِ بَيْنَهَا، خَاصَّةً إِنْ اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْمُتَشَابِهَاتُ الْمَشْكَلَاتِ الْمُخْتَلَفَاتِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، فَالْأَلْفَاظُ لَيْسَتْ مَكْنُونَاتٍ ذَهْنِيَّةً مُجَرَّدَةً وَجَامِدَةً فِي دَلَالَتِهَا، بَلْ هِيَ لِلتَّوَادُلِ، وَلِهَا دَلَالَاتٌ وَمَعَانِي بِحَسَبِ اسْتِخْدَامِهَا فِي النَّظْمِ، فَالسَّمَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 29]، غَيْرَ مَعْنَاهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنَصْرِيْفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164]، وَغَيْرَ مَعْنَاهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: 10]... وهكذا، فمراعاة السِّيَاقِ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ السَّمَاءُ يَخْصُ مَدْلُوهَا، وَإِنْ كَانَ الْجَامِعُ بَيْنَهَا فِي الْأَصْلِ اللَّغَوِيِّ: الْعُلُوُّ<sup>(3)</sup>.

(1) - المثني عبد الفتاح محمود: نظرية السياق القرآني - دراسة تأصيلية دلالية نقدية. ص: 16-17.

(2) - عبد القادر محمد الحسين: معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني. تقديم: علي جمعة. دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، سورية، ط2، 1433هـ-2012م. ص: 711.

(3) - ينظر: مرهف عبد الجبار سقا: منهج التفسير الموضوعي في أبحاث التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم. بحث مقدم لمؤتمر التفسير الموضوعي للقرآن الكريم واقع وأفاق، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الشارقة، جمادى الأولى 1431هـ - أبريل 2010م. ص: 13.

لذا فـ« السِّيَاق من أعظم دلائل الإعجاز القرآني وقواعده الأساسية المنتظمة في بناءٍ مُحَكِّمٍ مُؤَدِّياً وحدهً مُتكاملاً مُتناسقةً هدفها وغايتها معانٍ ساميةً، فمن هذا الائتلاف العجيب بين السِّيَاقَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ لَا بَدَّ تَعَارُضًا بَيِّنَةً. بل ينتج عنه معانٍ متعددةٌ وأعراض جَمَّة. وهذا والله أعلم السِّرُّ في كون القرآن محتملة لوجوه عدَّة، كما قال أبو الدرداء "رضي الله عنه": "إِنَّكَ لَنْ تَفْقَهُ كُلَّ الْفَقْهِ حَتَّى تَرَى لِلْقُرْآنِ وَجُوهًا كَثِيرَةً" (1).

## 2/- أبعاد السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ:

لقد تباينت الآراء حول تحديد أنواع السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ فَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ (2):

### أ- السُّورَةُ/الْمَقْطَعُ/الْآيَةُ:

\*- **سِيَّاقُ السُّورَةِ:** الذي يُشكِّلُ وحدةَ عُضُويَّةٍ مُتكامِلةً، حيثُ أَنَّ الْعُلَمَاءَ نَظَرُوا فِي سِيَّاقِ السُّورِ، وَبَحَثُوا عَنِ الْغَرَضِ الْعَامِّ وَالْمَحُورِ الرَّئِيسِيِّ الَّذِي تَدُورُ حَوْلَهُ كُلُّ سُورَةٍ، فَإِذَا كَانَتِ السُّورَةُ مَكِّيَّةً، فَإِنَّ الْأَمْثَلَةَ الَّتِي تُسَاقُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ آيَاتٌ تُثَبِّتُ وَحِدَانِيَّةَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحَدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ، وَالْحَذَرُ مِنَ الشَّرْكِ وَبَيَانُ عَوَاقِبِهِ...

\*- **سِيَّاقُ الْمَقْطَعِ:** الذي يُشكِّلُ محوراً رئيسياً من محاورِ سِيَّاقِ السُّورَةِ، وَهُوَ الْمَقْطَعُ الْمَتَّحِدُ فِي الْغَرَضِ، وَيَتَبَيَّنُ هَذَا كَثِيرًا فِي سِيَّاقِ الْقَصَصِ، فَيَكُونُ التَّرْجِيحُ أَحْيَانًا بِنَاءً عَلَى سِيَّاقِ النَّصِّ...

\*- **سِيَّاقُ الْآيَةِ:** الذي يَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِسِيَّاقِ الْمَقْطَعِ، فِي هَذَا النَّوعِ يَتِمُّ النَّظَرُ وَالبَحْثُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ، فَإِذَا اخْتَلَفَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ فَإِنَّا نَنْظُرُ فِي سِيَّاقِهَا، لِأَنَّهُ قَدْ يَحْدُثُ هُنَاكَ لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ لَا يَتَّضِحُ مَعْنَاهُ إِلَّا مِنْ سِيَّاقِ الْآيَةِ.

فَسِيَّاقُ الْآيَةِ يُشكِّلُ «لَبِنَةً فِي بِنَاءِ سِيَّاقِ الْمَقْطَعِ، وَتَتَحَدَّدُ مَبَانِي الْآيَاتِ حَوْلَ مَعَانِي مَقْطَعِهَا، وَيُشكِّلُ الْمَقْطَعُ عُضْوًا أَسَاسِيًّا فِي جِسْمِ السُّورَةِ؛ حَيْثُ تَدُورُ جَمِيعُ الْمَقَاطِعِ حَوْلَ فَلَكَ السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ؛ أَلَا وَهُوَ مَوْضُوعُهَا الَّذِي سِيَّقتُ الْمَعَانِي وَالْمَوْضُوعَاتُ لِأَجْلِهِ» (3).

(1)- وضاح كافي حلومي محمد العزاوي: أثر السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ فِي التَّرْجِيحِ بَيْنَ الْمَعَانِي. الجامعة الإسلامية، مجلة الكلية، جامعة الإمام الأعظم، العراق، مجلد 13، 2011م، ص: 97.

(2)- ينظر: لعرايبي نورية: أثر الترابط النصي في بناء الدلالة سورة الأعراف نموذجاً. ماجستير في اللسانيات جامعة وهران، الجزائر، كلية الآداب، اللغات والفنون، 2011-2012م، ص: 179-184.

(3)- المثنى عبد الفتاح محمود: نظرية السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ. ص: 77.

(ب) - **خاص/عام**: وهناك من قسّم السّياق القرآني إلى نوعين سياق خاص وسياق عام لا بدّ أن يهتم بهما الباحث أثناء التّفسير، ويمكن توضيح ذلك فيما يأتي:

\* - **سياق خاص**: والمقصود بالسّياق الخاص «هو معرفة المناسبات بين الآيات والجمل، من خلال ربط السّبق باللّحق وعلاقة المفردة بأختها، ومُناسبة اختيار المفردة القرآنيّة في مقاصد السّورة المأخوذة منها»<sup>(1)</sup>.

\* - **سياق عام**: والمراد بالسّياق العام «هو اعتبار مقاصد القرآن الكريم في ذكر الكونيات وبيّانها وفي ذلك يقول الرازي رحمه الله "ت606هـ": "والمقصود من كلّ القرآن تقرير أمور أربعة الإلهيات، والمعاد، والنبوت، وإثبات القضاء والقدر لله تعالى". ولذلك كان الرّازي يعتبر السّياق الكلّي للقرآن الكريم في تفسيره كلّ، ففي تفسير سورة النحل عند قوله "﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل:65] يقول: اعلم أنّنا قد ذكرنا أنّ المقصود الأعظم من هذا القرآن العظيم تقرير أصول أربعة: الإلهيات والنبوت والميعاد، وإثبات القضاء والقدر، والمقصود الأعظم من هذه الأصول الأربعة تقرير الإلهيات، فلهذا السّبب كلّما امتدّ الكلام في فصل من الفصول في وعيد الكفار عاد إلى تقرير الإلهيات»<sup>(2)</sup>.

فالقرآن «لم يذكر العلوم المختلفة على أنّها معلومات مجرّدة لِداتها، بل للدّلالة بها على هذه المقاصد السّابقة بالدّرجة الأولى، وليصحّح التّصور العقلي للنّاس من خلال التّدبر فيها، وإنّ اعتبار السّياق بالدّراسة التّفسيّريّة يرشد الباحثين للمقاصد القرآنيّة والانضباط بها، فما يفعل بعض المشتغلين في هذا الاتجاه من التّفسير من ذكر تفاصيل جزئيات المعلومات الكونيّة التي لا ترتبط بالآيات القرآنيّة ولا تدخل في دلالتها؛ وتُخرج الآيات من سياق القرآن الكلّي ومن مقصدها الهدائي الأساسي، إلى الظنّ أنّها معلومة مجرّدة، مخالفة منهجية خطيرة تُسيء لهذا الاتجاه من التّفسير للقرآن الكريم»<sup>(3)</sup>.

(1) - مرهف عبد الجبار سقا: منهج التّفسير الموضوعي في أبحاث التّفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم. ص: 15.

(2) - المرجع نفسه. ص: 14.

(3) - المرجع نفسه. ص: 15.

(ج) - داخلي/خارجي: وهناك أيضاً من قسّم السّياق في القرآن وفقاً للوظائف التي حدّدتها فيرث إلى بُعدين سّياق داخلي لُغوي وسّياق خارجي غير لُغوي:

\*- سّياق داخلي (لُغوي): الذي يعني «كلُّ ما يتعلق بالإطار الدّاهلي لبنية النّص، وما يحتويه من قرائن تُساعد على كشف دلالة الوحدة اللُغويّة الوظيفيّة، وهي تسبّح في نطاق التّركيب» (1). حيث أنّ هذا النوع من السّياق «يضمُّ مجموعة من السّياقات الفرعيّة وفقاً لمستويات اللُغة؛ وهذه الأخيرة تُوجه المفسّر الذي يتتبع أثر الطّواهر الصّوتيّة القرآنيّة في تحديد معاني الآيات، ويحتاج أيضاً إلى اعتبار السّياق الصّرفي والنّحوي، بالإضافة إلى السّياق المعجمي الذي يُعدُّ من أساسيات الدّراسات التّفسيريّة القرآنيّة باختلاف مناهجها، حيث يعتمد المفسّرون على المداخل المعجميّة كمرحلة أولى للوصول إلى المعنى ومن ثمّ يخضعونها للمعالجة داخل سّياقها كمرحلة ثانية» (2).

\*- سّياق خارجي (تخيّر لُغوي): والذي يعني مجموعة الطّروف الخارجيّة التي تُحيط بالنّص، سواء منها الاجتماعيّة أو الثقافيّة أو البيئيّة أو التّاريخيّة أو انفعاليّة. وقد عرّف محمود السّعران السّياق غير اللُغوي أو سّياق الحال بأنّه: «جُملة العناصر المكوّنة للموقف الكلامي أو الحالة الكلاميّة» (3). فيقصد به «الأحوال والملايسات التي تُصاحب النّص وتُحيط به أو كل ما يحيط بالنّص من طّروف تتصلّ بالمكان والمتكلم والمخاطب في أثناء التّفوّه فتعطيها هذه الطّروف دلالتها التي يولده هذا النوع من السّياق» (4).

وعليه فهذان البُعدان «يقدمان بين يدي فهم النّص الشّرعي نسقاً من العناصر التي تُقوّي طريق فهمه، وتفسّره والاستنباط منه؛ لأنّ العلم بخلفيات النّصوص، وبالأَسباب التي تكمن وراء نُزولها أو ورودها، يُورث العلم بالمسبّبات، وينفي الاحتمالات والظنّون غير المرادة، ويقطع الطّريق على المقاصد المفرضة، التي لم يُرمها الشّارع الحكيم، ويصحّح ما اعوجّج من أساليب التّطبيق كيأخراجه النّص من سّياقه، والاستدلال به معزولاً عن مُحيطه الذي نزل فيه؛ هذه الأساليب التي أخرجت النّصوص من مقاصدها العليا، ودفعت بها إلى وجوه من المعاني والاستنباطات البعيدة التي لا تُخدمها» (5).

(1) - محمد مختار الشيباني: بلاغة الاستفهام التقريري في القرآن الكريم دراسة أسلوبية. مؤسسة كنوز الحكمة، الأبيار، الجزائر، دط، 1432هـ-2011م، ص: 125-126.

(2) - مختارية بن قلبية: أثر السّياق اللغوي في تفسير الزاوي. أطروحة دكتوراه في اللسانيات، كليّة الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 1432هـ/2012م، ص: 16-17.

(3) - محمود السّعران: علم اللُغة مقدّمة للقارئ العربي. ص: 331.

(4) - سمير داود سلمان، الدلالة السّياقية في سورة الإسراء. مقال، جامعة البصرة، كلية الآداب. دت، ص: 4.

(5) - محمد مختار الشيباني: بلاغة الاستفهام التقريري في القرآن الكريم. ص: 125-126.

## المطلب الثالث: أهمية التيساق والفرق بينه وبين مصطلحات مقاربة له

## 1/- الفرق بين التيساق ومصطلحات مقاربة له:

هناك مصطلحات قريبة جداً من التيساق، ومُتداخلة معه، وقد تكون مُكونة له، فيعتبرها البعض أنها مُترادفة، ويلتبس عليهم الأمر فيطلقونها ويقصدون بها التيساق عموماً، لذا ارتأينا في هذه الجزئية أن نسلط الضوء عليها لتوضيح الفرق بينها وبين مصطلح التيساق.

## (أ)- التيساق و القرينة:

القرينة في اللغة: على وزن فعيلة بمعنى المفاعلة مأخوذة من المقارنة (1)؛ ويدل على جمع شيء إلى شيء كأن تقرن حجة بعمره. ويقال: قرينة الرجل؛ أي: امرأته (2)، فالقرينة إذا تفيد معنى الجمع بين الأشياء، ومعنى المصاحبة والمرافقة.

أمّا اصطلاحاً: عرّفها الشريف الجرجاني بأنها: «أمر يُشير إلى المطلوب» (3) ويعني بها الفقهاء: «كلّ أمانة ظاهرة تقارن شيئاً خفياً فتدل عليه» (4)، وقد عرّفها أحد الباحثين المحدثين بأنها عنصر من عناصر الكلام يُستدل به على الوظائف النحوية وتنقسم إلى قرينة لفظية: يتمكّن القارئ من خلالها معرفة اللفظ وموقعه هذا فاعل وهذا مفعول أو غير ذلك. وقرينة معنوية: تتمثل في العلاقة التي تربط ما بين عنصر من عناصر الكلام وبين بقيّة العناصر كعلاقة الإسناد وعلاقة الظرفية (5).

ومن خلال التعريف السابق للتيساق والقرينة يتبيّن أنّهما غير مُتشابهين، لسببين، هما (6):

الأول: الاختلاف في التعريف كما هو واضح.

الثاني: أنّ القرينة عامل مُساعد في فهم المعنى من التيساق، وليس التيساق نفسه؛ لأنّ التيساق

يحدّد بـ (العلاقات السياقية) التي ترتبط بالكلمات في التركيب وهي أحد أجزاءها القرينة لأنّ

الكلمات في التركيب حسب ما قبلها وما بعدها تُحدّد من الكلمات.

(1) - الشريف الجرجاني: التعريفات. ص: 141.

(2) - ابن فارس: مقاييس اللغة. 5 / 76-77، مادة: (ق ر ن).

(3) - الشريف الجرجاني: م س، ص س.

(4) - عمر الجيدي: أثر القرينة في توجيه الأحكام- نظرات في تاريخ المذهب المالكي. مجلة دعوة الحق، الرباط-

المغرب، عدد: 238، 1404هـ - 1984 من الموقع: [www.habous.gov.ma](http://www.habous.gov.ma)

(5) - ينظر: المرجع نفسه.

(6) - ينظر: جاسم محمد عبد العبود: مصطلحات الدلالة العربية. ص: 135.

**ب) - السِّيَاقُ وَالنَّظْمُ:**

النَّظْمُ فِي اللُّغَةِ: بِمَعْنَى «الْجَمْعُ وَالضَّمُّ وَالنَّظَامُ وَالرِّبْطُ وَالتَّأْلِيفُ». وَالَّذِي يُرَادُ بِهِ ضَمُّ الْكَلِمَاتِ الْمُتَخَيَّرَةِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْمَنْطِقُ»<sup>(1)</sup>.

وَفِي الْإِصْطِلَاحِ: يُعْرَفُ (الْخَطَابِيُّ) فِي رِسَالَتِهِ (بِبَيَانِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ) فِي قَوْلِهِ: «لَقَطُّ حَامِلٌ، وَمَعْنَى بِهِ قَائِمٌ، وَرِبَاطٌ لِهَمَّا نَاطِمٌ»<sup>(2)</sup>.

أَمَّا عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ النَّظْمِ وَالسِّيَاقِ هُوَ أَنَّ: النَّظْمَ يَبْحَثُ فِي تَرَابُطِ الْمَعَانِي بِأَنْفَاطِهَا، وَالسِّيَاقَ يَبْحَثُ فِي تَرَابُطِ الْمَعَانِي بِالسَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ، وَبِهَذَا يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمِصْطَلِحِينَ، وَبِعِبَارَةِ مُوجِزَةٍ دَقِيقَةٍ، النَّظْمُ هُوَ عِلَاقَةُ اللَّفْظِ بِالْمَعْنَى، وَالسِّيَاقُ هُوَ عِلَاقَةُ الْمَعْنَى بِالْمَعْنَى<sup>(3)</sup>. وَإِنَّ «كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ يُوظِّفُونَ مُصْطَلِحَ النَّظْمِ وَسِيَاقِ النَّظْمِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى السِّيَاقِ اللُّغَوِيِّ، قَالَ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ: لَيْسَ النَّظْمُ شَيْئًا إِلَّا تَوَخَّيَ مَعَانِي النَّحْوِ وَأَحْكَامَهُ وَوَجُوهَهُ وَفُرُوقَهُ فِيمَا بَيْنَ مَعَانِي الْكَلِمِ»<sup>(4)</sup>.

**ج) - السِّيَاقُ وَالْأُسْلُوبُ:**

الْأُسْلُوبُ فِي اللُّغَةِ: يَعْرِفُهُ ابْنُ مَنْظُورٍ بِقَوْلِهِ: «يُقَالُ لِلسَّطْرِ مِنَ النَّحِيلِ: أُسْلُوبٌ، وَكُلُّ طَرِيقٍ مُمَدَّدٌ؛ فَهُوَ أُسْلُوبٌ. قَالَ: وَالْأُسْلُوبُ: الطَّرِيقُ تَأْخُذُ فِيهِ، وَالْأُسْلُوبُ بِالضَّمِّ، الْفَرْقُ؛ يُقَالُ أَخَذَ فُلَانٌ فِي أُسَالِيْبٍ مِنَ الْقَوْلِ؛ أَي: أَفَانِينَ مِنْهُ»<sup>(5)</sup>. نَلَاظُ أَنْ مَعْنَى الْأُسْلُوبِ عِنْدَ ابْنِ مَنْظُورٍ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: دَلَالَةٌ حَسِيَّةٌ تُثَمِّلُ الْوَضْعَ الْأَسْبَقَ لِلْفِظِ، كَسَطْرِ النَّحِيلِ، وَالطَّرِيقِ الْمَمْتَدِّ، وَدَلَالَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ عَبَّرَ عَنْهَا ابْنُ مَنْظُورٍ بِالْفَرْقِ مِنَ الْقَوْلِ، وَهِيَ تُثَمِّلُ الْخَطْوَةَ الثَّانِيَةَ فِي الْوَضْعِ اللُّغَوِيِّ حَيْثُ تَنْتَقِلُ الْكَلِمَاتُ مِنْ مَعَانِيهَا الْحَسِيَّةِ إِلَى هَذِهِ الْمَعَانِي الْأَدْبِيَّةِ.

اصْطِلَاحًا: يُعْرَفُ صَالِحٌ بِلَعِيدِ الْأُسْلُوبِ بِقَوْلِهِ: «طَرِيقَةٌ خَاصَّةٌ لِلْمَتَكَلِّمِ فِي اسْتِخْدَامِ اللُّغَةِ، أَوْ سِمَةٌ مَا، أَوْ طَرِيقَةٌ مَا تُحَدِّدُ هَوِيَّةَ الْمَارِسَةِ اللُّغَوِيَّةِ فِي سِيَاقٍ مُعَيَّنٍ... وَبِتَعْبِيرٍ آخَرَ هُوَ الْفَرْقُ الْمَعْتَمَدُ عَلَى التَّنْظِيمِ وَالتَّنَاسُقِ وَطَرِيقَةٌ مِنَ النَّظْمِ وَضَرْبٌ فِيهِ... يَتَنَوَّعُ مِنْ مُسْتَحْدَمٍ إِلَى آخَرَ، وَلِذَا قِيلَ

(1) - صالح بلعيد: نظرية النظم. دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2004م ص: 92.

(2) - الخطابي، حمد بن محمد: بيان إعجاز القرآن. تحقيق: محمد خلف الله، الإسكندرية- مصر، ط3، د ت، ص: 27. نقلا عن: المنثى عبد الفتاح محمود: نظرية السياق القرآني. ص: 18.

(3) - ينظر: المنثى عبد الفتاح محمود: نظرية السياق القرآني. ص: 18-19.

(4) - مراد حاج محند: السياق ودوره في استنباط الأحكام النقدية التراثية. مذكرة ماجستير في النقد والبلاغة، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2012م، ص: 13.

(5) - ابن منظور: لسان العرب. مادة (س ل ب).

الأسلوب إنسان»<sup>(1)</sup>.

ويُفرّق عبد النعم خليل بين السياق والأسلوب في ما يأتي<sup>(2)</sup>:

1. الأسلوب مجموعة من السمات والخصائص اللغوية يتكرّر ورودها بسياق معيّن، بينما

السياق أوسع من ذلك بكثير حيث يحتوي هذه السمات ويزيد عليها.

2. الأسلوب خاص؛ أي أنه يتّجه إلى الفرد ويلتصق به لذلك قيل: (إنّ الأسلوب هو الرّجل)

بينما السياق عام؛ أي أنه دراسة التركيب اللغوي في ضوء القواعد العامّة للغة على جميع المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية.

ويرى ريفاتير أنه: « بالإمكان عدّ السياق معياراً، وأنّ الأسلوب يتحقّق بانحراف عن هذا

المعيار. ولا يعني السياق عند ريفاتير التّداعي والترابط وسياق الحال (ظروف القول) بل هو: بنية لغوية يقطع نسقها عنصر غير متوقع»<sup>(3)</sup>.

#### (د) - السياق والمناسبة:

المناسبة في اللغة: مصدر من ناسب يُناسب مُناسبة، وجاء في مقاييس اللغة: « التّون،

والسّين، والباء كلمة واحدة قيامها اتّصال شيء بشيء... نقول نسبت أنسب، والنّسيب: الطّريق

المستقيم لاتّصال بعضه من بعض»<sup>(4)</sup>. فالمعنى اللغوي لهذه المادّة يدور حول الاتّصال والترابط بين الأشياء.

وفي الاصطلاح العام: المناسبة هي علّة التّرتيب.

وعند علماء القرآن العظيم: مناسبات القرآن العظيم هي: (علل تّرتيب أجزاء بعضها ببعض). أو

بعبارة أخرى: مناسبات القرآن العظيم هي: (المعنى الذي يربط بين سور وآياته)...

وإنّ علم المناسبات هو: (معرفة مجموع الأصول الكلية والمسائل المتعلقة بعلل تّرتيب أجزاء

القرآن العظيم بعضها ببعض)»<sup>(5)</sup>.

(1) - صالح بلعيد: نظرية النظم، ص: 156.

(2) - عبد النعم خليل: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين - دراسة لغوية نحوية دلالية. دار الوفاء لعندين الطّباعة والنّشر، الإسكندرية - مصر، ط1، 2007 م، ص: 29.

(3) - يوسف أبو العدوس: الأسلوبية الرؤية والتّطبيق. دار المسيرة للنشر والتّوزيع والطّباعة، عمان - الأردن، ط 1، 1427 هـ / 2007 م، ص: 145.

(4) - ابن فارس: مقاييس اللغة. 5 / 423 - 424.

(5) - جلال الدّين أبي الفضل عبد الرّحمن السيوطي: علم المناسبات في السّور والآيات. تحقيق: محمّد بن عمر بن سالم بازمول. المكتبة المكيّة، باب العمرة - مكّة المكرّمة، ط1، 1423 هـ - 2002 م، ص: 27.

وَتَمَثَّلْ أَهْمِيَّةَ عِلْمِ الْمُنَاسَبَاتِ كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهَا الزَّرْكَشِيُّ: « (جَعَلَ أَجْزَاءَ الْكَلَامِ بَعْضُهَا آخِذًا بِأَعْنَاقِ بَعْضٍ، فَيَقْوِي بِذَلِكَ الْارْتِبَاطَ، وَيَصِيرُ حَالَهُ حَالِ -الأكيد- الْبِنَاءِ الْمَحْكَمِ، الْمُتَلَئِمِ الْأَجْزَاءِ). أَمَّا مَوْضُوعُ هَذَا الْعِلْمِ فَيَشْرُحُهَا الْبِقَاعِيُّ بِقَوْلِهِ: (.. عِلْمٌ تَعْرِفُ مِنْهُ عِلْلَ التَّرْتِيبِ، وَثَمَرَتُهُ الْإِطْلَاعُ عَلَى الرُّتْبَةِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا الْجُزْءُ بِسَبَبِ مَا لَهُ بِمَا وَرَاءَهُ وَمَا أَمَامَهُ مِنَ الْارْتِبَاطِ وَالتَّعْلُقِ الَّذِي هُوَ كَلْحَمَةِ النِّسْبِ، فَعِلْمٌ مُنَاسَبَاتِ الْقُرْآنِ عِلْمٌ تَعْرِفُ مِنْهُ عِلْلَ تَرْتِيبِ أَجْزَائِهِ، وَهُوَ سُرُّ الْبَلَاغَةِ، لِأَدَائِهِ إِلَى تَحْقِيقِ مُطَابَقَةِ الْمَعَانِي لِمَا اقْتَضَاهُ مِنَ الْحَالِ.. ) » (1).

أما في ما يخصُّ الفَرْقَ بَيْنَ السِّيَاقِ وَالْمُنَاسَبَةِ فَتَمَثَّلُ فِي مَا يَأْتِي (2):

1. أَنَّ الْمُنَاسَبَةَ وَسِيلَةَ لخدمة السِّيَاقِ الْعَامِ.
2. أَنَّ السِّيَاقَ أَشْمَلَ مِنَ الْمُنَاسَبَةِ، بِدَلِيلِ أَنَّ الْمُنَاسَبَةَ تَخْتَصُّ بِمَوْضِعٍ مُحَدَّدٍ وَعِلَاقَتِهِ بِالْقُرْآنِ وَكَذَلِكَ بِخَطَابٍ مِثَالِي مَجْرَدٍ يَفْتَرِضُ أَنْ يَكُونَ، بَيْنَمَا السِّيَاقُ يَشْمَلُ مَوْضِعَ نَزُولِ الْآيَةِ وَيَشْمَلُ كُلَّ الْخَطَابَاتِ الْمَجْرَدَةِ وَالْوَاقِعِيَّةِ.
3. أَنَّ عِلْمَ الْمُنَاسَبَةِ بِاعْتِبَارِهِ عِلْمًا، يَخْتَصُّ بِمَدَوْنَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ السَّبَبُ فِي ظُهُورِهِ أَيْ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالْمُنَاسَبَةُ إِجْرَاءٌ تَدَاوَلِي مَدَوْنَتَهُ خِطَابٍ مَجْرَدٍ، بَيْنَمَا السِّيَاقُ يَخْتَصُّ بِعَدِيدِ الْمَدَوْنَاتِ غَيْرِهَا.

وَمِنْ خِلَالِ وَظِيفَةِ كُلِّ مِنْهُمَا يَحَدِّدُ الْمُتَنَبِّئِيُّ عَبْدَ الْفَتْاحِ مُحَمَّدُ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا:

« فَوْظِيفَةُ الْمُنَاسَبَاتِ الْكَشْفُ عَنْ وُجُوهِ الرِّبْطِ بَيْنَ الْآيَاتِ وَالْمَقَاطِعِ الَّتِي لَا يَظْهَرُ -لأَوَّلِ وَهَلَةِ- وَجْهُ ارْتِبَاطِهَا بِمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، وَلَا يَتِمُّ الرِّبْطُ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ الْمَعَانِي الَّتِي احْتَوَتْهَا الْآيَاتُ السَّابِقَةُ وَاللَّاحِقَةُ، وَهَذِهِ وَظِيفَةُ السِّيَاقِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الْكَشْفِ عَنْ مَعَانِيهِ الْمُتَتَابِعَةِ؛ فَإِنَّ الَّذِي يُشَخَّصُ الْمَعَانِي وَيُشَكِّلُهَا وَيَحَدِّدُ بِدَايَتِهَا وَنَهَائِهَا سِيَاقَهَا فَالسِّيَاقُ خَادِمٌ لِعِلْمِ الْمُنَاسَبَاتِ، وَلَا يَتِمُّ اسْتِجْلَاءُ الْمُنَاسَبَاتِ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ سِيَاقِ الْمَقَاطِعِ الْقُرْآنِيَّةِ وَحِينَئِذٍ يَتَحَدَّدُ الْمَوْضُوعُ، وَعَلَيْهِ يَكُونُ إِبْرَازُ الْمُنَاسَبَةِ أَمْرًا فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ وَالْبَيَانِ » (3).

(1) - رَدَّةُ اللَّهِ بْنِ رَدَّةِ الطَّلْحِيِّ: دَلَالَةُ السِّيَاقِ. ص: 120.

(2) - يَنْظُرُ: سَعْدُ بُولَنوَارٍ: آيَاتُ تَحْلِيلِ الْخَطَابِ فِي تَفْسِيرِ أَضْوَاءِ الْبَيَانِ لِلشَّنْقِيطِيِّ - تَحْدِيدُ الْمَفَاهِيمِ النَّظْرِيَّةِ. دَكْتَوْرَاهُ الْعِلْمِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَآدَابِهَا، تَخْصُّصٌ: الْأَدَبُ الْعَرَبِيُّ وَنَقْدُهُ، جَامِعَةُ قَاصِدِي مَرْيَاةٍ، وَرَقْلَةُ-الْجَزَائِرِ، 2011/2012 م، ص: 12.

(3) - الْمُتَنَبِّئِيُّ عَبْدُ الْفَتْاحِ مُحَمَّدُ: نَظْرِيَّةُ السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ. ص: 19.

**هـ) - التبايق والتسقي:**

التسقي لغة: جاء في القاموس المحيط « تسقى الكلام: عطف بعضه على بعض. والتسقي، مُحركة: ما جاء من الكلام على نظام واحد... ومن كل شيء: ما كان على طريقة نظام عام... وأنسق: تكلم سجعاً. والتسقيق: التنظيم. وناسق بينهما: تابع. وتناسقت الأشياء، وانتسقت وتنسقت بعضها إلى بعض: بمعنى»<sup>(1)</sup> إذن يدور مفهوم التسقي لغة حول التنظيم والترتيب والتتابع. والمقصود بالتسقي اصطلاحاً هو: « مجموعة من الأجزاء تكون متماسكة ارتباطاً ومتماملة حركياً ومُتناغمة إيقاعياً فالتسقي يتنفس ويحي ووجوديا ووظيفياً من خلال تكامل وظائف أجزائه المترابطة»<sup>(2)</sup>.

وقد عرّف تحسين عبد الرضا التسقي بأنه: « ترتيب الكلمات في نظام اللغة التي يُكتب بها النص. من غير النظر إلى ظروف القول، وليس شرطاً أن يكون مبنياً على أساس اللغة المعيارية، أي لا يكون نظاماً مُميّزاً، بل يكفي أن يكون هذا النظام الذي أُطرد عليه النص»<sup>(3)</sup>.

أما عن الفرق بين التسقي والتبايق يتمثل في ما يأتي:

1. فمفهوم التسقي يتحدد من خلال البنية الكلية للنص، وترتيب عناصره بعضها ببعض وفق نظام اللغة، من دون النظر إلى الظروف المحيطة به، بينما التبايق يتحدد من خلال العناصر التي تسبق وتلحق وحدة ما ومن خلال النص ككل، بالإضافة إلى الظروف الاجتماعية والثقافية والنفسية... المحيطة به. فالتبايق إذاً أشمل من التسقي.
  2. بين التسقي والتبايق علاقة تفاعلية تكاملية فالتبايق يحتوي أنساقاً في داخله والتسقي لا قيمة لوجود عناصره مفردة وإنما في سياق علاقات منظومة.
- هناك من وظّف مُصطلح التسقي أو نسق الكلام « للتعبير عن التبايق اللغوي لاسيما عند الأصوليين، يقول الشاطبي في الموافقات عن سورة (المؤمنون) غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوة. نسق الكلام معناه عطف بعضه على بعض وترتيبه ومنه حروف النسق أي العطف»<sup>(4)</sup>.

(1) - الفيروز آبادي: معجم القاموس المحيط. ص: 1282، مادة: (ن س ق).

(2) - عبد الرحمان عبد الدايم: التسقي الثقافي في الكناية. مذكرة ماجستير، تخصص: لغة وأدب عربي، فرع: النظرية الأدبية المعاصرة، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، 2011م، ص: 13.

(3) - تحسين عبد الرضا: الصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث. دار دجلة الأردن - عمان، ط1، 2011م، ص: 414.

(4) - مراد حاج محند: التبايق ودوره في استنباط الأحكام النقدية التراثية. ص: 14.

## (د) - التّعبير الّسياقيّ والمعنى الّسياقيّ:

يقصد بالتّعبير الّسياقيّ: «توارد كلمتين أو أكثر في سياق واحد، أو تلازم كلمتين أو أكثر ومصاحبتهما في اللّغة بصورة للدّلالة على معنى يفهم من تلاحم هذا التّركيب ونظام بنيته. ويدخل تحت هذا المفهوم التّراكيب التي تدلّ على مسمّى واحد مثل: مكّة المكرّمة، والمدينة المنوّرة، والقدس الشّريف، وفلسطين المحتلّة، دول الخليج، الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، الأمّة العربيّة، فهذه التّراكيب تُشبه الأعلام المفردة في دلالتها على ما تُطلق عليه في الوضوع والاصطلاح»<sup>(1)</sup>.

أمّا في ما يخصّ الفرق بين التّعبير الّسياقيّ والمعنى الّسياقيّ هو أن: «التّعبير الّسياقيّ لا يعني المعنى الّسياقيّ، فالأخير عامّ شامل كلّ معاني اللفظ، ومنها التّعبير الّسياقيّ الذي يتحقّق معناه من سياق واحد تتلازم فيه بنيته اللفظية كما بيّنا آنفاً - والمعنى الّسياقيّ لا يفترض تضام ألفاظه أو مصاحبة بعضها بعضاً في الكلام، وإنّما تخضع لترتيب المعاني وفق قواعد اللّغة»<sup>(2)</sup>.

وأخيراً ما نستخلصه ممّا سبق: أنّ الفرق بين هذه المصطلحات وبين الّسياق هو أمر اصطلاحيّ، وأنّ لكلّ واحدة من هذه المصطلحات خصّية تختصّ بها، كما أنّها مُرتبطة ومُتداخلة مع مفهوم الّسياق ومكمّلة وخادمة له، كما نلاحظ أنّ من هذه المصطلحات ما يُفيد معنى الّسياق اللّغوي كالنّظم والنّسق، ومنها ما يُفيد معنى الّسياق غير اللّغوي كالمُناسبة.

(1) - محمود عكاشة: التّحليل اللّغوي في ضوء علم الدّلالة - دراسة في الدّلالة الصوتيّة، والصرفيّة، والنحويّة، والمعجميّة. دار النشر للجامعات، القاهرة، مصر، ط1، 1426هـ - 2005م، ص: 187.

(2) - المرجع نفسه. ص: 188.

## 2/- دور التساق وأهميته:

لا يتحدد المراد من اللفظ وتتضح معالمة، ولا يتبين المقصود من الخطاب والمراد من النص، إلا بالنظر للتساق وما يُحيط به من عوامل لغوية وغير لغوية، فحينها ينتفي تعدد معاني اللفظ واشترائه وتعميمه، ويُقطع بإرادة أحد معانيه المحتملة، وتتحدد مجريات الخطاب، وتتحقق الدورة بصورة صحيحة بين المتخاطبين، ويرفع خفاء النص، أو منع تأويله، أو تغليب وجه على وجه، لأنه لولا التساق لاختل توازن التفاهم، وما تُمكن من التواصل بشكل سليم، لذا فقد كان للتساق ميزات جمّة وفوائد عديدة باعتبار وظيفته. ويمكننا أن نُوجز أهميته ودوره فيما يأتي:

## أ- التساق يُسهّم في تحديد المعنى ورفع اللبس:

يُسهّم التساق بكلّ عناصره في الكشف عن الدلالة، ويُعين على بيان المعنى وتحديدّه وتوجيهه ورفع اللبس أو الغموض « فلم يعد كافيًا لفهم معنى ما نظرة عُجلى في معجم لغوي، بل لأبدًا من البحث عنه في البيئة اللغوية التي قيل فيها، المتكلم نفسه ملاحظه، بنبرات صوته، طريقته في نظم الكلمات، كلماته التي تفوه بها، وقد أطلق البحث الحديث على هذه الأمور مُجمعة اسم "المسرح اللغوي" <sup>(1)</sup>.

فمعظم المفردات اللغوية من حيث المفهوم المعجمي ذالة على أكثر من معنى واحد « لا يُجده إلا التساق الذي ترد فيه الكلمة حيث تظهر علاقتها بالكلمات السابقة والأحققة لها بالإضافة إلى المقام الذي يُكمل المعنى الدلالي، فكلمة "جلل" تعني "العظيم" غير أنّها في قول الشاعر:

كلُّ شيءٍ ما خلا الموت جَلَلٌ \* والفتى يسعى و يلهيه الأمل

تعني اليسير، يقول ابن الأنباري "ت327هـ": "فدلّ ما تقدّم قبل جَلَل وتأخّر بعدها أنّ معناه، كلُّ شيءٍ ما خلا الموت يسير، ولا يتوهم ذو عقلٍ وتمييز أنّ الحال هنا معناها العظيم". وهناك الكثير من المفردات اللغوية التي تحمل معاني متضادة تظهر دلالتها بمعونة التساق، فالتساق وحده هو الذي يُحدّد المعاني الدلالية لهذه الكلمات عن طريق وضعها في سياقاتها الأصلية <sup>(2)</sup>. وله يعود الفضل في ضبط هذه الدلالات للكلمة الواحدة، ودفع ما يتوهم من لبس « كما في كلمة السائل مثلاً: ففي قولنا: "الدواء السائل أسلم للأطفال" تكون "السائل" اسم فاعل من "سال" وفي قوله

(1)- ماهر عيسى حبيب: التغير الدلالي بين المعنى السياقي والمعنى المعجمي. مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، سورية، المجلد 81، جزء 3، 2006م، ص: 844.

(2)- عبد النعيم خليل: نظرية التساق بين القدماء والمحدثين. ص: 10.

تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّسَائِلٍ وَأَلْمَحْرُومٍ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: 23-25] تكون "السائل" اسم فاعل من "سأل" وفي قولنا "سائل العليا عنا" يكون "سائل" فعل أمر<sup>(1)</sup>.

### ب) - السِّيَاقُ يُحَدِّدُ الْمَعْنَى الدَّلَالِيَّ لِلْمُشْتَرَكِ اللَّفْظِيِّ وَالْكَلِمَاتِ الْمُتَرَادِفَةِ:

للسِّيَاقِ دورٌ مهمٌ في التَّفْرِيقِ بين معاني المفردات التي تندرج تحت ما يُسمى بالمشترك اللفظي، كما أنه له أهمية كبيرة في تحديد المعنى الدلالي للكلمات المترادفة التي لها نفس المعنى؛ إذ لا يمكننا تحديد المعنى الدقيق لألفاظ هاتين الظاهرتين إلا من خلال السِّيَاق. يقول سيبويه في أول كتابه تحت عنوان "هذا باب اللفظ للمعاني": «اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين، وسترى ذلك إن شاء الله تعالى. فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو: جلس وذهب. واختلاف اللفظين والمعنى واحد، نحو: ذهب وانطلق، واتفاق اللفظين والمعنى مختلف، قولك وجدث عليه من الموجدة، ووجدت إذا أردت وجدان الضالة وأشباه هذا كثير»<sup>(2)</sup>.

ف«اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين» هو المختلف، الذي مثل له سيبويه بـجلس وذهب، و«اختلاف اللفظين والمعنى واحد» هو المترادف، ومثل له بذهب وانطلق، و«اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين» هو المشترك اللفظي، ومثل له بوجد من الموجدة أو من وجدان الضالة. وهكذا أشار سيبويه إلى وجود ظاهرة المختلف والمترادف والمشارك اللفظي في اللغة العربية، مما لا يدع مجالاً للشك فيها بين اللغويين العرب<sup>(3)</sup>.

وحول تحديد السِّيَاق لدلالة هذه الظواهر، يقول: محمد سالم صالح أن "فندريس" يرى بأن «الذي يُعَيِّن قيمة الكلمة في كلِّ الحالات التي ناقشناها إنما هو السِّيَاق، إذ أن الكلمة تُوجد في كلِّ مرّة تُستعمل فيها في جوٍّ يُحدِّد معناها تحديداً مؤقتاً، والسِّيَاق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدلَّ عليها»<sup>(4)</sup>.

(1)- زيد عمر عبد الله: السياق القرآني وأثره في الكشف عن المعاني. مجلة جامعة الملك سعود، م15، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية، 2، 1423هـ-2003م. ص: 839.

(2)- سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر): الكتاب. تحقيق وشرح عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي، القاهرة- مصر، ط3، 1408هـ - 1988م، 24/1.

(3)- ينظر: حمدان رضوان أبو عاصي: الأداءات المصاحبية للكلام وأثرها في المعنى. مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، المجلد17، العدد2، يونيو 2009م. ص: 80.

(4)- محمد سالم صالح: الدلالة والتعقيد النحوي-دراسة في فكر سيبويه. دار غريب، القاهرة، ط1، 2006م. 365.

**ج) - السِّياق يُساعِدُ عَلَيَّ تَعْيِينِ دَلَالَةِ الصِّيغَةِ الصَّرْفِيَّةِ:**

كما أنَّ للسِّياق أثره في تَعْيِينِ دَلَالَةِ الكَثِيرِ مِنَ الصِّيغَةِ الصَّرْفِيَّةِ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَهَا، فَقَدْ تَأْتِي بَعْضُ الأَبْنِيَةِ مُتَّحِدَةً الوَزنِ -تَتَّفَقُ فِي الشَّكْلِ-، مُخْتَلِفَةً الدَّلَالَةَ عَلَى المَعْنَى المَرادِ، فَمَثَلًا: صِيغَةُ فَعَلَ قَدْ تَكُونُ لِلْمَصْدَرِ كضرب، أو لِاسْمِ مُعِينِ كبيت، أو لِلصِّفَةِ كشهم، وَالمَرجعُ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ أمْثَالِ هَذِهِ الصِّيغَةِ هُوَ السِّياقُ (1). وَأيضًا مِنْ تِلْكَ الصِّيغَةِ صِيغَةُ النِّسْبِ إِلَى ما آخِرُهُ ياءٌ مُشَدَّدَةٌ، نُحُو كرسِيٌّ، وَزنجِيٌّ، وَشافِعِيٌّ، ففِي هَذِهِ الحَالَةِ يَتَّحِدُ لَفْظُ المَنْسُوبِ وَغَيْرِ المَنْسُوبِ، وَالَّذِي يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا إِنَّمَا هُوَ السِّياقُ الَّذِي يُجَدِّدُ المَرادَ وَيُعَيِّنُ المَقْصُودَ (2).

**د) - أَهْمِيَّةُ السِّياقِ فِيهِ الوُصُولُ إِلَى المَعْنَى النُّحَوِيِّ الدَّلَالِيِّ:**

لِلسِّياقِ دَوْرُهُ المَهْمُ فِي تَوَجِيهِ الإِعْرَابِ، وَالوُصُولِ إِلَى "المَعْنَى النُّحَوِيِّ الدَّلَالِيِّ" فَلا تَكُونُ لِلعَلاَقَةِ النُّحَوِيَّةِ مِيزَةٌ فِي ذَاتِهَا، وَلا لِلكَلِمَاتِ المَخْتَارَةِ مِيزَةٌ فِي ذَاتِهَا، وَلا لِوَضْعِ الكَلِمَاتِ المَخْتَارَةِ فِي مَوْضِعِهَا الصَّحِيحِ مِيزَةٌ فِي ذَاتِهَا ما لَمْ يَكُنْ كَلَّهُ فِي سِياقِ مُلائِمٍ. يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَماسَةٌ: لا يَمْكُنُ إِنْكارُ ما لِسِياقِ النِّصِّ اللُّغَوِيِّ، وَسِياقِ المَوْقفِ المَلابِسِ لِلنِّصِّ مِنْ تَأْثِيرٍ عَلَى العِناصِرِ النُّحَوِيَّةِ مِنْ حَيْثُ الذِّكْرُ وَالحِذْفُ، وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأخِيرُ، كَمَا لا يَنْكُرُ ما لِلسِّياقِ مِنْ دَوْرٍ فِي تَغْيِيرِ مَعْنَى الجُمْلَةِ ذاتِ الصِّيغَةِ التَّركيبِيَّةِ الوَاحِدَةِ بِمُفْرَدَاتِهَا نَفْسِهَا، إِذا قِيلَتْ بِنِصِّهَا فِي مَوَاقِفٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَذلكَ يَعودُ إِلَى اِختِلافِ السِّياقِ الَّذِي تَرَدُّ فِيهِ مَهْمَا كَانَتْ بَساطَةً هَذِهِ الجُمْلَةُ وَسَدَّاجَتِهَا (4).

**هـ) - أَهْمِيَّةُ السِّياقِ فِيهِ تَرْجِيحِ مَعْنَى عَلَيَّ ما سِوَاهُ:**

لا يَتَمَتَّعُ دَوْرُ السِّياقِ عَلَى كَشْفِ الدَّلَالَةِ وَتَحْدِيدِهَا، «وَإِنَّمَا يَتَعَدَّاهَا إِلَى وَظِيفَةٍ أُخْرَى تُخْتَصُّ بِتَرْجِيحِ مَعْنَى مُعَيَّنٍ عَلَى ما سِوَاهُ، وَتَقْوِيَّةِ دَلَالَةِ مَخْصُوصَةٍ عَلَى حِسابِ دَلَالَةِ مَرجُوحَةٍ، وَرَفْعِ الاحْتِمالاتِ بِتَأْكِيدِ احْتِمَالِ وَاحِدٍ قَوِي لِقُوَّةِ مُرْتَكِزِهِ السِّياقِيِّ» (5). يَقُولُ قُطْبُ الرِّيسُونِيِّ: «إِنَّ مِنْ وَظَائِفِ السِّياقِ التَّرجِيحَ بَيْنَ الاحْتِمالاتِ المَتزاحِمَةِ لِللفْظِ أو النِّظْمِ، فيَقَدِّمُ الأَحْسَنَ سِياقًا، وَما سِيقَ الخِطابِ لِأَجَلِهِ، وَما كانَ جاريًا عَلَى النِّظْمِ، وَبِقَدْرِ الشُّرُودِ عَنِ جادَةِ السِّياقِ، وَقَرائِنِهِ الدَّالَّةِ عَلَى المَقْصُودِ، يَشْرُدُ المَرادَ، وَيَسْتَوِي الحِفاءَ عَلَيْهِ، وَيُؤوِلُ النِّظْرَ إِلَى طَرِيقِ مَسدُودِ تَتَنازَعِهِ أَضْغاثَ مِنْ

(1) - ينظر: عبد النعيم خليل: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين. ص: 12.

(2) - ينظر: حمدان رضوان أبو عاصي: الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى. مجلة" ص: 80-81.

(3) - محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة مدخل إلى دراسة المعنى النحوي - الدلالي. دار غريب، القاهرة، دط، 2006م. ص: 143-144.

(4) - ينظر: محمد إقبال عروي: دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية - مرجعية منهجية، روافد، الكويت، ط1، 1428هـ/2007م، ص: 32.

المعاني، وأوزاع من المباني، تمرّق لحمه السيّاق، وتجعل النصّ عصياً»<sup>(1)</sup>.

#### (و) - السيّاق يفتح لمن المعنى العاطفي:

كما أنّ للسيّاق دور مهمّ في الإفصاح عن المعاني العاطفية أو الانفعالية الذي تقصر عنه الكلمة، وهي غارّة عن سياقها. فالمعنى المعجمي، وحتىّ الوظيفي قد يكون قاصراً، في كثير من الأحيان، عن أن يُبيّن المراد. لذا فالسيّاق وحده هو الذي يُساعدنا على إدراك التبادل بين المعاني الموضوعية، والمعاني العاطفية والانفعالية وهي أبعاد قيمية في الدلالة، تبرز من خلال إسقاطات المعاني الموضوعية على سياقاتها<sup>(2)</sup>.

#### (ز) - يُعين السيّاق على تحديد أسلوب الكلام:

إنّ للسيّاق دور هام في تحديد أسلوب الكلام « فحيناً يُخالف ظاهره المقصود به، فيأتي التعبير بالماضي والمقصود المضارع، أو العكس، وحيناً يكون ظاهره الخبر والمقصود به الإنشاء، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَقَاتُ يَرَبَّرْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: 228]، وقوله تعالى: ﴿وَأُولَادَاتٌ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ﴾ [البقرة: 233]، فالأسلوب أسلوب خبر لكن المراد من ذلك الأمر، والمرشد هو السيّاق، فالصيغة كانت مقصودة للدلالة على الأمر، قال الزركشي -رحمه الله- عن هاتين الآيتين: "السيّاق يدلّ على أنّ الله تعالى أمر بذلك، لا أنّه خبر وإلّا لزم الخلف في الخبر"<sup>(3)</sup>.

#### (ح) - دور السيّاق في إنتاج وتلقّي النص:

إضافة إلى دور السيّاق في البحث عن المعنى في النصّ، وجعله متماسكاً ومُنسجماً، فإنّ له دور بارز في إنتاج وتلقّي النصّ « وهذا ما أدّى بالباحث فان ديك إلى أن يجعل السيّاق يتعلّق بقضايا تأويل الإشارة الإيديولوجية في العالم الخارجيّ فهذا تفسير للعلاقة التلازمية بين النصّ والسيّاق، لأنّ النصّ يرتبط بالسيّاق الذي تحدّده ثقافة المجتمع، وانعدامه يفقد النصّ نصيّه أي أنّه يتحوّل إلى اللانص، بناءً عليه يمكن اعتبار السيّاق شفرة يستعين بها المحلّل/القارئ في تأويل النصّ،

(1) - قطب الريسوني: النصّ القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبير. ص: 461 .

(2) - ينظر: نواري سعودي أبو زيد: الدليل النظري في علم الدلالة حسب المقرر الرسمي للجامعات الجزائرية. دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، 2007م، ص: 160-161.

(3) - تهاني بنت سالم بن أحمد باحويرث: أثر دلالة السيّاق القرآني في توجيهه ص: 65.

لأنَّ السِّيَاق يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوضِّحَ لَنَا التُّقْطَةَ الَّتِي تَمَّ التَّعْبِيرُ عَنْهَا هَذَا مَا يَجْعَلُ مِنَ السِّيَاقِ فِي تَحْلِيلِ النَّصِّ عُنْصُرًا مُشَارِكًا فِي إِنتَاجِ الْمَعْنَى، ذَلِكَ أَنَّ بِنِيَةَ النَّصِّ مُحْكَمَةً بِسِيَاقِ الْحَالِ، وَهَذَا السِّيَاقُ يُمْكِنُ اسْتِخْدَامُهُ لِيَصْنَعَ تَنْبُؤَاتٍ حَوْلَ بِنِيَةِ النَّصِّ»<sup>(1)</sup>.

وعليه، فإنَّ للسِّيَاقِ دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي حَلِّ كَثِيرٍ مِنَ الْمَشْكَلاتِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتِي تُطْرَحُ عَادَةً نَتِيجَةً غُمُوضِ الْمَعْنَى، كَمَا فِي ظَاهِرَةِ الْمَشْتَرَكِ اللَّفْظِيِّ وَظَاهِرَةِ التَّرَادُفِ، وَكَيْفَ أَنَّهُ يُسَاعِدُ عَلَى تَعْيِينِ دَلَالَةِ الصِّيْغَةِ الصَّرْفِيَّةِ وَتَوْجِيهِ الإِعْرَابِ وَتَرْجِيحِ مَعْنَى عَلَى مَا سِوَاهِ، كَمَا أَنَّهُ فِي حَالَاتٍ كَثِيرَةٍ يَعْمَلُ السِّيَاقُ عَلَى الإِفْصَاحِ عَنِ الْمَعْنَى الْعَاطِفِي أَوْ الإِنْفِعَالِي الَّذِي تَقْصُرُ الْكَلِمَةُ عَنْهُ وَغَيْرِهَا... مِمَّا يُوفِّرُ الْجُهْدَ عَلَى الْمَسْتَمِعِ، بَلْ حَتَّى عَلَى الدَّارِسِ فِي ضَبْطِ الدَّلَالَةِ، بَجَنَابٍ لِكُلِّ تَشْوِيشٍ.

(1) - بلقاسم منصورى: الآراء النحوية في كتاب "اللغة العربية معناها ومبناها" دراسة وصفية تحليلية. ماجستير في اللغة والأدب العربي، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2013م، ص: 132.

## المبحث الثاني: السياق في دراسات النحاة واللغويين

يقول الباحث محمد أحمد خضير: « من الصعب أن يُدرس التركيب بعيداً عن دلالاته، ويفرض السياق وجوده على تلك الدراسات، لأن التركيب لا يعزل عن السياق بنوعيه اللغوي الذي يعتمد على النص، وغير اللغوي الذي يعتمد على ما حول النص من ظروف خارجية تفرض نفسها عليه»<sup>(1)</sup>. من هذه المقولة نستشف العلاقة الوطيدة بين النحو والدلالة والسياق، فلا يستطيع أحدهم أن يعزل عن الآخر ويكمل الواحد منهم دور الآخرين وبهم يتضح ويتحدد المعنى ويتم التواصل السليم، لذلك لا ينبغي أن نغفل عن القواعد النحوية لأنها تحارب اللحن وتقوم اللسان وتقيم النطق الصحيح، ولا نغفل عن الدلالة التي بها نتوصل إلى المعنى المراد، ولا عن السياق الذي يعدُّ همزة وصل بين النحو والدلالة، لذلك لا يمكن عند دراسة التركيب فصله عن دلالة السياق.

وقد عرّف علم النحو عند العرب القدماء بأنه: « العلم الذي يُبحث فيه عن معرفة أحوال أواخر الكلمات من حيث الضبط العربي الصحيح سواءً أكانت هذه الكلمات معربة أو مبنية»<sup>(2)</sup>، وعرّفه ابن السراج (ت 316هـ) بقوله: « النحو إنما أُريد به أن ينحو المتكلم إذا تعلمه كلام العرب. وهو علم استخراج المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب، حتى وقفوا منه على العرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة»<sup>(3)</sup>. ويعرّفه ابن جنّي بقوله: « هو انتحاء سمّت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقيق والتكسير والإضافة والنسب والتركيب، وغير ذلك»<sup>(4)</sup>.

ولم يكن اهتمام القدماء منذ نشأة النحو العربي - التي كانت أولى غاياته الحفاظ على النص القرآني من الوقوع في مخاطر اللحن والتحريف وكذا فهمه ومعرفة أسرار دلالاته التركيبية - « منصباً فقط على دراسة النحو كقواعد شكلية تنظم عليها الكلمات الشكلية أو توظيف الكلمات توظيفاً نحويّاً مجرداً من الدلالة، بل امتدّ هدف النحويين إلى مجال أوسع تجاوز الشكل والوظيفة النمطية للفظ في التركيب، فقد درس النحويون الجمل في إطار المعنى، فعالجوا دلالة الجملة في إطار مستويات

(1)- محمد أحمد خضير: الدلالة والتركيب والسياق - دراسة تطبيقية. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط 1، 2010م، ص:7.

(2) - عبد النعيم خليل: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين. ص: 111.

(3) - ابن السراج (أبو بكر محمد بن سهل النحوي البغدادي): الأصول في النحو. تحقيق عبد الحسين الفتلي. مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط3، 1417هـ - 1996م، 1/ 37.

(4) - ابن جنّي: الخصائص. 34/1.

التحليل اللغوي: الصوتي والصرفي والتركيبي (النحو) والدلالي وغير ذلك من هذه المستويات مثل الدلالة المعجمية والسياقية، والمعنى الحقيقي والمجازي. وقاموا بتفكيك الجمل إلى وحدات دلالية، فبحثوا الدلالة الزمنية، والجنس والعدد، وبحثوا وظائف وحدات التركيب مثل: الفاعل والمفعول، والمبتدأ والخبر، كما بحثوا دلالة الكلمة المفردة من الناحية الصرفية، وامتد هذا إلى الوحدات الصغرى ذات الدلالة، وهي حروف المعاني التي تؤدي وظائف دلالية في التركيب، مثل حروف المضارعة وياء النسب وحروف الزيادة وأثرها في المعنى<sup>(1)</sup>. فالنحاة منذ البداية كانوا مهتمين بالمعنى ودوره في التقييد، فارتبط عملهم بالدلالة وما كان لينفصل عنها.

ونستنتج من هذا أن هناك تفاعلاً « بين العناصر النحوية والعناصر الدلالية، فكلما يمدُّ العنصر النحوي العنصر الدلالي بالمعنى الأساسي في الجملة الذي يُساعد على تمييزه وتحديدده، يمدُّ العنصر الدلالي العنصر النحوي كذلك ببعض الجوانب التي تُساعد على تحديده وتمييزه، فبين الجانبين أخذ وعطاء وتبادل تأثيري مستمر<sup>(2)</sup>». يقول الباحث محمد أحمد خضير: «إننا لا نستطيع أن ندرس علم الدلالة دون افتراض الكثير من علم النحو، كما أن الكلام عن التحليل اللغوي من غير الإشارة إلى المعنى هو كمن يصف طريقة صنع السفن من غير إشارة إلى البحر كما يقول دافيد كريستال<sup>(3)</sup>». وبالتالي كانوا يستهدون بالسياق لتحديد الدلالة وبيان وإيضاح المعنى.

فلا يمكن بحال نُكران أن دلالة السياق تجعل الجملة ذات الهيئة التركيبية الواحدة بمفرداتها نفسها إذا قيلت بنصّها في مواقف مختلفة، تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه مهما كانت بساطة هذه الجملة وسداحتها. ولا ينكر تأثير دلالة سياق النص اللغوي، وسياق الموقف الملابس له على العناصر النحوية من حيث الذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والتعريف والتشكيك وغير ذلك<sup>(4)</sup>.

(1) - محمود عكاشة: التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة. ص: 8.

(2) - محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة مدخل إلى دراسة المعنى النحوي - الدلالي. ص: 143.

(3) - محمد أحمد خضير: الدلالة والتركيب والسياق - دراسة نظرية. ص: 54.

(4) - ينظر: محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة مدخل إلى دراسة المعنى النحوي - الدلالي. ص: 143.

فقد احتلَّ السياق أهمية خاصة لدى النُّحاة، حين تنبَّهوا إلى أهمية دراسة التَّركيب في سياقه الذي قيل فيه، فالكثير من التَّراكيب لا نعي معناها إلا باسترجاعها إلى سياقها وموافقها التي قيلت فيها، كما اهتمَّ النُّحاة القدامى بمبادئ التي تعدُّ اليوم من صميم النَّظرية السِّياقية وسوف نلاحظ ذلك حين دراسة عناصر السِّياق عند النُّحاة.

### المطلب الأول: المصطلح والملاحم

عندما نَتَصَفَّح كتب النُّحاة واللُّغويين العرب القدامى نجد أنَّهم لم يُشيروا إلى مُصطلح السِّياق بصريح لفظه، لكنَّهم عبَّروا عن مفهومه من خلال ألفاظ عدَّة تكرر ذكرها في صفحات مؤلفاتهم. فكلمة السِّياق من الألفاظ التي استخدمها القدامى من النُّحاة بمدلولها « اللُّغوي العام، ولم تكن تحمّل المفهوم الاصطلاحي الذي أصبح شائعاً فيما بعد بين علماء اللُّغة المحدثين وبخاصة الدَّلاليين منهم»<sup>(1)</sup>.

ومن الألفاظ التي استخدمها النُّحاة للدَّلالة على السِّياق اللُّغوي لفظ "الكلام" ومثال ذلك ما ورد في (البيان في غريب إعراب القرآن) للأنباري « في مَعْرُض بَيَّانِهِ لِحَدْفِ أَحَدِ عُنَاوِيْرِ التَّرْكِيبِ "لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ" وَذَلِكَ فِي إِعْرَابِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ {مريم: 74}، إذ التَّقْدِيرُ (كم قرن أهلكنا)، أو "لدلالة الكلام الذي قبله عليه" وذلك في قوله تعالى: ﴿يُحَاوِرُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ {الحج: 23}، فقد وَجَّه النَّصْبُ فِي (لُؤْلُؤًا) بِتَقْدِيرِ فِعْلٍ، وَتَقْدِيرِهِ (و يعطون لؤلؤاً) لدلالة (يُحَلِّون) عليه في أول الكلام»<sup>(2)</sup>.

ومن الألفاظ التي استخدموها للدَّلالة على سياق الحال؛ مصطلح "الحال" وقد تكرر في كتاب سيويج (ت180هـ) في أكثر من موضع « ولعلَّه أقدم مُصطلح في الثُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ وَالنَّحْوِيِّ يَتَقَرَّبُ مِنْ مَفْهُومِ سِيَاقِ الْحَالِ، وَأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّ هَذَا الْمِصْطَلَحَ عِنْدَ سَيُوجِ يَرْجِعُ إِلَى أُسْتَاذِهِ الْخَلِيلِ الَّذِي

(1) - محمد سالم صالح: الدَّلالة والتَّقْعِيدُ النَّحْوِيُّ - دراسة في فكر سيويج. ص: 369.

(2) - المرجع نفسه: ينظر في الهامش، ص: 369.

تبين من خلال كتاب تلميذه اعتماده الواضح على السياق اللغوي وسياق الحال في دراسة التراكيب النحوية<sup>(1)</sup>. ومن المواضع التي صرح فيها سيبوي هربذلك حديثه عن تكيف الإنتاج الكلامي مع الحال المعبر عنه<sup>(2)</sup> « ومن ذلك أيضا أن ترى رجلا قد أوقع أمرا أو تعرض له فتقول: "متعرضا لعنن لم يعنه"؛ أي دنا من هذا الأمر متعرضاً لمن لم يعنه، وترك ذكر الفعل لمن يرى من الحال<sup>(3)</sup> ». وقد « استخدم ابن جني (392هـ) مصطلح الحال ونسبه إلى سيبويه فقال: وقد حذف الصفة ودلت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سير عليه ليل، وهم يريدون ليل طويل<sup>(4)</sup> ».

ومن العبارات التي استعملها ابن جني أيضا "شاهد الحال" و"دلالة الحال" على مفهوم قريب من مصطلح سياق الحال يقول: « أمّا تجوزهم في تسميتهم الاعتقادات والآراء قولاً، فلأن الاعتقاد يخفى فلا يعرف إلا بالقول، أو بما يقوم مقام القول: من شاهد الحال<sup>(5)</sup> ».

وفي باب "المحدوف إذا دلت الدلالة عليه كان في حكم الملفوظ به" يقول ابن جني: « من ذلك أن ترى رجلا قد سدّد سهما نحو العرض ثم أرسله، فتسمع صوتا فتقول: القرطاس والله، أي أصاب القرطاس، ف (أصاب) الآن في حكم الملفوظ به البتة وإن لم يوجد في اللفظ، غير أن دلالة الحال عليه نابت من اللفظ به<sup>(6)</sup> ». كما استعمل النحاة ألفاظا تعتبر في النظرية السياقية من عناصر سياق الحال تتعلق بالكلام والمتكلم والمخاطب والظروف المحيطة بالخطاب وغير ذلك.

(1) - أسعد خلف العوادي: سياق الحال في كتاب سيبويه - دراسة في النحو والدلالة. ص: 51.  
(2) - ينظر: سامية بن يامنة: سياق الحال في الفعل الكلامي - مقارنة تداولية. رسالة دكتوراه في اللسانيات، جامعة وهران، 2010-2011م، ص: 46.  
(3) - سيبويه: الكتاب، 272/1.  
(4) - فريد عوض حيدر: فصول في علم الدلالة. مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط3، 2011م، ص: 129.  
(5) - ابن جني: الخصائص. 237/1.  
(6) - المصدر نفسه. 285-284/1.

### المطلب الثاني: السّياق اللّغوي عند النّحويين

لقد ارتبط النّحو بمفهومه العام بالسّياق اللّغوي؛ حيث أنّ السّياق اللّغوي هو نظم الكلمة في الجملة وموقعها من ذلك النّظم، ويتمثّل في الأصوات والكلمات والجمل كلّما تتابع في حدث كلامي معين أو نصّ لغوي (1)، وهو «يعتمد على عناصر لغويّة في النّص من ذكر جملة سابقة أو لاحقة، أو عنصر في جملة سابقة أو لاحقة، أو في الجملة نفسها يحوّل مدلول عنصر آخر إلى دلالة غير المعروفة له» (2).

ومثال ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ (النحل: 1) فجملة "فلا تستعجلوه" تُعدّ قرينة لغويّة تصرف الفعل أتى عن دلالاته على الماضي إلى دلالاته على المستقبل. وصرف الفعل عن دلالاته يصرف الفاعل: "أمر الله" بدوره عن دلالاته أو بعبارة أخرى يحدّد دلالاته، لأنّ العناصر المكوّنة للجملة لن تبقى بدون تغيير إذا صرف عنصر منها عن دلالاته الأولى بقرينة ما. و"أمر الله" في سياق هذه الآية ليس مثل "أمر الله" في هذه الآيات: ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ (هود: 43)، ﴿ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (هود: 73)، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (النساء: 47، الأحزاب: 37)، ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا ﴾ (الطلاق: 5). لقد فسّر "أمر الله" في "أتى أمر الله" بأنّه (قيام الساعة) وقد أتى الفعل بصيغة الماضي لتحقّق وقوع الأمر وقربه. قال الرّازي: لما كان واجب الوقوع لا محالة عبّر عنه بالماضي كما يقال للمستغيث: جاء العوّث فلا تجزع. فهل يفسّر "أمر الله" في الآيات السابقة كلها على أنّه (قيام الساعة)؟ إن اختيار المفردات ووضعها معا في إطار جملة واحدة يقوم بدور في تحديد دلالة السّياق اللّغوي الذي ينعكس بدوره على دلالة المفردات في الجملة (3).

ومن عناصر السّياق اللّغوي التي أولاها علماؤنا اللّغويين والنّحويين أهميّة ما يأتي:

#### 1/- الصّوت وأثره في اختلاف المعنى والسّياق:

من الظواهر الصّوتيّة التي تُعدّ من عناصر السّياق اللّغوي والمصاحبة للتركيب وتقوم بدور نحويّ

(1) - ينظر: عبد النعيم خليل: نظرية السّياق بين القدماء والمحدثين. ص: 112

(2) - محمد حماسة عبد اللطيف: النّحو والدلالة مدخل الى دراسة المعنى النّحوي - الدّلالي. ص: 148

(3) - ينظر: المرجع السابق. ص: 148-150

دلاليّ كبير يَهدي إلى تفسير الجملة تفسيرا صحّحها "التبر والتنعيم"، حيث يري الدكتور محمد عبد اللطيف حماسة أن « التنعيم والتبر السّياقي كليهما يعدّان من القرائن اللفظيّة أو المقاليّة، والقرائن اللفظية كلّها من السّياق اللّغوي الذي يُعين على تحديد دلالة الجملة»<sup>(1)</sup>.

### أ- التنعيم (\*):

هو قمّة الظواهر الصّوتية التي تكسو المنطوق كله. وقد صنّفها بعضهم « فونيمات ثانوية » secondary phonemes أو « فونيمات فوق التركيبيّة أو فوق التّقطيع » suprasegmental phonemes . وحسبها آخرون «ظواهر تطريزيّة» prosodic features . ومهما اختلفت وجهات النظر في هذه التسمية، فما يزال التنعيم هو الخاصيّة الصوتيّة الجامعة التي تلف المنطوق بأجمعه، وتتخلّل عناصره المكوّنة له، وتكسبه تلوينا موسيقياً معيّناً حسب مَبناه ومعناه، وحسب مقاصده التّعبيريّة، وفقاً لسياق الحال أو المقام<sup>(2)</sup>.

### وظيفة التنعيم:

للتنعيم دور بارز في اختلاف المعنى ودلالة السّياق، ووظائف متنوّعة في التّحليل اللّغوي في عملية الاتّصال الاجتماعي بين المتكلمين ونذكر أهمّها:

\* الوظيفة التّحويليّة: فالتنعيم يؤدّي وظيفة تحويّة في السّياق التركيبي للجملة ويبدو ذلك واضحاً في التّراكيب الاستفهاميّة، ونظائرها الشرطيّة، وفي الإغراء، والتّحذير، وكذلك في النّفي. ويؤدّي

(1) - محمد حماسة عبد اللطيف: النّحو والدّلالة. ص: 158 .

(\* - التنعيم: أ/ لغة: من نغم ينغم نغما، والنغمة جرس الصوت للكلمة، وحسن الصوت في القراءة. ينظر: لسان العرب، والمصباح المنير مادة (ن غ م).

ب/ - اصطلاحاً: يعرّفه الدكتور كمال بشر حيث يقول: « التنعيم في الاصطلاح هو موسيقى الكلام فالكلام عند إلقائه تكسوه ألوان موسيقية لا تختلف عن «الموسيقى» إلا في درجة التواءم والتوافق بين النغمات الداخلية التي تصنع كلاماً متناغم الوحدات والجنابات، وتظهر موسيقى الكلام في صورة ارتفاعات وانخفاضات أو تنوعات صوتية، أو ما نسميها نغمات الكلام، إذ الكلام - مهما كان نوعه- لا يلقى على مستوى واحد، بحال من الأحوال .« . كمال بشر: علم الأصوات. دار غريب، القاهرة، مصر، (د ط)، 2000م، ص 531. والتنعيم في أبسط تعريف له هو موسيقى العبارة أو الجملة التي تتلّون بتلون الحالة النفسية والشعورية للناطق بها. ينظر: أمينة طيبي، الدراسة فوق التشكيلية عند الفلاسفة المسلمين، مجلة التراث العربي، كلية الآداب، جامعة الجيلالي الياابس، الجزائر، ص 155.

(2) - ينظر: كمال بشر: علم الأصوات. ص: 531.

التنغيم وظيفته تحديد دلالة بعض الجمل النحوية مثل: توجيه الإعراب، ومثال ذلك "كم" التي تُستخدم في الإخبار أو الاستفهام، وهذا يتوقف على طريقة الأداء، وعلى هذا يوجه إعراب كلمة "عمّة" في قول الفرزدق:

كَمْ عَمَّةٌ لَكَ يَا جَرِيرٌ وَخَالَةٌ \* فِدْعَاءٌ قَدْ جَلَبَتْ عَلَيَّ عَشَارِي

فقد رويت "عمّة" بالرفع والنصب والجرّ، فالرفع على أن المراد من كم عدد المرات: كم مرة عمّة لك يا جرير... والنصب على معنى الاستفهام، والجرّ على معنى الخبر<sup>(1)</sup>.

ولا تقتصر أهمية التنغيم على دوره في الفصحى، بل إن له أهمية ذاتها في العامية، فالتعبير «يا أخي...» من الممكن أن يحمل الدلالات التالية: -المودة والإخاء - العتاب واللوم - الخلو من أيّ مضمون دلالي، وذلك حين يكون لغواً في حشو الكلام<sup>(2)</sup>.

\*الوظيفة السياقية الدلالية: حيث ينبئ اختلاف النغمات، وفقاً لاختلاف المواقف الاجتماعية، عن حالات أو وجهات نظر شخصية في عملية الاتصال بين الأفراد، وهذه النغمات تؤدّي دورها في هذا الشأن بمصاحبة ظواهر صوتية أخرى من ظواهر التطيرز الصوتي، وظواهر خارجية غير لغوية تتعلق بالظروف والمناسبات التي يلقي فيها الكلام. يظهر ذلك مثلاً في حالات الرضا والقبول والرجح والتهمك والعضب والتعجب والدهشة والدعاء حيث تأتي العبارة أو الجملة بأنماط تنغيمية مختلفة<sup>(3)</sup>. يظهر ذلك مثلاً في العبارة العامية «لَا يَا شَيْخ؟!» وتذكر أنك تستطيع أن تنطق بما بعدة نغمات، وهي مع كل نغمة من تلك النغمات تُفيد دلالة خاصة، فهي مرة لجرّد الاستفهام، وأخرى للتهمك والسخرية، وثالثة للدهشة والاستغراب وهكذا<sup>(4)</sup>. فتغيّر النغمة قد يتبعه تغيّر في الدلالة وذلك حسب السياق الذي وضعت فيه وحسب مقتضيات المقام.

ويجدر بنا المقام أن نُقرّر أن التنغيم بوصفه ظاهرة صوتية مهمة في عملية الفهم أو الإفهام وتنميط الجمل إلى أجناسها النحوية والدلالية المختلفة، كان مُستقراً أمره في وعي علماء العربية وإن

(1)- ينظر: محمود عكاشة: التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة. ص 51 - 52.

(2)- ينظر: فتح الله أحمد سليمان: مدخل إلى علم الدلالة. ص 11.

(3)- ينظر: كمال بشر: علم الأصوات. ص 539 - 540.

(4)- ينظر: إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ. مكتبة الأنجلو المصرية، ط 2، 1963 ص 47.

لم يأتوا فيه بدراسة نظرية شاملة، تحدّد كُنْهه وطبيعته ودرجاته<sup>(1)</sup>.

فقد أشار ابن جنّي إلى أهميّة التّنعيم في تحقّق الدّلالة المقصودة، وكذا إلى اشتراكه في الأداء بالحركات الجسميّة وارتباطه بها ارتباطاً أكيداً. وقد أشار إلى تلك المشاركة بقوله: «... وكذالك إذا دُمته ووصفته بالضيق قلت: سألتاه وكان إنساناً! وتزوي وجهك وتقطبه، فيُعني ذلك عن قولك: إنساناً لئيمًا أو لحزًا أو مبخلًا أو نحو ذلك»<sup>(2)</sup>. وغير ذلك من الحركات الجسميّة التي تُصاحب الحديث ولاسيما في مواقع التّنعيم فتزيد في وضوح الدّلالة وإبراز المعنى المقصود.

### ب/ - النّبر<sup>(\*)</sup>:

بالرغم من أنّ النّبر في العربيّة لا يؤثّر غالباً في تحديد معاني الكلمات في الجمل، إلا أنّ له دور لا يمكن إهماله في ذلك، ولعلّ من أبسط الأمثلة وأوضحها التي تُبيّن طبيعة النّبر وأهميته في تحديد المعاني أنّ التقطيع العروضي لتركيب (مُدْرَسُ العربيّة)، وتركيب (مُدْرَسُو العربيّة) من قولنا: (جاء مُدْرَسُ العربيّة) و(جاء مُدْرَسُو العربيّة)، هو تقطيع واحد، وهو (م د ر س ع ر ب ي ة)، ولكن النّبر هو الذي يفرّق بين الجملتين، فإذا قلنا لشخص (جاء مدرّسو العربيّة) (دون استعمال النّبر) فلن يعلم أنّك تتحدّث عن جمع من المدرّسين، بل يظنك تتحدّث عن مدرّس واحد. وهنا يأتي النّبر ليفرّق بين الجملتين، فإذا أردت الجملة الأولى يجب أن يكون النّبر على المقطع "در" (وربما يضعه البعض على المقطع "ر")، أمّا إذا أردت الجملة الثانية فيجب أن يكون النّبر على المقطع (سُل)،

(1) - ينظر: كمال بشر: علم الأصوات. ص 556.

(2) - ابن جنّي: الخصائص. 371/2.

(\*) - تعريف النّبر: أ/ - لغة: في لسان العرب يقول ابن منظور أن: «النبر مصدر نبر ينبر نبرا، همزة والمنبور المهموز، ويقال نبر الرجل إذا تكلم» ابن منظور، لسان العرب: مادة (ن ب ر)، 179/5. وكل المعاجم العربية تقريبا تتفق أن النّبر هو: رفع الصّوت وكلّ شيء رفع شيئاً نبره، وهو الهمز.

ب/ - اصطلاحاً: هو الضّغط على مقطع معيّن بزيادة العلو الموسيقي، أو التّوتر أو المدّة أو عدد من هذه العناصر معاً، بالنسبة إلى عناصر المقاطع المجاورة ذاتها، والنبر أحد مباحث علم الأصوات، وله أصوله الخاصة، ويقصد به الوضوح أو البروز الصّوتي لصوت أو مقطع عن بقية الأصوات، وذلك الارتفاع يكون برفع الصوت نبرة لتحديد الفرق بين دلالتين كلمتين في مثل: فعل، وفاعل، وفعل، بالنبر على الفاء في الأولى، وعلى ألف المد في الثانية، وعلى الياء في الثالثة أي على المقطع الثاني، ينظر: جاسم محمد عبد العبود: مصطلحات الدلالة العربية. ص 206.

ليدلُّ على أنَّها أصلها (سول)، ولكن حذفت الواو لمنع توالي الساكنين على الواو واللام، فتُلَفِّظ (سُل) في الجملة<sup>(1)</sup>.

### وَظِيْفَةُ النَّبْرِ:

يُؤدِّي النَّبْرُ دَوْرًا وَظِيْفِيًّا فِي التَّرْكِيبِ يُوَثِّرُ فِي دَلَالَتِهِ. فَيَسَاهِمُ فِي ذَلِكَ عَلَى النَّحْوِ التَّالِي (2):

1- التَّفْرِيقُ بَيْنَ مَعْنَى وَنَقِيضِهِ، مِثْلُ: هَذَا مَا/ قَتَلْتَهُ. (الجملة منفية). هَذَا مَا قَتَلْتَهُ./ (الجملة مثبتة) ← وَقَعَ النَّبْرُ عَلَى "مَا" فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى فَأَبْرَزَ دَلَالَتَهَا فِي التَّرْكِيبِ فَأَعْطَتْ مَعْنَى النَّفْيِ، وَوَقَعَ نَبْرُ الْجُمْلَةِ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ عَلَى "قَتَلْتَهُ" فَدَلَّ عَلَى أَنَّ "مَا" اسْمٌ مُوصُولٌ بِمَعْنَى الَّذِي، فَأَصْبَحَ مَعْنَى التَّرْكِيبِ (هَذَا الَّذِي قَتَلْتَهُ)، وَقَدْ شَارَكَ السِّيَاقُ الْأَدَائِي فِي تَحْقِيقِ الدَّلَالَتَيْنِ.

2- إِظْهَارُ بَعْضِ الْكَلِمَاتِ وَالْأَدْوَاتِ فِي الْجُمْلِ مِثْلُ: أَدْوَاتِ الْاسْتِفْهَامِ وَالنَّدَاءِ وَأَدْوَاتِ النَّفْيِ وَالنَّهْيِ، فَالنَّبْرُ يَقَعُ عَلَيْهَا لِإِظْهَارِ وَظِيْفَتِهَا فِي التَّرْكِيبِ، مِثْلُ: "لَا تَخْرُجْ مِنْ هُنَا"، "لَمْ يَذَاكِرْ عَلَى دَرُوسِهِ" "هَلْ ذَاكِرٌ عَلَى دَرُوسِهِ؟" وَقَعَ النَّبْرُ فِي هَذَا التَّرْكِيبِ عَلَى: لَا، لَمْ، هَلْ.

وَيَقَعُ النَّبْرُ فِي الْجُمْلَةِ الْاسْتِثْنَائِيَّةِ عَلَى الْكَلِمَاتِ الطَّلِبِيَّةِ أَفْعَالًا وَأَسْمَاءً "تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ"، "حَذَارْ مِنَ السَّرْعَةِ". وَيَقَعُ النَّبْرُ عَلَى أَدَاةِ النَّدَاءِ لِإِظْهَارِ وَظِيْفَتِهَا الدَّلَالِيَّةِ مِثْلُ: "يَا مُحَمَّدٌ". وَهَذَا لَيْسَ مُطْرَدًا فِي جَمِيعِ الْجُمْلِ، فَقَدْ تُنْبَرُ كَلِمَةٌ فِيهَا ابْتِغَاءً دَلَالَةً مِنْهَا مِثْلُ، "نَجَّحَ مُحَمَّدٌ؟" بِنَبْرِ نَجَّحَ لِلْاسْتِفْهَامِ، وَقَدْ يُنْبَرُ مُحَمَّدٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْاسْتِنْكَارِ أَوْ السُّخْرِيَّةِ، وَيُشَارِكُ فِي ذَلِكَ التَّنْغِيمُ وَالسِّيَاقُ الْخَارِجِي.

3- تَحْدِيدُ الْمَعْنَى الْمُرَادِ، وَالْإِخْبَارِ عَنْهُ، مِثْلُ: "مُحَمَّدٌ فِي الدَّارِ"، جَوَابٌ لِسُؤَالٍ: "أَيْنَ مُحَمَّدٌ؟" وَقَعَ النَّبْرُ عَلَى الْخَبْرِ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُسْتَفْهَمُ عَنْهُ وَالْمُرَادُ الْإِخْبَارُ عَنْهُ.

4- وَيَقَعُ النَّبْرُ فِي الْجُمْلَةِ الْإِخْبَارِيَّةِ حَسْبَمَا تَقْتَضِي الدَّلَالَةُ أَوْ الْمَعْنَى الْمُرَادِ، مِثْلُ: "نَحْنُ أَبْنَاءُ الْعَرُوبَةِ". الْمُرَادُ الْإِفْتِخَارُ بِالذَّاتِ، فَوَقَعَ النَّبْرُ عَلَى الْمُبْتَدَأِ "نَحْنُ".

وَعَلَيْهِ فَإِنَّ وَظِيْفَةَ النَّبْرِ تَتَوَقَّفُ عَلَى الدَّلَالَةِ التَّمْيِيزِيَّةِ، وَمِنْ هُنَا يُمْكِنُ أَنْ نَعُدَّ النَّبْرَ سِمَةً صَوْتِيَّةً وَظِيْفِيَّةً لَهَا قِيَمَةٌ دَلَالِيَّةٌ فِي التَّوْجِيهِ، إِذَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَحَقِّقَ الْعَرْضَ الْقَصْدِي، وَيَعْتَبَرُ مِنَ الْمَلَامِحِ

(1)- ينظر: حمدان رضوان أبو عاصي: الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى. ص:16.

(2)- ينظر: محمود عكاشة: التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة. ص: 36 - 38.

التَّمييزِيَّة، أو التَّنوعَات الصَّوْتِيَّة، التي تنوع الدَّلالة، ويعتمد عليها السِّياق، وهذا لا يتحقَّق إلاَّ في مواضع معيَّنة. أمَّا إذا أخفق في توجيهِ الدَّلالة، فشأنه شأن فُونيمات اللُّغة الأخرى، إذا فقدت القوَّة، والقُدرة على التَّبادل الموقَّعي لتباين الدَّلالة، فإنَّها تسقط، وتُصبح شواخص تطرِيزيَّة. كما نصل إلى أنَّ كلمات اللُّغة العربيَّة، لا تملك درجة نبريَّة واحدة بل تتفاوت مقاطع الوحدة الدَّلالية في القدرة على البروز والعلوِّ (1).

كما تجدر الإشارة إلى أنَّ القُدماء قد أشاروا إلى هذا الدَّور الذي يقوم به النَّبر وإنَّ لم يحدِّدوا مصطلحه بل عرَّفوه بالوظيفة (2)، ولعلَّ كلام ابن جنِّي الذي اعتمد فيه على سيويوه أبلغ في الشَّرح حين يقول: « وقد حذفت الصِّفة ودلَّت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سير عليه ليل. وهم يريدون: ليل طويل. وكأنَّ هذا إنَّما حُذفت فيه الصِّفة لما دلَّ من الحال على مَوضعها، وذلك أنَّك تحسُّ في كلام القائل لذلك من التَّطويح و التَّطريح و التَّفخيم و التَّعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك. وأنت تحسُّ هذا من نفسك إذا تأمَّلتها، وذلك أن تكون في مدح إنسان و التَّناء عليه فتقول: كانَ اللهُ رجلاً ! فتزيد في قوَّة اللفظ ب ( الله ) هذه الكلمة، وتتمكَّن في تمطيط اللأم، وإطالة الصَّوت بها وعليها، أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك. وكذلك تقول: سألتاه فوجدناه إنساناً ! وتمكَّن الصَّوت بإنسان وتفخمه فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك» (3).

وبملاحظة الأمثلة التي قدَّمتها ابن جنِّي للاعتماد على ما وصفه بالتَّطويح و التَّطريح و التَّفخيم و التَّعظيم وزيادة قوة اللفظ و التَّمكَّن في التَّمطيط وإطالة الصَّوت بالحرف المعين عليه، تكشف أنَّه لا يعني بكلِّ هذه الصِّفات إلا ما يعنيه المحدثون بالنَّبر؛ على أنَّه القوَّة التي تُصاحب إخراج الهواء من الرِّئتين، ففي نطق مقطع مَنبُور تبتذل جميع الأعضاء أقصى ما يمكنها من جهد. والنَّبر في أمثلة ابن جنِّي (سير عليه ليل) و(كان اللهُ رجلاً) و(سألناه فوجدناه إنساناً) وما يشبهها، هو ما يعرف بِنَّبر السِّياق (4).

(1) - ينظر: عبد القادر عبد الجليل: علم اللسانيات الحديثة. دار صفاء، عمان، ط1، 2002 م / 1422هـ، ص 364.

(2) - ينظر: محمد حماسة عبد اللطيف: النَّحو والدَّلالة. ص: 156.

(3) - ابن جنِّي: الخصائص. 371-370/2.

(4) - ينظر: محمد حماسة عبد اللطيف: النَّحو والدَّلالة. ص: 158-157.

## 2/- دور السياق اللغوي في ترجيح دلالة الصيغ الصرفية:

لقد تنبّه النحويون منذ القدم إلى أهمية الدلالة في الصيغ الصرفية، وهذا ابن الأثير (ت 637هـ) يرى ويؤكد « أن كل وزن من أوزان الصرف ومثال من أمثله قد يُوحي بدلالته، وأن أي تغيير في بنية الصيغ الصرفية سيؤدّي إلى تغيير في دلالتها التي كانت عليها فيقرّر: أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نُقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بد أن يتضمّن من المعنى أكثر مما تضمّنه أولاً، لأنّ الألفاظ أدلّة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني؛ من ذلك قولهم: خشن واخشوشن فمعنى (خشن) دون معنى (اخشوشن) لما فيه من تكرير العين»<sup>(1)</sup>.

وعندما درس النحويون البنية الصرفية ودورها المهم في وصف الظاهرة النحوية أو تفسيرها، وجدناهم يمدّون بصرفهم إلى ما حولها من عناصر لغوية في السياق، تجعل هذه البنية تحمل أكثر من وظيفة نحوية، ويوجد ما يرجح كلاً منها، وقد لاحظ ابن هشام ذلك في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ (طه 58/59) - تتمها: ﴿لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سِوَى﴾<sup>(٥٨)</sup> قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ صُحًى ﴿٥٩﴾ - فيحتمل أن المراد وعد، أو زمان وعد، أو مكان وعد، قال ابن هشام: فإن الموعد مُحتمل للمصدر، ويشهد له: (لا نخلفه نحن ولا أنت)، وللزمان ويشهد له: (قال موعدهم يوم الزينة)، وللمكان ويشهد له: (مكانا سوى)، وإذا أُعربت (مكانا) بدلاً منه لا ظرفاً لـ (نخلفه) تعيّن ذلك وارتفع الاحتمال. فابن هشام هداه هذا النظر إلى استكناه الوظائف النحوية بالنظر إلى العناصر اللغوية المجاورة والمحيطّة بالبنية الصرفية أي إلى السياق اللغوي<sup>(2)</sup>.

فالسّياق « يُساعد على تعيين دلالة الصيغة، فرمّا جاءت بعض الأبنية متوحّدة الوزن، ولكنها تختلف في دلالتها على المعنى المراد، والذي يحدّد هذه الدلالة إنّما هو سياق الكلام، فمن ذلك: أنّ أسماء الزمان والمكان تُصاغ من الثلاثي على وزن (مفعل) بفتح العين، نحو (مذهب،

(1) - هادي نهر: علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي. تقديم علي أحمد. دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2007/1427 م، ص: 85.

(2) - ينظر: عبد الحميد السيد: دراسات في اللسانيات العربية - المشكلة، التّغيم، رؤية تحليلية. دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 1425 هـ/ 2004م، ص: 152.

مشرب، مخرج، ومكتب) - إلا في حالتين، فإثما يكونان فيهما على وزن (مفعِل) بكسر العين، وفي كل ما تقدّم فإننا لا نستطيع التفرقة بين الزمان والمكان إلا بالسّياق وهو الذي يحدّد المراد ويُعيّن المقصود»<sup>(1)</sup>.

وتأكيداً على أنّ للكلمة المعينة دلالتها التي لا تتجاوزها داخل التّركيب وضمن عمليّة السّياق، تأمّل العلماء العرب القدامى ألفاظ الجموع نفسها وموازنتهم بين دلالتها الدّقيقة، فقد جمعوا - الأسير - على الأسرى، والأسارى. وهما وإن كانا من جمع الكثرة، غير أنّهم ميّزوا بينهما في الاستعمال، فقالوا في (الأسرى) أنّها لا تستعمل إلا في الدّلالة على من كان في وقت الحرب. ومنه قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْتَرِ ﴾ (الأنفال: 67)، في حين لا تستعمل كلمة الأسارى إلا لمن هم في الوثاق والسّجن. وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفَدُّوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ ﴾ (البقرة: 85)<sup>(2)</sup>.

وقد اختلف النّحويون في دلالة بعض الكلمات « الدّالة على الجمع حين رأوا أنّها تخرج في دلالتها عمّا قرّروه لها من قواعد وضوابط صرفيّة، فمن ذلك على - سبيل المثال - اختلافهم في دلالة (إخوة) و(إخوان) وهما جمعان لأخ فقالوا في الأولى إنّها جمع قلّة على (فعلّة)، وفي الثّاني إنّها للكثرة على (فعلان)، وميّزوا بين دلالتيهما لا على أساس القلّة أو الكثرة المترتّبين عمّا عليه الكلمتين من بناء على فعلّة أو فعلان، وإثما على أساس الدّلالة المراد في السّياق والمعين، فأروا أنّ (الإخوة) يكثر استعمالها في الدّلالة على إخوة النّسب، في حين يكثر استعمال الإخوان في الدّلالة على الصّداقة والإخوة في الدّين. قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ ﴾ (يوسف: 58). وهذا لا يمنع من استعمال (إخوة) في الدّلالة على الكثرة، ومن ذلك جعلوا قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: 10) فالمؤمنون جميعهم بمنزلة الإخوة في النّسب تراحمًا وتمازجًا وتعاضداً»<sup>(3)</sup>.

(1) - محمّد سالم صالح: الدّلالة والتّعبير النّحوي. ص: 367 - 368.

(2) - ينظر: هادي نهر: علم الدّلالة التّطبيقي في الثّراث العربي. ص: 99.

(3) - المرجع نفسه. ص: 99-100.

## 3- أثر السباق اللغوي في الجملة (التركيب النحوي)

لقد ذهب العرب القدماء إلى أن النحو متوقف على المعنى <sup>(1)</sup>، وفي هذا يقول المبرد (ت258هـ): «كل ما صلح به المعنى فهو جيد وكل ما فسد به المعنى فهو مردود» <sup>(2)</sup>، لذلك فالجمل لا يمكن أن تُبنى على معنى حتى ترتب ترتيباً نحوياً سليماً يُراعى فيها موافقة السباق الذي صيغت فيه.

وعلى أساس الاستقامة النحوية والاستقامة الدلالية قام سيبويه بتقسيم الكلام، بحيث يقول: «فمنه مستقيم حسن، ومُحال، ومُستقيم كذب، ومُستقيم فييح، وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فتقولك: أتيتك أمس وسأتيك غداً. وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غداً، وسأتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فتقولك: حملتُ الجبل، وشربتُ ماء البحر، ونحوه. وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيداً رأيتُ، وكَي زيداً يأتيتك، وأشباهُ هذا. وأما المحال الكذب فلأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس» <sup>(3)</sup>. فسبويه في مقولته هذه التي حدّد فيها أنواع التراكيب اللغوية، لم يُشر صراحة إلى السباق اللغوي وإنما لمح للتراكيب التي لها صلة بالسباق. وأدرك أن الجملة «هي في الأصل جزء من سياق كلامي موصول بعضه مع بعض، وقد عرف للجملة حدوداً واستقلالاً، ويتجاوز بهذا الكلام النظر إلى الجملة في ذاتها، ويدقق فيها وما حولها من عناصر السباق الكلامي» <sup>(4)</sup>.

فالتراكيب اللغوية تعددت «في لغتنا وتباينت في ما بينها، تبعاً لتعدد أشكال تراصف الكلم فيما بينه، وتبعاً لطبيعة ذلك التراصف وملاسات السباق، مما استدعى ظهور أنماط تركيبية يقبل بعضها، يرفض بعضها الآخر، وقد تكفل سيبويه بإظهار البعض منها بإعطاء أمثلة كلامية، قوامها الكلم العربي (...). وتصنيف سيبويه هذا لم يتأت له من العدم، بل من فهمه واستيعاب هالصحيح لطبيعة اللغة، والذي نجم عن إدارته لمعاني المفردات في ذهنه، محاولاً إيجاد علاقات تجمعها بالكلمات المجاورة لها، لذا فهم الشيء إدراكاً لجوهره» <sup>(5)</sup>.

(1) - ينظر: عبد الواحد حسن الشيخ: العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي. مكتبة الإشعاع، مصر، ط1، 1999م ص: 9.

(2) - المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد): المقتضب. تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة. لجنة إحياء التراث، القاهرة، ط 3، 1415هـ - 1994م، 122/1.

(3) - سيبويه: الكتاب. 25/1.

(4) - تحسين عبد الرضا: الصوت والمعنى في الدرس اللغوي في ضوء علم اللغة الحديث. ص: 427.

(5) - خديجة محمد الصافي: أثر المجاز في فهم الوظائف النحوية وتوجيهها في السباق. دار السلام، مصر، ودار الوعي، الجزائر، ط2، 2012/1433 م، ص: 103.

أما الأبواب التي ظهر فيها التبنيق اللغوي عند النحاة العرب - الخاصة بدلالة الجملة - كثيرة نذكر منها:

1- حينما قسم النحويون الجملة إلى « اسمية وفعلية وظرفية، إنما كان من منطلق النظر إلى التركيب السببي، لا إلى المفردات التي هي وحدات سياقية، وليست سياقاً لغوياً متكاملًا، إذ لا تكون كذلك إلا إذا ركبت معاً بحسب ما تقتضي القواعد النحوية والأصول اللغوية»<sup>(1)</sup>.

2- عندما درس النحويون الجملة، وضعوا لها قواعد وأصولاً تحكم الترتيب بين الوحدات السياقية، التي هي الكلمات على مستوى العبارة أو الجملة، ومن بين هذه الأصول: أن الفاعل لا يتقدم على الفعل، والصلة لا تتقدم على الموصول. والصفة لا تتقدم على الموصوف، والمضاف إليه لا يتقدم على المضاف وحرف الجر لا يتقدم على المجرور<sup>(2)</sup>.

وفي مسألة الترتيب عند النحويين يقول أحد الباحثين: « يظهر اهتمامهم بالتبنيق أو القرائن جلياً في مسألة الرتبة والحذف، حيث يجب الإبقاء على أصل الرتبة عند زوال القرينة؛ حتى لا يكون اللبس، ويجوز تغييرها عند وجود القرينة، ولذا فهم يفرقون بين (ضرب موسى عيسى) ، و (أكل الكمثرى عيسى) ، ففي الأولى يجب مراعاة الترتيب، وفي الثانية يجوز التقديم والتأخير بناءً على وجود القرينة»<sup>(3)</sup>.

3- والتقديم والتأخير في نظام الجملة أو الأسلوب هو « خرق للصورة المثالية التي رسمها النحويون للغة المحكية، أو المكتوبة، فلا يحدث إلا لدواعي منها العناية والاهتمام، قال سيبويه: كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بيانه أعنى، وإن كان جميعاً يهملهم ويعنيانهم. ويقول أيضاً: والتقديم ههنا والتأخير فيما يكون ظرفاً أو اسماً في العناية والاهتمام، مثله فيما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول، وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير. وهو على ضربين - كما جاء في الخصائص - أحدهما ما يقبله القياس، والآخر ما يسهله الاضطرار، الأول كتقديم المفعول على الفاعل تارةً وعلى الفعل الناصبة أخرى. أما الثانية فهو الذي قلنا عليه

(1) - عبد التميم خليل: نظرية التبنيق بين القدماء والمحدثين. ص: 112 - 113.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 114.

(3) - أحمد مصطفى أحمد الأسطل: أثر التبنيق في توجيه شرح الأحاديث عند ابن حجر العسقلاني. رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية - غزة، 2011/1432م، ص: 55 - 56.

بأنه حرق لقواعد اللغة الثابتة، فإذا ما قيل في نشر خطّوه وإذا ما قيل في شعر وصفوه بالاضطرار»<sup>(1)</sup>.

#### 4/- وَظِيْفَةُ السِّيَاقِ اللُّغَوِيِّ فِي تَوْجِيهِه الإِعْرَابِ وَتَرْجِيحِ المَعَانِي:

لقد أولى علماءنا النحاة ظاهرة الإعراب عناية خاصة، فقد كانوا يوجهونه بحسب ما يفرضه السياق اللغوي، يقول الباحث عبد النعيم خليل: «إنهم كانوا يضيفون على الكلمة وظيفته الإعرابية بحسب ما يقتضيه السياق ويفرضه المعنى ويحاولون التنسيق بين السياق والقواعد الإعرابية إذا كان هناك تعارض بينهما»<sup>(2)</sup>.

ولقد أكد العلماء على «وجوب حمل آيات القرآن الكريم على الأوجه الإعرابية المستنبطة من تتابع السياق والمعتمدة على الأدلة الشرعية. فالإعراب جزء من المعاني التي يفرزها السياق، حيث وافق أو طابق فحوى الآية أو اللفظ»<sup>(3)</sup>. يقول ابن جني: «ذلك أنك تجد كثيراً من في المنشور والمنظوم الإعراب والمعنى متجاذبين، هذا يدعوك إلى أمر، وهذا يمنعك منه، فمتى أعتورا - أي تداول - كلاماً ما أمسكت بعروة المعنى، وارتحت لتصحيح الإعراب»<sup>(4)</sup>.

والحاكم الأساسي في ترجيح هذا المعنى أو ذلك هو السياق القرآني. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾

(النساء: 127) فذهب أهل الإعراب في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ إلى أوجه عدة:

أولها: إن قوله تعالى: ( وَمَا يُتْلَى ) مُبتدأ وخبره - محذوف مقدر من خلال السياق وهو: يُفْتِيكُمْ؛ أي: والمتلو عليكم في الكتاب يفتيكم.

وثانيها: إن قوله تعالى: ( وَمَا يُتْلَى ) مُبتدأ، والخبر قوله تعالى: ( فِي الْكِتَابِ )، على أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ. إذ لو أريد به هذا المعنى لم تكن الفائدة إلا أن يتكلف له، والجملة معترضة مسوقة لبيان عظم شأن المتلو.

(1)- عرفات فيصل المناع: السياق والمعنى دراسة في أساليب النحو العربي. ص: 49 - 50.

(2)- عبد النعيم خليل: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين. ص: 119.

(3)- وضاح كافي حلومي محمد العزاوي: أثر السياق القرآني في الترجيح بين المعاني. ص: 108 .

(4)- ابن جني: الخصائص. 255/3.

وثالثها: أن تكون ( وما يتلى ) في محل الجرّ على القسم المنبئ تعظيم المقسم به وتفخيمه، كأنه قيل ( قل الله يفتيكم فيهن )، وأقسم بما يتلى عليكم في الكتاب.

وقد ردّ السياق الوجه الثاني والثالث، لعدم موافقة السياق والنتيجة الحاصلة من إعرابهما ممّا أدى إلى اعتراض حمل الآية عليها. ولأنّ معنى الآية واضح وجلّي في أحكام النساء واليتامى لا في فضل كتاب الله... فحريّ به أن يقدر الخبر من خلال السياق القرآني للآية الكريمة نفسها، فالأنسب أن يتوافق ويتحد الإعراب مع السياق. فالإعراب الأول للآية هو الرّاجح لما دلّ عليه من موافقة معنى الإعراب ومدلول السياق<sup>(1)</sup>.

فعلى المعرب أن يدرك المعاني جيّدا في السياق اللغوي فيها يوجّه الإعراب و يتّضح الدلالة. كما تجدر الإشارة إلى أنّ السياق اللغوي في كثير من الأحيان لا يتسنى له استنباط المعاني والدلالات والأحكام من التراكيب النحوية إلا إذا تضافر مع النوع الثاني للسياق ألا وهو السياق الحالي.

### المطلب الثالث: سياق الحال عند النحويين ومناصره:

لقد اهتمّ النحويون القدامى بالعوامل الاجتماعية المتصلة باللغة، حيث أنّهم لم يقتصروا على النظر في بنية النص اللغوي، كما لو كان شكلا مُنعزلا عن العوامل الخارجية التي تلقه وتُحيط به، وإنما أخذوا مادّتهم اللغوية - على ما يبدو من مُعالجتهم لها - على أنّها ضرب من النشاط الإنساني الذي يتفاعل مع محيطه وظروفه، كما فطنوا إلى أنّ الكلام له وظيفة ومعنى في عمليّة التواصل الاجتماعي، وأنّ هذه الوظيفة وذلك المعنى لهما ارتباط وثيق بسياق الحال أو المقام وما فيه من شُخوص وأحداث، فقد ظهر هذا كلّ في دراستهم وإن لم ينصّوا عليه مبدأً من مبادئ التّقييد، أو أصلاً من أصول نظريتهم اللغوية<sup>(2)</sup>.

فالسّياق الاجتماعي، أو سياق الحال (context of situation). يتمثّل « عند المحدثين في: العالم الخارج عن اللّغة بما له من صلة بالحدث اللّغوي أو النصّ ويتمثّل في الطُّروف الاجتماعيّة والنفسية والثّقافيّة للمتكلّم والمُستكرين في الكلام أيضاً»<sup>(3)</sup>.

(1) - ينظر: وضّاح كافي حلومي محمّد العزاوي: أثر السّياق القرآني في التّرجيح بين المعاني. ص: 108 - 109.

(2) - ينظر: كمال بشر: علم اللّغة الاجتماعي. دار الثقافة العربيّة، 1994م، ص: 66.

(3) - عبد النّعيم خليل: نظرية السّياق بين القداماء والمحدثين. ص: 133.

أمّا عند القدماء فسياق الحال هو ما يُعرف بالقرائن الحالية وهذه القرائن لا تُفهم من المقال، بل تُفهم من المقام أو الظروف المحيطة بالمقال، وهي تَقِفُ في النحو العربي جنباً إلى جنب مع القرائن المقالة في تعيين المعنى الوظيفي<sup>(1)</sup>.

وقد أدرك القدماء من النحويين - كغيرهم من المحدثين - أهمية القرائن الحالية أو سياق الحال في الوقوف على المعنى الشامل للحدث الكلامي، وإن كان بزوايا خاصة تتفق ومنهجهم في البحث، الذي لا يركّز على جانب واحد من جوانب الدرس اللغوي بل يشمل على معظم الجوانب اللغوية مُختلطة فلا نجد أثراً علمياً خالصاً في فرع من فروع اللغة، بل جاءت آثارهم اللغوية مزيجاً من النحو والصرف والأصوات والدلالة، ومن ثمّ فإننا نجد سياق الحال عندهم منبثاً بين الكثير من القضايا اللغوية كقضية الحذف أو البحث عن العامل في النحو أو قضية البحث عن المعنى في الدلالة<sup>(2)</sup>.

ومن القدماء الذين تنبّهوا إلى أهمية سياق الحال في الوقوف على المعنى، وتحديد الدلالة وإدراكها، وذلك بعدم الأخذ بظاهر اللفظ والاكتفاء به؛ ابن هشام الأنصاري (ت 761 هـ) حيث قال في المعنى: « متى بُني على ظاهر اللفظ ولم يُنظر في موجب المعنى حصل الفساد»<sup>(3)</sup>.

وقد عُدَّ سيبويه من اللغويين السابقين الذين تنبّهوا إلى ضرورة مراعاة المقام أو سياق الحال عند الكشف عن المعنى العام للجملة؛ وإلى ضرورة دراسة اللغة في واقعها ومحيطها الخارجي وكذا أحوال متكلميها يقول محمد أحمد خضير: « وجد سيبويه منذ ذلك العهد المبكر يفرع إلى السياق، والملابسات الخارجية وعناصر المقام، ويتسع في تحليل التراكيب إلى وصف المواقف الاجتماعية التي تُستعمل فيها وملابسات هذا الاستعمال من حال المخاطب وحال المتكلم وموضوع الكلام، وقد عرض أمثلة لذلك عن الحذف ودور السياق في تفسيره، كما عرض لدور السياق في أمن اللبس، كما يعرض لتحكيم المعنى في التحليل وغير ذلك»<sup>(4)</sup>.

(1) - ينظر: فضيلة عظيمي: أثر السياق في التركيب القرآني من خلال كتاب البرهان في توجيه متشابه القرآن، لمحمود بن حمزة بن نصر الكرمانني (ت505 هـ). ص 134.

(2) - ينظر: عبد النعيم خليل: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، ص:134.

(3) - ابن هشام عبد الأنصاري: مغني اللبيب في كتب الأعراب. تحقيق عبد اللطيف محمد الخطيب. السلسلة التراثية (21)، ط1، الكويت، 1423 هـ - 2002 م، 14/6.

(4) - محمد أحمد خضير: الدلالة والتركيب والسياق - دراسة نظرية. ص140.

ومن ذلك يقول سيبويه عن: تفسير قولهم : (أتميمًا مرّةً وقيسا أخرى) « وإنما هذا أنك رأيت رجلا في حال تلؤن وتنقل فقلت: أتميمًا مرّةً وقيسا أخرى، كأنك قلت : أتحول تميمًا مرّةً وقيسا أخرى، فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له، وهو عندك في تلك الحال في تلؤن وتنقل وليس يسأله مُسترشدا عن أمرٍ جاهل به ليفهمه إياه ويُخبره عنه ولكنه وبَّحه بذلك <sup>(1)</sup> ». فسيبويه اعتمد على فهمه للعبارة على حال المخاطب.

### مخاطر سياق الحال عند النحويين :

تتمثل عناصر سياق الحال في العناصر غير اللغوية في الجملة، وهي عديدة منها: المتكلم والمخاطب وحالتهما وصفاتهما والعلاقة بينهما، وموضوع الخطاب، وغرضه، والحركة الجسميّة المصاحبة للحدث الكلامي، وغير ذلك. وهذه العناصر غير اللسانية تطرق لها اللغويون العرب كغيرها من العناصر اللغوية، غير أن دراساتهم وتطبيقاتهم لها جاءت بطريقة عامّة دون تفصيل أو تنظير، كما أنّها متفرقة مُبعثرة تفتقر إلى التنظيم في إطار شامل. وفيما يأتي نحاول أن نبحث عن نموذج لكل عنصر غير لساني في دراساتهم وكيف وظّفوه ونَبّهوا إلى دوره وأهميته الدلالية.

### 1/- المتكلم:

من بين النصوص القديمة التي صادفناها تتحدّث عن أهميّة السّياق الخارجي في فهم المعنى، ولاسيما أهم عنصر منه المتمثّل في المتكلم وحالته والظرف الذي دار فيه الحدث الكلامي؛ نصّ لابن جني عبّ فيه على بيت نعيم بن الحارث السعدي:

تقول - وصكّت وجهها بيمينها - أبعلي هذا بالرّحى المتقاعس

« فلو قال حاكياً عنها: أبعلي هذا بالرّحى المتقاعس من غير أن يذكر صكّ الوجه.

لأعلمنا بذلك أنّها كانت متعجّبة منكّرة، لكنّه لما حكى الحال، فقال: "وصكّت وجهها" علّم بذلك قوّة إنكارها وتعاضّم الصّورة لها. هذا مع أنّك سامع لحكاية الحال، غير مُشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بما أعرف ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين <sup>(2)</sup> ». ففي كلام ابن جني هذا ما يدلُّ على أهميّة عنصر المتكلم في سياق الحال وكذا حركاته وهيئاته في بيان المراد. والقرينة الحاليّة في هذا النصّ هي (صكّ الوجه) قد كشفت عن المعنى الدقيق للمقال: أبعلي هذا بالرّحى المتقاعس.

(1) - سيبويه: الكتاب. 343/1.

(2) - ابن جني: الخصائص. 246-245/1.

## 2/- المخاطب:

إنَّ سياق الحال كما يتعلَّق بالمتكلم قد يتعلَّق أيضاً بالمخاطب أو المخاطبين وأحوالهم وهيئاتهم. وقد اعتمد النُّحاة في كثيرٍ من الأحيان على حال المخاطب في فهم العبارة. قال ابن الأنباري (ت577هـ): « قَدْ يَسْتَعْنُونَ بِبَعْضِ الْأَلْفَاظِ عَنْ بَعْضِ إِذَا كَانَ فِي الْمَفْظُوظِ دَلَالَةٌ عَلَى الْمَحذُوفِ لِعِلْمِ الْمَخاطَبِ (...) » قال تعالى: ﴿ أَنْ أَلَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ (التوبة: 03)، فاستعنى بذكر خبر الأول عن ذكر خبر الثاني، ولعلم المخاطب أنَّ الثاني قد دخل في ذلك»<sup>(1)</sup>.

ويقول سيبويه: « وسألت الخليل عن قوله جلَّ ذكره ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (الزمر: 73) فقال: إنَّ العرب قد ترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم لعلم المخبر - أي المخاطب - لأيِّ شيء وضع هذا الكلام»<sup>(2)</sup>. في هذا المثال الأمر يتجاوز المخاطب الفرد إلى حال جماعة من المخاطبين.

## 3/- العلاقة بين المتكلم والمخاطب:

لم يقتصر اهتمام النُّحاة واللُّغويين العرب في استجلاء المعنى وتحديد الدلالة من العبارة عن المتكلم والمخاطب كلَّ على انفراد، فقد تعدَّوا ذلك إلى العلاقة المشتركة بينهما، فهذا الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي يُعدُّ من أوائل النُّحاة الذين انتهجوا المنهج السياقي في تحليل الظواهر النحويَّة وتعليل أمثلتها وتفسيرها مُعتمداً في ذلك على السياق بشقيه اللُّغوي وغير اللُّغوي، كما يتَّضح ذلك من خلال كتاب تلميذه سيبويه. قد اهتمَّ بعناصر المقام فتطرَّق إلى العلاقة بين المتكلم والمخاطب، وذلك عند الحديث عن أنَّ (قد) جواب لمن قال: لَمَّا يَفْعَلْ، فتقول: في الجواب: قد فعَلْ. « وزعم الخليل أنَّ هذا الكلام لِقَوْمٍ يَنْتَظِرُونَ الْحَبْرَ »<sup>(3)</sup>. فالمخاطب في حاجة إلى تأكيد الجواب، وهنا لا بدَّ أن يُراعى المتكلم حال المخاطب<sup>(4)</sup>. فيستخدم (قد) التي تُفيد التأكيد على الماضي.

(1) - ابن الأنباري عبد الرحمن بن محمَّد: الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين. تحقيق جودة مبروك محمَّد مبروك، راجعه رمضان عبد التواب. مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، دت، ص: 84

(2) - سيبويه: الكتاب. 13/3.

(3) - المصدر نفسه. 223/4.

(4) - ينظر: أسعد خلف العوادي: سياق الحال في كتاب سيبويه. ص: 35.

## 4/- موضوع الكلام:

إنَّ توضيح المعنى وفهم العبارة قد يتعدى المتكلم والمخاطب إلى مضمون الخطاب أو الرسالة الذي يساق من أجله الكلام. وقد أولى النحاة موضوع الكلام اهتماماً واضحاً، ويبدو هذا من قول سيبويه: «واعلم أنه ليس كلُّ موضع يجوز فيه التَّعْظِيمُ، ولا كلُّ صفة يحسن أن يعظَّم بها. ولو قلت: مررت بعبد الله أخيك صاحب الثياب أو البرَّاز، لم يكن هذا مما يعظَّم به الرَّجُلُ عند النَّاسِ ولا يفخَّم به. وأمَّا الموضع الذي لا يجوز فيه التَّعْظِيمُ فأن تذكر رجلاً ليس بنبيه عند النَّاسِ، ولا معروف بالتَّعْظِيمِ ثمَّ تعظَّمه كما تعظَّم النَّبِيَّة. وذلك قولك: مررت بعبد الله الصَّالح. فإن قلت: مررت بقومك الكرام الصَّالحين، ثمَّ قلت: المطعِّمين في المَحَلِ (\*)، جاز لأنه إذا وصفهم صَارُوا بمنزلة مَنْ قد عُرف منهم ذلك، وجاز له أن يجعلهم كأنهم عُلموا. فاستحسن من هذا ما استحسن العرب، وأجزه كما أجازته.

وليس كلُّ شيء من الكلام يكون تعظيماً لله عزَّ وجلَّ يكون تعظيماً لغيره من المخلوقين، لو قلت: الحمدُ لزيد، تُريد العظمة لم يجز، وكان عظيماً. وقد يجوز أن تقول: مررت بقومك الكرام، إذا جعلت المخاطب كأنه قد عرفهم» (1).

يقول الدكتور محمد سالم صالح: إنَّ سيبويه في هذا الموضوع المهم يُشير إلى مسألتين (2):  
إحداهما: تتعلَّق بمضمون الرسالة؛ إذ لا بدَّ أن تكون الصِّفَّة التي يُعظَّم بها صفة مدح وثناء ورفعة، أو أن تكون هذه الصِّفَّة ممَّا يليقُ وقوعه على المدوح، ومن ثمَّ لم يجز: (مررت بعبد الله أخيك صاحب الثياب أو البرَّاز)؛ لأنَّ وصفه بقوله: (صاحب الثياب أو البرَّاز) ليست من الصِّفَّات التي يتمُّ التَّعْظِيمُ والمدح بها، كما لم يجز: (الحمد لزيد) إذا أراد (العظمة لزيد)؛ لأنَّ هذه الصِّفَّة لا تليق إلاَّ بالله، ولو وصف بها المخلوقين كان غير مغتفر. وهكذا سجَّل سيبويه تخصيص تراكيب معلومة، بتوجيه ديني خالص، ولقد نفذ إلى ذلك من خلال المراوحة الغنيَّة بين النَّظَر في الأنماط اللُّغويَّة والمواقف الدِّينيَّة، والحكم على التَّراكيب بناءً على ذلك.

(\*) - المحل: - بسكون العين - الشدَّة، والجوع الشَّدِيد وإن لم يكن جذب، وهو نقيض الخصب، وجمعه محول وأمحال، ينظر: اللسان. مادة (م ح ل).

(1) - سيبويه: الكتاب. 70-69/2.

(2) - ينظر: محمد سالم صالح: أصول النَّظَرِيَّة السِّيَاقِيَّة الحديثة عند علماء العربيَّة ودور هذه النظرية في التَّوصُّل للمعنى. قسم اللُّغة العربيَّة، كُليَّة المُعلِّمين بمحافظة جَدَّة. موقع: ww.kau.edu.sa

المسألة الثانية: أن يكون المعظم قد عرفه المخاطب وعلم فضله، وذلك إما بأن يشتهر عنده ما عظم به، نحو ( مررت بعبد الله الصالح ) إذا كان عبد الله مُشتهراً بالصَّلاح عند المخاطب قبل التعظيم والمدح.

أو أن يرد من السياق اللغوي ما يدلُّ على فضل المعظم فيعرفه المخاطب، وذلك نحو قولك: ( مررت بقومك الكرام الصالحين )، ثمَّ يمدح بعد ذلك بقوله ( المطعمين في المُحل )؛ لأنَّه قد تقدَّم من كلام المتكلم ما يقرِّر به عند المخاطب حال مدح وثناء و تشريف في المذكور...  
أو أن ينزل المتكلم المخاطب منزلة من عرف فضل المعظم، فيقول: ( مررت بقومك الكرام )؛ كأنَّه قد عرفهم وإن لم يعرفهم.

إذا فهذه أهمُّ عناصر سياق الحال عند اللُّغويين والنُّحاة العرب القدامى، وغيرها كثير.

وإجمالاً فإنَّ النُّحاة واللُّغويين العرب الأوائل ممَّا لا شكَّ فيه اعتمدوا السياق بشقيه في التَّعْيِيد النَّحْوِي، فقد أدركوا العناصر اللُّغويَّة التي تُعين على تحديد الدَّلالة كطبيعة جرس الكلمة، أو بنيتها الصَّرْفِيَّة أو النَّحْوِيَّة، ووقفوا ملياً على طبيعة النُّظام الذي تُصاغ فيه الجملة الدَّالة - هنا نكون مع السُّيَاق اللُّغوي - وبما يكتنف هذا السُّيَاق من ملابسات خارجيَّة تشمل موقف المتكلم، وحال المخاطب، والمتغيِّرات التي يجري فيها الخطاب - وهنا نكون مع السُّيَاق الحالِي - (1).

(1) - ينظر: هادي نهر: علم الدَّلالة النَّطْبِيقي في التُّراث العربي. ص: 285.

### المبحث الثالث: التساق في دراسات البلاغيين

إنَّ المحور الذي بنيت عليه علوم البلاغة أبحاثها وأفكارها ونظرياتها ومصطلحاتها، هو تأدية المعنى المعتمل في النفس إلى المتلقي وتوصيله، وأنَّ هذا المعنى المتضمن في الألفاظ، هو روح عمليَّة التَّوصيل، التي ركَّزت عليها البلاغة، من خلال مُطابِقة المقال لمقتضى الحال. وتركيز البلاغة على مُقتضى الحال يُقصد منه مُراعاة المنشئ الدقة فيما ينقل من معانٍ مختزنة في نفسه إلى المتلقي، والمقامات التي تكتنف الموقف الذي تمَّ فيه التَّوصيل، فيراعي الظروف المحيطة، والعلاقات الاجتماعية وأحداث الماضي والحاضر، واستشراف المستقبل، كما يُراعي العادات والتقاليد والقيم والمعتقدات، وطبقة المخاطب ومركزه الاجتماعي والرسمي، وثقافته ومواقفه، فيخضع هذه المعطيات والمؤثرات جميعها للمعنى، ليقتنص فهم المتلقي والتأثير فيه (1).

فلقد انتصب اهتمامُ البلاغيين منذ القديم على مقولتين تُعدَّان من أعمدة البلاغة ومن أوضح ما قالوه في التساق؛ ألا وهما: ( لِكَلِّ مَقَامٍ مَقَال ) و( مُطَابِقَةُ الْكَلَامِ لِمُقْتَضَى الْحَال ). يقول الدكتور تمام حسان: « وحين قال البلاغيون ( لكلِّ مقام مقال ) و ( لكلِّ كلمة مع صاحبها مقام ) وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كلِّ اللغات لا في العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار كلِّ الثقافات على حدِّ السواء، ولم يكن (مالينوفسكي) وهو يصوغ مصطلحه الشهير سياق الحال " context of situation " يعلم أنه مسبق إلى مفهوم هذا المصطلح ألف سنة أو ما فوقها» (2). فنظريَّة التساق ليست إلا ثمرة من ثمار الدراسات البلاغيَّة. وقد كانت شأخصه بشكل جليِّ في تراثنا البلاغي القديم فيما عُرف عندهم بمقتضى الحال وقولهم لكلِّ مقام مقال.

وقد عرَّفت البلاغة عند علمائنا الأوائل بأثما: « إيصالُ المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ» (3). ويعرفها أبو الهلال العسكري (ت395 هـ) بقوله: « البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكَّنه في نفسه كتمكَّنه في نفسه مع صورة مقبولة ومعرض حسن» (4).

(1) - ينظر: صلاح الدين زرال: الظاهرة الدلالية. ص: 422.

(2) - تمام حسان: اللغة العربية معناه ومبناها. دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، دط، 1994م، ص: 372.

(3) - الروماني (أبو الحسن علي بن عيسى): النكت في إجاز القرآن. صححه عبد العليم. مكتبة الجامعة المليَّة الإسلامية دهلي، ص: 75-76.

(4) - أبو الهلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل): كتاب الصناعتين. ط1، 1320هـ، ص: 6.

فلا يُعدُّ بلاغة كل إِبْصَال دُونَ صورة مقبولة وعرض حسن للفظ في عرف البلاغيين. أمَّا الخطيب القزويني فقد اقترب كثيراً إلى ما يُعرف حديثاً بالتسياق حين تعريفه لبلاغة الكلام في قوله: « بلاغة الكلام هي: مُطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحتها، ومقتضى الحال مُختلف فإنَّ مقامات الحال متفاوتة، فمقام التَّنْكِير يبين مقام التَّعْرِيف، ومقام الإِطْلَاق يُبين مقام التَّقْيِيد، ومقام التَّقْدِيم يُبين مقام التَّأخِير ومقام الذِّكْر يُبين مقام الحذف، وكذا مقام الذِّكْر يُبين مقام الغي»<sup>(1)</sup>. فالبلاغة عنده ليست فقط إِبْصَال المعنى بكلامٍ حسن مقبول، بل تعدَّى ذلك إلى مُطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحتها.

وهكذا إلى أن استقرَّ مفهوم البلاغة عند علمائنا العرب بعد ذلك على أنَّها الاختيار الأمثل للمعطيات اللغوية من جانب المستعمل للغة، وبالنظر إلى الإمكانيات اللانهائية التي تُتيحها اللغة في جميع مستوياتها، الصَّوْتِي والمعجمي والصَّرْفِي والتَّرْكِيبي... ولا يكفي التَّوسُّع في العريية وحده دون الإلمام بوجوه الاستعمال لها، ولا يغني العلم بالألفاظ متخيرها و رديتها، إن لم يُضَف إليه معرفة المقامات وما يصلح في كل واحد من الكلام... وهذا هو لبُّ البلاغة الذي عبَّر عنه البلاغيون بعد ذلك بقولهم: " لكلِّ مقامٍ مقالٌ " (2).

ومن خلال ما سبق نلاحظ أنَّ البلاغة تقوم على ثلاثة جوانب مجتمعة: الدلالة (المعنى)، والمقال؛ أي (الكلام مع فصاحتها وجماليتها)، والمقام؛ (التمثُّل في الحال أو مُقتضى الحال). فيتطلَّب السِّياق في البلاغة « تعبيراً مناسباً، بحيث يَحَقِّق هذا التعبير بعدين أساسيين: بعد المعنى الذي يفهم المتلقي، وبعد التَّأثير الذي يتحقَّق من طريقة التَّشْكِيل اللُّغوي، والتَّصْوير الفنِّي . ولاشكَّ في أنَّ مناسبة التَّعبير للسِّياق تقتضي طريقة تَشْكِيل معيَّنة فإذا وقعت اللَّفظة في سياقها حسنت، وإذا لم تأتلف مع السِّياق قبحت، ومفهوم الحسن، والقبح، أو الجودة والرِّداءة، أحكام بلاغية، وهي كذلك تعني مفاهيم نقدية»<sup>(3)</sup>.

(1) - الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة. دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، دط، دت، ص: 11- 12.

(2) - ينظر: مسعود بودوخة: السِّياق والدلالة. ص: 102.

(3) - محمود محمَّد عيسى: السِّياق الأدبي - دراسة نقدية تطبيقية. جامعة المنصورة، كلية التربية بدمياط، (دط)، 2004م،

ص: 8.

ومن البلاغيين الأوائل الذين أولوا السِّيَاق أهمية كبيرة، وأكثر من هذا خصَّصوا أبواباً في كتبهم للحديث عن هذا المنهج في تحليل النصوص الأدبية "الجاحظ"، يقول الدكتور صلاح الدين زرال: «إنَّ هذه الفكرة بدأت عند الجاحظ بعدّه من أوائل الذين أسَّسوا لفكرة مُقتضى الحال، فقد أراد الجاحظ للغة القرآن بالدرجة الأولى أن ترتقي من خلال القراءة السِّيَاقية التي تربط بين المقولات والمقامات»<sup>(1)</sup>. ومن بين مقولات الجاحظ التي دعا فيها إلى ربط المقال بالمقام في أثناء العملية الكلامية، ومُراعاة ما يُرافق هذه العملية من عناصر لغوية وغير لغوية، قوله: «يَبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاماً، ولكلّ حالة من ذلك مقاماً، حتّى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»<sup>(2)</sup>.

وهكذا، فقد اهتمَّ البلاغيون بالسِّيَاق اهتماماً كبيراً إلى درجة أنّهم جعلوا السِّيَاق هو البلاغة ذاتها حين عرّفوا البلاغة بأنّها مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وفي إطار معالجتهم لفكرة " لكلّ مقام مقال" تعرّضوا لشقّي السِّيَاق، السِّيَاق اللُّغوي والسِّيَاق غير اللُّغوي، وهذا ما سنتطرّق إليه، لكن قبل ذلك يجدر بنا معرفة المصطلحات المرادفة لمصطلح السِّيَاق في عرف البلاغيين العرب الأوائل والتي تداولت عندهم في دراساتهم البلاغية.

### المطلب الأول: المصطلح والملاحم عند البلاغيين

إنَّ البلاغيين - كغيرهم من اللُّغويين والنُّحاة العرب - لم يشيروا إلى لفظة سِيَّاق بصريح العبارة، ولكن استخدموا له ألفاظاً أخرى في أغلب استعمالاتها مرادفة لمفهوم السِّيَاق في الدِّراسات اللِّسانية والدلالية الحديثة، ومن بين تلك الألفاظ التي تداولت في مؤلّفاتهم للدلالة على السِّيَاق، وشقّيه السِّيَاق اللفظي وغير اللفظي، ما يأتي:

(1)- صلاح الدين زرال: الظاهرة الدلالية. ص 436.

(2)- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين. تحقيق وشرح عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط7، 1419-1998، ص: 138-139.

## 1/- الحال ومقتضى الحال:

"الحال" عند البلاغيين وصف عام يشمل: حال الكلام (مقاماته)، وحال المتكلم، وحال المستمعين، والفكرة أو الغرض الذي تعبر عنه اللغة<sup>(1)</sup>. يقول "محمد سالم صالح" موضحاً ذلك يرى التهاوني أن «الحال في اصطلاح أهل المعاني هي الأمر الداعي إلى المتكلم على وجه مخصوص - أي الداعي إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصية ما هي المسممة بمقتضى الحال. مثلاً كون المخاطب منكراً للحكم حال يقتضي تأكيد الحكم والتأكيد مقتضاها... وعلى هذا النحو قولهم (علم المعاني) علم يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يُطابق صفة اللفظ مقتضى الحال، وهذا هو المطابق بعبارات القوم حيث يجعلون الحذف والذكر إلى غير ذلك معللة بالأحوال»<sup>(2)</sup>. إذن ف (الحال) في اصطلاح علم المعاني يعدل (مقتضى الحال).

وقد فرّق الباحث "فريد عوض حيدر" بين مصطلح (مقتضى الحال) عند علماء المعاني العرب، ومصطلح (سياق الحال) عند علماء علم اللغة الحديث في قوله: «هذين المصطلحين يتفقان في أهم خاصية؛ وهي أنهما يمثلان ظاهرة واحدة، أو جانباً واحداً، اتفق عليه علماء علم المعاني وعلماء علم اللغة الحديث، هذا الجانب هو أنهما جميعاً يشيران إلى شيء زائد، وخارج نطاق اللغة "paralinguistic" وهو الجانب الاجتماعي المرتبط بالمتكلم والسامع وغيرهما من عناصر سياق الحال»<sup>(3)</sup>.

## 2/- المقام:

أمّا مصطلح "المقام" عند البلاغيين يُرادف في أغلب استعمالاته مُصطلح "الحال"، وكلا من المصطلحين يُقصد بهما: مجموع الاعتبارات، والظروف، والملايسات التي تُصاحب النشاط اللغوي ويكون لها تأثيرها في ذلك النشاط من خارجه، بحيث لا تتحدّد دلالة الكلمة، أو تتجلى مزاياها إلاّ في ظلّها، وفي ضوء ارتباطها بها<sup>(4)</sup>.

وبالتالي فمصطلح "المقام" يُرادف أيضاً المصطلح الحديث "سياق الحال" يقول "تمّام حسن": «أجد لفظ المقام أصلح ما عبّر به عمّ أفهمه من المصطلح الحديث: سياق الحال الذي

(1) - ينظر: ردة الله الطلحي: دلالة السياق. ص: 96.

(2) - محمد سالم صالح: الدلالة والتّقييد النحوي. ص: 372.

(3) - فريد عوض حيدر: فصول في علم الدلالة. ص: 127-128.

(4) - ينظر: أحمد مصطفى أحمد الأسطل: أثر السياق في توجيه شرح الأحاديث عند ابن العسقلاني. ص: 57.

يستعمله اللسانيون المحدثون»<sup>(1)</sup> .

### 3-/- المقال:

"المقال" مُصطلح بلاغي بحدّه مُقابلاً لمصطلح "المقام" وهو « الكلام أيّاً كان نمطه أو وظيفته أو الوسيلة التي استخدمت في إيصاله»<sup>(2)</sup> .

كما نجد أنّ مصطلح المقال يرادف في الدّراسات اللّغويّة الحديثة مصطلح السّياق اللّغوي. وقد اهتمّ البلاغيّون اهتماماً خاصّاً بالمقام بأن جعلوا فصاحة الكلمة مُرتبطة بسياقها اللّغوي؛ أي ما يسبقها وما يليها من كلام ومعاني، يقول "عبد القاهر الجرجاني": « وجملَةُ الأمرُ أنّا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكننا نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلّفاً معناها بمعنى ما يليها. فإذا قلنا في لفظة (اشتعل) من قوله تعالى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مرم: 4] أنّها في أعلى رُتبةٍ من الفصاحة، لم تُوجِب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولاً بها (الرأس) معرفاً بالألف واللام ومقروناً إليها (الشَّيبُ) مُنكراً منصوباً»<sup>(3)</sup> .

### 4-/- الحيز:

إنّ متصّحّ كتاب دلائل الإعجاز لـ "عبد القاهر الجرجاني" (ت471هـ) يلحظ أنّ مفهوم السّياق حاضر في كلّ صفحة من صفحاته، غير أنّه لم يستخدم مُصطلح "سياق"، بل استخدم مصطلح "حيز"<sup>(4)</sup> ، ومن ذلك قوله: « واعلم أنّه ليس التّأثير لما ذكرنا من إعمال الفعل وترك إعماله على الحقيقة. وإنما التّأثير لأمرٍ آخر وهو دُخول كلّ في حيز النّفي»<sup>(5)</sup> .

(1) - تمام حسّان: الأصول. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، دط، 1982، ص: 339.

(2) - أحمد مصطفى أحمد الأسطل: أثر السّياق في توجيه شرح الأحاديث عند ابن العسقلاني. ص: 58.

(3) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. قرأه وعلّق عليه: أبو فهد محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004م، ص: 402-403.

(4) - ينظر: أحمد مصطفى أحمد الأسطل: أثر السّياق في توجيه شرح الأحاديث عند ابن العسقلاني. ص: 68.

(5) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 283.

### المطلب الثاني: السِّياق اللُّغوي عند البلاغيين

يتجلى اهتمام البلاغيين بالسِّياق اللُّغوي من خلال: « دراستهم للأساليب والجمل، فقد راعوا القرائن والتَّمسوا من خلالها دلالات الكلام ومعانيه وأغراضه »<sup>(1)</sup>. وأكّدوا على وجوب مراعاة السِّياق اللُّغوي بدقّة وصولاً إلى الدّلالة المنشودة، ولاسيّما في النّص القرآني الذي أعجزت العرب<sup>(2)</sup> « مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، و بدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلّ مثل، ومساق كلّ خير وصورة كل عظة وتنبية وإعلام وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كلّ حجّة وبرهان»<sup>(3)</sup>.

ولقد أولى البلاغيون السِّياق اللُّغوي - أو ما يعرف عندهم بالمقال - اهتماماً كبيراً، فهذا عبد القاهر الجرجاني يؤكّد على أنّ لا معنى لفصاحة الكلمة إلّا إذا ربطت بسياقها اللُّغوي وتركيبها النّحوي الذي قيلت فيه، وبملاءمة معناها لمعنى ما يسبقها وما يليها من ألفاظ، حيث يقول: « فقد اتّضح اتّضاحاً لا يدع للشكّ مجالاً أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلمٌ مفردة، وأنّ الألفاظ تثبّت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو أشبه ذلك ممّا تعلق له بصريح اللفظ»<sup>(4)</sup>.

ومن البلاغيين العرب يُعدُّ عبد القاهر الجرجاني خير من مثّل السِّياق اللُّغوي عندهم، وذلك من خلال نظريته في النّظم؛ فقد عنى بتعبير " النّظم " « ما عناه المحدثين بالسِّياق اللُّغوي، فإذا كان السِّياق اللُّغوي يتمثّل في الأصوات والكلمات والجمل كما تتابع في حدث كلامي معيّن أو نصّ لغويّ فإنّ عبد القاهر الجرجاني يوضّح النّظم بقوله: " واعلم أنّك إذا رجعت إلى نفسك، علمت علماً لا يعترضه الشكّ، أنّ لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من النّاس"»<sup>(5)</sup>.

(1) - فضيلة عظيمي: أثر السِّياق في التّركيب القرآني. ص: 37.

(2) - ينظر: هادي نهر: علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي. ص: 284.

(3) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 50. وانظر: المرجع السابق. ص: 284.

(4) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 92.

(5) - عبد النّعيم خليل: نظرية السِّياق بين القدماء والمحدثين. ص: 171.

أمّا طريقة نظم الكلم كما عبّر عنها عبد القاهر هي « أن تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يُعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو "النظم" الذي معناه ضمُّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتَّفَقَ »<sup>(1)</sup>. فالجرجاني هنا يدعوا إلى ترتيب ألفاظ الكلام على ترتيب المعاني في النفس وعلى حسب الأغراض التي يُساق بها الكلام، إذن فنظرية النظم تعدُّ مجالاً تطبيقياً رحباً تقوم على فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

ومن التطبيقات العملية لهذه النظرية ما « تجلّت خصوصاً في مباحث علم المعاني، كنوع الجملة وما يحدث بين عناصرها من حذف وذكر وتقديم وتأخير... فالجملة الاسميّة مثلاً: تُفيد بأصل وضعها ثبوت الحكم، بلا نظر إلى تجدد ولا استمرار ولكن قد تحفُّ بها قرائن أخرى تُستفاد من سياق الكلام، فتفيد الدوام والاستمرار، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، فسياق الحديث في معرض المدح دالٌّ على إفادة الاستمرار والدوام. وكذلك ألفاظ الاستفهام قد تخرج من دلالتها الأصليّة لأغراض أخرى تُفهم من سياق الكلام كخروج معنى الاستفهام للدلالة على التعجب والتّسبيه والتّقرير وغير ذلك»<sup>(2)</sup>.

### المطلب الثالث: سياق الحال عند البلاغيين

لقد تفتنّ البلاغيون العرب إلى سياق الحال أو ما يُطلق عليه "المقام" أو "مقتضى الحال"، وألوه عناية كبيرة. ومفهوم المقام عند البلاغيين « يشترك مع مفهوم سياق الموقف عند الغربيين في أنّهما يدرسان أثر العناصر غير اللغويّة مثل المتكلم وهيئته ومكانته وصفاته أو عاداته، وردُّ فعل المتلقّي ومكانته أيضاً لدى محلّ النص، والملابسات والظروف التي يُقال فيها الحديث، وغرض المتكلم، وزمان تلك المحادثة ومكانتها، وغيرها ممّا لها تأثير بين على مجرى الدلالة »<sup>(3)</sup>، ولكنّ هناك فرق جوهريّ بينهما يتمثل في اشتراط البلاغيين في النصوص المحكيّة أو المكتوبة أن تكون نصوصاً فصيحة يكون فيها منشئ النص متخيّراً لألفاظه وتراكيبه<sup>(4)</sup>.

(1) - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 49.

(2) - فضيلة عظيمي: أثر التمثيق في التركيب القرآني. ص: 38.

(3) - عرفات فيصل المناع: التمثيق والمعنى دراسة في أساليب النحو العربي. ص: 67-68.

(4) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 68.

بينما في النظرية السياقية أصحابها يبحثون عن الدلالة الكامنة في النصوص اللغوية بغض النظر عن فصاحتها أم لا، يقول الدكتور "عبد النعيم خليل": « كانت نظرية السياق بكل عناصرها وليدة البحث عن المعنى أو الدلالة بينما أخذ البلاغيون فكرة المقام في اعتبارهم بهدف الوصول إلى أعلى مستوى بلاغي للنص»<sup>(1)</sup>.

إن المتطلع على مؤلفات علمائنا البلاغيين يجد "سياق الموقف" واضحاً فيها بل ويُعدُّ من أهم الأسس التي قامت عليها البلاغة عند العرب، والذي عبَّروا عنه بقولهم: "لكلِّ مقام مقال". ومن النماذج التي تُؤكِّد اهتمام البلاغيين بالمقام وعناصره، ما ذهب إليه "بشر بن المعتمر" (ت 210هـ) - فيما نقله عنه الجاحظ - إلى أن: « المعنى ليس يَشْرَفُ بأن يكونَ من معاني الخاصَّة، وكذلك ليس يَتَضَعُ بأن يكونَ من معاني العامَّة، وإنما مدارُ الشَّرْفِ على الصَّواب وإحرازِ المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلِّ مقامٍ من مقالٍ»<sup>(2)</sup>، فبشر هنا يقرِّر أن لا بلاغة للكلام إلا بمراعاة المقام في المقال، وكذا مراعاة الموافقة والتناسب بينهما. فيراعي المتكلم كلامه حتى يتلاءم مع طبيعة المتلقِّي وأحواله.

ويُعدُّ الجاحظ (ت 255هـ) أكثر البلاغيين العرب اقتراباً من نظرية سياق الحال في مؤلفاته، بحيث تحتوي هذه الأخيرة « مجموعة من الحقائق العلمية التي تتعلق بموضوع مناسبة اللغة للمقام على نحو يُشبه فكرة "سياق الموقف" التي أوردها المعاصر (مالينوفسكي)، فمداد الأمر عند الجاحظ أن "لكلِّ ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، وكل نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسَّخيف للسَّخيف والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح»<sup>(3)</sup>.

وقد تفرَّغ الجاحظ إلى عناصر السياق بعدها أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ وهي خمسة « أولها: اللفظ، ثمَّ الإشارة ثمَّ العقد ثمَّ الخطُّ ثمَّ الحال وتسمَّى نصبة»<sup>(4)</sup>، ومن هذه الأصناف ما يمكن عدُّه من عناصر السياق غير اللغوي: "الإشارة" و"النصبة" لما لهما من علاقة

(1) - عبد النعيم خليل: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين. ص: 166-167.

(2) - الجاحظ: البيان والتبيين. ص 136.

(3) - هادي نهر: اللسانيات الاجتماعية عند العرب. دروب للنشر، عمان - الأردن، ط4، 2011، ص: 182-183.

(4) - الجاحظ: البيان والتبيين. ص: 76.

مباشرة بالموقف أو الحال التي يكون فيها الخطاب. يقول الجاحظ في الإشارة: « فأما الإشارة فباليد، وبالرأس وبالعين، والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان والثوب والسيف. وقد يتهدد رافع السيف والسوط فيكون ذلك زاجراً ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً والإشارة واللفظ شريكاً، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط<sup>(1)</sup>، فالإشارة مهما كان نوعها حين تُصاحب الحدث الكلامي قد تنوب اللفظ من توضيح وإبراز للدلالة وإفصاح عنها.

أما التنبه عند الجاحظ فهي: « الحال الناطقة بغير اللفظ والمشييرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض وفي كل صامت وناطق وجامد... فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معرّبة من جهة البرهان، ولذلك قال الفضل بن عيسى بن أيان: "سل الأرض فقل: من أجرى أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً"<sup>(2)</sup>. فأبى شيء في هذا الكون يحمل في ذاته دلالة، وبإمكانه أن يقوم مقام الكلمات في الإبانة عن ذاته، فالجاحظ في كلامه هذا عبّر بدقة عما قصده اللغويون المحدثون بـ"سياق الحال"، وما أشار إليه القدماء بقولهم "الكل مقام مقال".

وإجمالاً، ففكرة السياق بأبعادها وعناصرها تواجده عند البلاغيين، وتداولوها في نصوصهم، وعبروا عنها بمصطلحات مختلفة، لكن ما ينقصها هو أنها تفتقر إلى نظرية متكاملة، شأنها شأن الأفكار الأخرى في التراث العربي، فقديماً لم يكن هدف اللغويين والبلاغيين إنشاء نظريات وإنما كانت غاياتهم الوصول إلى مقاصد النصوص ومدلولاتها والحكم عليها بالصحة والحسن والفصاحة. وتتجلى عناية البلاغيين بالسياق اللغوي في دراستهم "للنظم" أو التركيب، بأن لا ميزة للكلمة ولا قيمة لها في حالة أفرادها، وإنما تتحدد دلالتها وقيمتها في نظمها. كما تتضح عنايتهم بسياق الحال بتأكيدهم على ضرورة مراعاة البليغ لمقتضيات الأحوال والمقامات، مثل: حال المتكلم، والمخاطب، والظروف الاجتماعية والنفسية والزمانية والمكانية المحيطة بهما.

(1) - الجاحظ: البيان والتبيين. ص: 77-78.

(2) - المصدر نفسه. ص: 81.

### المبحث الرابع: السباق عند دارسي القرآن

مُنذ عهد مبكر جداً تنبّه العرب إلى أهميّة السباق في فهم النصّ القرآني وتعيين الدلالة المقصودة منه، فقد زوي أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ الآية: [ 38 من سورة المائدة ] هكذا: { والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }، فقال الأعرابي ما هذا كلام فصيح فقيل له ليس التلاوة كذلك، وإنما هي: { اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } فقال: " بَخِ بَخِ عَزَّ فَحَكَمَ فَقَطَعَ " فقد اهتدى هذا الأعرابي إلى صحّة الآية احتكاماً إلى السباق والمعنى<sup>(1)</sup>.

وقد جاء الاهتمام بالسباق عند العلماء المسلمين لخدمة القرآن الكريم وإدراك معانيه، فنال حظاً وافراً في دراساتٍ عديدةٍ ومتنوّعةٍ منها ما هو متعلّق بالتفسير ومنها ما هو متعلّق بأصول الفقه وغيرهما من العلوم والدراسات المتصلة بالقرآن والحديث النبوي الشريف.

أمّا المفسّرون فقد أولوا عناية بالغة بالسباق بصنفيه اللغوي وغير اللغوي، واستعانوا به في تحديد المعنى، وهذا واضح من خلال تعريفهم للتفسير في حدّ ذاته، وكذا من خلال الشروط التي اشترطوها في من يقوم بتفسير القرآن الحكيم.

فقد عرّفوا التفسير على أنه: « العلم الذي يُعرف به فهم كتاب الله تعالى المنزّل على نبيّه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه، واستمداد ذلك من علم اللّغة والنحو والتّصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج إلى معرفة أسباب النّزول والنّاسخ والمنسوخ »<sup>(2)</sup>. وذكر "السبوطي" أن « التفسير كشف معاني القرآن، وبيان المراد منه، سواء أكان معانٍ لغويّة أو شرعيّة بالوضع أو بقرائن الأحوال ومَعونة المقام »<sup>(3)</sup>. فمن خلال هذين التعريفين نلاحظ أن التفسير يستعين بقرائن حالية وأخرى مقالبة لاستنباط المعنى من النصّ القرآني وهذا ما يتعلّق بالسباق، وإضافة إلى ذلك فالتفسير « يلتقي بعلم الدلالة "السيمانتيك" في أن كلاهما، يحاول الكشف عن المعنى بشئى الوسائل التي تعين على ذلك... ومن هنا فقد كان هناك ارتباط في منهج البحث بين كلا

(1) - ينظر: مصطفى أحمد عبد العليم: العلاقات النصية في القرآن الكريم - دراسة نحوية لجهود المفسرين. جامعة القاهرة - كلية دار العلوم، ص: 18.

(2) - مسعود بودوخة: السباق والدلالة. ص: 127.

(3) - التعبير في علم التفسير: ص 38. نقلا عن: ردة الله الطلحي: دلالة السباق، ص: 105.

العلمين»<sup>(1)</sup>.

أمّا في ما يخصُّ الشُّروط التي وضعوها في من يقوم بتفسير القرآن الكريم، فمنها ما يتعلّق بالجانب اللغوي، ومنها ما يتعلّق بالجانب المقامي؛ تتمثّل في إتقانه لمجموعة من العلوم أشبه ما تكون بمراحل التحليل في النظرية السياقية<sup>(2)</sup> «فمن اشتراطهم أن يكون المفسّر عالماً بالقراءات، وهو الجانب الصوتي في الأداء الذي يرحّحه كل قارئ في بعض الوجوه المحتملة، ولا بدّ من إتقانه لعلم التصريف والاشتقاق، وعلم النحو والمعاني، والمعجم وما يتّصل به من علم اللّغة أو معرفة متنها، وبها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها»<sup>(3)</sup>. وغير ذلك مما يدخل في الجانب اللغوي، أمّا ما يتعلّق بالجانب المقامي يمكن أن نلخصها في النقاط الآتية<sup>(4)</sup>:

1- ألاّ يغفل عن بعضه في تفسير بعضه.

2- ألاّ يغفل عن السنّة في تفسيره.

3- أن يعرف أسباب نزول الآيات.

4- أن يعرف النظم الاجتماعية عند العرب.

إذن فهذه إسهامات نظريّة تبرز اهتمام المفسّرين بالتسياق بكلّ عناصره الداخليّة والخارجيّة، والتّعويل عليه في توجيه المعاني في القرآن الكريم.

أمّا عن الأصوليين، فهم كذلك يبدو عندهم تمثّل واضح للتسياق بصنفيه المقامي والمقالي، ووعي كبير بأهميته وقيّمته ودوره في تحقيق الاتّساق النصّي الديني، وتحديد الدلالة المبتغاة منه، واستنباط مقاصد القرآن الحكيم، للوصول إلى قصد الشّارع. والأصوليون «في حقيقة الأمر ليسوا إلا طائفة من المفسّرين، وقد تنبّهوا في فهم القرآن - كالمفسّرين - للتسياق اللفظي اللغوي بمعناه الضيق الذي يشمل الآيات والنصوص المتتاليّة، وبمعناه الأوسع حيث يعدّون القرآن وما صحّح من

(1) - عبد التّعيم خليل: نظريّة السّاق بين القدماء والمحدثين. ص: 196.

(2) - ينظر: فضيلة بلعالم: التسياق وأثره في المعنى عند سيّد قطب في ظلال القرآن نموذجاً. مذكرة ماجستير، جامعة وهران، 2004-2005، ص: 18.

(3) - تحسين عبد الرضا: الصوت والمعنى. ص: 440.

(4) - ينظر: مختار بن قبيّة: أثر التسياق اللغوي في تفسير الزّازي. ص: 17.

السنة وحدةً متكاملة يفسر بعضها بعضاً، كما تنبّهوا إلى السّياق الحالي أو القرائن الحالية فاتجهوا إلى أسباب النزول وهي الملابس المحتفّة بنزول النصّ القرآني، وكذلك المواقف الملابس لنصوص الحديث الشّريف لما في ذلك من أثر في الكشف عن المعنى على وجه الدّقة»<sup>(1)</sup>.

ويُعرّف علم أصول الفقه (أو أصول الفقه) بأنّه: « العلم بالقواعد التي يتوصّل بها إلى استنباط الأحكام الشرعيّة من أدلّتها التفصيليّة »<sup>(2)</sup>. وقيل هو: « العلم بالقواعد وقيل هو نفس القواعد الموصلة بذاتها إلى استنباط الأحكام وقيل هو طرق الفقه »<sup>(3)</sup>. وعليه فقد اعتمدت الدّراسة الأصوليّة على اللّغة بهدف استنباط الأحكام الشرعيّة من النّصوص القرآنيّة والسنة، مُعتمدين في ذلك على تاريخ اللّغة التي نزل بها النصّ وأسرارها في التّعبير ومقاصدها في البيان، وقدّموا في الموضوع بحثاً ونقاشات جديرة بالعناية والاهتمام، تفوق ما قدّمه اللّغويّون. فكان الاهتمام باللّغة من أهمّ الوسائل التي تُعين على فهم النصّ فهما دقيقاً تتحدّد به الفكرة تحديداً واضحاً وذلك لأنّها ترتبط بالحكم ومعرفة تطبيقه<sup>(4)</sup>.

وإذا كانت بُحوث الأصوليين قد ارتبطت باللّغة بكلّ مستوياتها، فإنّ المستوى الدّلاليّ أهمّ ما التفت إليه هؤلاء العلماء في دراساتهم، كما أنّه أهمّ أسّ قامت عليه نظريّة السّياق. يقول "محمود عكاشة": أنّ علماء الأصول ساهموا « بنصيب كبير في دراسة الدّلالة، فقد اعتنوا بدراسة الألفاظ ودلالاتها، وقسموها إلى عدّة أقسام تبعاً لدلالاتها على المعنى »<sup>(5)</sup>.

فدوافع الأصوليين أساساً « كانت تسعى إلى محاولة كشف وتحليل دلالة الألفاظ وعلاقتها بالمعاني، وقد وجدوا لهذه العلاقة عدّة اعتبارات وقسموها إلى أربعة أقسام:

- (1) - محمّد أحمد خضير: التّركيب والدّلالة والسّياق - دراسة نظريّة. ص: 136.
- (2) - محمّد المهدي حمادي رفاعي: السّياق في كتب التّفسير الكشاف وتفسير ابن كثير نموذجاً. رسالة ماجستير، جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، سوريا، 2004 م، ص: 63.
- (3) - عبد النّعيم خليل: نظريّة السّياق بين القدماء والمحدثين. ص: 235.
- (4) - ينظر: عليّ آيت أوشان: السّياق والنّص الشعري من البنية إلى القراءة. ص: 144. وينظر: عبد النّعيم خليل: نظريّة السّياق بين القدماء والمحدثين. ص: 236.
- (5) - محمود عكاشة: الدّلالة اللفظيّة. مكتبة الأنجلو المصريّة - القاهرة، (دط)، 2002 م، ص: 119.

- 1- اللفظ باعتبار المعنى الذي وُضع فيه: وعالجوا في هذا القسم: الخاص والعام والمشارك.
- 2- اللفظ باعتبار المعنى الذي استعمل فيه: وعالجوا فيه الحقيقة والمجاز.
- 3- اللفظ باعتبار ظهور المعنى وخفائه: وقسموه إلى ظاهر وخفي.
- 4- اللفظ باعتبار طرق الوقوف على مراد المتكلم.

هذه الأقسام الأربعة يمكن اعتمادها لدراسة مسألة الدلالة اللغوية (sémantique) وكذلك بعض القضايا التداولية (pragmatique) فهي تبرز اهتمام الأصوليين بمختلف أشكال العلاقة التي تربط اللفظ بالمعنى سواء على المستوى المعجمي أو التركيبي أو السياقي، فقد أدركوا أن للتسياق دوراً مهماً فهو يتدخل في الانجاز، ويكاد يكون فهم الخطاب أحياناً موقوفاً عليه، يقول "الأمدي": إن دلالة الألفاظ ليست لذواتها بل هي تابعة لقصد المتكلم وإرادته<sup>(1)</sup>.

ومنه، فهذه بعض الإشارات والإسهامات أوضح بها الأصوليون الأصل النظري للتسياق وعناصره اللغوية وغير اللغوية، ودوره الجلل في عملية التواصل اللغوي، واستجلاء الدلالة، وتحديد المقاصد من النصوص الشرعية... فانطلقت تحقيقاتهم للنصوص من مراعاة المستويات اللغوية ودلالاتها، وتصويرهم للموقف الذي قيل فيه النص.

### المطلب الأول: المصطلح والمفهوم

على خلاف اللغويين والبلاغيين نجد مصطلح التسياق بصريح لفظه ومصطلحات أخرى قريبة من مفهومه وردت في مؤلفات الأصوليين والمفسرين ودارسي علوم القرآن في مواضع عدة، غير أنهم لم يصرحوا بمفهومه كما جاء في البحوث اللغوية الحديثة، ومن بين تلك المصطلحات التي استخدموها في دراساتهم:

#### 1/- التسياق:

من بين النصوص التي وُظف فيها لفظ سياق قول لـ"السبوطي": « وأما ما لم يرد فيه نقل فهو قليل، وطريق التوصل إلى فهمه، النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها

(1) - علي آيت أوشان: التسياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة. ص: 144-115.

واستعمالاتها بحسب السِّيَاق»<sup>(1)</sup>. وغيره من النصوص الكثيرة التي ورد فيه لفظ سياق بصريح العبارة.

كما ورد أيضاً مصطلح "دلالة السِّيَاق" في مؤلفات دارسي القرآن « ولقد عقد الزركشي " في كتابه "البحر المحيط في أصول الفقه" مبحثاً سمّاه (دلالة السِّيَاق) ، وعدّ من أنكرها جاهلاً بأمرها، يقول: "أنكرها بعضهم، ومن جهل شيئاً أنكره" ...»<sup>(2)</sup>.

## 2/- المساق:

بُجِدَ دارسي القرآن استعمالوا مُصطلح "المساق" للتعبير عن مفهوم السِّيَاق وذلك بمراعاة الظروف والأحوال المحيطة بالنصّ القرآني من جهة، وعن الالتفات إلى أول الكلام وآخره من جهة أخرى، فهذا الشاطبي يقول: « كلام العرب على الإطلاق لا بد فيه من اعتبار معنى المساق في دلالة الصيغ، وإلا صار ضحكة وهزءة، ألا ترى إلى قولهم فلان أسد أو حمار، أو عظيم الرماد، أو جبان الكلب، وفلانة بعيدة مهوى القُرط، وما لا ينحصر من الأمثلة، لو اعتبر اللفظ بمجرد لم يكن له معنى معقول؛ فما ظنك بكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم»<sup>(3)</sup>.

## 3/- القرينة:

يشيع عند علماء الأصول مُصطلح "القرينة" -للدلالة على ما يُفيد مُصطلح السِّيَاق - باعتباره الأساس الذي نَقَف من خلاله على طبيعة المعنى ومقاصده، وتعلّق "القرينة" عندهم بكلّ المعطيات اللغويّة وغير اللغويّة التي تُسهم في تشكيل العبارة اللغويّة، وبالتالي تدخل في المعنى المقصود وتبليغه<sup>(4)</sup>.

كما بُجِدَ مصطلح "القرينة الحاليّة" تكرر في مواضع عدّة من مؤلفات دارسي القرآن مُعبرين به عن سِيَّاق الحال وعناصره المصاحبة للحدث الكلامي. ففي حديثه عن أهميّة القرائن اللغويّة

(1) - السبّوطي: الإتيان في علوم القرآن. ص: 583.

(2) - عرفات فيصل المنّاع: السِّيَاق والمعنى دراسة في أساليب النّحو العربي، ص: 73.

(3) - الشاطبي: الموافقات. 420-419/3.

(4) - ينظر: سامية بن يامنة: سياق الحال في الفعل الكلامي - مقارنة تداوليّة. ص: 35-36.

والقرائن الحالية والرموز والإشارات والحركات للمتكلم وعاداته وقصده في إفادة الاستغراق والعموم يقول "أبو حامد الغزالي": « إنَّ قصد الاستغراق يعلم بعلم ضروري يحصل عن قرائن أحوال ورموز وإشارات وحركات من المتكلم وتغيُّرات في وجهه وأمور معلومة من عاداته ومقاصده وقرائن مختلفة لا يمكن حصرها في جنس ولا ضبطها بوصف بل هي كالقرائن التي يعلم بها خجل الخجل ووجل الوجل وجبن الجبان، وكما يعلم قصد المتكلم إذا قال السَّلام عليكم، أنَّه يريد التَّحيَّة أو الاستهزاء واللَّهو»<sup>(1)</sup>.

ومن يستقرأ ما كتبه دارسو القرآن من أصوليين ومفسرين وغيرهما عن السِّياق يمكن أن ينظر إلى السِّياق عندهم من خلال تقسيمه إلى مُصطلح ومفهوم<sup>(2)</sup>:

أما المُصطلح فقد نظروا إليه من خلال عدَّة معاني منها: ما جاء بمعنى موسَّع للسِّياق، وفي مقدِّمة الذين استعملوا هذا المصطلح للدلالة على ما هو أشمل من الآيات والجمل المحيطة بالآية أو الجملة موضوع الدِّراسة الإمام "الشَّاطبي" (ت 790هـ).

ومنهم من قصد بالسِّياق ما يسبق أو يلحق الآية من جملة العناصر المقاليَّة المحيطة بالآية موضوع الدِّراسة، ومنهم من عني بالسِّياق ما عبَّر عنه الشيخ "حسن العطار" (ت 1250هـ) بقوله: "والسِّياق ما سيق الكلام لأجله"؛ فمفهوم السِّياق هنا مرتبط بفكرة القصد أي قصد الشَّارح إلى هذا النوع أو ذلك.

أما على مستوى المفهوم: فلم يصرِّحوا بمفهوم السِّياق ولكنَّ أفكارهم وتحليلاتهم تكشف عن وجود مثل هذا المفهوم في أذهانهم، وهم يمارسون عمليَّة الفهم هذه.

(1)- الغزالي(محمد بن محمد أبو حامد): المستصفى من علم الأصول. دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1403هـ، 362-361/1.

(2)- ينظر: أحمد مصطفى أحمد الأسطل: أثر السِّياق في توجيه شرح الأحاديث عند ابن العسقلاني. ص: 78.

### المطلب الثاني: السِّياق اللُّغوي عند دارسي القرآن

إذا كان المفهوم العام للسِّياق اللُّغوي في الدراسات اللِّسانية الحديثة، هو أن تستمدَّ الوحدة اللُّغوية معناها أو جزءاً منه من الوحدات الأخرى التي تُجاورها (تسبقها أو تلحقها)، ولا تقتصر على الجملة أو العبارة بل تتعدَّى ذلك إلى الفقرة كاملة أو الكتاب. فإنَّ علماء القرآن قد اهتموا إلى ذلك أيضاً حينما أشاروا إلى أنَّ أفضل طريقة لتفسير القرآن الكريم هي تفسير القرآن بالقرآن. « إذ نظروا إلى الآية القرآنية أو مجموعة الآيات على أنَّها جزء من نصِّ متكامل هو القرآن، ومعنى ذلك أنَّهم لا يعتمدون على السِّياق اللُّغوي الجزئي المتمثل في الآية الواحدة أو مجموع الآيات المعزولة عن سياقها الكلِّي»<sup>(1)</sup>، يقول ابن تيمية (ت728هـ): « إنَّ أصحَّ الطُّرق في ذلك (أي في التفسير) أن يُفسَّر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنَّه فُسِّر في موضع آخر، وما أختصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر»<sup>(2)</sup>.

ولم يقتصر اهتمام المفسِّرين والأصوليين بالسِّياق اللُّغوي عند تفسير القرآن بالقرآن الكريم بل تعدَّوا ذلك إلى تفسير القرآن بالحديث النبوي الشريف، حيث اعتبروا نُصوص الكتاب الحكيم والسُّنة المطهرة سياقاً واحداً متكاملًا يوضِّح بعضه البعض وقد قال " ابن حزم الأندلسي " (ت456هـ): « الحديث والقرآن كلُّه كلفظة واحدة فلا يحكم بأية دون أخرى ولا بحديث دون آخر بل يضمُّ كلَّ ذلك بعضه إلى بعض إذ ليس بعض ذلك أولى في الإتيان من بعض ومن فعل غير هذا فقد تحكَّم بلا دليل»<sup>(3)</sup>.

كما أنَّهم اهتمُّوا بعناصر أخرى مكِّمَّة للسِّياق اللُّغوي في النَّصِّ القرآنيِّ كالقراءات القرآنية وكيفية الوصل والفصل والوقف والابتداء، والصَّيغ الصَّرْفِيَّة والمشتقات، والإعراب والتَّقديم والتَّأخير، وما يترتَّب عنها من دلالات، وغيرها ممَّا يعدُّ من عناصر السِّياق اللُّغوي. حيث يرى الدكتور " طاهر سليمان حمودة " أن السِّياق اللُّغوي في القرآن الكريم « يضمُّ مجموعة من السِّياقات الفرعية وفقاً لمستويات اللُّغة، وهذه الأخيرة توجَّه المفسِّر الذي يتبَّع أثر الظواهر الصَّوتية القرآنية في تحديد معاني

(1) - محمَّد سالم صالح: الدلالة و التَّعقيد النَّحوي - دراسة في فكر سيبويه. ص: 375.

(2) - ابن تيمية (تقي الدين أحمد بن عبد الحلِيم): مقدِّمة في أصول التفسير. تحقيق: عدنان زرزور. ط2، 1392هـ / 1972م، ص: 93.

(3) - ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي): الإحكام في أصول الأحكام. دار الحديث- القاهرة، ط2،

1404هـ ، 371/3.

الآيات، ويحتاج أيضاً إلى اعتبار السبياق الصبرني والتبوي، بالإضافة إلى السبياق المعجمي الذي يعد من أساسيات الدراسة التفسرية القرآنية باختلاف منهجها، حيث يعتمد المفسرون على المداخل المعجمية كمرحلة أولى للوصول إلى المعنى ومن ثم يُخضعونها إلى المعالجة داخل سياقها كمرحلة ثانية. والجدير بالذكر أن الأصوليين قد تفوقوا على غيرهم في هذه النقطة، حيث استثمروا عناصر السبياق اللغوي بالطريقة التي حددها النظرية التنظيمية (البلاغية) بقدر استثمارها للعناصر الخارجية<sup>(1)</sup>.

ومن مؤلفات الأصوليين تعد "رسالة" الشافعي (ت204هـ) أول كتاب دُون في أصول الفقه وبه بدأت الإشارة للسبياق، وقد عقد الشافعي فيه باباً عنونه بـ "الصنف الذي يبين سياقه معناه" استرشد بدلالة السبياق في فهم معاني آيات من القرآن الكريم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: 163]، بين الشافعي أن السبياق هو الذي أرشد إلى أن المراد أهلها لا القرية نفسها قال: «ابتداءً جلاً ثناؤه ذكر الأمر بمسألتهم عن القرية الحاضرة البحر، قال: ﴿إِذْ يَعْدُونَكَ فِي السَّبْتِ﴾ دل على أنه إنما أراد أهل القرية»<sup>(2)</sup>، فهو بهذا استعان "بالسبياق اللغوي" ما يسبق الآية وما يليها من آيات أخرى لاستجلاء الدلالة وتحديد المعنى المراد والمقصود من الآية كلها.

ويتضح لدى المفسرين وعي كبير بقضية السبياق اللغوي وتطبيق له بجل أبعاده وعناصره، وقد كان "الطبري" (ت204هـ) من أبرز المفسرين احتكاماً للسبياق في ترجيح الآراء والتوجيهات التبوية. ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مرم: 24] في قراءة من فتح الميم في "من" والتاء في "تحتها"؛ حيث ذهب المفسرون في تأويل ذلك إلى قولين: الأول أنه جبريل عليه السلام، والثاني أنه عيسى عليه السلام، وقد رجح الطبري القول بأن الاسم الموصول عائد على عيسى استدلالاً بسبياق ما قبله وما بعده<sup>(3)</sup>، قال الطبري: «ألا ترى أنها في سبياق قوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مرم: 22] يعني به:

(1) - مختارياً بن قبلية: أثر السبياق اللغوي في تفسير الزاوي. أطروحة دكتوراه، ص: 17-18.

(2) - الشافعي (محمد بن إدريس): الرسالة. تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (دط)، (دت)، ص: 62-63.

(3) - ينظر: مصطفى أحمد عبد العليم: العلاقات النصية في القرآن الكريم. ص: 19.

فحملت عيسى فانبتدت/به. ثم قيل: ﴿فَنَادَهَا﴾ نسقاً على ذلك من ذكر عيسى والخبر عنه»<sup>(1)</sup>.

### المطلب الثالث: سياق الحال عند حارسي القرآن

لقد عرفنا أنَّ الظُّروفَ والمواقفَ والملابساتَ المحيطةَ بالخطاب تُشكِّلُ ما يسمَّى "سياق الحال أو المقام" في النَّظَرِيَّةِ الغَرِيْبَةِ الحديثة، أمَّا في الدَّرَاسَاتِ القَرَأَنِيَّةِ فتعرف بـ "القرائن الحاليَّة" «وتبدوا في أقوال الصَّحَابَةِ فِي التَّفْسِيرِ؛ لِأَنَّهُمْ شَاهَدُوا القَرَأَنَ والأحوال»<sup>(2)</sup>. وقد درس علماء القرآن «السياق المقامي في ضوء ظُروف التَّنْزِيلِ، بوصفها الوعاء الذي يصب فيه النَّصُّ، أو المجرى الذي يتنزَّل فيه، وليست هذه الظُّروف - في جوهرها - إلاَّ العناصر التي تشكِّلُ السِّياقَ الخارِجِيَّ للخطاب القُرْآنِي»<sup>(3)</sup>.

وبالتَّالِي إلتفت الأصوليون والمفسِّرون إلى أهميَّة سياق الحال في تفسير القرآن الكريم وهو يتمثَّل عندهم فيما أطلقوا عليه "أسباب التُّزول" ويقصدون بها "الأحداث والوقائع الملازمة للنص القرآني؛ إذ أنَّها تمثِّل علاقة النَّصِّ بالواقع، فهي تزوِّدنا من خلال الحقائق التي تطرحها علينا بمادَّة جديدة ترى النَّصَّ استجابة للواقع تأييداً أو رفضاً وتؤكِّد علاقة الحوار والجدل بين النَّصِّ والواقع»<sup>(4)</sup>.

وفي ثنايا كتبهم نجد المفسِّرين يبدؤون بذكر أسباب التُّزول عند تفسير الآيات، وحددوا وظائفها وفوائدها المتمثِّلة في الوقوف على المعنى فقد ذكر الواحدي (468هـ) أنَّه لا يمكن "تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصَّتها وبيان نزولها" وهي كذلك لها أهميَّة كبيرة في رفع الإشكال ودفع التَّنَاقُضَاتِ<sup>(5)</sup>، وتحديد المعنى الدَّقِيق والمراد من الآية وقد قال ابن تيميَّة (728هـ): إنَّ «معرفة سبب التُّزول يعين على فهم الآية؛ فإنَّ العلم بالسَّبب يُورث العلم بالمسبَّب»<sup>(6)</sup>.

(1) - الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير): تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل القرآن. 505/15.

(2) - ردة الله بن ردة الطَّلحي: دلالة السِّياق. ص: 106.

(3) - قطب الريسوني: النَّصُّ القُرْآنِي من تهافت القراءة إلى أفق التَّدبِير. ص: 86.

(4) - ينظر: أسعد خلف العوادي: سياق الحال في كتاب سيبويه. ص: 29-30.

(5) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 29-30.

(6) - ابن تيميَّة: مقدِّمة في أصول التَّفْسِير. ص: 47.

ويقول السُّيوطي (ت 991هـ): «بيان سبب النزول طريق قويٌّ في فهم معاني القرآن»<sup>(1)</sup>.

وبالإضافة إلى إدراكهم أهميّة سياق الحال - أو ما عرف عندهم بأسباب النزول - في التفسير فقد أولوا عناية خاصّة بأبعاده وعناصره، كالمتكلم، والمخاطب أو المخاطبين، وبيئة الخطاب وغيرها، وأثرها في تحديد المعنى، يقول الدكتور مسعود بودوخة: «وفي تفسير القرآن الكريم نجد هذه العناصر حاضرة في عمل المفسرين حفلت بها كتبهم، وشكّلت جزءاً من منهجهم في التعامل مع النصّ القرآني لفهم دلالاته، ويمكن أن نعدّها من ضمن القرائن المعنويّة التي تقابل القرائن اللفظيّة المعينة على التفسير، وهي كثيرة ومتشعبة بحيث لا يمكن الإحاطة بها، يقول الإمام السُّيوطي متحدثاً عنها: " أمّا القرائن المعنويّة فلا تنحصر... »<sup>(2)</sup>.

ومن عناصر سياق الموقف عند المفسرين نجد:

**المخاطب (المتكلم وما يتصل به):** القرآن الحكيم خطاب من الله تعالى لذا فهو يتميّز

ويختلف عن باقي النصوص الأخرى في كونه كلام الله، وكون الذات الإلهيّة لا يمكن الإحاطة بكُنْهها، وبالتالي ينتج عن ذلك « عدم إمكان معرفة القصد في الكثير من الأحيان »<sup>(3)</sup>، ومراعاة هذا المخاطب أو « النّظر إلى المتكلم بهذا القرآن هو مراعاة ما يصلح له من حسن تفسير الأسماء والصفات المتعلّقة به »<sup>(4)</sup>.

**المتلقّي (وما يتصل به):** لقد أدرك المفسّرون أنّ دلالة النصّ تختلف باختلاف من

يوجّه إليه الخطاب، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم المكي ومنهم المدني، ولذلك فقد أولى المفسّرون أهميّة كبرى للمخاطب أو المخاطبين في النصّ القرآني<sup>(5)</sup>.

(1) - السُّيوطي (جلال الدين أبي عبد الرحمن): لباب النقول في أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، ط1، 1422 - 2002 م، ص: 7.

(2) - مسعود بودوخة: السّياق والدلالة. ص: 132.

(3) - المرجع نفسه. ص: 133.

(4) - ردة الله بن ردة الطلحي: دلالة السّياق. ص: 113.

(5) - ينظر: مسعود بودوخة: السّياق والدلالة. ص: 133.

ويعدُّ " محمد رشيد رضا " من المفسِّرين - المحدثين - الذين اهتمُّوا بالتيسار المقامي وعناصره في مؤلِّفه " تفسير المنار"، فقد تحدَّث في مواضع متفرِّقة منه عن « أساليب القرآن وتنوعها بحسب المقام، وحال المخاطب والمتكلِّم عنه، فحيث يكون المخاطبون من العرب وبخاصَّة أهل قريش يأتي الكلام موجزا وحين يخاطب اليهود يأتي الكلام مسهبا مفصَّلا، وأشار كذلك إلى الفرق بين أسلوب القرآن المكي والقرآن المدني نظرا لاختلاف الموضوعات والمخاطبين وبخاصَّة حين يكون المخاطبون في القرآن المدني هم اليهود»<sup>(1)</sup>.

ومن الأمثلة التي تُبيِّن اهتمامه بدلالة سياق المقام في " تفسير المنار" تفسيره لقوله تعالى على لسان موسى عليه السَّلام مخاطبا بني إسرائيل: ﴿ قَالَ أَعِيََّرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: 140]، بيَّن أنَّ الاستفهام هنا للإنكار عليهم إذ طلبوا منه أن يجعل لهم إلهًا، وبيَّن الشَّيخ كيف تدرَّج موسى عليه السَّلام في مخاطبتهم وإقناعهم، فقد بدأ بإنكار ما طلبوا، وأثبت جهلهم برهْم وبأنفسهم، وبيَّن فساد مطلبهم، وأنَّه عرضة للزَّوال وباطل لا يصلح وفي كلامه يتبيَّن فساد الطَّالب والمطلوب، ثمَّ أيَّد الإنكار عليهم بما يعرفون من آيات الله ونعمهم عليهم إذ فضَّلهم على أهل زمانهم، وهذا البيان من الشَّيخ يظهر مراعاة المتكلِّم حال المخاطب ولجوئه إلى تلوين الأساليب بغية إقناعه وردعه<sup>(2)</sup>.

وإجمالاً، فالمفسِّرون والأصوليون وعلماء علوم القرآن قد أولوا التيسار بشقَّيه أهمَّية خاصَّة في مؤلِّفاتهم، وفي ختام هذا المبحث يجدر بنا أن نسرد أقوالاً مشهورة لعلمائنا المسلمين الأوائل كأكبر دليل على ما ناله التيسار عندهم من حظٍّ وفير، بإدراكهم لوظيفته وأثره الدلالي.

ومنها قول لابن القيم الجوزية ( ت 751 هـ) فصَّل فيه الوظائف التي يؤديها التيسار في تحديد الدلالة والكشف عن المعنى وجلائه، وقرَّر أنَّ إهماله يؤدي إلى الوقوع في العَلَط والمغالطة يقول:

(1) - فوزية جميل عبد الكريم داود: البحث الدلالي عند محمد رشيد رضا في تفسير المنار للقرآن الكريم. ماجستير، جامعة آل بيت، كلية الآداب والعلوم، الأردن، 2000-2001م، ص 216.  
(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص 220.

« السِّيَاق يرشدُ إلى تبيين الجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته. فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ ﴾ [الدخان: 49] كيف تجد سياقه يدلُّ على أنه الدليل الحقيقير» (1).

ويقول ابن دقيق العيد (ت702هـ): « فَإِنَّ السِّيَاق طريق إلى بيان الجملات، وتعيين المحتملات، وتنزيل الكلام على المقصود منه، وفهم ذلك قاعدة كبيرة من قواعد أصول الفقه. ولم أر من تعرّض لها في أصول الفقه بالكلام عليها وتقرير قاعدتها مطوّلة إلا بعض المتأخرين ممن أدركنا أصحابهم، وهي قاعدة متعينة على الناظر، وإن كانت ذات شغب على المناظر» (2). ففي هذا النصّ وضّح ابن دقيق تأثير السِّيَاق على فهم الخطاب الشرعي، وقَرَّر أنَّ السِّيَاق قاعدة في أصول الفقه لا يجوز إغفالها.

وقال ابن تيمية (ت728هـ): « فمن تدبّر القرآن وتدبّر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن؛ تبين له المراد، وعرف الهدى والرّسالة، وعرف السّداد من الانحراف والاعوجاج» (3).

إذاً فهذا أكبر شاهد على حضور السِّيَاق واعتباره في دراسات علمائنا المسلمين الأوائل؛ فقد استعملوا مصطلح السِّيَاق وعناصره بصريح العبارة، وأشاروا إلى وظيفته وأهميته، وأصلّوا لقواعده وضوابطه، ضف إلى ذلك إعمال دلالاته في المجال التطبيقي.

- (1) - ابن القيم الجوزية (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب): بدائع الفوائد. تحقيق: علي بن محمد العمران. إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد. دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، دط، دت، 1314/4.
- (2) - ابن دقيق العيد ( محمد بن علي بن وهب بن مطيع أبو الفتح نقي الدين القشيري ) : إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام. تحقيق: محمد حامد الفقي، مراجعة: أحمد محمد شاكر. مطبعة السنّة المحمديّة، دط، 1372هـ - 1953م، 232/2.
- (3) - ابن تيمية (تقي الدين أحمد بن عبد الحلّيم) : مجموع الفتاوى. تحقيق: أنور الباز، عامر الجزار، دار الوفاء، ط3، 1426هـ - 2005م، 94/15.

### المبحث الخامس: التيساق في دراسات اللغويين العربيين

لم يكن البحث في التيساق عند الغربيين وليد الدراسات الحديثة، وإنما فكرة التيساق ودلالته مطروحة في الفكر الإنساني منذ أفلاطون وأرسطو « فقد تحدّث أفلاطون في كتابه (فيدروس) عن مُراعاة مقتضى الحال في الخطابة، وكذلك عرض أرسطو في كتابه (فن الشعر) لموضوع مُقتضى الحال. وأشار إلى أنّ الفكرة هي القدرة على إيجاد اللُغة التي يقتضيها الموقف ويتلاءم وإيّاها»<sup>(1)</sup>. إلّا أنّ علماء اللُغة المحدثين كانوا أكثر التفاتاً للتفاصيل التي تُحيط بالمقام والتيساق ودورها في تحديد الدلالة بطريقة منهجية، لأنهم أدركوا، كما أدرك من سبقهم أنّ « معنى الكلمة في المعجم متعدّد ومُحتمل، ولكن معنى اللفظ في التيساق واحد لا يتعدّد بسبب ما في التيساق من قرائن مقالية تُعين على التّحديد، وارتباط كل سياق بمقام معيّن»<sup>(2)</sup>.

فقد أدرك علماء اللُغة قديماً وحديثاً هذه الوظيفة الهامة للتيساق، غير أنّ التيساق في البحث اللغوي المعاصر شغل « حيّزاً واسعاً، ويستحوذ دوره في تحديد الدلالة على انتباه الباحثين اللغويين ويستأثر باهتمامهم، حتى يستحيل نظرية متكاملة، ارتبطت بجهود علماء كثيرين، لعلّ في مقدّماتهم الباحث الإنجليزي فيرث (Firth)، الذي يتبنّى نظرية أطلق عليها (نظرية التيساق) وسمّيت باسمه، وقد أكّد في نظريته الوظيفة الاجتماعية للُغة، وقد عرفت هذه النظرية بمدرسة لندن، وسمي منهجها المنهج السياقي (contextual approach)، أو المنهج العملي (operational approach)<sup>(3)</sup>.

كما أكّدت النظرية السياقية على أنّ « تحديد دلالة الكلمة يحتاج إلى تحديد السياقات التي ترد فيها، ونفّت عن الصيغة اللغوية دلالتها المعجمية؛ لأنّ نظام اللُغة نظامٌ مُتشابك العلاقات بين وحداته، ومفتوح عن التّغيير في بنياته المعجمية والتّركيبية، فخارج التيساق لا تتوفر الكلمة على المعنى»<sup>(4)</sup>.

(1) - حلمي خليل: الكلمة - دراسة لغوية معجمية. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، دط، 2011م، ص: 157.  
(2) - حسام أحمد فرج: نظرية علم النص - رؤية منهجية في بناء النصّ النثري. ص: 22.  
(3) - تحسين عبد الرضا: الصوت والمعنى. ص: 412-413.  
(4) - علاء عبد الأمير شهيد: الدلالة المعجمية والسياقية في كتب معاني القرآن - دراسة موازنة. دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1433هـ - 2012م، ص: 255-256.

## المطلب الأول: أصول النظرية السياقية

يقودنا البحث في أصول النظرية السياقية، أو العملية، إلى الحديث عن أهم أصحابها من الغربيين الذين بشروا بها. فلدراسة المعنى وتحليله تعددت المناهج اللغوية الغربية المختلفة فنجد: النظرية الإشارية التي قامت على يد كل من "أوجدن" Ogden و"ريتشاردز" Richards اللذين ظهرت أفكارهما في كتابهما "معنى المعنى" The meaning of meaning ، والنظرية التصويرية أو العقلية للفيلسوف "جون لوك" John Locke ، والنظرية السلوكية التي يعد "بلومفيلد" Bloomfield المسؤول - أكثر من غيره - عن تقديمها إلى علم اللغة، وقد وجهت هذه النظرية عناية اللغويين نحو ربط المعنى بمجالات غير الكلام، وهي مجالات تستلزم التحليل على مستويات خاصة. ولم تتجاهل بعض ما نسميه بالعناصر الاجتماعية ولكنها تعبر عنها بمصطلحات خاصة بها<sup>(1)</sup>.

وبالتالي كانت « البدايات الأولى لنشأة فكرة السياق عند الأمريكي "بلومفيلد" Bloomfield (1887-1949 م) رائد المدرسة السلوكية إحدى أكبر المدارس اللغوية الوظيفية، التي تركز على الجانب النفسي والمادي، وتربط الدلالة والسياق بهذا الجانب، ويرى هذا المنهج أن لا قيمة للألفاظ تُذكر خارج استعمالها وتداولها»<sup>(2)</sup>. كما لفت "بلومفيلد" الانتباه في مذهبه هذا السلوكي النفسي « إلى أهمية الوقف والاستجابة التي تستدعي لدى السامع في تحديد معنى الصيغة اللغوية. وتناول المتكلم والسامع بالتحليل، فجعل الكلام بديلاً من استجابة عضوية لمثير معين»<sup>(3)</sup>.

ومن المثال المشهور الذي عرض فيه بلومفيلد لقصة الزوجين "جاك" و"جيل" تبدو بعض عناصر سياق الحال. وقد عرض أحداثها على النحو التالي<sup>(4)</sup>:

1- أحداث عملية سابقة على الحدث الكلامي، وتمثل في كون "جيل" جوعانة، ورؤيتها التفاعلية.

2- الحدث الكلامي والذي يتمثل في تعبير "جيل" عن جوعها وسماع "جاك" لهذا التعبير.

(1) - ينظر: محمد سالم صالح: الدلالة والتعقيد النحوي. ص: 377 - 378.

(2) - أسعد خلف العوادي: سياق الحال في كتاب سيوبه. ص: 38-39.

(3) - محمد سالم صالح: الدلالة والتعقيد النحوي. ص: 378.

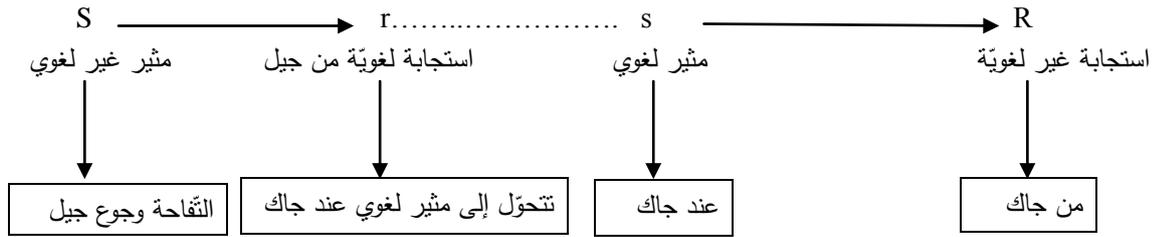
(4) - ينظر: فريد عوض حيدر: فصول في علم الدلالة. ص: 124-125.

3- أحداث عملية تابعة للحدث الكلامي. وتتمثل في أن يقفز "جاك" السياج، ويتسلق الشجرة، ويقطف التفاحة، و يحضرها، ويضعها في يد "جيل"، و "جيل" تأكل التفاحة.

وعناصر سياق الحال البادية هنا: تتمثل في (1) :

- 1- المتكلم وهو هنا "جيل" والمستمع هو "جاك" .
- 2- الظروف الداعية إلى كلام جيل وتتمثل في جوعها ورؤيتها التفاحة.
- 3- العلاقة بين جاك وجيل وهي علاقة الزوجية وهي علاقة حميمة.
- 4- أثر الكلام في المستمع "جاك" ويتمثل في قيامه على الفور بإحضار التفاحة لجيل.

ويمكن تلخيص السياق عند بلومفيلد من خلال مثاله في الشكل التالي (2):



S = stimulus ..... R = response.

ورغم ذلك نجد أن بلومفيلد لم يجعل قضية السياق من مجالات اهتماماته ولم يدخله في دراساته اللسانية؛ وذلك لصعوبة ضبط المعنى من جهة، وعدم تماثيه مع منهجه اللساني الشكلي من جهة أخرى، فرأى أن قضية المعنى هي أضعف نقطة في دراسة اللغة، ولم يقصد بذلك الانتقاص بوجه عام من دراسته، أو التقليل من شأنه، وإنما نظر لارتباطه بأمور خارجة عن اللغة (ملابس غير لغوية) من جهة، وعدم توافقه مع منهجه الذي لا يقبل إلا الأشياء المحسنة التي تقبل الملاحظة والقياس من جهة أخرى (3).

(1) - ينظر: فريد عوض حيدر: فصول في علم الدلالة. ص: 125.

(2) - ينظر: عبد العزيز بن ردة الطلحي: مصطلح السياق the context النشأة والمفهوم والتطور قراءة في الفكر اللغوي المعاصر. بحث مقدم للمشاركة في مؤتمر المصطلح اللساني الحديث عند علماء اللغة العرب المعاصرين -

التأصيل والتعريب، جامعة مؤتة - الأردن، 1429هـ / 2008م، ص: 11.

(3) - ينظر: بن يامنة سامية: سياق الحال في الفعل الكلامي. ص: 75.

وبالتالي كانت البداية الحقيقية لنظرية التسياق تتمثل في الجهود التي بذلها **برونسلا مالينوفسكي** (Malinowsky) (1884-1942 م) العالم الأنثروبولوجي البولندي (1). إذ تبلور المنهج السياقي عنده مع العمل الذي قام به في الفترة ما بين (1914-1918 م) التي عايشها في جزر التروبريانند Trobriand، جنوبي الباسفيك، يدرس ثقافتهم (2). واستنتج: « أن الترجمة عاجزة عن نقل المعنى، ويجب أن يقتزن كل ذلك بوصف تقاليد وثقافة المجتمعات، وبالتالي الإحاطة بالموقف. وعلى هذا يبيّن مزاعمه على ملاحظته للطريقة التي توافقت فيها لغة الناس مع نشاطاتهم اليومية، وكانت بالتالي جزءاً يتعدّد فصله عنها، ومن هنا تأسست مقولته المشهورة "اللغة أسلوب عمل، وليست توثيقاً للفكر"، أو كما يقول الباحث "أحمد مختار عمر": "إنه قد عالج اللغة كصيغة من الحركة، وليس أداة للانعكاس"، ومن هنا بدأ التغيير في النظر إلى اللغة بعدها مُرتبطة بالنصّ الفعلي، إضافة إلى الفكر» (3).

وقد استخدم مالينوفسكي مصطلح سياق الحال (Context of situation) بعد ذلك سنة 1923م في مقال له بعنوان "مشكلة المعنى في اللغات البدائية"، ألحقه بكتاب معنى المعنى لأوجدن وريتشاردز (4). ولكن اتّضح بعد ذلك « أن استعماله لمصطلح (Context of situation) اختلف عمّا هو عليه عند اللغويين لأنّ مالينوفسكي أضفى عليه معنى خاصاً، لكنّ هذا المصطلح تطوّر بعده أيضاً تطوّراً آخر باستعمال فيرث في دراسته اللغوية» (5).

ومن المبادئ الواضحة التي جاء بها مالينوفسكي في مقولاته وأثرت في الفكر اللغوي أنّه ذهب إلى أن « اللغة ليست مجرد أداة لتوصيل الأفكار بل هي جزء من نشاط اجتماعي وأنّ الكلمة إذا فصلت عن سياق الموقف الذي تستخدم فيه تصبح كلمة جوفاء لأنّ الألفاظ لا يمكن أن توجد من فراغ. وهذه إشارة واضحة إلى اهتمام مالينوفسكي بسياق الحال بل يذهب إلى مدى أبعد في تقرير أثر التسياق الخارجي في أداء اللغة لوظيفتها بقوله: " إنّ اللغة في جوهرها متأصلة في حقيقة الثقافة

(1) - ينظر: أسعد خلف العوّادي: سياق الحال في كتاب سيبويه. ص: 39.

(2) - ينظر: صلاح الدين زرال: الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى. ص: 386.

(3) - صلاح الدين زرال: الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى. ص: 386-387.

(4) - ينظر: فريد عوض حيدر: فصول في علم الدلالة. ص: 122.

(5) - أسعد خلف العوّادي: سياق الحال في كتاب سيبويه. ص: 40-41.

وتُنظم الحياة والعادات عند كل جماعة، ولا يمكن إيضاح اللغة إلا بالرجوع الدائم إلى المحيط الأوسع، وهو الظروف التي يتم فيها النطق" (1).

### المطلب الثاني: النظرية السياقية عند فيرث

إنَّ النظرية السياقية (Contextual theory) في الدراسات اللسانية الغربية لم تستو على سوقها ولم تكتمل جوانبها النظرية والتطبيقية إلا على يد اللساني البريطاني "جون روبرت فيرث" J.R.Firth (1960) (\*) مؤسس المدرسة الإنجليزية في علم اللغة الحديث وزعيم هذا الاتجاه فبه ارتبطت هذه النظرية بشكل أساسي، وأعطى أهمية كبرى لوظيفة اللغة ويؤمن بأن معنى الكلمة لا ينكشف إلا من خلال وضعها في سياقات مختلفة (2).

والجدير بالذكر أن فيرث تأثر كثيراً بـ (مالينوفسكي) واستفاد أيما استفادة من النتائج التي توصل إليها، « لكنه أحسن بأن سياق الحال عند مالينوفسكي لم يكن مرضياً للاتجاه اللغوي الأكثر دقة وإحكاماً؛ إذ إن سياق الحال عند مالينوفسكي كان ذلك الجزء من العملية الاجتماعية الذي يمكن تأمله منفرداً على حين فضل فيرث أن ينظر إلى سياق الحال بوصفه جزءاً من أدوات عالم اللغة مثله مثل الفصائل النحوية التي يستخدمها» (3).

وقد صرح فيرث بأن « المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية؛ أي وضعها في سياقات مختلفة» (4). لكي يتحدد معناها بدقة. فتقع « الوحدات الدلالية (الكلمات) في مجاورة وحدات أخرى (أي تتجاور الكلمات بعضها مع البعض)، في سياق معين، وأن معانيها -الوحدات- يمكن أن تُوصف أو تُحدد بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع بجوارها، لذا تتطلب

(1) - أسعد خلف العوادي: سياق الحال في كتاب سيبويه. ص: 40.

(\*) - لقد كان لـ "فيرث" اهتمامات خاص باللغات الشرقية، فقد عاش فترة من الزمن في الهند وتأثر بجهود علماء اللغة الهنود القدماء... كل ذلك أهله لوضع نظرية لغوية قامت على أصولها مدرسة مستقلة في تاريخ الفكر اللغوي عرفت باسم المدرسة الاجتماعية البريطانية، وحجر الزاوية في هذه النظرية هو فكرة السياق. ينظر: مسعود بودوخة: السياق والدلالة. ص: 49.

(2) - ينظر: عقيد خالد حمودي العزاوي: علم الدلالة دراسة وتطبيقات. دار العصماء، دمشق، سورية، ط1-2012م، ص: 60.

(3) - أسعد خلف العوادي: سياق الحال في كتاب سيبويه. ص: 40-41.

(4) - حسام أحمد فرج: نظرية علم النص. ص: 22.

دراسة معاني الكلمات أن تحلل السياقات، في التراكيب والجمل والنص، والمواقف التي ترد فيها بأنواعها المختلفة، اللغوي منها وغير اللغوي، لكي يدقّ أيضاً ح المعنى، لأنّ المعنى الاستعمالي هو المعنى المطلوب، لا المعنى المعجمي، وعندها يتعدّل معنى الكلمة حين ورودها بسياق معيّن تبعاً لتعدد هذه السياقات، أو تبعاً لتوزيعها اللغوي»<sup>(1)</sup>.

وبالتالي قامت النظرية السياقية عند فيرث على « النظر إلى المعنى بوصفه وظيفة في السياق. وأحدثت بذلك تغييراً جوهرياً في النظر إلى المعنى... وقد استخدم السياق في هذه النظرية بمفهوم واسع بحيث يشمل السياق الصوتي، والصرفي، والنحوي، والمعجمي، ولا يظهر المعنى المقصود للمتكلّم إلاّ بمراعاة الوظيفة الدلالية للألفاظ المستخدمة»<sup>(2)</sup>.

هكذا يتبيّن أنّ مفهوم المعنى عند فيرث « ليس شيئاً في الدّهن أو العقل، كما أنّه ليس علاقة متبادلة بين اللفظ والصورة الذهنية للشيء، وإنما هو مجموعة من الارتباطات والخصائص والمميزات اللغوية التي نستطيع التعرف عليها في موقف معيّن، ويحددها لنا السياق»<sup>(3)</sup>.

ولا سبيل إلى الوصول لمعنى أي نصّ لغوي في منهج فيرث إلاّ بالسّير في مراحل وخُطوات التحليل الآتية<sup>(4)</sup>:

- أن يُحلّل النصّ اللغوي على المستويات اللغوية المختلفة، الصوتية والفونولوجية والمورفولوجية والنحوية والمعجمية.

- أن يبيّن سياق الحال؛ شخصية المتكلّم وشخصية السّامع، وجميع الظروف المحيطة بالكلام.

- أن يوضّح نوع الوظيفة الكلامية؛ تمّي أو إغراء أو غير ذلك.

- أن يذكر الأثر الذي يتركه الكلام؛ كالضحك، والسخرية، أو غير ذلك.

(1) - تحسين عبد الرضا: الصوت والمعنى. ص: 413.

(2) - صلاح الدين زرال: الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى. ص: 380.

(3) - حلمي خليل: الكلمة - دراسة لغوية معجمية. ص: 159.

(4) - ينظر: محمود السّمران: علم اللغة. ص: 312.

وعليه فهذا هو الأسلوب اللغوي المحض الذي سارت عليه مدرسة فيرث والتي ترى أنّ « المعنى اللغوي هو مجموعة الخصائص والميزات اللغوية للحدث المدروس. وهذه الخصائص لا تدرس دفعة واحدة بل لا بدّ من تناولها على مراحل أو مستويات مختلفة، والمعنى بهذا المفهوم شيء معقد ذو أجزاء أو عناصر مختلفة... (1)، وقد شبّه فيرث المعنى « وانتشاره عبر المستويات اللغوية المختلفة، بانتشار الضوء المركب من أطوال موجية مختلفة في موشور زجاجي» (2).

وتبعاً لهذا فالسبب عند (فيرث) ينقسم إلى نوعين (3):

1- السبب الداخلي: ويتمثل في العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بين الكلمات داخل تركيب معيّن.

2- السبب الخارجي: ويتمثل في السبب الاجتماعي، أو سبب الحال بما يحتويه، وهو يشكّل الإطار الخارجي للحدث الكلامي.

فإذا كان السبب الداخلي للحدث اللغوي هو مجموع العناصر اللغوية التي تُحيط بجزء من الملفوظ فإنّ السبب الخارجي هو مجموع العوامل غير اللغوية التي تتحدّد بمقتضاها رسالة ملفوظ في لحظة محدّدة في زمان ومكان محدّدين، وهذه العوامل تتّصل بالمخاطب والمخاطب، وظروف الخطاب المختلفة (4).

وقد اقترح K. Ammer تقسيماً آخر للسبب على النحو الآتي:

1- السبب اللغوي: "Linguistic context"، يُشرف على تغيير دلالة الكلمة تبعاً لتغيير

يمسّ التركيب اللغوي كالتقديم والتأخير في عناصر الجملة فقولنا: "زيد أتمّ قراءة الكتاب" تختلف دلالتها اللغوية عن جملة "قراءة الكتاب أتمّها زيد" (5).

(1) - ينظر: صلاح الدين ززال: الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى. ص: 387-388.

(2) - مسعود بودوخة: السبب والدلالة. ص: 50.

(3) - حلمي خليل: الكلمة-دراسة لغوية معجمية. ص: 161.

(4) - ينظر: مسعود بودوخة: السبب والدلالة. ص: 50-51.

(5) - ينظر: عقيد خالد حمودي العزاوي: علم الدلالة دراسة وتطبيقات. ص: 71.

2- **السِّياق العاطفي الانفعالي:** "Emotional context"، يرتبط بدرجة الانفعال المصاحبة للكلام، ويتميز من خلاله دلالات الكلمة الموضوعية، والعاطفية، مثال ذلك لفظ البغض غير لفظ الكره، مع أنهما ذوا أصل واحد، وهو عدم الرغبة؛ حيث إن البغض يعدُّ سياق الموقف: يعني الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة<sup>(1)</sup>. والمتكلم وحالته النفسية هما اللذان يمكن أن يُسيطر على المعنى حين التُّطق بأحدهما، « فلكل كلمة جو عاطفي يُحيط بها وينفذ منها ويُعطيها ألواناً مؤقَّتة على حسب استعمالها وكل كلمة تذكر يكون صداها لدى المتلقِّي تابعاً لحالته النفسية<sup>(2)</sup> ».

3- **سياق الموقف أو المقام:** "Situational context"، يُشار به إلى « الموقف الذي ينتج فيه الموقف الكلامي المحدد فتتغير دلالتها تبعاً لتغير المقام. وأطلق اللغويون على هذه الدلالة: "الدلالة المقامية". فثمة عناصر غير لغوية ذات دخل كبير في تحديد المعنى، وتكون جزءاً من معنى الكلام، وذلك مثل شخصية المتكلم والمخاطب، والعلاقات التي تربطهما، وما يحيط بالكلام من ظروف وملابسات، ..»<sup>(3)</sup>. مثال ذلك استعمال كلمة "يرحم" في مقام تشميت العاطس "يرحمك الله" (البدء بالفعل)، وفي مقام الترحم بعد الموت "الله يرحمه" (البدء بالاسم)، فالأولى تعني طلب الرحمة في الدنيا، والثانية طلب الرحمة في الآخرة. وقد دلَّ هذا على سياق الموقف إلى جانب السِّياق اللغوي المتمثل في التقديم والتأخير، ويعتبر سياق الموقف هو العامل الأخير والحاسم في تحديد المعنى<sup>(4)</sup>.

4- **السِّياق الثقافي:** "Cultural context"، يتمثل في القيم الثقافية والاجتماعية المحيطة بالكلمة، والتي تحدّد دلالتها. « فلكل عصر له ثقافته -الاجتماعية والسياسية والدينية- التي تميزه عن غيره من العصور، واللغة بوصفها انعكاساً لهذه الثقافة أو تلك تحوي هي الأخرى خصوصيتها، فبعض الكلمات أو العبارات قد تحمل مدلولات سياسية أو دينية أو اقتصادية أو اجتماعية تتغير من

(1) - ينظر: خليفة بوجادي: محاضرات في علم الدلالة. ص: 182.

(2) - تحسين عبد الرضا: الصوت والمعنى. ص: 424.

(3) - علاء عبد الأمير شهيد: الدلالة المعجمية والسِّياقية في كتب معاني القرآن. ص: 261.

(4) - ينظر: عقيد خالد حمودي العزاوي: علم الدلالة دراسة وتطبيقات. ص: 71-72.

عصر إلى آخر»<sup>(1)</sup>. وقد أشار علماء اللغة إلى « ضرورة وجود هذه المرجعية الثقافية عند أهل اللغة الواحدة لكي يتم التواصل والإبلاغ، فكلمة "جذر" لها معنى عند المزارع، ومعنى ثان عند اللغوي، ومعنى ثالث عند عالم الرياضيات »<sup>(2)</sup>. وكذلك لفظ الصَّرف عند اللغويين: علم الأبنية، ويرد مقرونا مع التحو. أمّا لدى دارسي الهندسة والهيدروليك، فيعني (التخلُّص من المياه)، ويستخدم مقرونا مع الري....

وللتيساق الثقافي أيضاً دور مهم في عملية الترجمة؛ حيث لا يمكن معرفة المدلولات الصحيحة للكلمات، إلا بمعرفة سياقها الثقافية، وخلفيات استعمالها السياسية والتاريخية والدينية...<sup>(3)</sup>.

### المطلب الثالث: تطوُّر النظرية السياقية وأهم مميّزاتها

لقد أراد فيرث لنظريته اللغوية أن تكون دراسةً لمجموع النصوص التي تسبق أو تصاحب وحدة تركيبية معينة وما قيلت فيه من موقف في ضمن حدود بيئة ثقافية عامة، وهذا قد وسَّع من مجموع العناصر والمبادئ التي تقوم عليها النظرية لتشمل النص وعلاقته بالنصوص الأخرى كما يشمل الموقف والمرجعية الثقافية التي يقال فيها النص، فيكون بذلك أكثر تعقيداً كما يرى منتقدو هذه النظرية؛ لأنَّ الملابسات أو الظروف المحيطة بالحدث الكلامي كثيرة ولا يمكن حصرها، ومنها ما لا دخل له بالمعنى الذي يؤدُّ منشئ الرسالة إيصاله إلى الآخرين. وبالتالي اتَّسع حدود دراسة التيساق عند فيرث وما قد يشكِّله هذا الاتساع من عقبة أمام الدارسين قد دفع عدداً من أنصاره وتلامذته إلى محاولة تطوير هذه النظرية وجعلها أكثر تقيناً<sup>(4)</sup>، ومن هؤلاء نجد:

#### 1/- ستيفن أولمان:

ففي مضممار الحديث عن نظرية التيساق تجدر الإشارة إلى "ستيفن أولمان" فهو يعدُّ الأكثر حظاً من بين اللغويين الذين جاؤوا بعد فيرث لما قدَّمه من إضافات قيِّمة لهذه النظرية، ومنها دعوته إلى ضرورة الفصل بين اللغة والكلام في قوله هذا: « ولو تأملنا الأمر قليلاً لظهر لنا أنَّ هذه مُبالغة

(1) - عرفات فيصل المناع: التيساق والمعنى. ص: 26-27.

(2) - عقيد خالد حمودي العزاوي: علم الدلالة دراسة وتطبيقات. ص: 72.

(3) - ينظر: خليفة بوجادي: محاضرات في علم الدلالة. ص: 184.

(4) - ينظر: عرفات فيصل المناع: التيساق والمعنى. ص: 29-30.

ضخمة، وتبسيط كبير للأمر. إن الذين ينادون بهذه الآراء ينسون الفرق بين الكلام واللغة. وهذا الفرق يتمثل في أن السياقات إنما تكون في المواقف الفعلية للكلام. وغنى عن البيان حينئذ أن معاني الكلمات المخزونة في أذهان المتكلمين والسامعين لا تحظى بالدقة والتحديد إلا حين تضمها التراكيب الحقيقية المنطوقة»<sup>(1)</sup> فقد ربط أولمان اللغة بالواقع الاجتماعي وهذا ما نفته البنيوية عند دي سوسير. وقد أنكر الرأي القائل بأن الكلمات المفردة ليست لها معنى على الإطلاق خارج السياق! وإلا كيف تُصنّف المعاجم إذا لم يكن لهذه الكلمات معان؟

كما نبّه "أولمان" إلى ضرورة مراعاة كل ما يسهم في التوصل إلى المعنى في معرض حديثه عن السياق اللغوي والسياق الحالي، يقول: « إن السياق على هذا التفسير ينبغي أن يشمل - لا الكلمات والجمل السابقة والأحقة فحسب - بل والقطعة كلها والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملازمات. والعناصر اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن... »<sup>(2)</sup>. فقد لاحظ في السياق اللغوي الدور الذي يؤديه النص كله في بيان المعنى وهذا ما يطلق عليه سياق النص. كما لاحظ أن كل العوامل اللفظية أو غير اللفظية لها تأثيرها المباشر على المعنى الدقيق للكلمات وهذا لا اعتراض فيه حسبه.

ونظراً لأهمية السياق عنده فقد عدّ "أولمان" « نظرية السياق إذا طبقت بحكمة حجر الأساس في علم المعنى. وقد قادت بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في هذا الشأن. إنها مثلاً قد أحدثت ثورة في طرق التحليل الأدبي ومكنت الدراسة التاريخية للمعنى من الاستناد إلى أسس حديثة أكثر ثباتاً، كما أنها قدمت لنا وسائل فنية حديثة لتحديد معاني الكلمات»<sup>(3)</sup>.

(1) - ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة. ص: 57.

(2) - المرجع نفسه. ص: 57.

(3) - ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة. ص: 61.

## 2- هاليداي :

يُعدُّ هاليداي (Michael Halliday) أحد تلامذة فيرث ومن المهتمين بالتسياق بعده « فقد عمل على تطوير فكرة التسياق وذلك عبر تأكيده على ضرورة إضافة عبارة ذات الصلة وليس كل شيء مُحيط بالحدث الكلامي، يقول: "من المهم أن نُقيّد فكرة التسياق وذلك بأن نضيف لها كلمة ذات صلة (relevant)؛ لأنَّ سياق الحال لا يعني كلَّ شيء في المحيط المادّي كتلك التي تظهر فيما كنّا نسجّل بالصوت والصورة حدثاً كلامياً مع كل المشاهد والأصوات المحيطة بنا..»<sup>(1)</sup>. فهو يعني تلك الملامح التي لها صلة وثيقة بالكلام الحاصل. فهاليداي نظر للتسياق نظرة موضوعية ولاحظ أنَّ التسياق ليس فكرة مُطلقة تشمل كلَّ شيء بل لا بدَّ أن يقيّد بلحظة الخلق اللغوي<sup>(2)</sup>.

وقد قدّم هاليداي « الموقف بشكل مختلف نوعاً ما عمّا كان يقدمه أستاذه فيرث، ذلك أنَّه يرى التسياق يتكوّن من مظاهر ثلاثة هي: المجال (field) ونوع الخطاب (mode) والمشتركون في الخطاب»<sup>(3)</sup>. فهذه الأبعاد الثلاثة تمثّل سياق الموقف عند هاليداي.

وبالتالي عدّ هاليداي المؤسس الثاني لنظرية التسياق بعد فيرث، فقصد بالتسياق - على حدّ تعبيره - أنه: "تلك العناصر اللغوية القادرة على تكوين موقف كلامي يُحسن الشكوت عنده"<sup>(4)</sup>.

(1) - عرفات فيصل المتّاع: التسياق والمعنى. ص: 33.

(2) - ينظر: أسعد خلف العوّادي: سياق الحال في كتاب سيبويه. ص: 43.

(3) - أسعد خلف العوّادي: سياق الحال في كتاب سيبويه. ص: 43.

(4) - ينظر: مختار لزعز: اللسان اللّغة والكلام من التّقرّيب التّساقّي إلى الإفراط التّسقي. دار الكتب الحديث، القاهرة، ط 1، 2010 م، ص: 75.

## 3- أهم ما يُميّز النظرية السياقية لدى الدارسين:

هناك مُميّزات خصائص تُحفِّمها النظرية السياقية منها:

\* إنَّ لنظرية السياق أهمية خاصة في العمل المعجمي، «فالمفردات اللغوية في أصل وضعها، إمَّا أن ترتبط بدلالاتها علاقة طبيعية، وذلك مثل كلمات: خفيف وخرير وصليل، وإمَّا أن ترتبط بهذه الدلالات عن طريق العلاقة الرمزية الاصطلاحية العرفية التي تكون من صنع المجتمع لأنها تُمثِّل عاداته وتقاليده وثقافته بوجه عام، لذا فإنَّ دراسة هذا النوع من الكلمات ذو علاقة متمينة بنظرية السياق التي يُعدُّ المجتمع بكلِّ ما فيه ومن فيه عنصراً من عناصرها، وبناءً على ذلك فإنَّ الدلالة المعجمية لهذه الكلمات تتطلَّب أن يجمع المعجمي عدداً من السياقات التي يَستخدم فيها الكلمة داخل المجتمع ليصل إلى المعنى المقصود»<sup>(1)</sup>.

\* كما أنَّ من مزايا هذه النظرية موضوعيتها، وعدم خروجها عن بنية اللغة، والسياق الثقافي المحيط بها، وقد سَنح منهجها السياقي الطَّريق للمهتمين باللغة أن يوجِّهوا اهتمامهم إلى العناصر اللغوية نفسها، والأنماط التي تنتظم فيها بدلاً من صرف انتباههم إلى العلاقات النفسية بين اللغة، والذهن، أو اللغة، والخارج، إلى العمليات النفسية التي تحدث في الدماغ.

\* وأيضاً من مزايا هذه النظرية تركيزها على الجوانب الوظيفية من اللغة، التي تعدُّ الجوانب الأهم نظراً إلى أنَّ الوظائف اللغوية هي التي ابتكرت من أجلها اللغة البشرية بوصفها أهم وسائل الإبلاغ على الإطلاق<sup>(2)</sup>.

\* تُساعد النظرية السياقية على التحليل الموضوعي للنصوص، بحيث تتبع المعنى بسهولة، وتُعالج الكلمات بعدها أحداثاً وأفعالاً وعادات، تقبل الموضوعية والملاحظة في الحياة الاجتماعية.

\* لم يشرح المنهج السياقي عن اللغة، وحلَّ الظاهرة بمعطياتها اللسانية المتوفرة، وبذلك تجاوز النَّقد الموجَّه إلى المناهج السابقة "السُّلوكية مثلاً"، التي دَرست الدلالة في ضوء معطيات علمية غير لسانية<sup>(3)</sup>.

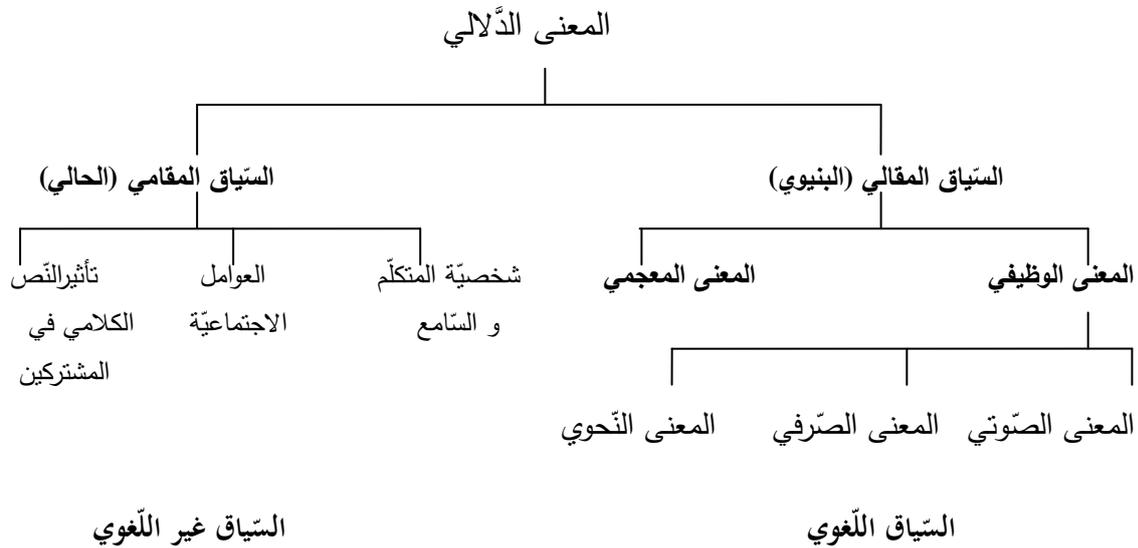
(1)- عبد النعيم خليل: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين. ص: 12.

(2)- ينظر: عقيد خالد حمودي العزاوي: علم الدلالة دراسة وتطبيقات. ص: 74-75.

(3)- ينظر: خليفة بوجادي: محاضرات في علم الدلالة. ص: 184-185.

وختاماً، مهما كانت أصول النّظريّة السّيّاقية، فالمتفق عليه هو نظرهما للمعنى على أنّه "وظيفة في السّيّاق". وكذا دورها البارز في الوُفوف على الدّلالة الحفّة، التي تتجاوز الدّلالة اللّغويّة المفردة، والدّلالة التّركيبية. فأخذت هذه النّظريّة مكانتها في الدّرس اللّغوي وغدت فكرة السّيّاق المحور الذي يدور حوله علم الدّلالة، على الرّغم من الانتقادات والصّعوبات التي تواجهها والتي تتلخّص في عدم جدوى السّيّاق اللّغوي، وكذا لا محدودية سياق الحال، ويكفي النّظريّة السّيّاقية أنّها «تستطيع أن تفسّر وتوضّح الكثير من القضايا الدّلالية، وأنّها أعادت الاعتبار إلى الجوانب الأخرى غير اللّغويّة، فأثبتت أنّ الدّلالة لا يمكن أن نظفر بها باقتصار على العلاقات النّحويّة والصّرفيّة بمفردها»<sup>(1)</sup>.

وأخيراً، يمكن أن يوضع تصوّر لتحديد رسوم الكلام، ومقاصد التعبير وفق نظريّة السّيّاق كما يأتي<sup>(2)</sup>:



(1)- مسعود بودوخة: السّيّاق والدّلالة. ص: 60.

(2)- ينظر: تمام حسان: اللّغة العربيّة معناها ومبناها. ص: 339، ومهدي أسعد عرار: جدل اللفظ والمعنى دراسة في الكلمة العربيّة. دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ط1، 2002 م، ص: 42.

## استنتاج:

ما يمكن أن نستخلصه ونستنتجه من محاور هذا الفصل ومضامينها ما يأتي:

\* أن السياق فكرة قديمة الأصول في علوم العربية حديثة الظهور في علم اللغة، عرّب عنها القدماء بطرق مختلفة وصارت في العصر الحديث نظريةً ومنهجاً في التحليل اللغوي والدلالي منه على وجه الخصوص. فالتأثر بعين البصيرة في الدرس اللغوي والبلاغي العربي القديم يتحسّس سبقه لمسألة السياق وتوظيفه له بمسميات مختلفة ومصطلحات أخرى للدلالة عليه مثل: الحال، المقام، مقتضى الحال، الحال المشاهدة، القرينة، المساق... الخ، وقد أعتد بشكل جليّ في مؤلفات كل من النحاة والبلاغيين والتقاد والمفسرين والأصوليين وغيرهم.

\* كانت نظرة العلماء العرب القدامى إلى هذه النظرية «أوسع وأشمل حيث عرفوا نظرية السياق بكامل عناصرها وتحديثها في جميع جوانبها غير أن تناولهم لهذه النظرية كان بمفهوم خاص، يتفق ومنهجهم الذي ساروا عليه في دراستهم اللغوية ومن حيث إهمال التنظير والاهتمام بالتطبيق والتحليل، من جانب وعدم التخصيص والتحديد والجمع بين المستويات اللغوية في الدرس من جانب آخر، بحيث تجد الأثر العلمي الواحد خليطاً من الأصوات والصرف والنحو والبلاغة والفلسفة في بعض الأحيان»<sup>(1)</sup>.

\* أدرك الدرس اللغوي العربي أهمية السياق في دراسة النص اللغوي وتحديد الدلالة لاسيما السياق اللغوي من خلال بيانه أهمية كل من الأصوات والمفردات والتراكيب التي تكوّن الجمل والأساليب في بيان المعنى... فضلاً عن اهتمامهم بما يُسمى سياق الموقف، وإن لم يعرفوه بمفهومه الذي شاع في الدرس اللساني الحديث، فلم يضعوا لنا حدّاً له، واكتفوا ببعض المقولات التي تصلح أن تكون مقدمات لجوانب مختلفة من هذه النظرية، فضلاً عن اهتمامهم بالجانب التطبيقي له، فقد درسوا تلك العناصر المكوّنة لسياق الموقف من جوانبها المختلفة، ودورها في توجيه الدلالة<sup>(2)</sup>.

\* على الرغم من ما ناله السياق في التراث العربي بميادينه المختلفة من إشارات واضحة، بل نظريات أكملها بنيت على أساس من فكرة السياق كنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني<sup>(3)</sup>، وفضلاً عن إدراكهم ووعيهم بأهميته في توجيه الدلالة ودوره في تحديد المعنى فإنه لم يغدو نظرية قائمة بذاتها بل من أهم نظريات المعنى إلا في منتصف القرن الماضي والفضل يعود إلى فيرث Firth الذي صاغ من فكرة السياق نظرية علمية قد تلتقي في بعض جوانبها مع آراء القدماء ولكنها بلا شك تختلف من حيث المنهج ومن حيث التطبيق.

(1) - عبد النعيم خليل: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين. ص: 107.

(2) - ينظر: عرفات فيصل المناع: السياق والمعنى - دراسة في أساليب النحو العربي. ص: 44 - 43.

(3) - ينظر: مسعود بودوخة: السياق والدلالة. ص: 7.

## الباب الثاني:

### آيات الإعجاز العلمي - دراسة تطبيقية

﴿ سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ

أُولَٰئِكَ يَكْفُرُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۗ

[فصلت:53]

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۗ

[النمل:93]

« إِنَّ الْقُرْآنَ هِدَايَةٌ لِلْحَيَاةِ كُلِّهَا... »

إن كانت آيات الكون صامتة يستنبط الناس منها الفكرة، ويستخلصون منها العبرة، فأيات القرآن ناطقة تُعرف الناس برَبِّهم، وتتولى إليه قيادهم. والتطابق بين حقائق القرآن، ومعارف الكون مفروض ابتداءً، فإنَّ منزل الكتاب هو مُجري السحاب. ويستحيل أن تختلف حقيقة كونيّة وحقيقة قرآنيّة، كما لا يختلف قول العاقل وعمله، والواقع أنَّ القرآن في الدلالة على الله: "كون" ناطق، كما أنَّ هذا الكون الصّخمي: "قرآن" صامت وكلاهما ينبثق من ذات واحدة، ويهدف إلى غاية واحدة...»

محمد الغزالي: نظرات في القرآن. ص: 12-13

## تمهيد:

آيات الإعجاز العلمي هي تلك الآيات في كتاب الله الكريم التي تتحدث عن آياته في مخلوقاته، وتتجلى بمعجزة علمية نصية بيّنة تسطع في عصر الكشوف العلمية في آفاق الكون والأنفس.

ولحكمة إلهية بالغة لم يفسّر النبي ﷺ هذه الآيات؛ لأنه لو فسرها على نحو يناسب فهم من حوله لأنكر هذا التفسير من سيأتي بعده، ولو فسرها تفسيراً يفهمه من سيأتي بعده لاستغلق هذا التفسير على من حوله. لذلك تركت هذه الآيات للعصور اللاحقة، ليكشف التقدم العلمي في كل عصر جوانب الإعجاز فيها، وبهذا يكون القرآن الكريم - بما فيه من آيات كونية - معجزة إلى يوم القيامة<sup>(1)</sup>.

وفي إحصاء قام به "محمد راتب النابلسي" توصل إلى أن في القرآن الكريم ألف وثلاثمائة آية تتحدث عن الكون، وعن خلق الإنسان، وهذه الآيات تقترب من سدس القرآن<sup>(2)</sup>، ويرى زغلول النجار أنه « بدوام اتّساع دائرة المعرفة الإنسانية، وتكرار تأمل المتأملين في كتاب الله، وتدبر المتدبرين لآياته - جيلا بعد جيل، وعصرًا بعد عصر - لن ينفك العلماء والمتخصصون يكتشفون من حقائق الكون الثابتة في كتاب الله ما يؤكد على تحقق الوعد الإلهي الذي يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿ سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: 53] «<sup>(3)</sup>.

وفي هذا الباب سنعمد إلى جمع آيات الإعجاز العلمي وتصنيفها ، وذلك من موسوعات وكتب مختلفة تناولت الإعجاز والتفسير العلمي للقرآن الكريم ، ثم نتخير شاهداً أو أكثر نعمد إلى تحليله، مبتدئين بأكثرها ذكراً مستنيرين بما تقدّمه الدلالة اللغوية من معان ثرية، ترفد الدلالة السياقية. ثم نبحت عن ما يقابلها - أي الآيات المعجزة - من حقائق علمية حسب ما جاء به العلماء وقرّره، وفي الأخير نحاول أن نستنتج إن كان هناك تعاقب دلالي بين المفهومين اللغوي والعلمي للآية المعجزة، أو بالأحرى تعاقب واتفاق بين المفهوم - أو التفسير - العلمي لهذه الآية ودلالاتها اللغوية السياقية.

(1) - ينظر: محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الآفاق. ص: 11-12.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 11.

(3) - زغلول راغب محمد النجار: مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي. ص: 78.

## الفصل الأول:

### آيات خلق السماء والأرض

#### بين الدلالة السياقية والمقتضى العلمية

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾

[الرعد:2]

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَّجِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَجَدٍ وَنُفُضِلٌ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْمَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

[الرعد:3-4]

## المبحث الأول:

### إحصاء آيات الإعجاز العلمي في خلق السماء والأرض وتصنيفها

لقد وردت لفظة "السماء" في القرآن الكريم بالإفراد والجمع في ثلاثمائة وعشرة "310" موضعاً، منها مائة وعشرون "120" بصيغة الإفراد "السماء"، ومائة وتسعون "190" بصيغة الجمع "السموات" معرفة وغير معرفة.

كما أن لفظة "الأرض" وردت في القرآن الكريم بمشتقاتها في أربع مائة وواحد وستون "461" موضعاً، في مقامات كثيرة تؤكد أن الله سبحانه وتعالى هو خالق السموات والأرض، وخالق كل شيء<sup>(1)</sup>.

وفي هذه الآيات إشارات قرآنية عامة عن السماء والأرض، وآيات تشير إلى المفاهيم العلمية الأساسية لخلق السماء والأرض، ولقد تضمنت هذه الآيات الأخيرة حقائق علمية؛ حول خلق السماء، والأجرام السماوية، والظواهر المناخية، وحول شكل الأرض وما تحتويه من معادن وجبال ونبات وبحار وأنهار، وهذا ما سنتطرق إليه فيما يأتي:

### المطلب الأول: إحصاء آيات الإعجاز العلمي في السماء وتصنيفها

تحدث القرآن الكريم في كثير من آياته عن السماء وخلقها وما تحتويه، كما أشار إلى بعض الحقائق العلمية التي لم تُكشف إلا بعد تقدّم العلم الحديث؛ مما يشهد بأن هذا القرآن من عند الله، وسوف نجمع في هذا المطلب هذه الآيات ونصنّفها إلى ثلاثة أصناف: صنّف تحصى فيه آيات معجزات ذات دلالات علمية في خلق وتكوين السماء، والصنّف الثاني تحصى فيه آيات الإعجاز العلمي في خلق الأجرام السماوية من شمس وقمر وكواكب ونجوم، والصنّف الثالث تحصى فيه آيات الإعجاز العلمي في الظواهر الطبيعية الجوية المتمثلة في الرياح والسحاب والرعد والبرق والمطر<sup>(2)</sup>.

(1) - ينظر: زغول راغب محمد النجار: السماء في القرآن الكريم - من آيات الإعجاز العلمي. دار المعرفة، بيروت، ط4، 1428-2007، ص: 78.

(2) - جمع وإحصاء هذه الآيات من موسوعات ومراجع عدة نذكر منها: ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية، طبعة جديدة منقحة ومزودة، دار ابن الجوزي القاهرة، مصر، ط2، 1435 هـ/2014م. وينظر: أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. دار الغد الجديد، القاهرة، مصر، ط1، 1439 هـ/2018م. وينظر: هيثم جمعة هلال: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. دار العزة والكرامة للكتاب، وهران، الجزائر، ط1، دت. وينظر: نايف منير فارس: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. دار ابن حزم، بيروت لبنان، دار ابن كثير: حولي-الكويت، ط1، 1431 هـ-2011م...

## 1- آيات الإعجاز العلمي في خلق وتكوين السماء

لقد تحدّث القرآن الكريم أوّلاً عن أصل السماء وانفصالها عن الأرض في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:30]. ثم تحدّث عن الحالة الأولى لتلك المادة "الدخان أو السديم"، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضُ أُنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:11].

كما تحدّث عن السماوات السبع في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون:17]، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفْوُتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك:3]، وقوله: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح:15]، وقوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبا:12]. وعن رفعها بغير عمد ترونها في قوله تعالى: ﴿الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۗ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۗ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:1-2].

وأشار إلى اتساع السماء وظلمتها وسوادها في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:47]، ﴿ءَأَنْتُمْ أَشْدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءُ ۗ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَعْمَكُمَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات:27-29].

كما دعا إلى النظر والتفكير في زينة السماء وملكوها وتسخير ما فيها؛ في هذه الآيات: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق:6-7]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي آخُنْكَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:6]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:49]، وقوله: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۗ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:29]، وقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحاثية:13].

وتحدث عن العروج في السماء في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: 14-15] ، وقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ [سبأ: 2] ، وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: 4] ، وقوله: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: 1-4] . والصعود فيها "الضغط الجوي" في قوله: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: 125] .

كما أشار إلى دواب السماء وقولها ورزقها في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: 49] ، وقوله: ﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ۗ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: 29] ، وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنبياء: 4] ، وقوله: ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: 22] . وأما ذات رجع وذات حبك حيث قال: ﴿ وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ [الطارق: 11] ، ﴿ وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ [الذاريات: 7] .

وأخيرا تحدث عن نهايتها وكيفية ذلك؛ في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۗ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۖ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: 104] ، وقوله: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴾ [المعارج: 8] .

## 2- آيات الإعجاز العلمي في خلق الأجرام السماوية

من أبرز الأجرام السماوية التي أشار إليها القرآن الكريم وفيها آيات معجزات وحقائق بينات، الشمس والقمر؛ قال تعالى: ﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ أَلْيَلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۗ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: 37]

فقد تحدث عن حركة الشمس والقمر وجريانها وتسيبهما؛ في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ

الْأَيِّنِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿الرعد:2﴾، وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿يس:38﴾، وقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿يس:40﴾.

كما تحدث عن مكانهما في قوله تعالى: ﴿الرُّتُّورُ أَيْفَ حَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿نوح:15-60﴾. وعن حجمهما فالشمس أكبر من القمر في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ إِلَهِي بِي وَرَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۚ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿الأنعام:75-79﴾. وعن تكويرهما فقال: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿القيامة:9﴾، وقوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿التكوير:1﴾.

وفي آيات وصف الشمس بالضياء، والسراج، وأنها كتلة نارية فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ﴿يونس:5﴾، وقوله: ﴿وَبَدَيْنَا نَوْمَكُمُ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ ﴿النبا:12-13﴾. كما وصف القمر بالنور، والاشتعال - فالقمر كان مشتعلًا ثم انطفأ -، والانساق، والانشقاق في قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا ﴿يونس:5﴾، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ وَالْحَسَابِ ﴿الإسراء:12﴾، وقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿الانشقاق:16-18﴾، وقوله: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿القمر:1﴾.

وفي ثلاث آيات لمَّح إلى ظاهرة المدّ والجزر العجيبة فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿الرعد:2﴾، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَابِّينَ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿إبراهيم:33﴾، وقوله: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَخًا وَمَا تَكُنُونَ مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَجَمْعَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنْتَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿لقمان:29﴾.

كما أشار إلى قضية مهمة جدا في علم الفلك المتمثلة في منازل القمر، والتَّقويم الزَّميني والفرق بين السنة الشمسية والقمرية؛ فقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:5]، وقال: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس:39]، وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجَّ﴾ [البقرة:189]، وقال: ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف:25].

كما أشار إلى المشارق والمغارب في قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل:9]، وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [١٧] ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِنَا نَكْذِبُكَ إِنَّا نَحْنُ الْمُبِينُونَ﴾ [الرحمن:17-18]، وقوله: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [١٠] ﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج:40-41].

ومن الأجرام السماوية التي أشار إليها القرآن الكريم أيضا وفرَّق بينها الكواكب والنجوم؛ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [٧] ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات:7-8]، وقوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [١] ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير:1-2]، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [١] ﴿وَإِذَا الْكُوكَبُ انْتَرَتْ﴾ [الانفطار:1-2]. وقد تحدث عن أهمية النجوم والحكمة من خلقها في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِيَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:97]، وقوله: ﴿وَعَلَّمَنَّا بِالنُّجُومِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:16]. وعن مواقعها فقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ [٧٥] ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَامٍ عَظِيمٍ﴾ [الواقعة:75-76]. وعن أنواعها فهناك النجم الثاقب ونجم الشعرى والجواري الكُنس فقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [١] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ [٢] ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق:1-3]، وقال: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّعْرَى﴾ [النجم:49]، وقال: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْحَسَنِ﴾ [١٥] ﴿الْجَوَارِ الْكُنَسِ﴾ [التكوير:15-16].

كما أشار إلى منازل الكواكب في قوله: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان:61]. وإلى الشهب والمذنبات في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِ﴾ [١٦] ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [١٧] ﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر:16-17]، وقوله تعالى: ﴿وَالصَّفَقَاتِ صَفَا﴾ [١] ﴿فَالرَّجَرَاتِ زَجْرًا﴾ [٢] ﴿فَالنَّائِلَاتِ ذِكْرًا﴾ [٣] ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [٤] ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ [٥] ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوكَبِ﴾ [٦] ﴿وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [٧] ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَمَلِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [٨] ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ﴾ [٩] ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾

فَأَنْجَعُهُ، شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ [الصافات: 1-10]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 5].

وفي مواقع أخرى من القرآن الكريم أشار إلى آيات في خلق الليل والنهار، فهما موجودان دائماً؛ قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: 97-98]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آمِرْنَاهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24]، وقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: 44].

ومختلفان على الدوام - اختلاف الليل والنهار-؛ في قوله: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلَ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحَ إِذَا أَشْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّمَا لِاحِدَى الْكُفْرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 32-36]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلَ إِذَا عَسَّسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحَ إِذَا نَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ، لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: 15-19]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالسَّفَاقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبِقٍ﴾ [الانشقاق: 16-19]، وقوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [افجر: 1-5]، وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا لِلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَدَّلَهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 1-10]، وقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: 1-5]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190].

ومتعاقبان - تعاقب الليل والنهار-؛ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62]. كما أشار إلى سرعة هذا تعاقب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]، وقوله:

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسِي وَأَنْهَرًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا رِوَجِينَ أُنثِينَ يُعْشَى الْأَيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد:3]. وأيضا تحدث عن أهمية تعاقب الليل والنهار؛ فقال تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۗ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس:5]. وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِتَسْكُنُوا فِيهَا وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [يونس:67]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا آيَاتٍ لِلنَّهَارِ وَاللَّيْلِ فَحَوَّنَا آيَةَ آيَاتِ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۗ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء:12]، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِّبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان:47].

كما أشار إلى إمكانية سرمدية الليل والنهار؛ في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٧١) ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهَا أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص:71-72]. وتحدث عن انسلاخ النهار؛ في قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ ﴾ [يس:37]. وأنَّ النهار يجلي الشمس في قوله تعالى: ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى:1-2].

### 3- آيات الإعجاز العلمي في الظواهر الجوية والمناخية

من الظواهر الجوية التي تحدث عنها القرآن الكريم في آيات معجزات ذات دلالات علمية؛ ظاهرة خلق الرياح فذكر أنها لواقع حين قال: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر:22].

وأشار إلى علاقتها بالسحاب والمطر وبالأمواج، في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُفِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر:9]، وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:57]. وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ (٤٨) ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَا سَيِّ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان:48-49]. وقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ لِّوَيْدِقِكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ

بأمرِهِ وَلِتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[الروم:46]، وقوله: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِ سَحَابًا فُسْقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿[فاطر:9]. وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لِيْنَ أُنجِيْتْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿[يونس:22].

كما أنه في آيات أخريات أشار إلى حقيقة الحسوم، فقال: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصِرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَمْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَخْلٍ حَاطِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿[الحاقة:6-8]. وإلى الإعصار والنَّار فقال أيضا: ﴿ أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿[البقرة:266].

ومن الظواهر المناخية التي أشار إليها القرآن في آيات بينات ذات دلالات علمية؛ ظاهرة

السَّحاب فقد وصف ثقله في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نِّفَالًا سُقِنَتْهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿[الأعراف:57]. وفي آية أخرى أشار إلى نوعيه -السَّحاب الطَّبَقِي والسَّحاب الرِّكَامِي- حيث قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ، عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿[النور:43].

وأیضا من الآيات القرآنية المعجزة في خلق السماء ظاهرة الرعد والبرق والصواعق يقول تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْخِرُ الرِّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكَةَ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿[الرعد:12-13].

فقد أشار القرآن إلى كيفية تكون البرق في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ

يُجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ، عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿[النور:43].

وَأَنَّ الرَّعْدَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْبِغُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد: 13].

كما تحدث القرآن الكريم عن أخطار الصواعق في آيات هي: ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَةٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۗ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 19]، وقوله: ﴿ وَيَسْبِغُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ [الرعد: 13]، وقوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴾ [فصلت: 13].

ومن الظواهر المناخية الأخرى التي أشارت إليها آيات القرآن الكريم ذات دلالات علمية، آيات خلق المطر والماء؛ فالله جل علاه جعل من الماء كل شيء حي فقال: ﴿ أُولَئِكَ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: 30]، وقوله: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: 45]. فماء المطر يتوقف عليه كيان الزراعة لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: 99]، وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا تَقَالًا سَقْنَاهُ لِبَلَدٍ لِيَذَرَّ مَتِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 57]. كما أنه أيضا مصدر جميع مياه الأرض لقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: 21].

وَأَنَّ نَزُولَ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ يَكُونُ مِنَ الْمَزْنِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿١٨﴾ أَنَّمْ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمَزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿١٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة: 68-70]. ولا يكون إلا بقدر لقوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ [المؤمنون: 18]. ولو شاء لجعله أجاجا لقوله: ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة: 70]. كما أن من صفات المطر أنه مُقَطَّرٌ؛ لقوله جل ثناؤه: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان: 48].

كما أن لهذا الماء النازل من السماء علاقة بالتربة وبلبصخور والجبال وبالأودية وأيضاً بخوف الإنسان؛ فالتربة تهترُ بنزوله عليها لقوله سبحانه: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج:5]. والصخور والجبال تتلون بنزول الماء عليها لقوله جل جلاله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا <sup>ع</sup> وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ <sup>ق</sup> إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر:27-28]. كما له علاقة بدورة المياه الثابتة في الأرض يقول تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا <sup>ع</sup> وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه <sup>ع</sup> كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ <sup>ع</sup> فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً <sup>ط</sup> وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد:17]. وفي قوله تعالى يبين علاقة المطر بالخوف: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال:11].

وأخيراً فنزول العيث من مفاتيح العيب لا يعلمها إلا هو لقوله جل ذكره: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان:13].

## المطلب الثاني: إحصاء آيات الإعجاز العلمي في الأرض وتصنيفها

أشار القرآن الكريم إلى كثيرٍ من الحقائق العلميّة المتعلّقة بخلق الأرض وشكلها وتكوينها وجبالها وبحارها وأنهارها، والتي لم يُكشف عنها النّقب إلا في العصر الحديث ممّا يدلُّ على قُدرة الله تعالى في خلق الكون. وفي هذا المطلب سوف نجمع هذه الآيات ذات الدلالات والمفاهيم العلميّة ونقسّمها إلى ثلاثة أقسام؛ القسم الأوّل نجمع فيه آيات الإعجاز في بداية خلق الأرض وتكوينها ومعادنها، والقسم الثاني نجمع فيه آيات مُعجزات في خلق الجبال والنبات، أمّا القسم الثالث نجمع فيه آيات الإعجاز العلمي في البحار والأنهار (1).

### 1- آيات الإعجاز العلمي في شكل الأرض ومعادنها

لقد احتوت آيات الإعجاز العلمي في خلق الأرض حقائق علمية، حول شكلها وكرويتها لقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: 19]، وقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الزمر: 5]، وقوله: ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۗ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 88]، وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: 30-31]، وقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: 27].

ودورانها لقوله جلّ علاه: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الزمر: 5]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: 33]، وقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40]، وقوله: ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 88].

وجاذبيها لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ

(1) - جمع وتصنيف هذه الآيات من موسوعات ومراجع عدة نذكر منها:

ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. وينظر: أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. وينظر: هيثم جمعة هلال: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. وينظر: نايف منير فارس: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿[المرسلات: 25-26].

كما وصفت الأرض على أنها قرار لقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ ؕ إِيَّاهُ مَعَ اللَّهُ ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: 61]، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ۗ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 64]. وأنها مهاد لقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۗ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۗ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [المالك: 15]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: 19-20]. وذات صدوع في باطنها لقوله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ﴾ [الطلاق: 11-14].

وأشارت إلى تناقص أطرافها لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۗ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۗ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: 41]. وأيضا إلى أخفض منطقة في الأرض في قوله جل جلاله: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: 2-3].

ووصفت طبقات الأرض والأراضين السبع في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12]. وآيات أخرى أشارت إلى الزلازل والبراكين وإخراج الأرض أبقاها في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة: 1-2]، وقوله: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ [الانشقاق: 3-4].

كما أن هناك آيات قرآنية أشارت إلى حقائق علمية في علم المعادن منها: التي وصفت مواطن خامات العناصر في قوله جل ثناؤه: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۗ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيُّ سُودٌ﴾ [فاطر: 27].

وأخرى أشارت إلى أن معدن الحديد مُنزَّل من الفضاء الخارجي في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۗ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ

وَمَنْفَعُ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصُرِهِ، وَرُسُلُهُ، بِالْعَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿[الحديد:25]﴾. وآيتان وصفتا استخراج الحديد وتليينه في قوله تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد:17]، وقوله: ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالظَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَاقِعًا فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ:10-11].

وآية أشارت إلى سبائك الصلب في قوله تعالى: ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الضَّعِيفِينَ قَالَ أَنْفِخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسطَعُوعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسطَعُوعُوا لَهُ نَقِبًا ﴾ [الكهف:96-97]. وأخرى أشارت إلى مواد البناء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [القصص:38].

## 2- آيات الإعجاز العلمي في خلق الجبال والنبات:

في مواضع عديدة أشار القرآن الكريم إلى ما نراه على سطح الأرض من جبال ونبات في آيات كونيّة ذات دلالات ومفاهيم علميّة أساسيّة لم تكتشف إلّا في العصر الحديث.

فقد تعرّض إلى شكل الجبال ووظيفتها فالجبال أوتاد في قوله جلّ ذكره: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبا:6-7]. كما أنّها أنواع لقوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاجِينَ أُنثِينَ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد:3]، وقوله: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [الحجر:19]، وقوله: ﴿ وَالْقَنَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [النحل:15]، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء:31]، وقوله: ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل:61]، وقوله: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت:10]، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شِمَخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ [المرسلات:27].

وأما تتحرك وليست ثابتة لقوله تعالى: ﴿ وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صَنَّ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: 88]. وأشار إلى الخشوع والتصدع فيها لقوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: 21]. كما وصف قسوة الحجارة لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْفَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: 74]. وعلاقتها بالأمطار لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شَلِخْتِ وَأَسْقَيْنَكُم مَاءً فُرَاتًا ﴾ [المرسلات: 27].

أما الحكمة من خلق الجبال فقد أشار إليها في قوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُوسًا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ [الحجر: 19]، وقوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكْنَا فِيهَا وَفَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنظَرُوا ﴾ [فصلت: 10]، وقوله: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ: 6-7].

كما تعرّض القرآن الكريم إلى التّبات وعلم التّبات في آيات معجزات ذات حقائق علمية بيّنة. فقد تعرّض أولاً إلى الجنس عند التّبات في قوله جلّ ذكره: ﴿ وَأَنْبَتْنَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيج ﴾ [الحج: 5]، وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء: 7]، وقوله: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ ﴾ [القمان: 10]، وقوله: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُوسًا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيج ﴾ [ق: 7]، وقوله: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: 36]، وقوله: ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَائِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكُونَ ﴾ [الزحرف: 12]، وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُوسًا ثَمِينًا يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: 3]، وقوله: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رُوسًا لِّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: 49].

ثمّ إلى مراحل تكوين التّبات في قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُسْتَبِيحًا وَعَيْرَ مُسْتَبِيحًا أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: 99].

وأيضاً إلى ترتيب أصناف التّبات في قوله: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 11]، وقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرزَجٍ أَخْرَجَ شَطْعَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 29].

كما أشار إلى أنواع عدّة من الفواكه والخضار فقال: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: 22]، وقوله: ﴿وَفِكَهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [٢٠] ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: 20-21]. فقد أشار إلى التين والزيتون حين أقسم بهما في قوله: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [١] ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [٢] وهذا البلد الأمين [التين: 1-3]، وكذا في وصفه الزيت بأنه يكاد يضيء، في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: 35]. كما أشار إلى اليقطين والمسك والموز والسدر والزنجبيل والرمان؛ في قوله سبحانه على التوالي: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: 146]، وقوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ﴾ [٢٥] ﴿خِتَمُهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: 25-26]، وقوله: ﴿وَطَلِحَ مَنضُورٍ﴾ [الواقعة: 29]، وقوله: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُورٍ﴾ [الواقعة: 28]، وقوله: ﴿يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ [الإنسان: 17]، وقوله: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾ [٨٨] ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتٌ يَنعِيمُ﴾ [الواقعة: 88-89]، وقوله: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: 12].

كما بيّن القواعد العامة للنظام الزراعي في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [٣٣] ﴿وَأَيُّهُمْ هُمْ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [٣٣] ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [٣٤] ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: 32-35].

ووصف اهتزازات التربة في قوله تعالى: ﴿وَوَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: 5].

وأشار إلى اليخضور في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُسْتَبِيحًا وَعَيْرَ مُسْتَبِيحًا أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: 99].  
وإلى أصل الوقود والشجر الأخضر في قوله: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْشَرْتُمُوهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: 80].

وإلى طريقة حفظ الحصاد في سنبله في قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: 46-49].  
﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا نَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف: 47]. ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يا كلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ﴿ ٤٨ ﴾ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴿ [يوسف: 46-49].

وأخيرا إلى علاقة اللون الأخضر بالسعادة النفسية في قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِنِينَ عَلَى رَقَرِفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن: 76]، وقوله: ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعًا أَسَاوِرٌ مِنْ ذَهَبٍ وَسِقَاهُمْ رِهْمًا شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: 21].

### 3- آيات الإعجاز العلمي في خلق البحار والأنهار

في كثير من آياته أشار القرآن الكريم إلى بعض الحقائق العلمية المتعلقة بعلوم البحار، التي لم يتوصل إليها الإنسان إلا في هذا القرن، مما يؤكد على جانب هام من جوانب الإعجاز في كتاب الله، وهو جانب الإعجاز العلمي.

فقد أخبر عن ثروات البحار والمحيطات الرزاحة، في قوله جل جلاله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: 14].

وكشف عن استخراج اللؤلؤ والمرجان منها، في قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١١﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿١٢﴾ فَإِذَا يَلِيًّا لَوْكَمَا تَكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: 19-22]. وقوله: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ﴾

الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ <sup>ط</sup> وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لِحَمَاطٍ طَرِيًّا وَنَسْتَخْرِجُونَ حِلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِرَ لَتَبْنُوهُنَّ مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[فاطر: 12].

ووصف ظلمات البحار والمحيطات العميقة، وأمواجها الداخلية والسطحية، في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ <sup>ع</sup> ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ، لَمْ يَكْدِ يَرَهَا <sup>ط</sup> وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿[النور: 40]. وكذا الحاجز بين البحرين؛ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿[الفرقان: 53]. وقوله: ﴿أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَادًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿[النمل: 61]. وقوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١١﴾ يَلْتَقِيَانِ بَرْزَخًا لَّا يَتَّصِلَانِ ﴿[الرحمن: 19-20].

كما أشار إلى أن تحت البحار نازًا، فقال: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْسَيَّارَةِ <sup>ط</sup> وَحَرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا <sup>ط</sup> وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿[المائدة: 96]. وفي عمقها براكين؛ حين قال: ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكُنُوبٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿[الطور: 1-6]. وفي قاعها أمواج وتيارات؛ يقول تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ <sup>ع</sup> ﴿[النور: 40].

كما وصف سفينة نوح، والعلاقة بين الرياح وحركة السفن، في قوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسْرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿[القمر: 13-15]. وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ <sup>ع</sup> إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿[الشورى: 32-33].

وأشار إلى خلق الأنهار، ومصباتها، والحاجز الذي بينها وبين البحر، في قوله جل جلاله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا <sup>ع</sup> وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه <sup>ع</sup> كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً <sup>ط</sup> وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿[الرعد: 17].

وأخيراً ما يمكن ملاحظته ممّا سبق:

أنّ آيات الإعجاز العلمي في خلق السّماء وأجرامها، ومناخها، وخلق الأرض وجبالها، ونباتها، وبحارها، وأنهارها، كثيرة جداً ومتنوّعة، فالقرآن الكريم لم يترك تقريباً آية في السّماء أو الأرض إلاّ وأشار إليها لفظاً أو تلميحا في القرآن، ممّا تلحظه العين كالشّمس والشّجر أو ما يخفى عنها كطرق النّجوم وتلقيح الرّياح، في صورة بلاغيّة علميّة معجزة، وهذا ما يؤكّد على الإعجاز اللّغوي والعلمي للنّصّ القرآني.

أنّ هناك من آيات الإعجاز العلمي في خلق السّماء قد اشتركت في إعجازها العلمي مع آيات في خلق الأرض. وهذا يدلّ على أنّ الآية الواحدة قد تحمل عدّة مفاهيم ودلالات علمية، وعليه يمكن أن يستشهد بها عن حقائق علمية مختلفة دون أن يحتلّ بمقصود النّصّ أو معناه بل على العكس فكل دلالة مختلفة مستخرجة تكمل الأخرى.

## المبحث الثاني:

### السياق الصوتي والحقائق العلمية في آيات خلق السماء والأرض

تتجلى دلالة السياق الصوتي من خلال الظواهر الصوتية المختلفة في النص القرآني، ومن تلك الظواهر: الإيحاء الصوتي للكلمات القرآنية، وكذا التبر والتنعيم والمقاطع في الآيات، فضلاً عن الدور الكبير الذي تؤديه الفاصلة القرآنية في تكوين السياق الصوتي من خلال اتساقها في الآيات. وقد احتوت آيات الإعجاز العلمي في خلق السماء والأرض ظواهر صوتية كثيرة ومتنوعة، تتجلى من خلالها دلالة السياق اللغوي في النص القرآني، ويتقرر مفهومها العلمي. ومن أمثلة تلك الظواهر الصوتية ووظيفتها في تحديد الدلالة وتصوير المشهد في النص القرآني ما يأتي:

#### المطلب الأول: دلالة الصوت الإيحائي

يعرّف الإيحاء الصوتي على أنه: «نتج لغوي يتجاوز الفهم الظاهري للكلمة أو إشارتها المعرفية، وهو ذو قيمة وأهمية كبيرة في الوصول إلى تصور كامل للمعنى، بمعنى آخر أنه الحيوط الخفية التي تربط نسيج النص وتقويه وتظهره بجلته وزينته الظاهرة»<sup>(1)</sup>. ولتحقيق إيحاء صوتي دلالي خاص؛ يختار الأسلوب القرآني ألفاظاً تتميز بخصائص صوتية معينة ما يتناسب مع المقامات المختلفة، كاختياره لفظاً يتكرر فيه صوت معين، أو يشتمل على صوت ذي خصائص معينة، أو اختياره لفظاً يكثر فيه عدد السواكن، أو مجموعة ألفاظ تشتمل على أصوات متماثلة ومتكررة<sup>(2)</sup>.

### 1- دلالة الصوت الإيحائي في آية خلق الأجرام السماوية

من أمثلة دلالة الصوت الإيحائي في آيات الإعجاز العلمي في خلق السماء، وما تحتوي من أجرام سماوية، وظواهر كونية قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخَاسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: 15-19].

(1) - جنان محمد المهدي: الإيقاع الصوتي الإيحائي في سياق النص القرآني. مجلة كلية التربية للبنات، المجلد 21 (4) 2010م، ص:3.

(2) - ينظر: مصطفى شعبان المصري: من الإعجاز اللغوي في القرآن دراسة لغوية أسلوبية في مناسبة اللفظ لسياق الحال. تقديم: عبده الراجحي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ط1، 2012م، ص:97.

إنَّ السِّياق العام لهذه السورة - سورة التَّكْوِير - هو التَّأكيد على أنَّ القيامة وما يصاحبها من أهوال حق، وأنَّ الوحي الإلهي الذي نزل إلى خاتم الأنبياء والمرسلين حق؛ فالمقصود من السُّورة هو بيان حقيقتين من حقائق العقيدة: الأولى حقيقة القيامة، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل، والثانية حقيقة الوحي، وما يتعلق بها من صفة الملك الذي يحمله، وصفة النبي الذي يتلقاه. والإيقاع العام للسُّورة أشبه بحركة جائحة، تنطلق من عقابها، فتَقْلِبُ كل شيء، وتُثَرُّ كل شيء... ففي السُّورة ثروة ضخمة من المشاهد الرائعة، سواءً في هذا الكون الرَّائع الذي نراه، أو في ذلك اليوم الآخر الذي ينقلب فيه الكون بكلِّ ما نعهده فيه من أوضاع. وثروة كذلك من التَّعبيرات الأنيقة! المنتقاة لتلوين المشاهد والإيقاعات. وتلتقي هذه وتلك في حيز السُّورة الضيق، فتضغط على الحسِّ وتنفذ إليه في قوَّة وإجاء (1).

في الآيات [من 15 إلى 19] من هذه السُّورة يُقسم الله تعالى بمشاهد كونية جميلة، مُسَخَّرَةٌ بأمره على أنَّ القرآن حق وأنَّ محمداً أرسل به هداية للناس ورحمة من الله ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخَنَسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ [التكوير: 15-19]. يقول محمد الغزالي: «إنَّه قسم بعظمة الكون على عظمة الوحي، فكلاهما دليل على الله. هذه آية صامتة، وتلك آية ناطقة. والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي تتلوه فتشعر بعمق الصِّلة بين الأرض وسائر الفلك، وبينها جميعاً وبين الخالق الكبير» (2).

فما تفسير هذه الآيات عند علمائنا الأوائل؟ وما الحقيقة العلمية التي أشارت إليها؟ وأين يكمن وجه الإعجاز العلمي فيها؟ وما الدلالة السياقية (المعجمية والصوتية) في الآيات؟ وهل هناك تعانق واتِّفاق بين المفهوم - أو التفسير - العلمي لهذه الآية ودلالاتها اللغوية السياقية؟

في تفسير علمائنا الأوائل لهذه الآيات قالوا بأنَّ الخنَسِ الجوارِ الكنَسِ هي: «النُّجومُ الدراريُّ الخمسة، تخنَسُ في مجراها فترجع، وتكنَسُ فتستترُّ في بُيوتها، كما تكنَسُ الطُّبَّاءُ في المغارِ. والنُّجوم الخمسة؛ بَهْرَامُ، وَرُحْلُ، وَعُطَّارِدُ، وَالرُّهْرَةُ، وَالْمَشْتَرِيُّ» (3).

(1) - ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن. دار الشروق، القاهرة، مصر، ط2، 32، 1423هـ-2003م، 3837-3836/30.

(2) - محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم. دار الشروق: القاهرة، مصر، ط4، 1420هـ-2000م، ص:503.

(3) - الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 152/24.

وفي تفسيرهم للفظَة ﴿عَسَسَ﴾ اختلف أهل التَّأويل في ذلك إلى معنيين؛ فَمَنهم من فسَّرها بالإقبال، ومنهم من فسَّرها بالإدبار. يقول ابن كثير: « المراد بقوله: ﴿عَسَسَ﴾: إذا أقبل، وإن كان يَصْحُ استعماله في الإدبار، لكن الإقبال ها هنا أنسب، كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل، وبال فجر وضيائه إذا أشرق، كما قال: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَمُتُّ ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝﴾ [الليل: 1-2]، وقال: ﴿وَالضُّحَى ۝ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ۝﴾ [الضحى: 1-2]، وقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ۝﴾ [الأنعام: 96]، وغير ذلك من الآيات»<sup>(1)</sup>.

أمَّا ابن جرير الطبري فقد رجَّح معنى الإدبار في قوله: « وأولى التَّأويلين في ذلك بالصَّواب عندي قول من قال: معنى ذلك إذا أدبر وذلك لقوله: ﴿وَالضُّحَى إِذَا نَفَسَ ۝ فَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْقِسْمَ بِاللَّيْلِ مُدْبِرًا، وَبِالنَّهَارِ مُقْبِلًا، وَالْعَرَبُ تَقُولُ عَسَسَ اللَّيْلُ، وَسَعَسَعَ اللَّيْلُ، إِذَا أَدْبَرَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا الْيَسِيرُ ۝﴾<sup>(2)</sup>. كما يرى علماء الأصول أنَّ لفظَة ﴿عَسَسَ﴾ من المشترك اللفظي؛ فهي تُستعمل في الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك. فعلى هذا يَصْحُ أن يُراد كلُّ منهما، والله أعلم<sup>(3)</sup>.

وحديثًا عند علمائنا المتأخرين تنبَّهوا إلى أنَّ هذه الآيات المعجزات تشير إلى حقيقة علمية كونيَّة مُبهرة، تُمثِّل مرحلة خطيرة من مراحل حياة النجوم يُسميها علماء الفلك اليوم باسم "الثقوب السوداء - Holes Black"<sup>(4)</sup>. وأنَّ هذه الحقيقة التي لم يتوصَّل العلماء إلى اكتشافها ومعرفتها إلاَّ حديثًا، وردت في القرآن الكريم الذي أنزل قبل ألف وأربعمائة سنة، بتعبيرات علمية دقيقة، وألفاظ دلالية موحية.

فقد وجد علماء الفلك أنَّ النجوم العملاقة لَمَّا تصل إلى مرحلة الشَّيخوخة تتحوَّل إلى ثُقوب سوداء<sup>(5)</sup>. وعرَّفوا الثُّقب الأسود بأنَّه: « أحد أجرام السَّماء التي تتميز بكثافتها الفائقة وجاذبيتها الشديدة، بحيث لا يمكن للمادَّة ولا لمختلف صور الطاقة -ومنها الضَّوء- أن تفلت من أسرها، ويحدُّ الثُّقب الأسود سطحًا يعرف باسم "أفق الحدث - The Event Horizon" وكل ما يسقط داخل هذا الأفق لا يمكنه الخروج منه، أو إرسال أيَّة إشارة عبر حدوده»<sup>(6)</sup>. أمَّا عن سبب تسميتها

(1) - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 338/8.

(2) - الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 161/24.

(3) - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 338/8.

(4) - ينظر: زغول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط1، 1428هـ-2007م، 350/4.

(5) - ينظر: زغول النجار: السماء في القرآن الكريم. ص: 218.

(6) - المرجع نفسه. ص: 216-217.

بالثُقُوب "Holes" ووصفها بالسوداء "Black": وذلك « لقدرتها الفائقة على ابتلاع كل ما تمرُّ به أو يدخل في نطاق جاذبيتها من مختلف صور المادَّة والطَّاقة من مثل الغبار والغازات الكونيين والأجرام السَّماوية المختلفة. ووصفت بالسوداء؛ لأنَّها معتمَّة تماماً لعدم قدرة الضَّوء على الإفلات من مجال جاذبيتها على الرَّغم من سرعته الفائقة المقدَّرة بحوالي الثَّلَاثمائة ألف كيلومتر في الثَّانية»<sup>(1)</sup>.

وبالتَّالي فهذه الحقيقة العلميَّة، وهي أنَّ في السَّماء نُجوم تتحوَّل بعد مدَّة زمنيَّة إلى ثُقُوب سوداء فتصبح خانسة وهي تجري في صفحة السَّماء فتكنسها؛ حيث أن جاذبيتها هائلة وتجذب إليها أي شيء يقترب منها فتبتلع كل ما تمرُّ به من مادَّة أو طاقة في الفضاء، فهي تمثِّل مقابر كونيَّة أو مكانس كونيَّة تكنس وتنظِّف الكون باستمرار بسبب الجاذبيَّة الهائلة لها، قد أشار إليها القرآن الكريم قبل ألف وأربعمائة سنة في هذه الآية المعجزة ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْحُنَّسِ ۝۱۵ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾<sup>(2)</sup>.

وفي التَّفسير العلمي لهذه الآية يقول زغلول النجار: « لا أجد وصفا لتلك المرحلة من حياة النُّجوم المعروفة باسم "الثُّقُوب السُّوداء" أبلغ من وصف الخالق "سبحانه وتعالى" لها بالحنَّس الكُنَّس فهي خانسة أي دائمة الاختفاء والاستتار، بذاتها، وهي كانسة لصفحة السَّماء، تبتلع كل من تمر به من المادَّة المنتشرة بين النُّجوم، وكل ما يدخل في نطاق جاذبيتها من أجرام السَّماء، وهي جارية في أفلاكها المحدَّدة لها، فهي حُنَّس جوار كنس، وهو تعبیر أبلغ بكثير من تعبیر الثُّقُوب السُّود الذي اشتهر وذاع بين المشتغلين بعلم الفلك: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122].

ومن العجيب أن العلماء الغربيين يُسمُّون هذه الثُّقُوب السُّود تسمية مجازيَّة عجيبه حين يسمونها بالمكانس العملاقة التي تبتلع "أو تشفط" كل شيء اقترب منها إلى داخلها: "Suckineverythinginsight Giant Vaccum Cleanersthat" «<sup>(3)</sup>.

فوجه الإعجاز العلمي في الآية هو دلالة هذه الألفاظ ﴿بِالْحُنَّسِ﴾ ﴿الْجَوَارِ﴾ ﴿الْكُنَّسِ﴾ على هذه الحقيقة العلميَّة "الثُّقُوب السُّوداء"، وهو ما كشفت عنه دراسات وأبحاث علم الفلك في عصرنا. ففي قوله تعالى ﴿...بِالْحُنَّسِ ۝۱۵ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ « وصف يفوق التَّسمية العلميَّة لها باسم

(1) - زغلول النجار: السماء في القرآن الكريم. ص: 218.

(2) - ينظر: عبد الدائم الكحيل: الموسوعة المصورة في الإعجاز العلمي 1- الإعجاز العلمي في الكون. دط، دت. ص: 100. وينظر: وليد ظاهري: المعجزة الخالدة الإعجاز البياني والعلمي والتاريخي في القرآن الكريم. دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، 2006م، ص: 76.

(3) - زغلول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. 354/4-355.

"الثقوب السوداء" دقة، وشمولاً، وإحاطة»<sup>(1)</sup>.

وعليه، فهذه الألفاظ ﴿بِالْحَنَسِ﴾ ﴿الْجَوَارِ﴾ ﴿الْكَنَسِ﴾ في سياق هذه الآيات شكّلت المحور الرئيس فيها وكشفت عن هذه الدلالة العلمية العظيمة. وإذا ما بحثنا عن دلالتها المعجمية السياقية، نجد أنّ اللغويين والمفسرين ذكروا عدّة وجوه لمعناها، يمكن إيجازها في ما يأتي:

أ- "الْحَنَسُ": من المعاني اللغوية للجزر "حنس"؛ هو التستر، والغياب، والاستخفاء، والانقباض، والتأخر، والرّجوع، فقد جاء في مقاييس اللغة أنّ: «الْحَنَاءُ وَالنُّونُ وَالسَّيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى اسْتِخْفَاءٍ وَتَسْتُرٍ. قالوا: الْحَنَسُ الذَّهَابُ فِي خَفِيَّةٍ. يُقَالُ حَنَسْتُ عَنْهُ. وَأَحْنَسْتُ عَنْهُ حَقَّةً. وَالْحَنَسِ: النُّجُومُ تَحْنَسُ فِي الْمَغِيبِ. وَقَالَ قَوْمٌ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَخْفَى نَهَارًا وَتَطْلُعُ لَيْلًا»<sup>(2)</sup>. وفي لسان العرب: «حنس: الحُنُوس: الانقباض والاستخفاء. حَنَسَ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ يَحْنَسُ وَيَحْنَسُ، بِالضَّمِّ حُنُوسًا وَحِنَاسًا وَالْحُنَسَ: انْقَبَضَ وَتَأَخَّرَ، وَقِيلَ: رَجَعَ... الْحُنَسُ جَمْعُ حَنَسٍ أَيْ مَتَأَخَّرَ... يُقَالُ: حَنَسَ بِهِ أَيْ وَارَاهُ. وَيُقَالُ: يَحْنَسُ بِهَمْ أَيْ يَغِيبُ بِهَمْ. وَحَنَسَ الرَّجُلُ إِذَا تَوَارَى وَغَاب...»<sup>(3)</sup>. وفي القاموس المحيط: «الْحَنَسُ، كَرَكْعٍ: الكواكب كلها، أو السّيّارة أو النُّجُومُ الحَمْسَةُ: رُحْل، والمشتري، والمريخ، والزّهرة، وعطارد. وَحُنْسُهَا: أَنَّهَا تَغِيبُ، كَمَا يَحْنَسُ الشَّيْطَانُ إِذَا ذُكِرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(4)</sup>.

ب- "الجوّار": من الجذر اللغوي "جرى"؛ من معانيه: المرّ السّريع، أو السّيّلان الخفيف المتتابع. نقول: «جَرَى الْمَاءُ وَنَحْوُهُ جَرِيًا وَجَرِينًا وَجَرِيَةً، بِالْكَسْرِ، وَأَجْرَاهُ وَجَارَاهُ مُجَارَةً وَجِرَاءً: جَرَى مَعَهُ»<sup>(5)</sup>. يقول الأصفهاني: «الْجَرِي: المرّ السّريع، وأصله كمرّ الماء، ولمّا يجري بجره قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الكهف: 31]. وقال: ﴿وَلَتَجْرَى أَلْفُكُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: 46]»<sup>(6)</sup>.

فالمنعنى المحوري لهذا الجذر "جرى" هو: انتقال بحركة خفيفة سريعة مسترسلة متصلة. نحو:

سيّلان الماء والدّم، وجري الفرس، والسّفن، والريّاح، والشّمس، وسائر النُّجوم، يقول تعالى: ﴿تَجْرَى

(1) - زغلول النجار: السماء في القرآن الكريم. ص: 231.

(2) - ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة "حنس".

(3) - ابن منظور: لسان العرب. مادة "حنس".

(4) - الفيروزبادي: القاموس المحيط. مادة "حنس".

(5) - المصدر نفسه. مادة "جرى".

(6) - الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. مادة "جرى".

من تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿البقرة: 25﴾ ، وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ ﴿البقرة: 164﴾ ، فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي ﴿ص: 36﴾ ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي ﴿يس: 38﴾. و"الجارية": السفينة صفة غالبية ﴿حَمَلْنَاكَ فِي الْبَارِيَةِ ﴿الحاقة: 11﴾، وجمعها "الجواري" ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿الشورى: 32﴾ ، وبها فسرت "الجاريات". أمَّا ﴿الْجَوَارِ الْكُنُسِ﴾ فهي الكواكب الخمسة الدراري. والآية تصلح لكل الكواكب... والذي في القرآن من التركيب كله من الجري الموصوف مسندًا إلى الأنهار، وإلى عيون الماء، وإلى السفن، والرياح، والشمس والقمر والنجوم ﴿كُلٌّ يَجْرِي ﴿الرعد: 2﴾، وسياقاتها واضحة<sup>(1)</sup>.

**ج- "الكنس":** من الجذر اللغوي "كنس"؛ يدلُّ على كشف شيء أو استخفائه فالكاف والنون والسين أصلان صحيحان، أحدهما يدلُّ على سَفَرِ شيءٍ عن وجهٍ شيءٍ، وهو كَشْفُهُ. نحو: كُنُسَ البيت، وهو سَفَرُ وَكَسْحُ التُّرابِ عن وَجْهِ أرضِهِ، كُنُسَ المَوْضِعِ يَكْنُسُهُ، بالضمِّ. والمكنسة: ما كُنُسَ به أي "آلة الكنس"، والجمع مَكَانِسُ. والكناسة: ما كُنُسَ أي "القمامة"، وهو أيضا: مُلْقَى القمام. والأصلُ الآخرُ يدلُّ على استخفاء. نحو: الكِنَاسُ: بيتُ الظَّيِّ. والكَانِسُ: الظَّيُّ يدخلُ كِنَاسَهُ. وَكُنُسَتِ الطَّبَاءُ والبَقَرُ تَكْنِسُ، بالكسْرِ، وَتَكْنَسَتْ وَكُنُسَتْ: دَخَلَتْ فِي الكِنَاسِ<sup>(2)</sup>. والكنس: الكواكبُ تَكْنِسُ فِي بُرُوجِهَا كما تَدْخُلُ الطَّبَاءُ فِي كِنَاسِهَا. قال أبو عبيدة: لأَها تَكْنِسُ فِي المغيبِ، أي تستتر<sup>(3)</sup>.

فالمعنى المحوري لهذا الجذر اللغوي "كنس" هو: « تَنَحَّى ما كان ظاهرًا إلى جوف كِنٍ يستره: كما تستكنُّ الطباء في الكنس. "فهي تنتشر على وجه الأرض ثم تأوي ناحيةً إلى مكانسها". ومنه: "كُنُسَتِ النُّجُومُ: غابت في مَعَارِهَا" - بعد انتشارها على وجه السماء ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَسَنِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنُسِ﴾ ومن ذلك الأصل: "كنس الموضع: كَسَحَ القمامة عن وجهه". فالكنس تنحية ما انتشر على وجه المكان، وإبعاده وتغييبه<sup>(4)</sup>.

وعليه، فهذه المواد اللغوية الثلاثة "خنس"، "جري"، "كنس"، لها معانٍ ودلالات معجمية

(1) - ينظر: محمد حسن حسن جبل: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم. مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2010م، ص: 294-295، مادة "جری".

(2) - ينظر: ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة "كنس". وابن منظور: لسان العرب. مادة "كنس".

(3) - ينظر: ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة "كنس". والجوهري: الصحاح. مادة "كنس".

(4) - محمد حسن جبل: المعجم الاشتقاقي المؤصل. مادة "كنس".

مختلفة ومتنوعة - كما رأينا سابقا - لكن في قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْخُنُسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنُسِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ۝١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: 15-19]، تحمل من الدلالة ما يتناسب وسياقها؛ فهي تدلُّ على النجوم أو الكواكب في ظلمة الليل كيف تخنس وتغيب، وكيف تجري وتنتقل بخفة سريعة مسترسلة إلى أن تكنس وتستتر في بيوتها، كما تكنس الطباء الرشيقة في المغار، إذا ما الصبح تنفس. لذا فهذه الكلمات أبلغ وأدق وأكثر إيجاءً في تصوير هذا المشهد من أيّ كلمات أحر.

هذا بالنسبة لدلالة السياق المعجمي لهذه الألفاظ، أمّا إذا ما بحثنا عن دلالة الصوت الإيحائي فيها نجد أن التعبير بـ ﴿بِالْخُنُسِ﴾ ، و ﴿الْجَوَارِ﴾ ، و ﴿الْكُنُسِ﴾ دون غيرها من الألفاظ، دلالة دقيقة عن المعنى المراد، لا يمكن لأيّ ألفاظ أخرى أن تعبّر عنها. ويمكن تصوير هذه الدلالة من خلال:

أ- صوت الخاء المستعلي المهموس في ﴿بِالْخُنُسِ﴾، فكأنه بهذا الاستعلاء وهذا الهمس يعبر عن علو النجوم و ظهورها وطلوعها في الليل، واختفائها وغيابها في النهار. فمن صفات هذا الصوت أنه: صوت مستعلي، مهموس، رخو، مُنفتح، غير مطبق (1). وصفة الاستعلاء معناه الارتفاع؛ حيث ينشأ عن ارتفاع اللسان إلى الحنك الأعلى عند النطق بالحرف. وصفة الهمس: معناه الخفاء؛ ينشأ عن جريان النفس عند النطق بالحرف لضعف الاعتماد على المخرج (2). وهكذا هي حال النجوم فهي تطلُّ وترتفع ليلاً وتخفى وتغيب نهاراً.

ب- صوتي الجيم والراء في ﴿الْجَوَارِ﴾: فمن أهمّ صفات صوت الجيم صفة "القلقلة" التي معناها: الاضطراب والتّحريك، حيث تنشأ عن اضطراب المخرج عند النطق بالحرف ساكناً حتى يسمع له نبرة قويّة. ومن أهمّ صفات صوت الراء صفة "التكرار" التي تعني: إعادة الشيء مرة بعد مرّة، تنشأ عن ارتعاد اللسان عند النطق بالحرف (3)؛ فكلتا هذين الصفتين تُصوِّرا لنا الحالة التي تكون عليها النجوم في السماء فهي تنتقل بحركة سريعة مُتصلة، وبطريقة مُتتابعة متكرّرة.

(1) - ينظر: مصطفى أكرور: مخارج وصفات الحروف العربية عند جمهور علماء التجويد. دار الخلدونية، الجزائر، ط1، 1434هـ-2013م، ص:94.

(2) - ينظر: محمد الصادق قمحاوي: البرهان في تجويد القرآن. عالم الكتب. بيروت-لبنان، ط1، 1405هـ-1985م، ص:40-41

(3) - ينظر: المرجع نفسه. ص:43-45

ج- معنى الفصل المعجمي: "كن" في ﴿الْكُنُوسِ﴾، إذ يدلُّ على الاستتار والاختفاء في جوف شيء، كما في الأكنان الغيران "ج غار" فهي تستر كل ما يستكن فيها في "كنن". وكما في الكنود الذي لا يعترف بما أُسدى إليه من خير، بل يكتُمه فيخفي ويستتر وذلك معنى كفر التعمه، ومثله الأرض الكنود التي لا تُنبت شيئاً، لأنّها بعدم إنباتها كأنّها تحجبه وتخفيه في "كند". وكالمال المدفون في الأرض في "كنز"، وكما تستكن الطّباء في الكناس في "كنس" (1). وكذا حال النجوم إذ تستتر وتختفي في جوف السماء مع أول إشراقه للصّبح، بعد أن كانت تسير وتجري في ظلّمة الليل الكحيل.

د- تكرار حرف السين في السياق العام في هذه الآيات ست مرات: وهو صوت صنّفه العلماء مع أصوات الصّفير (\*)؛ وقد وُصفت بذلك لأنّ عند النطق بها تُصدر صفيراً أ يُشبه صفير الطائر (2). فعند النطق بالسين « يندفع الهواء ماراً بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصّوتيين، ثم يأخذ بجراه في الحلق والقم حتى يصل إلى المخرج عند التقاء طرف اللسان بالثنايا السفلى أو العليا، بحيث يكون بين اللسان والثنايا مجرى ضيقاً جداً يندفع خلاله الهواء فيحدث ذلك الصّفير العالي. هذا إلى اقتراب الأسنان العليا من السفلى في حالة النطق بهذا الصّوت » (3). فكان من صفات هذا الصّوت أنّه: صوت مهموس، رخو، مُستفل، مُنفتح، غير مطبق (4).

وفي هذه الآيات الكريمات نلاحظ أنّ هذا الصوت -بصفاته وخصائصه- في هذه الكلمات: ﴿أَقِيمُ﴾، و﴿بِالْحُنُوسِ﴾، و﴿الْكُنُوسِ﴾، و﴿عَسَسَ﴾، و﴿نَفَسَ﴾، و﴿رَسُولٍ﴾؛ ناسب إطار السورة العام وشكل « هامشاً دلاليّاً واضحاً يُعبر بدقّة وشفافيّة عن الصّور التي أرادت هذه الألفاظ التي ترسمها، فكل الأجرام التي ذُكرت كأناتما ليلية وصورة الصّبح الوحيدة كانت في وقت الفجر وكل تلك الوحدات الزمّنيّة تتّسم بالهدوء والسكون، ويمكن أن نتحصّن بما تُوحيه إلينا تلك الألفاظ من حركة الأجرام على الرّغم من عظّمة أجرامها إلّا أنّنا لا نسمع لحركتها صوتاً بل نلمح فقط تغيّر مواقعها في القبة السّماوية فهي أجرام سيّارة» (5).

(1) ينظر: محمد حسن جبل: المعجم الاشتقاقي المؤصل. مادة "كنس".  
 (\*)- تتمثل أصوات الصّفير في "س، ص، ز". سميت بذلك لأنّ « مجرى هذه الأصوات يضيق جداً عند مخرجها فتحدث عند النطق بها صفيراً عالياً لا يشركها في نسبة علو هذا الصّفير غيرها من الأصوات ». إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة-مصر، ط4، 1961م، ص:75.  
 (2) ينظر: مصطفى أكرور: مخارج وصفات الحروف العربية عند جمهور علماء التجويد. ص:74.  
 (3) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص:77.  
 (4) ينظر: مصطفى أكرور: مخارج وصفات الحروف العربية عند جمهور علماء التجويد. ص:94.  
 (5) هدى هشام إسماعيل: سورة التكويد دراسة لغوية أسلوبيّة. مجلة كلية الإمام الأعظم، العراق، المجلد/العدد10، 2010م، ص:15-16.

فحين تسمع همس السنين المكررة وخفة وقعها في الأذن تكاد تستشف نوعة ظلها، مثلما تستريح إلى خفة وقعها، « وفي ﴿عَسَسَ﴾ و ﴿نَفَسَ﴾ جرس يُوحى بدلالة المعنى إذ يرسم صورة حسية لإقبال ظلام الليل بأفأقه المترامية... ثم انفلات الصبح من مخبأ الليل وسجنه، وما يصحبان ذلك من صحوة الكون، وديب الحياة في أرجائه»<sup>(1)</sup>.

فعد نطق هذا اللفظ ﴿عَسَسَ﴾ تكاد نحس همس الليل، وخفوت ضوء النهار، وهدأت الكون، وأن هذا التكرار يُصوّر حركتين لليل إقباله وإدباره وكذلك كل يوم، أمّا كلمة ﴿نَفَسَ﴾ في التعبير عن إقبال الصبح وإشراقه قد أخذت نصيبها من همس السنين وركته المناسبة للطافة الصبح وركته، غير أن هذا الحرف لم يتكرر، وإنما اشتملت الكلمة على أحرف أخرى متحركة بالفتح متقاربة المخارج تُضفي على جوّ طلوع الصبح وميلاده نوعاً من الحركة والحياة التي نشعر بتدرجها شيئاً فشيئاً مع توالي هذه الحروف والحركات، وكأنها تكاد تُحاكي ميلاد هذا الصبح الجديد؛ فإنّ الفاء المشددة الحرف الشفوي تُصوّر حركة التنفس على الفم، ولحظة الوقوف على الشدة ثم الفتحة ما يصور مشهد ولادة النهار<sup>(2)</sup>.

إذا فالسياق الصوتي في هذه الآيات وظف أصواتاً ذات صدى دلالي تشيع جوّاً خاصاً من المعاني تتلاءم مع ما صوّره القرآن الكريم من أجرام سماوية وظواهر كونية.

وعليه، ومما سبق نستنتج أن هناك تعانقاً وتناغمًا بين الدلالة السياقية (المعجمية والصوتية) لهذه الألفاظ ﴿بِالْحُنُسِ﴾، و ﴿الْكُنُسِ﴾، و ﴿عَسَسَ﴾، والمفهوم العلمي لتلك النجوم المعروفة باسم "الثقوب السوداء"، فهذه النجوم كما سبق الذكر "خُنُس" غائبة مُستترة بذاتها، و"جوار" فهي تجري في أفلاكها المحددة. و"كُنُس" تكنس وتبلع كل ما تمرُّ به من مادة أو طاقة منتشرة في صفحة السماء.

(1) - هدى هشام إسماعيل: سورة التكويد دراسة لغوية أسلوبية. ص: 15.

(2) - ينظر: عبد الحميد هنداوي: الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم. ص: 65. وينظر: أحمد ياسوف: دراسات فنية في القرآن الكريم. دار المكتبي، دمشق، سورية، ط1، 1427/هـ/2006 م. ص: 355.

## 2- الدلالة الإيحائية لأصوات لفظ "شواظ" في آية خلق المعادن الكونية

من الألفاظ التي استعملها الأسلوب القرآني في آيات الإعجاز العلمي في الأرض والغلاف الجوي المحيط بها، والمشملة على أصوات ذات إجماعات وشحنات دلالية، يقتضيها السياق لفظ ﴿شَواظٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَإِنِّي آءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَواظًا مِّن نَّارٍ وَحُحَّاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَإِنِّي آءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 33-36].

لقد جاءت هذه اللفظة ﴿شَواظٌ﴾ ضمن سياق عام، يُخاطب فيه الله سبحانه وتعالى الثقلين: الإنس والجن على السواء، ويستعرض عليهما نعمه وآلاءه الباهرة الظاهرة في جميل صنعه، وإبداع خلقه؛ وفي فيض نعمائه؛ وفي تدبيره للوجود وما فيه؛.. مع تحديهما إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله، تُحَدِّثًا يتكرَّر عقب بيان نعمة من نعمه التي يعددها ويفصلها، ويجعل الكون كله معرضًا لها، وساحة الآخرة كذلك<sup>(1)</sup>.

ففي هذه الآيات الثلاثة من سورة الرحمن نجد أن القرآن الكريم تُحَدِّثُ «كلاً من الجن والإنس تحدياً صريحاً بعجزهم عن النفاذ من أقطار السماوات والأرض، وهو تحدٍ يُظهر ضآلة قُدراتهما مجتمعين أمام طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الكون، لضخامة أبعاده، ولقصر عمر المخلوقات، وحتمية فنائها، والآيات بالإضافة إلى ذلك تحوي عددًا من الحقائق الكونية المبهرة التي لم يستطع الإنسان إدراكها إلا في العقود القليلة المتأخرة من القرن العشرين»<sup>(2)</sup>.

وقد اخترنا في هذا المقام الحديث عن إحدى هذه الحقائق العلمية في هذه الآيات وهي حقيقة: إرسال شواظ من نار وُحَّاس على كل من يُحاول النفاذ من أقطار السماوات والأرض بغير سلطان من الله تعالى.

فقد ثبت علمياً « أن العناصر المعروفة لنا تتخلَّق في داخل النجوم بعملية الاندماج النووي "لنوى ذرات الإيدروجين، فينتج عن ذلك نوى ذرات العناصر الأثقل بالتدرج حتى يتحوَّل لبُّ النجم إلى حديد. والتفاعل النووي قبل تكوُّن ذرات الحديد هو تفاعل مُنتج للحرارة التي تصل إلى بلايين الدرجات المئوية، ولكن عملية الاندماج النووي المنتجة للحديد عملية مُستهلكة للحرارة، وبالتالي

(1) - ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن. ص: 27 / 3445.

(2) - زغلول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. 66/4.

لطاقة النجم حتى تضطره إلى الانفجار، مما يؤدي إلى تناثر العناصر التي تكوّنت بداخله - بما فيها الحديد- في صفحة السماء لتدخل هذه العناصر في مجال جاذبية أجرام تحتاج إليها بتقدير من الله "تعالى". أما العناصر ذات النوى الأثقل من ذرة الحديد فتتخلق بإضافة اللبنة الأولية للمادة إلى نوى ذرات الحديد السابحة في صفحة السماء، حتى تتكوّن بقية العناصر المعروفة لنا، والتي يزيد عددها على المائة عنصر وهذه أيضا تنزل إلى جميع أجرام السماء بقدر معلوم. ولما كان عنصر النحاس أعلى من الحديد في كل من وزنه و عدده الذري " الوزن الذري لنظائر الحديد 54 و 56 و 57 والوزن الذري للنحاس 63.546 والعدد الذري للحديد 26 بينما العدد الذري للنحاس 29؛ وبناء على ذلك فإن عنصر النحاس يتخلق في صفحة السماء الدنيا باندماج نوى ذرات الحديد مع بعض اللبنة الأولية للمادة، وهذا يجعل صفحة السماء الدنيا زاخرة بذرات العناصر الثقيلة، ومنها النحاس.

هذه الملاحظة تشير إلى أن لفظة "نحاس" في الآية الكريمة تعني فلز النحاس؛ لأنّ التأويل هنا لا داعي له على الإطلاق، فالنحاس وهو منصهر وتغلي قطراته في صفحة السماء يُعدُّ عقابًا رادعا لكلِّ محاولة لاختراقِ أقطارِ السماوات والأرض»<sup>(1)</sup>.

كما وجد العلماء أنّ هناك نيازك تنوهج باللون الأخضر لدى احتراقها على حدود الغلاف الجوي؛ بسبب وجود عنصر النحاس في تركيب هذه النيازك، والذي ينصهر ويتبخّر أثناء احتكاك النيزك بالغلاف الجوي نتيجة لسرعته الهائلة.

والشواظ- والذي يعني اللهب الذي لا دُخان فيه-، كلمة تُعبّر بدقّة عن الصورة والحالة التي يكون عليها اللهب في السماء؛ فتشكّل الدُخان يحتاج للأكسجين، والفضاء الخارجي كما نعلم لا يوجد فيه أكسجين وبالتالي لا يتشكّل الدُخان، بل تتشكّل شرارة نارية عفيفة أشبه بإعصار ناري نتيجة ذوبان وتبخّر النحاس، فللدُخان الذي نعرفه يتركّب أساسًا من أول وثاني أكسيد الكربون، ومركبات أخرى يدخل الأكسجين في تركيبها<sup>(2)</sup>.

(1) - زغلول راغب محمد النجار: الأرض في القرآن الكريم- من آيات الإعجاز العلمي. دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ-2005م، ص:347.

(2) - ينظر: عبد الدائم الكحيل: الإعجاز في الكون: نحاس في السماء - موسوعة الكحيل للإعجاز العلمي.

وبالتالي فهذه الحقيقة العلمية، وهي أنه يوجد عنصر النحاس في الفضاء الخارجي وأنه من أشد أنواع العذاب. وأن لفظة (شواظ) وهي مناسبة جداً للتعبير عن احتراق النحاس في الفضاء الخارجي حيث لا يوجد أكسجين مما يولد كرة نارية ملتهبة من دون دخان كالذي نعرفه على الأرض، قد أشار إليها القرآن الكريم قبل ألف وأربعمائة سنة في هذه الآية المعجزة: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصَرَانِ﴾ [الرحمن: 35].

إذاً لفظة ﴿شَوْاظٌ﴾ في سياق هذه الآية شكّلت المحور الرئيس فيها وكشفت عن هذه الدلالة العلمية العظيمة. فهي من الألفاظ الفريدة التي لا أشباه لها ولا نظائر؛ لم يرد ذكرها في النصّ القرآني إلا مرة واحدة وبصيغة واحدة. وإذا ما بحثنا عن دلالة سياقها المعجمي، نجد أن اللغويين والمفسرين ذكروا عدّة وجوه لمعناها، يمكن إيجازها في ما يأتي:

أ- شَوْظٌ في المعاجم: الشّين والواو والظاء كلمة واحدة صحيحة، وقد اتفقت المعاجم القديمة والحديثة في معناه على أنه؛ الشّواظُ والشّواظُ: (بضمّ الشّين وكسرهما) اللّهبُ الذي لا دُخانَ فيه، أو دُخانُ النَّارِ وحُرّها، وحُرّ الشمسِ.

وقيل: الشّواظُ قطعة من نار ليس فيها دُخان.

وقيل: الشّواظُ لهب النَّارِ ولا يكون إلا من نار وشيءٍ آخر يخلطه<sup>(1)</sup>.

ب- شَوْاظٌ في التفاسير: نقل المفسّرون عن أهل التّأويل أربعة أوجه في تأويل دلالة "شَوْاظٌ":  
الأول: اللّهبُ الذي لا يُخالطه دُخانٌ - أي الذي لا دُخانَ له - لأنّه قد كَمَلَ اشتعالُهُ وذلك أشدُّ إحراقاً. وهذا قول ابن عباس وغيره<sup>(2)</sup>.

الثاني: اللّهبُ الأخضرُ المنقطعُ من النَّارِ، وهذا قول مجاهد<sup>(3)</sup>.

الثالث: هو الدُّخانُ الذي يخرج من اللّهبِ ليس بدخان الحطبِ. وهذا قول الضّحّاك وسعيد

بن جبّير<sup>(4)</sup>.

الرابع: النَّارُ والدُّخانُ جميعاً، وهذا قول أبو عمرو وحكاة الأَخفش عن بعض العرب<sup>(5)</sup>.

(1) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. 446/7. مادة: شوظ. وينظر: ابن فارس: مقاييس اللّغة. مادة: شوظ. وينظر:

الفيروز آبادي: معجم القاموس المحيط. ص: 717. مادة: شوظ.

(2) - ينظر: ابن عاشور محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1984م، 260/27.

وينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 140/20.

(3) - ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 141/20.

(4) - ينظر: المصدر نفسه. 141/20.

(5) - ينظر: المصدر نفسه. 141/20.

وعليه، فملاحظ مما سبق أنه تعددت الأقوال في توجيه دلالة "شواظ" لدى اللغويين والمفسرين، غير أن لفظة ﴿شَوَاطٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَمُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ﴾ تحمل من الدلالة ما يتناسب وسياقها؛ فهي تدل على اللهب الذي لا دخان له. وهذا التفسير يلتقي ويتفق مع المفهوم العلمي لهذه الآية الذي أشرنا إليه قبل قليل؛ وهو أن اللهب في السماء لا دخان له، فتشكّل الدخان يحتاج للأوكسجين، والفضاء الخارجي لا يوجد فيه أكسجين لذا فلا يمكن للدخان أن يتشكّل. وبالتالي فلفظة ﴿شَوَاطٍ﴾ أبلغ وأدق في الوصف من أيّ لفظ آخر؛ حيث أنّ أي كلمة أخرى لا تسدّ مسدّ هذه الكلمة في دلالتها على ذلك المعنى.

هذا عن دلالة السياق المعجمي لهذه اللفظة أمّا إذا بحثنا عن دلالة سياقها الصوتي نجد أن أصوات هذه المادة - شواظ - تُحاكي معناها وتُوحى بدلالاتها اللغوية والعلمية على السواء، وترسم صورتها في ذلك المقام الذي يصف ببلاغة صورة اللهب المستعر في طبقات الجو العليا المحيطة بالأرض أو بالغلّاف الجوّي المحيط بها

فالملاحظ أنّ أصوات هذه المادة تُوحى بالقوّة والانتشار، فصوت الشين صوت رحو مهموس مُستفل ومُنفتح، وصفه الدارسون بالتفشي، فعند النطق به: « يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة فلا يُحرك الوترين الصوتيين، ثمّ يتخذ مجراه في الحلق ثمّ القم، مع مراعاة أن منطقة الهواء في القم عند النطق بالشين أوسع منها عند النطق بالسّين، فإذا وصل الهواء إلى مخرج الشين وهو عند التقاء أول اللسان وجزء من وسطه بوسط الحنك الأعلى، فلا بدّ أن يترك التقاء العضوين بينهما فراغاً ضيقاً يُسبب نوعاً من الصّفير أقل من صفير السّين؛ وذلك لأنّ مجرى السّين عند مخرجها أضيق من مجرى الشين عند المخرج، ويلاحظ عند النطق بالشين أنّ اللسان كله يرتفع نحو الحنك الأعلى كما أنّ الأسنان العليا تقترب من السفلى، غير أنّ نسبة هذا الاقتراب أقلّ منه في حالة النطق بالسّين»<sup>(1)</sup>.

وهذا الاتساع والتفشي في الهواء يُوحى بانتشار وتشتت وتفرّق تلك الشظايا من اللهب المرسلة من السماء، كما أنّ ذلك الصّفير يُوحى بما لهذه النار من صوت عند تساقطها.

ثم يلحق الشين صوت اللين المتبوع بالصّائت الطويل الذين يزيدا من التصعيد، ليدلاً معاً على مدى هذا الاتساع في انتشار تلك الشظايا المتناثرة<sup>(2)</sup>.

(1) - إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: 78.

(2) - ينظر: مصطفى شعبان المصري: من الإعجاز اللغوي في القرآن. ص: 101.

ثم يأتي صوت الظأ الذي وصفه اللغويون بأنه صوت مجهور ، مُستعل، مُطبق، رُخو، يتكوّن بأن يندفع معه الهواء ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين، ثم يتخذ الهواء مجراه في الحلق والقم حتى يصل إلى مخرج الصوت، وهو بين طرف اللسان وأطراف الشايبا العليا، وهنا يضيق هذا الجرى فنسمع نوعاً قوياً من الحفيف. وعند النطق به ينطبق اللسان على الحنك الأعلى آخذاً شكلاً مُقعرًا<sup>(1)</sup>. فكأنه يرسم حالة التشتت والتفرق الانفجاري الشديد جداً لتلك الشظايا، ثم ليشعر بهذا الثقل والإطباق، وكأن النار تُطبق على من تُرسل عليه وتُحيط به، فلا يستطيع الإفلات منها<sup>(2)</sup>.

إذا فالسباق الصوتي في هذ هالآتي وظف أصواتاً ذات صدى دلالي ، تشيع جوّاً خاصاً من المعاني، تتلاءم مع ما صوره القرآن الكريم من ظواهر كونية تحدث في أقطار السماوات والأرض.

(1) - ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص:47.

(2) - ينظر: مصطفى شعبان المصري: من الإعجاز اللغوي في القرآن. ص:101.

## المطلب الثاني: دلالة التكرار الصوتي

## 1- دلالة تكرار أصوات لفظ "صرصر" في آية خلق الريح وأنواعها

من الظواهر الصوتية الأخرى التي نجدها في آيات الإعجاز العلمي في خلق السماء والأرض ظاهرة التكرار الصوتي؛ أي تكرار الصوت في اللفظ الواحد أو في ألفاظ متتابعة، ومن بديع استعمال هذه الألفاظ ما نراه من استعمال لفظ "صرصر" في تصوير خلق الريح في سياق قصة عاد قوم سيدنا هود في القرآن الكريم .

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ مُنْقَلَبَةٌ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: 6-8]. وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١١﴾ تَزْعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ مُنْقَلَبَةٌ ﴿١٢﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٣﴾﴾ [القمر: 19-21]. وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْحَزَنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿١٤﴾ وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: 16].

لقد بعث الله لقوم عاد نبياً منهم اسمه هود (عليه السلام)، يدعوهم لعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام فرفضوا الاستجابة له، فأنزل عليهم عقاباً ربانياً ريحاً صرصرًا عاتية. وقد تكررت قصة قوم عاد وتوزعت على سور متنوعة، منها سورة هود، وفصلت، والعنكبوت، وإبراهيم. وفي هذه الآيات الكريمة تصوير لذلك المشهد الطبيعي، الذي تحوّل إلى عقاب رباني لقوم عتوا وتجبروا فوق الأرض، وهو مشهد الريح الصرصر الباردة العاتية التي تقضي على الأخضر واليابس، وهذه الريح الشديدة استمرت سبع ليالٍ وثمانية أيام، متتابعة مستمرة حتى قضت عليهم ولم تبق منهم أحدًا، بل وجعلتهم كأعجاز نخل حاوية فارغة.

فالسِّياق العام لهذه الآيات يصف إحدى أنواع الريح وهي الريح الصرصر، فقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز أنواعاً عدّة للريح، وهي نفسها الأنواع التي كشف عنها علم الأرصاد الحديث؛ فقد قام علماء الفيزياء الجوية بقياس قوة الريح وفق ما يعرف بمقياس بيפורت، وقسموها وفق شدتها وآثارها إلى أنواع مختلفة، ولقد خصّ القرآن كل نوع منها بوصف إلهي في إعجاز علمي رائع. وفي ما يأتي يمكن ذكر أنواع الريح وقوتها حسب العلم الحديث وما يقابلها من وصف قرآني معجز بإيجاز (1):

(1) - ينظر: منصور محمد حسب النبي: الرياح نعمة ونعمة، سلسلة: الكون كتاب الله المنظور آيات ودلالات. دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 2010م، 16/4-17.

- 1- الريح الساكنة: وهي ريح لا تؤثر حتى على دخان المصانع، وقوتها صفر، وصفها في القرآن: ساكنة، قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَالِي ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى:33].
- 2- الريح الطيبة: وتسمى النسيم، قوتها واحد، وسرعتها: 4,4 متر/الثانية، تحرك أوراق الشجر وتنشر الأعلام، وصفها في القرآن: طيبة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:22].
- 3- النسيم النشط: وتسمى الريح النشيطة قوتها اثنان، وسرعتها: 9,3 متر/الثانية ، تهز الأشجار الصغيرة، وصفها في القرآن: مبشرات لواقح، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر:22]. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الروم:46].
- 4- النسيم القوي الشديد: وتسمى الريح الشديدة وقوتها ثلاثة ، وسرعتها: 12,4 متر/الثانية، تحرك فيها أغصان الأشجار، وصفها في القرآن: شديدة، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم:18].
- 5- العاصفة المعتدلة: قوتها أربعة، سرعتها: 15,5 متر/الثانية، تهز الأشجار بأكملها وصفها في القرآن: قاصف، قال تعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ [الإسراء:69].
- 6- العاصفة الناهضة: وقوتها خمسة، وسرعتها: 18,9 متر/الثانية ، تكسر الأغصان الصغيرة، وصفها في القرآن: قاصف، قال تعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ [الإسراء:69].
- 7- العاصفة الشديدة: وقوتها ستة، وسرعتها: 22,6 متر/الثانية، تتلف بعض المنشآت، وصفها في القرآن: عاصف، قال تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس:22].
- 8- العاصفة الهوجاء: وقوتها سبعة، سرعتها: 26,4 متر/الثانية ، تقلع الأشجار وتهدم المباني، وصفها في القرآن: عاصف، قال تعالى: ﴿وَلَسَلِيمَنَّ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ [الأنبياء:81].
- 9- الزوبعة: وقوتها ثمانية، سرعتها: 30,5 متر/الثانية ، تتلف مساحات شاسعة، وصفها في القرآن: الصرصر العاتية، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:6].
- 10- الإعصار: وقوته تسعة، سرعته: 34,8 متر/الثانية، وصفها في القرآن: عاتية، السند القرآني، ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:6].

فالرياح الصَّصر العاتية حسب العلم الحديث صنفت من أكثر الظواهر الطبيعية خطورة ورعباً، فهي الرياح العاصفة المتعدية والزوبعة الهوجاء المتجاوزة لكل الحدود، تتراوح سرعتها بين 90 إلى 120 كم/الساعة، تكون شديدة البرودة وعالية الصوت تتلف مساحات واسعة من المباني وتقتل البشر<sup>(1)</sup>.

لقد وردت صيغة "صرصر" في النظم الحكيم في ثلاثة مواضع - فصلت: 16، والقمر: 19، والحاقة: 6- وكانت جميعاً في معرض الحديث عن عذاب قوم عاد، و في دلالتها السياقية والمعجمية ذكر المفسرون، واللغويون ثلاثة أوجه لمعناها، يمكن إيجازها في يأتي:

أ- الصَّصر: شدة البرد، يقال: ريحٌ صرٌ وصرصرٌ: شديدة البرد، ويقال أصلها صررٌ من الصرر فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل، كقولهم: كبكبوا، أصله كبيوا، وتجنَّف الثوب، أصله تجنَّف<sup>(2)</sup>. يقول الزجاج: «والصَّصر شدة البرد وصرصر متكرر فيها البرد، كما تقول قد قلقت الشيء، وأقلقت الشيء إذا رفعته من مكانه، إلا أن قلقته رددته أي كررت رفعه وأقلقته رفعته، فليس فيه دليل تكرير، وكذلك صرصر وصرر وصلصل، وصل. إذا سمعت صوت الصرير غير مكرراً قلت قد صرر وصل، فإذا أردت أن الصوت تكرر قلت: قد صلصل، وصرصر»<sup>(3)</sup>. ويقول الرازي: الصرصر «الباردة من الصرر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر، فهي تحرق بشدة بردها»<sup>(4)</sup>.

ب- الصَّصر: شدة الصوت، يقال: ريحٌ صرٌ وصرصرٌ: شديدة الصوت، ويُقال: صررٌ يصررٌ صرراً وصريراً وصرصر: صوت وصاح اشد الصياح. وصرصر الطائر: صوت. ويُقال: صرر العصفور يصرر إذا صاح. وصرر الجندب يصرر صريراً وصرر الباب يصرر. وكل صوت شبه ذلك، فهو صريرٌ إذا امتد<sup>(5)</sup>. يقول الزمخشري: «الصَّصر: العاصفة التي تصرصر، أي: تصوت في هبوبها»<sup>(6)</sup>. ويقول القرطبي: " ريحٌ صرصرًا أي: «ريحاً شديدة البرد و شديدة الصوت والهبوب [...] وقال السدي: الشديدة الصوت. ومنه صرر القلم والباب يصرر صريراً أي صوت»<sup>(7)</sup>.

(1) - ينظر: منصور محمد حسب النبي: الرياح نعمة ونقمة. 12/4-13.

(2) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة: "صرر". وينظر: الجوهري: الصحاح. مادة: "صرر".

(3) - الزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السري ت311هـ: معاني القرآن وإعرابه. شرح وتحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتاب: بيروت، لبنان. ط1، 1408هـ- 1988م، 214/5.

(4) - فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 103/30.

(5) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة: "صرر".

(6) - الزمخشري: الكشاف. 376/5.

(7) - القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 401/18-402.

ج- الصَّرَصَر: شدة الحركة والهبوب، فالرَّيْح الصَّرَصَرُ هي الرِّيح العاصفة الشَّديدة الهبوبِ والعصفوف يقال: عتت على خزانها في الهبوب، فتجاوزت في الشدة والعصفوف مقدارها المعروف في الهبوب والبرد<sup>(1)</sup>. يقول ابن عاشور: « الصَّرَصَر: الرِّيح العاصفة التي يكون لها صرصرة، أي دويٌّ في هبوبها من شدة سرعة تنقلها، وتضعيف عينه للمبالغة في شدتها بين أفراد نوعها كتضعيف ككب للمبالغة في كَبَّ. وأصله صَرَّ، أي صاح، وهو وصف لا يؤنث لفظه لأنه لا يجري إلا على الرِّيح وهي مقدرة التأنيث»<sup>(2)</sup>.

وبناءً على ذلك، فقد قيل في دلالة لفظة "صرصر" أنها شديدة الهبوب، وقيل الباردة، وقيل التي لها صوت شديد قويٌّ « والحقُّ أنَّها متَّصِّفةٌ بجميع ذلك، فإنَّها كانت ريحًا شديدة قويَّة؛ لتكون عُقوبتهم من جنس ما اغترُّوا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدًّا، كقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرَصِرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:6]، أي باردة شديدة، كانت ذات صوتٍ مُزعجٍ، ومنه سُمِّيَ النَّهْرُ المشهور ببلاد المشرق "صرصرًا" لقوة صوت جريه»<sup>(3)</sup>. فالتعبير بأَنَّها "صرصر" هكذا بتضعيف عينها مبالغة في وصف شدة هبوبها وصوتها وبردها، وما فيها من صوت قويٍّ شديد مرعب، يجسِّد مشهداً رهيباً لغضب الرِّب على أهل هذه الأرض.

ففي هذا اللفظ "صرصر" تكرر لصوت الصَّاد والرَّاء، وفي الصَّاد المطبق صغير عالٍ، وفي الرَّاء الاحتكاكي تكرر انفجاري، وذلك يوحي بشدة الرِّيح وقوَّة أصواتها العاتية، وتلاحقها واستمرارها وطول زمنها؛ فكأننا في هذه المادَّة نلمس « اصطكاك الأسنان، وترديد اللسان، فالصَّاد في وقعها الصَّارخ، والرَّاء المضعَّفة، والتَّكرار للمادة في صرصر، قد أضفا صيغة الشدَّة، وجسَّد صورة الرَّهبة، فلا الدَّفء بمستنزل، ولا الوقاية مُتيسرة، وذلك ما يهدُّ كيان الإنسان عند التماسه الملجأ فلا يجده، أو النِّجاة فلا يصل شاطئها، أو الوقاية من البرد القارس فلا يهتلبها»<sup>(4)</sup>؛ ولكننا إذا ما وضعنا أيدينا على الحسِّ الصَّوتي في اللُّغة، أعطانا دلالة صوتيَّة خاصَّة، مواكبة لسياق الحدث في هذا الصَّوت؛ فريحٌ صرٌّ وصرصرٌ شديدة البرودة، وقيل: شديدة الصَّوت، وصرٌّ وصرصرٌ: صوت الصَّرير<sup>(5)</sup>.

(1) - ينظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 209/23.

(2) - ابن عاشور محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. 259/24.

(3) - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 169/7.

(4) - محمد حسين علي الصغير: الصوت اللغوي في القرآن. دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ، 187/1.

(5) - ينظر: محمد حسين علي الصغير: الصوت اللغوي في القرآن. 187/1.

فجرس اللفظ يُصوّر نوع الرّيح وطبيعته وأثرها في هؤلآاء القوم، ليتّفق مع المقام، ويتناسب معه؛ فـ « المشهد مُفزع مُخيف، وعاصف عَنيف، والرّيح التي أرسلت على عاد "هي من جند الله" وهي قُوّة من قُوى هذا الكون، من خلق الله، تَسير وفق النَّاموس الكوني الذي اختاره؛ وهو يُسلّطها على من يشاء، بينما هي ماضية في طريقها مع ذلك النَّاموس، بلا تعارض بين خط سيرها الكوني، وأدائها لما تؤمر به وفق مشيئة الله صاحب الأمر وصاحب النَّاموس»<sup>(1)</sup>.

وعليه، ومّا تقدّم يبدو أنّ انتقاء لفظ "صَرَصَرَ" في سياق تلك الآيات جاء منسجماً مع معطيات ذلك السّياق، لما يحمله من إيحاء دلالي وعلمي، في الآن نفسه؛ حيث تعانقت الدّلالة اللّغوية المعجميّة مع الدّلالة العلميّة للفظ "صَرَصَرَ" في نوع الرّيح وشدّة صوتها وبردها وهبوبها، فلفظ "صَرَصَرَ" أبلغ وأدق وصف لهذا النوع من الرّيح من أيّ لفظ آخر. فضلاً عن تعانق دلالة السّياق الإيقاعي بالحقيقة العلميّة في تصوير مشهد رهيبٍ للغضب الإلهي على قوم عتوا وتكبّروا فوق الأرض؛ فتوافقت أصوات هذه اللفظة ومضمونها، بل وجاءت منسجمة مع معناها اللّغوي ومؤكّدة لدلالاتها العلميّة.

لذا فالوصف القرآني لهذا الصّنف من أصناف الرّيح بكلمة "صَرَصَرَ" في زمن لم يكن متوفراً فيه أيّة وسيلة من وسائل قياس قوة الرّيح وتصنيفها وفق شدّتها وآثارها يُعتبر أمراً معجزاً حقاً.

(1) - سيد قطب: في ظلال القرآن. دار الشروق، القاهرة، مصر، ط32، 1423هـ-2003م، 27 / 3431.

## 2- دلالة تكرار أصوات لفظ "زلزل" في آية حركة الأرض واهتزازها

وأيضاً من أمثلة ظاهرة التكرار الصوتي في آيات الإعجاز العلمي؛ لفظ "زلزل" في قوله تعالى واصفاً حركة الأرض واهتزازها وارتجاجها: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۗ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۗ﴾ (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۗ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ﴿الزلزلة: 1-6﴾، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ ۖ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَنَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿الحج: 1-2﴾.

فالسِّياق العام لهذه الآيات يُصوِّر مَشْهَدًا عَظِيمًا من مشاهد يوم القيامة التي تتنوع وتتعدد؛ وهو مشهد الأرض وما يحدث لها من اضطراب مهول وحركة عنيفة مُدمِّرة، « فالأرض في هذا اليوم تُرجَّحاً شديداً، وتُزلزل بما فيها من جبال وأناس، وأنَّ التَّعبير القرآني يَدْعُونَا إِلَى تَحْيِيلِ حَالِ النَّاسِ فِي هَذَا الْيَوْمِ لدرجة أنهم يَشْعُرُونَ بِزَلْزَلَةِ الْأَرْضِ مِنْ تَحْتِهِمْ، من هَوْلٍ وَشِدَّةٍ مَا يَرُونَهُ» (1).

فقد افتتحت سورة الحج بمشهد زلزالي مُرعب، يُصوِّر ما سيصيب النَّاسَ من هلع وفرع وخوف. فالأمواج الاهتزازية تضرب الأرض بقسوة ووحشية، والنَّاسُ يهيمون في العراء على وجوههم، ولقد أخذ منهم الرُّعب كل مأخذ، وجميعهم يطلب النِّجاة: الأم أَلْقَتْ أَغْلَى ما لديها وهو رضيعها، وهربت خوفاً على نفسها، وأجهضت ذوات الحمل. والنَّاسُ كالسكارى من هول الموقف ومن الدُّعر، وقد بهتوا ولا يدرون ما وقع وما يجب فعله وما سيحدث. فعكست آية الزَّلزلة في سورة الحج واقعتين (2)؛

الأول: نفسي، وهو ما أشار إليه كل علماء التفسير، والمتمثل بكلمات القرآن المعبرة عن حال الناس آنذاك.

والثاني: حسي، وهو ما يحدث في الزَّلزلة القويَّة المدمِّرة: الأرض تمور موراً شديداً وتضطرب بقوة.

أمَّا سورة الزلزلة التي قال عنها سيّد قطب أنَّها تُعدُّ « هَزَّةَ عَنيفَةٍ لِلْقُلُوبِ الْعَافِلَةِ، هَزَّةَ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمَوْضُوعُ وَالْمَشْهَدُ وَالْإِيْقَاعُ اللَّفْظِي، وَصِيْحَةٌ قَوِيَّةٌ مُزْلِزَةٌ لِلْأَرْضِ وَمِنْ عَلَيْهَا فَمَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ

(1) - عماد الدين مخلوف عبد الحلِيم: تأملات فنية في الآيات الكونية - دراسة جمالية وفق نظرية التصوير الفني في القرآن الكريم. المكتبة العصرية للنشر والتوزيع. المنصورة، مصر، ط1، 2017م، ص 92.

(2) - ينظر: أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 326.

حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء في بضع فقرات قصار ! وهذا هو طابع الجزء كله، يتمثل في هذه الصورة تمثلاً قوياً<sup>(1)</sup>. ففي سورة الزلزلة نرى لوحتين مرتبطتين ببعضهما البعض<sup>(2)</sup> :

الأولى: ظاهرة الزلزلة والرجفة التي تنتاب الكرة الأرضية يوم القيامة، وكلمة "إذا" هنا تجمع ما بين معنى الظرفية والمباغلة والمفاجئة، وذلك لأن الزلازل تتم دون علم الناس ودون سابق إنذار، وأمل الناس الآن معرفة زمن وقوعها معرفة واحدة محددة.

أما اللوحة الثانية: فإنها بلا شك نتاج الأولى أي الزلزلة وتُصوّر لنا أن الأرض ستخرج أنقالها من باطنها إلى سطح الأرض الخارجي. ولقد أجمع جلّ المفسرين تقريباً بأن المقصود بجملة:

﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا ﴾؛ إنما يقصد به بعث وخروج الموتى من أجدانهم ويرافق ذلك خروج الكنوز المدفونة تحت الأرض.

ومن المثير للتأمل والتدبر أن سورة الزلزلة قد أوردت إشارات علمية في غاية الأهمية، لم يتوصّل العلم إليها بشكل قطعي، إلا في منتصف هذا القرن، وبعد تجميع هائل لكمّ من القياسات والبيانات من كافة أنحاء العالم، استخدم في الحصول عليها أدقّ الأجهزة العلمية وأكثرها حساسية، وما كان يمكن لبشر في زمن النبي محمد ﷺ أن يصل إلى أيّ منها، وهذه الإشارات العلمية هي<sup>(3)</sup> :

- الرّبط بين ظاهري الزلازل والبراكين.

- مكوّنات جوف الأرض أثقل من مكوّناتها السطحية.

- أن لزلازل أصوات.

وفيما يأتي سنتحدّث - بإيجاز - عن هذه الإشارات العلمية في سورة الزلزلة، وإبراز الإعجاز

العلمي فيها، ولكن قبل ذلك يجدر بنا أن نعرّف الزلزال عند العلماء وآلية حدوثه.

يُعرّف العلماء الزلزلة " Earth - guakes " بأنها: حركة واضطراب في باطن الأرض أو هي هزّات سريعة خاطفة متلاحقة لسطح الأرض، لا تستغرق سوى بضع دقائق ينشأ عنها ضغط هائل، لا تحتمله قشرة الأرض، عندئذ تتصدّع هذه القشرة، وهذا التصدّع في قشرة الأرض هو الزلزال الذي نسمع إلى أخباره من حين إلى آخر، علماً أن هذه القشرة يزيد سمكها على تسعين كيلو متراً، وهي

(1) - سيد قطب: في ظلال القرآن. 3954 / 30.

(2) - ينظر: أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 323.

(3) - ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهنية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 253.

من صخور البازلت، وهذه الصخور من أقسى أنواع الصخور، ومع ذلك تتصدع<sup>(1)</sup>. وتحدث الزلازل نتيجة التفاعلات النووية في باطن الأرض، أو نتيجة المحورية للأرض، وتجمع المواد المشعة في جوفها وإعادة توازن القشرة الأرضية<sup>(2)</sup>، أو نتيجة انزلاق واصطدام الألواح الأرضية بعضها ببعض، أو نتيجة للبراكين أو نتيجة للنشاطات البشرية المدمرة مثل التجارب النووية<sup>(3)</sup>.

ولقد توصل علماء الجيولوجيا (Géologie - علم طبقات الأرض) بعد دراسة طويلة ومعقدة إلى أن هناك علاقة متينة مترابطة بين الزلازل والبراكين، فمرة يكون الزلزال بسبب تحريك الكتل الملتهبة، وضغطها على قشرة الأرض، فيكون الزلزال نتيجة هيجان الكتل المحمومة في باطن الأرض، ومرة يكون الزلزال سبباً للبركان، على كلٍ فهناك علاقة مترابطة بين الزلازل والبراكين، ثم اكتشف العلماء أن الحمم في باطن الأرض لها وزن نوعي مرتفع جداً. والملاحظ أن هذين الحقيقتين العلميتين وهما: الرّبط بين ظاهري الزلازل والبراكين، وأن مكونات جوف الأرض أثقل من مكوناتها السطحية، قد أشار إليهما الله عز وجل في قوله تعالى:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۗ﴾ (4)

وأيضاً من الحقائق العلمية الأخرى التي توصل لها علماء الجيولوجيا هو أن للزلزال صوت؛ فقد اكتشف العلماء أن كل زلزال يصدر ترددات صوتية قيمتها أقل من 20 هرتز، وهذه الترددات لا يسمعها الإنسان، إنما تسمعها بعض الحيوانات. فنرى أن الأرض تخرج شيئاً من الحمم البركانية المنصهرة والثقيلة كل فترة، حتى تصل الأرض إلى مرحلة يشتد فيها الضغط الداخلي كثيراً وتقذف ما يبطنها من أثقال "حجارة ثقيلة" وتصدر الترددات الصوتية التي لا نفهمها نحن اليوم ولكننا قد نفهمها يوم القيامة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ﴾ (5) يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُهَا ۗ

إذن فهناك علاقة مؤكدة بين الزلازل وبين الصوت الذي تصدره، وربما نرى لهذا الأمر إشارة في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۗ﴾ (6) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُهَا ۗ أَخْبَارَهَا ۗ﴾ (5).

(1) - ينظر: محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة - آيات الله في الآفاق. ص: 163.  
(2) - ينظر: ماهر أحمد الصوفي: الموسوعة الكونية الكبرى. تقديم: محمد سعيد رمضان البوطي وآخرون، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 1429هـ-2008م، 177/13.  
(3) - ينظر: عبد الداعي الكحيل: www.kaheel7.com  
(4) - ينظر: محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة - آيات الله في الآفاق. ص: 165-166.  
(5) - ينظر: عبد الداعي الكحيل: www.kaheel7.com

فهذه الحقائق العلمية وهي: الرّبط بين الزلازل والبراكين، ووصف ما في باطن الأرض بالأتقال، لأنّ وزنها النوعي مرتفع جدًّا، وأنّ الأرض تصدر تردّدات صوتيّة لدى حدوث الزلازل، حقائق علميّة لم يتوصّل لها العلم إلّا حديثًا؛ قد أشار إليها الله عزّ وجلّ قبل أربعة عشر قرنًا في سورة الزلزلة في إعجاز علمي مبهر.

وعليه، فهذه الألفاظ ﴿زَلَّاهَا﴾ ﴿أَثْقَلَهَا﴾ ﴿أَخْبَرَهَا﴾ في سياق هذه الآيات شكّلت المحور الرّئيس فيها وكشفت عن هذه الدّلالة العلميّة العظيمة في سورة الزلزلة. وإذا ما بحثنا عن دلالة السّياق المعجمي للفظ "زلزلة أو زلزال"، نجد أنّ اللّغويين والمفسّرين ذكروا عدّة وجوه لمعناها، يمكن إيجازها في ما يأتي:

أ- الزّاء واللّام أصلٌ مُطَرِّدٌ مُنْقَاسٌ في المُضَاعَفِ، وكذلك في كُـلِّ زَاٍ بعدها لامٌ في الثّلاثيِّ. وهذا من عَجِيبِ هَذَا الْأَصْلِ. تَقُولُ: زَلَّ عَنْ مَكَانِهِ زَلِيلًا وَزَلًّا، وَتَزَلَّزَلَتِ الْأَرْضُ: اضْطَرَبَتْ، وَزَلَّزَلَتْ زِلْزَالًا<sup>(1)</sup>.

ب- الزّلزلة والزّلزال: تحريك الشّيء، وقد زلّله زلزلةً وزلزالًا، والاسم الزّلزال وزلزل الله الأرض زلزلةً وزلزالًا بالكسر فتززلزلت هي<sup>(2)</sup>.

ج- الزّلزلة: التّخويف والتّحذير ومنه قوله تعالى: ﴿وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَأَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214]؛ أي خَوْفُوا وَحَدَّرُوا<sup>(3)</sup>.

د- الزّلزال: الشّدائد والأهوال، قال عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانٍ:

فقد أظلتك أيام لها خمسٌ فيها الزّلزال والأهوال والوهل<sup>(4)</sup>

ه- الزّلزلة: «التّحريك الشّديد والإزعاج العنيف بطريق التّكرير بحيث يُزيلُ الأشياء من مقارّها ويُجرّجها عن مركزها»<sup>(5)</sup>.

إذن فالمادة اللّغوية "زلّ أو زلّ" تحمل عدّة دلالات؛ منها دلالات مادّيّة ملموسة: كتّحريك الشّيء واضطرابه. ودلالات معنويّة محسوسة: كالشّدائد والأهوال. ودلالات مجازيّة مستعارة، نحو:

(1) - ينظر: ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: (زل).

(2) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة (زلل).

(3) - ينظر: المصدر نفسه. مادة (زلل).

(4) - ينظر: المصدر نفسه. مادة (زلل).

(5) - الألويسي (البغدادي أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دط، دت، 110/17.

«زَلَّ في قوله ورأيه زَلَّةٌ وزَلَّلا. وأزَلَّهُ الشَّيْطَانُ عن الحق واستزَلَّهُ. وزَلَّ من الشَّهْر كذا: مضى. وزَلَّ الفرس زَلِيلًا: أسرع»<sup>(1)</sup>.

ولقد ورد الفعل "زلزل" بمشتقاته ستة مرات في كتاب الله عز وجل وبدلالات مختلفة؛ فقد جاء مرة اسمًا بصيغة "زَلَّزَلَة" ﴿إِنَّ زَلَّزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:1]. ومرتين اسمًا بصيغة "زَلَّزَال" ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:11]، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:1]. وثلاث مرات فعلاً - ماضي - من الثلاثي المجرد ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:213]، ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:11]، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:1]<sup>(2)</sup>.

وفي دلالة لفظة ﴿زُلْزِلَتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:1]. يقول ابن عاشور: «معنى ﴿زُلْزِلَتِ﴾: حُرِّكَتْ تحريكاً شديداً حتى يُجَيَّلَ للنَّاسِ أُنْهَى خَرَجَتْ مِنْ حَيِّزِهَا لِأَنَّ فعل زلزل مأخوذ من الزلزل وهو زلق الرجلين، فلما عنوا شدة الزلزل ضاعفوا الفعل للدلالة بالتضعيف على شدة الفعل كما قالوا: كَبَّبْكَه؛ أي كَبَّه، وَلَمَلَمَ بِالْمَكَانِ مِنَ اللَّمِّ»<sup>(3)</sup>. والملاحظ أن هذا التفسير اللغوي يلتقي ويتفق مع المفهوم والتفسير العلمي للزلزال أو الزلزلة المتفق عليه عند جُلِّ العلماء في أن الزلزلة عبارة عن حركات واضطرابات شديدة متلاحقة لسطح الأرض، ناتجة عن انزلاق واصطدام الألواح الأرضية بعضها ببعض.

وفي حقيقة الأمر ما كان لهذه الكلمة أن تحمل من هذه الدلالة اللغوية ومن هذا المفهوم العلمي إلا لما تميَّز به من خصائص وصفات في بنيتها الصوتية؛ فإنَّ أوَّل ما يلاحظ من هذه الآيات ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾<sup>(1)</sup> وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا<sup>(2)</sup> وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا<sup>(3)</sup> يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا<sup>(4)</sup> بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة:1-5]، أن كلمة ﴿زُلْزِلَتِ﴾ «تحاكي حركة الزلزلة بما فيها من هزٍّ وتحريكٍ مُتتابعٍ يقتضي التكرار لهذه العمليَّة، وكذلك يأتي الفعل "زلزل" مُكرراً المقطع "زل" ليصوِّر ذلك الحدث ويحاكيه بتركيبه الصوتي»<sup>(4)</sup>.

(1) - الزمخشري: أساس البلاغة. ص: 324. مادة ( زلزل ).

(2) - ينظر: موقع المجمع القرآني العربي وبرنامج فهرس جذور كلمات القرآن. مادة ( زلزل ). <https://corpus.quran.com>.

(3) - ابن عاشور محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. 490/30.

(4) - عبد الحميد هندراوي: الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم. ص: 64.

كما أنّ أصوات هذه المادّة - زلزل - تُحاكي معناها وتُوحى بدلالاتها وتُرسم صورتها في ذلك المقام، فصوتي الزّاي واللّام - بخصائيهما وصفاتهما - في هذه الكلمة يَحْمَلان من الدّلالة ما يتلاءم وسياق الآية وحركة الأرض واضطرابها في ذلك اليوم المشهود.

فأبرز صفات الزّاي الجهر والصّفير والرخاوة والاستفال والانفتاح <sup>(1)</sup>، فعند التّطرق بها يندفع الهواء من الرّئتين ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصّوتين، ثم يتّخذ مجراه من الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج وهو التقاء أوّل اللّسان بالثّنايا السّفلى أو العليا بحيث يكون بين اللّسان والثّنايا مجرى ضيق جدّاً يندفع خلاله الهواء فيحدث ذلك الصّفير العالي <sup>(2)</sup>.

فصفة الجهر في صوت الزّاي تُشعرك بتلك الحركة العنيفة للأرض والاضطرابات التي تكون عليها. أمّا صفة الصّفير فيه - حيث أنّ عند التّطرق الزّاي يُصدر صوتاً يشبه الصّفير -، تؤكّد تلك الحقيقة العلميّة التي توصل إليها علماء الجيولوجيا والتي أشرنا إليها قبل قليل وهي أنّ للزلزال صوت؛ فحين وقوع الزّلال تصدر الأرض تردّدات صوتيّة، وإن كانت هذه التّرددات لا يسمعها الإنسان، فإنّ بعض الحيوانات تسمعها.

أمّا صوت اللّام فتتّصف بنفس صفة الزّاي - من حيث الجهر والاستفال والانفتاح - فضلاً عن صفة الانحراف، إذ عند نُطقها يعتمد طرف اللّسان على أصول الثّنايا العُليا، بحيث تنشأ عقبة في وسط الفم مع ترك منفذ للهواء عن إحدى حافتي اللّسان، أو عن حافتيه، يرفع الحنك الأعلى فلا ينفذ الهواء عن طريق الأنف، يتذبذب الوتران الصّوتيان، فتشعر بالاهتزاز والاضطراب نفسه، إضافة إلى ما يُوحى به ذلك الانحراف من إطباق على الأرض من حافتيها، فيزيد من شدّة حركتها، ثم هذا التّعاقب والتّكرار الصّوتي الزّاي واللّام ليس يُوحى بتوالي هذه الحركة العنيفة وتتابعها، كل ذلك اجتمع في لفظ واحد بصوته المتكرّرين؛ ليشعرنا بالحالة التي تكون عليها الأرض إذا ما جاء يوم القيامة، وزلزلت زلزالها <sup>(3)</sup>.

وما يُلاحظ أيضاً أنّ هذه الهزّة العنيفة والصّيحة القويّة، وإخراج ما في جوف الأرض من

(1) - ينظر: مصطفى أكرور: مخارج وصفات الحروف العربيّة عند جمهور علماء التجويد. ص: 93.

(2) - ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: 77.

(3) - ينظر: مصطفى شعبان المصري: من الإعجاز اللغوي في القرآن. ص: 107.

أثقال، تظهر أيضا في فواصل هذه الآيات -وخصوصاً الآيات الخمس الأولى "1-5"؛ « حيث انتهت بالمقطع الطويل المفتوح "ها" والذي يُشبه أداة النداء، والذي تُمثل الفتححة الطويلة في آخره على درجات الوضوح السمعي الذي يتناسب تماما مع سياق الآيات، كما أنّ صوت "هـ" الحنجريّة قبل الفتححة الطويلة وما يمثّله من استنفاد الصّوت عند خروجه يُناسب ذلك المشهد الذي تُعبّر عنه الآيات»<sup>(1)</sup>؛ «حيث تُرّجف الأرض الثابتة ارتجافاً، وتُزلزل زلزالا، وتنفض ما في جوفها نفصاً، وتُخرج ما يثقلها من أجسادٍ ومعادنٍ وغيرها ممّا حملته طويلا. وكأَنَّها تُخفّف من هذه الأثقال، التي حملتها طويلا»<sup>(2)</sup>.

ومنه، ففي تكرار الصّوت في اللفظة القرآنيّة أو في ألفاظ متتابعة في سياق قرآني إسهام في إبراز المعنى المراد، وتصوير للموقف وإيحاء بما يدلُّ عليه، وذلك اعتمادا على ما يُشيعه الجرس الصّوتي من نغم.

(1) - عماد الدين مخلوف عبد الحلیم: تأملات فنية في الآيات الكونية. ص 88-89.

(2) - سيد قطب: في ظلال القرآن. 30 / 3954.

## المبحث الثالث:

## السياق الصرفي والحقائق العلمية في آيات خلق السماء والأرض

تؤدي التغيرات التي تحصل في بنية الكلمة، إلى تغيير في الدلالة، فكل زيادة في المبنى تفضي إلى زيادة في المعنى، وعلم الصرف وضع لدراسة « بنية الكلمات وأشكالها لا لذواتها، وإنما لغرض دلالي صرفي يفيد خدمة الجمل والعبارات»<sup>(1)</sup>.

ولهذا فالسياق الصرفي يهدف إلى: « دراسة المفردات لا بوصفها صيغاً أو ألفاظاً فقط وإنما بحسب ما فيها من خواص تفيد في خدمة الجملة أو العبارة»<sup>(2)</sup>، ومن أهم ما يدرسه الصرف السوابق واللواحق، والأوزان ودلالاتها والجموع بأنواعها والمشتقات... وكثيراً ما يقترن السياق الصرفي بالسياق النحوي لتفاعل الصرف والنحو في سياق واحد. وفي هذه الجزئية من البحث سنقف على بعض القرائن الصرفية والحقائق العلمية التي وردت في آيات الإعجاز العلمي في خلق السماء والأرض في القرآن الكريم، وإبراز أثرها في تحقيق المعنى وتوجيهه.

المطلب الأول: دلالة الإفراد والتثنية والجمع<sup>(\*)</sup>

قد يأتي اللفظ الواحد في النظم الحكيم على أكثر من شكل من حيث عدده فقد يرد في موضع مفرداً، وفي آخر مثني، وفي ثالث مجموعاً، فلكل من هذه الصيغ الثلاثة "المفرد، المثني، الجمع" مواضع مختلفة تبعاً لما يقتضيه السياق ويتطلبه. ومن أمثلة ذلك في آيات الإعجاز العلمي في خلق السماء وما تحتويه من أجرام وظواهر كونية، وفي خلق الأرض وبحارها وجبالها ما يأتي:

## 1- دلالة إفراد المشرق والمغرب وتثنيتهما وجمعهما في آية خلق الظواهر الكونية:

ففي إفرادهما كقول الله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: 9]، وفي

(1) - راجح بوحوش: البنية اللغوية لبردة البوصيري. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1993، ص: 83.

(2) - خليل خلف بشير العامري: السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني. مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، مجلد9، العدد:2، 2010م، ص: 47-48.

(\*) - ينقسم الاسم إلى مفرد، ومثني، ومجموع. فللمفرد: ما دلَّ على واحدٍ، كرجل و كتاب، أو ما ليس مثني ولا مجموعاً، ولا ملحقاً بهما، ولا من الأسماء الخمسة المبيّنة في النحو. **والمثني**: ما دلَّ على اثنين مُطلقاً، بزيادة ألف ونون، أو ياء ونون كرجلان، وكتابان، أو رجليين، وكتابين، فليس منه كلاً، وكتلتا، واثنان، واثنان، وزوج، وشفع، لأن دلالتهم على الاثنين ليست بالزيادة. أما **الجمع** ينقسم إلى ثلاثة أقسام: مذكر سالم ومؤنث سالم، وجمع تكسير. فجمع المذكر السالم: هو لفظ دل على أكثر من اثنين، بزيادة واو ونون، أو ياء ونون، كالزيدون والصالحون، والزيدين والصالحين. وجمع المؤنث السالم: ما دل على أكثر من اثنين، بزيادة ألف وتاء على مفردة، كالفاطمات وزينبات. وجمع تكسير: هو ما دل على أكثر من اثنين بتغيير صورة مفردة، تغييراً مقدراً كفلك، بضم فسكون، للمفرد والجمع، فزنته في المفرد كزنة قفل، وفي الجمع كزنة أسد. أو تغييراً ظاهراً، إما بالشكل فقط، كأسد بضم فسكون، جمع أسد بفتحيتين. وإما بالزيادة فقط، كصنوان في جمع صنو بكسر فسكون فيهما. وإما بالنقص فقط، كتحم في جمع تحمة بضم ففتح فيهما. وإما بالشكل والزيادة كرجال بالكسر، في جمع رجل بفتح فضم، وإما بالشكل والنقص ككتب بضمثين، في جمع كتاب بالكسر، وإما الثلاثة، كخلمان بكسر فسكون، في جمع غلام بالضم. ينظر: أحمد الحملاوي: شذا العرف في فن الصرف. تعليق: مصطفى السقا، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 1438هـ-2017م، ص: 81-86.

تنتيهما كقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَيَأْتِيءُ آيَةَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾ [الرحمن: 17-18]، وفي جمعهما كقوله: ﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المعارج: 40-41].

إنَّ السِّياق العام لهذه الآيات الثلاث يختلف من سياق إلى آخر، فالآية الأولى التي ذكر فيها المشرق والمغرب مفردين جاءت في القسم الأول من سورة المزمل، الذي يتحدث عن إحدى الظواهر العبادية وهي "قيام الليل" وما يرتبط بأمثلة هذا العمل العبادي من صلاة، وقراءة للقرآن الكريم أو من مطلق الذكر لله تعالى، يقول جلَّ ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمِلُ ﴿١﴾ قُرْ أَيْلًا لِأَقِيلًا ﴿٢﴾ نَصْفَهُ، أَوْ أَقْصُ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَبِّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَبَنِّتْ لَهُ بَنِينًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: 1-9]، فالله سبحانه وتعالى في سياق هذه الآيات يخاطب نبيه ﷺ ويأمره أن يترك الترميل - وهو التَّعْطِي في الليل - وينهض إلى قيام الليل، والصلاة، وترتيل القرآن، والذكر الخاشع المتبتل، والاتكال على الله وحده، فهو ربُّ المشرق والمغرب ولا معبود بحقِّ سواه<sup>(1)</sup>.

والآية الثانية التي ذكر فيها المشرقين والمغربين مثنيين جاءت في المقطع الأول من سورة الرحمن، الذي يستعرض آلاء الله ونعمه في الكون، يقول تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَكْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَيَأْتِيءُ آيَةَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾ فَيَأْتِيءُ آيَةَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَيَأْتِيءُ آيَةَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾ [الرحمن: 1-18]، فالخطاب في هذه الآيات موجّه للإنس والجنّ المكلفين بعبادة الله في هذه الدنيا، متحدّثًا فيه الله عزَّ وجلَّ عن الخلق والإبداع، ومعدّدًا للنعم والآلاء<sup>(2)</sup>. كنعمة القرآن وتنزيله وتعليمه، وخلق الإنسان وما يميّز به عن سائر الحيوان من البيان، ونعمة الكون وما فيه من شمس وقمر، ونجم وشجر... إلخ.

أما في الآية الثالثة التي ذكر فيها المشرق والمغرب بمجموعين فقد جاءت في المقطع الأخير من سورة المعارج، الذي يتحدث عن نهاية المكذبين وعن اليوم الآخر، وما يتصل به من حقائق وأهوال،

(1) - ينظر: محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم. مشهد مجمع البحوث الإسلامية، ط 1، 1424/ق/1382ش، (2004م-1424هـ)، 160/5. وسيد قطب: في ظلال القرآن. 3743/6. محمد متولي الشعراوي: مختصر تفسير الشعراوي. إعداد وتقديم: عبد الرحمن محمد متولي الشعراوي، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، مصر، دط، 3/380. (2) - ينظر: محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم. ص:425.

يقول تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِك مُهْطَعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ تُبَدَّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَنْصَرُهُمْ تَرَهَقْتُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿المعارج: 36-44﴾، فقد عرض سياق هذه الآيات مشهداً من مشاهد الدعوة في مكة، والمشركون يسرعون الخطى إلى المكان الذي فيه الرسول ﷺ يتلو القرآن، مستهزؤون بما يسمعون من وعد المؤمنين بالجنة ووعد المشركين بعذاب جهنم (1).

هذا عن السياق العام الذي وردت فيه تلك الآيات الثلاثة، لكن السؤال المطروح الآن ما تفسير تغير الصيغ الصرفية لهذين اللفظين من المفرد إلى المثنى إلى الجمع من سياق إلى آخر في التعبير القرآني؟ وما سبب ذلك؟ ولكن قبل أن نجيب عن هذا التساؤل، لابد أن نرجع للحديث عن الدلالة اللغوية لهذين الكلمتين ﴿الْمَشْرِقِ﴾ و﴿وَالْمَغْرِبِ﴾ في المعاجم العربية. ثم نتطرق إلى الحديث عن الدلالة الصرفية لهما في التعبير القرآني.

في الدلالة المعجمية لهذين الكلمتين ﴿الْمَشْرِقِ﴾ و﴿وَالْمَغْرِبِ﴾ نجد أن المادة اللغوية "شرق" في المعاجم العربية تعني الطلوع؛ فكل ما طلع من المشرق فقد شرق ويستعمل في الشمس والقمر والنجوم. يقال: شَرَقَتِ الشَّمْسُ تَشْرِيقًا شَرْقًا وَشَرْقًا: طَلَعَتْ، وَالشُّرُوقُ: طُلُوعُهَا. وَيَقُولُونَ: لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ مَا ذَرَّ شَارِقًا، أَي طَلَعَ، يُرَادُ بِذَلِكَ طُلُوعُ الشَّمْسِ. وَالْمَشْرِقَانِ: مَشْرِقًا الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ، وَالشَّرْقُ: الْمَشْرِقُ (2).

أما المادة اللغوية "غرب" فهي تعني: «الذهاب، والتنجي، وأول الشيء، وحده» (3). و«العروب: غيوب الشمس. غربت الشمس تعرب غروبًا ومُعَرَّبَانًا: غابت في المغرب؛ وكذلك غرَب النَّجْمِ، غَرَّبَ. وَمَغْرِبَانُ الشَّمْسِ: حَيْثُ تَعْرُبُ... والمغرب في الأصل: موضع الغروب ثم استعمل في المصدر والزمان، وقياسه الفتح، ولكن استعمل بالكسر كالمشرق والمسجد» (4).

وعليه، ومما سبق نلاحظ أن لفظتي المشرق والمغرب كلمتان متضادتان تستعملان للتعبير عن الحالة التي تكون عليها الشمس أو أي من النجوم، وأيضًا عن المكان التي تشرق منه أو تغرب.

(1) - ينظر: محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم. 116/5. وسيد قطب: في ظلال القرآن. 3702/6.

وإبن عاشور: تفسير التحرير والتنوير. 175/29.

(2) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة "شرق". وينظر: ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: "شرق".

(3) - ابن منظور: لسان العرب. مادة: "غرب".

(4) - الفيروزآبادي القاموس المحيط. ص: 941. مادة: "غرب".

ومَّا لاحظناه أيضا أنَّ هذه المعاجم اللُّغويَّة فسَّرت اللَّفْظتين مفردتين على أنَّهما موضع الشُّروق والغروب، ومُثْنَيْتَيْنِ على أنَّهما مشرقا أو مغربا الشِّتاء والصَّيف، لكن لم تتطرَّق إلى تفسير جمعهما. غير أنَّه في مفردات ألفاظ القرآن وجدنا أن الراغب الأصفهاني أشار للمقصود من إفرادها وتثنيتهما وجمعهما في القرآن الكريم في قوله: «المشرق والمغرب إذا قيلا بالإفراد وإشارة إلى ناحيتي الشَّرق والغرب، وإذا قيلا بلفظ التثنية وإشارة إلى مطلعي ومغربي الشِّتاء والصَّيف، وإذا قيلا بلفظ الجمع فاعتبار بمطلع كلِّ يوم ومغربه، أو بمطلع كلِّ فصل ومغربه»<sup>(1)</sup>.

وبالعودة إلى كتب التَّفاسير والدِّراسات القرآنيَّة ولاسيما لعلمائنا الأوائل كابن القيم وابن عاشور، والرازي، نجد أنَّهم فسَّروا سبب تغاير تلك الصِّيغ تفسيراً دقيقاً يربطها بسياقها العام في القرآن الكريم، وذكروا الحكمة من إفرادها وتثنيتهما وجمعها.

ففي سورة المزمل أفرد لفظ ﴿المشرق﴾ و﴿المغرب﴾ لأنَّه لما تقدَّم ذكر اللَّيْلِ، وما أمر الرُّسول به فيه من قيام اللَّيْلِ، وذكر النَّهار وما فيه من التصرُّف في مناحي العيش وحوائج النَّاس، عقب ذلك بذكر المشرق والمغرب اللذين هما مظهر اللَّيْلِ والنَّهار، فكان ورودهما مُفردين في هذا السِّياق أحسن من التثنية والجمع؛ لأنَّ ظهور اللَّيْلِ والنَّهار هما واحدٌ؛ فالنَّهار أبداً يظهر من الشَّرق، واللَّيْلِ أبداً يظهر من المغرب<sup>(2)</sup>.

وفي سورة الرحمن يرجع سبب تثنية لفظ ﴿المشرقين﴾ و﴿المغربين﴾ إلى أنَّ سياق السُّورة كلها سياق المزدوجين، فقد ذكر سبحانه وتعالى أوَّلاً نوعي الإيجاد وهما الخلق والتَّعليم، ثم ذكر سِرَاجِي العالم ومظهر نوره؛ وهما الشَّمس والقمر، ثم ذكر نوعي النَّبات؛ فإنَّ منه ما هو على ساق، ومنه ما انبسط على وجه الأرض، وهما: النَّجم والشَّجر. ثم ذكر السَّماء والأرض، ثم ذكر العدل والظُّلم في الميزان، ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض، وهما الحبوب والثَّمار، ثم ذكر نوعي المكلفين، وهما الإنسان والجن، ثم ذكر نوعي المشرقين والمغربين، ثم ذكر نوعي البحر؛ الملح والعذب، فلهذا حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السُّورة<sup>(3)</sup>.

(1) - الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. ص: 451، مادة: "شرق".

(2) - ينظر: ابن القيم: بدائع الفوائد. 110/1. وعبد الفتاح لاشين: صفاء الكلمة "من أسرار التعبير القرآني"، دار المريخ للنشر، الرياض، دط، 1403هـ-1983م، ص: 127. ومحمد القاضي: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم - رؤية في التفسير من خلال اللغة والسياق، الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر. ط1، 1430هـ-2009م، ص: 178.

(3) - ينظر: ابن القيم: بدائع الفوائد. 110/1. وعبد الفتاح لاشين: صفاء الكلمة "من أسرار التعبير القرآني". ص: 127-129. ومحمد القاضي: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم. ص: 178-179.

أما في سورة المعارج فقد جمع لفظ ﴿الْمَشْرِقِ﴾ و﴿وَالْمَغْرِبِ﴾؛ وذلك لأنَّ القسم جاء في سياق سعة زُبُوبِيَّتِهِ، وإحاطة قدرته، والمقسم عليه إذهاب هؤلاء المشركين والإتيان بخير منهم، فذكر المشارق والمغارب لتضمنها انتقال الشَّمْس التي هي إحدى آياته العظيمة الكبيرة، ونقله سبحانه لها، وتصريفها كلَّ يومٍ في مشرق ومغرب، فمن فعل هذا كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء؟! وأيضًا: فإن تأثير مشارق الشَّمْس ومغاربها في اختلاف أحوال النَّبات والحيوانات أمر مشهود، وقد جعله الله بحكمته سببًا لتبدُّل أجسام النَّبات، وأحوال الحيوان، وانتقالها من حال إلى حال، واختلاف الجو من برد إلى حرٍّ، ومن صيف إلى شتاء، وغير ذلك، ممَّا سببه اختلاف مشارق الأرض ومغاربها. فكيف لا يقدر مع ما يشهدونه من ذلك على تبديل مَنْ هو خيرٌ منهم، وأكَّد هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوفِينَ﴾ ولهذا كان جمع "المشارق والمغارب" مناسبًا لهذا الحال<sup>(1)</sup>.

وعليه، فالملاحظ ممَّا سبق أنَّ هناك تجانس وتناسق واضح بين كل تركيب وسياقه، وهذا من دلائل الإعجاز اللُّغوي للقرآن العظيم في التَّناسب بين المباني والمعاني. أمَّا إذا بحثنا عن الدلالة العلميَّة لهذه الآيات استنادًا إلى الحقائق العلميَّة، نجد أنَّ فيها عددًا من الإشارات العلميَّة التي توصَّل إليها العلماء حديثًا، وهذا ما سنتحدَّث عنه في ما يأتي:

ففي قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المزمل:9]، « لا يوجد صعوبة في فهم صيغة المفرد فأينما كنَّا وحيشما وجدنا رأينا للشَّمْس مشرقًا ومغربًا»<sup>(2)</sup>. أمَّا في قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِينَ وَرَبُّ الْمَغْرِبِينَ﴾ [الرحمن: 17]، وقوله: ﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾ [المعارج:41]. «إشارة ضمنِّيَّة رقيقة إلى كل من كرويَّة الأرض ودورانها حول محورها أمام الشَّمْس، فلولا ذلك ما تعدَّدت المشارق والمغارب قط»<sup>(3)</sup>. فقد أظهر العلمُ حديثًا « أنَّ الأرض تتمُّ دورتها حول الشَّمْس في 365 يومًا وربع يوم كذلك يُسبب ميل محور دوران الأرض عن المحور الرُّأسي اختلاف فصول السنَّة، ومن ثمَّ اختلاف مكان ووقت شروق الشَّمْس وغروبها على الأرض على مرِّ العام. إذن يتغيَّر المشرق والمغرب كل يوم تغيُّرًا طفيفًا، أي أنَّ الشَّمْس تشرق وتغرب كل يوم من مكان مختلف على مرِّ السنَّة، وهذا بدوره يعني وجود مشارق ومغارب بعدد أيام السنَّة، وليس مشرقين ومغربين اثنين فقط، وإن بدا الاختلاف بين مشرقَي الشَّمْس ومغربها أكثر وضوحًا في الشِّتاء والصَّيف، فقد يكونا -إذن- مشرقًا والشَّمْس

(1) - ينظر: ابن القيم: بدائع الفوائد. 110/1-111. وعبد الفتاح لاشين: صفاء الكلمة "من أسرار التعبير القرآني". ص: 129-130. ومصطفى شعبان المصري: المناسبة في القرآن. ص: 152.

(2) - أحمد جاد: موسوعة الإعجاز في القرآن الكريم والسنة النبوية: ص: 122.

(3) - زغلول النجار: التفسير العلمي. 204/4.

ومغرباها في الشتاء والصيف هما المقصودين في قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ وقد يكون المقصود بمشارك الأرض ومغاربها في بقاعها المختلفة، فشرق الشمس وغروبها عملية مستمرة، ففي كل لحظة تشرق الشمس على بقعة وتغرب على بقعة أخرى. وقد يكون المقصود بها مشارق الأرض ومغاربها على كواكب المجموعة الشمسية المختلفة، والله أعلم<sup>(1)</sup>

وهناك رؤية علمية جديدة في هذه الآيات ، فقد ذكر عبد الدائم الكحيل أن هناك اكتشافاً حديثاً جداً لكواكب تخضع لمشرقين ومغربين؛ فقد تمكن مؤخرًا علماء من وكالة ناسا من رصد كوكب أُطلق عليه اسم " كيلبري 16" ، يدور حول شمسين، وبالتالي يتعرض هذا الكوكب كل يوم لمشرقين ومغربين. ويؤكد العلماء وجود عدد كبير جدا من هذه الكواكب في المجرات البعيدة، حيث يقدر عدد الكواكب ثنائية النجم بالملايين، فهي ظاهرة كونيّة عامّة<sup>(2)</sup>.

وعليه ومما سبق نستنتج أنّ كل صيغة أتت عليها لفظي "المشرق والمغرب" في النظم الحكيم - من أفرادها وتثنيتهما وجمعهما- ، تحاكي معنى سياقها العام وتُوحى بدلالاته اللغوية والعلمية على السواء؛ فهي عبّرت بدقة عن المعنى اللغوي والمفهوم العلمي للآيات، وساعدت على فهم وتأكيده الحقيقة العلمية للمشارك والمغرب.

(1) - أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 64-65.

(2) - ينظر: عبد الدائم الكحيل: الموسوعة المصوّرة في الإعجاز العلمي - الإعجاز العلمي في الكون. ص: 11.

## 2- دلالة تشبيه "البحر" في آية خلق البحار:

لقد تكرر ذكر البحر مُثَنًى في القرآن الكريم خمس مرّات؛ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: 53]، وقوله: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَادًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: 61]، وقوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِي آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا الْأَلْوُؤُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿٢٢﴾ فَيَأْتِي آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِبَانِ﴾ [الرحمن: 19-23]، وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمَنْ كُلَّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لَتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّعَلُّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: 12]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَآ آتِ بِرَحٍ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: 60].

فما معنى لفظ "بحر" في المعاجم اللغوية؟ وما المقصود بتشبيه "البحرين" في السياق القرآني وما تفسير ذلك؟ وما الحقائق العلمية التي أشارت لها تلك الآيات؟ وما علاقتها بدلالاتها السباقية؟

اختلف اللغويون في المعنى المعجمي للفظ "بحر" وفي أصل مُسَمَّاه؛ فمنهم من أطلق هذا اللفظ على النهر، كما جاء في مقاييس اللغة «الأنهار كلها بحار»<sup>(1)</sup>، ومنهم من أطلقه على «الماء الكثير، أو المِلْحُ فقط»<sup>(2)</sup> كما جاء في القاموس المحيط. ومنهم من أطلقه على «الفرس الواسع الجري»<sup>(3)</sup> كما ورد في الصحاح. وفي لسان العرب لابن منظور نجد فسر البحر على أنه: الماء الكثير، مِلْحًا كان أو عَذْبًا، وهو خلاف البرّ، سُمِّيَ بذلك لعمقه واتساعه، قد غَلَبَ على المِلْحِ حَتَّى قَلَّ فِي الْعَذْبِ، فعلى هذا يكون البحرُ للمِلْحِ والعَذْبِ؛ وشاهدُ العَذْبِ قولُ ابنِ مُقْبِلٍ: ونحن مَنَعْنَا الْبَحْرَ أَنْ يَشْرَبُوا بِهِ \*\*\* وَقَدْ كَانَ مِنْكُمْ مَاؤُهُ بِمَكَانٍ وَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ:

وتذكّر ربّ الحورنق إذ أشرف \*\*\* يوماً، وللهدى تذكير  
سرّه ماله وكثره ما يملك، \*\*\* والبحر مِعْرَضًا والسديسر

أراد بالبحر ها هنا الفرات لأن ربّ الحورنق كان يشرف على الفرات.

يقول ابن سيده: وكلُّ نهرٍ عظيمٍ بحرٌ. ويقول: الزجاج: وكلُّ نهرٍ لا يَنْقَطِعُ ماؤه مثل دجلة والنيل وما أشبههما من الأنهار العذبة الكبار، فهو بحرٌ. وأمّا البحرُ الكبيرُ الذي هو مغيضُ هذه

(1) - ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: "بحر".

(2) - الفيروزآبادي القاموس المحيط. ص: 81. مادة: "بحر".

(3) - الجوهرى: الصحاح. مادة: "بحر".

الأنهار فلا يكون مأؤه إلاً ملحاً أجاجاً، ولا يكون مأؤه راكداً؛ وأما هذه الأنهار العذبة فماؤها جارٍ، وسميت هذه الأنهار بحاراً لأنها مشقوقة في الأرض شقاً<sup>(1)</sup>.

أما في سبب تسميته قال ابن بري: سمي بحرًا لملوحته، يقال ماءً بحر أي ملح، وأما غيره فقال: إنما سمي البحر بحرًا لسعته وانبساطه؛ ويقال: إنما سمي البحر بحرًا لأنه شق في الأرض شقاً وجعل ذلك الشق لمائه قرارًا. والبحر في كلام العرب: الشق. والبحر الرجل الكريم الكثير المعروف. وفرنس بحر: كثير العدو، على التشبيه بالبحر، والبحر: الريف، والبحران: موضع بين البصرة وعمان<sup>(2)</sup>.

وعليه فلفظ بحر تدل معجميًا على الماء الكثير سواء كان عذبًا أو ملحًا، أو على المالح فقط، فالمالح غالب على العذب. وتطلق مجازيًا على كل متسع في شيء كالرجل المتسع في علمه، أو الفرس المتسع في جريه، وعلى كل شيء فيه شق كالشق الذي في أذن البعير.

وفي تفسير كلمة "بحرين" التي ذكرهما الله جل ثناؤه في سياق تلك الآيات الكريمات نجد أن آراء المفسرين الأوائل تنوعت واضطربت فمنهم من ذهب إلى أن المراد من البحرين: الماءين: الحلو والملح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو الفرات العذب الزلال. والمالح مرزعا لا يستساع، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغرب: كالبحر المحيط، وبحر اليمن، وبحر الصين<sup>(3)</sup>، ومنهم من فسّر البحرين على أنهما: بحر السماء والبحر الذي في الأرض، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما. وقال مجاهد: البحر العذب هو مياه الأنهار الواقعة في البحر الأجاج، ووقوعها فيه هو مرزجها<sup>(4)</sup>، وقال آخرون: عني بذلك بحر فارس وبحر الروم<sup>(5)</sup> أو بحري العراق والشام<sup>(6)</sup>، والبعض فسرها بطريقي الخير والشر الذي في قلب الإنسان ف « المؤمن في قلبه بحران بحر الإيمان والحكمة وبحر الطغيان والشهوة، وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزًا لكي لا يفسد أحدهما بالآخر<sup>(7)</sup> ».

إذا فقد اختلف القدامى في تأويل "البحرين" إلى أقوال كثيرة، لكن من بين تلك الآراء الأولى

(1)- ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة "بحر".

(2)- ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة "بحر".

(3)- ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 117/6.

(4)- ينظر: ابن عطية: المحرر الوجيز لابن عطية: ص: 1386.

(5)- ينظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 200/22.

(6)- ينظر: الألويسي: روح المعاني. 20/6.

(7)- فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 208/24.

بالتّرجيح هو الرأي القائل بأنّ المقصود بالبحرين الماء العذب (الأنهار)، والماء المالح (البحار والمحيطات)، يقول ابن عاشور: « والمرادُ بتثنية نوعي البحر وهما البحرُ المالحُ والبحرُ العذبُ » (1). واستشهد بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۗ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبِيَّةً تَلْبَسُونَهَا ۗ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر: 12].

وعليه « فاللمسة في تثنية البحرين قد تعود بأنّ "البحران" هما بحر المالح والبحر العذب، وتسمية النهر العذب بحرًا مع أنّ البحر خاص بالمالح من باب التعليل، كما يقال: الشمسسان، للشمس والقمر والأبوان وغير ذلك فالظاهر أنّ المراد بهما جنس البحرين بدليل قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ [الفرقان: 53]، فأتي بالفعل بالتثنية "لا يبعينان" فاللمسة تشير بناءً على الآية. لا ينبغي أحدهما على الآخر بالاختلاط والتمازج وإبطال الخاصية. فلا يمكن للملح أن يسلب حلاوة النهر بالجري فيه، ولا يمكن للعذب أن يسلب ملوحة البحر باختلاطه وهذا ما أكدّه العلم الحديث » (2).

فقد قام العلماء حديثًا مع تقدّم الاكتشافات العلمية بدراسة عينات من الماء حيث يلتقي النهر بالبحر، وقاموا بقياس درجات الملوحة والعذوبة بأجهزة دقيقة، وقياس درجة الحرارة والكثافة، وجمع عينات من الكائنات الحية ثم القيام بتصنيفها وتحديد أماكن وجودها ودراسة قابليتها للمعيشة في البيئات النهرية والبحرية، ثم توصلوا إلى أنّ المياه تنقسم إلى ثلاثة أنواع (3):

أ- مياه الأنهار: وهي شديدة العذوبة.

ب- مياه البحار: وهي شديدة الملوحة.

ج- مياه في منطقة المصب: مزيج من الملوحة والعذوبة تفصل بين النهر والبحر.

ولاحظ العلماء أيضًا أن مياه الأنهار إذا انسابت واختلطت بمياه البحار لا تمتزج بها لأنّ ثمة حاجز مائي يحيط بمنطقة المصب، يحافظ على خصائصها المميزة لها ويمنع طغيان كل منهما على الأخرى، بل إنّ ماء النهر وماء البحر لا يلتقيان مباشرة في منطقة المصب بالرغم من حركة المدّ

(1) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير. 248/27.

(2) - عاطي عبيات ويحي معروف: جماليات دلالات التثنية والصور البلاغية والنغم الموسيقية في سورة الرحمن مجلة: بونة للبحوث والدراسات، العدد: 17، ربيع الأول-شعبان 1433هـ/يناير-يونيو 2012م ص: 85-86.

(3) - ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 182.

والجزر وحالات الفيضان والانحسار، وذلك لوجود الحاجز المائي المحيط بمنطقة المصب الذي يفصل بينهما دائماً. وقيل إنهما على رغم التماس بين سطحيهما يباعد بينهما حاجز من قدرة الله عز وجل<sup>(1)</sup>؛ « حيث تزيد غزارة بعض أنهار أمريكا على ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية، وتصب في المحيط الأطلسي، ويمتد مسيرها في البحر ثمانين كيلو متراً، هذا الماء العذب يسير داخل الماء المالح، ومع ذلك لا يختلطان، ولا يتمازجان، لأن: ﴿يَنْهَمَا بَرِّحٌ لَا يَتَعَيَانِ﴾ [الرحمن:20]»<sup>(2)</sup>.

فكل من مياه الأنهار ومياه البحار لها صفاتها الطبيعية والكميائية التي تمتاز بها، وعند اتصالهما لا تختلطان ولا تمتزجان امتزاجاً كاملاً، وهذه حقيقة علمية مؤكدة أشار إليها القرآن الكريم وأقرها منذ أزيد من أربعة عشر قرن، ولم يصل إليها العلم الحديث ويدركها إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

وعليه، فتشنية ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾ في سياق هذه الآيات شكّلت المحور الرئيس فيها وكشفت عن هذه الدلالة العلمية العظيمة في تلك السور.

(1) - ينظر: السيد الجميلي: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2002م، ص:26.  
وينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص:182.  
(2) - محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، آيات الله في الآفاق: ص:202.

### المطلب الثاني: دلالة صيغة اسم الفاعل (اسم الفاعل)

تتميز دلالة صيغة اسم الفاعل عن بقية المشتقات (\*) بأن لها سمات فريدة، فهذه الصيغة جمعت بين سمات كل من الاسم والفعل معاً (1)؛ فاسم الفاعل «يدل على الحدث، والحدوث، وفاعله ويقصد بالحدث معنى المصدر، وبالحدث ما يقابل الثبوت فـ "قائم" -مثلاً- اسم فاعل يدل على القيام وهو الحدث، وعلى الحدوث أي التغيير، فالقيام ليس ملازمًا لصاحبه ويدل على ذات الفعل أي صاحب القيام» (2). وربما يرجع السبب في تميز اسم الفاعل بهذه السمات إلى التقسيم القديم للثبات لأقسام الكلم حيث نجد أن البصريين يصنفون اسم الفاعل في قسم الأسماء؛ بينما يصنّفه الكوفيون في قسم الأفعال؛ حيث يقسمون الفعل إلى ماضي ومضارع دائم، ويعنون بالدائم صيغة اسم الفاعل، الأمر الذي جعل ذلك مثار جدل كبير في الدراسات اللغوية القديمة والحديثة؛ حيث اعترضت العديد من الدراسات على هذا التصنيف. فالبعض يجعلها من قبيل الأفعال، والبعض يخصها بقسم خاص بها وبنظائرها كاسم المفعول والصفة المشبهة وأمثلة المبالغة؛ فيميز ذلك كله بمصطلح الصفة. وقد ترتب على تلك الطبيعة المزدوجة لاسم الفاعل أن صار مشتركاً بين الدلالة على التجدد والحدوث من جهة النظر إليه كفعل في مقابل الاسم الدال على الثبوت (3). ولقد وردت صيغة اسم الفاعل بكثرة في النظم الحكيم ومن أمثلة ذلك في آيات الإعجاز العلمي ما يأتي:

#### 1- دلالة اسم الفاعل في لفظي "الطارق" و"الثاقب" في آية خلق النجوم:

من آيات الإعجاز العلمي في خلق السماء -وما تحويه من أجرام سماوية وظواهر كونية- التي اختير فيها التعبير بصيغة اسم الفاعل في لفظي ﴿وَالطَّارِقُ﴾ و﴿الثَّاقِبُ﴾، قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ﴾ (1) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ (2) ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (3) ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: 1-4]. فيا ترى ما المقصود بالنجم

(\*) -الاشتقاق: هو أخذ كلمة من أخرى، مع تناسب بينهما في المعنى وتغيير في اللفظ، وأصل المشتقات عند البصريين المصدر، لكونه بسيطاً، أي: يدل على الحدث فقط، بخلاف الفعل، فإنه يدل على الحدث والزمن. وعند الكوفيين: الأصل الفعل، لأن المصدر يجيء بعده في التصريف، والذي عليه الصرفيون الأول. ينظر: أحمد الحملاوي: شذا العرف في فن الصرف. ص: 56. فالأسماء المشتقة عند الصرّفيين هي التي تؤخذ من المصادر، وأنها سبعة: اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة باسم الفاعل، واسم التفضيل، واسم الزمان، واسم المكان، واسم الآلة. وتنقسم هذه الأسماء حسب عملها عمل الفعل إلى قسمين: قسم يعمل عمل الفعل، وهي: اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة باسم الفاعل، واسم التفضيل. وقسم لا يعمل عمل الفعل، وهي: اسم الزمان، واسم المكان، واسم الآلة. ينظر: يوسف المرعشي: إعجاز القرآن والدلالات الصرفية. ص: 53.

أما اسم الفاعل فهو ما اشتق من مصدر المبني للفاعل، لمن وقع منه الفعل، أو تعلق به. يُصاغ من الثلاثي على زنة "فاعل"، ومن غير الثلاثي على زنة المضارع منه مع إبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة وكسر ما قبل الآخر. ينظر: أحمد الحملاوي: شذا العرف في فن الصرف. ص: 62.

(1)- ينظر: عبد الحميد هنداوي: الإعجاز الصرفي القرآن الكريم. ص: 241-242.  
(2)- فاضل صالح السامرائي: معاني الأبنية في العربية. دار عمار، عمان، الأردن، ط2، 1428هـ-2007م، ص: 41.  
(3)- ينظر: عبد الحميد هنداوي: الإعجاز الصرفي القرآن الكريم. ص: 242.

الطَّارِق؟ ولماذا وصف بالثَّاقِب؟ ولماذا اختيرت صيغة اسم الفاعل للتعبير عن الحدث في تلك الآيات دون بقية الصيغ؟ وكيف يكون النجم طارقاً وثاقباً في آن واحد؟ وهل هناك تفسير علمي لذلك؟

إنَّ المتأمل للسياق العام لهذه الآيات من سورة "الطَّارِق"، يلحظ أنَّه يتضمن مشهداً كونياً وحقيقةً إيمانية، استهله الله سبحانه وتعالى بالقسم -وهو الغني عن القسم- بكل من السماء والطَّارِق، ثم يثني باستفهام تفخيمي عن ماهية الطَّارِق، وكأنَّ أمرًا وراء الإدراك والعلم. ويجدده ويبينه بشكله وصوته بالنجم الثَّاقِب. الذي يثقب الظلام بشعاعه النَّافذ. والمقسم عليه قوله: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾؛ أي يقسم بالسماء ونجمها الثَّاقِب أنَّ كل نفس عليها من أمر الله رقيب من الملائكة يحفظ ويسجِّل عليها أعمالها الصَّالحة والسيِّئة، وهو موكل بها بأمر الله (1)، وكأنَّ « النَّصَّ أَرَادَ لَفَتْ نَظَرْنَا إِلَى مَوْضُوعَيْنِ، أَحَدُهُمَا: أَمِيَّةُ الْإِبْدَاعِ الْإِلَهِيِّ لِظَاهِرَةِ النُّجُومِ، وَالْآخَرُ: أَمِيَّةُ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ فِي تَسْجِيلِهَا لِأَعْمَالِ الْإِنْسَانِ » (2).

لقد ورد الجذر اللُّغوي "طرق" في النِّظْم الحكيم إحدى عشرة مرَّة؛ مرتين اسمًا مشتقًا من الثلاثي المجرد في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۗ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۗ ﴿٢﴾﴾ [الطارق: 1-2]، وأربع مرَّات اسمًا بصيغة "طريق" كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: 77]، وخمس مرَّات اسمًا بصيغة "طريقة" نحو قوله: ﴿وَأَلُو اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16] (3). أمَّا الجذر اللُّغوي "ثقب" فقد ورد في القرآن مرتين اسمًا مشتقًا من الثلاثي المجرد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفات: 10]، وقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: 3] (4).

وفي دالتهما المعجمية والسياقية ذكر اللُّغويون والمفسِّرون عدَّة وجودٍ لمعانيهما، يمكن إيجازها في يأتي:

#### أ- طَرَقَ وَثَقَّبَ فِي الْمَعَاجِمِ:

1- طرق: الطَّاءُ والرَّاءُ والقَافُ أربعةُ أَصُولٍ، أحدها: الإتيانُ مَسَاءً؛ يقال: رَجُلٌ طَرَقَهُ، إِذَا كَانَ يَسْرِي حَتَّى يَطْرُقَ أَهْلَهُ لَيْلًا. والثَّانِي: الضَّرْبُ؛ يُقَالُ: طَرَقَ يَطْرُقُ طَرَقًا. والشَّيْءُ مِطْرُقٌ وَمِطْرُقَةٌ. ومنه الطَّرْقُ، وهو الضَّرْبُ بِالْحَصِيِّ تَكْهِنًا. والثَّالِثُ: جِسْمٌ مِنْ اسْتِرْحَاءِ الشَّيْءِ؛ ومنه:

(1)- ينظر: سريد قطب: في ظلال القرآن. 3878/6

(2)- محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم. 324/5.

(3)- ينظر: فيس دوكنس: فهرس جذور كلمات القرآن. مادة (طرق).

(4)- ينظر: المصدر نفسه. مادة (طرق).

أَطْرَقَ فُلَانٌ فِي نَظَرِهِ. وَالْمُطْرَقُ: الْمُسْتَرْحِي الْعَيْنِ. وَالرَّابِعُ: حَصَفُ شَيْءٍ عَلَى شَيْءٍ؛ يُقَالُ: نَعَلٌ مُطَارِقَةٌ، أَيْ مَخْصُوفَةٌ<sup>(1)</sup>. «وَالطَّارِقُ: النَّجْمُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ كَوْكَبُ الصُّبْحِ، وَمِنْهُ قَوْلُ هِنْدَ: لَحْنُ بَنَاتِ طَارِقٍ نَمَشِي عَلَى النَّمَارِقِ أَيْ إِنَّ أَبَانَا فِي الشَّرَفِ كَالنَّجْمِ الْمَضِيِّ»<sup>(2)</sup>.

2- ثَقِبٌ: الثَّقَبُ: الْحَزَقُ النَّافِذُ، بِالْفَتْحِ، وَالْجَمْعُ أَثْقَبٌ وَثُقُوبٌ. وَالثَّقِبُ، بِالضَّمِّ: جَمْعُ ثُقْبَةٍ. وَيُجْمَعُ أَيْضًا عَلَى ثُقْبٍ. وَقَدْ ثَقَبَهُ يَثْقِبُهُ ثَقْبًا وَثَقَبَهُ فَانثَقَبَ، شُدُّدٌ لِلكَثْرَةِ. وَالثَّقُوبُ: مَصْدَرُ النَّارِ الثَّاقِبَةِ. وَالكَوْكَبُ الثَّاقِبُ: الْمَضِيُّ. وَتَثْقِيبُ النَّارِ: تَذَكِيبُهَا. وَثَقَبَتِ النَّارُ تَثْقُبُ ثُقُوبًا وَثَقَابَةً: اتَّقَدَتِ. وَثَقَبَهَا هُوَ وَاثْقَبَهَا وَتَثَقَّبَهَا. وَالثَّاقِبُ: الْمَضِيُّ<sup>(3)</sup>. وَالمِثْقَبُ: آتَهُ، وَطَرِيقٌ بَيْنَ الشَّامِ وَالْكُوفَةِ. وَالنَّجْمُ الثَّاقِبُ " الْمُرْتَفِعُ عَلَى التُّحُومِ، أَوْ اسْمٌ زَحَلٌ<sup>(4)</sup>.

### ب- الطَّارِقُ وَالثَّاقِبُ فِي التَّفَاسِيرِ:

ب1- الطَّارِقُ: اتَّفَقَتْ مَعْظَمُ التَّفَاسِيرِ عَلَى أَنَّ مَعْنَى الطَّارِقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ﴾ هُوَ النَّجْمُ الْمَضِيُّ؛ وَنَحْوُ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي تَفْسِيرِ ابْنِ جَرِيرٍ « الطَّارِقُ الَّذِي يَطْرُقُ لَيْلًا مِنَ النُّجُومِ الْمَضِيَّةِ، وَيَخْفَى نَهَارًا، وَكُلُّ مَا جَاءَ لَيْلًا فَقَدْ طَرِقَ »<sup>(5)</sup>. وَجَاءَ فِي تَفْسِيرِ الْأَلُوسِيِّ أَنَّ: « الْمُرَادُ بِهِ هَا هُنَا عِنْدَ الْجُمْهُورِ الْكَوْكَبُ الْبَادِي بِاللَّيْلِ إِمَّا عَلَى أَنَّهُ اسْمٌ جِنْسٍ أَوْ كَوْكَبٌ مَعْهُودٌ »<sup>(6)</sup>. وَفِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثْرٍ ذَكَرَ سَبَبَ تَسْمِيَتِهِ بِالطَّارِقِ قَالَ: « قَالَ قَتَادَةُ وَعَيْرُهُ: إِمَّا سُمِّيَ النَّجْمُ طَارِقًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا يُرَى بِاللَّيْلِ وَيَخْتْفَى بِالنَّهَارِ. وَيُؤَيِّدُهُ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: نَهَى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ طُرُوقًا »<sup>(7)</sup>.

ب2- الثَّاقِبُ: نَقَلَ الْمَفْسَّرُونَ عَنِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ عِدَّةً أَوْجَحَ فِي تَأْوِيلِ دَلَالَةِ "النَّجْمِ الثَّاقِبِ"

منها:

- الْمَضِيُّ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(8)</sup>.
- يَثْقِبُ الشَّيَاطِينَ إِذَا أُرْسِلَ عَلَيْهَا، وَهَذَا قَوْلُ السُّدِّيِّ<sup>(9)</sup>.
- الَّذِي يَتَوَهَّجُ، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ<sup>(10)</sup>.

(1)- ينظر: ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: "طرق".

(2)- الجوهري: الصحاح. مادة: "طرق".

(3)- ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة: "ثقب".

(4)- ينظر: الفيروزآبادي: معجم البحر المحيط. ص: 176-177. مادة: "ثقب".

(5)- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 288/24.

(6)- الألوسي: روح المعاني. 30/94.

(7)- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 374/8.

(8)- ينظر: محمد متولي الشعراوي: مختصر تفسير الشعراوي. ص: 419. وينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 374/8.

(9)- ينظر: المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(10)- ينظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 290/24.

- المرتفع، يُقال: ثَقَبَ الطَّائِرُ أَي ارْتَفَعَ و علا، وهذا قول الفراء<sup>(1)</sup>.
- القمر؛ لأنه آية الليل وأشدُّ الكواكبِ ضوءاً فيه وهو زمان سلطانه، وهذا قول الفراء<sup>(2)</sup>.
- الثُّرَيَّا وهو الذي تُطلقُ العَرَبُ عليه اسمُ النَّجْمِ، وهذا قول ابن زيد<sup>(3)</sup>.
- وقيل: « هو الجدي. وقيل: النَّجْمُ الثَّقَابُ: نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ لَا يَسْكُنُهَا غَيْرُهُ، فَإِذَا أَخَذَتِ النُّجُومُ أَمَكْنَتَهَا مِنَ السَّمَاءِ هَبَطَ فَكَانَ مَعَهَا، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهِ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَهُوَ زُحْلٌ فَهُوَ طَارِقٌ حِينَ يَنْزِلُ وَحِينَ يَصْعَدُ»<sup>(4)</sup>.

ومنه، فقد تباينت آراء المفسرين واللغويين في تأويل دلالة النجم الثاقب فمنهم من قال هو القمر، ومنهم من قال هو الثُّرَيَّا، ومنهم من قال هو زحل، ومنهم من فسرها حسب أوصافها على أنها النجوم أو الكواكب المضيئة، أو المتوهجة، أو الثاقبة التي تنقب بنورها وضوئها الظلام وينفذ فيها. ولتحديد دلالة الطارق النجم الثاقب بدقة يمكن الاستعانة بدلالة السياق الصرفي لتلك الكلمتين وبالتفسير العلمي لهما.

فقد اختير التعبير باسم الفاعل في لفظي ﴿وَالطَّارِقِ﴾ و﴿الثَّقَابِ﴾ في هذه الآيات الكريمات: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾<sup>(1)</sup> وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿الثَّجْمُ الثَّقَابُ﴾ [الطارق: 1-4]، وكان يمكن التعبير عنهما بغير اسم الفاعل كالفعل المضارع "يطرق" و"يثقب" ولكن الآيات قد اختارت اسم الفاعل للتعبير عن الحدث في لفظي ﴿وَالطَّارِقِ﴾ و﴿الثَّقَابِ﴾ وذلك لأنها ليس بصدد مجرد إثبات الحدث "الطرق والثقب"، وإنما هي بصدد إثبات وقوع ذلك "الطرق والثقب" لا محالة، ومن ثم فالتعبير عنها باسم الفاعل قد دلَّ على زيادة وقوع الحدث ودلَّ على ثبات هذا الوصف أيضاً وعدم تحوله؛ أي أننا حينما ننظر إلى اسمي الفاعل "طارق" و"ثاقب" في مقابل البديل الآخر المتاح في هذا السياق وهو "يطرق" و"يثقب" نجد أنَّ اسم الفاعل من حيث كونه اسماً يتميز عن الفعل تظهر له دلالته الاسمية وهي دلالته على الثبات والجمود. وأمَّا إذا نظرنا إلى اسم الفاعل من جهة ما يتضمنه من الفعلية وجريانه مجرى الفعل فحينئذ تظهر له دلالته الفعلية وهي دلالته على الحدوث والتجدد.

ومن ثمَّ فإنَّ الدلالة الرئيسية لاسم الفاعل في هذا المقطع إنما هي الدلالة على ثبوت نسبة

(1) - ينظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 290/24. والألوسي: روح المعاني. 95/30.

(2) - ينظر: الألوسي: روح المعاني. 95/30.

(3) - ينظر: المصدر نفسه. 95/30.

(4) - أبو السعود بن محمد العامدي الحنفي (900هـ-982هـ): تفسير أبي السعود- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، دط، دت. 513/5.

تلك الأوصاف-الحركة والطُروق والإضاءة والنفاذ - لهذا النوع من النجوم ثبوتاً مؤكداً، وأن تكرر اسم الفاعل في تلك الآيات يدلُّ على أنَّ هذه الصفات ممَّا يتجدد ويتكرر حدوثه في ذلك النوع من النجوم التي أقسم الله بها، وأنَّ أصل المعنى في تلك الآيات هو لفت الأنظار إلى قدرة الله في خلق النجوم وحفظها وتسخيرها في السماء في حالي الطُّرق والثَّقب، وهذا يحصل بالتعبير باسم الفاعل.

ففي هذه الآيات من سورة الطَّارق إشارة إلى حدث من الأحداث الكونية العظيمة المتعلقة بالنجوم، لذا فـ « معنى الطَّارق النجم الثَّقب، لا ينجلي إلاَّ بمعرفةٍ دقيقة لطبيعة النجوم وأنواعها ومراحل تكونها؛ لأنَّ هذه قضية علمية صرفة، وكطبيعة كلِّ الإشارات الكونية في القرآن الكريم، لا بدَّ من توظيف المعارف العلمية لفهم دلالاتها، حيث لا يمكن لتلك الدلالات أن تتضح في الإطار اللغوي وحده»<sup>(1)</sup>. وبما أنَّ هذا الموضوع واسع ومعقَّد جدًّا سنحال الإشارة إلى التفسير العلمي للطَّارق النجم الثَّقب استناداً إلى الحقائق العلمية المكتشفة حديثاً.

حيث يرى زغلول النجار أنَّ الوصف القرآني "بالطارق النجم الثَّقب" ينطبق على مصادر الإشعاع الراديوي المميَّز بالسماء الدنيا ومن أهمها: النجوم النيوترونية المعروفة باسم النجوم النَّابضة (The Pulsating Stars) وهي نجوم ذات كثافة وجاذبية فائقة وحجم صغير، ولذا فإنَّها تدور حول محورها بسرعات عالية، مطلقة كميات هائلة من الموجات الراديوية ولذا تعرف باسم النواض الراديوية (The Radio Pulsars)، لأنَّها ترسل نبضات منتظمة من الأشعة الراديوية في كل جزء من الثانية أو في كلِّ عدد قليل من الثواني حسب حجمها وسرعة دورانها حول محورها، وقد يصل عدد نبضات تلك النجوم إلى ثلاثين نبضة في الثانية الواحدة<sup>(2)</sup>.

وقد تم اكتشاف هذه النبضات التي تصدرها هذه النجوم بواسطة جهاز يسمى بالتلسكوب اللاسلكي أو المذياعي (Radio Telescope). على شكل طرقات منتظمة متقطعة.. تك.. تك.. تك.. تك<sup>(3)</sup>، « وكأنَّ هذا النجم يطرقُ بابَ الفضاء، حيثُ يتزايدُ تواترُ النبضاتِ النويَّةِ في شبابه، ويقلُّ تواترها في شيخوخته، ونعرف من خلال تواتر النبضات التي تأتي عن طريق التلسكوبات اللاسلكية عمُرَ هذا النجم»<sup>(4)</sup>.

(1) - زغلول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. 399/4.

(2) - ينظر: زغلول النجار: من آيات الإعجاز العلمي السماء في القرآن الكريم. ص: 269.

(3) - ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم. ص: 111.

(4) - محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، آيات الله في الأفاق: ص: 76.

وأيضاً من خصائص هذه النجوم النيوترونية أنّ كثافتها هائلة فهي ذات حجم صغير ووزن ثقيل؛ فعندما يبدأ النجم بالانهيار على نفسه ينكمش بسرعة وتتحد الإلكترونات بالبروتونات مكونة نيوترونات منضغطة على بعضها دون وجود أي فراغ فتصل كثافة النجم إلى رقم قياسي يصعب تصوره، ويتقلص النجم إلى حجم كرة قدم وبالرغم من ذلك يبلغ وزنه خمسين ألف بليون طن، فإذا ما وضعت هذه الكرة "النجم النيتروني" على الأرض أو على أي جرم سماوي آخر فلن يتحمل سطحها هذا الوزن الهائل فيحترق "النجم النيتروني" الأرض أو الجرم السماوي تاركاً وراءه ثقباً يتناسب مع حجمه (1).

وهكذا فالطارق نجم سماوي له صفتان: طارق وثاقب، ولو قارنا بين هذه الخواص وأي جرم سماوي لوجدنا أنّ النجم النيوتروني يستوفي هذه الخواص فهو نجم طارق وثاقب، له نبضات وطرقات منتظمة، وكثافته أعلى كثافة معروفة للمادة، ووزنه يزيد عن وزن الكرة الأرضية برغم صغر حجمه، فهو ثاقب (2).

وعليه ومما تقدّم نستنتج أنّ صيغة اسم الفاعل في لفظتي ﴿وَالطَّارِقِ﴾ و﴿النَّاقِبِ﴾ قد ناسبت السياق العام للآيات، وناسبت التفسيرين اللغوي والعلمي لهما. فكأنّ التعبير باسم الفاعل في سياق تلك الآيات جميعاً من قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ النَّاقِبُ (٣) إنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيهَا حَافِظٌ ﴿الطارق: 1-4﴾. إنّما هو بمثابة مفتاح للتعقل والتدبر لتلك المقابلة بين المتغير المدلول عليه باسم الفاعل، والثابت المدلول عليه بالملائكة التي تحفظ للإنسان أعماله، ليدرك المرء أنّ كلّ أعماله الصالحة والسيئة هي محفوظة ومسجلة ليوم الدين. ومن ثم فقد انتقلت الآيات بعد ذلك من القسم بعظيم من عظام قدرته إلى المقسم عليه وهم الملائكة الكرام الثابتين في حفظهم بتوظيف صيغة اسم الفاعل كذلك لإحداث تلك المقابلة بين المتغير والثابت.

(1) - ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم. ص: 109-110.

(2) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 111-112.

## 2- دلالة اسم الفاعل في لفظي "فالق" و"مخرج" في آية خلق النباتات:

من أمثلة صيغ اسم الفاعل في آيات الإعجاز العلمي في خلق النباتات لفظي: ﴿فَالِقُ﴾ و﴿وَمُخْرِجُ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ وَمُخْرِجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ تَوَفَّكُونَ﴾ [الأنعام: 95].

يُبين الله تعالى في هذه الآتي الكريمة عجائب قدرته، وعظيم صنعه في إخراج الحياة من الميت؛ في تصوير مبدع لفلق الحبوب والنواة الصغيرة، التي تخرج منهما مختلف الزروع، والأشجار، والتخيل باستمرار في كل لحظة وفي كل حين. يقول سيد قطب: «إنها المعجزة التي لا يدري سرها أحد، فضلاً على أن يملك صنعها أحد! معجزة الحياة نشأة وحركة.. وفي كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية، وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة. والحياة الكامنة في الحبة والنواة النامية في النبتة والشجرة، سر مكنون، لا يعلم حقيقته إلا الله؛ ولا يعلم مصدره إلا الله.. وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها، وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها.. تقف أمام السرِّ المغيب كما وقف الإنسان الأول، تدرك الوظيفة والمظهر، وتجهل المصدر والجوهر، والحياة ماضية في طريقها. والمعجزة تقع في كل لحظة!!!» (1). إنه إعجاز فني لغوي علمي بكل ما تحمله الكلمة من معان.

والسؤال المطروح الآن ما الدلالة المعجمية والسياقية للفظ "فالق"؟ وما الحكمة في اختيار صيغة اسم الفاعل في تلك الآية؟ وما وجه الإعجاز العلمي فيها؟ وهل هناك تناسب وتعاقد دلالي بين التفسيرين اللغوي والعلمي في دلالة صيغة اسم الفاعل؟

لقد ورد الجذر اللغوي «فلق» في الذكر الحكيم أربع مرات (2):

مرتين اسمًا مشتقًا من الثلاثي الجرد (اسم فاعل)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: 95]. وقوله: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: 96].

ومرة اسمًا بصيغة «فَلَق»، في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: 1].

ومرة فعلاً (ماضي) من باب «انفعل»، في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾

(1) - سيد قطب: في ظلال القرآن. 1153/7/2-1154/7/2.

(2) - ينظر: قيس دوكس: فهرس جذور كلمات القرآن. مادة ( فلق ).

فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿[الشعراء: 63].

و"الفلق" في المعاجم اللغوية هو: «الشَّقُّ، والفَلَقُ مَصْدَرٌ فَلَقَهُ يَفْلُقُهُ فَلَقًا شَقًّا، والتَّفْلِيقُ مِثْلُهُ، وَفَلَقَهُ فَاَنْفَلَقَ وَتَفَلَّقَ، والفَلَقُ: مَا تَفَلَّقَ مِنْهُ، وَاحِدَتُهَا فَلَقَةٌ، وَقَدْ يُقَالُ لَهَا فِلْقٌ، بِطَرَحِ الْهَاءِ» (1). وجاء في مقاييس اللغة: «الْفَاءُ وَاللَّامُ وَالْقَافُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى فُرْجَةٍ وَبَيْنُونَةٍ فِي الشَّيْءِ، وَعَلَى تَعْظِيمِ شَيْءٍ. مِنْ ذَلِكَ: فَلَقْتُ الشَّيْءَ أَفْلُقُهُ فَلَقًا. وَالْفَلَقُ: الصُّبْحُ؛ لِأَنَّ الظَّلَامَ يَنْفَلِقُ عَنْهُ. وَالْفَلَقُ: مُطْمَئِنٌّ مِنَ الْأَرْضِ كَأَنَّهُ انْفَلَقَ، وَجَمْعُهُ فِلْقَانٌ. وَالْفَلَقُ: الْخَلْقُ كُلُّهُ، كَأَنَّهُ شَيْءٌ فُلِقَ عَنْهُ شَيْءٌ حَتَّى أُبْرِرَ وَأُظْهِرَ. وَيُقَالُ: انْفَلَقَ الْحَجَرُ وَعَيْرُهُ وَكَلَمَنِي فُلَانٌ مِنْ فِلْقٍ فِيهِ. وَهُوَ ذَاكَ الْقِيَاسُ. وَالْقَالِقُ: فَضَاءٌ بَيْنَ شَقِيئَتَيْ رَمَلٍ. وَقَوْسٌ فِلْقٌ، إِذَا كَانَتْ مَشْتُقَوَّةً وَمَ تَكَ قَضِيًّا. وَالْقَلِيقُ كَالْهَزْمَةِ فِي جِرَانِ الْبَعِيرِ. قَالَ: فَلِيقُهَا أَجْرَدٌ كَالرَّمْحِ الضَّلِيعِ وَالْأَصْلُ الْآخِرُ الْقُلَيْقَةُ، وَهِيَ الدَّاهِيَةُ الْعَظِيمَةُ [...] وَالْعَرَبُ تَقُولُ: يَا لَلْقُلَيْقَةِ. وَالْأَمْرُ الْعَجَبُ الْعَظِيمُ» (2).

وعليه فالمعنى المحوري للجذر اللغوي "فلق" هو الشَّقُّ عن شيء ثم البروز والظهور؛ لذا فهو يطلق على الصُّبْحِ وذلك لانفصاله عن الظلام وظهور نوره، وعلى الأنهار لأنها تشقُّ في باطن الأرض طريقًا إلى أن تبرز على سطحها، وأيضًا يطلق على الخلق عامة وكأن شيئًا شقَّ عن شيء حتى بان وبرز. ولا يكون هذا الشقُّ أو الفلق إلا عميقًا وفي شيء كثيف. ولا يطلق هذا اللفظ إلا في الأمر العظيم، والشَّيْءِ الْعَجِيبِ.

أمَّا في تأويل دلالة "فَالِقِ" عند المفسرين في سياق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ قولان (3):

الأول: وهو مَرْوِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَوْلُ الضَّحَّاكِ وَمُقَاتِلٍ: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ أي خالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى.

والثاني: وهو قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ: أَنَّ الْفَلَقَ هُوَ الشَّقُّ الَّذِي فِي الْحَبَّةِ وَالنَّوَاةِ، وَالْحَبُّ هُوَ الَّذِي يَكُونُ مَقْصُودًا بِذَاتِهِ مِثْلَ حَبَّةِ الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَسَائِرِ الْأَنْوَاعِ، وَالنَّوَى هُوَ الشَّيْءُ الْمَوْجُودُ فِي دَاخِلِ الثَّمَرَةِ مِثْلَ نَوَى الْحَوْخِ وَالْتَّمْرِ وَعَيْرِهِمَا.

(1) - ابن منظور: لسان العرب. مادة: "فلق".

(2) - ابن فارس. مقاييس اللغة. مادة: "فلق".

(3) - ينظر: فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 94/13-95. والطبرسي: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 420/9-422.

وفي هذين القولين رجح الطبري التفسير القائل بأن الفلق هو الشق الذي في الحب والنوى ودليله في ذلك «أن الله جل ثناؤه أتبع ذلك بإخباره عن إخراج الحى من الميت والميت من الحى، فكان معلوماً بذلك أنه إنما عنى بإخباره عن نفسه أنه قالق الحب عن النبات، والنوى عن العُروس والأشجار، كما هو مخرج الحى من الميت، والميت من الحى. وأما القول الذي حكي عن الضحاك في معنى "قالق"، أنه خالق، فقول إن لم يكن أراد به أنه خالق منه النبات والعُروس بقلقه إياه لا أعرف له وجهها، لأنه لا يعرف في كلام العرب: "فلق الله الشئ"، بمعنى: خلق» (1).

وبذلك أيضاً أول ابن كثير دلالة قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْهَيْمِ وَالنَّوَى﴾ ب: يَشُقُّهُ فِي الشَّرَى فَتَنْبُتُ الزُّرُوعُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا مِنَ الْخُبُوبِ، وَالشَّمَازُ عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَالْوَانِخَا وَطُعُومِهَا مِنَ النَّوَى؛ ودليله في ذلك أن الله تعالى فسّر قوله: ﴿فَالِقُ الْهَيْمِ وَالنَّوَى﴾ بقوله في السياق ذاته: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي: يُخْرِجُ النَّبَاتَ الْحَيَّ مِنَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، الَّذِي هُوَ كَالْجَمَادِ الْمَيِّتِ، كَمَا قَالَ فِي سِيَاقٍ آخَرَ: ﴿وَأَيُّهُمُ الَّذِينَ هُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ [يس: 33-36] (2).

إن الملاحظ في هذه الآية الكريمة أن الله تعالى وظف صيغة اسم الفاعل فيها مرتين في لفظة "قالق" و"مخرج"، ووظف الفعل المضارع "يخرج" مرة واحدة وفي ذلك دلالة لغوية معجزة.

فقد قامت صيغة اسم الفاعل في هذا المقام برسم المشهد بأدق طريقة فنية، وقد نقل أحمد ياسوف عن أستاذه نور الدين عتر رأيه ونظرته في قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْهَيْمِ وَالنَّوَى﴾، بقوله: «عَبَّرَتِ الْآيَةُ بِاسْمِ الْفَاعِلِ "قالق"، واسم الفاعل ينطبق على الفاعل حال تَلَبُّسِهِ بِالْفِعْلِ، وبذلك قَوَّى الْقُرْآنُ الصُّورَةَ، وَأَدْنَاهَا مَنَّا، وَتَبَّهَ الْإِحْسَاسَ لَصُورَةِ الْفَلَقِ، وَهِيَ صُورَةٌ مُّوْحِيَةٌ مُّؤَدِّيةٌ جَعَلَتْ

(1)- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 422/9.

(2)- ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 304/3.

نَظَرْنَا يَنْثُقِبُ الأَرْضَ إِلَى جَوْفِهَا يَشْهَدُ أُعْجُوبَةً فَلَقَ النَّوَاةَ وَالْحَبَّةَ عَنْ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ «(1). ويرى محمد عكاشة أن اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾، يدلُّ على الاستمرار والدوام؛ ففلق الحب والنوى مُستمر، وكذلك يفلق الله الإصباح في كل يوم (2).

وفي سبب إظهار اسم الفاعل "مخرج" في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام: 95] - دون الفعل المضارع "يخرج" أو "تخرج" كما ورد في مواضع عدَّة في القرآن الكريم تكرر فيها الآية، كقوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: 19]. ومثل هذه الآية نراه في آيتي [يونس: 31]، و[آل عمران: 27] - يرجع اللغويون والمفسرون ذلك إلى أمور ثلاثة (3):

الأول: يتعلق بالمناسبة اللفظية؛ إذ جاء الاسم هنا توكيداً لحسن الجوار في النظم ليجاور كل لفظ ما يلائمه في مناسبة الزينة، لتتبادل ألفاظ النظم عند التركيب، ولو أتى هذا اللفظ في سورة الأنعام كما جاء أمثاله في آل عمران، ويونس، والروم لخرج نظم آية الأنعام عن الاعتدال، لمجيء صيغة الفعل حيث يقول: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ متوسِّطاً بين أسماء الفاعلين من قوله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: 96]، كما أنه لو جاء مكان ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ في آل عمران ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ لتنافرت الألفاظ وعيب نظم الكلام لسوء الجوار لمجيء اسم الفاعل بين صيغ الأفعال.

الثاني: يرجع إلى دلالة السياق؛ إذ يدور حول التمدُّح بقدرته الله على فلق الحب والنوى وفلق الإصباح من الظلام وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، والمناسب لهذا المدح اسم الفاعل لا الفعل؛ لأنه أبلغ منه؛ إذ يدلُّ على مطلق الثبوت والدوام اللذين يدلان على كمال المدح أو الدَّم؛ لأهما بالدائم الثابت أكمل.

الثالث: يرجع إلى بنية السياق أو نظمه، وهو ما يوضِّحه كذلك ابن أبي الإصبع، إذ يقول: وأتى في هذه الجملة باسم الفاعل لأنه خير مبتدأ مستأنف تقديره، وهو مُخرج الميت من الحي؛ ليأتي

(1) - أحمد ياسوف: جماليات المفردة القرآنية. إشراف وتقديم: زفر الدين عتر، أصل الكتاب رسالة ماجستير في الآداب دار المكي، دمشق - سوريا. ط3، 1430هـ - 2009م. ص: 252.

(2) - ينظر: محمود عكاشة: التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة. ص: 72-73.

(3) - ينظر: ابن أبي الإصبع المصري (585هـ - 654هـ): بديع القرآن. تقديم وتحقيق: حنفي محمد شرف. نهضة مصر للطباعة والنشر، دط. دت. نقلا عن: ومصطفى شعبان المصري: المناسبة في القرآن. ص: 155-157.

نظم الجملة الثانية على ما أتى عليه نظم الجملة الأولى، حيث قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ فجاء خبر إنَّ اسماً، فكذلك أوجبت البلاغة أن يأتي خبر الجملة الثانية "اسماً". وبذلك تحققت الحكمة في مجيء آية الأنعام مخالفة لبقية أمثالها من الآيات.

وفي سبب التعبير في القسم الأول بالفعل وفي القسم الثاني بالاسم في آية الأنعام ذكر الألوسي أنه «لَمَّا كَانَ الْحَيُّ أَشْرَفَ مِنَ الْمَيِّتِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْإِعْتِنَاءُ بِإِخْرَاجِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ أَكْثَرَ مِنَ الْإِعْتِنَاءِ بِإِخْرَاجِ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ فَلِذَا وَقَعَ التَّعْبِيرُ عَنِ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ وَعَنِ الثَّانِي بِصِيغَةِ الْإِسْمِ تَنْبِيْهًا عَلَى أَنَّ الْإِعْتِنَاءَ بِإِجَادِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ أَكْثَرُ وَأَكْمَلُ مِنَ الْإِعْتِنَاءِ بِإِجَادِ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ [...] إِنَّ الْحَيَّ حَقِيقَةً فَيَمَنُ يَكُونُ مَوْصُوفًا بِالْحَيَاةِ وَهِيَ صِفَةٌ تُوجِبُ صِحَّةَ الْإِدْرَاكِ وَالْقُدْرَةَ وَالْمَيِّتَ حَقِيقَةً فَيَمَنُ فَارْقَنَهُ تِلْكَ الصِّفَّةُ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ» (1).

أمَّا في دلالة الفعل المضارع "يُخْرِجُ" ودلالة اسم الفاعل "مُخْرِجٌ" في هذه الآية يقول ابن عاشور: «جِيءَ بِجُمْلَةٍ ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ فِعْلِيَّةٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ يَتَجَدَّدُ وَيَتَكَرَّرُ فِي كُلِّ آنٍ، فَهُوَ مُرَادٌ مَعْلُومٌ وَلَيْسَ عَلَى سَبِيلِ الْمَصَادَفَةِ وَالِاتِّفَاقِ. وَجِيءَ فِي قَوْلِهِ ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ اسْمًا لِلدَّلَالَةِ عَلَى الدَّوَامِ وَالثَّبَاتِ، فَحَصَلَ بِمَجْمُوعِ ذَلِكَ أَنَّ كِلَا الْفِعْلَيْنِ مُتَجَدَّدٌ وَثَابِتٌ، أَيْ كَثِيرٌ وَذَائِبٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَحَدَ الْإِخْرَاجَيْنِ لَيْسَ أَوَّلِي بِالْحُكْمِ مِنْ قَرِينِهِ» (2). فالفعل المضارع "يُخْرِجُ" الذي يدلُّ على الحدوث والتجدد والتكرار استعمل مع الحي؛ لأنَّ أبرز صفاته الحركة، في حين الاسم "مُخْرِجٌ" الذي يدلُّ على الثبوت والبقاء على تلك الحالة استعمل مع الميِّت؛ لأنَّ الميِّت في حالة همود وسكون وثبات.

إنَّ هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ الْمُؤَفَّكَونَ﴾ [الأنعام: 95]، من آيات الإعجاز العلمي النَّبَاتِي فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَضَمَّنَتْ الْعَدِيدَ مِنَ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ وَاللَّمَحَاتِ الْإِعْجَازِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهَا أَحَدٌ قَبْلَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. نَذَكَرْ مِنْهَا:

أولاً: الآية ذكرت أولى خطوات الإنبات وهي انفلاق النَّبَاتِ مِنَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وهذا من

(1) - الألوسي: روح المعاني. 227/7.  
 (2) - ابن عاشور: التحرير والتنوير. 389/7.

الإعجاز العلمي، «حيث تمّ التعرف علمياً على أنّ أوّل خطوات الإنبات هو تشرب الحبوب والنوى للماء فتنتفخ قشرتها ثم تنفلق وتنشق ثم تشقُّ تراب التربة فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها، فالله سبحانه يخرج النبات الحي من الحب والنوى الذي هو كالجماذ الميّت»<sup>(1)</sup>.

ثانياً: الآية فرّقت بين الحبّ والنوى، والمعلوم علمياً أن الحبّ غير النوى، فالحبّ (Grain) ثمرة كاملة مثل: حبوب الذرة والشعير، أمّا النوى فهو من البذور (seeds) وهي جزء من الثمرة ومن أمثلتها نوى الخوخ والعنب وبذور الفول والفاصوليا، وهذا التفريق بين الحب والنوى من الإعجاز العلمي النبائي في القرآن الكريم والذي سبق به القرآن التقسيم الحديث للبذور والثمار<sup>(2)</sup>.

ثالثاً: الآية ربطت بين عملية انفلاق الحب والنوى وإخراج الحي من الميّت والميّت من الحيّ، وهنا تتجلى عظمة القرآن الكريم وإعجازه فالمواد الغذائية الميتة المدخّرة في الحبوب والبذور (كبروهيدرات - دهن - بروتين - معادن - أملاح - ماء) كلها مواد ميتة ولكنها عندما تعبر أغشية الجنين تدبّ فيها الحياة وتحوّل إلى ستيوبلازم حي وخلايا جذيرة **ورويش** أحياء غير أموات<sup>(3)</sup>.

رابعاً: الآية أشارت إلى إمكانية عودة الحياة لتلك البذور التي فقدت أي شكل من أشكال الحياة، أو مرّت عليها سنوات طويلة، وهذا من الإعجاز العلمي فقد توصل العلماء حديثاً إلى أنّ البذرة تحوي بداخلها برامج خاصّة تبقّيها مُستعدة للحياة في أيّ لحظة؛ فالبذرة لها قدرة عجيبة فبمجرد وصول الماء إليها تبدأ بممارسة مهامها، وتبدأ بالانقسامات والنمو وإخراج نبات كامل. كما أنّ البذرة تحتفظ بكامل قدراتها على النمو لتنبت نفس النبات دائماً، أي أنّ بذرة النخيل لا تنبت إلاّ شجرة نخيل، وبذرة العنب لا تنبت إلاّ شجرة عنب وهكذا<sup>(4)</sup>.

وعليه، ومما سبق نستنتج أنّ هذه الآية التي تعدّ من الآيات الكونية المعجزة، التي خاطب فيها القرآن الكريم قلب الإنسان وعقله، بأسلوب لغويّ راقٍ وبحقائق كونية مبهرة، رسمت صورة واقعية لتجليات القدرة العالية في انفلاق الحياة من الموت «صورة تتجلى من ورائها يد

(1) - شعبان محمد إبراهيم: الأرض والنبات نظرة علمية وخواطر إيمانية. الدار العلمية للنشر والتوزيع، مصر، الإسكندرية، ط1، 1432هـ-2011م. ص: 172.

(2) - ينظر: موقع نظمي خليل أبو العطاء: الإعجاز في فائق الحب والنوى. 29/أكتوبر/2007م. <http://nazmikhalil.com>

(3) - ينظر: المرجع نفسه.

(4) - ينظر: عبد الدائم الكحيل: [www.kaheel7.com](http://www.kaheel7.com)

المبدع، وتقديره ورحمته، وتدبيره، صورة مؤثرة في العقل والقلب، موحية للبصيرة والعقل، دافعة إلى التدبر والتذكر، وإلى استخدام العلم والمعرفة للوصول إلى الحقيقة الكبرى المتناسقة»<sup>(1)</sup>.

وأن اختيار صيغة اسم الفاعل في سياق تلك الآية أبلغ وأدق من أي صيغة أخرى، فقد شككت المحور الرئيس فيها وكشفت عن هذه الدلالة العظيمة، لما تحمله من إيجاء دلالي وعلمي، في الآن نفسه؛ حيث تعانقت الدلالة الصرفية مع الدلالة العلمية لفظ "فالق" في عملية انفلاق الحب والنوى، ورسمت صورتها في ذلك المقام، تلك الصورة التي تتم كل لحظة، فهي مستمرة ودائمة، ففي كل لحظة تنفلق البذرة الجامدة عن نبتة نامية. فضلاً عن تعانق دلالة الصيغة الصرفية "مخرج" التي استعملت مع الميت والتي تدل على الثبوت والبقاء على تلك الحالة، بالحقيقة العلمية التي أشرنا إليها قبل قليل في إمكانية عودة الحياة لتلك البذور التي مرَّ عليها زمن طويل فتنمو من جديد إذا ما توفرت لها الظروف المناسبة؛ فتلك البذور التي تبدو لنا أنها ميتة لا طائل منها، قد تبثُّ فيها الحياة في أي لحظة توفرت فيها مسببات الحياة. فتوافقت الصيغة الصرفية لهذه اللفظة ومضمونها، بل وجاءت منسجمة مع معناها اللغوي ومؤكدة لدلالاتها العلمية.

(1) - أحمد السايح: من آيات الله في الحب والنوى. موقع بوابة دار المعارف الإخبارية 2017/6/4 <https://daralmaref.com>

## المبحث الرابع:

## السياق النحوي والحقائق العلمية في آيات خلق السماء والأرض

يُقصد بالسياق النحوي الكشف عن دلالة التركيب من خلال السياق، وهو يُعنى بالبنية النحويّة وعلاقة الكلمات ووظائفها ومواقعها من حيث التّقدم والتّأخير، الذّكر والحذف، ومجيء الفعل ماضيًا أو مضارعًا، مبيّنًا للمجهول أو مبيّنًا للمعلوم (1). وفي ما يأتي، ومن خلال بعض هذه القرائن النحوية نحاول دراسة التركيب النحوي الذي يرد في سياق آيات قرآنيّة معجزة في خلق السماء الأرض، مع تبيين دورها في تجلية المعنى وتوجيهه وتحديد الدلالة العلميّة وتحقيقتها:

## المطلب الأول: دلالة التحوّل في زمن الفعل

قسّم النحاة الأفعال من حيث الزّمن إلى ثلاثة أقسام وهي: ماضي وهو ما دلّ على حدوث شيء قبل زمن التّكلم، ومضارع وهو ما دلّ على حدوث شيء في زمن التّكلم أو بعده، وأمر: وهو ما يتطلب به حصول شيء بعد زمن التّكلم (2). وقد جعل الكوفيّون القسم الثّالث وهو الأمر يدخل ضمن الدلالة على زمن التّكلم "المستقبل"؛ فقسّموا الفعل إلى ماضٍ ومضارع فقط، واعتبروا فعل الأمر صورة من صور المضارع ومقتطع منه، ويرجع هذا الاختلاف بين النحاة في التّقسيم الزّمني للأفعال إلى تأثرهم بالتّفكير الفلسفي المنطقي، فالواقع اللّغوي يؤكّد قابليّة الأفعال للتّعبير عن المراحل المختلفة للزمان وفقا لما يمنحه لها السياق، أي التركيب في داخل الموقف اللّغوي الخاص (3). فالدلالة « الزمنية للأفعال قد تكون مباشرة من خلال إشارة صيغ الأفعال إلى دلالة بعينها، فتكون صيغًا للماضي والحاضر والمستقبل، وقد تكون دلالة غير مباشرة من خلال استخدام الأفعال في أزمنة تغاير صيغها، كأن تستخدم صيغ الحال أو المستقبل للدلالة على الماضي والعكس، ويتوقّف تحديد دلالة هذه الصيغ على السياقات التي وردت فيها» (4).

إنّ القاعدة النحويّة تقتضي التّعبير عن كل فعل أو حدث بزمنه، غير أنّه قد يعدل ويتحول الحديث بصورة فجائية وغير مألوفة بين الماضي والمضارع، أو العكس، وكذلك بينهما وبين الزّمن الحاضر. وهذا ما يسمّى بالعدول في صيغ الأفعال فتوضع إحداها موضع الأخرى وقد أشار إليه

(1) - ينظر: خليل خلف بشير العامري: السياق أنماطه وتطبيقاته في التّعبير القرآني. ص: 38.

(2) - ينظر: أحمد الحملاوي: شذا العرف في فن الصرف. ص: 15-16.

(3) - ينظر: محمد القاضي: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم. ص: 201.

(4) - مصطفى شعبان المصري: المناسبة في القرآن. ص: 310.

علمائنا الأوائل كما وضّح ابن الشجري في أماليه « علّة جواز هذا العدول قائلاً : ووجه استجازتهم هذا الإبدال مع تضادّ الأفعال أنّ الأفعال جنس واحد، و إنّما حولف بين صيغها لتدلّ كل صيغة على زمان غير الذي تدلّ عليه الأخرى، و إذا تضمّن الكلام معنى يزيج الإلباس جاز وضع بعضها في موضع بعض توسّعاً»<sup>(1)</sup>.

وإذا ما نظرنا إلى النصّ القرآني نجد حافلاً بنماذج وافرة من صور العدول؛ فكثيراً ما تجيء الأفعال في السياق القرآني خارج « التّمط المؤلف للغة من حيث التصرف في أزمنة الفعل، وذلك كالّتعبير عن الحدث الماضي بالمضارع والتّعبير عن الحدث المستقبل بالزمن الماضي، وكثيراً ما نجد السياق القرآني لا يجري على نمط واحد في المطابقة الزمنية بين الأفعال، إذ يحصل تصرف في التّحول الدّاخل للسياق نفسه بالمخالفة في أزمنة الأفعال، كأن يرد في السياق ذكر الفعل المضارع ثم ينكسر التّسق السياقي بمجيء الفعل الماضي في السياق نفسه أو العكس، ممّا يثير التّساؤل عن معرفة سبب ذلك التّحول ودلالته التّعبيرية في السياق القرآني»<sup>(2)</sup>. ومن صور هذا التّحوّل في زمن الأفعال في آيات الإعجاز العلمي في خلق السّماء والأرض ما يأتي:

### 1- دلالة التّحول عن الماضي إلى المضارع في آيات تصريف الرّيح والسّحاب:

فضلاً عن الدّلالة الزّمنية للفعل المضارع على الحال أو الاستقبال، فإنّه يمكنه أن يدلّ على حكاية الحال الماضيّة، فيكون « التّعبير بالفعل المضارع أبلغ من الماضي، يقول ابن الأثير: "واعلم أنّ الفعل المستقبل إذا أتى به في حالة الإخبار عن وجود الفعل، كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك لأنّ الفعل المستقبل يوضّح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصّورة حتّى كأنّ السّامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي وهذا ما أطلق عليه الزمخشري مصطلح: حكاية الحال»<sup>(3)</sup>، ومن بديع هذا الشّكل من أشكال التّحول ما ورد في قوله تعالى يصف إحدى الظّواهر الكونيّة في جوّ السماء: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقِنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيَّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ نُفِثُ الرِّيحَ﴾ [فاطر:9]. فلماذا عدل الفعل "تثير" من الماضي إلى المضارع؟ ولم تُنسب الإثارة إلى الرياح ونسب السّوق إلى الله؟ وهل هناك ترابط دلالي بين السياق النّحوي والحقائق العلمية لمضمون الآية؟

(1) - مصطفى شعبان المصري: المناسبة في القرآن - دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين اللفظ والسياق اللغوي. تقديم: طاهر سليمان حمودة، دار الكتب والوثائق القومية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ط2، 2015م، ص:311.

(2) - عبد الله علي الهتاري: تحولات الأفعال في السياق القرآني وأثرها البلاغي. مجلة الدراسات الاجتماعية، العدد الثاني والعشرون، يوليو - ديسمبر، 2006م. ص:3-4.

(3) - غياث بابو: دلالة العدول في صيغ الأفعال دراسة نظرية تطبيقية. مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، السنة الثالثة، العدد12، شتاء 1391هـ/2013م، ص:22.

يشير سياق هذه الآية من سورة فاطر إلى بيان القدرة الإلهية على الإحياء والبعث « فهو الذي يرسل الرياح فتثير سحابًا وينزل الماء على الأرض الميتة، فيستحيل الموت حياة، وهذه القدرة على إحياء الأرض بعد موتها تمثل لقدرته سبحانه على إحياء الموتى بعد موتهم»<sup>(1)</sup>.

ففي أول السورة قُدم الاستدلال بأن الله سبحانه وتعالى هو من فطر السموات والأرض، وما في السموات من أهلها، وهذا أعظم دليل على تفرده بالإلهية قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَئِكَ أَجْحَقَ مَثْنَى وَثَلَتَ وَرَبَعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: 1]. ثم نرى هنا في هذه الآية ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: 9] بالاستدلال بتصرف الأحوال بين السماء والأرض وذلك بإرسال الرياح وتكوين السحاب وإنزال المطر، فهذا عطف على قوله ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: 1]. واختير من دلائل الوحدانية دلالته بجمع أسباب المطر ليُفْضِيَ من ذلك إلى تَنْظِيرِ إحياء الأموات بعد أحوال الفناء بآثار ذلك الصنع العجيب وأن الذي خلق وسائل إحياء الأرض قادر على خلق وسائل إحياء الذين ضمتهُم الأرض على سبيل الإدماج<sup>(2)</sup>.

وفي سر اختيار هذه الآية الكونية المعجزة من بين الآيات الدالة على عظمة الله ووحدانيته، وبديع صنعه وكمال اقتداره؛ ذكر فخر الدين الرازي قوله: « ما الحكمة في اختيار هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له في كل شيء آية تدل على أنه واحد، فنقول: لما ذكر الله أنه فاطر السموات والأرض، وذكر من الأمور الساموية الأرواح وإرسالها بقوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ ذكر من الأمور الأرضية الرياح وإرسالها بقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾<sup>(3)</sup>. ففي سياق المقطع الأول تحدث عن الإرسال الروحي وهو إرسال الملائكة، وفي هذا المقطع تحدث عن الإرسال المادي وهو إرسال الرياح وتسببها المطر وإحيائها الأرض، فبين السياقين تلاؤم وترابط وثيق. وبهذا الإرسال يثبت أن الله قادر على البعث والنشور، والله العزّة وحده ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: 10].

إن المتأمل في كتاب الله الحكيم يلحظ أن هذا المشهد، وهو مشهد الرياح تثير السحاب، تردّد وتكرّر في مواضع عدّة، نذكر منها:

(1) - محمد أحمد أبو بكر أبو عامود: البلاغة الأسلوبية - تصوير الموت في القرآن نموذجاً. تقديم: عبد الرحيم محمود زلط، مكتبة الآداب: القاهرة، مصر، ط1، 1430هـ-2009م، ص: 103.  
(2) - ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. 267/22.  
(3) - فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 7/26.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا نَفَعْنَا لِسُقْمِهِمْ لَمْرَدًا مِمَّا نَزَّلْنَا بِهِ مِنَ الْمَاءِ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 57]، وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ [الحجر: 22-23]، وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ، مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: 48-49]، وقوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ، فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ، مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظِرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: 48-50].

هذه الآيات سجل حافل للوحات فنيّة عظيمة مُصوّرة، لوحة بعد لوحة؛ فاللّوحة الأولى إرسال الرّيح، فالرياح - بفعل الإرادة - تقوم بدورها مسيرةً بالقدرة محمّلة برسالة بعثها الله بها، لتكوّن اللّوحة الثّانية وهي إثارة السّحاب - بفعل الرّيح - تحركه من ثبات، وتسوقه أمامها، وتدفعه في اتجاهات محسوبة، ثم تبدأ في بسطه، وبتّه في الجوّ خفيفًا أو كثيفًا مطبقًا أو غير مطبق، ثم يتشكّل بفعل الدّفع والحركة قطعًا كثيفة متراكمة، يصدم بعضها مع البعض، ويصحب الحركة توتّعات في الشّكل واللّون والحيز، إلى أن تتشكّل اللّوحة الثّالثة حين تصل الحركة في تدافعها وتصادمها إلى خروج الماء وسقوط المطر من خلال السّحاب. وتتضخّم قطرات المياه وتتواصل في شكل مطر منهمر، وإذا اشتدّت البرودة تشكّلت قطرات المياه، تشكّلات جديدة، وتبدو في شكل البرد الأبيض، ويصيب ذلك كله - الماء، والبرد - من يشاء الله من عباده، أو يصرفه ويدفعه عمّن يشاء (1).

وفي سبب تكرّر هذا المشهد في القرآن الكريم ذكر سيد قطب قوله: « هذا المشهد يتردّد في معرض دلائل الإيمان الكونيّة في القرآن لأنّه دليل واقعي ملموس، لا سبيل إلى المكابرة فيه. ولأنّه من جانب آخر يهزّ القلوب حقًا حين تتملّاه وهي يقظى، ويلمس الشاعر لمسًا موحيا حين تتّجه إلى تأمله. وهو مشهد بهيج جميل مثير. وبخاصة في الصّحراء حيث يمر عليها الإنسان اليوم وهي محل جذب جرداء. ثم يمر عليها غدًا ممرعة خضراء من آثار الماء. والقرآن يتّخذ موحياته من مألوف البشر المتاح لهم، مما يمرّون عليه غافلين. وهو معجز معجب حين تتملّاه البصائر والعيون» (2).

(1) - ينظر: محمد قطب عبد العال: من جماليات التصوير في القرآن الكريم. سلسلة "دعوة الحق"، رابطة العالم الاسلامي - مكة المكرمة. السنة التاسعة، العدد 99، العام 1410هـ-1991م، ص: 128-130.

(2) - سيد قطب: في ظلال القرآن. 2929/22/5.

إذاً فالآيات التي ذكرت في هذا المحور كثيرة، وهي قريبة جداً من هذه الآية التي نحن بصدد دراستها - آية 9 سورة فاطر - ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾، ولا سيما الآية 48 من سورة الروم ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فترى الودق يخرج من خلله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ حيث تشابها في التركيب مع الاختلاف في شكل الفعل وزمنه.

إن الذي يميز الآية التاسعة من سورة "فاطر" هو الفعل ﴿ فُثِّيرُ ﴾ الذي جاء في سياق هذه الآية مضارعاً، دون غيره من الأفعال التي جاءت على صيغة الماضي، فشكّل المحور الرئيس فيها وكشف عن عدّة معاني ودلالات لغويّة وعلميّة عظيمة. ولقد ورد الجذر اللغوي "ثور" في القرآن الكريم خمس مرات فعلاً بصيغة «أفعل» (1):

مرتين فعلاً ماضياً؛ في قوله: ﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا ﴾ [الروم:9]، والمقصود من ﴿ وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا ﴾ قلبوها للزرع واستخراج خباياها، وقوله: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ [العاديات:4]، النقع: الغبار .

وثلاث مرات فعلاً مضارعاً؛ في قوله: ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ ﴾ [البقرة:71]، أي بتقليبها فيخرج ما بباطنها إلى ظاهرها، والمقصود حرث الأرض بالمحراث، وقوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [الروم:48]، وقوله: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾ [فاطر:9]، ﴿ فُثِّيرُ سَحَابًا ﴾ الرياح تهيج أبحرة الماء وتجمعها من هنا وهنا فتصير سحاباً.

أمّا في دلالاته المعجميّة والسِّيَاقِيّة فقد ذكر اللغويون والمفسّرون عدّة وجوه لمعناه، يمكن إيجازها في يأتي:

أ- الثَّاءُ وَالْوَاوُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ قَدْ يُمَكِّنُ الْجُمُعُ بَيْنَهُمَا بِأَدْنَىٰ نَظَرٍ. فَالْأَوَّلُ انْبِعَاثُ الشَّيْءِ، يُقَالُ: ثَارَ الشَّيْءُ يَثُورُ ثَوْرًا وَتُورًا وَتُورَانًا. وَالثَّانِي جِنْسٌ مِنَ الْحَيَوَانِ : فَلتُورُ مِنَ الثَّيْرَانِ، وَجَمْعُ عَلَى الْأَنْوَارِ أَيْضًا (2).

ب- الثَّورُ: الْعَضْبُ؛ حِدَّتُهُ. وَالثَّائِرُ: الْعَضْبَانُ، وَيُقَالُ لِلْعَضْبَانِ أَهْيَجَ مَا يَكُونُ: قَدْ ثَارَ ثَائِرُهُ وَفَارَ فَائِرُهُ إِذَا عَضِبَ وَهَاجَ عَضْبُهُ. وَثَارَ إِلَيْهِ ثَوْرًا وَتُورًا وَتُورَانًا: وَثَبَ. وَال مُثَاوَرَةٌ: الْمُوَابَهَةُ. وَثَاوَرَهُ مُثَاوَرَةً وَتُورًا (3).

(1) - ينظر: فهرس جذور كلمات القرآن. مادة: "ث و ر". وينظر: محمد حسن جبل: المعجم الاشتقاقي. مادة: "ث و ر".

(2) - ينظر: ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: "ث و ر".

(3) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة: "ث و ر".

ج- الثور: الظهور والسطوع؛ يقال تَارَ الدُّخَانُ والغُبَارُ وَغَيْرُهُمَا يَثُورُ ثُورًا وَثُورًا وَثُورَانًا: ظَهَرَ وَسَطَعَ، وَأَثَارَهُ هُوَ، وَتَارَ القَطَا مِنْ مَجْتَمِهِ وَتَارَ الجِرَادُ ثُورًا وَانْتَارَ: ظَهَرَ (1).

د- الثور: حُمْرَةُ الشَّفَقِ النَّائِرَةُ فِيهِ، وَفِي الحَدِيثِ: صَلَاةُ العِشَاءِ الآخِرَةِ إِذَا سَقَطَ ثُورُ الشَّفَقِ، وَهُوَ انْتِشَارُ الشَّفَقِ، وَثُورَانُهُ حُمْرَتُهُ وَمُعْظَمُهُ. وَيُقَالُ: قَدْ تَارَ يَثُورُ ثُورًا وَثُورَانًا إِذَا انْتَشَرَ فِي الأَفْقِ وَازْتَفَعَ، فَإِذَا غَابَ حَلَّتْ صَلَاةُ العِشَاءِ الآخِرَةِ، وَقَالَ فِي المَعْرِبِ: مَا لَمْ يَسْقُطْ ثُورُ الشَّفَقِ (2).

هـ- الثور: جَبَلٌ بِمَكَّةَ وَفِيهِ العَاظُ المذكور في القرآن، ويقال له ثور أطحل نُسِبَ إليه ثُورٌ بِنُ عَبْدِ مَنَاةَ لِأَنَّهُ نَزَلَهُ، وَثُورٌ: حَيٌّ مِنْ تَمِيمٍ. وَبُنُو ثُورٍ: بَطْنٌ مِنَ الرِّبَابِ وَإِلَيْهِمْ نُسِبَ سَفِيَانُ الثُّورِيِّ. وَثُورٌ: بُرْجٌ مِنَ بُرُوجِ السَّمَاءِ، عَلَى التَّشْبِيهِ. وَالثُّورُ: البَيَاضُ الَّذِي فِي أَسْفَلِ ظُفْرِ الإنسان (3).

وعليه فالمادة اللغوية "ثور" تحمل عدّة دلالات منها: الانتشار، والظهور، والسطوع، والهيجان. ويكون بذلك المعنى المحوري لها هو: «انتشار (حادّ) كامن في عمق الشيء إلى حيث يُرى في ظاهره: كالتطحلب النافذ على وجه الماء الرّكاد في بئر أو حوض، يُكوّن طبقة خضراء أعلاه. وكالطين خلال الماء المكدر. وكالغبار والدُّخان النافذ من الأرض والسّاطع في الأفق وكحبوب الحصبّة والحُمى طافحةً من باطن الجسم إلى ظاهره. وحدة ذلك كله أنّه يشوب الصّفاء» (4).

هذا عن الدلالة المعجمية والسياقية للجذر اللغوي "ثور" فماذا عن دلالاته النحوية في السياق التركيبي للآية التاسعة من سورة فاطر؟

كما قلنا - قبل قليل - إنّ الذي يميّز هذا الفعل في هذه الحالة هو مجيئه مضارعًا، خارجًا عن النّسق العام للسياق؛ حيث ابتدأت الآية بصيغة الماضي "أرسل" ثم عدلت إلى صيغة المضارع "فتثير" ثم عدلت إلى الأصلين الماضيين "سقناه" و"أحيينا"؛ فقد عطف المضارع على الماضي، وكان مقتضى النّسق أن يعطف على الماضي ماضيًا مثله فيقول: "أثارت" بدلا "تثير". فلماذا عدل عن الماضي للمضارع؟ وما سرُّ ذلك؟

لقد ذكر بعض العلماء والباحثين عدّة أسباب وأسرار لهذا العدول والتّحول في صيغة الفعل "تثير" نذكر منها:

أولاً: دلالة الفعل المضارع على العموم الزماني: «فالفعل المضارع يتّسم بخاصية تُكسبه الدلالة على العموم الزماني الذي يشمل الماضي والحاضر والمستقبل، وذلك حين يتحدّث عن حقائق ثابتة،

(1)- ينظر: المصدر نفسه. مادة: "ث و ر".

(2)- ينظر: المصدر نفسه. مادة: "ث و ر".

(3)- ينظر: الصحاح: الجوهري، وينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة: "ث و ر".

(4)- محمد حسن جبل: المعجم الاشتقاقي. مادة: "ث و ر".

أو صفات راسخة، أو يستحضر حالة، أو يشير إلى عادة تتكرر. فإذا قلت: الشمسُ تشرق صباحًا وتغيب مساءً، أو يطيب العيش مع الناس الكرام، والله يمنُّ على عباده الصالحين بالخيرات. أحسست أن دلالة الفعل المضارع على الحدث تشمل الأزمان كلها، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا «(1) . وكأنَّ "تثير" في آية فاطر ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ تُحَدِّثُ عن عمل وقدرة الرِّيح الدَّائمة على إثارة السَّحاب وليس عن لحظة زمنية تثير فيها السَّحاب.

ثانيًا: حكاية الحال الماضية التي يقع فيها الفعل؛ يقول الزمخشري: «فإن قلت: لم جاء "فتثير" على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت: لتحكِّي الحال التي تقع فيها إثارة الرِّيح السَّحاب، وتستحضر تلك الصُّورة البديعة الدَّالة على القدوة الرِّبائية» (2)، فمراعاة السِّياق الذي وقع فيه الفعل هي التي جعلت الفعل يرد بصيغة المضارع لا الماضي.

إن مجيء الفعل المضارع خارجًا عن النَّسق العام للسِّياق يؤدي إلى توليد دالتين بارزتين في السِّياق؛ دلالة نحوية متمثلة في الفعل المضارع الدَّال على الزَّمن الحاضر أو الاستقبال، وهذه الدَّلالة تقتضي استحضاره، ودلالة سياقية متمثلة في الإشارة إلى الزَّمن الماضي، وذلك بالعطف على الماضي أو مجيئه بعده، وهذه الدَّلالة تقتضي مضيئه (3). «فيجمع بين الدَّالتين ليقال: إنه الماضي الحاضر، أو بعبارة "فندريس" هو "المضارع التاريخي"، وذلك استعمال شائع في الحكاية حيث يسمى بالحاضر التاريخي، وفيه يجد المثقفون سحرًا خاصًا، يقولون بأنَّ الحاضر أكثر تعبيرًا أو أبلغ، حتى يجعل المنظر يجيا من جديد أمام عيني القارئ، ويرجع بفكرنا إلى اللحظة التي دار فيها الحديث» (4).

ثالثًا: إسناد فعل الإرسال إلى الله، وإسناد فعل الإثارة إلى الرِّيح؛ ذهب الرازي إلى أن السَّرَّ في مجيء الفعل "أرسل" ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ بلفظ الماضي، والفعل "تثير" ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ بصيغة المستقبل، «لأنَّه لما أسندَ فعلَ الإرسالِ إلى الله وما يفعلُ الله يُكونُ بقوله كُنْ، فلا يبقى في العدم لا زمانًا ولا جزءًا من الزَّمان، فلم يُلْ بلفظِ المُستقبلِ لِجُوبِ وَقُوعِهِ وَسُرْعَةِ كَوْنِهِ كَأَنَّهُ كَانَ وَكَأَنَّهُ فَرَعَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ قَدَّرَ الإرسالَ فِي الأوقاتِ الِمْ عُلُومَةِ إلى المواضعِ المُعَيَّنَةِ، والتَّقديرُ كالإرسالِ، وَلَمَّا أسندَ فعلَ الإثارةِ إلى الرِّيحِ وَهُوَ يُؤلَّفُ فِي زمانٍ فقال: ﴿تُثِيرُ﴾ أي على هَيْئَتِهَا» (5).

(1)- شلتاغ عيود: أثر التشابه الأسلوبي في القرآن الكريم. دار المحجة البيضاء، بيروت، لبنان. دط، 1424هـ-2003م، ص: 80.

(2)- الزمخشري: الكشاف.

(3)- ينظر: غياث بابو: دلالة العدول في صيغ الأفعال دراسة نظرية تطبيقية. ص: 22.

(4)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(5)- فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 7/26.

رابعاً: إثارة انتباه المتلقي واستحضار المشهد في الذهن «فإذا تأملنا سياق الآية وجدنا أنها تبدأ بالفعل الماضي "أرسل" لتهيئة الأذهان للدخول في بناء روائي، فالآية تُشير إلى ظاهرة كونية مُتكررة تؤكد قدرة الله على الإحياء من بعد الموت وتدلل عليها، وانتقل زمن الفعل من الماضي إلى المضارع لإثارة انتباه المتلقي ومحاولة استحضار هذا المشهد العظيم الدال على كمال القدرة والحكمة، كما أن الإثارة خاصة أثر لا ينفك في الغالب عن الرياح ولا يوجد إلا بعدها، فيكون مستقبلاً بالنسبة إلى الإرسال. وفي استخدام الفعل المضارع دلالة على تكرار الظاهرة، ثم جاء الانتقال والعودة إلى الأصل الفعل الماضي "سقناه-أحيينا" للدلالة على التحقق، وإسنادهما إلى نون العظمة المنبئ عن الاختصاص به تعالى لما فيهما من مزيد الصنع وتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث»<sup>(1)</sup>.

إذاً، فهذا عن الدلالة اللغوية (المعجمية والنحوية) للفعل "تثير" في هذه الآية ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر:9]، فماذا عن الدلالة العلمية لها وكيف فسرها العلماء علمياً؟

إن لهذه الآية وتلك الآيات التي ذكرت في محور الرياح وإثارتها للسحاب وتلقيحها وتشكيلها، ونزول المطر والبرد، دلائل إعجازية عظيمة، وحقائق علمية لم يدركها الناس إلا في هذا العصر مع تقدم علم المناخ والأرصاد الجوية، نذكر منها:

أولاً: الرياح هي العامل الرئيس في تشكّل السحب: من نتائج الأبحاث العلمية التي تُوصّل إليها حديثاً أنّ الرياح هي العامل الأساسي في تشكّل السحاب والمطر. ولولاها لانعدمت الأمطار؛ فاختلاف الحرارة على سطح الأرض من نقطة لأخرى يؤدي إلى اختلاف في كثافة الهواء "وزنه"، وبالتالي هذا الاختلاف يؤدي إلى حركة الهواء بتيارات تتناسب مع درجات الحرارة على سطح الأرض. الهواء الساخن سوف يرتفع للأعلى حاملاً معه بخار الماء من البحار والأنهار والمحيطات. وعندما يرتفع هذا البخار إلى طبقات الجو العليا حيث درجات الحرارة المنخفضة "تحت الصفر" فإنه يبدأ بالتجمّع والتكثّف. وهنا يأتي دور الرياح في حمل الغبار إلى طبقات الجو والتي تشكل مراكز لتجمّع ذرات بخار الماء حولها ثم تكبر حتى تشكل قطرة ثم مجموعة من القطرات الدقيقة ثم يتشكل السحاب. ولو أنّ حركة الرياح سكنت لانعدمت الأمطار لأنّ السحب لن تتشكّل ولن يكون هناك بخار على الإطلاق<sup>(2)</sup>.

(1)- محمد أحمد أبو بكر أبو عامود: البلاغة الأسلوبية. ص: 115-116.

(2)- ينظر: عبد الدائم الكحيل: كنوز من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. ص 66-67. www.kaheel7.com

**ثانيًا:** الرِّيح تثير السَّحاب وتُظهره: كلُّنا نعرف أنَّ السَّحاب هو بخار الماء الذي كان من قبلُ كما أنَّ في الهواء غير المشبع أو في الهواء فوق المشبع الخالي من الأيونات أو الغبار (أو ما يطلق عليها بنوى التكاثر)، ثم ظهر بالتكثيف بفعل الرِّيح لما انقلبت حالة الهواء من حيث التَّشبع أو من حيث نسبة الأيونات فيه، وهذا الانقلاب لا يكون إلا بفعل الرِّيح، سواء كان ذلك بحملها البخار إلى المناطق الباردة العلوية أو بحملها نوى التَّكاثف إلى تلك المناطق، وبالتالي فالرِّيح هي التي تثير السَّحاب؛ أي تقوم بتكوينه وإظهاره بعد أن كان بخارًا شفافًا لا يُرى في الجو. ثم يسطه وينشره الله بعد ذلك في السَّماء كيف يشاء، ويجعله الله بعد ذلك كسفا، أي قطعًا كبيرة يخرج من خلالها، أي فتوقها الودق، أي المطر وعندئذ يستبشر النَّاس فرحًا بهذا المطر. وبذلك يتَّضح لنا المعنى العلمي للآية الكريمة المراد من إثارة الرِّيح للسَّحاب، أي أثر الرِّيح في تكوين السَّحاب وإظهاره وليس نقله وسوقه فالسَّحاب لا يُساق إلا بعد أن يوجد<sup>(1)</sup>.

**ثالثًا:** تكوُّن السَّحاب بإثارة الرِّيح، وسوقه وتحركه بعد أن يوجد بإذن الله وتقديره: علميًا هناك فرق كبير بين تكوين السَّحاب وبين توزيعه وسوقه إلى مكان الحاجة إليه؛ فالتَّكوين لا يحتاج إلا إلى تكثيف، وهذا يكفي فيه أن يحمل البخار إلى حيث يمكن أن يتكاثف سحابًا في الجو، والرِّيح تفعل ذلك فيتكون السَّحاب فيزيائيًا في أي مكان، لكنَّ سوقه بعد تكوينه إلى حيث النَّاس والأنعام والزرع الذين في حاجة إليه يحتاج إلى تقدير وتدبير في توجيه الرياح من المولى - عزَّ وجلَّ - لأنَّه ليس من طبيعة الرِّيح غير العاقلة أن تتجه بالسَّحاب بعد تكوينه إلى حيث تشتد حاجة الأحياء إلى الماء، وإثما الله - عزَّ وجلَّ - يوجهها بالسَّحاب إلى حيث يشاء سبحانه أن ينزل الماء؛ ولهذا نسب الله إرسال الرِّيح وسوق السَّحاب لنفسه، ولا يزال كلاهما مظهرين لإرادته سبحانه يدلُّان الإنسان "مهما أوتي من العلم" على أنَّ من وراء هذا الكون لها مُدبِّرًا<sup>(2)</sup>.

**رابعًا:** تلقيح الرِّيح للسُّحب ونزول المطر: لقد توصلَّ العلم الحديث إلى أنَّ نمو السُّحب ونزول المطر يتطلب أن تُلقح الرِّيح هذه السُّحب بأكداس من جسيمات مجهرية تسمى "نويات التَّكاثف"، ومن أهم خواص هذه النويات أنَّها تمتص الماء أو تذوب فيه، وتحمل الرِّيح كذلك بخار الماء وتلقح به السَّحاب لكي يمطر. وتتم العمليَّة بتجمع جزيئات الماء المنفصلة والموجودة في الهواء

(1) - ينظر: منصور محمد حسب النبي: سلسلة الكون كتاب الله المنظور، آيات ودلالات- الرياح نعمة ونقمة. 29/4-30. وينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن والسنة النبوية. ص: 123-124.

(2) - ينظر: منصور محمد حسب النبي: سلسلة الكون كتاب الله المنظور، آيات ودلالات. الرياح نعمة ونقمة. 29/4-30. وينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن والسنة النبوية. ص: 123-124.

حول نويات التكاثر، ومن هنا اهتدى العلماء أن الآية الكريمة: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَادِرِينَ ﴾ [الحجر:22]، التي حملها كثير من المفسرين على أن الرياح اللواقح تلمح النباتات فتحمل الطلح من الذكر إلى الأنثى فتلقح بويضاتها، إنما تشير في الأصل واستناداً إلى السياق في هذا المقام إلى حقيقة أخرى أدق وهي تلقيح الرياح للشحوب ببخار الماء ثم بنويات التكاثر كخطوة أساسية لكي تجود بالمطر<sup>(1)</sup>.

و عليه، ومما سبق نستنتج أن هذه الآية المعجزة ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسَقَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ [فاطر:9]، فيها تعانق دلالي بين سياقها اللغوي (المعجمي والنحوي) وتفسيرها العلمي (المستند على حقائق مكتشفة حديثاً في إثارة الرياح للسحاب) في نقاط عدة:

فمن المعاني المعجمية لـ ﴿ تُثِيرُ ﴾ الظهور الناتج عن هيجان وانتشار حادّ كامن في عمق شيء ما، وإذا نظرنا إلى الطريقة التي يتكوّن بها السحاب حسب ما جاء به العلم الحديث نجد أن الرياح تُظهر السحاب فعلاً بعد خفائه، - وذلك بتكوينه وتكثيفه - بعد أن كان بخاراً شفافاً لا يُرى في الجو - وهذا الإظهار هو إظهار التكوين؛ أي ما يُسبب التكتيف. وليس الإظهار الناتج من تغيير مكان السحاب، لأنّ هذا الأخير خاص بمعنى السّوق من مكان إلى مكان لا بمعنى الإثارة التي تكون في مكان معيّن.

ومن المعاني النحوية لصيغة المضارع في قوله ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ حكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصّورة البديعة الدّالة على كمال قدرته وحكمته، وفي هذه الآية الكريمة « من وضوح الدّالة على كيفية نشوء السّحاب من الماء بواسطة الرّيح، ما يجعلنا نبهر بإعجازها وتصويرها البديع لهذه الحقيقة العلميّة التي أثبتتها العلماء المتأخرون وبنوا عليها نظرية دورة الماء في العالم. هذا بالإضافة إلى إيجاز عبارتها والمعاني العميقة التي ترقد في أعماق كلماتها، والتي تؤدي في النّهاية إلى المطابقة بين ما يحدث في الحياة الدّنيا، وما سيحدث يوم البعث والنّشور»<sup>(2)</sup>.

(1) - ينظر: عطية محمد عطية: الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم، 328-329.

(2) - لبيب بيضون: الإعجاز العلمي في القرآن. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ-2003م، ص:108.



لكن الذي يميز هذه الآية ﴿الَّذِي تَرَأَى اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: 63]. هو عدول الماضي فيها إلى المضارع، فما سبب ذلك؟ وقبل ذلك ما الدلالة المعجمية والسياقية للفظه ﴿فُتُصْبِحُ﴾ - التي وقع عليها العدول - في المعاجم والتفاسير؟

لقد ذكر اللغويون والمفسرون عدة وجوهٍ لمعنى "تصبح"، يمكن إيجازها في يأتي:

أ- صباح: «الصَّادُ وَالْبَاءُ وَالْحَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُطَّرِدٌ. وَهُوَ لَوْ نَ لَوْنٌ مِنَ الْأَلْوَانِ قَالُوا: أَصْلُهُ الْحُمْرَةُ»<sup>(1)</sup>. وقيل: الصُّبْحَةُ والصَّبْحُ: سَوَادٌ إِلَى الْحُمْرَةِ، وَقِيلَ: لَوْ نَ قَرِيبٌ إِلَى الشُّهْبَةِ ، أَوِ الصُّهْبَةِ، وَالْأَصْبَحُ مِنَ الشَّعْرِ: الَّذِي يُحَالِطُهُ بَيَاضٌ بِحُمْرَةٍ حِلْقَةً أَيًّا كَانَ ، وَقَالَ اللَّيْثُ: الصَّبْحُ شِدَّةُ الْحُمْرَةِ فِي الشَّعْرِ، وَرَجُلٌ أَصْبَحَ اللَّحْيَةَ: لِلَّذِي تَعْلُو شَعْرَهُ حُمْرَةً، وَالْأَصْبَحُ الَّذِي يَكُونُ فِي سَوَادِ شَعْرِهِ حُمْرَةً؛ وَمِنْهُ صُبْحُ النَّهَارِ مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَصْبَحِ؛ قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: وَلَوْ نَ الصُّبْحُ الصَّادِقِ يَضْرِبُ إِلَى الْحُمْرَةِ قَلِيلًا كَأَنَّهَا لَوْ نَ الشَّفَقِ الْأَوَّلِ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ<sup>(2)</sup>.

ب- الصَّبَاخُ: نُورُ النَّهَارِ<sup>(3)</sup>. والصُّبْحُ: الفجر، أَوِ أَوَّلِ النَّهَارِ ، والصَّبَاخُ: نقيض المساء، وَالْجَمْعُ أَصْبَاخٌ، وَهُوَ الصَّبِيحَةُ وَالصَّبَاخُ وَالْإِصْبَاخُ وَالْمُصْبِحُ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَالِقِ الْإِصْبَاخِ﴾؛ قَالَ الْقُرَّاءُ: إِذَا قِيلَ الْأَمْسَاءُ وَالْأَصْبَاخُ، فَهُوَ جَمْعُ الْمَسَاءِ وَالصُّبْحِ. قَالَ سِيبَوَيْهِ: لَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا ظَرْفًا، قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: صَبَحْتُ فُلَانًا أَتَيْتَهُ صَبَاخًا؛ وَصَبَحَهُ يَصْبَحُهُ صَبْحًا، وَصَبَحَهُ: سَقَاهُ صَبُوحًا، فَهُوَ مُصْطَبَحٌ؛ وَتَقُولُ: صَبَحْتُ الْقَوْمَ تَصْبِيحًا إِذَا أَتَيْتَهُمْ مَعَ الصَّبَاخِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ عَنَتْرَةَ يَصْرِفُ خَيْلًا: وَعَدَاةٌ صَبَّخَنَ الْجِفَارَ عَوَابِسًا، ... يَهْدِي أَوَائِلَهُنَّ شُعْتٌ شَرَبٌ أَيِ أَتَيْنَا الْجِفَارَ صَبَاخًا؛ يَعْنِي خَيْلًا عَلَيْهَا فُرْسَانُهَا<sup>(4)</sup>.

ج- أصبح: بمعنى صار؛ ففي كتب التفاسير فسروا لفظه: ﴿فُتُصْبِحُ﴾ في سياق قوله تعالى: ﴿الَّذِي تَرَأَى اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾، على أنها بمعنى: تصير، أو تضحى، أو تظل، ونحو ذلك ما جاء في تفسير ابن عطية قوله: «فُتُصْبِحُ» بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ: فَتُضْحِي أَوْ فَتُصِيرُ، عِبَارَةٌ عَنِ اسْتِعْجَالِهَا إِثْرَ نُزُولِ الْمَاءِ وَاسْتِمْرَارِهَا كَذَلِكَ عَادَةً<sup>(5)</sup>. وجاء في التحرير والتنوير «(تُصْبِحُ) بِمَعْنَى تَصِيرُ فَإِنَّ خَمْسًا مِنْ أَخْوَاتِ (كَانَ) تُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى: صَارَ»<sup>(6)</sup>.

(1) - ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: "صبح".

(2) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة: "صبح".

(3) - ينظر: ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: "صبح".

(4) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة: "صبح".

(5) - ابن عطية: المحرر والوجيز. ص: 1320.

(6) - ابن عاشور: التحرير والتنوير. 318/17.

وعليه فالجذر اللغوي "صبح" يدل في المعجم على أي شيء يخالطه سواد بجمرة، ويدل على الفجر، وأول ضوء النهار ونوره. فالمعنى المحوري لـ "صبح" « ضوء أو بياض ينتشر بقوة فيغلب ما يصادفه من ظلام أو سواد »<sup>(1)</sup>. أمّا معنى الفعل "تصبح" في التفسير هو "تصير" « وخصّ ذكر الصّباح بهذا دون سائر أحواتها، لأنّ رؤية الخضره بالنّهار أوضح منه بالليل، والمعنى: أنّ الأرض صارت على هذا بالليل والنّهار، فتصبح بمعنى فأصبحت، وهذه أصول من باب صار وأحواتها»<sup>(2)</sup>.

إنّ أول ما يُلحظ من السّياق التّركيبي لهذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: 63]. هو توظيف فعلين أساسيين هما: ﴿أَنْزَلَ﴾ و﴿فُتُصِبُ﴾ وأنّ الفعل الأوّل جاء بصيغة الماضي في حين جاء الفعل الثّاني بصيغة المضارع، فقال "تصبح" مع أنّ الأصل "أصبحت" بصيغة الماضي، فلم استهل السّياق بنية هذه الصّورة بصيغة الماضي؟ ولم عدل عنها إلى صيغة المضارع لاحقاً؟

لقد اختيرت صيغة الماضي في ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ وذلك لأنّ الرؤية الباعثة على التأمّل والاعتبار لا تتعلق بتلك الأحداث في ذاتها بل بنتائجها أو آثارها المترتبة عليها، فمتعلّق الرؤية ومثار الاعتبار في الآية ليس هو نزول الماء؛ إذ إنّ هذا النزول لا يتيسّر حدوثه إلّا في الحين بعد الحين، ولأنّه - حين يحدث - لا يدوم دوام آثاره المترتبة عليه والتي هي متعلّق الرؤية وموطن العبرة في الآية<sup>(3)</sup>.

في حين صُرف لفظ ﴿فُتُصِبُ﴾ من الماضي إلى المستقبل ولم يقل: "فأصبحت" وذلك للإشعار ببقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، فإن مضى إنزال المطر، فإنّ احضرار الأرض باقٍ لم يمض، وأيضاً لاستحضار صورة الاحضرار على وجه الأرض؛ يقول الرّبخشري معللاً هذا العدول: « فإن قلت: هلاً قيل: فأصبحت؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع؟ قلت: لنكته فيه، وهي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما تقول: أنعم عايّ فلان عام كذا، فأروح وأغدو شاكر له. ولو قلت: فرحت وغدوت، لم يقع ذلك الموقع»<sup>(4)</sup>. ويرى الشنقيطي: « أنّ التّعبير بالمضارع يُفيد استحضار الهيئة التي اتّصفت بها الأرض: بعد نزول المطر، والماضي لا يُفيد دوام استحضارها؛ لأنّه يُفيد انقطاع الشيء»<sup>(5)</sup>.

(1) - محمد حسن حسن جبل: المعجم الاشتقاقي. ص: 1189. مادة: "صبح".

(2) - مكي بن أبي طالب القيسي: الهداية إلى بلوغ النهاية (تفسير مكي). كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، الشارقة، الإمارات، ط1، 1429هـ-2008م، ص: 4925-4926.

(3) - ينظر: حسن طبل: أسلوب الإنقاعات في البلاغة القرآنية. دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، دط، 1998م/1418هـ، ص: 79-80.

(4) - الزمخشري: الكشاف. 209/4.

(5) - الشنقيطي ( محمد الأمين بن محمد المختار الجكني): أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد. دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط1، 1426هـ، 809/5.

أما رفع الفعل "تصبح" في هذه الآية مع أن قبله استنفهاماً لأمرين: أحدهما: أن الاستفهام في هذه الآية جاء بمعنى الخبر؛ أي: قد رأيت، فلا يكون له جواب « وإلى هذا ذهب الفراء فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خبرٌ كما تقول في الكلام اعلم أن الله تعالى يفعل كذا فيكون كذا، وقال سيبويه: وسألته يعني الخليل عن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ فقال هذا واجبٌ وهو تنبيهٌ كأنك قلت: أسمع؟»<sup>(1)</sup>.

والثاني: أن معنى الفعل إثبات الخضار ولو نصب لنفي الخضار: يقول الزمخشري: «فإن قلت: فما له رُفِعَ ولم يُنصَبْ جواباً لئلا ينفيهم. قلت: لو نُصِبَ لأعطى ما هو عكس العرض؛ لأن معناه إثبات الإخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الإخضرار. مثاله: أن تقول لصاحبك: ألم تر أي أنعمت عليك فتشكر، إن نصبت فانت نافية لشكره شك تفرطه، وإن رفعت فانت مثبتة للشكر»<sup>(2)</sup>.

كما علل البقاعي سبب العدول والرفع استناداً إلى السياق في ذلك بقوله: «ولما كان هذا الاستفهام المتلوه بالنفي في معنى الإثبات لرؤية الإنزال لكونه فيه معنى الإنكار، عطف على ﴿أنزل﴾ معقباً له على حسب العادة قوله، معبراً بالمضارع تنبيهاً على عظمة النعمة بطول زمان أثر المطر وتجدد نفعه: ﴿فتصبح الأرض﴾ أي بعد أن كانت مسودةً يابسةً، ممتةً هامدةً ﴿مخضرةً﴾ حيةً يانعةً، مهتزةً ناميةً، بما فيه رزق العباد، وعمار البلاد، ولم ينصب على أنه جوابه لئلا يفيد نفي الإخضرار»<sup>(3)</sup>.

وعليه فقد سيقت الآية للفت نظر الإنسان أو إثارة تأمله واعتباره بما تضمنته من أحداث ومشاهد كونية، فهذا اللفظ هو مدلول صيغة الاستفهام التقريري التي صدرت بها الآية ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، وهذا التحول عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع في الآية عند التعبير عن هذه الأحداث التي هي في ذاتها "أي بصورتها وكيفية حدوثها" موطن العبرة ومثار تأمل الإنسان المؤمن الذي يرى في الصورتين؛ صورة إنزال الماء من السماء، وصورة الأرض مزدانة بالخضرة، أدلة قاطعة على قدرة الخالق عز وجل<sup>(4)</sup>.

(1) - الألويسي: روح المعاني. 192/17.

(2) - الكشاف: الزمخشري. 209/4.

(3) - البقاعي (برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر ت885هـ): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، دط، دت، ص: 82/13.

(4) - ينظر: حسن طبل: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية. ص: 79-80.

لذا فقد عُدَّت هذه الآية وتلك الآيات القريبة من معناها والمذكورة في سياقات أخرى من كتاب الله، من آيات الإعجاز العلمي في خلق المطر والنبات، لما تحمله من دلالات علمية لكثير من الحقائق الكونية التي أقرها العلم الحديث. ومن تلك الحقائق العلمية التي أشارت إليها تلك الآيات الكريمات نذكر:

أولاً: تأثر التربة ونمو النبات بنزول الماء: لقد ثبت علمياً أنَّ الأرض الجافة الخالية من الماء هامة خالية من أي نوع من أنواع الحياة، وعند نزول الماء عليها تنتعش فيها كل صور الحياة من بكتريا، وفطريات، وطحالب، وغيرها، فتتهرُّ التربة وتتحركُ بالنبات وجميع أحياء التربة، وتتشربُ بذور وحبوب النباتات الماء وتنفخ، ثم تنبت جذيرا يتحرك إلى أسفل وريشة تتحرك إلى أعلى لتكوّن الجزء الخضري من النبات. وقد صُوِّرت هذه المراحل بالتصوير البطيء وأثبتت الصور صدق القرآن الكريم في كل ما أشار إليه في هذه القضية<sup>(1)</sup> في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:5]. وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:39]. وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَصُخِّبَ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾ [الحج:63]. فالقرآن الكريم حدَّثنا بدقة علمية تامة عن مراحل الإنبات بالتسلسل المنطقي، ومن عظمته أنه لخص كل هذه المراحل بثلاث كلمات فقط: (اهتَزَّتْ، وَرَبَّتْ، وَأَنْبَتَتْ).

ثانياً: الماء واليخضور وعملية التمثيل الضوئي: إنَّ ما يميِّز به النبات الأخضر ويجعله مختلفاً عن غيره، هو وجود المادة الخضراء به، تلك المادة التي أسماها العلماء الكلوروفيل، وسميت بالعربية "اليخضور أو اليخضوب"؛ هذه المادة الخضراء تقوم بعملية غاية في الغرابة، أسماها العلم "عملية التركيب أو التمثيل الضوئي"، وهي أساس الحياة لأنها هي التي تُعدُّ غذاءً كل حيٍّ بطريقة أغرب وأعجب، فعندما تشرق الشمس على الأوراق الخضراء المحتوية على مادة الكلوروفيل يتم اتحاد ثاني أكسيد الكربون الذي يدخل من الجو إلى مسام هذه الأوراق مع الماء الذي يصل إليها من الأرض لينتج الكربوهيدرات (السكريات والنشويات) في الأوراق الخضراء ليغذي النبات نفسه ويمد الحيوان والإنسان بالمرعى والمواد الغذائية اللازمة لحياة الجميع<sup>(2)</sup>.

(1) - ينظر: شعبان محمد إبراهيم: الأرض والنبات نظرة علمية وخواطر إيمانية. ص:137. وزغلول النجار: من آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن. ص:364.

(2) - ينظر: منصور محمد حسب النبي: الماء لغز الحياة، سلسلة: الكون كتاب الله المنظور آيات ودلالات. ص:26. وأحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص:424-425.

وإن كان ضوء الشمس يغمر النباتات كل ساعات النهار، فإنَّ المدَّة التي يمتصُّ فيها الكلورفيل هذا الضوء - حسب ما قرَّر العلماء - يتم في جزء من الثانية الواحدة، بل إنَّه في بعض التفاعلات التي يتم فيها هذا التكوين لا يتعدَّى الوقتُ جزءاً من مليون جزء من الثانية، ويأخذ اليخضور ثاني أكسيد الكربون ويُطلق الأكسجين الذي يحتاجه الإنسان والحيوان في التنفس، أمَّا الماء فيأخذه من الأرض (1).

إنَّها حقاً عمليَّة كيميائية مذهلة تتم في كل نبات أحضر، لتلعب دوراً خطيراً في لغز الحياة والموت، بل وتوازن الغلاف الجوي، وتنقيته حيث يمتص النبات ثاني أكسيد الكربون السام في هذه العمليَّة ويخرج بدلا منه الأكسجين المنعش. وليست هذه مصادفة أن يتم التوازن في نسبة الغازات في الجو لتبقى الأرض دائما صالحة للحياة بفضل الماء والشمس واليخضور. حقاً إنَّ هذه العمليَّة قصد إلهي هيأ كوكب الأرض للحياة. إنَّه نظام ولا بد للنظام من منظم، ولهذا يشير الخالق - عزَّ وجل - إلى اليخضور في قوله: ﴿الَّذِي تَرَأَتْهُ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ نِازِلًا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: 63]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 99] (2).

وعليه ومما سبق نستنتج:

أنَّ كلمة "تُصْبِحُ" معجمياً قد تعني: "تصير، تظل، تضحى"، غير أنَّ لفظ "تُصْبِحُ" في قوله تعالى: ﴿الَّذِي تَرَأَتْهُ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ نِازِلًا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، تحمّل من الدلالة ما يتناسب وسياقها؛ فهي تدلُّ على ضوء أول النهار ونوره الذي ينتشر بقوة فيغلب ظلام الليل وسواده. وأنَّ هذه الدلالة السياقية لكلمة "تُصْبِحُ" تلتقي وتتعاقد مع الحقيقة العلمية التي أشرنا إليها قبل قليل في أنَّ الضوء من أبرز وأهمُّ شروط تكوُّن اليخضور في النبات، وإن كان الضوء يغمر النبات طوال النهار فإنَّ فترة استفادة اليخضور منه هي الثواني الأولى من ظهوره. وبالتالي فهذه الكلمة أبلغ وأدقُّ في الوصف من أيِّ لفظ آخر؛ حيث أنَّ أي كلمة أخرى لا تسدُّ مسدَّ هذه الكلمة في دلالتها على ذلك المعنى وإن كانت من أحواتها.

(1) - ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 425.

(2) - ينظر: منصور محمد حسب النبي: الماء لغز الحياة، سلسلة: الكون كتاب الله المنظور آيات ودلالات. ص: 28-29.

أنّ التعبير بالماضي يفيد انقطاع الشيء، أمّا التعبير بالمستقبل يفيد الاستمرارية والامتداد النسبي للزمن، والآية استهلّت التعبير بالماضي بلفظة "أنزل" لتدلّ على أنّ زمن إنزال المطر من السماء قد مضى، ثمّ عدلت بذلك للتعبير بصيغة المضارع "تصبح" للإشعار ببقاء أثر المطر تحت الأرض، واستحضار صورة الاخضرار واستمرارها فوق الأرض، وهنا تلتقي هذه الدلالة النحويّة مع الحقيقة العلميّة في عمليّة الإنبات التي تتمّ عبر مراحل متسلسلة غير منقطعة، فهي تبدأ باهتزاز التربة بنزول الماء عليها، إلى انتفاخ البذور بتشرّبها للماء، ثمّ الإنبات، والاخضرار، والإزهار، والإثمار.

## المطلب الثاني: دلالة التقديم والتأخير

يعدُّ التقديم والتأخير من أولى القرائن التحوّية التي أولاهما النُّحاة أهميّة بالغة في البحث عن دلالة السّياق، إذ تُمثّل حركة التّغيير في رتبة أحد أجزاء الجملة بانتقال المكونات التركيبيّة والدلاليّة من مكان إلى آخر لغرض دلالي أو بلاغي. وقد قال عنها عبد القاهر الجرجاني بأنّها: « بابٌ كثيرُ الفوائد، جُمُّ المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفتُرُّ لك عن بديعة، ويُفْضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمَعُهُ، ويلطفُ لديك مَوْقَعُهُ، ثم تنظرُ فتجد سبب أن راقك ولطفَ عندك، أن قدّم فيه شيءٌ، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان»<sup>(1)</sup>.

وتتعدّد الأسباب التي يُقدّم اللفظ من أجلها أو يُؤخّر عند العلماء، وقد عدّد السّيوطي في مؤلفه "الإتقان في علوم القرآن" عشرة أسباب للتقديم والتأخير، وهي: التبرك، التعظيم، التّشريف، المناسبة، الحثُّ عليه، السّبِق، السّببيّة، الكثرة، التّرقّي من الأدنى إلى الأعلى، التّدلي من الأعلى إلى الأسفل. وأضاف في الأخير رعاية الفواصل وإفادة الحصر والاختصاص<sup>(2)</sup>. وأجمل أهمّ أسرار التقديم والتأخير في قوله: « قد يُقدّم لفظٌ في موضع، ويُؤخّر في آخر. ونكتة ذلك: إمّا لكون السّياق في كلّ موضعٍ يقتضي ما وقع فيه، كما تقدّمت الإشارةُ إليه، وإمّا لقصدِ البداءة والختّم به، للاعتناء بشأنه، كما في قوله: ﴿يَوْمَ بَيَضُ وُجُوهُ وُجُوهُ وَسَوَدُ وُجُوهُ﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أبيضتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿آل عمران: 106-107﴾. وإمّا لقصدِ التّفنن في الفصاحة وإخراج الكلام على عدّة أساليب، كما في قوله: ﴿وَادْخُلُوا أَبْوابَ سُجْدًا وَفُؤُلُوا حِطَّةً﴾ [البقرة: 57]. وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا أَبْوابَ سُجْدًا﴾ [الأعراف: 161]»<sup>(3)</sup>.

وقد حاز التّعبير القرآني الكريم الحدّ الأعظم من هذه الظّاهرة، فهو تعبير مُعجز له أسرارته التي قد ينكشف لنا بعضها، ويخفى علينا الكثير منها، فليس تقديم كلمة في موضع وتأخيرها في موضع آخر، أو تقديم المفعول به على الفاعل في مواضع متعدّدة مُجرّد صدفة بل هو أمر مقصود يحمل في طيّاته دلالات بلاغيّة تتعلّق بالسّياق<sup>(4)</sup>. ومن مواضع التقديم والتأخير في آيات الإعجاز العلمي في السّماء والأرض ما يأتي:

(1)- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 143.  
(2)- ينظر: جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن. 1402/4-1411.  
(3)- جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن. 1411/4.  
(4)- ينظر: محمّد أحمد أبو بكر أبو عامود: البلاغة الأسلوبية. ص: 61.

## 1- دلالة تقديم المفعول به في آية القمر ومنازله:

المفعول اسم وقع عليه أثر الفعل الحاصل من الفاعل، وقد عرّفه التحوُّون بأنه: «كُلُّ فُضْلة انتصبت بعد تمام الكلام يكون محلاً للفعل خاصّة، نحو: ضرب زيدٌ عمراً؛ لأنّ الفُضْلة ممّا يُستغنى عنها، والعُمدة ممّا لا يُستغنى عنها»<sup>(1)</sup>. فالأصل « في الجمل التي تحتوي مفعولاً به أن يوتى بالفعل، فالفاعل، بالمفعول به، وذلك نحو ينصر الله المجاهدين، ولا يعدل عن مثل هذا التعبير، إلا لسبب فيقدم المفعول به على الفاعل نحو "ينصر المجاهدين الله" أو يقدم المفعول به على الفعل نحو "المجاهدين ينصر الله"<sup>(2)</sup>.

ومن أمثلة تقديم المفعول به على الفعل والفاعل في آيات الإعجاز العلمي في السماء، قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَيْلٌ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فِإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٢٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: 37-40].

فالتقديم والتأخير في هذه الآيات وقع في قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ ومقتضى الظاهر في هذه الآية أن يتقدم الفعل ﴿قَدَرْنَاهُ﴾ على المفعول به ﴿وَالْقَمَرَ﴾ غير أنّ البنية خالفت هذا الظاهر، فما السبب وراء هذا العدول؟

يصوّر سياق هذه الآيات من سورة "يس" مظهرًا من المظاهر الكونية الإبداعية في السماء، جعلها الله تعالى أدلّة على قدرته العظيمة « خَلْقُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، هَذَا بِظُلَامِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ، وَجَعَلَهُمَا يَتَعَاقَبَانِ، يَجِيءُ هَذَا فَيَذْهَبُ هَذَا، وَيَذْهَبُ هَذَا فَيَجِيءُ هَذَا، كَمَا قَالَ: ﴿يَغْشَى أَيْلُ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ، حَيْثُ﴾ [الأعراف: 54]»<sup>(3)</sup>.

وقد جاء التعبير القرآني عن هذه الظاهرة - في هذا الموضع - تعبيراً فريداً. فهو يصوّر النهار متلبساً بالليل، ثم ينتزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلمون؛ فنحن أمام الليل في قدومه الحثيث، والنهار أمامه يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى يختفي ثم تبدى الظلمة غاشية. وتتوالى إلى الحركة الخفية المتعادلة بين الليل والنهار.. يوماً وراء يوم، وهي مع تكرارها عجيبة تدعو إلى التأمل والتدبر<sup>(4)</sup>.

(1) - مصطفى شعبان المصري: من الإعجاز اللغوي في القرآن 233

(2) - فاضل صالح السامرائي: معاني النحو. شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة-مصر، ط2، 1423هـ-2003م، 74/2.

(3) - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 576-575/6.

(4) - ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن. 2968/23/5. ومحمد قطب عبد العال: من جماليات التصوير في القرآن الكريم.

كما امتاز هذا التعبير بأسلوبه العلمي والفني، فانطوى «على أكثر من صورة استعارية تتصل بإكساب الشمس والقمر والليل والنهار: صفاتٍ بشريةً مثل الجري والسباحة. هذه الصور الرمزية والتشبيهية والاستعارية جاءت في سياق التعريف بظواهر الكون، حيث أن اللغة العلمية هي التي تتكفل ببيان حقائق الكون، بيد أن النص القرآني الكريم استخدم لغة "الفن" أيضاً في عرضه للحقائق العلمية المشار إليها، مما يكسب ذلك: إمتاعاً فنياً بالغ الإثارة والدهشة»<sup>(1)</sup>.

فهذا المشهد يتكوّن من عدّة صور، اخترنا الحديث عن صورة القمر؛ هذه الصورة التي «رسمها التعبير القرآني وشبهها بعدق النخلة الذي يحمل التمر فأوله يكون في جزع النخل، وآخره متدلي مثل القوس، لذا شبه التعبير القرآني القمر به، وهذا التعبير رسم صورة القمر في أوقات فلوله، وكأنّها تصور ملامح الوداع والرحيل، وذلك لأنّ القمر يكون قمراً في منتصف الشهر، ولا يزال في منازلته حتى يصبح دقيقاً نحيلاً، محدوداً، وكأنّما هو في السماء كوكب تائه، يأخذ في لياليه الأولى شكل الهلال، وفي الأولى تبدو عليه النضارة، وفي الأخير يغشاه شحوب ووجوم، ويكسوه فتور وذبول، كذبول العرجون»<sup>(2)</sup>. يقول سيد قطب: «والذي يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة يُدرك ظلّ التعبير القرآني العجيب: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ وبخاصة ظل ذلك اللفظ "القديم". فالقمر في لياليه الأولى هلال. وفي لياليه الأخيرة هلال.. ولكنه في الأولى يبدو وكأنّ فيه نضارة وفتوة. وفي الأخيرة يطلع وكأنّما يغشاه سهوم ووجوم، ويكسوه شحوب وذبول. ذبول العرجون القديم! فليست مصادفة أن يعبر القرآن الكريم عنه هذا التعبير الموحى العجيب!»<sup>(3)</sup>.

إنّ في الدلالة المعجمية للفظة ﴿وَالْقَمَرَ﴾ نجد أنّ المادّة اللغويّة "قمر" في المعاجم العربية تعني البياض والضياء؛ فقد جاء في مقاييس اللغة «(قَمَرَ) الْقَافُ وَالْمِيمُ وَالرَّاءُ أَضْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى بَيَاضٍ فِي شَيْءٍ، ثُمَّ يُفْرَعُ مِنْهُ. مِنْ ذَلِكَ الْقَمَرُ: قَمَرُ السَّمَاءِ، سُمِّيَ قَمَرًا لِبَيَاضِهِ. وَجَمَّازٌ أَقْمَرٌ، أَي أَبْيَضٌ»<sup>(4)</sup>.

ويُقَالُ لِلسَّحَابِ الَّذِي يَشْتَدُّ ضَوْؤُهُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ: سَحَابٌ أَقْمَرٌ. وَلَيْلَةٌ قَمْرَاءٌ أَي مُضِيئَةٌ. وَأَقْمَرَتْ لَيْلَتُنَا: أَضَاءَتْ. وَأَقْمَرْنَا أَي طَلَعْنَا عَلَيْنَا الْقَمَرَ. وَالْقَمَرُ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ. وَالْقَمَرَانِ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. وَوَجْهٌ أَقْمَرٌ: مُشَبَّهٌ بِالْقَمَرِ. وَتَقَمَّرْتَهُ: أَتَيْتَهُ فِي الْقَمْرَاءِ. وَتَقَمَّرَ الْأَسَدُ، إِذَا خَرَجَ فِي الْقَمْرَاءِ

(1) - محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم. 47/4.

(2) - عماد الدين مخلوف عبد الحليم: تأملات فنية في الآيات الكونية. ص: 55.

(3) - سيد قطب: في ظلال القرآن. 2968/23/5-2969.

(4) - ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: "قمر".

يطلب الصيد. وقمرت القرية تَقَمَّرُ قَمَرًا إذا دخل الماء بين الأدمة والبشرة فأصابها فضاء وفَسَادًا؛ وقال ابن سيده: وهو شيء يُصِيبُ القرية من القمر كالأحتراق. وقمر قمرًا: أرق في القمر فلم يتم. وقمرت الإبل: تأخر عشاؤها أو طال في القمر. وقمر الرجل يَقَمَّرُ قَمَرًا: حار بصره في الثلج فلم يُبْصِر. وقمرت الإبل أي ضًا: رويث من الماء. وقمر الكلاء والماء وغيره: كثر. وماء قمر: كثير. وأقمرت الإبل: وقعت في كلال كثير. وأقمر الثمر إذا تأخر إنباعه ولم ينضج حتى يدركه البرد فتذهب حلاوته وطعمه. والقمر أيضا: تحير البصر من الثلج. وقد قمر الرجل يَقَمَّرُ قَمَرًا، إذا لم يبصر في الثلج (1). كما يطلق هذا الجذر اللغوي مجازًا على الخداع؛ يقال: «تقمره خدعه، ومنه: القمار لأنه خداع. تقول: قامرته فقمرته: أقمره؛ غلبته، وقمرته المال أقمره وأقمره. وقمرته لبه وقلمه» (2).

أما في تفسيرهم لهذه الآية ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ يرى علماءنا الأوائل أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَهُ مَنَازِلَ﴾ «أي: جعلناه يسير سيرا آخر يستدل به على مضي الشهر، كما أن الشمس يُعرف بها الليل والنهار» (3). «والمنازل جمع منزل، والمراد به المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة» (4). يقول الزمخشري: « والمعنى: قدرنا مسيره منازل وهي ثمانية وعشرون منزلا، ينزل القمر كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه، على تقدير مستو لا يتفاوت، يسير فيها كل ليلة من المستهل إلى الثامنة والعشرين، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر، وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة، وهي: الشَّرَطَانُ، البُطَيْنُ، الثُّرَيَّا، الدَّبْرَانُ، الهُقْعَةُ، الهَنْعَةُ، الدَّرَاعُ، الثَّرَّةُ، الطَّرْفُ، الجُبْهَةُ، الحَرَاتَانِ، الصُّرْفَةُ، العَوَاءُ، السَّمَكُ، العُفْرُ، الرُّبَانِي، الإكْلِيلُ، القَلْبُ، الشَّوْلَةُ، النَّعَائِمُ، البَلْدَةُ، سَعْدُ الدَّاحِجِ، سَعْدُ بُلْعِ، سَعْدُ السُّعُودِ، سَعْدُ الأُخْيِيَّةِ، فَرَعُ الدُّلُوِّ المَقْدَمِ، فَرَعُ الدُّلُوِّ المُوخِرِ، الرِّشَا. فإذا كان في آخر منزله دق واستقوس، وعاد كالعرجون القديم» (5). ويرى الماوردي أن في قوله عز وجل ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَهُ مَنَازِلَ﴾ وجهان: «أحدهما: جعله في كل ليلة على مقر له، يزيد في كل ليلة من أول الشهر حتى يستكمل ثم ينقص بعد استكمالها حتى يعود كما بدأ، وهو مُحْتَمَلٌ. الثاني: أنه يطلع كل ليلة في منزل حتى يستكمل جميع المنازل في كل شهر، ولذلك جعل بعض الحساب السنّة الشمسيّة ثلاثة عشر شهرا قمريا» (6).

(1) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة: "قمر". والجوهري: الصحاح. مادة: "قمر".

(2) - الزمخشري: أساس البلاغة. مادة: "قمر". ص: 623.

(3) - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 577/6-578.

(4) - الألويسي: روح المعاني. 16/23.

(5) - الزمخشري: الكشاف. 178/5.

(6) - الماوردي (أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ت 450هـ): النكت والعيون (تفسير الماوردي). مراجعة وتعليق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 17/5.

أما المراد من قوله: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ «أي: صارَ في أواخرِ سَبْرِهِ وَقُرْبِهِ مِنَ الشَّمْسِ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ ﴿كَالْعُرْجُونِ﴾ هو عَوْدُ عَذْقِ النَّخْلَةِ مِنْ بَيْنِ الشَّمْرَاخِ إِلَى مَنْبَتِهِ مِنْهَا» (1)، أو هو كما يقول ابن عاشور: «العُرْجُونُ: العودُ الَّذِي تُخْرِجُهُ النَّخْلَةُ، فَيَكُونُ الثَّمَرُ فِي مُنْتَهَاهِ وَهُوَ الَّذِي يَبْقَى مُتَّصِلًا بِالنَّخْلَةِ بَعْدَ قَطْعِ الكِبَاسَةِ مِنْهُ وَهِيَ مُجْتَمِعُ أَعْوَادِ الثَّمَرِ» (2). «أي: العتيق الَّذِي مَرَّ عَلَيْهِ زَمَانٌ يَبْسُ فِيهِ، وَوَجْهُ الشَّيْءِ الإصْفِرَارُ وَالدَّقَّةُ وَالإِعْوِجَاجُ، وَقِيلَ: أَقْلُ مُدَّةِ القَدَمِ حَوْلَ» (3).

إنَّ أوَّلَ ما يلاحظُ ويميّزُ هذه الآية: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ [يس:39]. هو العدول في التَّركيبِ النَّحْوِي لها؛ حيث تقدَّم المفعول به على الفعل، فجاء لفظ القمر منصوبًا على المفعول به، ولم يرفع على أنه مبتدأ، وهو ما قرأ به عاصمٌ، وابنُ عامرٍ، وحَمْزَةُ، والكِسَائِيُّ، وأبو جَعْفَرٍ وَرُوَيْسٌ عَنِ يَعْقُوبَ وَخَلْفٍ . بِنَصْبٍ ﴿وَالْقَمَرَ﴾ على الإشتغالِ فَهُوَ إِذَنْ مِنْ عَطْفِ الجَمَلِ (4). وقد علَّلُ الفراءُ النَّصْبَ فِي ﴿وَالْقَمَرَ﴾ بقوله: «وَمَنْ نَصَبَ أَرَادَ: وَقَدَرْنَا القَمَرَ مَنَازِلَ، كَمَا فَعَلْنَا بِالشَّمْسِ. فَرَدَّهَ عَلَى الهَاءِ مِنَ الشَّمْسِ فِي المَعْنَى، لِأَنَّهُ أَوْقَعَ عَلَيْهِ مَا أَوْقَعَ عَلَى الشَّمْسِ. ومثله في الكلام: عبد الله يقوم وجاريته يضرها، فالجارية مردودة على الفعل لا على الاسم لذلك نصبناها؛ لأنَّ الواو التي فيها للفعل المتأخر» (5).

إنَّ في تقديم المفعول به على الفعل في هذه الآية لم يكن من باب الاختصاص، وإنما لأسباب عدَّة نذكر منها:

أولاً - مراعاة نظم الكلام وحسن النسق؛ فإنه قال: ﴿الَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ ثم قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ فاقتضى حسن النَّظْمِ أن يقول: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ ليكون الجميع على نسقٍ واحد في النَّظْمِ، ولو قال: وقدرنا القمر منازل لما كان بتلك الصُّورة في الحسن (6).

ثانياً - الاهتمام بهذا المقدم وتعظيم فعله، يقول البقاعي: «وَنَصَبَهُ الباقُونَ؛ دَلَالَةً عَلَى عَظَمَةِ هَذَا الجَزِي؛ لِسُرْعَتِهِ بِقَطْعِهِ فِي شَهْرٍ مَا تَقَطَّعُهُ الشَّمْسُ فِي سَنَةٍ؛ وَلِذَلِكَ ضَعَّفَ الفِعْلَ المُهَسَّرَ

(1) - الألويسي: روح المعاني. 20/23.

(2) - ابن عاشور: التحرير والتنوير. 22/23.

(3) - الألويسي: روح المعاني. 20/23.

(4) - ينظر: ابن الجوزي (الإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ت 597هـ): زاد المسير في علم التفسير. المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط3، 1404-1984م، 19/7. وابن عاشور: التحرير والتنوير. 22-21/23.

(5) - الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ت 607هـ): معاني القرآن. تحقيق ومراجعة: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، مصر، ط1، دت، 378/2.

(6) - ينظر: مصطفى شعبان المصري: المناسبة في القرآن. ص: 238.

لِلنَّاصِبِ؛ وَأَعْمَلَهُ فِي ضَمِيرِ "القَمَرِ"؛ لِيَكُونَ مَذْكُورًا مَرَّتَيْنِ؛ فَيَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الْعِنَايَةِ؛ تَنْبِيْهَا عَلَى تَعْظِيمِ الْفِعْلِ فِيهِ»<sup>(1)</sup>.

ثالثاً- استحابة لمقتضيات المقام الذي وردت فيه الآية، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ الْأَرْضُ

الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٢﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنِ الْأَعْيُنِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَيُّهُمْ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يس:33-40]. صور المقام قدرة الله سبحانه على خلق ما يشاء وامتلاكه لمقاليده الكون وهيمته على نظامه، يسيره بدقة بالغة؛ فانصبَّ الاهتمام هنا على إبراز قدرة الله الواقعة على مخلوقاته، فيسخرها كيف يشاء، لا على هذه المخلوقات في ذاتها، وهو ما تصوره قراءة النَّصْبِ، إذ تبرز عظمة الخالق وقدرته على الخلق وتسيير الكون، بخلاف الرَّفْعِ الذي يجعل الاهتمام منصباً على ما خلقه الله، لا على القدرة نفسها، وهو ما يجعل القراءة الأولى، أي النَّصْبِ أنسب للمقام وأكثر مطابقة له<sup>(2)</sup>.

هذا عن الدلالة اللغوية لهذه الآية المعجزة، فماذا عن الدلالة العلمية لها؟ وكيف كشف العلم

الحديث عن حقيقة منازل القمر؟

إن لهذه الآية ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ دلائل إعجازية عظيمة، وحقائق

علمية كثيرة لم يدركها الناس إلا حديثاً مع تقدم الأبحاث الفلكية وعلوم الطبيعة، نذكر منها:

أولاً: الإعجاز العددي للفظه "قمر" في القرآن الكريم: جاء ذكر القمر في القرآن الكريم سبعاً وعشرون مرة، في ستة وعشرين آية لتكرر ذكره مرتين في آية منها هي آية رقم: 37 من سورة فصلت، كما جاءت الإشارة إلى مراحل المختلفة تحت مسمى الأهلة مرة واحدة في سورة البقرة الآية: 189، ويكون مجموع ذلك ثمان وعشرين مرة وهي أيام رؤية القمر في كل شهر، وعدد منازله اليومية، ولا يمكن أن يأتي هذا التوافق الدقيق بمحض الصدفة لأنَّ مثل هذه المقابلات في القرآن الكريم أكثر من أن تحصى، وأنها لو خدمت خدمة إحصائية دقيقة لأصبحت من أوضح جوانب الإعجاز العددي في القرآن الكريم<sup>(3)</sup>. وهذه الآيات هي: [الأنعام:96، الأنعام:77، الأعراف:54، يونس:5، يوسف:4،

(1)- البقاعي: نظم الدرر. 131/16.

(2)- ينظر: مصطفى شعبان المصري: من الإعجاز اللغوي في القرآن. ص:234.

(3)- ينظر: زغلول النجار: السماء في القرآن. ص:515-516.

الرد: 2، إبراهيم: 33، النحل: 12، الأنبياء: 33، الحج: 18، الفرقان: 61، العنكبوت: 61، لقمان: 29، فاطر: 13، يس: 39، يس: 40، الزمر: 5، فصلت: 37، فصلت: 37، القمر: 1، الرحمن: 5، نوح: 16، المدثر: 32، القيامة: 8، القيامة: 9، الانشقاق: 18، الشمس: 2].

**ثانيًا: الإعجاز الفلكي في منازل القمر:** لقد أثبت علم الفلك الحديث أن القمر يتخذ «خلال دورته الشهرية أو الانتقالية حول الأرض مواقع محددة بالنسبة لها وللشمس. وله في كل من تلك المواقع مظهر خاص راجع إلى مقدار المساحة التي يغمرها النور من وجهه، والشكل الذي يتخذه ذلك الجزء المغمور بالنور، وتدعى تلك المظاهر باسم "منازل القمر" أو "وجوهه" (1). كما أثبت هذا العلم أن عدد منازل القمر ثمانية وعشرين منزلاً، فهي مواقع اليومية المتتالية في السماء، ينزل فيها القمر على ثمانية أشكال هي: الهلال، التربيع الأول، الأحدب الأول، الأحدب الأول، الأحدب الثاني، التربيع الثاني، الهلال الثاني، المحاق. وهذا يتطابق مع حديث القرآن عن منازل القمر التي قدرها الله سبحانه وتعالى؛ لمنافع الناس الدينية والدنيوية (2). ويرى زغلول النجار: أن التعبير بـ"منازل القمر" يمكن إطلاقه على مراحل أشكال القمر المتتالية، كما يمكن إطلاقه على منازل -الشماني والعشرين- المتوافقة مع تلك المراحل؛ وذلك نظراً للارتباط الشديد بينهما، وباعتبار المنازل جمع "منزل" وهو المنزل والدَّار (3).

**ثالثًا: الإعجاز في كون القمر ساعة كونية دقيقة:** القمر آية ربانية معجزة، خلقها الله وسواها، وأحكم صنعها وسيورها. فكانت ولازالت ساعة كونية كبيرة تبرز في سمائنا كل يوم متزايدة في نورها لتعطينا تاريخاً شهرياً منتظماً دورته، ثلاثون يوماً تقريباً، فيما أن القمر يكتمل نوره كل ستة عشر يوماً تقريباً، فإن إضاءة نصفه تعادل ثمانية أيام تقريباً وإضاءة ربعه تعادل أربعة أيام تقريباً وهكذا.. فمن نظرة سريعة إلى الجزء المضيء من القمر نستطيع معرفة التاريخ الشهري القمري بخطأ لا يتجاوز اليوم الواحد (4). وقد أشار سبحانه إلى هذه النعمة والمعجزة بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۗ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 5]. فتقدير القمر منازل إنما كان تقديرًا من الله سبحانه وتعالى ليعلم الناس عدد السنين والحساب، ومعرفة التاريخ للعبادات والأحداث والمعاملات والحقوق، هذا فضلاً عن نفع القمر بنوره

(1) - أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 80

(2) - ينظر: سلامة عبد الهادي: تأملات إيمانية في سورة يس. بحث منشور في موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. www.55a.net

(3) - ينظر: زغلول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. 136/3.

(4) - ينظر: صالح المسند: الكون، سلسلة إصدارات الفلق 2، ص: 101. [www.alfalaq.com](http://www.alfalaq.com)

الذي يهدي السراة؛ الذين يمشون ليلاً<sup>(1)</sup>، «ولما فيه من تأكيد على ضبط سرعة القمر ضبطاً دقيقاً من أجل الحيلولة دون ارتطامه بالأرض فيفنيها وتغنيه، أو انفلاته من عقال جاذبيتها فينتهي إلى نهاية لا يعلمها إلا الله، وفي الوقت نفسه، الارتباط الدقيق بين سرعة دوران كل منهما حول محوره، فإذا زادت إحدهما قلت الأخرى بالمعدل نفسه»<sup>(2)</sup>.

رابعاً: الإعجاز في هيئة القمر التي وصفها الله بالعرجون القديم: لقد وصف الله سبحانه وتعالى المرحلة الأخيرة من مراحل الدورة الشهرية للقمر بالعرجون القديم، وهو - كما ذكرنا سابقاً - العنقود من الرطب "العذق المقوس" إذا يبس وانحنى، واصفرَّ لونه، وهو عند يوسه على النخلة ينحني تجاهها، فكذلك الهلال الثاني ينحني بطرفيه تجاه الأرض، بينما الهلال الوليد ينحني بهما بعيداً عنهما.. فما أروع هذا التشبيه القرآني<sup>(3)</sup>. كما أنَّ في دلالة "العرجون القديم" إشارة إلى انعدام الحياة على وجه القمر وهذا ممَّا توصَّل إليه العلم الحديث<sup>(4)</sup>.

وبالإضافة إلى ذلك فكلمة "العرجون" تحمل دلالة لغوية وعلمية أخرى، توصَّل إليها مؤخرًا محمَّد غلوش في قوله -أنقله حرفياً-: «إنَّ كلمة عرجون من العرج والغريب والعجيب أنَّ حركة القمر حول الأرض ليست دائرية كما تبدو بل عرجاء بيضاوية، كما توضَّحها الصور فهي تدور حول الأرض ولكن بشكل لولبي أعرج، ويمكن تحيُّلها كما يلي تحيُّل أنَّك تجري حول تراك ملعب وكل عشرة أمتار تمر سيارة فقبل مرورها تمر من أمامها إلى اليمين، وعندما تمر تذهب مرة أخرى إلى اليسار، وكلما مرت سيارة فعلت نفس الشيء وأنت في نفس الاتجاه الدائري حول الإستاذ إلى أن تصل إلى النقطة التي انطلقت منها إذن فأنت درت حول الإستاذ ولكن طريقك كان متعرجًا أي أعرج. فهل يمكن لأي مخلوق أن يجد كلمة أبلغ من العرجون القديم لكي يصف شكل القمر وحركته بدقة متناهية في كلمتين، قد لخصت كل شيء صفحات من الشرح في كلمتين، أليس هذا هو قمة الإعجاز البلاغي والعلمي»<sup>(5)</sup>.

وأخيراً، نستنتج ممَّا سبق أنَّ للقرآن الكريم دقة متناهية «في تصوير حقائق الكون الرّاهنة، وجمع المعاني المتعددة في لفظ واحد كلِّما قلبته بدت لك معجزة في كل جانب»<sup>(6)</sup>.

(1) - ينظر: السيد الجميلي: الإعجاز العلمي في القرآن. ص: 22-23.

(2) - زغلول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. 137/3.

(3) - ينظر: زغلول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. 138/3.

(4) - ينظر: منصور محمد حسب النبي: الكون كتاب الله المنظور آيات ودلالات، القمر، سلسلة: 15، ص: 11.

(5) - محمد غلوش: الإعجاز العلمي، حصري ما معنى العرجون؟ [www.facebook.com](http://www.facebook.com)

(6) - محمد الصرايرة: آيات للموقنين. شركة الشهاب للنشر والتوزيع، باب الواد، الجزائر، دط، ص: 49.

## 2- دلالة تقديم الجار والمجرور في آية زوجية النبات والثمار:

من أمثلة تقسيم الجار والمجرور على عامله في آيات الإعجاز العلمي في خلق الأرض، قوله تعالى في سياق التذكير بنعم الله سبحانه وتعالى وبيان عظيم قدرته: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابٍ وَزَرَعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضَلٌ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد:3-4].

فالتقديم والتأخير وقع في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ومقتضى الظاهر في هذه الآية أن يتقدم الفعل ﴿ جَعَلَ ﴾ على الجار والمجرور ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ غير أن البنية خالفت هذا الظاهر، فما فائدة هذا التحويل الدلالي في سياق الآية؟

لقد ابتدأ سياق سورة الرعد باستعراض آيات القدرة، وعجائب الكون. الدالة على قدرة الخالق، وحكمته وتديبه الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحي لتبصير الناس، وأن يكون هناك بعث ونشور، وحساب وجزاء، يقول تعالى: ﴿ الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الرعد:1].

ويستمر السياق في تفصيل آيات القدرة، فتعرض السموات مرفوعة بغير عمد، معروضة على الأنظار هائلة في شكلها وعلوها دون دعائم تقوم عليها، يقول جل ذكره: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد:2].

ثم يهبط العرض التصويري الهائل من السماء إلى الأرض، فيرسم لوحها العريضة الأولى، ويبدأ في تخطيطها وبسطها وانفساحها بخطوط جزئية أدق من الخطوط العريضة الأولى (1)، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد:3]. ف « الخطوط العريضة في لوحة الأرض هي مد الأرض وبسطها أمام النظر وانفساحها على مدها. لا يهم ما يكون شكلها الكلي في حقيقته. إنما هي مع هذا ممدودة مبسطة فسيحة. هذه هي اللمسة الأولى في اللوحة. ثم يرسم خط الرؤاسي الثابت من الجبال، وخط الأنهار الجارية في الأرض. فتتم الخطوط العريضة الأولى في المشهد الأرضي، متناسقة

(1) - ينظر: محمد بن سعد الدبل: النظم القرآني في سورة الرعد عالم الكتب، دار النشر للطباعة الإسلامية، مصر، دط، دت. ص: 75-76.

متقابلة»<sup>(1)</sup>. ثم جاء بصورة الثمرات التي تخرج في الأرض، المختلفة الأشكال والألوان والروائح والطُعم، على سبيل الإجمال، لأنه سيفصل فيها القول في الآية التالية لهذه الآية، والواضح التركيز على ذكر الزوجين من الثمرات، وجاء بلفظة اثنين، ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ للتأكيد أن لكل كائن حي على وجه الأرض زوجان<sup>(2)</sup>، يقول سيد قطب أن هذا المشهد: «يتضمن حقيقة لم تعرف للبشر من طريق علمهم وبختمهم إلا قريباً. هي أن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى، حتى النباتات التي كان مظهرها أن ليس لها من جنسها ذكور، تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة، أو متفرقة في العود. وهي حقيقة تتضامن مع المشهد في إثارة الفكر إلى تدبر أسرار الخلق بعد تلمي ظواهره»<sup>(3)</sup>.

وفي تفسيرهم لهذه الآية ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُعْشَىٰ أَيْلَ النَّهَارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد:3]. يرى علماءنا الأوائل أن معنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ هو: «وجعل فيها زوجين اثنين من كل الثمرات. وعنى بـ ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾: من كل ذكر اثنان، ومن كل أنثى اثنان، فذلك أربعة، من الذكور اثنان، ومن الإناث اثنان، في قول بعضهم»<sup>(4)</sup>. وجاء في تفسير البحر المحيط لأبي حيان أن الظاهر من قوله: «(من كل الثمرات) متعلق بجعل. ولما ذكر الأعمار ذكر ما ينشأ عنها وهو الثمرات. والزواج هنا: الصنف الواحد الذي هو نقيض الإثنين، يعني أنه حين مَدَّ الْأَرْضَ جَعَلَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَكَثَّرَتْ وَتَوَعَّثَتْ. وقيل: أراد بالزوجين الأسود والأبيض، والحلو والحامض، والصغير والكبير وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة. وقال ابن عطية: وهذه الآية تقتضي أن كل ثمرة موجود فيها نوعان، فإن اتفق أن يوجد من ثمرة أكثر من نوعين فعير ضاراً في معنى الآية. وقال الكرماني: الزواج واحد، والزواج اثنان، ولهذا قيّد ليُعلم أن المراد بالزوج هنا الفرْد لا الشَّيْء، فيكون أربعاً، وخصَّ اثنين بالذكر، وإن كان من أجناس الثمار ما يزيد على ذلك؛ لأنه الأقل، إذ لا نوع تنقص أصنافه عن اثنين»<sup>(5)</sup>. ويرى الفراء أن المقصود من قوله: ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ الذكر والأنثى من كل ثمرة حيث يقول: «وقوله: (زوجين اثنين) الزوجان اثنان الذكر والأنثى والضريان. يبين ذلك قوله ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ فتبين أنهما اثنان بتفسير الذكر والأنثى لهما»<sup>(6)</sup>.

(1) - سيد قطب: في ظلال القرآن. 2045/4/13.

(2) - ينظر: عماد الدين مخلوف عبد الحليم: تأملات فنية في الآيات الكونية. ص: 164.

(3) - سيد قطب: في ظلال القرآن. 2046/4/13.

(4) - الطنوبي: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 414/13.

(5) - أبو حيان: تفسير البحر المحيط. 356-355/5.

(6) - أبو زكريا الفراء: معاني القرآن. 64/2.

إذًا، فممّا يسترعي النظر في السياق التركيبي لهذه الآية الكريمة ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا وَأَنْهَرًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْأَيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد:3]. هو تقديم متعلق الفعل عليه وهو جار ومجرور في قوله: ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ فأصل التركيب النحوي التحليلي: "وجعل فيها من كل الثمرات زوجين اثنين" فما السرُّ في ذلك؟

إنَّ المجرور الذي تقدّم على عامله في هذا النص هو لفظ ﴿ الثَّمَرَاتِ ﴾ ، ولقد ورد الجذر اللغوي لهذا اللفظ -ثمر- في القرآن الكريم أربعة وعشرون "24" مرة؛ خمس "5" مرات اسمًا بصيغة «ثمر» ، وسبعة عشرة "17" مرة اسمًا بصيغة «ثمرّة»، ومرتين فعلاً من باب «أفعل»<sup>(1)</sup>.

وفي دلالة المعجمية نجد أنَّ المادة اللغوية "ثمر" في المعاجم تعني: « شَيْءٌ يَتَوَلَّدُ عَنْ شَيْءٍ مُتَحَمِّمًا، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ اسْتِعَارَةً »<sup>(2)</sup>، فَالثَّمَرُ « اسم لكل ما يتطعم من أحمال الشجر، الواحدة ثَمْرَةٌ، والجمع: ثَمَارٌ وَثَمَرَاتٌ »<sup>(3)</sup>، « وَالشَّجَرُ الثَّامِرُ: الَّذِي بَلَغَ أَوَانَ يُثْمِرُ. وَالثَّمَرُ: الَّذِي فِيهِ الثَّمَرُ »<sup>(4)</sup>. وجاء في لسان العرب: « الثَّمَرُ: حَمْلُ الشَّجَرِ. وَأَنْوَاعُ الْمَالِ وَالْوَلَدِ: ثَمْرَةُ الْقَلْبِ. وَفِي الْحَدِيثِ: إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ ثَمْرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ؛ قِيلَ لِلْوَلَدِ ثَمْرَةٌ لِأَنَّ الثَّمْرَةَ مَا يُنْتِجُهُ الشَّجَرُ وَالْوَلَدُ يُنْتِجُهُ الْأَبُ »<sup>(5)</sup>. وقيل يكتنى بالثمر « عن المال المستفاد، وعلى ذلك حمل ابن عباس ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ ﴾ [الكهف:34]. ويقال: ثَمَّرَ اللَّهُ مَالَهُ ويقال لكل نفع يصدر عن شيء: ثَمْرَةٌ كقولك: ثَمْرَةُ الْعِلْمِ الصَّالِحِ، وَثَمْرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الْجَنَّةِ، وَثَمْرَةُ السُّوْطِ عَقْدَةٌ أَرْطَافُهَا تَشْبِيهَا بِالثَّمْرِ فِي الْهَيْئَةِ، وَالتَّدْلِي عَنْهُ كَتَدْلِي الثَّمَرِ عَنِ الشَّجَرِ، وَالثَّمِيرَةُ مِنَ اللَّبَنِ: مَا تَحَبَّبَ مِنَ الزَّبَدِ تَشْبِيهَا بِالثَّمْرِ فِي الْهَيْئَةِ وَفِي التَّحْصِيلِ مِنَ اللَّبَنِ »<sup>(6)</sup>.

وعليه فالمعنى المحوري لـ"ثمر" هو: «ما ينعقد على أطراف الشجر من حمّله إذا بلغ ينعه: كالبلح واللوبياء وغيرها من ثمر الشجر: ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا ﴾ [فصلت:47]. ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ ﴾ [النحل:67]. وليس في القرآن من التركيب إلا كلمات (ثمرّة)، (ثمر) (ثمرات) (أثمر) وكلها يعني بها الحب الذي يحصد من الزرع أو الجحّي الذي يُجَنّي من شجر الفاكهة ونحوه»<sup>(7)</sup>.

(1) - ينظر: فهرس جذور كلمات القرآن. مادة: "ث م ر".

(2) - ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: "ث م ر".

(3) - الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. مادة: "ث م ر".

(4) - ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: "ث م ر".

(5) - ابن منظور: لسان العرب. مادة: "ث م ر".

(6) - الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. مادة: "ث م ر".

(7) - محمد حسن جبل: المعجم الاشتقاقي. ص: 256. مادة: "ث م ر".

إنَّ لتقديم الجار والمجرور أغراض عديدة لا تكاد تختلف عن غيرها من أغراض تقديم المفعول والحال، والظرف ونحوها، ومدار الأمر في ذلك هو العناية والاهتمام، وإنَّ مواطن العناية والاهتمام متعددة، ومن ذلك: الحصر والاختصاص، وهو أشهر الأغراض، وأكثرها دوراً حتى حصر بعضهم التقديم بهذا الغرض (1).

ولعلَّ السَّبب الحقيقي وراء تقديم المعمول على العامل في هذه الآية الكريمة ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ لا يرجع إلى مجرد العناية والاهتمام فحسب، وإنما يرجع إلى أنَّ السِّياق يتحدَّث عن دلائل عظمة الخالق وقدرته، في خلق الثَّمرات وما فيها من عجائب «ولكن فرط ألفة النَّاس لهذه المخلوقات، وبقاؤها صامتة جامدة قد يهون عليهم أمرها، دون تدبر واعتبار طويلين» (2)، كما أنَّ في ذلك التَّقديس «ردَّ خطأ المخاطبين إلى الصَّواب لأنَّهم كانوا يظنون أنَّ الزَّوجين خاصان ببعض الثَّمرات دون بعض فبيَّن لهم أنَّ جميع الثَّمرات مكونة من زوجين اثنين ذكر وأنثى» (3).

فتقديم الجار والمجرور الذي يشمل جميع الثَّمرات وليس بعضها، أهم في هذا المقام من تقديم عامله؛ لأنَّ هذه الآية ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ تشير إلى حقيقة علمية لم يعرفها القدماء وهو أنَّ جميع الثَّمرات تكون من زوجين اثنين ذكر وأنثى. فقد توصلَّ العلم حديثاً إلى أنَّ النباتات "ولاسيَّما الزهرية منها" (\*) تتكاثر فيما بينها؛ حيث يحدث تزواج بين عضو تذكير وعضو تأنيث لكي يتكون فرداً جديداً، وهذه حكمة الله الفرد الصَّمد فكل ما عداه زوجين سبحانه وتعالى (4).

والتَّكاثر في المملكة النباتية نوعان هما (5):

أولاً- التَّكاثر اللاجنسي أو التَّكاثر الخضري، ويحدث بانفصال جزء من النَّبات ليكوِّن نباتاً جديداً، أي أنَّ هذا النوع لا يشمل اتحاد خلايا جنسية.

(1)- ينظر: فاضل صالح السامرائي: معاني النحو. 91/3

(2)- محمد بن سعد الدبل: النظم القرآني في سورة الرعد. ص: 79.

(3)- المرجع نفسه: الصفحة نفسها. ص: 126.

(\*)- عند الحديث عن الأهمية الاقتصادية للنباتات الزهرية نجد أنها تمثل جزءاً هاماً من غذاء الإنسان وكساءه، ومنها ما يُستعمل في علاج الأمراض وكثير منها مصدر لمواد خام لصناعات كثيرة، ومن النباتات الزهرية: محاصيل الحبوب كالقمح والشعير، المحاصيل الباقولية كالعدس والفاصوليا، محاصيل الزيوت كالزيتون والسمسم، المحاصيل الدرنية ومنها البطاطس، محاصيل السكر ومنها قصب السكر وبنجر السكر، محاصيل الفواكه، محاصيل الخضر، نباتات التوابل، نباتات المشروبات مثل الشاي والتمر الهندي، نباتات المواد المخدرة، النباتات الطبية. ينظر: شعبان محمد إبراهيم: الأرض والنبات نظرة علمية وخواطر إيمانية. ص: 151-153.

(4)- ينظر: شعبان محمد إبراهيم: الأرض والنبات نظرة علمية وخواطر إيمانية. ص: 175.

(5)- ينظر: المرجع نفسه. ص: 150-151.

ثانياً- التكاثر الجنسي، وهو أرقى من النوع السابق من التكاثر، ويشمل اتحاد خلايا جنسية جاميطات أو أمشاج "Gametes" في أزواج.

فالنبات حريص حرص الإنسان على استبقاء نوعه، واستمرار جنسه والمحافظة على نوعه، فالثمار وهي الأوعية الغذائية الرئيسية لحفظ البذور، مُزوّدة بزوائد تُساعده على انتشارها من مكان لآخر بعوامل عدّة (1)، يقول النابلسي: « إِنَّ اللَّهَ سبحانه جَلَّتْ حكمته جعلَ البذرة أساساً لحياة النبات، وجعلَ البذرة أساساً لتكاثرها، ففي البذرة عالمٌ كبيرٌ، لو اطلَعنا عليه لَحَشَعَتْ قلوبنا» (2).

وعليه، فالزوجية في المملكة النباتية أساس لبناء هذا التكوين الحيوي فيها، وقد أشار القرآن الكريم في سياقات أخرى إلى أن الزوجية في كل شيء، وأنه لا يخلو عنصر من عناصر المادة إلا وفيه أنثى وذكر حتى النباتات التي كان يُظن أنها وحيدة الجنس اكتشفت أنها مؤلفة من أعضاء مذكرة وأعضاء مؤنثة في النبات الواحد، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [الشعراء: 7-8]. ويقول: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زوجين لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: 49]، ويقول أيضاً: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأزواجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: 36]، ويقول: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوجينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثى ﴿٤٥﴾﴾ [النجم: 45].

وإن في تردّد ذكر الزوجية في القرآن الكريم « فيه من الأدلة القطعية على وجود الإله القادر العالم المنظم لشؤون هذا الكون، وقد قال أحد الفلاسفة المعاصري ن: إن وجود الزوجية في الأحياء لدليل على وجود الله، وأعظم من ذلك دلالة وجودها في النبات الذي لا يعقل ولا يفكر. وإنما يخضع لقوانين تملئ عليه من الخالق المبدع، ولا يمكن أن توجد بالمصادفة في حال من الأحوال» (3).

(1) - ينظر: السيد الجميلي: الإعجاز العلمي في القرآن. ص: 77-78.

(2) - محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة - آيات الله في الآفاق. ص: 233.

(3) - محمود صافي: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة. دار الرشيد دمشق، لبنان، طبعة مزبدة، 3، 1416هـ-1995م، 91/7.

### المبحث الخامس:

#### السياق الخارجي والحقائق العلمية في آيات خلق السماء والأرض

السياق الخارجي (غير اللغوي) هو مجموعة الظروف الخارجية التي تُحيط بالنص، سواء منها الاجتماعية أو الثقافية أو البيئية أو التاريخية أو الانفعالية. وقد عرفه محمود السعران بأنه: «جُملة العناصر المكوّنة للموقف الكلامي أو الحالة الكلامية»<sup>(1)</sup>. فيقصد به «الأحوال والملايسات التي تُصاحب النصّ وتُحيط به أو كلّ ما يحيط بالنصّ من ظروف تتصل بالمكان والمتكلم والمخاطب في أثناء التّفوّه فتعطيها هذه الظروف دلالتها التي يولده هذا النوع من السياق»<sup>(2)</sup>.

والسياق غير اللغوي في النصّ القرآني يتمثل في الظروف الخارجية التي تتعلّق به، «بوصفها الوعاء الذي يُصبّ فيه النصّ، أو الجرى الذي يتنزّل فيه، وليست هذه الظروف -في جوهرها- إلاّ العناصر التي تشكّل السياق الخارجي للخطاب القرآني»<sup>(3)</sup>. وقد توصل علماء المسلمين من المفسّرين والفقهاء إلى معرفة ما يحيط بالنصّ من عوامل غير لغويّة ساهمت في بنائه ولها أثر في دلالاته، وهو ما يُعرف بالعالم الخارجي أو المحيط الخارجي، فقد فسّروا معاني القرآن الكريم في ضوء السياق اللغوي والسياق الخارجي، والذي تتمثل في أسباب النزول ومكانه وزمانه، ولم يُعالجوا المعنى من الناحية النصّية التي تُعنى باللفظ والتّركيب فقط؛ لأنّ هذا يقصر عن أداء المعنى المراد، بل اعتنوا بمعرفة المكّي والمدني، والذي نزل في الحضر وما نزل في البادية وما نزل في النّهار وما نزل في اللّيل، ومن نزل فيهم النصّ<sup>(4)</sup>.

وتتمثّل أهميّة مراعاة السياق غير اللغوي في إزالة العُموض الذي قد يكتنف بعض الآيات التي قد يعجز السياق الداخلي أحياناً في تشخيص الدليل الذي يُرشدنا إلى المعنى، هذا بالإضافة إلى دوره البارز في تصوّر مشاهدتها بالزّمان والمكان والحديث السّابق له، وبالتالي قد تزيد السياق القرآني وضوحاً وصوراً أكثر تفصيلاً؛ بمعنى أنّ المعالجة اللغويّة قد تكون غير دقيقة في تحديد المعنى، وعليه يتطلّب إحالة النصّ المراد معالجته إلى المحيط الخارجي أو ما يعرف بالسياق غير اللغوي، وذلك انطلاقاً من أسباب النزول إلى فيما ورد عن الرّسول ﷺ والصّحابة والتّابعين فيما يخصّ تلك المشاهد

(1) - محمود السعران: علم اللّغة مقدّمة للفرائد العربي. ص: 331.

(2) - سمير داود سلمان، الدلالة السياقية في سورة الإسراء. مقال. جامعة البصرة، كلية الآداب، دت، ص: 4.

(3) - قطب الريسوني: النصّ القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التّدبر. ص: 85.

(4) - ينظر: محمود عكاشة: التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة. ص: 171.

إلى الظروف الخارجية التاريخية والاجتماعية والثقافية والعادات والتقاليد التي كانت حاضرة وسائدة في ذلك الوقت الذي نزلت فيه الآية المباركة.

### المطلب الأول: السياق التاريخي والسياسي الثقافي

من القرائن السياقية التي لها تأثير في تحديد دلالة النص القرآني وتوضيح المراد منه، ودفع اللبس والغموض عنه؛ الثقافة والتي تعني «ما يميز جماعة عن أخرى من عادات، وتقاليد، وسلوك، وفكر، وعقائد، ولغة، ونظم اجتماعية»<sup>(1)</sup>، والتاريخ «بمعناه الشامل الذي يتعلّق بكل ما له صلة بما حدث من فعاليات للبشرية في الماضي»<sup>(2)</sup>. ومن أمثلة ذلك في آيات الإعجاز العلمي في خلق السماء والأرض ما يأتي:

#### 1- أثر السياق الثقافي في تدبر آية تكوير الليل والنهار:

السياق الثقافي: هو «سياق يقتضي تحديد المحيط الثقافي والاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة»<sup>(3)</sup>. فهو يُعنى بدراسة الجوانب الثقافية سواء كانت متعلقة بالنص ومؤلفه، وذلك بدراسة لغة النص، والعادات والتقاليد للمجتمع الذي ينتمي إليه النص، ودراسة السيرة الذاتية للمؤلف لمعرفة قصده. أم بدراسة السياق الثقافي للقارئ (المحلل والمفسر) باعتباره فرداً من أفراد المجتمع الذي ينتمي إليه عصر التفسير أو التحليل؛ وذلك بدراسة نوع ثقافته ومعتقده وعصره وعمره وهدفه وعلاقته بالمؤلف<sup>(4)</sup>.

ولما كانت اللغة منظّمة عرفية اجتماعية، وأداة الاتصال بين أفراد المجتمع، فلا بد أن تكون هي الوعاء الذي يتضمّن الثقافة، ومن ثمّ فإنّ معرفة لغة ما وتحليلها هو معرفة طبيعة التفكير وخصائصه عند الناطقين بها<sup>(5)</sup>. «فاستعمال كلمة "عَقِيلَتِه" يدلُّ على طبقة اجتماعية عالية لأنّ العامّة تستعمل كلمة "رُوجَتِه"، وإذا أخذنا كلمة "جذر" فعند المزارع معنى، وعند اللُّغوي معنى آخر، وفي الرياضيات قضية أخرى. فالسياق الثقافي يحدده الواقع الاجتماعي، ومفاهيمه مختلفة باختلاف الطبقات»<sup>(6)</sup>.

(1) - بشير سعيد سهر المنصوري: السياق الثقافي وتحليل النص. مجلة أبحاث البصرة "الإنسانيات"، المجلد 30 العدد: 2-1، 2006، ص: 5.

(2) - عامر الكفيشي: حركة التاريخ في القرآن الكريم. دار الهادي، بيروت-لبنان، ط1، 1424هـ-2003م، ص: 23.

(3) - علي حميد خضير: دلالة السياق في النص القرآني. الأكاديمية العربية في الدانمرك، أصل الكتاب رسالة ماجستير. 1435هـ/2014م. ص: 49.

(4) - ينظر: بشير سعيد سهر المنصوري: السياق الثقافي وتحليل النص. ص: 5.

(5) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 6.

(6) - علي حميد خضير: دلالة السياق في النص القرآني. ص: 49.

وبالنظر إلى لغة النص القرآني نجد أن الدلالة العلمية لألفاظ القرآن الكريم وآياته تعدُّ من الدلالات التي يمكن أن توضع في باب السياق الثقافي، لما يقتضيه المحيط الثقافي، فالجال العلمي توسع حتى أصبح للمفردة في منظور المتعلم الذي يرى أن للعلم صلة بالقرآن الكريم دالتين، دلالة مركزية ودلالة أخرى تفهم من السياق<sup>(1)</sup>، يقول علي حميد خضير: لا شك أن «الواقع الثقافي له أثر واضح في فهم المفردة من خلال السياق، ولذلك اتخذت الدراسات الحديثة التي تتعلق بالجانب العلمي منهجا عزز من هذه النظريات، والفضل يعود لدراسة السياق وبنيته لأن واقع المفردة لوحده لا يشكل إلا دلالة مركزية أو لغوية لا يفصح عنها إلا السياق»<sup>(2)</sup>.

فالسحراوي في أيام نزول القرآن يتأمل الوصف القرآني للكون من حوله بطريقة ساذجة، لا تعدو عنده إلا بما يتعلّق بالمفهوم الجمالي للنص المبارك، فضلا عن السطحية الواقعية لما يشكّله السياق، وإن كثيرا من الآيات في تلك الفترة كانت محل تأمل وحيرة في المفهوم، ولذلك يعزى الكثير منها إلى الإعجاز وهذا أمر واقع، لكن عندما بدأ الإنسان يتطور علمياً أصبح يفكر بواقعه الثقافي، ويترجم النص بمفاهيم جديدة يكاد يكون بعضها مقنعا قناعة تامة، وبعضها محل تصوّر وتأمّل. ومن هنا أصبح الوصف القرآني للكون من حولنا، يشكّل في ذهن القارئ للقرآن ظاهرة دلالية تقود إلى التأمل في الظواهر الكونية والعلمية، وبالطبع هذا ما ولده الواقع الثقافي، والدراسات العلمية في القرآن الكريم وربطها بالموضوعات العلمية أو الكونية، فأصبحت هذه الظاهرة مألوفة عند كثير من الناس، ومردها السياق الثقافي<sup>(3)</sup>.

ومن أمثلة ذلك فيما يتعلّق بآيات الإعجاز العلمي في خلق السماء لفظة ﴿يُكْوَرُ﴾ في قوله تعالى يَصُوِّرُ فِيهِ حَرَكَةَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ الدَّائِمَةَ الْمُسْتَمِرَّةَ: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوَرُ أَلَيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى أَلَيْلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: 5].

لقد جاءت هذه الآية في مطلع سورة الزمر، في تعبير قرآني عجيب يدفع الناظر والمتدبّر فيه دفعا إلى ما كشف حديثا عن كروية الأرض ودورانها، «فهو يصوّر حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض، فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس؛ فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهارا. ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور. وكلما تحركت

(1) - ينظر: علي حميد خضير: دلالة السياق في النص القرآني. ص: 128.

(2) - المرجع نفسه. ص: 128.

(3) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 128.

بدأ الليل يغمر السطح الذي كان عليه النهار. وهذا السطح مُكَوَّرٌ فالنهار كان عليه مَكَوَّرًا والليل يتبعه مَكَوَّرًا كذلك. وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكَوَّر على الليل. وهكذا في حركة دائبة: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾<sup>(1)</sup>.

لفظ ﴿يُكَوِّرُ﴾ في هذه الآية رسم الشكل، وحدد الوضع، وعيّن نوع طبيعة الأرض وحركتها، وكرويتها ودورانها فسرتنا هذا التعبير القرآني تفسيراً أدق من أيّ تفسير آخر لا يستصحب هذه الحقيقة<sup>(2)</sup>. فما الدلالة المعجمية لهذا اللفظ؟ وما دلالة سياقه اللغوي والثقافي؟ وما علاقة ذلك بالحقيقة العلمية المكتشفة حديثاً؟

لقد ورد الجذر اللغوي "كور" في القرآن الكريم ثلاث مرات فعلا بصيغة «فَعَلَّ»<sup>(3)</sup>:  
مرّة فعلاً ماضياً في قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوي: 1].  
ومرّتين فعلاً مضارعاً في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ﴾ [الزمر: 5].

وفي دلالاته المعجمية والسياقية ذكر اللغويون والمفسرون عدّة وجوه لمعناه، يمكن إيجازها في يأتي:  
أ- كور في المعاجم:

1- الكافُ والواوُ والرّاءُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على دَوْرٍ وَجَمْعٍ<sup>(4)</sup>.

2- الكَوْرُ: إدارة الشّيء وضمُّ بعضه إلى بعض، يقال: كَارَ العِمَامَةَ على رأسه يَكُوْرُها كَوْرًا، أي لأنها عليه وأدارها؛ وَقَدْ كَوْرَتْها تَكْوِيرًا. ويقال: كُلُّ دَارَةٍ مِنَ العِمَامَةِ كَوْرٌ، وكلُّ دَوْرٍ كَوْرٌ<sup>(5)</sup>.

3- الكَوْرُ: الرّيادة، وَقَوْهُمْ: نَعُوذُ بِاللّهِ مِنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ، قيل: الحَوْرُ النُّقْصَانُ والرُّجُوعُ، والكَوْرُ: الرّيادة. والكَوْرُ: الرّحلُ، والجَمْعُ أَكْوَارٌ وَأَكْوَرٌ، والكثيرُ كُورَانٌ وكُوْرٌ؛ وقيل لكلّ مصر: كَوْرَةٌ، وهي المدينة أو البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحالّ. الكَوْرُ: الجماعة الكثيرة من الإبل، أو البقر<sup>(6)</sup>.

(1) - سيد قطب: في ظلال القرآن. 3038/24/5.

(2) - ينظر: المصدر نفسه. 3038/24/5.

(3) - ينظر: فهرس جذور كلمات القرآن. مادة: "ك و ر".

(4) - ينظر: ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: "ك و ر".

(5) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة: "ك و ر". والجوهري: الصحاح. مادة: "ك و ر". والراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. ص: 729. مادة: "ك و ر". والفيروزآبادي: القاموس المحيط. مادة: "ك و ر". ص: 1154.

(6) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة: "ك و ر". والجوهري: الصحاح. مادة: "ك و ر". والراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. ص: 729. مادة: "ك و ر". والفيروزآبادي: القاموس المحيط. مادة: "ك و ر". ص: 1154.

4- الكَوْزُ: الجري والسُرعة؛ يقال: كَارَ الرجلُ، إذا أسرع في مشيته، وكَارَ الفرسُ يَكْبِرُ إذا جَرَى رَافِعًا ذَنَبَهُ، وَفِي حَدِيثِ الْمَنَافِقِ: يَكْبِرُ فِي هَذِهِ مَرَّةً وَفِي هَذِهِ مَرَّةً أَي يَجْرِي.

5- الكَوْزُ أيضاً: كُورُ الْحَدَّادِ: الَّذِي فِيهِ الْجَمْرُ وَتُوْقَدُ فِيهِ النَّارُ وَهُوَ مَبْنِيٌّ مِنْ طِينٍ، وكوارة النحل: غسلها في الشمع. والكارزُ: ما يُحْمَلُ عَلَى الظَّهْرِ مِنَ الثِّيَابِ. وَتَكْوِيرُ الْمَتَاعِ: جَمْعُهُ وَشُدُّهُ (1).

ب- يُكْوِرُ فِي التَّفَاسِيرِ:

في دلالة الفعل ﴿يُكْوِرُ﴾ في سياق قوله تعالى: ﴿يُكْوِرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾، ذكر المفسرون من السلف الصالح نقلاً عن أهل التأويل عدة وجوه وأقوال لمعناه، يمكن إيجازها في ما يأتي (2):

ب1- يُكْوِرُ: يَحْمِلُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ، وهو قول ابن عباس. كما رُوِيَ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا نَقَصَ مِنَ اللَّيْلِ دَخَلَ فِي النَّهَارِ وَمَا نَقَصَ مِنَ النَّهَارِ دَخَلَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى دَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: 13].

ب2- يُكْوِرُ: يَعِشِي هَذَا عَلَى هَذَا، وَيَعِشِي هَذَا عَلَى هَذَا؛ أَي: تَكْوِيرُ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ تَعِيشِيَّتُهُ إِبَاهُ حَتَّى يَذْهَبَ ضَوْؤُهُ، وَيَعِشِي النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ فَيُذْهِبُ ظُلْمَتَهُ، وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعِشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

ب3- يُكْوِرُ: يُلْقِي هَذَا عَلَى هَذَا وَهَذَا عَلَى هَذَا ، وهو قول الضحاك؛ وَهَذَا عَلَى مَعْنَى التَّكْوِيرِ فِي اللَّغَةِ وَهُوَ طَرْحُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، يُقَالُ كَوَّرَ الْمَتَاعَ أَي أَلْقَى بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ.

ب4- يُكْوِرُ: حِينَ يَذْهَبُ بِاللَّيْلِ وَيَكْوِرُ النَّهَارَ عَلَيْهِ، وَيَذْهَبُ بِالنَّهَارِ وَيَكْوِرُ اللَّيْلَ عَلَيْهِ، وهو قول ابن زيد.

ب5- يُكْوِرُ: يَجِيءُ بِالنَّهَارِ وَيَذْهَبُ بِاللَّيْلِ، وَيَجِيءُ بِاللَّيْلِ وَيَذْهَبُ بِالنَّهَارِ. وهو قول السُّدِّيِّ.

(1) ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة: "ك و ر". والجوهري: الصحاح. مادة: "ك و ر".  
(2) ينظر: الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 160-159/20. والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 249-248/18.

هذا ما نقله المفسرون الأوائل عن أهل التأويل في معنى هذا الفعل، أمّا فيما أضافوه

من تفسير وتأويل لهذه الآية من اجتهادهم نقل قولين:

قول ابن كثير: « يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ الْخَالِقُ لِمَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ،

وَأَنَّهُ مَالِكُ الْمُلْكِ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِ يُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، ﴿يُكْوِرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾؛ أي: سَخَّرَهُمَا يَجْرِيَانِ مُتَعَابِقَيْنِ لَا يَفْرَاقَانِ، كُلُّ مِنْهُمَا يَطْلُبُ الْآخَرَ طَلَبًا حَثِيثًا» (1).

قول الرّازي: « اخْتِلَافُ أَحْوَالِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهُوَ الْمُرَادُ هَهُنَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يُكْوِرُ اللَّيْلَ عَلَى

النَّهَارِ وَيُكْوِرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّ النُّورَ وَالظُّلْمَةَ عَسْكَرَانِ مَهِيَانِ عَظِيمَانِ، وَفِي كُلِّ يَوْمٍ يَغْلِبُ هَذَا ذَاكَ تَارَةً، وَذَلِكَ هَذَا أُخْرَى. وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَعْلُوبٌ مَقْهُورٌ، وَلَا بُدَّ مِنْ غَالِبٍ قَاهِرٍ لُهُمَا يَكُونَانِ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَقَهْرِهِ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا التَّكْوِيرِ أَنَّهُ يَزِيدُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِقَدْرِ مَا يَنْقُصُ عَنِ الْآخَرِ، وَالْمُرَادُ مِنْ تَكْوِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مَا وَرَدَ فِي

الْحَدِيثِ: «نَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ» أَي: مِنَ الْإِدْبَارِ بَعْدَ الْإِقْبَالِ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَبَّرَ عَنِ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿يُكْوِرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾ وَبِقَوْلِهِ: ﴿يُعِشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف: 54].

وَبِقَوْلِهِ: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ [الحج: 61]. وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ﴾ [الفرقان: 62] « (2) .

فالملاحظ من هذين التفسيرين أنّهما تأثرا بمعنى ما روي عن أقوال أهل التأويل، مثل: ابن

عبّاس، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وغيرهم. كما يلاحظ في التفسير الثاني أنّه استعان بدلالة السياق الخارجي للآية (تفسير القرآن بالقرآن) و (تفسير السنة للقرآن) وبهما أول الآية وفسرها.

وعليه، فما نستخلصه من دلالة "يُكْوِرُ" في معاجم وتفاسير علمائنا الأوائل من اللغويين والمفسرين هو: جمع وحمل كل من الليل والنهار على الآخر، وغشيانه عليه، و نُفْصَانُ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ، وَضَمُّ بَعْضِهِ إِلَى بَعْضٍ، وَإِدَارَتُهُ عَلَيْهِ. وَأَيْضًا مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي تُشِيرُ إِلَيْهَا آيَةُ حَسْبِهِمْ؛ اخْتِلَافُ أَحْوَالِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَجْرِيَانُهُمَا وَتَعَابِقُهُمَا بِاسْتِمْرَارٍ دُونَ تَوَقُّفٍ، وَهَذَا مَا قَالَ بِهِ مَعْظَمُ الْمَفْسِّرِينَ الْأَوَائِلِ. لَكِنْ هُنَاكَ مَعْنَى آخَرَ ذَكَرَهُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِلآيَةِ الْكَرِيمَةِ، حَيْثُ قَالَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تُشِيرُ « إِلَى جْرِيَانِ الشَّمْسِ فِي مَطَالِعِهَا» (3). وَالسُّؤَالُ الْمَطْرُوحُ الْآنَ كَيْفَ فَهَمُ الْأَصْفَهَانِيُّ

(1)- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 86/7.

(2)- فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 244/26.

(3)- الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. ص: 729. مادة: "ك و ر".

والمسابقون هذه الآية؟

إن دلالة لفظ التكوير في هذه الآية تحمل معنيين: أ- جريان الشمس في مطالعها. ب- كروية الأرض و دورانها.

فالذين ذهبوا إلى القول بأن الآية تشير إلى "جريان الشمس في مطالعها" - ومنهم الأصفهاني - دليلهم في ذلك أن المشاهد للسماء يراها كالكعبة، هذا الذي يعطي قدوم الليل أو النهار شكلاً نصف دائري "ككور الحداد" فالشمس عندما تشرق إلى أن تغرب توحى حركتها بهذا الشكل (1).

لكن بلتعليل اللغوي للفظ "كور" يذهب بها إلى أصلها و يُبين مرادها ؛ أتضح أن المعنى المرجح بدلالة السياق، والمعنى المعجمي للمادة اللغوية "كور" هو: كروية الأرض ودورانها. فقد جاء في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور أن الله عز وجل أشار في هذه الآية إلى كروية الأرض ودورانها، يقول ابن عاشور: «والتكوير حقيقة: اللَّفّ واللِّيُّ، يقال كَوَّرَ العمامة على رأسه إذا لواها ولقَّها، ومثَّلت به هنا هيئة غشيان الليل على النهار في جزء من سطح الأرض وعكس ذلك على التعاقب بهيئة كَوَّرَ العمامة إذ تغشى اللية اللية التي قبلها . وهو تمثيل بدیع قابل للتجزئة بأن يشبه الأرض بالرأس، ويشبه تعاور الليل والنهار عليها بلف طيات العمامة» (2).

كما تدلُّ مادة "كور" على الكرة؛ فلفظ "التكوير" من اسم الكرة، وهي الجسم المستدير من جميع جهاته على التساوي، وفي هذا إيماء من القرآن إلى كروية الأرض بوصف العرضين الليل والنهار، إذ جعل من تعاورها تكويراً، لأنَّ عرض الكرة يكون كروياً تبعاً لذاتها ، وفي هذا معجزة علمية كان يجهلها العرب وجمهور البشر في عصر نزول القرآن فالتكوير استعمل في ما هو كروي، هذا الذي يجعل المعنى الذي فسَّر به ابن عاشور محتملاً بدلالة السياق (3). «فلما كان سياق هذه الآية للاستدلال على الإلهية الحق بإنشاء السماوات والأرض، اختير للاستدلال على ما يتبع ذلك الإنشاء من خلق العرضين العظيمين للأرض مادة التكوير دون غيرها من نحو الغشيان الذي عبر به في قوله تعالى: ﴿يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف: 54] في سورة الأعراف، لأنَّ تلك الآية مسوقة للدلالة على سعة التصرف في المخلوقات لأنَّ أولها ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾

(1) - ينظر: علي أسعد: تطبيقات التفسير العلمي استطراد أم استدلال. مجلة التراث العربي. دمشق، العدد: 115، 1430هـ-2009م، ص: 89-90.

(2) - ابن عاشور محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. 328/23.

(3) - ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. 328/23-329. وينظر: علي أسعد: تطبيقات التفسير العلمي استطراد أم استدلال. ص: 89-90.

ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ ﴿٥٤﴾ [الأعراف:54] فكان تصوير ذلك بإغشاء الليل والنهار خاصة لأنه دلّ على قوة التمكن من تغييره أعراض مخلوقاته، ولذلك اقتصر على تغيير أعظم عرض وهو النور بتسليط الظلمة عليه، لتكون هاته الآية لمن يأتي من المسلمين الذين يطلعون على علم الهيئة فتكون معجزة عندهم»<sup>(1)</sup>.

إنّ لفظة ﴿يُكْوَرُ﴾ كما رأينا سابقا كيف فسّرها القدامى بطريقة سطحيّة لا تتعدّى المفهوم الذي يقرّره ظاهر النصّ دون أن تخالف مضمونه أو واقعه، أمّا اليوم فالتفسير اختلف لاختلاف المفاهيم الثقافيّة، وأصبح اللفظ في سياقه في واقعنا الآن يوحي بالتبادر إلى العلم. فلقد أكّدت الدّراسات والبحوث التجريبيّة حديثاً أنّ الأرض التي نعيش عليها متحرّكة ليست ساكنة، وأنّ شكلها كرويّ بيضويّ، وليس مسطّحاً كما كان يعتقد الأقدمون، وهي حقيقة علميّة أخبر عنها القرآن قبل أن يدركها العلم بقرون عديدة.

وقد كان أوّل من قال بكرويّة الأرض قديماً علماء اليونان مثل: إيراتوسين و"أرسطو" و"فيتاغورس". فقد تمكن "إيراتوسين" (276 ق م) من قياس تقريبي لمحيط الأرض الكروي واعتقد نتيجة ذلك بأن هناك أرضاً مسكونة تقابل أرضه<sup>(2)</sup>. وفي القرن الهجري الثاني وأوائل الثالث نادى عدد من علماء المسلمين ومنهم "البيوني" و"ابن سينا" و"الكندي" و"الرازي" بكرويّة الأرض التي استدلوا عليها بعدد من الظواهر الطبيعيّة، كما قاموا بقياس الأرض بدقّة فائقة، وكانوا في ذلك سابقين للحضارة الغربيّة بتسعة قرون على الأقل، فقد أعلن الخليفة المأمون لأوّل مرة في تاريخ العلم أن الأرض كرويّة، ولكنها ليست كاملة الاستدارة<sup>(3)</sup>. وفي نهاية القرن السابع عشر جاء الفيزيائي "اسحاق نيوتن" ليقول بأنّ الأرض شبه كروية منبعجة عند خط الاستواء، وأثبت ذلك حسابياً حيث وجد بعد تجارب فيزيائية قام بها أن قطر الأرض عند خط الاستواء يزيد بنسبة (1/231) عن قطرها بين القطبين الشمالي والجنوبي. ثم جاء القرن العشرون واستطاعت ثورة علم الفلك والمركبات الفضائية الإجابة عن معظم التساؤلات حول كرويّة الأرض وموقعها في هذا الكون، وأصبح معلوماً أن الأرض شبه كرويّة تدور حول نفسها ونتيجة ذلك يحصل تتابع الليل والنهار على وجه الأرض<sup>(4)</sup>.

(1) - ابن عاشور: التحرير والتنوير. 329/23.

(2) - ينظر: أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. ص:34.

(3) - ينظر: زغلول النجار: الأرض في القرآن الكريم. من آيات الإعجاز العلمي. ص:238.

(4) - ينظر: أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. ص:34-35.

وعليه، فلفظ ﴿يَكْوَرُ﴾ في سياق الآية الكريمة شكّل المحور الأساس عند المفسرين الأوائل، ومنه فهموا دلالة الآية منطلقين من السياق اللغوي للنص وما تدلُّ عليه اللفظة معجمياً ومن نظرتهم السطحية للظواهر الكونية، فكان بذلك تفسيرهم منوعاً ومختلفاً وغير محددٍ لكن لا يخالف مضمون النص أو واقعه، أمّا اليوم فالتفسير تحدد وأصبح أكثر وضوحاً؛ فالباحث المختص فهم النص في المنظور الثقافي المعاصر وفق ما تقدّم من الدراسات والأبحاث في علمي الفلك والجغرافيا، منطلقاً من هذا اللفظ ﴿يَكْوَرُ﴾ كمفتاح دلالي، دارساً علاقته بالمعجم (السياق الداخلي) أولاً، وبالسياق الثقافي (السياق الخارجي) ثانياً، إلى أن وصل إلى هذه الدلالة التي ولدت رؤى جديدة عند كل الناس لارتقاء مستواهم الثقافي.

ومن هنا كان للسياق الثقافي أثره في الكشف الدلالي للآية المعجزة من جهة، وتأكيد الحقيقة العلمية لكروية الأرض من جهة أخرى.

## 2- أثر السِّيَاق التَّاريخي في فهم آية أدنى الأرض:

السِّيَاق التَّاريخي: هو فهم النَّصِّ ودراسته بإلمام بالأحداث والوقائع التَّاريخية القديمة التي وقعت في الفترة الزمنية التي يشير إليها النَّصُّ، « وعندما نقول السِّيَاق التَّاريخي: فهو يشمل الأحداث المؤثِّرة، والأسباب والدوافع وراء ظهور النَّصِّ، والأرضيات التَّقافيَّة واللُّغويَّة»<sup>(1)</sup>.

إنَّ فصل النَّصِّ عن سياقه التَّاريخي الذي وجد فيه هو بمثابة قطع شريان الحياة عنه، لذا فإنَّ اشتراط قراءة النَّصِّ بسياقه التَّاريخي يعني؛ أنَّ من يقوم بعملية القراءة قد يحصل مع عدم الالتفات إلى السِّيَاق التَّاريخي والتَّقافي الذي ظهر فيه النَّصُّ على فهم آخر لهذا النَّصِّ يختلف عن الفهم الذي يحصل عليه فيما لو قرأ النَّصِّ في سياقه التَّاريخي، وبالتالي يُؤدِّي ذلك إلى الإرباك في فهم النَّصِّ<sup>(2)</sup>.

وإذا نظرنا إلى النَّصِّ القرآني نجد أنَّ هناك آيات من الذكر الحكيم « تحمل إشارات عامَّة إلى طوائف من النَّاس إمَّا بواسطة الضَّمائر أو الصِّفات ثم يعتمد فهم هذه الإشارات العامَّة على معرفة الوقائع التي تشير إليها الآيات بالتَّفصيل من كتب السِّيرة والتَّفسير. أمَّا بدون ذلك فستظلُّ النَّصوص غامضة الدَّلالة»<sup>(3)</sup>. لذا فللسِّيَاق التَّاريخي أهمية كبيرة في فهم النَّصِّ القرآني وتحديد دلالاته، ومن آيات الإعجاز العلمي في خلق الأرض ذات القرينة التَّاريخية، قوله تعالى: ﴿عَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿٤﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾ بَنَصْرٍ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: 2-6].

إنَّ الموضوع العام لهذه الآيات الأولى من سورة الروم -وهي سورة مكيَّة- هو: « الإخبار بالغيب عن الفرس والرُّوم وتحدِّي المشركين بذلك»<sup>(4)</sup>. فهذا النَّصُّ يحدثنا عن ثلاثة مجتمعات: أهل الكتاب، الكفار، المسلمين. فما مناسبة نزول هذه الآيات؟ وما أثر السِّيَاق التَّاريخي والظُّروف والوقائع المحيطة في فهم مغزى هذه القصة؟ وفي ما يتمثَّل وجه الإعجاز العلمي فيها؟

لقد نزلت هذه الآيات « بمناسبة معيَّنة، ذلك حين غلبت فارس على الرُّوم فيما كانت تضع

(1)- حيدر علوي نجاد: فهم النَّصِّ في سياقه التَّاريخي. تعريب: أحمد القرويني. مجلة البصائر، العدد 39. السنة: 1427هـ-2006 م، ص: 63.

(2)- ينظر: المرجع نفسه. ص: 63.

(3)- تمام حسان: اجتهادات لغوية. ص: 250.

(4)- مصحف الحافظ المتقن: التفسير الموضوعي للحافظ المتقن مع أسباب النزول وشرح المفردات. كتابة: عثمان طه. ص: 405. حراء للطباعة والنشر: مملكة البحرين، ط1، 1429هـ-2008م.

يدها من جزيرة العرب. وكان ذلك في إبان احتدام الجدل حول العقيدة بين المسلمين السابقين إلى الإسلام في مكة قبل الهجرة والمشركين.. ولما كان الروم في ذلك الوقت أهل كتاب دينهم النصرانية، وكان الفرس غير موحدين ديانتهم المجوسية. فقد وجد المشركون من أهل مكة في الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة الشرك على عقيدة التوحيد، وقالوا بانتصار ملة الكفر على ملة الإيمان. ومن ثم نزلت الآيات الأولى من هذه السورة تبشّر بغلبة أهل الكتاب من الروم في بضع سنين غلبة يفرح لها المؤمنون، الذين يؤدّون انتصار ملة الإيمان من كلّ دين»<sup>(1)</sup>.

إذن فهذه الآيات تتحدّث عن إحدى المعارك الطاحنة التي دارت رحاها زمن البعثة المحمّدية بين الفرس والروم البيزنطيين. غلبت الفرس الروم في مكان حدّدته السورة بكونه يقع في "أدنى الأرض"، لتبشّر بأنهم -أي الروم- سينتصرون بعد "بضع سنين"، وحين ذلك سيفرح المؤمنون بنصر الله<sup>(2)</sup>.

وبالنظر إلى هذه الآيات نجد أنّها اكتفت بالتلميح والإشارة لهذه المعركة باستعمال كلمات مفاتيح ذكرت فيها أحد أطراف المتحاربين ﴿الرُّومُ﴾، والمكان ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾، والزمان ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ دون التفصيل في الأحداث، فبقي النصُّ بذلك غامض الدلالة، ولا يمكن فهمه بمجرد هذه الأدوات اللغوية بل لابدّ من العودة إلى السياق التاريخي له، بالإحاطة بجوانبه التاريخية والوقوف على تفاصيلها الحقيقية. وقبل ذلك يجدر بنا أن نرجع إلى الدلالة اللغوية -المعجمية والسِّياقية- لتلك الكلمات، ونطلّع إلى معانيها وشرحها في المعاجم والتفاسير.

#### أ- دلالة ﴿الرُّومُ﴾:

ورد لفظ (الرُّوم) في القرآن الكريم مرّة واحدة علماً في سورة الروم الآية الثانية. و (الرُّوم): «اسم أطلقه العرب على البيزنطيين ويطلق اليوم على المسيحيين الشرقيين الملكيين من "كاثوليك وأرثوذكس"، والامبراطورية الرومانية الشرقية عرفت بالبيزنطية نسبة إلى بيزنطية اسم القسطنطينية القديم سمّي العرب سكانها الرُّوم، وأوّل أباطرة البيزنطين قسّم أبوه ثيودوسيوس الامبراطورية إلى غربية وعاصمتها روما والى شرقية وعاصمتها القسطنطينية»<sup>(3)</sup>. وقد جاء في الصّحاح أنّ (الرُّوم): «هم من ولد الروم بن عيصو. يقال رومي وروم، مثل زنجي وزنج، فليس بين الواحد والجمع إلّا الياء

(1)- سيد قطب: في ظلال القرآن. 2755-2754/21/5.

(2)- ينظر: محمد عابد الجابري: فهم القرآن الحكيم "التفسير الواضح حسب ترتيب النزول" مطبعة دار النشر المغربية، عين السبع - الدار البيضاء. ط1، 2009م. ص: 346.

(3)- محي الدين درويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه. دار اليمامة ودار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط7، 1420هـ-1999م، 32/6.

المشددة، كما قالوا: تمرة وتمر، ولم يكن بين الواحد والجمع إلا الهاء «(1) . وقيل (الرؤم): «هي قبيلة عظيمة من ولد رومي بن يونان بن علجان بن يافث بن نوح عليه السلام وقيل: من ولد يافان بن يافث، وقيل: من ولد رعويل بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام»(2) .

كما ذكر ابن كثير في تفسيره: «وأما (الرؤم) فهم من سلاله العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويُقال لهم: بنو الأصفر. وكانوا على دين اليونان، واليونان من سلاله يافث بن نوح، أبناء عم الترك. وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، ويُقال لها: المنحيرة، ويصلون إلى القطب الشمالي، وهم الذين أسسوا دمشق، وبنوا معبدها، وفيه محارب إلى جهة الشمال، فكان الرؤم على دينهم إلى مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة»(3) .

#### ب- دلالة ﴿ فِي آدْنَى الْأَرْضِ ﴾ :

للفظة "أدنى" معاني عدة تفهم من السياق منها أقرب، أقل، أسفل، أصغر، أرذل، أضيّق. فقد جاء في مقاييس اللغة أن (دَنَى) أو (دَنَوُ): «الدَّالُّ وَالنُّونُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ وَاحِدٌ يُقَاسُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَهُوَ الْمُقَارَبَةُ»(4) . يقال: «دَنَا دُنُوًا وَدَنَاوَةً: قَرَّبَ، كَأَدْنَى. وَدَنَاهُ تَدْنِيَةً وَأَدْنَاهُ: قَرَّبَهُ. وَاسْتَدْنَاهُ: طَلَبَ مِنْهُ الدُّنُو. وَالدَّنَاوَةُ: الْقَرَابَةُ، وَالقُرْبَى»(5) . والدُّنْيَا: نَقِيضُ الْآخِرَةِ، وَسُمِّيَتْ الدُّنْيَا لِدُنُوِّهَا. وَأَلْهَمَا دَنَتْ وَتَأَخَّرَتِ الْآخِرَةُ، وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ الدُّنْيَا هِيَ القُرْبَى إِلَيْنَا، وَدَنَتِ الشَّمْسُ لِلغُرُوبِ وَأَدْنَتْ، وَيُقَالُ: أَدْنَتْ النَّاقَةُ، إِذَا دَنَا نِتَاجُهَا. وَدَانَيْتُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، أَي قَارَبْتِ. وَبَيْنَهُمَا دَنَاوَةٌ، أَي قَرَابَةٌ. يُقَالُ: مَا تَزَادَ مِنَّا إِلَّا قُرْبًا وَدَنَاوَةً(6) . وَيُقَالُ: الدُّنَا مَا قَرَّبَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ. وَأَدْنَى إِذَا عَاشَ عَيْشًا ضَيِّقًا بَعْدَ سَعَةٍ. وَدَانَيْتُ القَيْدَ فِي البَعِيرِ أَوْ لِلبَعِيرِ: ضَيَّقْتَهُ عَلَيْهِ، وَالْأَدْنَى: السَّفْلُ. مِنْ أَمْثَلِهِمْ كُلُّ دَنِيٍّ دُونَهُ دَنِيٌّ، يُقُولُ: وَدَانَيْتُ الْأَمْرَ: قَارَبْتَهُ. وَدَانَيْتُ بَيْنَهُمَا: جَمَعْتِ. وَدَانَيْتُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ: قَرَّبْتِ بَيْنَهُمَا. الدُّنْيَى مِنَ الرَّجَالِ: السَّاقِطُ الضَّعِيفُ الَّذِي إِذَا آوَاهُ اللَّيْلُ لَمْ يَبْرَحْ ضَعْفًا(7) .

وقد ذكر الأصفهاني دلالات أخرى لهذا الجذر اللغوي استخلصها من السياق القرآني في قوله تحت مادة (دَنَوُ): «الدُّنُوُّ: القرب بالذات، أو بالحكم، ويستعمل في المكان والزمان والمنزلة. قال

(1)- الجوهري: الصحاح. مادة "ر و م".

(2)- الألويسي: روح المعاني. 17/21.

(3)- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 301/6.

(4)- ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة "د ن ي".

(5)- الفيروزبادي: القاموس المحيط. ص451، مادة "د ن و".

(6)- ينظر: الجوهري: الصحاح. مادة "د ن ا". وابن منظور: لسان العرب. مادة "د ن ي".

(7)- ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة "د ن ي".

تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [الأنعام: 99]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: 8]، هذا بالحكم. ويعبر بالأدنى تارة عن الأصغر، فيقابل بالأكبر نحو: ﴿وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ﴾ [المجادلة: 7]، وتارة عن الأزدل فيقابل بالخير، نحو: ﴿أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 61]. وعن الأول فيقابل بالآخر، نحو: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: 11]، وقوله: ﴿وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: 122]، وتارة عن الأقرب، فيقابل بالأقصى نحو: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ [الأنفال: 42]، وجمع الدنيا الدني، نحو الكبرى والكبر، والصغرى والصغر. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ﴾ [المائدة: 108]، أي: أقرب لنفوسهم أن تتحرى العدالة في إقامة الشهادة، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ عَلَيْهِنَّ﴾ [الأحزاب: 51]، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَعَكُمْ تَنْفَكُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: 219-220]، متناول للأحوال التي في النشأة الأولى، وما يكون في النشأة الآخرة، ويقال: دانيت بين الأمرين، وأدنت أحدهما من الآخر. قال تعالى: ﴿يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ﴾ [الأحزاب: 59] «(1)».

وفي تفسيرهم وتأويلهم لقوله تعالى: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ فهم المفسرون الأوائل أن المعنى الأول لكلمة ﴿أَدْنَى﴾ هو "أقرب" وذكروا بأن أدنى الأرض هو أقرها، لكن اختلفت وتعددت أقوالهم في تحديد المقصود والمراد من الأرض في الآية. فقد جاء مثلا في تفسير الرازي: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أَي أَرْضِ الْعَرَبِ؛ لِأَنَّ الْأَيْفَ وَاللَّامَ لِلتَّعْرِيفِ، وَالْمَعْهُودُ عِنْدَهُمْ أَرْضُهُمْ» (2). أمّا الألويسي فقد قال أن المراد «﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أَي أَقْرَبُهَا. وَالْمُرَادُ بِالْأَرْضِ أَرْضُ الرُّومِ عَلَى أَنَّ (أَل) نَائِيَةٌ مِنْ مَنَابِ الضَّمِيرِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَالْأَقْرَبِيَّةُ بِالنَّظَرِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، لِأَنَّ الْكَلَامَ مَعَهُمْ، أَوْ الْمُرَادُ بِهَا أَرْضُ مَكَّةَ وَنَوَاحِيهَا، لِأَنَّهَا الْأَرْضُ الْمَعْهُودَةُ عِنْدَهُمْ، وَالْأَقْرَبِيَّةُ بِالنَّظَرِ إِلَى الرُّومِ، أَوْ الْمُرَادُ بِالْأَرْضِ أَرْضُ الرُّومِ لِذِكْرِهِمْ، وَالْأَقْرَبِيَّةُ بِالنَّظَرِ إِلَى عَدُوِّهِمْ أَعْنِي فَارِسَ لِحَدِيثِ الْمَعْلُوبِيَّةِ، وَقَدْ جَاءَ مِنْ طَرِيقِ عَدِيدَةٍ أَنَّ الْحَرْبَ وَقَعَ بَيْنَ أَذْرُعَاتِ وَبُصْرَى، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالسُّدِّيُّ: بِالْأَزْدِ وَفِلَسْطِينَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بِالْجَزِيرَةِ يَعْنِي الْجَزِيرَةَ الْعُمَرِيَّةَ لَا جَزِيرَةَ الْعَرَبِ، وَجُعِلَ كُلُّ قَوْلٍ مُوَافِقًا لَوَجْهِ مِنَ الْأَوْجِهَةِ الثَّلَاثَةِ عَلَى التَّرْتِيبِ» (3). وفي تفسير الماوردي ذكر أن في قوله تعالى: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ قولان (4):

(1) - الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. ص: 318-319. مادة: "د ن و"

(2) - فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 96/25-97.

(3) - الألويسي: روح المعاني. 17/21.

(4) - ينظر: الماوردي: تفسير الماوردي. 298/4.

أحدُهما: في أدنى أرض فارس، حكاة النَّقَاش.

الثاني: في أدنى أرض الروم، وهو قولُ الجمهورِ وفي أدنى أرضِ الرومِ أربعةُ أقاويل: أحدُها: أطراف الشام، قاله ابنُ عباسٍ. الثاني: الجزيرةُ وهي أقربُ أرضِ الرومِ إلى فارس، قاله مُجاهدٌ. الثالثُ: الأزدُنُ وفلسطِينُ، قاله السُّدِّيُّ. الرابعُ: أذرعاتُ الشامِ وكانتِ بها الوقعةُ، قاله يحيى بنُ سلامٍ.

ج- دلالة ﴿ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾:

ورد الجذر اللُّغوي "بضع" في القرآن الكريم سبع مرّات، خمس مرّات اسماً بصيغة «بِضَاعَةٌ» - كلها في سورة يوسف - كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَاؤْفَافٍ لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمِجْزِي الْأُمْتَدِّقِينَ ﴾ [يوسف: 88]. ومرّتين اسماً بصيغة «بِضْعٌ» في قوله: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: 42]، وقوله: ﴿ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم: 4] (1).

وفي دلالة "بضع" اللُّغوية نجد أن معظم المعاجم اتفقت على أن البِضْعَ بالكسر أو البِضْعَ بالفتح من العدد: ما بين الثلاثة إلى العشرة فقد جاء في الصّحاح مثلاً: « وَبِضْعٌ فِي الْعَدَدِ بِكسر الباء، وبعض العرب يفتحها، وهو ما بين الثلاث إلى التسع. تقول: بِضْعُ سِنِينَ، وَبِضْعَةٌ عَشْرَ رجلاً، وَبِضْعُ عَشْرَةَ امْرَأَةً؛ فإذا جاوزتَ لفظَ العَشْرِ ذهبَ البِضْعُ لا تقول بِضْعٌ وَعَشْرُونَ » (2)، كما جاء في مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني: «البِضْعُ بالكسر: المقطع من العشرة، ويقال ذلك لما بين الثلاث إلى العشرة، وقيل: بل هو فوق الخمس ودون العشرة» (3).

وهذا ما ذهب إليه المفسرون في تفسيرهم للآية الكريمة ﴿ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ فقد اتفق أكثرهم على أن البِضْعَ لا يزيد على العشر، ولا ينقص على الثلاث. غير أنهم اختلفوا في تحديد مدّة السنين باختلاف الروايات، فقد جاء في تفسير الماوردي أن هذه المدّة « اِخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوِيلٍ: أَحَدُهَا: مُدَّةٌ ثَلَاثِ سِنِينَ تَظْهَرُ الرُّومُ فِيهَا عَلَى فَارِسَ، قَالَهُ السُّدِّيُّ. الثَّانِي: خَمْسُ سِنِينَ، قَالَهُ قَتَادَةُ. الثَّلَاثُ: سَبْعُ سِنِينَ، قَالَهُ الْفَرَّائِيُّ » (4). كما جاء في تفسير الطبري: « قد حدثنا ابن حميد،

(1) - ينظر: قيس دوكنس: فهرس جذور كلمات القرآن. مادة: "بضع".

(2) - الجوهرى: الصحاح. مادة: "بضع".

(3) - الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. ص: 129، مادة: "بضع".

(4) - الماوردي: تفسير الماوردي. 297/4.

قال: ثنا الحكم بن بشير، قال: ثنا خلاد بن أسلم الصفار، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الرحمن بن الحارث، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، قال: قلت له: ما البضع؟ قال: زعم أهل الكتاب أنه تسع أو سبع»<sup>(1)</sup>.

إنَّ الملاحظ ممَّا سبق أنَّ هذه الدَّلالات اللُّغويَّة (المعجميَّة والسياقيَّة) قرَّبت لنا معاني تلك الكلمات والتَّراكيب، ولاسيما لفظ ﴿الرُّومُ﴾ الذي لم نرى اختلافًا في تعريفه، بالمقارنة بالتركيبين ﴿أَدَى الْأَرْضِ﴾ و ﴿يَضَعُ سِنِينَ﴾ الذين جاءت دلالتهما السياقيَّة غير محدَّدة وذات معاني وتأويلات متعدِّدة، وبالتالي فالدَّلالة اللُّغويَّة - كما أشرنا سابقًا - غير كافية وحدها لإزالة الغموض عن هذا النَّص وتقرُّب وقائع الحادثة، لذا لا بدَّ من الاستعانة بالسياق التاريخي لفهم ملاسبات الواقعة بالزَّمن والمكان.

ففي سياقها التاريخي تحدَّث الرُّواة والمفسِّرون بإسهاب عن وقائع تلك الحادثة وأطالوا في سرد قصتها، وتعدَّدت الرِّوايات حولها في كتب التَّفاسير والسِّيرة وأسباب النُّزول، اخترنا منها هذه الرِّواية التي وردت في تفسير "محاسن التأويل للقاسمي" لإيجازها ودقَّتها:

«اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى أَنَّ مَلِكَ فَارِسَ كَانَ عَزَا بِلَادِ الشَّامِ، وَفَتَحَ دِمَشْقَ، وَبَيْتَ الْمُقَدَّسِ، الْأُولَى سَنَةَ 613، وَالثَّانِيَةَ سَنَةَ 614؛ أَي: قَبْلَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ بِسَبْعِ سِنِينَ - فَحَدَّثَ أَنَّ بَلْعَ الْحَبْرِ مَكَّةَ، فَفَرِحَ الْمُشْرِكُونَ، وَشَتُّوا بِالْمُسْلِمِينَ، وَقَالُوا: أَنْتُمْ وَالنَّصَارَى أَهْلُ كِتَابٍ، وَنَحْنُ وَفَارِسُ وَثَبُيُونَ، وَقَدْ ظَهَرَ إِخْوَانُنَا عَلَى إِخْوَانِكُمْ، وَلَنْظَهَرَ عَلَيْنَاكُمْ، فَتَلَيْتَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَأَحَالَ وَفُوعَ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ، وَتَرَاهَنَ مَعَ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى مِائَةِ قُلُوصٍ (\*)، إِنْ وَقَعَ مِصْدَاقُهَا، فَلَمْ يَمُضِ مِنَ الْبِضْعِ - وَهُوَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التَّسْعِ - سَبْعُ سِنِينَ إِلَّا وَقَدْ نَظَّمَ هِرَقْلُ جُنُودَ الرُّومِ وَعَزَا بِهِمْ بِلَادَ فَارِسَ سَنَةَ 621؛ أَي: قَبْلَ الْهِجْرَةِ سِنَةً، فَدَوَّخَهَا، وَاضْطَّرَّ مَلِكُهَا لِلْهَرَبِ، وَعَادَ هِرَقْلُ بِالْعَنَائِمِ الْوَافِرَةِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ مُعْجَزَاتِ الْقُرْآنِ؛ أَعْنِي إِخْبَارَهُ عَنِ غَيْبِ وَقَعِ مِصْدَاقُهُ، وَاسْتَبَانَ لِلْجَاحِدِينَ مِنْ نُورِهِ إِشْرَافُهُ، وَفِي ضِمْنِهِ أَنَّ سَائِرَ غُيُوبِهِ كَذَلِكَ مِنْ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَزُهُوقِ الْبَاطِلِ، وَعُلُوِّ الْحَقِّ، وَجَعَلِ الرَّحْمَنُ سَتْرَ غُيُوبِهِ أَيْمَنًا، وَإِبْرَائِيهِمْ أَرْضَ عَدُوِّهِمْ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. وَمَا أَلْطَفَ مَا قَالَ الرَّبُّ الْكَلِيمُ: رَأَيْتُ غَلْبَةَ فَارِسَ الرُّومِ، ثُمَّ رَأَيْتُ غَلْبَةَ الرُّومِ فَارِسَ، ثُمَّ رَأَيْتُ غَلْبَةَ الْمُسْلِمِينَ فَارِسَ وَالرُّومَ، كُلُّ ذَلِكَ فِي خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً - مِنْ أَوَاخِرِ غَلْبَةِ فَارِسَ إِلَى أَوَائِلِ

(1) - الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 459/18.

(\*) - قلاص: القلاص مفردها قلووص وهي الناقاة الشابة.

عَلْبَةِ الْمُسْلِمِينَ»<sup>(1)</sup> .

لقد فهمنا من السياق التاريخي تفاصيل ووقائع هذه الحادثة، كما حدّد لنا الزمن ما بين الحرب الأولى والثانية الذي عبّرت عنه الآية بـ ﴿يَضَعُ سِينِكَ﴾ بأنّه سبع سنوات، ولكن بقي ميدان المعركة الأولى بين الفرس والرّوم الذي وصفته الآية بـ ﴿أَذَى الْأَرْضِ﴾ غامضاً ولم يتحدّد تاريخياً؛ فقد تأرّجح المؤرّخون في «وضع المعركة الفاصلة في هزيمة الرّوم على أرض القسطنطينية، أو على الأرض بين مدينتي أدرعات وبُصرى من أرض الشام، أو على أرض أنطاكية، أو على أرض دمشق، أو على أرض بيت المقدس، أو على أرض مصر " الإسكندرية »<sup>(2)</sup> . ليأتي العلم التجريبي الحديث في القرن العشرين ويحدّد الموقع الجغرافي للمعركة بالدليل والبرهان، وبالمصوّرات الجغرافية وصور وقياسات الأقمار الاصطناعية، ليؤكّد تلك الحقيقة العلميّة التي أقرّها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً بأنّ «هزيمة الرّوم على أيدي الفرس كانت على الأرض الواقعة بين شرقي الأردن وفلسطين وهي "أغوار وادي عربة / البحر الميت / الأردن" التي أثبت العلم أنّها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً، والتي ينطبق عليها الوصف القرآني بأدنى الأرض انطباقاً تاماً ودقيقاً»<sup>(3)</sup> .

فقد «ثبت علمياً بقياسات عديدة أنّ أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً هو غور البحر الميت، ويقع البحر الميت في أكثر أجزاء الغور انخفاضاً، حيث يصل مستوى منسوب سطحه إلى حوالي أربعمئة متر تحت مستوى سطح البحر، ويصل منسوب قاعه في أعمق أجزائه إلى قرابة الثمانمئة متر تحت مستوى سطح البحر، وهو بحيرة داخلية بمعنى أنّ قاعها يعتبر في الحقيقة جزءاً من اليابسة. وغور البحر الميت هو جزء من خسف أرضي عظيم ويبلغ طوله حوالي الستمئة كيلومتر، ممتدة من خليج العقبة في الجنوب إلى بحيرة طبريا في الشمال، ويتراوح عرضها بين العشرة والعشرين كيلومتراً.

ويعتبر منسوب سطح الأرض فيها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضاً حيث يصل منسوب سطح الماء في البحر إلى 402 متراً تحت المستوى المتوسط لمنسوب المياه في البحرين المجاورين: الأحمر والأبيض المتوسط، وهو أخفض منسوب أرضي على سطح اليابسة»<sup>(4)</sup> .

(1)- محمد جمال الدين القاسمي: تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل. تعليق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية، ط1، دت، 4765/12-4766.

(2)- زغلول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. ص: 430/2.

(3)- زغلول النجار: الأرض في القرآن- من آيات الإعجاز العلمي. ص: 289-290.

(4)- عبد الله المصلح: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 195.

إذا، فقد تجلّى وجه الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿أَذَى الْأَرْضِ﴾ حيث تعني كلمة (أذنى) في اللغة أقرب وأخفض، فهي من جهة أقرب الأراضي التي كان الرّوم يحتلونها إلى شبه الجزيرة العربية، ومن جهة أخرى هي أخفض منطقة على سطح الأرض، إذ أنّها تنخفض عن مستوى سطح البحر بـ (392م)، وهي منطقة أغوار البحر الميت بفلسطين، تمامًا كما سجلته الأقمار الاصطناعية على اليابسة كما ذكرت ذلك "الموسوعة البريطانية"<sup>(1)</sup>.

وعليه، ومما سبق نستنتج:

أنّ الدلالة اللغوية عرّفنا بالرّوم أصلهم وسلالتهم ومكان إقامة دولتهم قديمًا وحديثًا، كما حدّدت لنا دلالة "أذنى" التي جاءت بمعاني عدّة منها: أقرب وأخفض وأسفل، وأيضًا دلالة "بضع" التي حددها اللغويون بالعدد ما بين الثلاث إلى عشر أو بين الواحد والتسعة.

وأنّ القرينة التاريخية ساعدتنا في فهم تفاصيل أكثر عن المعركة أطرافها، تاريخ الحرب الأولى والثانية، والتاريخ الذي بينهما، وغير ذلك.

وأنّ الحقيقة العلميّة: حدّدت لنا الموقع الجغرافي وميدان الذي دارت فيه الحرب.

ومنه، فلفهم هذه الآية المعجزة فهمًا صحيحًا لابدّ من الإحاطة بسياقها اللغوي، وغير اللغوي "التاريخي"، ويمكن اعتبار الحقيقة العلميّة سياق خارجي "ثقافي" لتفسير آيات الإعجاز العلمي.

(1) - ينظر: أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية: ص: 45. ونايف منير فارس: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. 53-52/1. وعبد الله المصلح: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 198.

## المطلب الثاني: السنة النبوية وأقوال الصحابة

بما أن أحاديث الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته، وأقوال الصحابة - رضي الله عنهم - وتأويلاتهم وتفسيراتهم للنص القرآني من أقسام التفسير بالرؤية "المأثور" (\*) بعد تفسير القرآن بالقرآن؛ لذا يمكن عدّها ضمن السياقات الخارجية غير اللغوية المعتمدة في فهم النصّ القرآني وتوجيه دلالاته.

### 1- أثر السنة النبوية في تقرير آية السماوات السبع وطبقات الأرض السبع:

السنة النبوية: « هي كل ما صدر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير » (1). فهي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وكلام الذي لا ينطق عن الهوى، « جعلها الله تعالى مثيلة القرآن في حجّيته ولزوم العمل به، إذ قال تعالى: ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: 80]، وهي المبيّنة له، المفصلة لمجمله، الموضحة لمبهمه، المخصّصة لعامّه، المقيدة لمطلقه، فقد قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: 44] » (2).

وهكذا فالسنة « هي التي تشكل الإطار المرجعي والضابط المنهجي لفهم القرآن، وأن أي تفسير أو تأويل، أو أي دراسة واجتهاد أو تحديد على الزمن لا يجوز بحال من الأحوال أن يعود على السنة بالتقص أو النقد. وإتّما يمكن القول: بأنّ خلود القرآن أن يبلغ بالناس آفاقا وفضاءات وأمدادا ممتدة ومتصلة حتى قيام الساعة شريطة أن لا يخرج ذلك عن مرجعية السنة وفهم خير القرون» (3).

وعادةً ما تتمثل السنة الشريفة في الأحاديث النبوية عن الرسول الكريم ﷺ، وقد « حفل الحديث الشريف بضروب من وسائل التعبير المعبرة عن معاني تتصل بالعقيدة والعمل والسلوك، أظهرتها سياقات الأحاديث ومقتضيات أحواله إذ إنّ تلك الوسائل جميعها تُطابق المقام وحال المخاطب» (4). فلمّا كانت الأحاديث النبوية وحي من الله جل ذكره ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: 3-4]. فإنّ صفاتها ستكون من صفات القرآن الكريم، ومن صفات معاني القرآن

(\*)- التفسير بالرؤية (المأثور): «هو ما جاء في القرآن، أو السنة، أو كلام الصحابة، بياناً لمراد الله تعالى؛ فالتفسير بالمأثور إما أن يكون تفسير القرآن بالقرآن، أو تفسير القرآن بالسنة النبوية أو تفسير القرآن بالمأثور عن الصحابة». محمد علي الصابوني: التبيان في علوم القرآن. ص: 63.

(1)- وهبة الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي. دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 1406هـ-1986م، 1/450.

(2)- شادي محمد جميل عايش: دلالة سياق اسم الفاعل في الحديث النبوي الشريف صحيح مسلم أنموذجاً. رسالة ماجستير في اللغة العربية و آدابها، جامعة الشرق الأوسط، 2012م، ص: 16.

(3)- عبد الرحمن بودرع: منهج السياق في فهم النصّ. ص: 8.

(4)- هناء محمود شهاب: القرائن الدلالية في الحديث النبوي الشريف. مجلة آفاق الثقافة والتراث، السنة 13، عدد: 51، 1426هـ- 2005م، ص: 31.

التَّجَدُّد والتَّعَدُّد في المعنى، وكذلك من صفات الأحاديث النبوية التَّجَدُّد والتَّعَدُّد في المعنى.. ويقول مصطفى صادق الرافعي في "وحي القلم" عن الأحاديث النبوية المشرفة: "إنه كلام كلما زده فكراً زادك معنى" (1).

ولمَّا كانت سُنَّتُهُ ﷺ بيانا للقرآن، ومفتاحاً لفهمه، ومرجعياً لضبط النظر إليه، فقد عُدَّتْ أحاديثه الشريفة بكلِّ ما تحمل من أقوال وأفعال وتقاير وصفات سياقات خارجية للنص القرآني اعتمدت في تفسيره وتوجيه وترجيح دلالاته وتخصيص معناه. وفيما يأتي سنبيِّن أثرها في تأويل وتقرير آية من آيات الإعجاز العلمي في خلق السماء والأرض، وعلاقة ذلك بالحقيقة العلميَّة التي أشارت إليها هذه الآية. بالاستشهاد ببعض الأحاديث الصحيحة الواردة عنه ﷺ.

فمن أمثلة آيات الإعجاز العلمي في وصف خلق السماء والأرض، والتي قد أشار إليها الحديث الشريف وأقرها، قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِغَعْمُوا أَنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12].

جاءت هذه الآية المعجزة في ختام سورة الطلاق -وهي سورة مدنية- للتذكير بقدرة الله وسعة ملكه، وسلطان علمه العظيم في المجال الكوني العريض، وذلك ليستلزم معرفته ومعرفة صفاته التامة وتوحيده، فالصنعة تدلُّ على الصانع وعلى ما له من الصفات، يقول السعدي: «أخبر تعالى أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى وعبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموقنون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك، الظالمون المعرضون» (2).

لقد أشار الله تعالى في هذه الآية المعجزة إلى وجود سبع سموات وسبع أرضين مثلهن، فما المدلول اللغوي لقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ وكيف فسّر؟ وهل قرّر القرآن الكريم والسنة الشريفة حقيقة السبع سموات والسبع أرضين؟ وهل أظهرت العلوم الفلكية والجيولوجية هذه الحقيقة

(1) - ينظر: أحمد شوقي إبراهيم: موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي. دار النهضة، مصر، ط4، 2006. 8/1.  
(2) - السعدي (عبد الرحمن بن ناصر): تفسير السعدي "تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان". تقديم عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، ومحمد بن صالح العثيمين. مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت-لبنان، ط2، 1431هـ/2010م، ص:920.

## الكونية؟

في تأويل هذه الآية ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ وشرحها لا خلاف بين جمهور المفسرين في دلالة السماوات السبع أنها سماء فوق سماء أو بعضها فوق بعض، ودليلهم في ذلك من القرآن - تفسير القرآن بالقرآن - قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: 3]، وقوله: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: 15]، ومن السنة الشريفة حادثة الإسراء والمعراج، والكثير من الأحاديث النبوية الشريفة.

وفي دلالة ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فسرت على أن الله خلق من الأرض مثلهن - أي السموات السبع - في العدد، واختلف في المماثلة؛ أي في كيفية طبقات الأرض على أقوال عدة نذكر منها:

أ- قول الجمهور: «أَنَّهَا سَبْعُ أَرْضِينَ طِبَاقًا بِعُضْهَا فَوْقَ بَعْضٍ، بَيْنَ كُلِّ أَرْضٍ وَأَرْضٍ مَسَافَةٌ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالسَّمَاءِ، وَفِي كُلِّ أَرْضٍ سُكَّانٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ»<sup>(1)</sup>.

ب- قول الضحَّاك: «وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ أَيُّ سَبْعًا مِنَ الْأَرْضِينَ، وَلَكِنَّهَا مُطَبَّعَةٌ بِعُضْهَا عَلَى بَعْضٍ مِنْ غَيْرِ فُتُوقٍ بِخِلَافِ السَّمَوَاتِ»<sup>(2)</sup>.

ج- قول قتادة: «خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَسَبْعَ أَرْضِينَ فِي كُلِّ سَمَاءٍ مِنْ سَمَائِهِ، وَأَرْضٍ مِنْ أَرْضِهِ، خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ وَأَمْرٌ مِنْ أَمْرِهِ، وَقَضَاءٌ مِنْ قَضَائِهِ»<sup>(3)</sup>.

د- قول ابن عباس: «سَبْعُ سَمَوَاتٍ بِعُضْهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَسَبْعُ أَرْضِينَ بِعُضْهَا تَحْتَ بَعْضٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ مَسِيرَةٌ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَذَلِكَ بَيْنَ كُلِّ أَرْضٍ وَأَرْضٍ»<sup>(4)</sup>.

ه- قول حكاة الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: «أَنَّهَا سَبْعُ أَرْضِينَ مُنْبَسِطَةٌ، لَيْسَ بِعُضْهَا فَوْقَ بَعْضٍ، تُفَرِّقُ بَيْنَهَا الْبِحَارُ وَتُظِلُّ جَمِيعَهُمُ السَّمَاءُ. فَعَلَى هَذَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَصُولٌ إِلَى أَرْضٍ أُخْرَى اخْتَصَّتْ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ بِأَهْلِ هَذِهِ الْأَرْضِ، وَإِنْ كَانَ لِقَوْمٍ مِنْهُمْ وَصُولٌ إِلَى أَرْضٍ أُخْرَى اخْتَمَلَ أَنْ تَلْزِمَهُمْ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ عِنْدَ امْتِنَانِ الْوُصُولِ لِيَلِيَهُمْ، لِأَنَّ فَصْلَ الْبِحَارِ إِذَا امْتَنَّ سُلُوكُهَا لَا يَمْنَعُ مِنَ لُزُومِ مَا عَمَّ حُكْمُهُ، وَاخْتَمَلَ أَلَّا تَلْزِمَهُمْ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ لِأَنَّهَا لَوْ

(1) - القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 63/21.

(2) - المصدر نفسه. 63/21.

(3) - الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 80/23. وينظر: الزمخشري: الكشاف. 152/6.

(4) - السمعاني (منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي ت489): تفسير القرآن. دار الوطن، الرياض، السعودية، ط1، 1418هـ-1997م، 468/5.

لَرِمَتْهُمْ لَكَانَ النَّصُّ بِهَا وَارِدًا، وَلَكَانَ ال تَبِيُّ ﷺ بِهَا مَأْمُورًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ صِحَّةَ مَا اسْتَأْتَرَ بِعِلْمِهِ، وَصَوَابِ مَا اشْتَبَهَ عَلَى خَلْقِهِ»<sup>(1)</sup>.

من هذه الأقوال وغيرها رجَّح الآلوسي والقرطبي قول الجمهور، يقول الآلوسي: «وأنا أقول بِنَحْوِ مَا قَالَهُ الْجُمْهُورُ رَاجِعًا الْعِصْمَةَ مِمَّنْ عَلَى مَحْوَرِ إِرَادَتِهِ تَدْوُرُ أَفْلَاكُ الْأُمُورِ: هِيَ سَبْعُ أَرْضِينَ بَيْنَ كُلِّ أَرْضٍ وَأَرْضٍ مِنْهَا مَسَافَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي كُلِّ أَرْضٍ خَلْقٌ لَا يَعْلَمُ حَقِيقَتَهُمْ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَهُمْ ضِيَاءٌ يَسْتَضِيئُونَ بِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَ عِنْدَهُمْ لَيْلٌ وَنَهَارٌ وَلَا يَتَعَيَّنُّ أَنْ يَكُونَ ضِيَاؤُهُمْ مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ وَلَا مِنْ هَذَا الْقَمَرِ»<sup>(2)</sup>، أمَّا القرطبي يرى أن قول الجمهور أصحَّ لِأَنَّ الْأَخْبَارَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالتَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ<sup>(3)</sup>.

لقد ورد ذكر السموات السبع في القرآن الكريم في سبع آيات على صيغتين "سبع سماوات" و"السموات السبع"، يقول فيها الله سبحانه وتعالى:

1- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 29].

2- ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۗ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۗ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 12].

3- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12].

4- ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۗ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ۗ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَل تَرَىٰ مِن فُتُورٍ﴾ [المالك: 3].

5- ﴿الَّذِينَ تَرَوُا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: 15].

6- ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۗ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ ۗ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44].

7- ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: 86].

أمَّا ذكر الأرض جمعًا فلم يرد في القرآن الكريم، و لا توجد في ه آية تدلُّ على عدد الأرضين بسبع مثل عدد السموات سوى الآية 12 من سورة الطلاق.

(1)- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 65/21.

(2)- الآلوسي: روح المعاني. 144/28.

(3)- ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 63/21.

لكن في السنة الشريفة وردت أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ تشير وتقر بحقيقة وجود سبع أراضين نذكر منها ما جاء في صحيح البخاري باب: "ما جاء في سبع أراضين"<sup>(1)</sup>:  
 أ- عن أبي سلمة بن عبد الرحمن - وكانت بينه وبين أناس خصومة في أرض، فدخل على عائشة فذكر لها ذلك - فقالت: يا أبا سلمة اجتنب الأرض، فإن رسول الله ﷺ قال: «من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أراضين».

ب- حدثنا عبید بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل «أنه خاصمته أروى - في حق زعمت أنه انتقصه لها - إلى مروان، فقال سعيد: أنا أنتقص من حقها شيئاً؟ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أراضين».

ج- حدثنا بشر بن محمد قال: أخبرنا عبد الله عن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: «من أخذ شيئاً من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أراضين».

وأيضاً من الأحاديث الشريفة التي أشارت إلى سبع سموات وسبع أراضين قوله ﷺ:  
 أ- «اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأراضين السبع وما أفلنن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرين إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها. قال أبو نعيم: هذا حديث ثابت من حديث موسى ابن عقبة تفرد به عن عطاء. روى عنه ابن أبي الزناد وغيره»<sup>(2)</sup>.

ب- روى الإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة قال: «بينما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جالس وأصحابه قال: هل تدرون ما فوقكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها الرقيع سقف محفوظ وموج مكفوف، قال: هل تدرون ما بينكم وبينها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: بينكم وبينها خمسمائة عام، ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: السماء وإن بعد ما بينها خمسمائة سنة، ثم قال كذلك حتى عد سبع سماوات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض، ثم قال هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: وإن فوق ذلك العرش

(1)- البخاري ( أبو عبد الله محمد بن إسماعيل): صحيح البخاري. دار ابن كثير دمشق-بيروت. ط1، طبعة جديدة مضبوطة ومصححة ومفهرسة، 1423هـ-2002م، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أراضين، ص: 790-791.  
 (2)- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 64/21.

بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ بُعْدٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ بَيْنِ ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا تَحْتَكُمْ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: إِنَّهَا الْأَرْضُ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا تَحْتِ ذَلِكَ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: إِنَّ تَحْتَهَا أَرْضًا أُخْرَى بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ حَتَّى عَدَّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْعَ أَرْضِينَ مَا بَيْنَ كُلِّ أَرْضَيْنِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ»<sup>(1)</sup>.

إذاً فقد قرّر القرآن الكريم والسنة الشريفة حقيقة السبع سموات والسبع أراضي، فلا خلاف أنّ السماوات سبع والأراضي سبع بنصّ القرآن والحديث، والسؤال المطروح الآن هل أظهرت العلوم الفلكية والجيولوجية في العصر الحديث هذه الحقيقة الكونية؟

لقد اكتشف علماء الفضاء حديثاً طبقات الكون الفسيح بامتداد النجوم في المجرات، والمجرات في الفضاء اللانهائي، وذهب العلماء إلى القول بأنّ السبع سماوات هي<sup>(2)</sup>:

- 1- الغلاف الجوي للأرض.
- 2- الفضاء المحيط بالأرض الذي يسبح فيه القمر مشدوداً بجاذبية الأرض وتابعا لها.
- 3- فضاء المجموعة الشمسية الذي تسبح فيه الكواكب حول الشمس.
- 4- المجال الذي تجري فيه الشمس بمجموعاتها داخل المجرة.
- 5- الفضاء الذي تشغله مجرة درب التبانة متحركة في الفضاء الفسيح.
- 6- فضاء الكون المرئي بما فيه من آلاف المجرات.
- 7- الفضاء اللانهائي الذي لم تزل تنطلق فيه المجرات المتباعدة عن بعضها موسعة للكون باطراد إلى ما شاء الله.

كما أثبتت الدراسات الجيوفيزيائية أن الأرض مكونة من سبعة نطق "طبقات" محدّدة من الدّاخل إلى الخارج على النحو التالي<sup>(3)</sup>:

- 1- لبّ الأرض الصلب (الداخلي): وهو عبارة عن نواة صلبة تتكوّن من الحديد بنسبة 90%، والنيكل بنسبة 9%، مع قليل من العناصر الخفيفة مثل الكربون والفسفور. وتعد تلك

(1) - الألويسي: روح المعاني. 143/28. وينظر: موسوعة الحافظ بن حجر العسقلاني الحديثية. جمع وإعداد وليد بن أحمد الحسين الزبيدي وآخرون. سلسلة إصدارات الحكمة 12، تصدر عن مجلة الحكمة بريطانيا-ليدز، ط1، 1422هـ - 2002م. 285/3. كتاب: بدء الخلق.

(2) - ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن والسنة النبوية. ص: 19.

(3) - ينظر: زغول النجار: الإعجاز العلمي في السنة النبوية. دار النهضة، مصر، ط5، 2012م ص: 51-53. وينظر: أحمد جاد موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 213-314.

النواة اللبية في جوف الأرض هي (الأرض السابعة).

2- لب الأرض السائل (الخارجي): وهو نطاق لَدُنْ أي شبه سائل، يحيط باللبِّ الصلب، وله نفس تركيبه الكيميائي، ويفصله عن اللب الصلب منطقة انتقالية شبه منصهرة، يبلغ سمكها (450 كلم) تعتبر الجزء الأسفل من هذا النطاق الذي يمثل (الأرض السادسة).

3- النطاق الأسفل من وشاح الأرض: وهو نطاق صلب يحيط بلبِّ الأرض السائل، ويفصله عن الوشاح الأوسط "الذي يعلوه" مستوى انقطاع للموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل، ويعتبر هذا النطاق (الأرض الخامسة).

4- النطاق الأوسط من وشاح الأرض: وهو نطاق صلب، يحده من أعلى ومن أسفل مستويان من مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية. ويمثل هذا النطاق (الأرض الرابعة).

5- النطاق الأعلى من وشاح الأرض: وهو نطاق لَدِن، شبه منصهر، عالي كثافة للزوجة، ويعتبر هذا النطاق (الأرض الثالثة).

6- النطاق السفلي من الغلاف الصخري للأرض: يحده من أسفل الحد العلوي لنطاق الضعف الأرضي، ومن أعلى خط انقطاع الموجات الاهتزازية المعروف باسم "الموهو" ويمثل هذا النطاق (الأرض الثانية).

7- النطاق العلوي من الغلاف الصخري للأرض "قشرة الأرض": يتراوح سمكه بين (5 و6 كم) تحت قيعان البحار، والمحيطات، وبين (60 و80 كم) في المتوسط تحت القارّات، ويتكوّن أساسًا من العناصر مثل الصوديوم، والبوتاسيوم، الألمنيوم، والأكسجين مع القليل من الحديد، وبعض العناصر الأخرى وهو التركيب الغالب للقشرة القارّية التي يغلب عليها الجرانيت والصخور الجرانيتية، أما قشرة قيعان البحار والمحيطات فتميل إلى تركيب الصخور البازلتية. وتعتبر قشرة الأرض هي (الأرض الأولى).

وعليه، وممّا سبق نستنتج أنّ هناك سبع سموات تعلو بعضها بعضًا، بل هناك أكثر من هذا، فمن الأرض سبع مثلهن، وقد ذكر الحديث الشّريف هذه الحقيقة الكونيّة وأقرّها، بما يتوافق مع

الآية الكريمة. ولم يكن النَّاسُ قبل القرن العشرين يدركون أنَّ هناك طبقات في السَّماء ولا في الأرض، وهذا ممَّا يُعدُّ إعجازًا علميًا مُبينًا.

أنَّ في تَكَرُّر الآيات التي تشير إلى سبع سماوات في سبع آيات إعجازًا - في حدِّ ذاته - في التَّوافق العددي بين القرآن وخلق هذه السَّمَاوَات السَّبْعِ، وأيضًا فإنَّ الإشارة في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ السَّبْعُ﴾ [الطلاق:12]. بمثابة الأرض إلى السَّمَاوَات تأكيد أنَّ الأرض سبع متطابقة كما أنَّ السَّمَاوَات سبع متطابقة. وفي ذلك مطابقة الحقائق العلمية للآيات الكونية.

ولعلَّ في تَكَرُّر السَّمَاوَات السَّبْعِ في كثير من آيات الذكر الحكيم، وقصر الإشارة إلى الأراضين السَّبْعِ في ختام سورة الطلاق، «لَعَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَادِرٌ عَلَىٰ إِدْرَاكِ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَلَكِنَّهُ عَاجِزٌ عَجْزًا تَامًا عَنِ إِدْرَاكِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ لِعَجْزِهِ عَنِ الْخُرُوجِ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ أْبْعَدِ مِنْ جِزْءِ صَغِيرٍ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا»<sup>(1)</sup>.

(1) - زغلول النجار: السماء في القرآن الكريم. ص: 141.

## 2- أثر أقوال الصحابة في تأييد واقعة آية انشقاق القمر:

لقد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم بالرسول ﷺ ونحلوا من معينه الصافي، وشاهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا أسباب النزول، ولهم من صفاء نفوسهم، وسلامة فطرتهم، وعلو منزلتهم في الفصاحة والبيان، ما يؤهلهم من الفهم الصحيح السليم لكلام الله، وما يجعلهم يدركون أسرار هذا القرآن أكثر من أي إنسان؛ وبذلك عُدَّ تفسيرهم من التفسير المعتمد المقبول<sup>(1)</sup>.

فإذا « أعوز البيان من الكتاب والسنة في تفسير النص القرآني، رُجع إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بمراد التنزيل وهُداه، وأقرب إلى مناهل السنة، وأغزر علمًا، وأقوم فهمًا، وأصفي سليقة، فهذه الفضائل لم تجتمع في غيرهم بحكم الصُحبة الحَيِّرة، والملازمة الفاضلة، والاختصاص بمشاهدة الأحوال والقرائن [...] ولم يخالف أحد من أهل العلم في حجّيته ما أجمع عليه الصحابة باجتهداهم؛ لأن المستند في ذلك الإجماع لا قول الصحابي، وكذا لا خلاف في حجّية قول إذا لم يعرف له مخالف من الصحابة مع اشتهاره»<sup>(2)</sup>.

وقد توسّع الصحابة رضوان الله عليهم في بحث معاني القرآن الكريم، وفهم أحكامه، وقد سلخوا في دراسة القرآن الكريم مسلكين لمعرفة المعنى<sup>(3)</sup>:

أحدهما: بحث معاني الألفاظ مستقلة، وهو ما يعرف بالمعنى المعجمي أو القاموسي.  
ثانيهما: بحث المعنى السياقي، وذلك من خلال معرفة السياق اللغوي والسياق الخارجي، وسبب النزول ومكانه وزمنه، وكل ما يتعلّق بالنص القرآني في العالم الخارجي.

ولقد اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة ذكروهم الشيوطي في الإتيان وهم: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير<sup>(4)</sup>. ومن أمثلة أقوال الصحابة التي كان لها أثر في توجيه دلالة النص القرآني وتأكيد حقيقته، تفسيرهم لآية انشقاق القمر في قوله تعالى: ﴿ أَفَرَبِّ السَّاعَةِ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ ۗ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۚ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أُمَّرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ۚ ۝ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرُ ۚ ﴾ [القمر: 1-5].

(1) ينظر: محمد علي الصابوني: التبيان في علوم القرآن. ص: 65.

(2) قطب الريسوني: النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر. ص: 66.

(3) ينظر: محمود عكاشة: الدلالة اللفظية. ص: 45.

(4) ينظر: محمد علي الصابوني: التبيان في علوم القرآن. ص: 68.

سورة القمر من السور المكيّة، ابتدأت بالتحذير من اقتراب الساعة؛ أي يوم القيامة الذي يتقرّر من خلاله المصير الأزلي للبشريّة، وقد قرنت هذا التحذير بالتذكير بانشقاق القمر ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ، هذه المعجزة الكونيّة الحسيّة التي حدثت في زمن رسول الله ﷺ كآية من آيات الله المبهرة ومعجزة من معجزاته النيرة، الدّالة على صحّة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، يقول سيد قطب: «مطلع باهر مثير، على حادث كوني كبير، وإرهاص بحادث أكبر. لا يقاس إليه ذلك الحدث الكوني الكبير: ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ فيا له من إرهاص! ويا له من خبر. ولقد رأوا الحدث الأول فلم يبق إلا أن ينتظروا الحدث الأكبر. والرّوايات عن انشقاق القمر ورؤية العرب له في حالة انشقاقه أخبار متواترة. تتفق كلّها في إثبات وقوع الحادث»<sup>(1)</sup>.

إنّ آية انشقاق القمر قد حدثت نتيجة لطلب مُشْرِكِي قُرَيْشٍ من النّبي ﷺ أن يشق القمر ليكون دليلاً إعجازياً على رسالته، يقول الطبري: « وكان ذلك فيما ذكر على عهد رسول الله ﷺ وهو بمكّة، قبل هجرته إلى المدينة، وذلك أنّ كفّار أهل مكّة سألوه آية، فأراهم انشقاق القمر، آية حجّة على صدق قوله، وحقيقة نبوّته؛ فلما أراهم أعرضوا وكذبوا، وقا لوا: هذا سحر مستمرّ، سحرنا محمد، فقال الله جلّ ثناؤه ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾. وبنحو الذي قلنا في ذلك جاءت الآثار، وقال به أهل التّأويل»<sup>(2)</sup> ، ويقول ابن كثير: « وَهَذَا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَيِ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ قَدْ وَقَعَ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ كَانَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ»<sup>(3)</sup>.

ففي ذلك الزّمان وفي ذلك المكان شهد الكثير من صحابة رسول الله ﷺ والمشركين واقعة انشقاق القمر تلك الآية العظيمة المعجزة، كما ثبت ذلك في الأحاديث الـ مُتَوَاتِرَةِ بِالْأَسَانِيدِ الصَّحِيحَةِ. ومن الصحابة الذين رأوا ورووا معجزة انشقاق القمر ونقلوا أخبارها متواترة: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَأَنْسُ بْنُ عَبَّاسٍ وَحُدَيْفَةُ وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعَمٍ، نذكر من أقوالهم:

أ- عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل والأسود بن المطلب والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبي ﷺ: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، فسأل ربّه فانشق»<sup>(4)</sup>.

(1) - سيد قطب: في ظلال القرآن. 6/3425/27.

(2) - الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن. 23/103.

(3) - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 7/472.

(4) - موسوعة الحافظ بن حجر. جمع وإعداد وليد بن أحمد الحسين الزبيدي 413/3. كتاب: دلائل النبوة. باب: انشقاق القمر

ب- عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «إِنْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: هَذَا سِحْرٌ سَحَرَكُمُ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ، وَلَكِنْ أَنْظِرُوا إِلَى مَنْ يَقْدُمُ مِنَ السُّفَّارِ فَسَلُّوهُمْ فَقَدِمُوا فَسَأَلُوهُمْ فَقَالُوا: رَأَيْنَاهُ قَدْ إِنْشَقَّ، أَخْرَجَهُ الْحَافِظُ بِسَنَدِهِ.

هذا حديث صحيح أخرجه البزار عن يوسف بن موسى، وأخرجه البيهقي من طريق أبي داود الطيالسي عن أبي عوانة» (1).

وقد روى البخاري ومسلم في "صحيحيهما" من حديث ابن مسعود قال: «إِنْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَقَّتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اشْهَدُوا"» (2). أخرجه ابن الجوزي في تفسيره.

ج- عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ « أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ فَرَقَّتَيْنِ، حَتَّى رَأَوْا حِرَاءَ بَيْنَهُمَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اشْهَدُوا"» (3). رواه البخاري ومسلم.

د- عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ عن أبيه، قال: «إِنْشَقَّ الْقَمَرُ وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ» (4). أخرجه الثعلبي في تفسيره.

وجاء في معاني الزجاج، عَنْ حُصَيْنٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «إِنْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَقَّتَيْنِ، عَلَى هَذَا الْجَبَلِ، وَعَلَى هَذَا الْجَبَلِ، فَقَالَ النَّاسُ: سَحَرَنَا مُحَمَّدٌ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنْ سَحَرَكُمُ فَلَمْ يَسْحَرْ النَّاسَ كُلَّهُمْ» (5).

إذا فقد قرّر القرآن الكريم والأحاديث المتواترة عن الصحابة حقيقة انشقاق القمر، والسؤال المطروح الآن هل من دليل عن انشقاق القمر في عصرنا هذا عصر العلم والتّكنية، وهل من شاهد على ذلك؟

لقد أثبتت الدراسات الفلكية أنّ القمر كان قد انشق يوماً من الأيام ثم التحم؛ بدليل وجود تمزقات طويلة وغائرة في جسم القمر، تتراوح أعماقها بين عدة مئات من الأمتار وأكثر من الكيلومتر، ويتراوح اتساعها بين نصف كيلو متر وخمسة كيلومترات، وتمرّ هذه الشقوق الطويلة الهائلة بالعديد من الحفر التي يزيد عمق الواحد منها على تسعة كيلومترات، ويزيد قطرها على الألف

(1)- موسوعة الحافظ بن حجر. جمع وإعداد وليد بن أحمد الحسين الزبيدي 414/3. كتاب: دلائل النبوة. باب: انشقاق القمر

(2)- ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير. 87/8-88.

(3)- عبد الفتاح عبد الغني القاضي: أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين. خرج أحاديثه وشرح غريبه: أحمد عبد الرزاق البكري، دار السلام، القاهرة-مصر، ط8، 1424هـ-2003م، ص: 216.

(4)- الثعلبي (الهامام أبو إسحاق أحمد ت427هـ): الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي. تحقيق أبو محمد بن عاشور. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-2002م، 161/7.

(5)- الزجاج: معاني القرآن وإعرابه. 82/5.

كيلومتر، ومن أمثلتها الحفرة العميقة المعروفة باسم "بحر الشرق" (Mare Orientalis)؛ وقد فسّرت هذه الحفرة العميقة باصطدام أجرام سماوية بحجم الكويكبات، وأمّا الشقوق التي تعرف باسم "شقوق القمر"، فقد فسّرت على أنّها شروخ ناجمة عن الشد الجانبي (Tensional cracks)، أو متداخلات نارية على هيئة الجدد القاطعة، ولكن أمثال هذه الأشكال على الأرض لا تصل إلى تلك الأعماق الغائرة، ومن ثمّ فقد فسّرت على أنّها من آثار انشقاق القمر وإعادة التحامه<sup>(1)</sup>.

ومن الشاهدين على انشقاق القمر في عصرنا: فيما قصّه عبد المجيد الزنداني عندما سُئل هل ثبت علمياً أن القمر انشق؟ قال: نعم، داود موسى بيدكوك (David Musa Pidcock) - البريطاني الذي أسلم يقول: سبب إسلامي أيّ استمعت مناظرة في قناة التيلفزيون البريطاني (B.B.C)، بين مجموعة من العلماء البريطانيين، وثلاثة من علماء الفضاء الأمريكيين، وجرى عتاب على الإسراف المخل في الإنفاق على رحلات الفضاء، فقال البريطانيون للأمريكان: كم أنفقتم من المليارات حتى وصلتكم إلى القمر؟ ما الذي جئتم به؟ جئتمونا بأحجار! هل قيمتها تساوي المليارات التي أنفقتموها؟ فخشى الأمريكان من تشويه سمعتهم أمام جمهور أمريكا وفي أوروبا، فقالوا: لا.. نحن لم نصعد من أجل هذا، وإنما صعدنا من أجل أن نحقق في ظاهرة أذهلتنا، فقد وجدنا أن القمر مشقوق نصفين، وأنّ كل نصف ابتعد عن النصف الآخر، وأنّه عاد كما كان والتحم النصفان، وأن دليلنا على ذلك هو أن سلاسل الجبال التي كانت ملتحمة بعضها مع بعض، لما عاد الالتحام حدث لها الانزياح، فأصبح نصف الجبل هذا يلتحم مع نصف الجبل الآخر. ونصف الجبل الآخر يلتحم مع نصف الجبل الآخر، وهكذا جميع الجبال.

وأنصاف الجبال التي في سلاسل الجبال في إحدى الجهات وجدوها متقدّمة عن مثيلاتها وأنصافها الأخرى التي أصبحت متأخرة، ممّا دلّهم على أن القمر قد انشقّ وهي معجزةٌ لمحمد ﷺ سجّلها القرآن<sup>(2)</sup>. وقد أورد هذه القصة بتفاصيل أكثر زغلول النجار في مؤلفاته

وعليه، فهذه الحقيقة العلمية لانشقاق القمر، التي أقرّها النصّ القرآني، وأكّدها أقوال الصحابة، أثبتتها العلم الحديث بعد أربعة عشر قرناً من هذا الحدث وذلك الإخبار على أيدي أناس -رواد الفضاء- لا يؤمنون بدين الإسلام، ممّا يشهد بإعجاز القرآن الكريم، وأنّه معجزة الله الخالدة المتحدّدة.

(1)- ينظر: هيثم جمعة هلال: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. ص: 469. وينظر: زغلول النجار: الإعجاز العلمي في السنة النبوية. ص: 125.

(2)- ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 72-73.

## الفصل الثاني:

### آيات خلق الإنسان والحيوان بين الدلالة السباقية والحقائق العلمية

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا  
النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا  
الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

[المؤمنون: 12-14]

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ  
حِينَ تَرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلِيغِيهِ إِلَّا  
بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْحَيْلَ وَالْإِغَالَ وَالْحَمِيرَ  
لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

[النحل: 5-8]

## المبحث الأول:

### إحصاء آيات الإعجاز العلمي في خلق الإنسان والحيوان وتصنيفها

إنَّ آيات الإعجاز العلمي في الإنسان والحيوان في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة، لكن بمقارنتها بآيات الإعجاز العلمي في السماء والأرض، نجد أنَّ هذه الأخيرة تفوقها عددًا، لكن في حقيقة الأمر إعجاز هذه الآيات لا ينتهي ولن يتوقف أبدًا، فكلُّ مرة تبرز آية تؤكد قدرة الله وعظمته، وإعجاز القرآن العظيم وخلوده.

فلقد احتوت آيات الإعجاز العلمي في خلق الإنسان والحيوان كثيرا من القضايا العلمية التي تتصل بالجسم البشري ونشأته، وتكوينه، وعقله، ونفسه، وحواسه. وتتصل بخلق الحيوانات واختلافها وأنواعها من أنعام، وحشرات، وطيور. وهذا ما سنتطرق إليه فيما يأتي إحصاءً وتصنيفًا:

### المطلب الأول: إحصاء آيات الإعجاز العلمي في الإنسان وتصنيفها

أشار القرآن الكريم في كثيرٍ من آياته إلى أهمِّ الحقائق العلمية المتعلقة بأصل خلق الإنسان، وتكوينه ونشأته وعقله وحواسه، وهذه الحقائق وغيرها لم تكن معروفة للإنسان قبل أن يصل إليها العلماء بألف وأربعمائة سنة. وهذا ما يؤكد على جانب هام من جوانب الإعجاز في كتاب الله؛ وهو جانب الإعجاز العلمي. وسوف نجمع في هذا المبحث هذه الآيات ونُصنّفها إلى ثلاثة أصناف؛ الأول: نحصي فيه آيات التخلق عند الجنين من بداية تكونه إلى فترة حمله إلى ولادته، والثاني: آيات الإعجاز المتعلقة بالعقل والنفس البشرية، والثالث: الآيات التي تصف الحواس والإحساس عند الإنسان<sup>(1)</sup>.

### 1- آيات الإعجاز العلمي في التخلق

لقد تحدث القرآن الكريم أولًا عن أصل خلق الإنسان من تُراب في آيات عديدة نذكر منها: قوله سبحانه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۗ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّىٰ عِنْدَهُ ۗ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 2]،

(1) - جمع وإحصاء هذه الآيات من موسوعات ومراجع عدّة نذكر منها: ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. وينظر: أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. وينظر: هيثم جمعة هلال: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. دار العزة والكرامة للكتاب، وهران-الجزائر، ط 1، دت. وينظر: نايف منير فارس: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة...

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر:26]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون:12]، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم:20]، وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:14]، وقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة:7].

ثم عن خلقه من نطفة واحدة أمشاج، وماء دافق من بين الصُّلب والثَّرَائِب؛ في قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:2]، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ [التين:1-3]، ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فليَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [التين:1-6] يخرج من بين الصُّلبِ والثَّرَائِبِ [الطارق:1-7].

كما وصف مراحل وأطوار خلق الجنين من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى طور العظام إلى الكساء باللحم إلى إنشاء الجنين خلقًا آخر؛ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ۖ وَمِنْكُمْ مَن يُنْفِقُ فِي السَّنَةِ مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ وَمِنْكُمْ مَن يُنْفِقُ مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:5]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:12-14]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوعًا وَمِنْكُمْ مَن يُنْفِقُ مِنْ قَبْلِ ۖ وَلِنَبْلُوًا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر:67]، وقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:13-14].

كما أشار إلى القرار المكين؛ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون:12-13]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المرسلات:20-21].

وإلى تكوّن العظام قبل العضلات؛ في قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: 12-14].

وإلى الأغشية الجنينية والظلمات الثلاث؛ في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا مِّمَّا خَلَقَكُمْ فِي بَطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآئِن تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: 6].

وإلى غيض الأرحام؛ في قوله جل ذكره: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: 59]، وقوله: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: 8-9]، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: 34].

كما كشف عن مدّة الحمل، وحدّد أقل فترة حمل ممكنة؛ في قوله تعالى: ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الحج: 5]، وقوله: ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [المرسلات: 21-22]. وقوله جل جلاله: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا بِأَوْلَادِكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَوْلُ اللَّهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: 233]، وقوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ [لقمان: 14]، وقوله: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَسَدَهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: 15].

وعن جنس المولود تحدّث، في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتًا وَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُرَوْجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْتًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿الشورى: 49-50﴾.

وأشار إلى فائدة طبية قرآنية للجبلى؛ في قوله سبحانه: ﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٣٢﴾ فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزِيءَ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكِ رَبُّبًا جَنِينًا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴿مریم: 23-26﴾.

وأخيرا وصف بدن الإنسان وجمال خلقه في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴿الإسراء: 70﴾، وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: 4-6]، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ﴿الانفطار: 7﴾.

## 2- آيات الإعجاز العلمي في النفس والعقل

في كثير من آيات الإعجاز العلمي في خلق الإنسان، تحدّث القرآن عن العقل والنفس؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَقَادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْني أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿البقرة: 31-33﴾، وقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿١١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿الذاريات: 22﴾، وقال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿انفصت: 53﴾.

فلقد وصف البنية النفسية للإنسان؛ في قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي ﴿٤﴾ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴿٥﴾ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿يوسف: 53﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿النازعات: 40﴾، وقوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿الشمس: 7-10﴾.

كما أشار إلى أن كل نفس عليها حافظ رقيب من الملائكة؛ في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ وما أدرك ما الطارق ﴿٢﴾ التَّعْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾: ﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيَّ حَافِظٌ﴾ [الطارق: 1-4].

وإلى الزوجية عند الإنسان؛ في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: 36]، وقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49].

وفي آيات أخرى كشف فيها أن القلب هو العقل؛ فقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35]، وقال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 7]، وقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: 10]، وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 117]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7]، وقال: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: 8]، وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا لَا يُؤْمِنُ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: 25]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100]، وقال: ﴿تِلْكَ الْأَقْرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ۚ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 101].

وأن مركز التعقل في القلب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۚ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

كما أشار إلى الذاكرة وعلاقتها بالحواس؛ في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَبْصِرِ وَالْبَصِيرُ وَالسَّمِيعُ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا نَذَكَّرُونَ﴾ [هود:24].

وإلى تمييز الإنسان عن سائر الخلق بالدماع -العقل-؛ في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:70].

وإلى الساعة البيولوجية في الجسم؛ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيَالٍ لِبَاسًا وَأَلْيَوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:47]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۗ ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا:10-11].

وإلى أن الناصية مركز القيادة؛ في قوله سبحانه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيهَا إِنْ رَفَعْتَ يَدَكَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود:56]، وقوله: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْهَ لَنْسَفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق:15-16].

### 3- آيات الإعجاز العلمي في الحواس والإحساس

من الحواس التي تكرر ذكرها في آيات القرآن الكريم حاستي السمع والبصر؛ ومن هذه الآيات

نذكر قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:78]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون:78]، وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۗ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة:9]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:23]، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:2]، وقوله: ﴿وَلَا تُقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۗ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:36]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:37]،

وقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف:26]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَنْ يَصِدْقُونَ﴾ [الأنعام:46]، وقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ۗ

وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿البقرة:7﴾، ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ  
وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿فصلت:20﴾، وقوله في حق الكافرين: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي  
وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿الكهف:101﴾، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ  
مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءٍ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿هود:20﴾.

وقد أشار إلى حاسة الشم "الرائحة"؛ في قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي  
لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفِنْدُونِ ﴿يوسف:94﴾.

وإلى أن الجلد مركز الإحساس؛ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَمَا  
فُضِّتَ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَرِيفًا حَكِيمًا ﴿النساء:56﴾.

وإلى علاقة البصمات بشخصية الإنسان؛ في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامَهُ، ﴿٢﴾ بَلَىٰ  
قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانَهُ، ﴿القيامة:3-4﴾.

وإلى أن النطق آية - علمه البيان - في قوله جلّ ذكره: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ  
الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿الرحمن:1-4﴾.

كما كشف عن حقيقة الصَّعق بشدّة الصَّوت، في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي  
السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿الزمر:68﴾.

كما أشار إلى لحن القول وكشف الكذب، في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ  
بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿محمد:30﴾.

وأخيرا أشار إلى أن النوم والتَّقليب جلاله آية؛ في قوله جلّ جلاله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ  
وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاءُكُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿الروم:23﴾. وقوله سبحانه  
وتعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴿الكهف:18﴾.

## المطلب الثاني: إحصاء آيات الإعجاز العلمي في الحيوان وتصنيفها

أشار القرآن الكريم في عددٍ من آياته إلى الحيوان وإلى العديد من أنواعه، وتأتي هذه الإشارات في سياق الاستدلال على القدرة الإلهية التي لا تحدها حدود. وقد تضمنت هذه الآيات على عدد من الحقائق العلمية التي لو استفاد منها المسلمون لكان لهم شرف السبق في اكتشافها. وفيما يأتي سوف نجمع الآيات التي تحدت عن الحيوانات وأنواعها ونصنفها إلى ثلاثة أصناف؛ الصنف الأول نُخصّصه للأنعام، كالإبل والحيل والحمير، ومنافعها. أمّا الصنف الثاني فسنحصى فيه الآيات التي تحدت عن الحشرات، مثل النمل والنحل والعنكبوت والبعوض. والصنف الأخير نجمع فيه الآيات التي أشارت إلى الطيور وعالمها<sup>(1)</sup>.

### 1- آيات الإعجاز العلمي في الأنعام

تحدت القرآن الكريم عن مجموعة من الأنعام، وذكر أنواعها ومنافعها وتذكيبتها.

فقد بين أولاً أنواع الأنعام التي يحتاجها الإنسان؛ في قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْمُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۝٧ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْحَيْلُ وَالْأَعَالُ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل: 5-8].

وكشف عن منافعها وحاجة الإنسان لها؛ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَمِ لَعِبْرَةً ۝١٢ نُسَقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنفَعٌ كَثِيرٌ ۝١٣ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٤ وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ الْفُكَّيْ تَحْمِلُونَ ۝١٥﴾ [المؤمنون: 21-22]، وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَمِ لَعِبْرَةً ۝١٦ نُسَقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ۝١٧ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِبًا لِلشَّارِبِينَ ۝١٨﴾ [النحل: 66]، وقوله: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٩﴾ [النحل: 5].

كما أشار إلى عجائب الإبل وتحملها للجوع والعطش، وجمالها، وخلقها العجيب؛ في قوله جلّ جلاله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾ [الغاشية: 17].

(1) - جمع وإحصاء هذه الآيات من موسوعات ومراجع عدّة نذكر منها: ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. وينظر: أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. وينظر: هيثم جمعة هلال: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. وينظر: نايف منير فارس: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

وكذا الخيل الصافات الجياد في قوله تعالى: ﴿ وَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٣٠)   
 إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾   
 رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ [ص: 30-33].

وذكر الحمير في قوله جل ذكره: ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: 19].

والمعز في قوله أيضا: ﴿ تَمَنِّيَةَ أَرْوَجُ مِنْ الضَّكَّانِ أَتْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِزِ أَتْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَيْنِ أَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ نَبِيؤُنِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنعام: 143].

والكلب في قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ ﴿ فَشَلَّهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 176].

والقردة والخنزير: ﴿ قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مُثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: 60].

وأخيرا أشار إلى تذكية الحيوان، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّرْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ بَيَّسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ﴿ فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: 3].

## 2- آيات الإعجاز العلمي في الحشرات:

عالم الحشرات عالم عجيب غريب، وقد أشار القرآن الكريم في كثير من آياته إلى حقائق علمية معجزة في خلقها وتكوينها ولغتها وبيوتها، ومن هذه الحشرات نذكر:

النمل قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ وَحِشْرَ لَسِيْمَنَ جُنُوْدَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُوْدُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَبَسَّ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿[النمل: 17-19].

النحل في قوله جل جلاله: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (١٦) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿[النحل: 68-69].

الذباب في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿[الحج: 73].

العنكبوت في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿[العنكبوت: 41-43].

البعوضة في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿[البقرة: 26].

الفراشة في قوله جل ذكره: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿[القارعة: 4].

الجراد في قوله تعالى: ﴿حُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر:7]. و قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدمَّ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:133].

حشرة دابة الأرض "ناقرات الخشب" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ:14].

### 3- آيات الإعجاز العلمي في الطيور:

أشار القرآن الكريم إلى الطير الصفات؛ في قوله جلَّ جلاله: ﴿الْمَرْتَرِ أَنَّ اللَّهَ يَسْجِحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ، وَسَيِّبُهُ، وَاللَّهُ عِلْمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور:41]، وقوله: ﴿أَوْلَدُوا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَيَقِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك:19].

وإلى سرب الطيور؛ في قوله سبحانه: ﴿الْمَرِيرُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:79]، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نَعْمَ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:38].

كما تحدت عن طائر الهدهد في قصة سيدنا سليمان؛ في قوله تعالى: ﴿وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٧) حتى إذا أتوا على وادٍ التمل قالت نملة يتأيتها التمل ادخلوا مسكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده، وهم لا يشعرون (١٨) فنبسم صاحبا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضه وأدخلي برحمتك في عبادة الصالحين (١٩) وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين (٢٠) لأعذبه، عذابا شديدا أو لأذبحنه، أو ليأتيني بسلطان مبين (٢١) فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبأ بنبا يقين (٢٢) إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم (٢٣) وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون (٢٤) ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون (٢٥) الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ [النمل:17-26].

وتحدّث عن طائر الغراب في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ<sup>٤</sup> قَالَ يَوَيْلَیْٓ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوَاءَ أَخِي<sup>٥</sup> فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿۳۱﴾ [المائدة: 31].

وأشار إلى طائر السلوى في قوله سبحانه: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوٰ<sup>٦</sup> كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿۵۷﴾ [البقرة: 57].

وأخيراً ما يمكن ملاحظته ممّا سبق هو أنّ: آيات الإعجاز العلمي في خلق الإنسان وتكوينه، وعقله ونفسه، وحواسّه وأحاسيسه، وآيات الإعجاز العلمي في خلق الحيوان من الأنعام، والحشرات، والطيور، جاءت عديدة ومتنوّعة، وبأسلوب بلغ مُنتهى الدقة العلميّة واللُّغوية في التّعبير؛ فقد أشار القرآن إلى بعض الحقائق العلميّة المتعلّقة بعلوم الإنسان والحيوان وسبق في تقريرها قبل أن يصل إليها العلماء بألف وأربعمائة سنة، وأحاط سياقها النّصي بأسلوب بلاغي بياني معجز، شامل لدلالات لغويّة معجميّة وصوتيّة وصرفيّة ونحويّة مختلفة؛ ممّا يؤكّد على أنّ النّصّ القرآني معجزة لغويّة وعلميّة في آن واحد، وهذا ما سنبيّنه فيما يأتي من مباحث.

## المبحث الثاني:

### السياق الصوتي والحقائق العلمية في آيات خلق الإنسان والحيوان

تحتوي آيات خلق الإنسان والحيوان في القرآن الكريم ظواهر صوتية متميزة ومتنوعة، توحى بأثر موسيقي خاص، وتتجلى من خلالها دلالة السياق اللغوي في النص القرآني. ومن أمثلة تلك الظواهر الصوتية التي كان لها الدور الكبير في بلورة دلالة تلك الآيات؛ من خلال طبيعة الأصوات جرسها ونغمتها وصدائها وإيقاعها، ما يأتي:

#### المطلب الأول: دلالة الصوت الإيحائي

##### 1- الدلالة الإيحائية لأصوات لفظ "علقة" في آية خلق الإنسان

من أمثلة دلالة الصوت الإيحائي في آيات خلق الإنسان لفظ ﴿عَلَقَةٍ﴾ في قوله تعالى بصور مراحل تكوين خلق الإنسان: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّئِينَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج:5]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:12-14]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِنَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر:67]، وقوله: ﴿أَبْحَسِبُ الْإِنسَانَ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) أَلَمْ يَكْ نُطْفَةً مِّن مَّيِّ يُعْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩)﴾ [القيامة:36-39]، وقوله: ﴿أَفَرَأَىٰ بِإِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:1-3].

إنَّ السياق العام لهذه الآيات يصف مراحل تطوُّر الجنين في رحم أمه بدقة بالغة متناهية، وهي نفسها المراحل التي كشف عنها علم الأجنة الحديث، التي يتضمَّن فيها خلق الإنسان والتمثُّل في: مرحلة النطفة، ومرحلة العلقَّة، ومرحلة المضغَّة، ومرحلة العظام، ومرحلة العضلات والكساء باللحم، ثم مرحلة التَّسوية والتَّصوير والتَّعديل، وأخيراً مرحلة المخاض والولادة.

فنشأة الجنين حسب العلم الحديث تبدأ مع المرحلة الأولى، وهي "النطفة الأمشاج"؛ ففي خلال عملية الإخصاب الذي يتم في مدخل قناة أحد المبيضين، يندمج الحيوان المنوي مع البويضة في خلية واحدة مزدوجة، تحتوي على المادة الوراثية للأب والأم، ثم يدب نشاطاً في البويضة فتتحرك وتتدحرج داخل قناة المبيض إلى أن تصل إلى بطانة الرحم فتغرس فيها البويضة المخصبة، وتخرج من سطحها المدفون زوائد تمتد في داخل جدار الرحم... ثم تنمو وتنقسم انقسامات متتابعة حتى تتحوّل إلى كتلة من الخلايا المتلاصقة تُشبه ثمرة الثوت الصغيرة وتبدو كأنها مُعلّقة فيها بما يُشبه العنق الصغير الذي يُوصل إليها الخلاصات الغذائية<sup>(1)</sup>. وهنا تشكّلت المرحلة الثانية المسماة بمرحلة "العلقة". التي هي موضوعنا في هذا المحور من البحث.

فقد وردت صيغة "علقة" في النظم الحكيم بالمفرد خمس مرّات وبصيغة الجمع "العلق" مرّة واحدة. وفي دلالتها السياقية والمعجمية ذكر المفسّرون، واللغويون عدّة وجوه لمعناها، يمكن إيجازها في يأتي:

أ- العين واللام والقاف أصل واحد صحيح يرجع إلى معنى واحد، وهو أن يُنَاطَ الشّيءُ بالشّيءِ العالِي. تقول: علقتُ الشّيءَ أُعلِّقُهُ تعلِيقًا. وقد علقَ به، إذا لزمه<sup>(2)</sup>.

ب- العلقُ: التَّشبُّثُ بالشّيءِ، يقال: علقَ الصَّيْدَ في الحبالِ، وأعلَقَ الصَّائِدُ: إذا علقَ الصَّيْدَ في حباله، و المعلقُ والمعلقان: ما يُعلَقُ به<sup>(3)</sup>.

ج- العلقُ: الدَّمُ الغليظُ أو الجامدُ أو المتخثّرُ، والقطعة منه علقة<sup>(4)</sup>. وإذا جرى فهو المسفوحُ، والعلقُ الدَّمُ العَبِيطُ، أي الطَّرِيُّ. والعلقة: قطعة من دمٍ رطبٍ، سُمِّيَتْ بذلك لأنَّها تعلقُ لِرطوبتها بما تمرُّ عليه، فإذا جفت لم تكنْ علقَةً. وقيل العلقة: الشَّدِيدُ الحُمْرَةُ<sup>(5)</sup>.

د- العلقَة: دودة في الماء تمصُّ الدَمَ، والجمع علق<sup>(6)</sup>.

(1) - ينظر: وليد ظاهري: المعجزة الخالدة الإعجاز البياني والعلمي والتاريخي في القرآن الكريم. ص: 103.  
(2) - ينظر: ابن فارس مقاييس اللغة. مادة "علق".  
(3) - ينظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. ص 579، مادة "علق".  
(4) - ينظر: الجوهري: الصحاح. مادة "علق".  
(5) - ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 313/14، و376/22.  
(6) - ينظر: الجوهري: الصحاح. مادة "علق".

وفي التفسير العلمي لمصطلح العلقه يقول العلماء: أن العلقه هي الطور الثاني من أطوار الجنين في رحم أمه، والمدة الزمنية لهذا الطور هي من بداية "الأسبوع الثاني وحتى نهاية الأسبوع الثالث من التلقيح"؛ فيبدو الجنين على شكل دودة العلق في هيئتها، وفي تعلقه بجدار الرحم "تماما كما تتعلق الدودة بجسم العائل الذي تتطفل عليه"، وفي تغذيته على دم الأم "تماما كما تتغذى دودة العلق على دم الحيوان الذي تعلق به في مياه البرك حيث تعيش" (1). كما أنه بتعلقه بالحبل السري إلى جدار الرحم، تنشأ بداخله أوعية الدم على شكل شبكة من الجزر الملتفة المغلقة التي تعطيه مظهر علقه الدم المتجمد؛ إذ تجعل هذه الشبكة الدم غير متحرك في الأوعية الدموية (2).

وإذا ما لاحظنا أصوات هذه المادة - علق - نجد أنها تحاكي معناها وتوحي بدلالاتها اللغوية والعلمية على السواء، وترسم صورتها في ذلك المقام الذي يصف ببلاغة أهم مراحل نمو الجنين وتطوره.

فالعين صفتها الجهر، وعند النطق بها يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين، فتشعر بتلك الحركة القوية للبويضة المخصبة التي ستتحول علقه بعد انتقالها وتدرجها والتصاقها بجدار الرحم.

أما صوت اللام فيتصف بنفس صفة العين، فضلاً عن صفة الانحراف، إذ عند نطقه يعتمد طرف اللسان على أصول الثنايا العليا، بحيث تنشأ عقبة في وسط الفم مع ترك منفذ للهواء عن إحدى حافتي اللسان، أو عن حافتيه، يرفع الحنك الأعلى فلا ينفذ الهواء عن طريق الأنف، يتذبذب الوتران الصوتيان، فتشعر بالاهتزاز والاضطراب نفسه، إضافة إلى ما يوحي به ذلك الانحراف من إطباق على البويضة قبل التصاقها بجدار الرحم، فيزيد من حركتها وتدرجها.

كما أن من صفتي هاذين الحرفين "العين واللام" - التوسط، فهما من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة وهذا ما يحاكي طبيعة العلقه فهي ليست رطبة سائلة وليست جامدة صلبة.

أما القاف المتسم بسمه الصلابة، والشدة، والثقل، والانفجار يحمل من الدلالة ما يتلاءم وسياق الآية وشدة الموقف. فهو من الحروف الوقفيات، أي الانفجارية الشديدة، ففيه يحدث

(1) - ينظر: زغول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. 160/2.  
(2) - ينظر: هيثم جمعة هلال: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن. ص: 50.

انسداد تام في أدنى الحلق بما في ذلك اللهاة، ثم يخرج الهواء فجأةً مُحدثاً فرقةً، فهذا الوقف على القاف يُوحى بالتشبُّب والتعلُّق الشديد، وهي تماماً حال العلقمة وتشبُّبها والتصاقها بجدار الرحم.

إذاً فصوت العين واللام والقاف -بخصائصها وصفاتها- في هذه الكلمة يحملان من الدلالة ما يتلاءم وسياق الآية الذي يتحدَّث عن قدرة الله عزَّ وجلَّ في الخلق والإيجاد من العدم في وصف بالغ لأهمِّ مراحل نمو الجنين.

وعليه، ومما تقدَّم يبدو أنَّ انتقاء لفظ "علقمة" في سياق تلك الآيات جاء منسجماً مع معطيات ذلك السياق، لما يحمله من إيجاء دلالي وعلمي، في الآن نفسه؛ حيث تعانقت الدلالة اللغوية المعجمية مع الدلالة العلمية للفظ "علق" في شكل الجنين ووظيفته، فلفظ "علقمة" أبلغ وأدق وصف لهذه المرحلة من أي لفظ آخر. فضلاً عن تعانق دلالة السياق الإيقاعي بالحقيقة العلمية في تصوير مشهد من مشاهد تطوُّر خلق الجنين في بطن أمه؛ فتوافقت أصوات هذه اللفظة ومضمونها، بل وجاءت منسجمة مع معناها اللغوي ومؤكدة لدلالاتها العلمية.

لذا فالوصف القرآني لهذه المرحلة « بكلمة العلقمة في زمن لم يكن متوقفاً فيه أية وسيلة من وسائل التكبير أو الكشف لطور يتراوح بين 0.7 من المليمتر و 3.5 مليمترات يُعتبر أمراً معجزاً حقاً»<sup>(1)</sup>.

(1)- زغول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. 160/2.

## 2- الدلالة الإيحائية لأصوات لفظة "يَحْطِمَنَّكُمْ" في آية خلق النمل

من أمثلة دلالة الصّوت الإيحائي في آيات الإعجاز العلمي في خلق الحيوان التي اهتدينا إليها، وقد تحدّث عنها بعض العلماء، ونعتقد أنّها تُوضّح بشكل جليّ تعانق الدلالة اللغويّة بالدلالة العلميّة في السياق الصّوتي للنصّ القرآني المعجز؛ كلمة ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ في قوله تعالى من سورة النمل في سياق قصّة سيدنا سليمان: ﴿وَحِشْرَ لَسْلِيمَانَ جُنُودَهُ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ أُدْخِلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَبَسَهُمْ صَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالدَّتِ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 18-19].

لقد تكررت وتوزعت قصّة سيدنا سليمان على سور متنوعة، منها سورة "الأنبياء" و"سبأ" و"ص"، إلا قصته مع النملة جاءت في موضع واحد في سورة واحدة هي سورة النمل. فهي تعدّ من القصص المغلقة أو المكتملة؛ أي التي استقلّت بها موطن قرآني واحد في سورة قرآنيّة فريدة ولم يتكرّر سياقها السردّي خارج ذلك الموطن.

وقد وصفت هذه الآيات الكريمة موكب سيدنا سليمان المهيب، وحوله جنوده من الجنّ والإنس والطير، موكب يسير في ترتيب ونظام، يجمع آخره على أوّله، وتضمّ صفوفه، وتتلاءم خطاه. وعند اقترابهم من وادي النمل إذا بنملة - لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السّارج في الوادي - تهبّ محدّرة قومها، منبهةً أفراد النمل بالخطر القادم، أمرًا إيّاهم بدخول مساكنهم سريعًا حتى لا يحطمنهم ويُقضى عليهم إذا ما مرّ موكب سليمان بجنوده عليهم وهم لا يشعرون بكم<sup>(1)</sup>.

وفي مناسبة سياق قصّة سيدنا سليمان مع النملة يقول سيد قطب: مناسبة ورود هذه القصّة إجمالاً في هذه السّورة لافتتاح السّورة بحديث عن القرآن ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: 1]، وتقرير أنّ هذا القرآن يقصُّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون. وقصص موسى وداوود وسليمان من أهمّ الحلقات في تاريخ بني إسرائيل.

أمّا مناسبة هذه الحلقة ومقدماتها لموضوع هذه السّورة فتبدو في عدّة مواضع منها ومن السّورة:

(1) - ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن. 18/27. وينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهنية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 340.

التَّركيز في جَوْ السُّورة وظلالها على العلم والإشارة الأولى في قصَّة داوود وسليمان هي: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ [النمل: 10] (1).

أمَّا عن وجه الإعجاز العلمي في هذه الآية فقد ذكر العلماء فيها أوجهًا كثيرة، اخترنا منها حقيقة تحطُّم النَّمل: ففي زمن نزول القرآن لم يكن لأحد قدرة على دراسة تركيب جسم النَّملة، أو معرفة أي معلومات عنه، ولكن بعد دراسات كثيرة اكتشف العلماء أن جسم النَّملة مغلَّف بغلاف صلب جدًّا قابل للتَّحطُّم، أي: ليس له مرونة تجعله ينحني مثلاً، بل يتكسَّر كالزُّجاج؛ فجسم النَّملة مزوَّد بهيكل عظمي خارجي صلب جدا يسمى (exoskeleton)، ولذلك فإنَّ النَّملة لدى تعرُّضها لأيِّ ضغط فإنَّها تتحطُّم، ولذلك قال تعالى على لسان النَّملة ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ وبالتالي فإنَّ كلمة: ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ دقيقة جدًّا من النَّاحية العلميَّة، فسبحان الله (2)!

وفي دلالة السِّياق المعجمي لهذه الكلمة ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ نجد أنَّ المادَّة اللُّغوية "حطم" في المعاجم العربيَّة تعني الكسر، فقد ورد في مقاييس اللُّغة أن «الحاء والطاء والميم أصلٌ واحد، وهو كسر الشيء، يقال حطمت الشيءَ حطماً كسرته» (3).

وجاء في القاموس المحيط أن «الحطُّم: الكسر أو خاصُّ باليابس، وحطَّمه يُحطِّمُه وحطَّمه فانْحَطَّمَ وتَحَطَّمَ» (4).

أمَّا في الصِّحاح للجوهري فقد ورد «حطم: حَطَّمْتُهُ حَطْماً، أي: كسرته فانْحَطَّمَ وتَحَطَّمَ. والتَّحطيمُ: التَّكسير. وأصابتهُم حَطْمةٌ، أي: سَنَةٌ وجذبٌ... والحطِّمُ: المتكسِّر في نفسه... والحطِّمة: على وزن فُعلة، من أسماء النَّار؛ لأنَّها تحطِّم ما تُلقي... والحطَّامُ: ما تكسَّر من اليبس» (5).

وفي لسان العرب جاء في مادَّة "حطم": «الحطِّمُ: الكسر في أي وجه كان، وقيل: هو كسر الشيء اليابس خاصَّةً كالعظم ونحوه. حَطَّمَهُ يُحطِّمُهُ حَطْماً أي كسره، وحطَّمه فانْحَطَّمَ وتَحَطَّمَ» (6).

(1) - ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن. 13/27.

(2) - ينظر: نايف منير فارس: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. 372/3 - 373.

(3) - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة. 78/2 مادة: حطم.

(4) - الفيروز آبادي: القاموس المحيط. ص: 300. مادة: حطم.

(5) - الجوهري: الصِّحاح. ص: 261. مادة: حطم.

(6) - ابن منظور: لسان العرب. 137/12-138.

إذا فالتَّحْطِيمُ يعني الكسر وهذا الكسر لا يكون إلا في ما هو يابس. على خلاف لفظة التَّهْشِيمُ التي تحمل معنى الكسر على العموم. لذا فهناك فرق بين التَّحْطِيمِ والتَّهْشِيمِ؛ فالتَّحْطِيمُ كسر الشَّيْءِ اليابس تحديداً، أمَّا التَّهْشِيمُ في كلِّ شيءٍ وليس في اليابس وحده حتى الرطب يمكن أن يهشَّم. هشم أي: كسر إذن التَّحْطِيمُ أخصُّ والتَّهْشِيمُ أعم (1). ومنه فالدَّلالة المعجميَّة للفظه "يَحْطِمَنَّكُمْ" تدلُّ على الكسر لأيِّ شيءٍ يابس.

لذا فلفظة يَحْطِمَنَّكُمْ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَّأَ عَلَىٰ وَاوَأْتَمَلَّ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ أُدْخِلُوا مَسْكِنَكُمُ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: 18] أبلغ وأدقُّ في الوصف من لفظة يهشمَنَّكم أو أي لفظة تحمل معنى التَّكْسِيرِ في سورة النمل. فالنمل فيه مادَّة السيلكون (silecon) ما يُصنع منه الرُّجَّاح وهو قابل للتَّحْطِيمِ.

هذا بالنسبة إلى دلالة السِّيَاق المعجمي لهذه الكلمة أمَّا إذا بحثنا عن دلالة الصَّوت الإيحائي فيها نجد أنَّ في التَّعْبِيرِ بِـ ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ دون غيره من الألفاظ، دلالة دقيقة على المعنى المراد، لا يمكن لأيِّ لفظ أن يعبر عنه ويمكن تصوير هذه الدَّلالة من خلال (2):

1- صوت الحاء الاحتكاكي، فكأنه بهذا الاحتكاك يعبر عن احتكاك الأقدام بجسم ذلك النمل. فضلاً عن سكونه المعبر عن الثَّبات الذي يوحي بالموت وعدم الحركة.

2- صوت الطَّاء المندرج تحت الأصوات القويَّة، فهو صوت مجهور -عند القدماء-؛ لقوة صوته عند خروجه، شديد "انفجاري"، مطبق، مستعلٍ، مقلقل. كذلك صوت "الميم" المجهور، الاحتكاكي؛ كل هذه الصفات القويَّة تصوِّر لنا الضَّغْطَ بشدَّةٍ أو ثِقَلِ الممثل في "الحطم".

3- معنى الفصل المعجمي "حط" إذ يدلُّ على الضَّغْطَ بشدَّةٍ أو ثقل منه الغلظ، كما في حطَّ الحِمْلُ في "حطط"، وإحاطة الشَّيءِ من خلفه بغليظ في "حوط"، وفي غلظ الحطب مع جفافه في "حطب"، وفي الضَّغْطَ الذي يحط "حطم".

4- انتقال الفم من الطَّاء المكسورة التي توحى بالثَّقَلِ "يحطِّ" إلى الميم المفتوحة "يحطِّم" - الفتحة أخفُّ الحركات - يصوِّر ضغط القدم فوق الشَّيءِ بقوَّةٍ ثم نزعها عنه، فهذا الانتقال أوقع في تصوير المعنى المراد، وهو تكسير الشَّيءِ اليابس - النمل - تحت أقدام النبي سليمان وجنوده.

(1) - ينظر: فاضل السامرائي: لمسات بيانية من سورة النمل. موقع منتديات ستار تايمز 2014-05-10 www.startime.com

(2) - ينظر: محمد عبد السميع يونس: التعانق الدلالي بين الإعجاز اللغوي والإعجاز العلمي. M.facebook.com

إذًا فالمعنى المحوري للتركيب إذ يدلُّ على تكسُّر اليابس قطعًا لضغطٍ شديد أو ثقيل وقع عليه كقشر البيض.. وتكسُّر ما يبس مما كان مُسَوَّى على هيئة خاصة.

الملاحظ أنَّ طبيعة أصوات هذه الكلمة "يحطمنكم" -بصفتها وخصائصها- توحى إلى تكسير ما هو يابس أو صلب، وتحمل من الدلالة ما يتلاءم وسياق الآية وشدة الموقف وعظمته. وعليه، فقد « تعانقت الدلالة العلمية مع الدلالة الصوتية للفظة "يحطمنكم"، في إيحاءها الصوتي الدال على تكسُّر اليابس قطعًا لضغطٍ شديد أو ثقيل وقع عليه، وهذه الدلالة مناسبة لطبيعة جسم النملة، فقد ثبت أنَّ جسم النملة يحتوي على نسبة كبيرة من الزجاج، وأنه مغلف بغلاف صلب جدًا قابل للتَّحطُّم؛ وذلك يشكل إعجازًا علميًا من إعجاز القرآن إلى جانب إعجازه البياني، الذي يسمو فوق كل بيان!«<sup>(1)</sup>

(1) - محمد عبد السميع: التعانق الدلالي بين الإعجاز اللغوي والإعجاز العلمي m.facebook.com

## المطلب الثاني: دلالة التكرار الصوتي

## 1- دلالة تكرار أصوات لفظ "توسوس" في آية خلق النفس

من أمثلة دلالة التكرار الصوتي لفظ ﴿تُوسْوِسُ﴾، في قوله تعالى يُخْبِرُ فِيهِ عَنْ قُدْرَتِهِ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ، وَعِلْمِهِ بِمَا يَخْتَلِجُ فِي نَفْسِهِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16].

يقول سيد قطب في هذه السورة -سورة ق- بأنها: «سورة رهيبة، شديدة الوقع بحقائقها، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري، وصورها وظلالها وجرس فواصلها. تأخذ على النفس أقطارها، وتلاحقها في خطراتها وحركاتها، وتتعبقها في سرها وجهرها، وفي باطنها وظاهرها. تتعقبها برقابة الله [...] والرقابة الكاملة الرهيبة مَضْرُوبَةٌ عَلَى وَسَاوِسِ الْقَلْبِ، كما هي مَضْرُوبَةٌ عَلَى حَرَكَةِ الْجَوَارِحِ. وَلَا حِجَابَ وَلَا سِتَارَ دُونَ هَذِهِ الرَّقَابَةِ النَّافِذَةِ، الْمُطَّلَعَةِ عَلَى السِّرِّ وَالنَّجْوَى أَطْلَاعِهَا عَلَى الْعَمَلِ وَالْحَرَكَةِ، فِي كُلِّ وَقْتٍ وَفِي كُلِّ حَالٍ»<sup>(1)</sup>. وإنه «لَيُصْعَبُ فِي مِثْلِ هَذِهِ السُّورَةِ التَّلْخِيصُ وَالتَّعْرِيفُ، وَحِكَايَةُ الْحَقَائِقِ وَالْمَعَانِي وَالصُّورِ وَالظَّلَالِ، فِي غَيْرِ أُسْلُوبِهَا الْقُرْآنِيِّ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ؛ وَفِي غَيْرِ عِبَارَتِهَا الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَشْعُرُ بِذَاتِهَا تِلْكَ الْحَقَائِقِ وَالْمَعَانِي وَالصُّورِ وَالظَّلَالِ، إِشْعَاعًا مُبَاشِرًا لِلْحَسِّ وَالضَّمِيرِ»<sup>(2)</sup>.

لفظ ﴿تُوسْوِسُ﴾ في هذه السورة سيق في مقام الحديث عن قدرة الله الشاملة على خلق الإنسان، وعلمه بالوسوسة التي تحصل في خفايا نفسه، وهو اجس ضميره، وقربه إليه سبحانه من حبل الوريد فلا تخفى معه خافية من أحواله على من يعلم السر وأخفى. فخلق الإنسان كما يقول ابن القيم من أعظم آيات قدرة الله وشواهد ربوبيته وأدلة التوحيد والمعاد «وأي دليل أوضح من تركيب الصورة الآدمية بأعضائها وقواها وصفاته، وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والإرادات والصناعات، كل ذلك من نطفة ماء»<sup>(3)</sup>.

ومما ذكر من الحقائق العلمية في هذه الآيات، ذلك الربط الإعجازي بين عملية الوسوسة وبين حبل الوريد؛ فَمَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَسَطٌ بَيْنَ الْوَسُوسَةِ وَبَيْنَ حَبْلِ الْوَرِيدِ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عِلَاقَةٍ وَثِيقَةٍ بَيْنَهُمَا، فَأَصْلُ الْوَسُوسَةِ هُوَ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ الَّذِي لَا يُحَسُّ فَيَتَحَرَّرُ مِنْهُ، أَوْ هُوَ الْكَلَامُ الْخَفِيُّ الَّذِي يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ وَذَاتِ عِلَاقَةٍ مُبَاشِرَةً بِالذَّنِّ، وَأَنَّ الذَّنَّ هُوَ الْمَظْهَرُ الدَّائِي أَوْ

(1) - سيد قطب: في ظلال القرآن. 3356/26.

(2) - المصدر نفسه. 3357/26.

(3) - ابن القيم الجوزية (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب) : الفوائد. تحقيق: ماهر منصور عبد الرزاق، كمال علي الجمل، دار اليقين للنشر والتوزيع، المنصورة، مصر. ط3، 1420هـ/1999م، ص: 31.

الباطني للدماغ والذي يقوم بوظائف استرجاعية، وقد أتضح مؤخرًا أنّ هذا الجهاز (حبل الوريد) هو من المظاهر المركزية للوعي. لذا فحبل الوريد هو جزء من أجزاء الدماغ المهمة، وله علاقة بالوعي واليقظة والأفعال الإرادية وغير الإرادية، وذو اتصال مباشر وغير مباشر مع معظم أجزاء الدماغ المختلفة، ويقول العلماء إنّ حبل الوريد يكون على الأغلب هو جذع الدماغ (Brain stem) (\*).

ومن ناحية أخرى فإنّ الوريد الذي يُورد أو عن طريقه ترد المعلومات من وإلى الدماغ فإنّ كلمة الوريد هي تبيان لتوريد المعلومات والحواجز الداخلة والخارجة من الدماغ. وبالإضافة إلى هاتين الصفتين (كونه حبلًا وكونه موردًا للمعلومات) فإنّ لجذع الدماغ صفة مهمة أخرى، هي احتواؤه على ما يُسمى بالجهاز المنشط الشبكي؛ ولهذا الجهاز وظائف عديدة أهمها المحافظة على حالة الوعي فيكون الإنسان في حالة انتباه وتيقظ، وكذلك فإنّ هذا الجهاز يعجز عن استلام المحفزات من قبل الدماغ ممكّنًا ولو قطع الاتصال بين التكوين الشبكي وقشرة المخ لأصبح في حالة سُبات عميق، فضلًا عن علاقة الجهاز الشبكي المنشط للانتباه، اليقظة، الوعي، النوم، وفعاليات الدماغ الكهربائية فإنّه يستلم أيضًا ويُورد المعلومات من الأجهزة السَمعية والبصرية والشمّية. ولهذا فمن غير الغريب أن اعتبر قسم من العلماء تدمير جذع الدماغ مُعادلاً لموت الدماغ الكامل أو دليلاً على ذلك.

وإذا رجعنا إلى الآية الكريمة نجد أنّ السّياق مُستمر، ويدلُّ على ارتباط الوسوسة بحبل الوريد إذ يوجد ارتباط مباشر بين ما يحدث الإنسان نفسه بصورة خفية وبين ما يمكن أن يتحوّل من الأفكار والخواطر إلى فعاليات إرادية حركية، وهذه الفعاليات تكون ذات علاقة مباشرة وغير مباشرة مع جذع الدماغ، إذ تمرّ الإعزازات من خلاله إلى باقي أنحاء الجسم. وبذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد أعلن أنّه يعلم الوسوسة وقت حدوثها وكذلك قبل تحوّلها أو وصولها إلى جذع الدماغ حيث يكون التحوّل من النية إلى الفعل الحركي في بدايته وبالتعاون مع بقية أجزاء الدماغ الأخرى، فهو سبحانه وتعالى أقرب إلى الإنسان من هذه المرحلة فكان ذلك الرّبط الإعجازي في هذه الآية بين عملية الوسوسة وبين حبل الوريد<sup>(1)</sup>.

(\*)- إن جذع الدماغ هو جسم عصبي يبلغ طوله حوالي 7,5 سم يختلف في تركيبه الأساسي عن الأوعية الدموية التي تتميز جدرانها بخصائص تجعلها مخصصة لنقل الدم وليس لها صفات الحبل لربط أو تشعّب أعضاء أخرى، وهذا بخلاف جذع الدماغ الذي يُعدُّ وسيطاً لربط نصفي كرة المخ مع النخاع الشوكي فتظهر خواص الحبل فيه. ينظر: رافع علي احمد. مختصر الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، حبل الوريد في القرآن آيات لله..... Facebook December 27, 2015  
(1) - ينظر: رافع علي احمد. مختصر الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، حبل الوريد في القرآن آيات لله..... Facebook 27, 2015

أما عن تفسير السلف الصالح لهذه الآية فنجد أنه اتفق مع تفسير الدارسين والباحثين في دلالة الجزء الأول من الآية، وفي معنى لفظ ﴿تُسَوِّسُ﴾ على أنه حديث النفس، ولكن اختلف تفسيرهم في دلالة الجزء الثاني وبالضبط في عبارة ﴿حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فمعظم آراء علمائنا الأوائل تلتقي على أن حبل الوريد قصد به وعاء دموي وهو العرق بجانب الصَّفد، وترجم العرب أنه الوتين. فقد جاء في تفسير القرطبي: «﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هُوَ حَبْلُ الْعَاتِقِ وَهُوَ مُتَدُّ مِنْ نَاحِيَةِ حَلْقِهِ إِلَى عَاتِقِهِ، وَهُمَا وَرِيدَانِ عَنِ يَمِينٍ وَشِمَالٍ [...] وهذا تمثيلٌ للقرب، أي نحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه، وليس على وجه قُرب المسافة. وقيل: أي ونحن أملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه. وقيل: أي ونحن أعلم بما تُسوس به نفسه من حبل وريده الذي هو من نفسه؛ لأنه عرق يخالط القلب، فعلمُ الرب أقرب إليه من علم القلب، [...] وهذا القرب قُرب العالج والقدرة، وأبغاض الإنسان يحجبُ البعضُ البعضَ، ولا يحجب علم الله شيء»<sup>(1)</sup>.

لكن الباحثون في الإعجاز العلمي يرون أن هناك بعض المؤشرات التي تجعل هذا التفسير بعيداً عن الدقة. فعبارة ﴿حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ لا تعني وعاءً دمويًا لأن الحبل هو (ما يكون غير مجوف أو غير أنبوبي) لا يمكن أن يُسمى حبلًا إذا أصبح مجوفًا لأنه بذلك يفقد من قوته ويكسب صفةً أخرى، وقد ربط الله سبحانه وتعالى في هذه الآية بين وسوسة النفس وبين قُربه من حبل الوريد، وعلى اعتبار أن الوسوسة تحصل في الدماغ، فإن هناك أعضاء أخرى هي أقرب للدماغ من العرق في الرقبة فضلًا عن أن العرق الدموي ليس له علاقة بعملية الوسوسة. فلو كان المقصود بحبل الوريد ذلك العرق الذي ينقل الدم إلى الدماغ فإن هناك عرقًا آخر لا يقل أهمية عن العرق الأول يقوم بنقل الدم إلى أماكن غاية في الأهمية في الدماغ، وعلمًا أن الآية أشارت إلى حبل الوريد على أنه عضو فردي وغير مزدوج وهذه الحقيقة لا تتفق مع التفسير المصطلح عليه لحد الآن<sup>(2)</sup>.

هذا عن دلالة السياق العام للآية وتفسيرها وحقيقتها العلمية، فماذا عن الدلالة المعجمية

والسياق الصوتي للفظة المفتاح ﴿تُسَوِّسُ﴾ والعلاقة بينهما؟

جاء في المعاجم اللغوية أن الوَسْوَسَةَ والوَسْوَسَ: حديثُ النفسِ والشَّيْطَانِ بما لا نفعَ فيه ولا

خَيْرٍ<sup>(3)</sup>. يُقَالُ: وَسَّوَسْتُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَسْوَسَةً وَسْوَسَاً، بكسر الواو.

(1) - القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 436-435/19.

(2) - ينظر: رافع علي احمد. مختصر الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. 2015، December 27، Facebook

(3) - ينظر: الفيروزبادي: القاموس المحيط. ص: 1397. مادة: "و س س".

والْوَسْوَسَة والْوَسْوَس: الصَّوْتُ الحَفِيُّ من رِيحٍ. والْوَسْوَس: صوتُ الحلي. والْوَسْوَسُ، بالفتح، الاسمُ مثل الزَّلْزال والزَّلْزال، والْوَسْوَس، بالكسر، المصدرُ. والْوَسْوَس، بالفتح: هو الشيطانُ. ويقالُ لَهُمَسِ الصائِدِ والكلابِ: وسواس. وكلُّ ما حدَّثَكَ ووَسْوَسَ إليك، فهو الاسمُ. ووَسْوَسَ الرجلُ: كَلَّمَهُ كَلَامًا خَفِيًّا. ووَسْوَسَ إذا تَكَلَّمَ بكلامٍ لم يبيِّنه<sup>(1)</sup>.

إذا فكلمة "توسوس" قد تعني: "تتكلم-تتحدث- تهمس- تُسر- تخفي"، غير أن لفظ "توسوس" في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسَهُ. وَحَنَّ آقْرَبُ إِلَيَّ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16]. تحمل من الدلالة ما يتناسب وسياقها؛ فهي تدلُّ على الصَّوْتِ الخفي غير المميّز الذي يتسلَّل إلى النَّفْسِ تسلُّلاً قد لا يشعر به الإنسان، فلا يفرِّق بينه وبين نفسه، وبالتالي فهي أبلغ وأدقُّ في الوصف من أيِّ لفظٍ آخر؛ حيث أن أي كلمة أخرى لا تسدُّ مسدَّ هذه الكلمة في دلالتها على ذلك المعنى.

ومن هنا فكلمة ﴿تُوَسْوِسُ﴾ مناسبة لسياقها «لما تدلُّ عليه من الخفاء وعدم التَّمييز والوضوح، ومع دقَّتِها وخفائِها وعدم تميِّزها ووضوحها تظهر قدرة الله تعالى وسعة علمه في إحاطته بها ووقوفه عليها، ممَّا يلقي الرّهبة ويعظم الخوف في قلوب العباد من تلك القدرة النّافذة، إلى شغاف القلوب حتى تطلع على خَطراتها ووساوسها الخفيّة التي قد يخفي على الإنسان نفسه معالمها ويصعب عليه تميِّزها مع كونها بداخله»<sup>(2)</sup>.

هذا بالنسبة إلى دلالة السِّياق المعجمي لهذه الكلمة أمّا إذا بحثنا عن الدلالة الصَّوتية فيها نجد أن في التّعبير بـ ﴿تُوَسْوِسُ﴾ دون غيرها من الكلمات، دلالة دقيقة على المعنى المراد، لا يمكن لأيِّ كلمة أن تعبّر عنه، ويمكن تصوير هذه الدلالة من خلال<sup>(3)</sup>:

1- الفعل "وَسْوَسَ" حيث أنه جاء مضعّف الأصل على وزن "فعلل"، وجاء متطابق الفاء واللام الأولى، والعين واللام الثانية. فتكرّر المقطع "وس" في الفعل "وَسْوَسَ"؛ وهذا التكرار الصَّوتي لهذا المقطع يُحاكي عمليّة الوسوسة بما تشمل عليه من إلحاح وإغراء بالشّيء يقضي تكرار الإيعاز بالشّيء مرّة بعد مرّة.

(1) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب: مادة: "وسوس". والجوهري: الصحاح. مادة: "وسوس".

(2) - عبد الحميد هنداي: الإعجاز الدلالي للقرآن الكريم. ص: 56.

(3) - ينظر: عبد الحميد هنداي: الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم. ص: 92-93. وينظر: عبد الحميد هنداي: الإعجاز الدلالي للقرآن الكريم. ص: 57-58. وينظر: إدريس حمد هادي: مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، إسناد الفعل وسوس إلى الشيطان والنفس وتعدته بالحروف في القرآن. المجلد 27، العدد 6، 2019م، ص: 20-21.

2- الانسجام الحاصل بين حرفي الواو والسّين الناتج عن صفتيهما، فضلاً عن التكرار المقطعي لهما في بناء الفعل: فبناء الفعل "وَسْوَسَ" يمزج بين صوتين أحدهما مجهور والثاني مهموس؛ فحرف الواو من الحروف المجهورة التي أشبع الاعتماد عليه في موضعه ومنع النَّفَسَ أن يجري معه حتى ينقضي ويجري الصَّوت. أما حرف السّين فهو حرف مهموس رخو يعكس صاحبه وله من الانسلاخ مع النَّفَسِ والانسحاب مع الصوت الخارج من الصدر ما يعطيه تلك الرخاوة. فضلاً عن تكرار ذلك الجهر والهمس بشكلٍ مقطعي متكرّر "وَسْوَسَ"، أي أحدث حركةً خفيّةً أو صوتاً خفيّاً، وقد نلمس مناسبة بين امتزاج الخفاء بالظهور، وبين اجتماع الجهر والهمس في الصَّوتَيْنِ المؤلِّفَيْنِ للفعل، فكما أن الجهر والهمس يتقاسمان بناء هذا الفعل، فكذلك الظُّهور والخفاء يتقاسمان معناه.

3- تكرر الواو بما تشتمل عليه من خفاء ورقّة ولين - لا تُسَاع مخرجه عند مرور هواء الصوت - مع قرب مخرجه لكونه شفويّاً، يُؤكّد معنى الخفاء والمكر ولين القول في عملية الوسوسة. كما تأتي دلالة قرب المخرج للدلالة على علم الله تعالى بأدقّ الأصوات وأخفّضها صوتاً، وهو ما يخرج من بين الشفاه، فما بالك بما فتح صاحبه فيه فمه وما كان من أقصى الحلق ونحو ذلك مما يرفع فيه الصَّوت؟! فمن ثمّ كانت مناسبة الواو للدلالة على تلك المعاني.

4- تكرر السّين بما تشتمل عليه من همس ورخاوة وصفير مع قُرب المخرج كذلك - فهي تلي الواو مخرجا لكونها ممّا بين الثنايا وطرف اللسان - يُؤكّد معنى الهمس والإخفاء في الوسوسة فما أشبهها بصوت صفير الرّيح ووسوسة الحليّ ونحو ذلك، وهذا يُؤكّد معنى الخفاء من جهة كونه صوتاً غائماً، ومعنى التشويش على الضّمير من جهة ما فيه من صفير وغوغائية متكررة.

إذاً فالدلالة الصَّوتية لهذه الكلمة "وسوس" مُتناغمة مع سياق الآية الدال على مدى علم الله تعالى بالدقائق من الوسوس والخطرات مهما خفيت ودقّت، وعلمه كذلك بضعف الإنسان ومعاناته أمام هذه الوسوس المتكررة والملحّة عليه ممّا يقتضي رحمة الله تعالى وعفوه عن عباده التائبين. كما أنّ في كلمة ﴿وَسْوَسُ﴾ تعانق دلالي بين تفسيرها العلمي، وسياقها الصَّوتي الدال على إحداث حركة خفيّة أو صوتٍ خفيّ، والموحي بقوة تأثيرها بسبب انسجامها الصَّوتي وجرسها المثير لصوت الوسوسة وهي الحركة لشدة حديث النَّفس. فهذه الدلالة مناسبة لطبيعة الوسوسة وعلم الله سبحانه وتعالى بها؛ فهو يعلم الوسوسة وقت حدوثها وكذلك قبل تحوّلها أو وصولها إلى جذع الدماغ حيث يكون التحوّل من النيّة إلى الفعل الحركي في بدايته وبالتعاون مع بقية أجزاء الدماغ الأخرى.

## 2- دلالة تكرار أصوات لفظ "ذُلُلًا" في آية خلق النحل

من أمثلة دلالة تكرار السّمات الصّوتية وتواليها في آيات الإعجاز العلمي في خلق الحيوان، كلمة ﴿ذُلُلًا﴾ من قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يَوْمًا مِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 68-69].

ورد هذا النصّ القرآني في سياق عام يستعرض آيات من الإعجاز فيما خلق الله في الكون، وفي ما أودع الإنسان من صفات واستعدادات، وفيما وهبه من نعم وآلاء، ممّا لا يقدر عليه أحد إلا الله. ومن تلك الآيات المعجزات آية خلق النحل، فهي من آيات الله الباهرة الدالة على عظمته؛ فهي تعمل بإلهام من الفطرة التي أودعها إيّاها الخالق، وتعمل بدقّة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكّر سواء في بناء خلاياها، أو في تقسيم العمل بينها، أو في طريقة إفرازها للعسل المصفى الذي فيه شفاء للناس. وقد ذلّل الله لها سبل الحياة بما أودع في فطرتها وفي طبيعة الكون حولها من توافق<sup>(1)</sup>.

فالنحلة حشرة كرمها الله عزّ وجلّ بأن جعل سورةً في كتابه العزيز على اسمها وهي سورة النحل، وسخرها للإنسان وجعلها له معجزة « لكن الإنسان القديم ما كان ليصدّق بذلك سوى أنّ الاكتشافات العلميّة الحديثة قد أكّدت على أنّها معجزة، فصّفات النحلة وتراكيبها تشكّل نظرة على الإبداع الإلهي الذي خصّه تعالى لهذه الحشرة الصّغيرة، فالمدقّق في هذه النحلة يرى العجب العجيب في كلّ ما يخصها من صفات تركيبية جسديّة تُدهش العقول، والتي تتجلّى فيها قدرة الخالق سبحانه»<sup>(2)</sup>.

ولقد ذكر العلماء أوجهًا كثيرة للإعجاز العلمي في هذا النصّ القرآني، اخترنا منها حقيقة معرفة النحل الطُرق - المسارات أو السُّبل - نحو الغذاء بوسائل تفاهم جماعي؛ فقد حاول العلماء أن يُفسّروا هذا الأمر ويقترحوا له اقتراحات، وكان من أشهر العلماء كارل ثون فريتش (Karl Von Frisch) الذي اكتشف مع تلامذته خلال بحوثهم ومحاولاتهم وتجاربهم أن شغالات النحل الاستكشافية تستطيع أن تُخبر زميلاتهما في الخلية بمكان تواجد الأزهار المرغوبة في حقل محدد، وتحديد المسافة بين موقع الخلية وموضع الأزهار، ونوع الأزهار المقصودة، واتجاه الطيران للوصول إلى ذلك الموضع<sup>(3)</sup>.

(1) - ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن. 2180-2181.

(2) - أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. 266/1.

(3) - ينظر: عبد الله المصلح، عبد الجواد الصاوي: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 133.

واستخلص فريتش ومساعدوه أنّ للنحل لغةً خاصةً يتفاهم بها وذلك عن طريق الرقص؛ حيث أنّ النحل المستكشفات يقوم بالتفاهم مع بقية النحل وإخبارها بمكان تواجد الرحيق من خلال الرقص، وقد أيده في ذلك باحثون آخرون.. حتى إنّ أحدهم فهم أسرار تلك اللغة الغريبة فكان ينفكّ أغاز رقص النحلة المستكشفة ويترجمها إلى اتجاه محدد ومسافة محسوبة. والعجيب جداً أنّ النحلة المستكشفة لا تُخبر عن جهة الأزهار فحسب، بل وتُخبر عن المسافة أيضاً؛ فبعدد الاهتزازات وبمدة الرقص يعلم النحل المسافة بدقة<sup>(1)</sup>.

ومن المعجز أنّ القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَأَسْأَلُكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾ سبق العلم في «فت نظر البشرية إلى قدرة النحل على سلوك الطُرق، وحثّ العلماء على البحث في ذلك، فاكتشفوا تفرد النحل بالنظام المعلوماتي الذي يُيسّر له شقّ الطرق البعيدة بسهولة ويُسر. وهكذا تأكّد للكافة أنّ كلمة القرآن هي الحقُّ ﴿فَأَسْأَلُكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾ أي مُيسّرة سهلة على النحل بما زوّده الله به من نظام دقيق للمعلومات وقدرة فائقة على تحديد المكان المطلوب الوصول إليه وبما لا يتوقّر لأنواع أخرى من الحشرات»<sup>(2)</sup>. يقول أسامة مصطفى: «أنّ هذه الحقيقة العلمية كلّفت إنسان القرن الواحد والعشرين سنوات عديدة وتجارب كبيرة لإثباته؟! ولو اقتفى العلماء آثار هذه الحشرة الصّغيرة لوجدوا أنّ إلهامها يقودها إلى أن تتبّع سُبُل من أهمّها. وقد أكّد فريق من علماء البيئية في الغرب، لدى مركز دراسات السلوك الفطري عند الحيوانات: أنّه على الرّغم من أنّ النحل يملك جهازاً عصبيّاً بسيطاً للغاية إلّا أنّه بإمكانه أن يستوعب ويُدرك الأشكال المرئية تمامًا كما يفعل البشر وغيرهم من الحيوانات الذّكية»<sup>(3)</sup>.

وفي التفسير العلمي لهذه الآية ﴿فَأَسْأَلُكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾ يقول زغلول النجار: إنّ ورود هذه الجملة القرآنية الكريمة، بين الأمر إلى إناث النحل من الشّغالات بالأكل من كل الثّمرات ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ جعلت من معاني ﴿فَأَسْأَلُكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾ يتجاوز مجرد تمكّن شغالات النحل من العودة إلى خلاياها دون أن تضلّ الطريق بعد أن تكون قد أكلت من كلّ الثّمرات، وحملت من رحيق الأزهار وحبوب اللّقاح الخاصّة بها، إلى معنى آخر، يشمل الطُرق التي ألهمها الخالق سبحانه وتعالى،

(1) - ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 361.

(2) - عبد الله المصلح، عبد الجواد الصاوي: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 140.

(3) - أسامة نعيم مصطفى: الإعجاز العلمي في الإنسان والحيوان. جسور للنشر والتوزيع. الم حمدية-الجزائر، ط1، 1432هـ-2011م. ص: 66-67.

أن تضع عبرها ذلك الشراب الشافي مما جمعه بواسطة العديد من الخلايا الحيوية والغدد الخاصة، التي تقوم على تجهيز هذا الشراب الشافي، عبر الطرق التي تصل بين معدة النحلة والغدد المختلفة، التي تقوم بتحويل الغذاء إلى هذا الشراب الذي جعل الله "تعالى" فيه شفاء للناس<sup>(1)</sup>. «وبذلك يكون من معاني الأمر الإلهي إلى شعالات النحل: ﴿فَأَسْأَلُكَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾ أي فاصنعي من رحيق الأزهار وطلوعها (حبوب اللقاح) عسلا، وغذاء ملكيا، وشمعا، وخمائر "إنزيمات" وسموما بالسُّبُل التي يسرها الخالق سبحانه وتعالى لك، أي القنوات المختلفة في جهازك الهضمي المعقد، الذي خصَّك الخالق القادر به، والذي يمرُّ به غذاؤك الذي جمعه من كلِّ الثمرات فتغذين على جزء منه، وتخرجينه على هيئة فضلات، وتحولين أغلبه إلى هذا الشراب المختلف الألوان... وهذه الحقائق العلمية لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، وجمعها في هذا النص القرآني المعجز بقوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا﴾<sup>(2)</sup>.

وعليه، فالدلالة العلمية لهذه الآية ﴿فَأَسْأَلُكَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾ تحمل معنيين؛ فقد تعني: الطُّرُق التي يسلكها النحل في جني رحيق الأزهار من الحقول المحددة باجتياز الآفاق من حولها والعودة إلى خليتها وبيتها دون خطأ. أو تعني: الطُّرُق التي تحوّل فيها الرحيق إلى عسل مصفّى مختلف ألوانه عبر قنوات الجهاز الهضمي المعقدة الخاص بها.

وفي تفسير علماءنا الأوائل من السلف الصالح لكلمة ﴿ذُلًّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَسْأَلُكَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾، نجد أنه أتفق مع تفسير الدارسين والباحثين المحدثين؛ حيث أحم يرون أن هذه الكلمة في النص القرآني تحمل قولين<sup>(3)</sup>:

**الأول:** أمّا حال من السُّبُل: أي فاسلكي الطريق مذللة لك؛ لأنَّ الله تعالى ذلَّلها لها ووطأها وسهَّلها، كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ [الملك: 15]؛ أي: مُسهِّلةً مُستقيمةً. قال مجاهد: لا يتوعر عليها سبيل تسلكه. وقال ابن كثير: "أن تسلك الطُّرُق، التي جعلها الله تعالى لها مذللةً، أي سهلةً عليها حيث شاءت في هذا الجوّ العظيم والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة".

(1) - ينظر: زغول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. 506/1-507.

(2) - المصدر نفسه. 508/1.

(3) - ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 582/4. وينظر: فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 74/20.

وينظر: ابن عطية: المحرر والوجيز. 1104.

**الثاني:** أنه حال من الضمير في ﴿فَأَسْلِكِي﴾، وهي النحلة، أي: إن النحل تسلك مذلة، مطيعة، مسخرة، مُنْقَادَةٌ لما أمرت به غير مُمتنعة. كقوله تعالى: ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: 72]. قاله قتادة، وقال ابن زيد: فهم يخرجون بالنحل ينتجعون، وهي تتبعهم.

ومنه فكلمة ﴿دُلًّا﴾ في سياق هذا النص القرآني يُحتمل أن تكون: حالاً من السُّبُل أي أنّها مسهّلة مسخرة؛ وهذا على اعتبار أنّ المراد بالسُّبُل الطرق التي تسلكها النحل لطلب الثمرات لأكلها أو الرجوع لبيتها، أو على اعتبار أن السُّبُل هي الأعمال التي تقوم بها النحل لصنع العسل. أو حالاً من النحل أي مُنْقَادَةٌ مُطِيعَةٌ؛ وهذا فيه إشارة إلى التكوين الخلقى الذي خلقها الله عليه وبسببه يدلّ لها طرق الحصول على الغذاء، الذي تصنعه شراًباً نافعاً للإنسان<sup>(1)</sup>.

أمّا في شرحهم لمادة "دَلَّ" يرى اللغويون أنّ «الدَّالَّ واللام في التَّضْعِيفِ والمطابقة أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الخُضُوعِ، والاستكانة، واللين»<sup>(2)</sup>. الدُّلُّ نقيضُ العزِّ،.. والدُّلُّ والدُّلُّ: ضدُّ الصُّعُوبَةِ دَلَّ يَدُلُّ دُلًّا ودُلًّا، فهو ذلول، يكون في الإنسان والدَّابَّةِ. ج: دُلُّلٌ وأدَّلَّةٌ<sup>(3)</sup>. وقد يدلُّ الدُّلُّ والدُّلُّ على الرفق والرحمة يقول تعالى: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 24]<sup>(4)</sup>.

إذا فكلمة "الدُّلُّ" قد تأتي: ضدَّ العزِّ أو ضدَّ الصُّعُوبَةِ وقد تعني: "التسخير - الخُضُوع - اللين - الاستكانة - الانقياد"، غير أنّ لفظ ﴿دُلًّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَسْلِكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا﴾ تحمل من الدلالة ما يتناسب وسياقها؛ فهي تدلُّ على الطَّريقِ السَّهْلِ الذي دُلُّلٌ للنحل لجني الغذاء وتحويله إلى دواء، وبالتالي فهي أبلغ وأدقُّ في الوصف من أيِّ لفظٍ آخر؛ حيث أنّ أي كلمة أخرى لا تسدُّ مسدَّ هذه الكلمة في دلالتها على ذلك المعنى.

هذا عن دلالة السِّيَاقِ القرآني والمعجمي لهذه اللفظة، أمّا عن دلالة سياقها الصَّوْتِي ومُنَاسِبَةٌ

(1) - ينظر: مرهف عبد الجبار سقا: التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم. 645/2-647.

(2) - ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: "دل".

(3) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة "دل". وينظر: الفيروز بادي: القاموس المحيط. مادة: "دل".

(4) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة "دل".

ذلك لمعناها ومدلولها، فيمكن أن نلخصه فيما يأتي<sup>(1)</sup>:

- 1- تكرار التّريق باختيار الأحرف المرقّقة في كلمة "ذلا"، جاء مُتناغماً ومُتسقاً تمام الاتّساق مع دلالة السّياق العام للآية؛ الذي يستعرض آية خلق النّحل كإحدى آيات الله المعجزات، التي سخرها الله لعباده، وذللّ سبلها، وجعلها مطيعة مُنقادة لما أمرت به.
- 2- توالى تلك الأحرف المرقّقة، الذّال واللامين مع ما في الذّال من ذلاقة وهمس، مع رقة اللّام المكرّرة كذلك، كل ذلك يُوحى تمام الإيحاء بالتّذليل والتّسهيل والامتنان والتّعم.
- 3- تكرار الضم وتتابعه في كلمة "ذلا" يوحى بالحنو والرّفق والرّحمة، وإنّك لتجد ذلك واضحاً في سهولة النّطق بتلك الكلمة.

وعليه، فالدّلالة الصّوتية لهذه الكلمة ﴿ذُلًّا﴾ مُتناغمة مع سياق الآية الذّال على امتنان الله تعالى على عباده بأن ذلّل السّبل ومهدّها للنّحل حتى يخرج للنّاس مادّة غذائهم وشفائهم. ومتناسقة مع الدّلالة العلميّة لهذه الآية ﴿فَأَسْلِكِ سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا﴾ التي تُشير إلى تنوّع الطّرق التي يسلكها النّحل لإنتاج هذا الغذاء الشّافي؛ فالنّحل له قُدرة فائقة على تحديد المكان المطلوب الوصول إليه، ونظام معلوماً غريب يُيسّر له شقّ الطّرق البعيدة بسهولة ويُسر وبما لا يتوفّر لأنواع أخرى من الحشرات، كما أنّ له جهازاً هضمياً عَجيباً يُحِيل ما جمع من رحيق إلى شراب مُصقّى مُختلف ألوانه فيه شفاء للنّاس ورحمة، وكلّ ذلك بوحى وإلهامٍ من الله سبحانه وتعالى، بأن سخر النّحل للإنسان وجعله مدللاً مُنقاداً له.

(1) - ينظر: عبد الحميد هنداي: الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم. ص: 96-97.

### المبحث الثالث:

#### السياق الصرفي والحقائق العلمية في آيات خلق الإنسان والحيوان

إنَّ المتأمل في الصيغ الإفرادية الواردة في آيات الذكر الحكيم، يلاحظ أنَّ السياق القرآني يختار الصيغ التي تلتحم به التحامًا كاملاً، وتتناسب معه تناسباً كلياً. فمعنى الصيغة يبلغ الكمال حينما ترد في سياق القرآن الكريم؛ فالتعبير القرآني يضع كلَّ صيغة في محلّها الذي يليق بها ويتلاءم معها، إذ لا يمكن استبدال أو تغيير صيغة بأخرى، أو إحلال إحداها محلَّ الأخرى، فكلُّ صيغة في القرآن الكريم دلالة مختلفة لا يؤديها غيرها، وهذا يدلُّ على تمام القدرة والحكمة، وهنا يكمن الإعجاز. ومن أمثلة دلالة السياق الصرفي في آيات الإعجاز العلمي في خلق الإنسان والحيوان، ودورها في تجلية المعنى وتوجيهه وتحديد الدلالة العلمية وتحقيقها ما يأتي:

#### المطلب الأول: دلالة المؤنث والمذكر

ينقسم الاسم من حيث الجنس إلى مذكر ومؤنث سواءً أكان مفرداً أو مثنى أو جمعاً، فالمذكر أصلٌ للمؤنث، وهو ما خلا من علامة التأنيث، لفظاً أو تقديراً، وهو على ضربين أحدهما حقيقي نحو: الرَّجُل والجمل، والآخر مجازي نحو: الجدار والكتاب.

أمَّا المؤنث ما كانت فيه علامة التأنيث، لفظاً أو تقديراً، وهو أيضاً على ضربين أحدهما حقيقي نحو: المرأة والناقة، والآخر مجازي نحو: الشَّمس والنَّار<sup>(1)</sup>. « ويُسْتَدَل على تأنيثه: بضمير المؤنث، أو إشارته، أو لحوق تاء التأنيث في الفعل، نحو: هذه الشَّمس رأيتها طلعت، أو ظهور التَّاء في تصغيره كأذنية، أو حذفها من اسم عدده كثلاث آبار»<sup>(2)</sup>.

ولكون المذكر هو الأصل، لم يُحتج فيه إلى علامة، بخلاف المؤنث فله علامتان<sup>(3)</sup>:

العلامة الأولى: التاء، وهي نوعان: تاء ساكنة في الفعل، نحو قامت هند، وتاء متحركة فيه، نحو هي تقوم، وفي الاسم، نحو صائمه وظريفه، وأصل وضع التاء في الاسم للفرق بين المذكر والمؤنث، وفي الأوصاف المشتقة المشتركة بينهما، فلا تدخل في الوصف المختص بالنساء، كحائضٍ ومرضع وعانس. أمَّا دخولها على الجامد المشترك معناه بينهما، فسماعي، كإنسانة، وفقى وفتاة.

(1) - ينظر: ابن الأثير، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ت 577هـ: "البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة دار الكتب، 1970م، ص: 63.

(2) - أحمد الحملاوي: شذا العرف في فن الصرف. ص: 73.

(3) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 73-75.

العلامة الثانية: الألف. وهي قسمان: مفردة، وهي المقصودة، كحُبلى وبُشرى؛ وغير مفردة، وهي التي قبلها ألف، فتقلب هي همزة، كحمراء و عذراء. وقد تُذكر ألفاظ وتؤنث ولا يفصل بينهما إلا السياق ومن أمثلة ذلك في الذكر الحكيم:

### 1- دلالة تذكير وتأنيث الأنعام في سياق القرآن الكريم:

من الألفاظ التي تذكر وتؤنث لفظة "الأنعام"، و«الأنعام»، لفظه لفظ جمع، وهو اسمٌ للجنس، يَكْرُ وَيُؤنث، يُقال: "هُوَ الأنعام"، و"هِيَ الأنعام" (1). ومن شواهد التذكير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ۗ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۗ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۗ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ [النحل: 66-69]، ومن شواهد التأنيث قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنفَعٌ كَثِيرَةٌ ۖ وَمِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٦٦﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ [المؤمنون: 21-22]. فما المقصود بلفظة "الأنعام"؟ ولماذا ذُكرت في سياق سورة "النحل"؟ ولماذا أنثت في سياق سورة "المؤمنون" على الرغم من تشابه الكلام في مجمل ألفاظه؟ ولماذا جمع البطن في كلا الآيتين؟ وكيف يخرج اللبن من بين الفرث والدم ويكون سائغا للشاربين؟ وهل من تفسير علمي لذلك؟

في دلالة لفظة "الأنعام" في المعاجم اللغوية يذكر اللغويون أنها جمع مفردا "النعم"، وهي اسم مشتق من الجذر اللغوي "نعم"، و«النعم» -وقد تُسكن عينه- الإبل، والشاء أو خاصُّ بالإبل، ج: أنعام، جج: أناعيم (2). وقد جاء في مقاييس اللغة: «وَالنَّعَمُ: الإبل، لِمَا فِيهِ مِنَ الْحَيْرِ وَالنَّعْمَةِ. قَالَ الْفَرَّاءُ: النَّعَمُ ذَكَرٌ لَا يُؤنثُ فَيَقُولُونَ: هَذَا نَعَمٌ وَارِدٌ؛ وَجُمُعُ أُنْعَامًا. وَالْأَنْعَامُ: الْبَهَائِمُ، وَهُوَ ذَلِكَ الْفِيَّاسُ» (3). أمَّا في معجم لسان العرب فقد ذكر ابن منظور أن: «النعم: واحِدُ الأنعام وَهِيَ الْمَالُ الرَّاعِيَّةُ؛ قَالَ ابْنُ سَيِّدَةَ: النَّعَمُ الْإِبِلُ وَالشَّاءُ، يُذَكَّرُ وَيُؤنثُ [...] وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: النَّعَمُ الْإِبِلُ خَاصَّةً، وَالْأَنْعَامُ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ» (4).

إذن، فالمفرد "النعم" في المعاجم اللغوية تطلق على الإبل خاصة، وجمعها "الأنعام" تطلق على البقر والغنم وكل ما يُرعى، وبذلك جاء تأويل هذه اللفظة عند المفسرين الأوائل فقد ورد في تفسير

(1) - الزجاج: معاني الزجاج.

(2) - الفيروزآبادي: القاموس المحيط. ص: 1299، مادة: "نعم".

(3) - ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: "نعم".

(4) - ابن منظور: لسان العرب. مادة: "نعم".

ابن كثير أن الأنعام هي: « الإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْعَنَمُ »<sup>(1)</sup> ، أمّا في تفسير القرطبي فيرى أن الأنعام « وَهِيَ هُنَا الْأَصْنَافُ الْأَرْبَعَةُ: الإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالضَّأْنُ وَالْمَعَزُ »<sup>(2)</sup> ، فالأنعام « من الحيوانات الشديدة اللبونة »، والشدييات هي طائفة من طوائف الحيوانات اختصّها الله تعالى بالقدرة على إفراز اللبن من بين فرث ودم لإرضاع صغارها حتى تكبر، ولذلك ميزها الخالق سبحانه وتعالى بعدد من الغدد الخارجية القادرة على إفراز اللبن تعرف باسم الأنداء أو الضروع»<sup>(3)</sup>.

إنّ الموضوع العام في كلا النصين القرآنيين واحد؛ فهو يتحدث عن الأنعام وما يخرج من بطونها من ألبان، فهي آية من آيات الله الدالة عن عجائب وعظيم قدرته سبحانه وتعالى فيهما، وقد اختلف نظم الآية في السياق الأول عنها في الثاني، حيث أعاد الضمير في النص الأول بالتذكير قال الله تعالى: ﴿سُقِّيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ [النحل:66]، وأعاد الضمير في النص الثاني بالتأنيث قال تعالى: ﴿سُقِّيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون:21] مع أنّ كليهما عائد على الأنعام. ولتبيين سبب ذلك الاختلاف لابدّ من النظر في دلالة سياق كل منهما.

ففي سياق النص الأول من سورة النحل الذي جاء فيه لفظ الأنعام مذكراً، تحدّث الله سبحانه وتعالى عن قدرته على سقاية الناس لبناً خالصاً سائغاً للشاربين من أنفر الأشياء وهي: الفرث والدم، وقدرته على سقائهم - من أعزّ مصادر السقاية منالاً وهي الثمرات - شرباً مختلفاً ألوانه. فجاء الحديث عن سقاية الأنعام من حيث الكيفية فقال: ﴿سُقِّيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾، وسقاية النحل من حيث المصدر فقال: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فتركز الحديث في سياق هذا النص عن السقاية، سقاية الأنعام وسقاية النحل<sup>(4)</sup>.

أمّا في سياق النص الثاني من سورة "المؤمنون" الذي جاء فيه لفظ الأنعام مؤنثاً، لم يقتصر الحديث فيه عن اللبن الخارج من بطون الأنعام فحسب، إنّما تعدّاه إلى منافع الأنعام الكثيرة، التي ينتفع بها الناس، واللبن جزء من هذه المنافع، ولهذا قال تعالى: ﴿سُقِّيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ والمنافع الكثيرة في الأنعام كلّها، ذكورها وإناثها، صغارها وكبارها، فكُلّها يُستفاد منها

(1) - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 580/4.

(2) - القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 350/12.

(3) - زغول النجار: الحيوان في القرآن الكريم - من آيات الإعجاز العلمي. دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ - 2006م، ص: 315.

(4) - ينظر: المثني عبد الفتاح محمود: نظرية السياق القرآني. ص: 181-182.

في الرُّكُوبِ والحَمَلِ والصَّوْفِ والرُّوثِ، وغير ذلك<sup>(1)</sup>؛ فلم يتركز الحديث في سياق هذا النَّصِّ عن السَّقَايةِ فحسب، وإمَّا تعداها للحديث عن منافع الأنعام الأخرى من أكل وركوب، فهو سياق يتحدث عن نعم الله على الناس<sup>(2)</sup>.

إذن فالسِّيَاقُ الأوَّلُ يتحدث عن نعمة واحدة هي نعمة السَّقَايةِ، ولذلك عبَّرَ بالضميرِ المُدَّكَّرِ، الدَّالِّ على جمعِ القَلَّةِ، فقال: ﴿سُقِّيْكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾؛ أي: نسقيكم ممَّا في بطونِ الأنعامِ الإناثِ التي فيها لَبَنٌ. بينما السِّيَاقُ الثَّانِي الذي تحدَّثَ عن الأنعامِ باعتبارِ نعمها المتعدِّدةِ المتنوعةِ، أتى بضميرِ "ها" المؤنَّثِ الدَّالِّ على الكثرةِ، وعطفَ المنافعَ الكثيرةِ، والأكلَ، على إسقَاءِ اللَّبَنِ: ﴿سُقِّيْكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾<sup>(3)</sup>.

وقد ذكر النحويون عدَّةَ وجوه في سبب عودة الضمير إلى الأنعام - في خروج اللَّبَنِ من ﴿بُطُونِهِ﴾ و ﴿بُطُونِهَا﴾ - مذكراً تارة ومؤنثاً تارة أخرى، نذكر منها<sup>(4)</sup>:

الأوَّلُ: أنَّ لَفْظَ الأنعامِ مُفْرَدٌ وَضِعَ لِإِفَادَةِ جَمْعٍ، كَالرَّهْطِ وَالقَوْمِ وَالْبَقَرِ وَالنَّعَمِ، فَهُوَ بِحَسَبِ اللَّفْظِ لَفْظٌ مُفْرَدٌ فَيَكُونُ ضَمِيرُهُ ضَمِيرَ الوَاحِدِ، وَهُوَ التَّنْكِيرُ، وَبِحَسَبِ المَعْنَى جَمْعٌ فَيَكُونُ ضَمِيرُهُ ضَمِيرَ الجَمْعِ، وَهُوَ التَّنْثِيثُ، فَلِهَذَا السَّبَبِ قَالَ هَهُنَا: ﴿فِي بُطُونِهِ﴾ وَقَالَ فِي سُورَةِ المُؤْمِنِينَ: ﴿فِي بُطُونِهَا﴾.

الثَّانِي: قَوْلُهُ: ﴿فِي بُطُونِهِ﴾ أي: في بُطُونِ ما ذَكَرْنَا، وَهَذَا جَوَابُ الكِسَائِيِّ. قَالَ المُبَرِّدُ: هَذَا شَائِعٌ فِي القُرْآنِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّارَةً الشَّمْسِ بِإِزْجَةٍ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: 78]، يَعْنِي: هَذَا الشَّيْءُ الطَّالِعُ رَبِّي، وَقَالَ: ﴿إِنَّمَا نَذَكْرَةٌ﴾ [عبس: 11]، ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ [عبس: 12]، أَي: ذَكَرَ هَذَا الشَّيْءَ. وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا إِنَّمَا يَجُوزُ فِيمَا يَكُونُ تَأْنِيثُهُ غَيْرَ حَقِيقِيٍّ، أَمَّا الَّذِي يَكُونُ تَأْنِيثُهُ حَقِيقِيًّا، فَلَا يَجُوزُ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ فِي مُسْتَقِيمِ الكَلَامِ أَنْ يُقَالَ: جَارِيَتُكَ ذَهَبَ، وَلَا عَلَامُكَ ذَهَبَتْ، عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ نُحْمِلَهُ عَلَى النَّسَمَةِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ فِيهِ إِضْمَارًا، وَالتَّقْدِيرُ: نُسُقِّيْكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ اللَّبَنِ إِذْ لَيْسَ كُلُّهَا ذَاتَ لَبَنِ.

(1)- ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني. ص: 229.

(2)- ينظر: المثني عبد الفتاح محمود: نظرية السياق القرآني. ص: 181-182.

(3)- ينظر: المثني عبد الفتاح محمود: نظرية السياق القرآني. ص: 182. وينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني. ص: 229.

(4)- ينظر: فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 66/20.

إذن فالأنعام « يَصِحُّ تَكْبِيرُهَا وَتَأْنِيثُهَا؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَهَا هُنَا فِي قَوْلِهِ: ﴿سُقِّيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ (النحل:66)، وَأَنْتَهَا فِي سُورَةِ: "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ" فِي قَوْلِهِ: ﴿سُقِّيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ (المؤمنون:21)، وَمَعْلُومٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ: أَنَّ أَسْمَاءَ الْأَجْنَاسِ يَجُوزُ فِيهَا التَّذْكِيرُ نَظْرًا إِلَى اللَّفْظِ، وَالتَّأْنِيثُ نَظْرًا إِلَى مَعْنَى الْجَمَاعَةِ الدَّخِلَةِ تَحْتَ اسْمِ الْجِنْسِ. وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ تَذْكِيرُ الْأَنْعَامِ وَتَأْنِيثُهَا»<sup>(1)</sup>.

كما أَنَّ «إِفْرَادُ ضَمِيرِ الْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ مُرَاعَاةً لِكَوْنِ اللَّفْظِ مُفْرَدًا؛ لِأَنَّ اسْمَ الْجَمْعِ لَفْظٌ مُفْرَدٌ، إِذْ لَيْسَ مِنْ صِبْغِ الْجُمُوعِ، فَقَدْ يُرَاعَى اللَّفْظُ فَيَأْتِي ضَمِيرُهُ مُفْرَدًا، وَقَدْ يُرَاعَى مَعْنَاهُ فَيُعَامَلُ مُعَامَلَةَ الْجُمُوعِ، كَمَا فِي آيَةِ سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿سُقِّيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾»<sup>(2)</sup>.

وعليه، فالتذكير والإفراد (في الضمير) في النصّ الأوّل لمراعاة جانب اللفظ، والتأنيث والجمع في النصّ الثاني لمراعاة البعد المعنوي، وهذه المراعاة اللفظية والمعنوية لا تكون إلا في سياقها الأليقي بها، دون نفور ولا اضطراب، وهذا ما جاء عليه النظم القرآني الحكيم، وهذا من الإعجاز البياني البلاغي في القرآن الكريم في اختياره الصيغة المناسبة في السياق المناسب، إلى جانب إعجازه العلمي كما سنرى.

فلهذه الآيات الكريمات إعجاز علمي في الأنعام وبطونها وألبانها، فمنذ أزيد من أربعة عشر قرناً أشار القرآن الكريم إلى حقائق علمية في خلق الأنعام وتكوين اللبن في ضروعها من بين فرث ودم، وخروجه لبناً خالصاً سائغاً للشاربين فيه منافع عديدة للإنسان، لم يتفطن لها العلم إلا مؤخراً بعد جهود ضائعة وبحوث طويلة، نذكر منها:

**أولاً: الإعجاز في مراحل تكوّن اللبن:** يتكوّن اللبن في الأنعام « بالتّسنيق المحكم والتدرّج الدقيق بين الجهاز الهضمي والجهاز الدموي والجهاز التناسلي عن طريق الغدد اللبنية في الضروع وغيرها من الأجهزة حيث جعل الله لكل جهاز وظيفة وأعمالاً خاصة يقوم بها ليتكوّن - في نهاية المطاف - اللبن الخالص السائغ للشاربين»<sup>(3)</sup>. فتكوّن اللبن عند الأنعام يعتمد أساساً على حركة الدم ونقل الغذاء. فتبدأ العملية - عند البقرة مثلاً - بهضم قسم من الطعام " الأعشاب " من خلال خلطه بالماء في المعدة الأولى حيث يتمّ تفكيك هذه الأعشاب بواسطة بكتيريا المعدة وإعادتها إلى الفم لمزيد من المضغ، ثم من خلال المعدة الثانية تعيد مضغ الطعام كمرحلة ثانية ليصبح أنعم. وبعد ذلك ومن

(1) - الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. 357/3.

(2) - ابن عاشور: التحرير والتنوير. 201/14-202.

(3) - عبد الله بن عبد العزيز المصلح وعبد الجواد الصاوي: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص:124.

خلال المعدة الثالثة تضغط الطعام لإزالة الماء منه وتنقيه من المواد الضارة، وأخيراً ومن خلال المعدة الرابعة تنتهي عملية المضغ حيث يذهب الطعام المضغوع إلى الأمعاء الدقيقة والقسم الآخر إلى الضرع<sup>(1)</sup>.

ثانياً: الإعجاز في صنع اللبن في ثدي الأنعام: توصلت أحدث البحوث العلمية إلى أن « في البقرة غدة ثديية، وهذه الغدة الثديية مقسمة إلى فصوص، والفصوص مقسمة إلى فصيفصات، وهذه الفصيفصات مقسمة إلى أجواف صغيرة هي الأسناخ، محاطة بغشاء من الخلايا، حول هذه الخلايا شعيرات دموية، تأخذ الخلايا من الدم ما تحتاج إليه، وتفرز الحليب في جوف هذا التجويف، ينتهي هذا الجوف بقناة، إلى حوض الغدة، ثم إلى حوض ثدي البقرة، ثم إلى حلمتها»<sup>(2)</sup> لكن طبيعة عمل هذه الخلية حتى هذه الساعة مجهولة تماماً، خلية تأخذ من الخارج ما تحتاج من الدم، وتفرز الحليب في باطنها، خلية غير عاقلة تستطيع أن تأخذ من الدم: المواد، والفيتامينات والمعادن، والبروتينات، والسكريات، والدهن، والماء، وتخلطها مع بعض خلطاً محكماً، وتفرز من الداخل الحليب. فتنج البقرة الواحدة تقريباً من ثلاثين إلى أربعين كيلو غراماً من الحليب في اليوم الواحد، وكل كيلو هو محصلة دوران ثلاثمائة لتر من الدم. وهذه آية من آيات الله سبحانه وتعالى<sup>(3)</sup>.

ثالثاً: الإعجاز في اللبن الخالص السائب: فقد توصل علم الكيمياء مؤخراً إلى حقيقة علمية تقرّر أن اللبن « يتكون في حالة وسط بين الفرث وهو الغذاء المتخمر، الذي لم يصل بعد إلى حالة الدم، وقبل انتهاء هضمه وتحويله إلى دم، ويمر في قنوات متعددة يتم فيها تكوين اللبن الذي يخرج من بين هاتين الحالتين، ولم يأخذ من الفرث رائحته الكريهة الناتجة من التخمر، ولم يتأثر بلون الدم، وهذه خواص وصفات اللبن النقي الخالص فيكون بذلك سائغاً للشاربين»<sup>(4)</sup>.

وهنا يكمن وجه الإعجاز العلمي في هذه الآية المباركة ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ ذِي قُرْبَىٰ وَذِي رَحْمَةٍ لِّبَنَاءِ خَالصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل:66]، يقول عبد الله المصلح: « ما كان أحد يعلم قبل اكتشاف أجهزة التشريح في القرنين الماضيين أسرار ما يجري في الجهاز الهضمي عند الحيوان والإنسان ووظائف ذلك الجهاز المعقد وعلاقته بالدورة الدموية ومراحل تكون اللبن في بطون الأنعام.

(1) - ينظر: عبد الدائم الكحيل: الإعجاز في المخلوقات. <https://kaheel7.net>

(2) - أسامة نعيم مصطفى: الإعجاز العلمي في الإنسان والحيوان. ص: 47

(3) - ينظر: أسامة نعيم مصطفى: الإعجاز العلمي في الإنسان والحيوان. ص: 47

(4) - أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهنية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 503

فلما تكاملت صناعة الأجهزة والتجارب العلمية عبر قرون عرف الإنسان أن مكونات اللبن تستخلص بعد هضم الطعام من بين الفرث وتجري مع مجرى الدم لتصل إلى الغدد اللبنية في شروع الإناث التي تقوم باستخلاص مكونات اللبن من بين الدم دون أن يبقى أي آثار في اللبن من الفرث أو الدم وتضاف إليه في حويصلات اللبن مادة سكر اللبن التي تجعله سائعا للشاربين»<sup>(1)</sup>.

ومن الحقائق العلمية في هذه الآية التي تتقاطع مع دلالة تأنيث وتذكير الأنعام- التي تحدثنا عنها قبل قليل - حقيقة تكوّن اللبن بأمر من مورثات الذكورة؛ فقد أشار القرآن الكريم إلى الأنعام بالتذكير في لفظة ﴿بُطُونِهِ﴾ في آية النحل. وأشار إلى نفس اللفظة بالتأنيث في سورة المؤمنون ﴿مَمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ وهذه الإشارة جاءت باعتبار أن الأنعام يذكر ويؤنث. وفي هذا الصدد يقول زغلول النجار أن بعض المتأخرين ذكروا: أن الضمير في آية النحل «جاء مذكراً ومفرداً للإشارة إلى أن اللبن يتكون بأمر من مورثات الذكورة؛ وذلك لأن الأنتى لا تفرز اللبن إلا إذا تسببت نطفة الذكر في إخصاب البيضة، وتكوّن الجنين، وما يصاحب ذلك من إفراز هرمونات خاصة تعمل على تنشيط الغدد اللبنية حتى تكتمل قدرتها على إفراز اللبن بمجرد الولادة، ومن هنا جاءت الإشارة في التعبير القرآني الكريم هنا بالإفراد والتذكير ﴿مَمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ لتأكيد تلك الحقيقة، وجاءت بالجمع والتأنيث في سورة المؤمنون ﴿مَمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ للإشارة إلى الأنعام بصفة عامة، وإلى إناثها بصفة خاصة»<sup>(2)</sup>.

وأيضاً من الحقائق العلمية التي تتعاقب مع صيغة الجمع الذي جاءت عليه لفظة البطون في كلتي الآيتين، حقيقة تعدد المعدات في جوف الأنعام لصناعة اللبن. يقول مرهف عبد الجبار سقاً: «إن جمع البطون في الآية تحتمل الدلالة على تعدد المعدات في جوف الأنعام لكونها المصنع الأول للبن، وسياق الآية في ذكر المنّة والعجائب في تولد اللبن قرينة مقوية لذلك، وهذا كان أمراً خافياً غير معروف لدى العرب والأطباء، فنحن نجد المفسرين عندما يتكلمون عن بطن الأنعام فإنهم لا يذكرون إلا الكرش في تفسير البطن»<sup>(3)</sup>. بينما صار من المحتّم في الطب البيطري وعلم التشريح أن الأنعام من بقر وإبل وغنم وما عرّ لها أربع معدات في جوفها البطني، وهذه المعدات لها دور في تولد اللبن إمّا ابتداءً أو أسهاماً، وبذلك يكون علم التشريح قد ساعدنا في تفسير مفردة قرآنية؛ ووسّع من مدلولها لتشمل معنى أوسع مما كان معهوداً من قبل»<sup>(4)</sup>.

(1)- عبد الله المصلح، عبد الجواد الصاوي: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 129.

(2)- زغلول النجار: الحيوان في القرآن الكريم. ص: 320-321.

(3)- مرهف عبد الجبار سقاً: التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم. 578/2-579.

(4)- ينظر: مرهف عبد الجبار سقاً: التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم. 579/2-580.

## 2- دلالة تأنيث العنكبوت في سياق القرآن الكريم:

من الأمثلة القرآنية أيضاً للألفاظ التي تُؤنث وتذكر لفظه "العنكبوت" (1) فيقال: هو العنكبوت وهي العنكبوت. ومن الأمثلة ما ورد في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ ذُنُوبِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَا لَأَعْنَكِبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿[العنكبوت: 41-43]. ففي هذه الآيات جاءت لفظه "العنكبوت" بصيغة الفعل المؤنث قال سبحانه وتعالى: ﴿أَخَذَتْ﴾، فما دلالة السياق العام لهذه الآيات؟ ولماذا اختارت صيغة المؤنث دون المذكر في التعبير القرآني؟ وما تفسير ذلك؟ و لم ضرب الله بالعنكبوت المثل؟ ولم خص الأنثى "أخذت بيتاً"؟ وما أبرز الحقائق العلمية في ذلك النص؟

في سياق هذه الآيات ضرب الله مثلاً لمن اتخذوا من دونه أولياء، ينصرونهم أو شركاء أو شفعاء، يلتجئون إليهم ويحتمون بهم، وهم لا يجلبون لهم نفعاً ولا يدفعون عنهم ضرراً، فإن مثلهم كمثل العنكبوت، في الضعف وسوء الاختيار، اتخذت لنفسها بيتاً تأوي إليه، وإن بيتها في غاية الضعف والوهاء، لا يدفع الحر ولا البرد ولا الآفات، ولا يحتمل مساً أضعف الرياح، وأدنى الحيوانات، وهي لا تدري أن هذا البيت لا يقي ما تقي البيوت؛ فهم وأوليائهم في ذلك كالعنكبوت وبيتها؛ فالعنكبوت من أضعف الحيوانات، وبيتها من أوهن البيوت، وما ازدادت باتخاذها إلا ضعفاً، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دون الله أصناماً وأوثاناً آلهة لا يدفعون عنهم ضرراً، ولا يقدر عليهم نفعاً.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ يؤكد الله جل جلاله أن الأمثال في القرآن جاءت لأجل الناس ولانتفاعهم ولتعليمهم لكونها من الطرق الموضحة للعلوم، ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بسببها، فهي مصلحة لعموم الناس . ولكن ما يعقلها بفهمها وتدبرها، وتطبيقه على ما ضربت له، وعقلها في القلب ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾؛ أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم (2). فالأمثال في القرآن لها حقائق ودلائل ومعاني، تحتاج إلى تأمل وتعقل وتدبر.

فالعنكبوت مؤنث «وقد يُذكر، وهي: العنكبأه والعنكبأه والعنكبأه والعنكبأه، والذكر:

(1)- ينظر: ابن الأنباري: البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث. ص: 67.  
(2)- ينظر: عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تفسير السعدي. ص: 668-669.

عَنْكَبٌ، وهي: عَنْكَبَةٌ، ج: عَنْكَبَاتٌ وَعَنَاكِبٌ. وَالْعَنَاكِبُ وَالْعُكْبُ وَالْأَعْكَبُ: أَسْمَاءُ الْجُمُوعِ «(1) .  
وَالْعَنْكَبُوتُ: « دُوَيْبَةٌ تَنْسُجُ، فِي الْهَوَاءِ وَعَلَى رَأْسِ الْبِئْرِ، نَسْجًا رَقِيقًا مُهْلَهَلًا [...] وَيُقَالُ لِبَيْتِ  
الْعَنْكَبُوتِ: الْعُكْدُبَةُ »(2) . وَالْعَنْكَبُوتُ: « صِنْفٌ مِنَ الْحَشْرَاتِ ذَاتُ بَطْنٍ وَرِجْلٍ، وَهِيَ ثَلَاثَةٌ  
أَصْنَافٍ، مِنْهَا صِنْفٌ يُسَمَّى لَيْثَ الْعَنَاكِبِ، وَهُوَ الَّذِي يَفْتَرِسُ الدُّبَابَ، وَكُلُّهَا تَتَّخِذُ لِأَنْفُسِهَا  
نَسِيجًا تَنْسُجُهُ مِنْ لُعَابِهَا يَكُونُ خُيُوطًا مَشْدُودَةً بَيْنَ طَرَفَيْنِ مِنَ الشَّجَرِ أَوْ الْجُدْرَانِ، وَيَتَّخِذُ فِي وَسْطِ  
تِلْكَ الْخُيُوطِ جَانِبًا أَعْلَى وَأَكْثَرَ اتِّصَالِ خُيُوطٍ تَحْتَجِبُ فِيهِ وَتُفْرَحُ فِيهِ. وَسُمِّيَ بَيْتًا لِشَبَهِهِ بِالْحَيْمَةِ فِي  
أَنَّهُ مَنْسُوجٌ وَمَشْدُودٌ مِنْ أَطْرَافِهِ »(3) .

قَالَ النَّحَّاءُ: « إِنَّ تَاءَ الْعَنْكَبُوتِ فِي آخِرِهَا مَزِيدَةٌ ؛ لِأَنَّهَا تَسْقُطُ فِي التَّصْغِيرِ وَالْجَمْعِ وَهِيَ  
مُؤَنَّثَةٌ »(4) . وَقَالَ الْفَرَّاءُ: « الْعَنْكَبُوتُ أَنْثَى، وَقَدْ يُدَكَّرُهَا بَعْضُ الْعَرَبِ؛ وَأَنْشَدَ قَوْلَهُ:  
عَلَى هَطَالِهِمْ (\*) مِنْهُمْ يُيُوتُ \*\*\*\*\* كَأَنَّ الْعَنْكَبُوتَ هُوَ ابْتِنَلِهَا  
قَالَ: وَالتَّائِيثُ فِي الْعَنْكَبُوتِ أَكْثَرُ [...] وَقِيلَ: الْعَنْكَبُ جِنْسُ الْعَنْكَبُوتِ، وَهُوَ يُدَكَّرُ  
وَيؤنث، أعني الْعَنْكَبُوتِ. قَالَ الم-بَرِّدُ: الْعَنْكَبُوتُ أَنْثَى، وَيُدَكَّرُ »(5) .

ولقد وردت الجذر اللغوي "عنكب" في القرآن الكريم مرتين اسمًا بصيغة "عنكبوت" في آية  
واحدة في قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخْتَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ وفي الآية  
ذاتها: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 41].

وفي تفسيرهم لهذه الآية اختلف المفسرون الأوائل في تأويل لفظة "العنكبوت"، فمنهم من  
قال: العنكبوت في الآية مفرد مؤنث، ودليلهم في ذلك هو أن التائيث مناسب للوهن  
والضعف، ومنهم من قال: العنكبوت جمع مذكر، ودليلهم في ذلك سياق الآية حين قال تعالى:  
﴿الَّذِينَ ﴾؛ فقد جاء في تفسير الألوسي قوله: «اسْتَظْهَرَ الْفَاضِلُ سَعْدِيُّ جَلْبِي كَوْنَهُ الْمُرَادِ بِهِ هُنَا  
الوَاحِدَ، وَذَهَبَ إِلَى تَأْنِيثِهِ أَيْضًا فَذَكَرَ أَنَّهُ اخْتِيرَ هُنَا تَأْنِيثَهُ لِأَنَّهُ أَلْ مُنَاسِبٌ لِبَيَانِ الْخَوْرِ وَالضَّعْفِ فِيمَا  
يَتَّخِذُهُ، وَقَالَ مَوْلَانَا الْحَفَاجِيُّ مُعَرِّضًا بِهِ: الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ الْجَمْعَ لَا الْوَاحِدَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (الَّذِينَ)

(1)- الفيروزبادي: القاموس المحيط. ص: 921. مادة: "عنكب".

(2)- لسان العرب: ابن منظور. مادة: "عنكب".

(3)- ابن عاشور: التحرير والتنوير. 20/252-253.

(4)- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 16/364.

(\*)- الهطال: اسم جبل. ينظر: لسان العرب: ابن منظور. مادة: "عنكب".

(5)- لسان العرب: ابن منظور. مادة: "عنكب".

وأما إفراد (البيت) فلأن المراد الجنس، ولذلك أنت ﴿أَتَخَذَتْ﴾ لا لأن المراد المؤنث<sup>(1)</sup>.

أما في التفسير العلمي الحديث فقد فصلوا في دلالة "العنكبوت"؛ فهم يرون أن العنكبوت في الآية واحدة مفردة مؤنثة تأنيثاً حقيقياً، فقد اكتشف حديثاً أن العنكبوت الأنثى هي من تقوم بنسج البيت وليس الذكر، وأن بيتها من أوهن البيوت مادياً ومعنوياً، وهذا ما أثبتته الدراسات العلمية الحديثة في علم الحشرات.

فالإعجاز العلمي في الآية يكمن في قوله جل جلاله: ﴿أَتَخَذَتْ﴾ بالصيغة المؤنثة، وفي قوله: ﴿الْعَنْكَبُوتِ﴾ بالصيغة المفردة؛ فالعنكبوت المذكورة في الآية "أنثى"، فقد ثبت علمياً أن مهمة بناء البيت تقوم بها إناث العناكب التي تحمل في جسدها غدد إفراز المادة الحريية التي تنسج منها بيتها، وقد يشترك الذكر - أحياناً - بالمساعدة في عمليات التشييد أو الترميم أو التوسعة إلا أن أصل عملية البناء تبقى أنثوية محضة. ففي قوله تعالى: ﴿أَتَخَذَتْ بَيْتًا﴾ بناء التأنيث الساكنة قطعت بالوصف للأنثى.

كما جاءت الآية بصيغة الإفراد ﴿الْعَنْكَبُوتِ﴾، وبهذا الاسم المفرد سميت السورة ﴿الْعَنْكَبُوتِ﴾، وفي ذلك إشارة واضحة وجلية إلى الحياة الفردية لهذه الدويبة فيما عدا لحظات الزواج، وأوقات فقس البيض، وذلك في مقابلة كل من سوري التمل والنحل، والتي جاءت التسمية فيها بالجمع إشارة إلى الحياة الجماعية لتلك الحشرات<sup>(2)</sup>.

ومن أبرز الحقائق العلمية المهمة التي أشار إليها النص القرآني المعجز، والتي تظهر في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، ما يأتي<sup>(3)</sup>:

أ- الوهن المادّي: إن بيت العنكبوت من الناحية المادية البحتة أضعف بيت على الإطلاق، لأنه مكون من مجموعة من خيوط حريرية غاية في الدقة تتشابك مع بعضها البعض تاركَةً مسافات بينية كبيرة في أغلب الأحيان، ولذلك فهي لا تقي حرارة الشمس ولا زمهرير البرد، ولا تُحدث ظلاً كافياً ولا تقي من مطرٍ هاطل، ولا من رياحٍ عاصفية، ولا من أخطر المهاجمين، وذلك على الرغم من

(1) - الألويسي: روح المعاني. 161/20-162.

(2) - ينظر: زغلول النجار: الحيوان في القرآن الكريم. ص: 140. وينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 368.

(3) - ينظر: زغلول النجار: الحيوان في القرآن الكريم. ص: 141-144. وينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 368-370.

الإعجاز في بنائها.

ب- الوهن في بيت العنكبوت لا في الخيوط: ففي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَلَّذِي عَلَيْهِ خِيوطٌ أُوهِتْ لَهُ أَلَم يَلْمَى كَفًّا﴾ إشارة صريحة ودقيقة جداً إلى أنَّ الوهن والضعف في بيت العنكبوت، وليس في الخيوط التي ينسج منها؛ فخيوط العنكبوت حريرية دقيقة جداً، يبلغ سمك الواحد منها في المتوسط واحداً من المليون من البوصة المرعبة، أو جزءاً من أربعة آلاف جزء من سمك الشعرة العادية في رأس الإنسان، وعلى الرغم من دقتها الشديدة فهي أقوى مادة بيولوجية عرفها الإنسان حتى الآن. ويمتد الخيط الرفيع منه إلى خمسة أضعاف طوله قبل أن ينقطع، وأطلق العلماء عليه اسم "الفولاذ الحيوي" أو "الفولاذ البيولوجي"، وهو أقوى من الفولاذ العادي بعشرين مرة. ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ ولم يقل أوهن الخيوط.

ج- الوهن المعنوي: إن بيت العنكبوت من الناحية المعنوية أو الاجتماعية هو أوهن البيوت على الإطلاق؛ لأنه بيت محروم من معاني المودة والرحمة التي يقوم على أساسها كل بيت سعيد، وذلك لأنَّ الأنثى في بعض أنواع العنكبوت تقضي على ذكرها بمجرد إتمام عملية الإخصاب، وذلك بقتله وافتراس جسده، لأنها أكبر حجماً وأكثر شراسة منه، وفي بعض الحالات تلتهم الأنثى صغارها دون أدنى رحمة، وفي بعض الأنواع تموت الأنثى بعد إتمام إخصاب بيضها، الذي عادةً ما تحتضنه في كيس من الحرير، وعندما يفقس البيض يخرج الصغار فتجد نفسها في مكان شديد الرّحام بالأفراد داخل كيس البيض. فيبدأ الإخوة الأشقاء في الاقتتال من أجل الطعام أو من أجل المكان أو من أجلهما معاً، فيقتل الأخ أخته وأخاه، وتقتل الأخت أختها وأخاه، حتى تنتهي المعركة ببقاء عددٍ قليلٍ من العنكبكات التي تنسلخ من جلودها، وتمزق جدار كيس البيض لتخرج الواحدة تلو الأخرى "بالذكريات التعيسة"، لينتشر الجميع في البيئة المحيطة، وتبدأ كل أنثى في بناء بيتها، ويهلك في الطريق إلى ذلك من يهلك، من هذه العنكبكات. ويكرر من ينجو منها نفس المأساة التي تجعل من بيت العنكبوت أكثر البيوت شراً ووحشية وانعداماً لأواصر القرى، ومن هنا ضرب الله تعالى به المثل في الوهن والضعف لافتقاره إلى أبسط معاني المودة والرحمة بين الزوج وزوجته والأم و صغارها والأخ وأخيه والأخت وأختها.

د- ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: إن هذه الحقائق وغيرها عن العنكبوت، لم تكن معروفة لأحد من الخلق في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، حيث لم تُكتشف إلا بعد دراسات مكثفة في علم سلوك العنكبوت استغرقت مئات من العلماء لعشرات من السنين حتى تبلورت في العقود المتأخرة في القرن العشرين، ولذلك ختم ربنا تبارك وتعالى الآية بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

وعليه، فتأنيث "العنكبوت" وإفرادها في سياق تلك الآية شكّل المحور الرئيس فيها، وكشف عن هذه الدلالة العلمية العظيمة في تلك السورة؛ في أنّ العنكبوت الأنثى هي من تقوم ببناء البيت وليس الذكر، وإيثارها الحياة الفردية دون الاجتماعية كحياة النحل والنمل. كما أنّ اختيار لفظة "بيوت" دون "خيوط" في قوله تعالى: ﴿أَوَهَنَ الْبُيُوتُ﴾ وافق تلك الحقائق العلمية المكتشفة حديثاً والتي أشرنا إليها قبل قليل، في أنّ الضعف يكمن في البيت وطريقة تصميمه هندسياً ليس في الخيوط التي تنسجه بها؛ فالمادّة التي تنسج منها خيوط بيتها صنّفت من أقوى المواد البيولوجية التي عرفها الإنسان. كما أنّ دلالة السياق العام للآية وافق حقيقة وهن بيت العنكبوت اجتماعياً؛ فالذي يتخذ من دون الله أولياء فهو في وهن اجتماعي شديد كحال تصرّف العناكب في محيطها الاجتماعي.

## المطلب الثاني: دلالة الأوزان الصرفية

لمفردات اللغة العربية أوزان صرفية عدّة منها ما هو قياسي، ومنها ما هو غير قياسي (سماعي)، ولكلّ وزن من هذه الأوزان دلالات كثيرة، منها ما أحصاها الصرفيون في مؤلفاتهم، ومنها ما أغفلوا عنها فنجدها متناثرة في المعاجم والتفاسير، وكتب اللّغة قديمها وحديثها، ومن أمثلة دلالة الصيغ الصرفية في آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ما يأتي:

### 1- دلالة صيغة "سلالة" في آية أطوار خلق الإنسان:

تأتي الصيغة الصرفية "سلالة" على وزن "فُعالة"؛ وهذا الوزن -فُعالة- يُعدّ من الأوزان غير القياسية التي تدلّ على اسم المفعول (\*). ولقد وردت صيغة "سلالة" مرتين في السياق القرآني؛ مرة في سورة "المؤمنون"، في قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿١٥﴾ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: 12-16]، ومرة في سورة "السجدة"، في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ. ﴿٩﴾ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١١﴾ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: 7-10]. فيا ترى ما السياق العام لكلتا الآيتين؟ وما الدلالة المعجمية والصرفية للفظ "سلالة"؟ ولماذا جاءت "سلالة" في سورة المؤمنون مقرونة بالطين بينما في سورة السجدة مقرونة بالماء؟ وهل لذلك تفسير علمي؟

يعرض سياق النصّ الأوّل من سورة [المؤمنون] أطوار الحياة الإنسانية منذ نشأتها الأولى إلى

نهايتها في الحياة الدنيا متوسّعاً في عرض أطوار الجنين الذي كان نطفة فعلاقةً فعظاماً فلحماً فخلقاً

(\*)- اسم المفعول هو: « ما اشتُقّ من مصدر المبني للمجهول، لمن وقع عليه الفعل » أحمد الحملوي: شذا العرف في فنّ الصرف. ص: 63. يصاغ من الفعل الثلاثي على وزن "مفعول" كمكتوب، ومنصور، ومن غير الثلاثي على وزن المضارع المجهول، بإبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة، وفتح ما قبل الآخر، مثل: مُكْرَمٌ، ومُعْظَمٌ. ويبدل اسم المفعول على الحدث والحدث وذات المفعول. و يقال فيه ما قيل في اسم الفاعل من حيث دلالاته على الحدث والثبوت، فهو يدل على الثبوت إذا ما قيس بالفعل وعلى الحدث إذا ما قيس بالصفة المشبهة. فقد تقول: أترى أنك ستنتصر عليهم؟ فيقال: "أنا منصور" أي أن هذا الوصف ثابت لي. وتقول: أتظنه سيغلب؟ فيقال: "هو مغلوب" أي هذا الوصف كأنه قد تمّ وثبت له. كما أنه من حيث الدلالة على الزمن يقال فيه ما قيل في اسم الفاعل فهو يدل على: المُضَيِّبِ، والحال، والاستقبال، والاستمرار، والثبوت. ويأتي بمعنى "اسم المفعول" عدّة صيغ سماعية منها: فَعِيلٌ، فَعِيلَةٌ، فَعِلٌ، فَعِلَةٌ، فَعُلٌ، فَعُلَةٌ، فَعُولٌ، فَعُولَةٌ، فَعَالٌ، فَعَالَةٌ، فَعُولَةٌ. ينظر: فاضل صالح السامرائي: معاني الأبنية في العربية. ص: 52. ويوسف المرعشلي: إعجاز القرآن والدلالات الصرفية. ص: 59-65.

تأمناً، مجملًا في عرض المراحل الأخرى، ثم يتابع خط الحياة البشرية إلى البعث يوم القيامة (1)، ليدل خلقه بذلك على كمال قدرته واستحقاقه للعبادة وحده، يقول سيد قطب: « وهذا النص يشير إلى أطوار النشأة الإنسانية ولا يحددها. فيفيد أن الإنسان مر بأطوار متسلسلة، من الطين إلى الإنسان. فالطين هو المصدر الأول، أو الطور الأول. والإنسان هو الطور الأخير.. وهي حقيقة نعرفها من القرآن، ولا نطلب لها مصداقًا من النظريات العلمية التي تبحث عن نشأة الإنسان، أو نشأة الأحياء. إن القرآن يقرّر هذه الحقيقة ليتخذها مجالاً للتدبر في صنع الله، ولتأمل النقلة البعيدة بين الطين وهذا الإنسان المتسلسل في نشأته من ذلك الطين. ولا يتعرّض لتفصيل هذا التسلسل لأنه لا يعنيه في أهدافه الكبيرة. أمّا النظريات العلمية فتحاول إثبات سلّم معيّن للنشوء والارتقاء، لوصل حلقات السلسلة بين الطين والإنسان» (2).

بينما سياق النصّ الثاني من سورة [السجدة] يتحدّث عن مطلق الخلق وخلق الإنسان خاصّة، وغرض السياق هنا هو التذكير بقدره الله - جلّ ذكره - على خلق الإنسان من الماء، وإحسان هذا الخلق وإبداعه في أكمل صورة، يقول ابن عاشور: «أن الله - سبحانه وتعالى - يمتثّل «على الناس أن أحسن خلقهم في جملة إحسان خلق كل شيءٍ ويتخصّص خلق الإنسان بالذكر. والمقصود: أنه الذي خلق كل شيءٍ - وخاصّة الإنسان - خلقًا بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا، وأخرج أصله من ترابٍ ثمّ كوّن فيه نظام النسل من ماءٍ، فكيف تُعجزه إعادة أجزاءه» (3).

إنّ المتأمل في كلا النصّين يلحظ أنّ الخطاب فيهما يعيدنا إلى بواكير النشأة ليعرّفنا على جذور قصة الخلق غير المعلومة، عند الإشارة إلى أنّ الخلق إنّما كان من "سلالة" وأنّ "السلالة" تكون من طين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12]، ومن ماء قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة: 8]؛ فالسياقان في كلتي الآيتين تعاضداً وعبراً عن حالة إيجاد واحدة. فبين هذين الآيتين تماثل لا يخفى، ممّا يجعل كل مقام ومقال فيها مُتمّماً للآخر. إذاً أحكم الرّبط بين أجزاءه التّركيبية وفقاً لنسقتها الطّبيعي قبل أو بعد بحسب سياقها، إذ إنّ مواضع الاتّفاق الغالب على هذين البنائين تشبي بأهمّهما يفيضان إلى أصل واحد (4).

(1) - ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن. 2452/18/3.

(2) - المصدر نفسه. 2458-2457/18/3.

(3) - ابن عاشور: التحرير والتنوير. 215/21.

(4) - ينظر: حامد علي أبو صعلبيك: ألفاظ الخلق والنشأة في القرآن الكريم دراسة دلالية. المجلة الأردنية في اللغة العربية وأدائها، المجلد 9، العدد 1، صفر: 1434هـ/ كانون الثاني: 2013م، ص: 335، وص: 344.

وعليه فلفظة "سلالة" في كلّي النصّين شكّلت المحور الرئيس فيه م؛ وذلك لتكرارها في سياقين مختلفين ومتعاضدين ومتكاملين من جهة، ولما تحمله من دلالات لغويّة وعلميّة من جهة أخرى وهذا ما سنبيّنه فيما يأتي:

يدلّ الأصل اللغوي "س ل ل" على ما أنتزع من الشّيء واستخرج منه بلطف ورفق، سلّه يسألّه سلّاً واستلّه فاستلّ وسلّته أسلّه سلّاً<sup>(1)</sup>، ومن ذلك: «سلّ السيف من غمده و استلّه وانسلّ منه، وسيف مسلول. وسلّ الشعرة من العجين فانسلّت انسللاً. وانسلّ من المضيق والرّحام وتسلّل<sup>(2)</sup>». و«والسّلة والإسلال: السّرقة. وفي حديث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حين كتب: «لا إغلال ولا إسلال»<sup>(\*)</sup>. فالإغلال: الحيانة. والإسلال: السّرقة. ومن الباب: السليل: الولد؛ كأنه سلّ من أمّه سلّاً. قالت امرأة من العرب في ابنتها:

سُلّ من قلبي ومن كيدي ... قمرًا من دونه القمر

ومما حمّل عليه السلسلة، سميت بذلك لأنّها مُتدّة في اتصال. ومن ذلك تسلسل الماء في

الخلق، إذا جرى. وماء سلسل وسلسال وسلاسل. قال الأخطل:

إذا خاف من نجم عليها طمءاءة ... أمّلال إليها جدولا يتسلسل<sup>(3)</sup>.

وفي دلالة لفظ "سلالة" في سياق قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾

[المؤمنون: 12]، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة: 8]، ذكر اللغويون والمفسرون نقلاً عن أهل التأويل عدّة وجوه وأقوال لمعناها، يمكن إيجازها في ما يأتي<sup>(4)</sup>:

أ- السلالة: الذي سلّ من كلّ تربة. وهو قول الفرّاء في تفسيره: "ولقد خلقنا الإنسان من

سلالة من طين".

(1) ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة "س ل ل".

(2) الزمخشري: أساس البلاغة. ص: 363. مادة: "س ل ل".

(\*) الحديث أخرجه أبو داود في الجهاد برقم 156، وأحمد في مسنده 4/ 325 في حديث صلح الحديبية، والسهيلي في الروض الأنف 4/ 28. ينظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. مادة: "س ل ل".

(3) ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: "س ل".

(4) ينظر: الطنبي: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 18/17-20. والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 17/15-18. فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 85/23. وابن منظور: لسان العرب. مادة "س ل ل".

- ب- السُّلَالَةُ: مَا سُئِلَ مِنْ صُلْبِ الرَّجُلِ وَتَرَائِبِ الْمَرْأَةِ كَمَا يُسْأَلُ الشَّيْءُ سَأَلًا. وهو قول: أبو الهيثم، وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ قَالَ فِي السُّلَالَةِ: إِنَّهُ الْمَاءُ يُسْأَلُ مِنَ الظَّهْرِ سَأَلًا.
- ج- السُّلَالَةُ: الْوَلَدُ، وَالتُّنْطِفَةُ. وهو قول الأخفش، والعرب تسمي ولد الرجل ونطفته: سليله وسلالته. لأتھما مسلولان منه
- د- السُّلَالَةُ: آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قَالَ قَتَادَةُ: "اسْتُلَّ آدَمُ مِنْ طِينٍ وَخُلِقَتْ ذُرِّيَّتُهُ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ" فَسُمِّيَ سُلَالَةً، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الْفَرَّاءُ، وَالرَّجَّاحُ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَمُقَاتِلٌ.
- هـ- والسُّلَالَةُ: النَّسْلُ مِنْ آدَمَ، وَكَذَا: السَّلِيلُ: الْوَلَدُ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالسُّلَالَةِ ابْنُ آدَمَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْدُ اللَّهِ.
- و- السُّلَالَةُ: صَفْوَةُ الْمَاءِ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ الْوَلَدُ؛ يَعْنِي الْمَنِيَّ. وَهُوَ قَوْلُ: ابْنِ عَبَّاسٍ.
- ز- السُّلَالَةُ: مَنِيَّ آدَمَ. وَهُوَ قَوْلُ مَجَاهِدٍ.
- ح- السُّلَالَةُ: الطَّيْنُ إِذَا عَصَرْتَهُ انْسَلَّ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِكَ، فَالَّذِي يَخْرُجُ هُوَ السُّلَالَةُ. وَهُوَ قَوْلُ: الْكَلْبِيِّ.

وعليه، فقد تباينت آراء المفسرين واللغويين في تأويل دلالة "سُلَالَة"، وإن كانت كلها تصبُّ في معنى محوري واحد وهو: ما انسلَّ من الشَّيْءِ واستخرج منه ثم هو امتداد له في رفق وخفاء. وقد أطلق عليها الرَّازِي في تفسيره بـ«الخلاصة؛ لِأَنَّهَا تُسَلُّ مِنْ بَيْنِ الْكَدَرِ»<sup>(1)</sup>.

إنَّ المتأمل لهذا الأصل الدَّلَالِي، يجد أنَّ "سُلَالَة" على وزن "فُعَالَة"، وهي بمعنى المسلوقة؛ أي: فُعَالَة بمعنى مفعولة؛ وأنَّ "فُعَالٌ" - بضمِّ الفاء - الذي هو للمذكر اسمٌ لِمَا كَانَ مُتَقَطَّعًا مِنْ شَيْءٍ أَوْ مُرْفُضًا، كَالْحُطَامِ، وَالْجُذَادِ، وَالرُّفَاتِ. وإذا التحقت تاء التَّأْنِيثِ بِ "فُعَالٍ" ليُصْبِحَ "فُعَالَة" - بضمِّ الفاء - تكون للقليل المَفْصُولِ مِنَ الشَّيْءِ الْكَثِيرِ، كَالسُّلَالَةِ، وَالْفُضَالَةِ، وَالتُّخَالَةِ، وَالتُّنْحَاتَةِ، وَالتُّقَامَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ هَذَا قِيَاسُهُ<sup>(2)</sup>. فبناء الاسم على فُعَالَة يدلُّ على القِلَّةِ؛ يَقُولُ الرَّازِي: إِنَّ «فُعَالَة» هُوَ بِنَاءٌ يَدُلُّ عَلَى الْقِلَّةِ كَالْوَلَامَةِ وَالْقُمَامَةِ<sup>(3)</sup>.

(1) - فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 85/23.

(2) - ينظر: يوسف المرعشلي: إعجاز القرآن والدلالات الصرْفِيَّة. ص: 65.

(3) - فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 85/23.

وقد جاء في تفسير الألوسي أن "فُعالة" « اسْمٌ لِمَا يَحْضُلُّ مِنَ الْفِعْلِ فَتَارَةً تَكُونُ مَقْصُودَةً مِنْهُ كَالْخُلَاصَةِ، وَأُخْرَى غَيْرُ مَقْصُودَةٍ مِنْهُ كَالْقَلَامَةِ وَالْكُنَاسَةِ ، وَالسُّلَالَةَ مِنْ قُبَيْلِ الْأَوَّلِ فَإِنَّهَا مَقْصُودَةٌ بِالسُّلِّ. وَذَكَرَ الرَّخْشَرِيُّ أَنَّ هَذَا الْبِنَاءَ يَدُلُّ عَلَى الْقَوْلِ، وَ"مِنْ" الْأُولَى ائْتِدَائِيَّةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْحَلْقِ، وَ"مِنْ" الثَّانِيَةِ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِسُلَالَةٍ عَلَى أَنَّهَا بِمَعْنَى مَسْئُولَةٍ أَوْ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْدُوفٍ وَقَعَ صِفَةً لِسُلَالَةٍ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ عَلَى هَذَا تَبْعِيضِيَّةٌ وَأَنْ تَكُونَ بَيَانِيَّةً «(1). وعلى هذا تكون السُّلَالَةُ بِجَمُوعِ مَاءِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى الْمَسْئُولِ مِنْ دَمِهِمَا. وَهَذِهِ السُّلَالَةُ هِيَ مَا يُفْرَزُهُ جِهَازُ الْمَهْضَمِ مِنَ الْغِذَاءِ حِينَ يَصِيرُ دَمًا؛ فَتِلْكَ السُّلَالَةُ مُخْرَجَةٌ مِنَ الطَّبْنِ لِأَنَّهَا مِنَ الْأَعْدِيَّةِ الَّتِي أَصْلُهَا مِنَ الْأَرْضِ ، وَعِنْدَ اجْتِمَاعِ السُّلَالَتَيْنِ يَتَكَوَّنُ الْجَنِينُ فَلَا جَرَمَ أَنَّه مَخْلُوقٌ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ(2).

فأصل نشأة الجنس الإنساني من سلالة من طين، ونشأة الفرد الإنساني بعد ذلك وتكاثره من سلالة من ماء « فقد جرت سنة الله أن يكون عن طريق نقطة مائية تخرج من صلب رجل، فتستقر في رحم امرأة. نقطة مائية واحدة. لا بل خلية واحدة من عشرات الألوف من الخلايا الكامنة في تلك النقطة. تستقر: ﴿ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ ثابتة في الرحم الغائرة بين عظام الحوض، المحمية بها من التأثير باهتزازات الجسم، ومن كثير مما يصيب الظهر والبطن من لكمات وكدمات، ورجات وتأثرات! والتعبير القرآني يجعل النطفة طورًا من أطوار النشأة الإنسانيّة، تاليًا في وجوده لوجود الإنسان.. وهي حقيقة. ولكنها حقيقة عجيبة تدعو إلى التأمل، فهذا الإنسان الضخم يُختصر ويُلخص بكلِّ عناصره وبكلِّ خصائصه في تلك النطفة، كما يعود من جديد في الجنين وكما يتجدد وجوده عن طريق ذلك التلخيص العجيب»(3).

ففي هتين الآيتين قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ [المؤمنون:12]، وقوله: ﴿ تُرْجَعَلْ دَسَلُهُ، مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ [السجدة:8]، حقائق علمية لم يدركها الناس إلا في هذا العصر نذكر منها:

أ- تشابه تكوين التراب الأرضي وجسم الإنسان: أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوي على ما تحتويه الأرض من العناصر فهو يتكوّن من الألمنيوم، الحديد، الكالسيوم، الأكسجين السليكون، الصوديوم، البوتاسيوم، المغنيزيوم، الهيدروجين، الكلور، اليود، المغنيز، الرصاص، الفوسفور

(1) - الألوسي: روح المعاني. 13/18.

(2) - ينظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير. 22/18.

(3) - سيد قطب: في ظلال القرآن الكريم. 2458/18/3.

النحاس، الفضة، الكربون، الزنك، الكبريت، والآزوت.

ووفقاً لتحليل أجراه أحد المخابرة الكيماوية في أمريكا وجد أن جسم الإنسان يتكون من: 65% أوكسجين، 18% الكربون، 10% هيدروجين، 3% آزوت، 105% كاسيوم، 1% فوسفور أما النسبة الباقية تشكلها باقي العناصر الأخرى. وهذه نفسها هي العناصر المكونة للتربة، وإن اختلفت نسبتها في إنسان عن آخر، وفي الإنسان عن التراب، إلا أن أصنافها واحدة. فحسباً خلق الإنسان من تراب!! في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون:12]، إشارة أن أصل الإنسان ومعدنه الأساسي هو طينة هذه الأرض وبشكل أدق خلاصة من هذه الأرض ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ المواد التي تحتويها الأرض هي نفسها المواد المكونة للإنسان دون اختلاف<sup>(1)</sup>.

ب- أصل الإنسان خلاصة من هذه الأرض: إن أصل الإنسان ومعدنه الأساسي هو من طينة هذه الأرض ومن معدنها، وبشكل أدق: خلاصة من هذه الأرض "سلالة من طين". يقول التحليل المخبري: إنه لو أرجعنا الإنسان إلى عناصره الأولية، لو جدنا أشبه بمنجم صغير، يشترك في تركيبه حوالي "21" عنصراً. وكل هذه العناصر موجودة في تراب الأرض، ولا يشترط أن تكون كل مكونات التراب داخلية في تركيب جسم الإنسان، فهناك أكثر من مئة عنصر في الأرض بينما لم يكتشف سوى "22" عنصراً في تركيب جسم الإنسان، وقد أشار لذلك القرآن حيث قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون:12]، وفي ذلك إعجاز علمي بليغ<sup>(2)</sup>.

ج- تكون الإنسان من النطفة التي هي خلاصة التراب: إن الإنسان يتكون أصلاً من النطفة التي تنشأ من اتحاد الحيوان المنوي الذي يفرزه الذكر بالبويضة التي تفرزها الأنثى. وهذه الحيوانات والبويضات تتولد من الدم الذي يتكون من المادة اللبنيّة الناتجة عن الكيلوس، وهو عبارة عن نواتج هضم الغذاء الذي هو نبات وحيوان وماء. وكلها مكونة من عناصر التراب، فالأصل كله إلى التراب. فالإنسان أصلاً آدم -أول البشر- خلق من تراب بدليل تحليل عناصر جسم الإنسان التي تتكون من عناصر التراب، ثم توالى خلق ذريته من النطفة التي هي خلاصة التراب<sup>(3)</sup>.

(1)- ينظر: محمد الصالح نجاحي: خلق الإنسان في القرآن. دار الشيماء للنشر والتوزيع، نقاوس- باتنة، دط، 2015م، ص:27. وأحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص:270.

(2)- ينظر: نايف منير فارس: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص:144-145.

(3)- ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص:270.

د- عملية التناسل تتم بواسطة خلاصة من كل من ماء الرجل والمرأة: فمن الثابت علمياً أن من بين مائتي مليون إلى ثلاثمائة مليون نطفة تنطلق في دفقة المني الواحدة من الزوج لا يصل إلى البويضة المنتظرة في الثلث الأخير من الرحم سوى خمسمائة فقط، ولا يفلح في إتمام عملية إخصاب البويضة سوى واحدة قدّرت لها الإرادة الإلهية النجاح في اختراق جدار البويضة السميكة<sup>(1)</sup>، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْهُمْ إِمَّةً مِّن مَّا مَهَّيْنَا لَهُم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 8].

وعليه، ومما سبق نستنتج أن هناك تعانقاً وتطابقاً بين الدلالة اللغوية (المعجمية والصرفية) والدلالة العلمية للفظ "سلالة" في نقاط عدة:

فمن المعاني المعجمية لـ "سلالة" انتزاع الشيء وإخراجه برفق ويسر، وعبره من مضيق وازدحام، وإذا نظرنا إلى الحيوان المنوي نجده سلالة تستخلص من ماء الرجل - من ملايين الحيوانات - يستخرج برفق ويسر من مكان ضيق ومزدحم، وهذا أيضاً مطابق للحالة التي مرّت عليها البويضة المخصبة المنسلّة من بين عدد كبير من البويضات برفق بعد نضوجها. وأيضاً من المعاني الصرفية لوزن "فعالة" الذي جاءت عليه "سلالة" هو القلّة أو الخلاصة، وهذا مطابق تماماً للتفسير العلمي لحال السلالة التي هي خلاصة ماء الرجل والمرأة وصفوته. فالإنسان يتكون من ماء قليل أو قطرة من ماء المني، وبويضة واحدة؛ ف «خلال عملية الإخصاب يرحل ماء الرجل من المهبل ليقابل البويضة في ماء المرأة في قناة البيضات "قناة فالوب" ولا يصل من ماء الرجل إلا القليل ويخترق منوي واحد البويضة، ويحدث عقب ذلك مباشرة تغير سريع في غشائها يمنع دخول بقية المنويات. وبدخول المنوي إلى البويضة تتكون النطفة الأمشاج»<sup>(2)</sup>.

(1) - زغلول النجار: تفسير الآيات الكونية. 58/3.

(2) - أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 104.

## 2- دلالة صيغة "يَصْعَدُ" في آية صعود الإنسان في السماء:

يَعُدُّ الفعل "يَصْعَدُ" من مزيدات الثلاثي بحرفين على وزن يَتَفَعَّلُ (صَعَدَ، يَصْعَدُ، يَصْعَعُدُ - فَعَلَّ، يَفْعَلُ، يَتَفَعَّلُ). وقد وردت هذه الصيغة "يَصْعَدُ" في قوله تعالى يَصِفُ فِيهِ شُعُورَ الْإِنْسَانِ بِضَيْقِ النَّفْسِ، وَالِاخْتِنَاقِ كُلِّمَا ارْتَفَعَ عَنِ سَطْحِ الْأَرْضِ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَعُدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125]. فما السياق العام لهذه الآية؟ وما دلالة السياق اللغوي (المعجمي والصوتي والصرفي) للفظ "يَصْعَدُ" في الآية؟ وهل هناك علاقة بين المعاني اللغوية لهذه اللفظة والتفسير العلمي للآية؟

يُصَوِّرُ السِّيَاقُ الْعَامُ لِهَذِهِ الْآيَةِ حَالَةَ الْهُدَى وَحَالَةَ الضَّلَالِ فِي دَاخِلِ الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ؛ فَمَنْ يُقَدِّرُ اللَّهُ لَهُ الْهُدَايَةَ يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ؛ فَيَتَّسِعُ لَهُ؛ وَيَسْتَقْبِلُهُ فِي يُسْرٍ وَرَغْبَةٍ، وَيَتَفَاعَلُ مَعَهُ، وَيَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ. وَمَنْ يُقَدِّرُ اللَّهُ لَهُ الضَّلَالَةَ يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا؛ أَي: فِي غَايَةِ الضَّيِّقِ وَالانقباض، ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَعُدُ فِي السَّمَاءِ﴾ كَحَالِ مَنْ يَصْعَدُ فِي طَبَقَاتِ الْجَوِّ الْعُلْيَا.. وَهِيَ حَالَةُ نَفْسِيَّةِ جُحْسَمٍ فِي حَالَةِ حَسِيَّةٍ، مِنْ ضَيْقِ النَّفْسِ، وَكُرْبَةِ الصَّدْرِ، وَالرَّهَقِ الْمَضْنِيِّ فِي التَّصْعُدِ إِلَى السَّمَاءِ!.. وَبِنَاءِ اللَّفْظِ ذَاتِهِ ﴿يَصْعَعُدُ﴾ فِيهِ هَذَا الْعُسْرُ وَالْقَبْضُ وَالْجُهْدُ. وَجَرَسَهُ يُحَيِّلُ هَذَا كُلَّهُ، فَيَتَنَافَسُ الْمَشْهَدُ الشَّخْصُ، مَعَ الْحَالَةِ الْوَاقِعَةِ، مَعَ التَّعْبِيرِ اللَّفْظِيِّ فِي إِيقَاعِ وَاحِدٍ (1).

إِنَّ لَفْظَ ﴿يَصْعَعُدُ﴾ فِي سِيَاقِ هَذِهِ الْآيَةِ شَكْلُ الْمَحْوَرِ الرَّئِيسِ فِيهَا وَكَشَفَ عَنْ عِدَّةٍ دَلَالَاتٍ لُغَوِيَّةٍ وَعِلْمِيَّةٍ عَظِيمَةٍ. فَبِإِذْنِ دَلَالَتِهِ الْمَعْجَمِيَّةِ وَالسِّيَاقِيَّةِ ذَكَرَ اللَّغَوِيُّونَ وَالْمُفَسِّرُونَ عِدَّةً وَجُوهَ لِمَعْنَاهِ، يُمْكِنُ إِجْزَاؤُهَا فِي يَأْتِي:

- أ- الصَّادُ وَالْعَيْنُ وَالذَّالُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى ارْتِفَاعٍ وَمَشَقَّةٍ (2). « وَالصَّعْدُ وَالصَّعِيدُ وَالصَّعُودُ فِي الْأَصْلِ وَاحِدٌ، لَكِنِ الصَّعُودُ وَالصَّعْدُ يُقَالُ لِلْعَقْبَةِ، وَيَسْتَعَارُ لِكُلِّ شَأْنٍ » (3).
- ب- الصَّعُودُ: ضِدُّ الْمَهْبُوطِ، وَالْجَمْعُ صَعَائِدٌ وَصُعُدٌ. وَتَعْنِي: الْعَقْبَةُ الْكُؤُودُ، وَجَمْعُهَا الْأَصْعَدَةُ. وَقَدْ تَعْنِي: الْعَقْبَةُ الشَّقَاةُ، يُقَالُ تَصَعَّدَهُ الْأَمْرُ إِذَا شَقَّ عَلَيْهِ وَصَعِبَ (4).

(1) - ينظر: سيد قطب في ظلال القرآن. 1203/8.

(2) - ينظر: ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: صعد.

(3) - الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. ص: 484، مادة: صعد.

(4) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة: صعد.

ج- الصَّعِيدُ: المرتفع من الأرض، وقيل: الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة، وقيل: ما لم يخالطه رمل ولا سبخة، وقيل: وجه الأرض. وقيل: الصَّعِيدُ الأرض، وقيل: الأرض الطيبة. وقيل: الصَّعِيدُ التراب أو هو كلُّ تراب طيب. وقيل: الصَّعِيدُ الطريق يكون واسعاً وضيقاً. والصَّعِيدُ الموضع العريض الواسع. وقيل: الصَّعِيدُ القبر<sup>(1)</sup>.

د- يَصْعَدُ: «فهي بمعنى يَتَصَعَّدُ، فأدغمت التاء في الصاد ومعنى يَتَصَعَدُ يَتَكَلَّفُ ما يَثْقُلُ عليه»<sup>(2)</sup>.

ولقد جاء الفعل "صعد" بمشتقاته في تسعة مواضع من كتاب الله عزَّ وجلَّ بمعاني مختلفة؛ منها: الارتفاع، والقبول، والرضا منه سبحانه وتعالى، قال جلَّ ذكره: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10]. ومعنى الذهاب، والمضي هرباً، قال تعالى: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ [آل عمران: 153]. ومعنى تكلف الصُّعُودِ بمشقة بالغة فلا يستطيعه، قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: 125]. ومعنى شديداً صعباً شاقاً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: 17]. ومعنى وجه الأرض البارز سواء كان تراباً أو غيره، وقيل: التُّراب ذاته قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: 43]<sup>(3)</sup>.

وعليه فالمادَّة اللُّغوية "صعد" في المعاجم وفي التَّفاسير تحمل عدَّة دلالات؛ منها دلالات ماديَّة ملموسة: كالأرض، والتُّراب، والغبار، والقبر. ودلالات معنويَّة محسوسة: كالذهاب، والصُّعُود والارتفاع. ودلالات مجازيَّة مستعارة: كتكلف الصُّعُودِ، ومشقة العذاب، وصعوبة الأمر، وضيق المذهب.

وفي دلالة الفعل "يَصْعَدُ" في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: 125]، نجد أنَّ جل المفسِّرين اتَّفَقوا على أنَّ معناه الصُّعُودِ بمشقة وصعوبة، أو بمعنى: يتكلف الصُّعُودِ إلى السَّمَاءِ، ولا يقدر عليه<sup>(4)</sup>.

فإنَّ سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة جعل «ضيق صدر الإنسان الضَّالَّ وخرجه، يُعَادِلُ ضيق صدر الإنسان وخرجه عندما يَصْعَدُ في السَّمَاءِ، حيث تقلُّ نسبة وجود الأكسجين في طبقات

(1) - ينظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة: صعد.

(2) - فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 293/13.

(3) - ينظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. ص: 484، مادة: صعد. وينظر: زغلول النجار: السماء في القرآن الكريم. ص: 392-393.

(4) - ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 336/3. والطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 551-550/9. والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن.. 25/9.

الجو العليا، وتُصبح الرئتان غير قادرتين على الحصول على كمية الأكسجين المناسبة والمطلوبة للتنفس الطبيعي، فيأخذ صدر الإنسان في الضيق والانقباض بسبب صعوبة التنفس التي تصل حد الاختناق، وهذا لا شك سبق علمي وصورة من صور الإعجاز العلمي للقرآن الكريم أكده كثير من العلماء»<sup>(1)</sup>.

وفي حقيقة الأمر ما كان لهذا الفعل أن يحمل من هذه الدلالة اللغوية - المعجمية والسياسية - إلا لما يتميز به من خصائص وصفات في بنيته الصوتية وبنيته الصرفية، فما الذي يميز هذا الفعل؟ إن الذي يميز هذا الفعل هو البناء المضعف في صوتي "الصَّاد" و"العين"، فقد «قرأه الجمهور: "يَصْعَدُ" - بتشديد الصَّاد وتشديد العين - على أنه يَنْفَعُلُ من الصُّعُودِ؛ أي: بِتَكْلُفِ الصُّعُودِ، فقلبت تاء التَّفْعُلِ صادًا؛ لأنَّ التَّاء شبيهةٌ بحروف الإطباق، فلذلك تُقلِبُ طاءً بعد حُرُوفِ الإطباق في الافتعال قَلْبًا مُطَرِّدًا، ثُمَّ تُدْعَمُ تارةً في مُمَائِلِهَا أو مُقَارِبِهَا، وقد تُقلِبُ فيما يُشَابهُ الافتعال إذا أُريدَ التَّخْفِيفُ بالإدغام، فتُدْعَمُ في أحدِ أَحرفِ الإطباقِ كما هُنا، فَإِنَّهُ أُريدَ تخفيفُ أحدِ الحُرُوفِ الثَّلَاثَةِ المتحرِّكةِ المتواليَةِ من " يَتَصَعَّدُ " فسكَّنتِ التَّاءَ ثُمَّ ادَّغمتِ في الصَّادِ إدغامَ المُقَارِبِ للتخفيف»<sup>(2)</sup>. فقلب التَّاءَ صادًا، وإدغامها بالصَّادِ الثَّانيةِ، وجعلها حرفاً مشدِّداً، وثقيلًا تناسب مع الدلالة اللغوية والمفهوم العلمي لهذه الآية وهي التَّكْلُفُ في الصُّعُودِ والشُّعُورِ بضيق التنفس، والاختناق.

أمَّا لو كان هذا الفعل دون تضييف "يَصْعَدُ" فإنه لا يعطي دلالة الفعل المضعف "يَصْعَدُ"؛ لماذا؟ لأنَّ الزيادة في المبنى تؤدي إلى الزيادة في المعنى، والتضييف الصوتي يعطي الفعل اتساعاً زمنياً بناءً على زيادة مبناه. وبالتالي فالفعل "يَصْعَدُ" - من دون تضييف -، يدلُّ على أنَّ الصُّعُودَ حدث دفعةً واحدةً وبشكل مُنتظم وفي زمنٍ قصير، وفي هذه الحالة قد لا يشعر الإنسان بمشقة الصُّعُودِ وبتناقص الأكسجين بشكل كبير ومؤثِّر، لكن، البنية الصوتية المضعفة للفعل منحت الحدث سمة التكرار، وجعلت فضاءه الزمني أكثر اتساعاً، ما يعني أنَّ فعل الصُّعُودِ حدث عبر مراحل واستغرق زمناً أطول، استشعر الإنسان خلاله ضيق صدره وتقطع أنفاسه وعدم قدرته على التنفس بشكل طبيعي، فالآية تُصوِّرُ لنا الإنسان يصعد مرحلة ثم يقف ليسترجع أنفاسه ثم يستأنف الصُّعُودَ مرَّةً أخرى ثم يقف ثم يستأنف وهكذا، فهو فعلٌ يتضمَّنُ صورة الحدث كما يتضمَّنُ دلالاته<sup>(3)</sup>.

(1) - أحمد العزي صغير. مقال نشره على صفحته في الفايس بوك 2017/4/3. <https://www.facebook.com>

(2) - ابن عاشور: التحرير والتنوير. 60-59/8.

(3) - ينظر: أحمد العزي صغير. مقال نشره على صفحته في الفايس بوك 2017/4/3. <https://www.facebook.com>

وإذا ما لاحظنا أيضاً صوت (الصَّاد) في كلمة - "يَصْعَدُ" - نجد أنه يُحاكي معناها ويُوحي بدلالاتها اللغوية والعلمية على السواء، ويرسم صورتها في ذلك المقام الذي يصف حال من يصعد في طبقات الجوِّ العليا.

فمن أهمِّ صفات صوت (الصَّاد) الاستعلاء، والإطباق، والصَّفير<sup>(1)</sup>.

فصفة "الاستعلاء" ومعناه: الارتفاع؛ حيث ينشأ عن ارتفاع جزء كبير من اللسان ومعظمه عند النطق بالحرف إلى الحنك الأعلى، فكأنَّ الصَّاد بهذا الاستعلاء الذي يحدث للسان عند النطق به يعبر عن ارتفاع وتصاعد الإنسان عن سطح الأرض.

وصفة "الإطباق" ومعناه: الالتصاق؛ ينشأ عن الزيادة في درجة الاستعلاء، وفي قوِّته فيكاد اللسان ينطبق ويلتصق كلُّه على الحنك الأعلى ويكون الصَّوت محصور بينهما، وهذه الصِّفة تُوحي بالارتفاع أكثر وأكثر، فضلاً عن الإطباق والالتصاق المحكم، الذي يوحي بالحالة التي يكون عليها الإنسان إذا زاد ارتفاعه في الفضاء من ضيق التَّنفس، والاحتناق.

أمَّا الصَّفير معناه: الحدَّة في الصَّوت؛ تنشأ عن مروره في مجرى ضيق، -وسبب هذه الحدَّة؛ هو أنَّ الهواء عندما يمر عبر الحنجرة ويصل إلى مخرج الحرف، فإنه يصطدم بالصَّفحة الدَّاخلية للثنايا السُّفلى والصَّفحة الدَّاخلية للثنايا العليا، وما بينهما، فمجموع ذلك كله يولِّد لنا الصَّفير - وهذه الصِّفة تصوِّر لنا ضيق صدر الإنسان، وانقباض رئتيه، وصعوبة تنفسه حين ينخفض الضَّغط الجوّي وتتناقص كميَّة الأكسجين في الجوّ.

هذا بالنسبة لدلالة البنية الصَّوتية لهذا الفعل، أمَّا بالنسبة لدلالة بنيته الصَّرْفية فقد ذكرنا آنفاً أنَّ هذا الفعل "يَصْعَدُ" على وزن "يَتَفَعَّلُ"، ولقد ذكر اللغويون أنَّ لهذه الصِّيغة الصَّرْفية (يَتَفَعَّلُ) عدَّة دلالات من أهمِّها<sup>(2)</sup>:

التَّكَلُّفُ: وهو الدَّلالة على التَّظاهر بالأمر والرَّغبة في حصول الفعل والاجتهاد في سبيل ذلك، ولا يكون إلا في الصِّفات الحميدة، كتصبُّر وتحلُّم: تكَلَّفَ الصبر والحلم.  
التَّدْرِجُ: وهو فعل الشَّيء على دفعات شيئاً فشيئاً، مثل: تجرَّع الماء: أي شرب الماء جرعة بعد أخرى.

المُطَاوَعَة: أي: القابلية في الفعل، وهو يطاوع "فَعَلَ" مثل: علَّمته فتعلَّم.

(1) - ينظر: مصطفى أكرور: مخارج وصفات الحروف العربية عند جمهور علماء التجويد. ص: 62 و64 و74.

(2) - ينظر: يوسف المرعشلي: إعجاز القرآن والدلالات الصَّرْفية. ص: 28-29.

الالتحاذ: مثل: توسد زيد ثوبه؛ أي: اتخذه وسادة.

التجنب: وهو الدلالة على ترك معنى الفعل والابتعاد عنه، مثل: تهجد وهو ترك الهجود، وهو النوم، و تخرج إذا ترك الحرج.

والمأمل في سياق الآية السابقة قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۗ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۗ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125]. يجد أن صيغة "يصعد" قد وظفت بتلك المعاني السابقة كلها لتطابق مقتضى الحال الذي سيقف لأجله؛ فالصاعد للسماء يتكلف الصعود إليها بمشقة، وصعوده يكون على تدرج، ولكي يحصل ذلك عليه بمطوعة الفعل، والالتحاذ بالأسباب، وإن ما حصل على مبتغاه عمل جاهداً على تجنب معنى هذا الفعل -الصعود- وابتعد عنه؛ لما يلاقيه من إجهاد؛ وذلك لأن الإنسان لا يستطيع الصعود إلى السماء ولا يطيق ذلك، ففي هذا الأمر مشقة عليه يحتاج إلى تكلف ومجاهدة وتكرار ومحاولة. وإن حصل له ما يريد أحسن باختناق في صدره مما يجعله يعمل جاهداً لترك الصعود وتجنبه.

إن هذه الدلالات اللغوية -المعجمية والصوتية والصرفية- تلتقي وتتفق مع المفهوم والتفسير العلمي لهذه الآية، ففي هذه الآية المعجزة إشارة إلى حقيقة علمية لم يتوصل العلماء إلى معرفتها إلا حديثاً؛ وهي أن الارتفاع في السماء يُسبب ضيقاً واختناقاً في التنفس، وذلك راجع إلى سببين<sup>(1)</sup>: الأول: أن التغير الهائل في ضغط الجو الذي يحدث عند التصاعد السريع في السماء، يُسبب للإنسان ضيقاً في الصدر وحرَجًا.

الثاني: أنه كلما ارتفع الإنسان في السماء انخفض ضغط الهواء، وقلت بالتالي كمية الأوكسجين، مما يؤدي إلى ضيق في الصدر وصعوبة في التنفس.

ففي منتصف القرن السابع عشر تقريباً، كشف العالم تورشيللي (Evangelista Torricelli) "1608م-1647م" أن للهواء ضغطاً قاسه وقدره بما يساوي وزن ستة وسبعين سنتيمتراً من الزئبق. واستمراراً لما أجراه تورشيللي من تجارب أمكن الوصول إلى أنه كلما ارتفع الإنسان عن مستوى سطح البحر كلما نقص وزن الهواء، وذلك نتيجة لنقص ثَمك الغلاف الجوي الغازي من جهة وتخلخل الهواء وانخفاض كثافته من جهة أخرى و يتأثر هذا -أيضاً- تبعاً لاختلاف درجة الحرارة، ولم

(1) - ينظر: يوسف الحاج أحمد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة. مكتبة دار ابن حجر، دمشق، سورية، ط2، 1424هـ-2003م، ص:347.

يتوصل الإنسان إلى معرفة هذه الظاهرة إلا في القرن التاسع عشر " 1804م " حينما صعد بالبالون لأول مرة إلى طبقات الجو ظاناً بأن الهواء ممتد إلى ما لا نهاية<sup>(1)</sup>.

ومن وجهة نظر العلوم الطبيّة فقد ثبت أنّ الإنسان بمجرد أن يتجاوز ارتفاع ثمانية كيلومترات فوق سطح البحر؛ فإنه يتعرّض إلى مشكلات عديدة، منها صعوبة التنفس لنقص الأوكسجين وانخفاض الضّغط الجوي<sup>(2)</sup>. يقول صلاح الدّين المغربي<sup>(\*)</sup>: «لنا حويصلات هوائية، والأوكسجين إذا دخل الرئتين ينفخ هذه الحويصلات الهوائية فتراها مُنتفخة، لكن إذا صعدنا إلى طبقات الجوّ العليا ينقص الهواء، وينقص الأوكسجين فيقل ضغطه، فتتكمش هذه الحويصلات، ويقلّ الأوكسجين فيقلّ ضغطه، فتتكمش هذه الحويصلات، وإذا انكشمت هذه الحويصلات ضاق الصّدر»<sup>(3)</sup>.

وعليه فهذه الحقيقة العلميّة وهي انخفاض الضّغط الجوّي و نقصان نسبة الأوكسجين كلّما ارتفع الإنسان في السّماء ممّا يتسبب في حدوث ضيق في صدره وانقباض في رئتيه وصعوبة في التنفس، والتي لم يتوصل إليها العلم إلا في منتصف القرن التاسع عشر، أخبر بها القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة؛ فالآية المعجزة ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ﴾ تشير صراحة إلى أنّ صدر الإنسان يضيق إذا تصاعد في السّماء، وأنّ هذا الضيق يشتدّ كلّما ازداد الإنسان في الارتفاع إلى أن يصل إلى أشدّ الضيق.

فوجه الإعجاز العلمي في الآية القرآنية هو دلالة لفظ ﴿يَصَّعْدُ﴾ على أنّ الارتفاع في السّماء يُسبّب ضيقاً في التنفس وهو ما كشفت عنه دراسات علم الفلك، والعلوم الطبيّة في عصرنا<sup>(4)</sup>.

ومنه فالعنى المعجمي والصفات الصوتيّة والخصائص الصّرفيّة لبناء ﴿يَصَّعْدُ﴾ في قوله

تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125]، عبرت بدقة عن الدلالة السياقية والمفهوم العلمي للآية.

(1)- ينظر: أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي. ص: 31.

(2)- ينظر: زغلول النجار: السماء في القرآن الكريم، ص: 403.

(\*)- صلاح الدين المغربي عضو في الجمعية الأمريكية لطب الفضاء، وأستاذ لطب الفضاء بمعهد طب الفضاء بلندن يبحث عن حالة الصدر في طبقات الجو العليا.

(3)- أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوي. ص: 43-44.

(4)- ينظر: أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي. 32-33. وينظر: يوسف الحاج أحمد: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة. ص: 349.

### المبحث الرابع:

#### السياق النحوي والحقائق العلمية في آيات خلق الإنسان والحيوان

إذا كان لأصوات اللفظ وبنية الصرْفية - كما رأينا سابقاً - دور فعّال في تحديد دلالة السياق القرآني، وتحلية معناه، وتوضيح حقيقته، فإنّ لموقع اللفظ داخل التركيب النحوي لآيات الذكر الحكيم، الدور نفسه في إبراز دلالة السياق وتوجيهه، وتقريب المعنى وإجلاله؛ ف « التراكيب النحوية هي أساس النظم وعماده، وبدقتها وجمالها يكون التناسب والتناغم بين اللفظ والمعنى، وبين المقام وما تقتضيه مقتضيات الأحوال من خصائص تلك التراكيب؛ ومن ثمّ نلاحظ الدقة والتناسب التام بين هذه التراكيب والسياق والمقام الذي وردت فيه»<sup>(1)</sup>.

وفي ما يأتي سنتناول البحث بعضاً من الظواهر النحوية في آيات الإعجاز العلمي في خلق الإنسان والحيوان، ويبيّن وظيفة السياق النحوي في تحديد وتوجيه الدلالة اللغوية والعلمية للنص القرآني.

#### المطلب الأول: دلالة حروف المعاني

من القرائن النحوية الواردة في التعبير القرآني والتي كان لها وظيفة في تحديد دلالة التركيب، وتصوير المعنى المراد بحروف المعاني؛ حيث أنّ للحروف والأدوات في اللغة العربية معانٍ ودلالات تؤدّيها في سياقها، تُستفاد من التركيب والائتلاف بين الألفاظ.

وتعدّ المعاني التي تؤدّيها تلك الحروف في الكلام معانٍ وظيفية - ولعلّ هذا المعنى هو ما يقصده النُّحاة عند تعريفهم للحرف، بأنّه لا يدلُّ على معنى مفرد، وإنّما يدلُّ على معنى في غيره -؛ فالمعنى الذي تؤدّيه هذه الحروف ليس معجمياً يستفاد من مادّتها، كمعظم الألفاظ، وإنّما يؤخذ من بنيتها. وهذه المعاني الوظيفية يُكشف عنها في مظاهرها الأصلية، حيث يذكرها النُّحاة في كتبهم<sup>(2)</sup>.

وإنّ الوظيفة الأساسية العامّة التي تشترك فيها كلُّ الأدوات هي التعلّيق؛ ف «المعاني التي تؤدّيها الأدوات جميعاً هي من نوع التّعبير عن علاقات في السياق، وواضح أنّ التّعبير عن العلاقة معنى وظيفي لا معجمي، فلا بيئة للأدوات خارج السياق؛ لأنّها ذات افتقار متأصل إلى الضّمائم أو بعبارة أخرى ذات افتقار متأصل إلى السياق»<sup>(3)</sup>. كما تحتصُّ كل طائفة من الأدوات بوظيفة خاصّة

(1) - عبد الحميد هنداوي: الإعجاز الأسلوبي في القرآن الكريم. ص: 251.

(2) - ينظر: مصطفى شعبان المصري: المناسبة في القرآن. ص: 216.

(3) - تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. ص: 127.

كالتنفي والتأكيد والاستفهام والجر، حيث تكون الأداة هي العنصر الرابطة بين أجزاء الجملة كلها حتى يمكنها عند حذف الجملة أن تؤدي المعنى كاملاً، فيكون المعنى الذي تدل عليه هذه الأدوات هو معنى الجملة كاملة وتحده القرينة بالطبع<sup>(1)</sup>. ومن بديع استعمال القرآن الكريم لتلك الحروف في آيات الإعجاز العلمي في خلق الإنسان، ومناسبتها لسياقها اللغوي والاجتماعي ما يأتي:

### 1- دلالة حرف الاستفهام "هل" في آية ما قبل إيجاد الإنسان وبدايته:

من حروف المعاني التي كثر استعمالها في النظم القرآني، وفق ما يقتضيه السياق "حروف الاستفهام" ومما حسن فيه ذلك وضع حرف الاستفهام موضع حرف آخر، ونحو ذلك ما نجده في هذه الآيات التي تصف مراحل خلق الإنسان، يقول جل من قائل: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا<sup>(1)</sup> إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا<sup>(2)</sup> إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا<sup>(3)</sup> إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَاعْلَانًا وَسَعِيرًا<sup>(4)</sup> إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا<sup>(5)</sup>﴾ [الإنسان: 1-5]، فحرف الاستفهام "هل" الذي تصدر هذه الآيات قد وضع في غير موضعه الأصلي، فما السر في ذلك؟ وما معنى ودلالة "هل" في سياق الآية؟

يصف سياق سورة "الإنسان" مراحل خلق الإنسان؛ قبل خلقه ووجوده ابتداءً، حيث مر عليه دهر طويل وهو معدوم بل ليس مذكورًا، إلى اللحظة التي انبثق فيها هذا الوجود الإنساني من إرادة الله سبحانه وتعالى فكان؛ هذه اللحظة التي أضافت إلى الكون هذه الخليفة الجديدة، المقدر أمرها في حساب الله قبل أن تكون، المحسوب دورها في خط هذا الكون الطويل. إلى دوره على مسرح الوجود؛ فيد القدرة التي دفعت بهذا الكائن الجديد إلى مسرح الحياة تهيئ له الظروف التي تجعل بقاءه وأداء دوره ممكنًا وميسورًا، وتتابعه في كل خطوة. ثم إلى خروجه من هذا المسرح الدنيوي إلى الدار الآخرة إلى نعيم أو سعير<sup>(2)</sup>. يقول السامرائي: «لو نظرنا في سياق السورة نجد أن آيات السورة تذكر الإنسان قبل وجوده وتذكره وهو نطفة أمشاج وتذكره فيما بعد كإنسان مكلف وتذكره بعد خروجه من الدنيا إلى النعيم والملك الكبير أو الأغلال والسعير، فالسورة كلها تذكره في كل مراحل الإنسان فهي بحق سورة الإنسان ولذا ناسب تسميتها سورة الإنسان»<sup>(3)</sup>.

(1) - ينظر: تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. ص: 125.

(2) - ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن. 3779/29/6.

(3) - فاضل صالح السامرائي: لمسات بيانية في سورة الإنسان. الموسوعة القرآنية، النسخة الإلكترونية، ص: 295، الموقع:

<https://quranpedia.net/ar/book/1502/1/295>

وفي تفسيرهم وتأويلهم لهذه الآيات من سورة الإنسان يرى علماءنا الأوائل أن معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:1] «قَدْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ. وَ﴿هَلْ﴾ قَدْ تَكُونُ جَحْدًا، وَتَكُونُ حَبْرًا، فَهَذَا مِنَ الْحَبْرِ؛ لِأَنَّكَ تَقُولُ: فَهَلْ وَعَظَّتْكَ؟ فَهَلْ أَعْطَيْتَكَ؟ تُفَرِّدُهُ بِأَنَّكَ قَدْ أَعْطَيْتَهُ وَوَعَظَّتَهُ. وَالْجَحْدُ أَنْ تَقُولَ: وَهَلْ يَقْدِرُ وَاحِدٌ عَلَى مِثْلِ هَذَا؟»<sup>(1)</sup>. أمَّا المراد من الإنسان المذكور في هذا الموضع فقد اختلفوا في تأويله، فقال جماعة من المفسرين: الْإِنْسَانُ هُنَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَتَى عَلَيْهِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ، لَمْ يَكُنْ شَيْئًا يُذْكَرُ. قَالَهُ قَتَادَةُ وَالثَّوْرِيُّ وَعِكْرِمَةُ وَالسُّدِّيُّ<sup>(2)</sup>. ودليلهم في ذلك أن «اللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ خَلْقَ آدَمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ثُمَّ عَقَّبَ بِذِكْرِ وَلَدِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾»<sup>(3)</sup>. ومنهم من قال الإنسان في هذا الموضع جنس بني آدَمَ - عُمُومُ الْإِنْسَانِ - أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(4)</sup>. ودليلهم في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾<sup>(5)</sup>، «فَالْإِنْسَانُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ وَاحِدٌ، وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يَكُونُ نَظْمُ الْآيَةِ أَحْسَنَ»<sup>(6)</sup>.

أمَّا في تقديرهم لـ"حين من الدهر" الذي ذكره الله في هذا الموضع ﴿حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ذكر أهل التأويل في ذلك قولين<sup>(7)</sup>:

الأول: فَمَنْ قَالَ: الْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ هُوَ آدَمُ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى، أَنْ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَتَى عَلَيْهِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ، قِيلَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً طِينًا إِلَى أَنْ نُفِخَ فِيهِ الرُّوحَ. وَرُويَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ بَقِيَ طِينًا أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَأَرْبَعِينَ مِنْ صَلْصَالٍ، وَأَرْبَعِينَ مِنْ حَمٍّ مَسْنُونٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بَعْدَ مِائَةِ وَعِشْرِينَ سَنَةً، فَهُوَ فِي هَذِهِ الْمَجْدَّةِ مَا كَانَ شَيْئًا مَّذْكُورًا.

الثاني: الذي قال: المراد بالإنسان جنس بني آدَمَ، فيكون المعنى أن الإنسان أتى عليه حين من الدهر، هو أَرْبَعُونَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ أَرْبَعُونَ يَوْمًا عَلَقَةً، ثُمَّ أَرْبَعُونَ يَوْمًا مُضَعَّةً، وَكُلُّ ذَلِكَ شَيْءٌ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَّذْكُورًا، أَيَّ ضَعِيفًا، وَكِلَاهُمَا مُحْتَمَلٌ.

(1) - أبو زكريا الفراء: معاني القرآن. 213/3.

(2) - ينظر: الطيبي: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 529/23. والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 444/21. وابن عطية: المحرر والوجيز. ص: 1928.

(3) - فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 235/30.

(4) - ينظر: الزمخشري: الكشاف. والألوسي: روح المعاني. 151/29. ابن عاشور: التحرير والتنوير. 373/29.

(5) - ينظر: الزمخشري: الكشاف. وفخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 235/30.

(6) - فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 235/30.

(7) - ينظر: فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 236-235/30. ومحمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان. 648-647/8.

إن الذي يُميّز هذه الآية الأولى من سورة الإنسان ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ هو تصدُّرها بحرف الاستفهام ﴿هَلْ﴾، الذي جاء في سياق هذه الآية بمعنى "قد"، فشكّل المحور الرئيس فيها وكشف عن عدّة معاني ودلالات لغويّة وعلميّة عظيمة. وهذا ما سنكشف عنه فيما يأتي:

كثيرًا ما تُستعمل أدوات الاستفهام « في غير الاستفهام الذي هو أصلها، فيكون استعمالها في ذلك الغير مجازًا، لمناسبة بين المعنى الأصلي وذلك الغير، مع وجود القرينة الصّارفة عن إرادة ذلك المعنى الأصلي الذي هو الاستفهام. ولذلك يُعرّف بعض الباحثين المعاصرين الاستفهام البلاغي [التحويلي] بأنّه: ذلك الاستفهام الذي لا يراد به إجابة ما، وإنما يُراد به التّعبير عن نفس القائل تعبيرًا مؤثّرًا فصيحًا، عن أغراض معينة مثل: النفي، أو التّقرير، أو التّأنيب، أو التّعظيم، أو التّشويق، أو الاستبطاء، أو الاستبعاد»<sup>(1)</sup>.

وإنّ من أحرف الاستفهام التي حدّدها النُّحاة "هل"، وقد تکرّر ذكرها في القرآني الكريم ثلاث وتسعون "93" مرة استفهامية<sup>(2)</sup>. وفي تعريفها جاء في معجم حروف المعاني أنّها: «حرف استفهام يستفهم به عن مضمون الجملة، أو أنّه كما يقول منطقة النُّحاة حرف لطلب التّصديق الإيجابي أي الحكم بالثبوت أو الانتفاء»<sup>(3)</sup>. كما عرّفها الفيروزبادي في البصائر بقوله: «هي كلمة استفهام، وقيل: حرف استخبار، أمّا على سبيل الاستفهام فذلك لا يكون من الله تعالى. وقيل: حرف موضوع لطلب التّصديق الإيجابي دون التّصوُّر ودون التّصديق السّلبي، فيمتنع نحو هل زَيْدًا ضَرَبْتَ، لأنّ تقدّم الاسم يُشعر بحصول التّصديق بنفس النّسبة»<sup>(4)</sup>.

ومن خصائص حرفيها ومعانيها الفطريّة كما يذكر حسن عبّاس<sup>(5)</sup>:

أ- "الهاء": هي مخفّف "ها" للتنبية. فمن شأن صوتها المهتز أن يُثير انتباه السّامع إلى ما سيأتي بعدها.

ب- "اللام": للإلصاق والإلزام.

ومحصلة خصائص حرفيها، تتوافق مع معانيها في الطّلب. من عيانية ووضوح وإلزام.

(1) - حسام أحمد قاسم: تحولات الطلب ومحددات الدلالة مدخل تحليل الخطاب النحوي. دار الآفاق العربية "القاهرة" ط1، 1428هـ/2007م. ص:114.

(2) - ينظر: قيس دوكس: فهرس جذور كلمات القرآن. مادة: "هل".

(3) - محمد حسن الشريف: معجم حروف المعاني في القرآن الكريم مفهوم شامل مع تحديد دلالات الأدوات. مؤسسة الرسالة: بيروت-لبنان، ط1، 1417هـ-1996م، 502/1.

(4) - الفيروزبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب): بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. تحقيق: عبد العليم الطحاوي، دار الكتب، القاهرة، مصر، دط، 1412هـ-1992م، 333/5.

(5) - ينظر: حسن عباس: حروف المعاني بين الأصالة والحداثة. اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2000. ص:148.

فهي مختصة بالتصديق فيجاء عنها بنعم أو لا. وكثيرا ما تتحوّل عن دلالتها الأصلية وهي الاستفهام إلى دلالات أخرى أشهرها: الأمر، التمني، العرض، التشويق، التعليم والإرشاد، التبكيت، الالتزام، النفي، التهويل والتعظيم، التحذير، بمعنى قد. وإن هذه المعاني ليست معاني مجردة من الاستفهام، بل يشوبها كلها معنى الاستفهام. فالتمني والأمر وغير ذلك من المعاني مشوبة بالاستفهام فلا تكون للنفي المجرد أو الأمر المجرد أو التمني المجرد<sup>(1)</sup>.

وفي الآية الكريمة ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ اتفق معربو القرآن الكريم ومفسرّوه أن ﴿هَلْ﴾ فيها أتت بمعنى "قد". فقد صرح سيبويه بأن "هل" تأتي بمعنى "قد" في موضعين من كتابه، الموضع الأول: «وتقول: أم هل فإتما هي بمنزلة "قد" ولكنهم تركوا الألف استغناء إذا كان هذا الكلام لا يقع إلا في الاستفهام»<sup>(2)</sup>. وقال في الموضع الثاني: «وكذلك "هل" إنما تكون بمنزلة "قد" ولكنهم تركوا الألف، إذ كانت "هل" لا تقع إلا في الاستفهام»<sup>(3)</sup>؛ ومعنى ذلك أن أصل الاستعمال "أهل" ولكنهم تركوا ألف الاستفهام استغناء لأن "هل" لا تقع إلا في الاستفهام<sup>(4)</sup>.

كما ذكر ابن جني في الخصائص ما معناه أن "هل" في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ للتقرير [الذي هو التحقيق والتثبيت حيث أن الاستفهام فيه لا يؤول إلى الخبر الصّرف، بل إن معناه باق في كل الحالات]، فقال: "قالوا معناه قد أتى عليه ذلك، وقد يمكن عندي أن تكون مبقاة في هذا الموضع على بابها من الاستفهام"؛ يقول: حسام أحمد قاسم: كأنه قال -والله أعلم- هل أتى على الإنسان هذا؟ فلا بدّ في جوابه من نعم ملفوظاً أو مقدراً أي: فكما أن ذلك كذلك فينبغي للإنسان أن يحتقر نفسه، ولا يأبى بما فتح له<sup>(5)</sup>.

وذهب الألوسي إلى أن "هل" في الآية بمعنى "قد" على معنى التقرير والتقريب، والمقصود من معنى التقريب: «تقريب الماضي من الحال فلما سَدَّتْ هَلْ مَسَدَّ الهَمْزَةِ دَلَّتْ عَلَى مَعْنَاهَا وَمَعْنَى الهَمْزَةِ مَعًا ثُمَّ صَارَتْ حَقِيقَةً فِي ذَلِكَ للتقرير والتقريب»<sup>(6)</sup>. كما جاء في تفسيره أن هناك «من حملها على معنى التحقيق وقال أبو عبيدة: مجازها قد أتى على الإنسان وليس باستفهام وكأنه أراد ليس

(1) ينظر: فاضل صالح السامرائي: معاني النحو. 613/4-615.

(2) سيبويه: الكتاب، 54/1. نقلا عن: محمد عبد الخالق عزيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم. ص: 479.

(3) سيبويه: الكتاب، 492/1. نقلا عن: محمد عبد الخالق عزيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم. ص: 479.

(4) ينظر: فاضل صالح السامرائي: معاني النحو. ص: 618/4.

(5) ينظر: حسام أحمد قاسم: تحولات الطلب ومحددات الدلالة مدخل تحليل الخطاب النحوي. ص: 219.

(6) الألوسي: روح المعاني. 150/29.

بِاسْتِفْهَامٍ حَقِيقَةً وَإِنَّمَا هِيَ لِإِسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِيِّ»<sup>(1)</sup> .

كما ذهب بعضهم إلى أنها بمعنى "قد" على معنى التوبيخ، لمن استعظم أن يبعث بعد الموت فقيل لهم هل علمتم أن الإنسان أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً كذلك يعيده بعد موته<sup>(2)</sup> . كما قال بعضهم أن «معناها التوقع، كأنه قيل لقوم يتوقعون الخبر عن ما أتى على الإنسان/ وهو آدم. والحين: زمن كان طيناً»<sup>(3)</sup> .

إذاً فمن دلالات "هل" التي جاءت في الآية على معنى "قد" وأقرها العلماء: التقرير، والتقريب، والتحقق، والتوقع، والتوبيخ، ولكن يبقى من الاستفهام ما بقي للدلالة على هذه المعاني؛ فإنها ليست بمعنى "قد" تماماً بل هي لا تزال استفهامية. ولكنها قد تخرج إلى معنى قريب من الإخبار. يقول السامرائي: «إن المقصود من أمثال هذا التعبير إشراك المخاطب في الأمر ليقرر ويجيب بنفسه في حين لو ذكره بصورة الخبر لكان إخباراً من قبل المتكلم نفسه، فقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ يشرك المخاطبين في الأمر ويطلب منهم الإجابة عن هذا السؤال ولو أجابوا لقالوا: نعم أتى ذلك على الإنسان. فالفرق بين "قد أتى على الإنسان حين من الدهر" و"هل أتى على الإنسان حين من الدهر" أن المتكلم في الأولى قرّر هذا الأمر ابتداءً وأخبر به، وفي الثانية عرضه بصيغة السؤال يقرره المخاطب بنفسه. فبدل أن يقوله المتكلم ابتداءً يكون المخاطب مشاركاً في إصدار الحكم»<sup>(4)</sup> .

كما يقول صاحب الظلال: «هذا الاستفهام في مطلع السورة إنما هو للتقرير؛ ولكن وروده في هذه الصيغة كأنما ليسأل الإنسان نفسه: ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً؟ ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتملاًها؟ ثم ألا يفعل تدبرها في نفسه شيئاً من الشعور باليد التي دفعته إلى مسرح الحياة، وسلطت عليه النور، وجعلته شيئاً مذكوراً بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً؟ إنما إجابات كثيرة تنبض من وراء صيغة الاستفهام في هذا المقام. وهي إجابات رقيقة وعميقة تنير في النفس تأملات شتى»<sup>(5)</sup> .

(1)- الألويسي: روح المعاني. 151/29.

(2) - ينظر: عرفات فيصل المتاع: السباق والمعنى - دراسة في أساليب النحو العربي. مؤسسة السياب للطباعة والنشر، لندن، ط1، 2013م، ص: 221.

(3)- الفيروزبادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. 335/5.

(4)- فاضل صالح السامرائي: معاني النحو. ص: 619/4-620.

(5)- سيد قطب: في ظلال القرآن. 3779/29/6.

إنَّ حقيقة وجود الإنسان من عدم قد وقف عندها حديثًا الكثير من العلماء، وبحثوها بالتفصيل، وأفترت الحقائق العلميَّة بعد بحث عميق طويل بأنَّ: الإنسان يُمثَّل آخر صورة من صور الحياة الأرضية خلَقًا، وأنَّ خلقه جاء بعد خلق الكون وكوكب الأرض وجميع صور الحياة الأخرى<sup>(1)</sup>.

فقد أثبتت العلوم المكتسبة (علوم الأرض والفضاء) « أننا نحيا في كون يقدر عمره بأكثر من عشرة آلاف مليون سنة، وعلى أرض يقدر عمرها بأكثر من أربعة آلاف وستمئة مليون سنة، وأن أقدم أثر للحياة على الأرض يعود إلى ثلاثة آلاف وثمانمائة مليون سنة مضت، وقد وجد هذا الأثر على هيئة جزيئات لمركبات عضوية متأحفرة تشبه العديد من الخلايا الحيَّة المعاصرة، وقد اكتشفت هذه البقايا في صخور جزيرة جرينلاند في سنة 1978م بواسطة "سيرل بونامبروما - Cyril Ponnampuruma" الأستاذ بجامعة ميريلاند الأمريكية. وقد أدَّى هذا الكشف إلى اعتبار الفترة من 4.6 بلايين سنة مضت إلى 3.8 بلايين سنة مضت وقدرها 800 مليون سنة فترة إعداد الأرض لاستقبال الحياة، ويطلق عليها اسم زمان أو "أبد انعدام الحياة - The Azoic Eon" «<sup>(2)</sup>. فأقدم أثر للإنسان على الأرض لا يتعدَّى المائة ألف سنة، وأنَّ خلق الأحياء الأخرى قد سبق خلق الإنسان بقرابة الأربعة ملايين من السنين<sup>(3)</sup>.

وعليه، وممَّا سبق نستنتج أنَّ: أداة الاستفهام "هل" التي تصدَّرت سورة الإنسان قد جمعت بين دلالة التَّقرير والاستفهام معًا، فقرَّرت حقيقة أنَّ الإنسان قد أتى عليه حين من الدَّهر لم يكن شيئًا مذكورًا، ودعته في الوقت ذاته ليسأل نفسه عن هذه الحقيقة؛ حقيقته وحقيقة هذا الكون قبل أن يكون، وأن يتأمَّل في ذاته عن وجوده وغايته في الحياة، ومآله وجزاؤه بعد رحيله منها إلى الدَّار الآخرة.

(1) - ينظر: زغلول النجار: مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. ص:333.

(2) - زغلول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. ص:245.

(3) - ينظر: المصدر نفسه. ص:243.

## 2- دلالة حرف الجواب "بلى" في آية إعادة نشأة الإنسان وبعثه:

ومن أمثلة حروف المعاني -أيضا- في آيات الإعجاز العلمي في خلق الإنسان حرف الجواب "بلى" الذي جاء في سياق يتضمن الحديث عن يوم القيامة والنفس البشرية، ومشهد النشأة الأخرى في قوله تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ۝٢﴾ **يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣﴾ بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَيَّ ۝٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥﴾ **يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۝٦﴾ [القيامة: 1-6]**، فما الدلالة اللغوية لحرف الجواب ﴿بلى﴾ في سياق هذه الآيات؟ وما وجه الإعجاز العلمي فيها؟**

لقد جاءت هذه الآيات في مستهل سورة القيامة، هذه السورة التي قال عنها صاحب الظلال بأنها: «تحشد على القلب البشري من الحقائق والمؤثرات والصُّور والمشاهد، والإيقاعات واللمسات، ما لا قبل له بمواجهته ولا التفلت منه.. تحشدها بقوة، في أسلوب خاص، يجعل لها طابعا قرآنيًا مميزًا، سواء في أسلوب الأداء التعبيري، أو أسلوب الأداء الموسيقي، حيث يجتمع هذا وذلك على إيقاع تأثير شعوري قوي، تصعب مواجهته ويصعب التفلت منه أيضا!»<sup>(1)</sup>.

فقد ساد السورة جوُّ الرهبة والتَّحذير، واستعملت ألفاظا قويَّة وأساليبا بالغة الدقة وذلك ردًّا على الكافرين والمنكرين والجاحدين بيوم القيامة، والتي كانت حُججهم ولا تزال عند بعضهم، تدور في حلقة واحدة هي: كيف تُجمع عظامنا وتُنشأ أجسامنا بعدما صارت تُرابا وعظامًا نخرة بالية؟ فقد «كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هي صعوبة تصوُّرهم لجمع العظام البالية، الذاهبة في التراب، المتفرقة في الشرى، لإعادة بعث الإنسان حيًّا! ولعلَّها لا تزال كذلك في بعض النفوس إلى يومنا هذا! والقرآن يردُّ على هذا الحسبان بعدم جمع العظام مؤكِّدا وقوعه: (بلى! قادرين على أن نسوي بنانه).. والبنان أطراف الأصابع؛ والنص يؤكد عمليَّة جمع العظام، بما هو أرقى من مجرد جمعها، وهو تسوية البنان، وتركيبه في موضعه كما كان! وهي كناية عن إعادة التكوين الإنساني بأدق ما فيه، وإكمالها بحيث لا تضيع منه بنان، ولا تختلُّ عن مكانها، بل تُسوى تسويَّة، لا ينقص معها عضو ولا شكل هذا العضو، مهما صغر ودق!»<sup>(2)</sup>.

وفي تفسيرهم لهذه الآية المعجزة ﴿بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ **﴿انقسم علماؤنا الأوائل إلى مذهبين﴾**<sup>(3)</sup>:

(1)- سيد قطب: في ظلال القرآن. 3766/29/6

(2)- المصدر نفسه. 3768/29/6-3769.

(3)- ينظر: ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير. 417/8. فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 217/30.

أحدهما: أَنْ يُجْعَلَ أَصَابِعُ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ شَيْئًا وَاحِدًا كَخُفِّ البَعِيرِ، وَحَافِرِ الحِمَارِ، صَفِيحَةً وَاحِدَةً لَا شُقُوقَ فِيهَا، فَلَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا فِي الأَعْمَالِ اللِّطِيفَةِ كَالكِتَابَةِ وَالحِيَاظَةِ وَنَحْوِهَا، وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ المُفَسِّرِينَ.

والثاني: نَقْدِرُ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بِنَانَهُ كَمَا كَانَتْ ، وَإِنْ صَعُرَتْ عِظَامُهَا ؛ فَجَمَعَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَتَرَدَّدَا كَمَا كَانَتْ مَعَ لَطَافَتِهَا وَصِغَرِهَا، وَمَنْ قَدَّرَ عَلَى جَمْعِ صِغَارِ العِظَامِ، كَانَ عَلَى جَمْعِ كِبَارِهَا أَقْدَرَ، فَنَبَّهَ سُبْحَانَهُ بِالبِنَانِ، وَهِيَ الأَصَابِعُ عَلَى بَقِيَّةِ الأَعْضَاءِ، أَيْ نَقْدِرُ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بِنَانَهُ بَعْدَ صَيْرُورَتِهِ ثُرَابًا كَمَا كَانَ، وَتَحْقِيقُهُ أَنَّ مَنْ قَدَّرَ عَلَى الشَّيْءِ فِي الإِبْتِدَاءِ قَدَّرَ أَيْضًا عَلَيْهِ فِي الإِعَادَةِ وَإِنَّمَا خُصَّ البِنَانُ بِالدُّكْرِ لِأَنَّهُ لَأَجْرُ مَا يَتِمُّ خَلْقُهُ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ قُتَيْبَةَ، وَالرَّجَّاحِ.

إِنَّ مِمَّا يَمَيِّزُ السِّيَاقَ النَّحْوِيَّ لِهَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ ﴿بَلَى قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ تُسَوَّى بِنَانُهُ﴾ هُوَ ابْتِدَائُهَا بِحَرْفِ الجَوَابِ "بلى"، الَّذِي وَقَعَ جَوَابًا لِاسْتِفْهَامِ سَابِقٍ وَأَضْفَى عَلَى سِيَاقِ الآيَةِ دَلَالَاتٍ لُغَوِيَّةً أُخْرَى، وَفِي تَعْرِيفِ "بلى" وَأَصْلِهَا وَاسْتِعْمَالِهَا ذَكَرَ بَعْضُ اللُّغَوِيِّينَ وَالنُّحَاةِ أَهْمًا: «حرف جواب، لنفي أمر سابق عليها»<sup>(1)</sup>، أَوْ هِيَ «حرف جواب، يرد بعد النفي لإبطاله»<sup>(2)</sup>. وَ"بلى" مِنْ حَيْثُ الأَصْلُ حَرْفٌ ثَلَاثِي الوَضْعِ «أصلي الألف، وقيل: إنَّ الأَصْلُ "بل"، والألف فيها زائدة، ومنهم من يرى أنَّهَا لِلتَّأْنِيثِ، وَيَدُلُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِإِمَالَتِهَا»<sup>(3)</sup>.

وَفِي الفَرْقِ بَيْنَ "بلى" وَ"نعم" جَاءَ فِي مَعْجَمِ الفُرُوقِ اللُّغَوِيَّةِ: «أَنَّ "بلى" لَا تَكُونُ إِلاَّ جَوَابًا لِمَا كَانَ فِيهِ حَرْفٌ جَحَدٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: 172]، وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [النمر: 71]، ثُمَّ قَالَ فِي الجَوَابِ: ﴿قَالُوا بَلَى﴾ [النمر: 71]، وَنَعَمْ لَا تَكُونُ لِلاِسْتِفْهَامِ بِلَا جَحَدٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: 44]، وَكَذَلِكَ جَوَابُ الخَبَرِ إِذَا قَالَ قَدْ فَعَلْتَ ذَلِكَ قُلْتُ نَعَمْ لِعَمْرِي قَدْ فَعَلْتَهُ، وَقَالَ الفَرَّاءُ وَإِنَّمَا امْتَنَعُوا أَنْ يَقُولُوا فِي جَوَابِ الجَحودِ نَعَمْ لِأَنَّهُ إِذَا قَالَ الرَّجُلُ مَالِكُ عَلِيٍّ شَيْءٌ فَلَوْ قَالَ الآخِرُ نَعَمْ كَانَ صَدَقَهُ كَأَنَّهُ قَالَ نَعَمْ لَيْسَ لِي عَلَيْكَ شَيْءٌ وَإِذَا قَالَ بلى فَإِنَّمَا هُوَ رَدٌّ لِكَلَامِ صَاحِبِهِ أَيْ بلى لِي عَلَيْكَ شَيْءٌ فَلِذَلِكَ اخْتَلَفَ بلى وَنَعَمْ»<sup>(4)</sup>. فَـ"بلى" «تَشْبَهُ "نعم" مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا حَرْفَ جَوَابٍ، إِلاَّ أَنَّ "نعم" تَأْتِي فِي سِيَاقِ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ، فَهِيَ مُفَرِّرَةٌ لِمَا قَبْلَهَا؛ أَمَّا "بلى" فَلَا تَأْتِي إِلاَّ بَعْدَ نَفْيٍ، فَتَجِيءُ جَوَابًا لِكَلَامٍ فِيهِ نَفْيٌ؛ وَفِي

(1) - محمد حسن الشريف: معجم حروف المعاني في القرآن الكريم مفهوم شامل مع تحديد دلالة الأدوات. 502/1.

(2) - معجم اللغة العربية. مادة: "بلى".

(3) - علي جاسم سلمان: موسوعة معاني الحروف العربية. دار أسامة للنشر والتوزيع. الأردن-عمان، دط، 2003م، ص: 79.

(4) - أبو الهلال العسكري: الفروق اللغوية. تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والنشر، القاهرة، مصر، دط، ص: 66-67.

ذلك تفصيل:

- فإذا كان هذا النفي مجرداً، أي غير مقترن باستفهام، كانت "بلى" جواباً للنفي المجرد.
- وإذا اقترن النفي بالاستفهام، كانت "بلى" جواباً لهذا الاستفهام<sup>(1)</sup>.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجد أن «بلى» وردت في اثنين وعشرين موضعاً، في ستة عشر سورة حرف جواب<sup>(2)</sup>، كما وردت بمعنيين<sup>(3)</sup>:

الأول: جاءت فيه جواباً للنفي المجرد في عدد من المواضع. نحو قوله تعالى: ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يَعْثُوا قُلُوبَ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:7]، فهي جواب لقولهم: لن يبعثوا. الثاني: جاءت فيه جواباً لاستفهام سابق. كقوله تعالى: ﴿كَلَّمَآ أَلْفِيٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمُ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك:8-9]، أي قد جاءنا، ولو قالوا: نعم، لكان المعنى: نعم، لم يأتنا. ولما كانت مواضع الاستفهام في القرآن الكريم مصروفة إلى معان أخرى، غير الاستفهام الحقيقي، كالتقرير والإنكار والتوبيخ وغيرها، كانت "بلى" جواباً لهذه المعاني.

وفي الآية التي نحن في صددنا من قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ يَجْمَعُ عِظَامَهُ﴾<sup>(٢)</sup> بلى قديرين على أن نسوي بآئنه. وقعت "بلى" جواباً لاستفهام دخل على نفي، فتفيد بذلك الإثبات والتصديق لما قبلها، قال الجمهور: التقدير بل نحييها قادرين، لأنَّ الحسبان إنما يقع من الإنسان على نفي جمع العظام، و"بلى" إثبات فعل النفي، فينبغي أن يكون الجمع بعدها مذكوراً على سبيل الإيجاب<sup>(4)</sup>. كما أفادت "بلى" التقرير والتوبيخ لما سبقها فـ« قَوْلُهُ: (أَلَيْسَ) اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرٌ وَتَوْبِيخٌ، حَيْثُ يُنْكَرُ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَىٰ إِعَادَةِ الْمَعْدُومِ. وَ(بَلَىٰ): جَوَابٌ لِلاِسْتِفْهَامِ الْمُنْسَجِبِ عَلَى النَّفْيِ، أَي: بَلَىٰ جَمْعُهَا. وَذَكَرَ الْعِظَامَ، وَإِنْ كَانَ الْمَعْنَى إِعَادَةَ الْإِنْسَانِ وَجَمْعَ أَجْزَائِهِ الْمُنْتَفِرَّةِ؛ لِأَنَّ الْعِظَامَ هِيَ قَالِبُ الْخَلْقِ»<sup>(5)</sup>، «ومن البديهي أن دلالة اعتقاد الإنسان نفي حدث جمع العظام هي دلالة مستقبلية لا يمكن حصولها لدخول أداة النفي "لن" على الفعل المضارع "يجمع"، فضلاً عن دلالتها النحوية

(1) - محمد حسن الشريف: معجم حروف المعاني في القرآن الكريم. 502/1.

(2) - ينظر: فيس دوكس: فهرس جذور كلمات القرآن. مادة: "بلى".

(3) - ينظر: محمد حسن الشريف: معجم حروف المعاني في القرآن الكريم. 502/1.

(4) - ينظر: محمد الدسوقي: أثر الابتداء بحروف المعاني والوقف عليها في بلاغة المعنى القرآني واتساعه. مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية. العدد الرابع، ذو الحجة 1438هـ. ص: 86.

(5) - أبو حيان: تفسير البحر المحيط. 376/8.

"النصب"، وقد أفادت "بلى" توبيخ من ينكر هذا الأمر»<sup>(1)</sup>.

وعليه فـ"بلى" في هذه الآية الكريمة ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلٰٓىٰ اَنْ تُسَوِّىَ بَنَاهُ﴾ «حرف ردٌّ للنفي الذي جاء في الآية السابقة ﴿اَلَنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ﴾ وإلغاء له، وهو جواب للتحقيق يوجب ما جاء في تلك الآية السابقة بمعنى أن الله تعالى قادر على جمع العظام بعد تحليلها، بل هو "سبحانه وتعالى" قادر على ما هو فوق ذلك، ألا وهو إعادة تسوية بنان الميت عند بعثه، بتفاصيل بصمته التي ميزته طيلة حياته عن غيره من بني جنسه، والتي تمثل الخاتم الذي ختم به بناء جسده وهو لم يزل جينياً في بطن أمه لم يتجاوز الشهر الثالث من عمره»<sup>(2)</sup>.

إن الإشارة إلى تسوية بنان الإنسان في القرآن الكريم معجزة كبرى ميّز وكرّم الله بها الإنسان، وحقيقة علمية لم يكن أحد يلتفت إليها وإلى أهميتها؛ فإنه لم يكن في حسابان العرب الأوائل حينما نزلت عليهم هذه الآية، وليس بمقدورهم أن يتوصلوا إلى سرّ هذه الآية، وبالرغم من «محاولات المفسرين إلقاء الضوء على البنان وإبراز جوانب الحكمة والإبداع في تكوين رؤوس الأصابع من عظام دقيقة وتركيب الأظافر فيها ووجود الأعصاب الحساسة وغير ذلك، إلا أن الإشارة الدقيقة لم تُدرك إلا في القرن التاسع عشر الميلادي، عندما اكتشف عالم التشريح التشيكي "بركنجي" (Purkinje) أن الخطوط الدقيقة الموجودة على البشرة في رؤوس الأصابع تختلف من شخص لآخر، حيث وجد ثلاثة أنواع من هذه الخطوط فهي تكون إما على شكل أقواس أو دوائر أو عقد، أو على شكل رابع يدعى المركبات وذلك لتكوينها من أشكال متعددة.

وفي سنة 1858م أشار العالم الإنكليزي "وليم هرشل" (William Herschel) إلى اختلاف البصمات باختلاف أصحابها، مما يجعلها دليلاً مميزاً لكل شخص»<sup>(3)</sup>.

ومنذ ذلك الحين من اكتشاف البصمات أخذ العلماء بإجراء دراسات على أعداد كبيرة من الناس من مختلف الأجناس فلم يعثر على مجموعتين متطابقتين أبداً، وقد ثبت أنه لا يمكن لبصمة أن تتطابق وتتماثل في شخصين في العالم حتى التوائم المتماثلة التي أصلها بويضة واحدة، بل لا يمكن لها أن تتطابق بين أصبعين من أصابع اليد الواحدة أو القدم الواحد في الفرد الواحد، ثم وصلوا بعد

(1) - ستار جبار هاشم: السياق الدلالي لحروف الجواب في القرآن الكريم "بلى" و"تتعم" أنموذجاً. مجلة المصباح، العدد: 25، ربيع: 2016م-1436هـ. ص: 368.

(2) - زغلول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن. 233/4.

(3) - أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 397-398.

بحوث عميقة إلى مجموعة من الحقائق العلمية نذكر منها<sup>(1)</sup>:

- \* يتم تكوين بصمات البنان عند الجنين في الشهر الرابع، وتظل ثابتة ومميزة طوال حياته.
- \* البصمات هي تسجيل للتعرجات التي تنشأ من التحام طبقة الأدمة مع البشرة.
- \* تختلف هذه التعرجات من شخص إلى آخر، فلا تتوافق ولا تتطابق أبدًا بين شخصين.
- \* أصبحت بصمات الأصابع الوسيلة المثلى لتحديد هوية الأشخاص.
- \* البصمات هي صفات فردية محضة لا تورث، ولا تتأثر بعامل النسب، ومن هنا كانت أهميتها في مجال تحقيق الشخصية.
- \* يمكن استخدام البصمات في التعرف على شيء من صفات تلك الشخصية من مثل الجنس "ذكر أم أنثى"، والعمر، والحالة الصحية، والحجم، والمهنة، وغير ذلك.
- \* البصمات تترك آثارها على كل جسم تلمسه، سواء كان هذا الجسم ذا سطح خشن أو أملس.

وبذلك عُدَّت بصمات الأصابع الدليل القاطع والمميز لتحديد شخصية الإنسان، والوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه الشخصية، فأصبح معمولاً بها في كل بلاد العالم ويعتمد عليها المحققون في القضايا الجنائية، وتتبع العديد من المجرمين، ومعرفة تفاصيل حدوث الجريمة.

وعليه، ومما سبق نستنتج أن: في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَن سُويَ بَنَانُهُ﴾ إجابة صريحة للكافرين المنكرين للبعث والنشور؛ أنه سبحانه وتعالى القادر على تسوية بنان الإنسان الحي، قادر على تسوية بنان الميت عند بعثه بعد أن كان جسده قد تحلل واختلط بالتُّراب وصار جزءاً منه؛ قادر على تسوية هذا البنان الدقيق الذي يُعرَّف على صاحبه والذي يميِّز كل إنسان عن الآخر مهما حصل له من حوادث.

وبذلك أكَّدت الآية الكريمة حتمية إعادة بصمة كل بنان، هذه الحقيقة المدية العلمية الثابتة في جسم كل إنسان، والتي لم يكتشفها العلم إلا في العصر الحديث.

(1) - ينظر: زغلول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن. 234/4-236. وينظر: أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 396-397.

### المطلب الثاني: دلالة الحذف والذكر

يعدُّ الحذف من أبرز القرائن النَّحْوِيَّة التي تُضفي على النَّصِّ دلالات وإجاءات قد لا تُظهر مع الذِّكر، فهو كما يقول عبد القاهر الجرجاني: «باب دقيق المسلك، لطيفُ المآخذ، عجيبُ الأمر، شبيه بالسُّحر، فإنَّك ترى به ترك الذِّكر أفصح من الذِّكر والصَّمْت عن الإفادة أزيد في الإفادة وتحدك أنطق ما تكونُ إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تبين»<sup>(1)</sup>.

وللحذف في اللُّغة معانٍ عديدة أهمُّها القطع والإسقاط: «حَدَفَ الشَّيْءَ يَحْدِفُهُ حَدْفًا: قَطَعَهُ مِنْ طَرَفِهِ... وَحَدَفُ الشَّيْءِ إِسْقَاطُهُ»<sup>(2)</sup>. أمَّا اصطلاحاً فقد عرّفه الزُّركشي بقوله: «إسقاط جزء من الكلام أو كُلهُ لدليل»<sup>(3)</sup> يدلُّ عليه. كما يُعرّف الحذف في علم اللُّغة الحديث بأنّه: «التَّعبير عن المعاني الكثيرة في عبارة أقلَّ منها، بحذف شيء من التَّركيب مع عدم الإخلال بالمعنى، فإن لم يفِ اللَّفظ بالمعنى كان إخلالاً»<sup>(4)</sup>.

والحذف نوعان: إمَّا إجباري تقتضيه الصَّنعة النَّحوية، وإمَّا اختياري يحتمل معه ذكر اللَّفظ وحذفه. ويُعدُّ الحذف أبلغ من الذِّكر، لاسيما إن كان يرجع إلى سبب دلالي<sup>(5)</sup>، يقول الرماني: «والحذف أبلغ من الذِّكر؛ لأنَّ الذِّكر يقتصر على وجه، والحذف يذهب فيه الوهم إلى كل وجه من وجوه التَّعظيم لما تضمَّنه من التَّفخيم»<sup>(6)</sup>.

وإذا تأملنا آيات القرآن الكريم نجد في كثير من الأحيان يؤثر حذف اللَّفظ على ذكره، خاصَّة إذا اقتضى السِّياق ذلك. ومن أمثلة الحذف في آيات الإعجاز العلمي ما يأتي:

#### 1- دلالة حذف الفاعل في آية التَّفكير في خلق الإبل:

من آيات الإعجاز العلمي في خلق الحيوان التي كان لحذف الفاعل فيها دلالة قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:17]. فما دلالة الحذف في هذه الآية؟ وما وجه الإعجاز العلمي فيها؟

(1)- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص: 152.

(2)- ابن منظور: لسان العرب. مادة: "ح د ف".

(3)- الزُّركشي: البرهان في علوم القرآن. 102/3.

(4)- أمل حامد بدر: ملامح أسلوبية في سورة القيامة. مجلة آداب البصرة، جامعة البصرة، عدد: 2013/66، ص: 128.

(5)- ينظر: مصطفى شعبان المصري: المناسبة في القرآن. ص: 254.

(6)- الرماني: النكت في إعجاز القرآن. ص: 106. وينظر: مصطفى شعبان المصري: المناسبة في القرآن. ص: 254.

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق عام يوجّه فيه الله تبارك وتعالى أنظار المخاطبين إلى التدبّر والتفكّر في عظيم خلقه، الدال على كمال قدرته وعظمته، وحسن تدبيره وتقديره، حيث يقول:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: 17-20].

فقد جمعت هذه الآيات الأربع القصار، أطراف الخلائق البارزة في الكون كلّ، السماء والأرض والجبال والجمال "ممثلة لسائر الحيوان" على مزيّة خاصّة بالإبل في خلقها بصفة عامّة وفي قيمتها للعربي بصفة خاصّة.

إنّ هذه المشاهد معروضة لنظر الإنسان حيثما كان، وأياً كان حظّه من العلم والحضارة فهذه المشاهد داخلية في عالمه وإدراكه، موحية له بما وراءها حين يوجّه نظره وقلبه إلى دلالتها.

والمعجزة كامنة في كلّ منها، وصنعه الخالق فيها معلمة لا نظير لها، وهي وحدها كافية لأن توحى بحقيقة العقيدة الأولى، ومن ثم يوجه القرآن الناس كافّة إليها<sup>(1)</sup>.

في مستهلّ هذه الآيات أوّل ما وُجّه النَّظَرُ إليه، تدبّر خلق الإبل هذا الحيوان العربي الأوّل؛ « عليها يسافر ويحمل، ومنها يشرب ويأكل، ومن أوبارها وجلودها يلبس وينزل، فهي مورده الأول للحياة، ثم إنّ لها خصائص تفردها من بين الحيوان، فهي على قوّتها وضخامتها وضلاعة تكوينها ذلول يقودها الصّغير فتتقاد، وهي على عظم نفعها وخدمتها قليلة التكاليف، مرعاها ميسر، وكلفتها ضئيلة، وهي أصبر الحيوان المستأنس على الجوع والعطش والكدر وسوء الأحوال»<sup>(2)</sup>.

لذا فقد أفرد العرب للإبل الكثير من الاهتمام في حياتهم اليومية، وفي أشعارهم ونصوصهم، كما خصّصوا لها العديدة من الأسماء. والإبل « اسمٌ جمعٌ واحدُه: بعير وناقَة وجمال. وهو مؤنثٌ، ولذلك تَدْخُلُ عليه تاءُ التانيثِ حالَ تصغيره، فيقال: أُبَيْلَةٌ ويُجْمَعُ آبال، واشتُقُّوا مِنْ لفظه. فقالوا: «تأبَلَّ زَيْدٌ»، أي: كَثُرَتْ إِبِلُهُ، وتَعَجَّبُوا مِنْ هذا فقالوا: «ما آبَلُهُ»، أي: ما أَكْثَرَ إِبِلَهُ»<sup>(3)</sup>. وفي القرآن الكريم نجد ألفاظ الإبل قد تكرر ذكرها إحدى عشر مرّة؛ مرّتين بلفظ الإبل: في [الأنعام 144] و[الغاشية: 17]. ومرّة بلفظ الجمال: في [الأعراف: 40]، وست مرّات بلفظ الناقة: مرّتين معرفة

(1) - ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن. 3898/30/6.

(2) - المصدر نفسه. 3898/30/6.

(3) - السمين الحلبي أحمد بن يوسف ت756هـ: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون. تحقيق أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، سورية، دط، 770/10.

في [الإسراء:59]، و [القمر:27]، وأربع مرّات نكرة في: [الأعراف:73]، [هود:64]، [الشعراء:155] [الشمس:13]، ومرّتين بلفظ بعير: في سورة [يوسف: 65، 72].

وفي تفسير هذه الآية المعجزة ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ذكر الطبري: «أفلا ينظر هؤلاء المنكرون قدرة الله على هذه الأمور، إلى الإبل كيف خلقها وسخّرها لهم ودلّلها وجعلها تحمل حملها بركة، ثم تنهض به، والذي خلق ذلك غير عزيز عليه أن يخلق ما وصف من هذه الأمور في الجنة والنار، يقول جلّ ثناؤه: أفلا ينظرون إلى الإبل فيعتبرون بها، ويعلمون أن القدرة التي قدر بها على خلقها، لن يعجزه خلق ما شابهها. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»<sup>(1)</sup>.

كما جاء في الكشاف «أفلا ينظرون إلى الإبل نظر اعتبار كيف خلقت خلقا عجيبا، دالّا على تقدير مقدر، شاهدا بتدبير مدبر، حيث خلقها للنهوض بالانتقال وجرّها إلى البلاد الشاحطة (البعيدة) فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت، وسخّرها منقاداً لكل من اقتادها بأزمته: لا تعاز ضعيفاً ولا تمنع صغيراً، وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار»<sup>(2)</sup>.

وقد أجمع المفسرون أنّ الغاية من ذكر هذه الآية في سياق سورة الغاشية ما يأتي<sup>(3)</sup>:  
 أولاً: لِيَسْتَدِلُّوا بِمَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَحْدَانِيَّتِهِ.  
 ثانياً: لِيَعْلَمُوا بِقُدْرَتِهِ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى بَعْثِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.  
 ثالثاً: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا نَعَتَ لَهُمْ مَا فِي الْجَنَّةِ عَجَبَ مِنْهُ أَهْلُ الضَّلَالَةِ، فَذَكَرَ لَهُمْ ذَلِكَ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْعَجَابِ لِيُرُوْلَ تَعَجُّبُهُمْ.

أمّا في تأويلهم لدلالة لفظة "الإبل" في الآية، يقول قتادة فيها وجهان<sup>(4)</sup>:  
 أحدهما: وهو أظهرهما وأشهرهما: أنّها الإبل من النعم.  
 الثاني: أنّها السحاب، فإن كان المراد بها السحاب فلما فيها من الآيات الدالة على قدرة الله والمنافع العامة لجميع خلقه. وإن كان المراد بها من النعم فإنّ الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوانات، لأنّ ضرّوبه أربعة: حلّوبه، وركّوبه، وأكّولة، ومحمولة والإبل تجتمع هذه الخلال الأربع، فكانت النعمة بها أعمّ، وظهور القدرة فيها أتمّ.

(1)- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 338/24.

(2)- الزمخشري: الكشاف. 365/6.

(3)- ينظر: الماوردي: تفسير الماوردي. 262/6.

(4)- ينظر: المصدر نفسه. 262/6.

وفي تخصيص ذكر الإبل في هذه الآية من بين سائر الحيوانات يقول ابن الجوزي: «قال العلماء: وإنما خصَّ الإبل من غيرها لأنَّ العرب لم يروا بهيمة قطُّ أعظم منها، ولم يُشاهدوا الفيل إلا الشاذَّ منهم، ولأنَّها كانت أنفَسَ أمواليهم وأكثرها، لا تُفارقهم ولا يُفارقونها، فيلاحظون فيها العبر الدالة على قدرة الخالق، من إخراج لبنها من بين فرثٍ ودمٍ [و] من عجيب خلقها، وهي على عظمها مُدَلَّلةٌ لِلحِمْلِ الثَّقِيلِ، وتَنقِذُ لِلصَّيِّبِ الصَّغِيرِ، وليس في ذوات الأربَع ما يُحْمَلُ عَلَيْهِ وقْرُهُ وهو بارِكٌ فيطيقُ التُّهُوضَ بِهِ سِوَاهَا» (1).

أمَّا في تميُّز الإبل في خلقها عن غيرها من الحيوانات، يذكر الرازي مجموعة من الخواص التي تجعلها متفردة ومميَّزة عن غيرها (2):

أولها: أنَّ الله جلَّ ذكره جعلَ الحيوانَ الَّذي يُفْتَنَى أصنافًا شتى، فتارةً يُفْتَنَى لِيُؤْكَلَ لحمُهُ وتارةً لِيُشْرَبَ لبنُهُ وتارةً لِيَحْمَلَ الإنسانَ في الأسفارِ وتارةً لِيُنْقَلَ أمتعةُ الإنسانِ من بلدٍ إلى بلدٍ وتارةً لِيَكُونَ لَهُ بِهِ زينةٌ وجمالٌ، وهذه المنافع بأسرها حاصلةٌ في الإبل، وقد أبان الله عزَّ وجلَّ عن ذلك بقوله: ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعمًا فهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُفُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس: 71-72]، وقال: ﴿وَالآنَعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أُنْفَالَكُمْ إِلَى بِلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: 5-7]، وإنَّ شيئًا من سائر الحيوانات لا يجتمع فيه هذه الخصال فكان اجتماع هذه الخصال فيه من العجائب.

وثانيها: أنَّه في كلِّ واحدٍ من هذه الخصال أفضلٌ من الحيوان الذي لا يوجد فيه إلا تلك الخصلة لأنها إن جعلت حلوبةً سقت فأزوت الكثير، وإن جعلت أكلةً أطعمت وأشبعت الكثير، وإن جعلت ركوبةً أمكن أن يُقَطَّعَ بها من المسافات المديدة ما لا يمكن قطعُه بحيوانٍ آخر، وذلك لما ركب فيها من قوة احتمال الدمِ داومةً على السير والصبر على العطش والاجترار من العُلوفات بما لا يجترئ حيوانٌ آخر، وإن جعلت حاملةً استغلت بحمل الأحمال الثقيلة التي لا يستقلُّ به سواها.

ثالثها: أنَّي كنتُ مع جماعةٍ في مفازة فضلكنا الطريق فقدموا جملاً وتبعوه فكان ذلك الحمل ينعطف من تلٍّ إلى تلٍّ ومن جانبٍ إلى جانبٍ، والجميع كانوا يتبعونه حتى وصل إلى الطريق بعد

(1) - ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير. 99/9.

(2) - ينظر: فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 158-157/31.

زَمَانٍ طَوِيلٍ فَتَعَجَّبْنَا مِنْ قُوَّةِ تَحْيُلِ ذَلِكَ بِالْحَيَوَانِ إِنَّهُ بِالْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ كَيْفَ انْحَفَظَتْ فِي خِيَالِهِ صُورَةُ تِلْكَ الرِّمَاطِطِ حَتَّى أَنْ الَّذِي عَجَزَ جَمْعُ مِنَ الْعُقَلَاءِ إِلَى الْإِهْتِدَاءِ إِلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ اهْتَدَى إِلَيْهِ.

وعليه فهذه الصفات الكثيرة وغيرها الموجودة في الإبل تُوجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَنْظُرَ فِي خَلْقَتِهَا وَتَرْكِيبِهَا وَيَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ الْحَكِيمِ سُبْحَانَهُ، فَلِهَذَا السَّبَابِ حَسُنَ مِنَ الْحَكِيمِ تَعَالَى أَنْ يَأْمُرَ بِالتَّأْمُلِ فِي خَلْقَتِهَا ، فَخَلَقَهَا وَمَنَافِعِهَا مِنْ أَكْبَرِ الشُّوَاهِدِ عَلَى قُدْرَةِ بَارِيهَا وَفَاطِرِهَا وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ.

هذا عن دلالة السياق العام لتلك الآية المعجزة وتفسير علمائنا الأوائل لها، أما إذا نظرنا إلى نظمها القرآني ودلالة سياقها التَّحْوِي أَوَّلَ مَا نَلْحِظُ حَذْفَ الْفَاعِلِ فِيهَا وَفِي كُلِّ آيَةٍ أَتَتْ بَعْدَهَا، فِي: ﴿خُلِقَتْ﴾ و﴿رُفِعَتْ﴾ و﴿نُصِبَتْ﴾ و﴿سُطِحَتْ﴾، من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ و﴿إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ و﴿إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ و﴿إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: 17-20]. فما الدَّاعِي والغرض من ذلك الحذف؟ وهل له علاقة بدلالة السياق العام للآية؟

يعدُّ الفاعل (المسند إليه) ركنًا أساسيًا في الجملة الفعلية بل هو أهمُّ ركنيها، لذلك كان وجوده محتمًّا في الجملة، إنما يحذف إذا دلَّت قرينة على حذفه، ولولا القرينة لكان الحذف نقصًا وغيبًا، ولا بدَّ مع القرينة من مقتضيات ودواعٍ ترجِّح الحذف عن الذكر<sup>(1)</sup>. والدَّواعِي أو الأغراض التي تدعو المتكلم إلى حذف الفاعل كثيرة جدًّا، منها ما يتَّصل باللفظ ومنها ما يتَّصل بالمعنى، فمن الدَّواعِي اللفظية: القصد إلى الإيجاز والاختصار في العبارة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: 126]، فقد حذف الفاعل هنا، ولم يقل بما عاقبكم النَّاسُ به، ولما كان في الكلام قرينة تدلُّ على الفاعل، فقد اقتضت البلاغة حذفه مراعاةً للإيجاز وإقامة المفعول مقامه. ومنها المحافظة على السَّجْع، كقولهم: "من طابت سريرته حمدت سيرته"، ولو قيل: حمد النَّاسُ سيرته لاختلف إعراب الفاصلتين "سيرته وسيرته". ومن الدَّواعِي المعنوية: كون الفاعل معلومًا للمخاطب لا يحتاج إلى ذكره، كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]، أي: خلق الله الإنسان ضعيفًا. كما أنه يُحذف لعدم تحقيق غرض من الأغراض بذكره، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]، فليس هناك غرض

(1) - ينظر: فهد خليل زايد: الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن الكريم. دار النفائس، عمان، الأردن، ط 1، 1428-2008م، ص: 134.

يتحقق من ذكر الفاعل، فأبي ذافر أو تال يتأثر به المؤمنون، وبالتالي بني الفعلان "ذكر وتلي" للمجهول لعدم تعلق الغرض بشخص الذافر والتالي (1).

أما في هذه الآيات من سورة الغاشية ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية: 17-20]، فقد عمد القرآن الكريم فيها إلى حذف الفاعل وبناء الفعل لغيره مع تعلق الغرض بالفاعل المحذوف، وذلك لأنَّ المقام والسياق العام الذي جاءت فيه هو مقام التذكير والحثُّ على التَّفكر (2). يقول مصطفى شعبان المصري أنَّ محمود نخلة يقول: «فلو أنَّ التعبير القرآني صرَّح بالفاعل في هذه الأفعال المبنيَّة للمجهول لفات الغرض الذي هدف إليه القرآن بذكر دلائل خلق الله. وهذا الهدف هو أن يتوصَّلا بالتَّفكير في هذه الدلائل إلى معرفة الله الخالق الفاعل، فحذف الفاعل مقصود، وذكره في هذا المقام كأنه مصادرة على المطلوب» (3). وقد قال البقاعي في آية الغاشية: «فقال بائياً للمفعول إشارةً إلى أنَّ الدالَّ هو التأمل في مجرَّد خلقها الدالَّ على إحاطة علم الله وعظيم إحسانه وقُدْرته تعالى وفِعْله بالاختيار وحسن تدبيره» (4). فكان الحذف في هذا الموضع هو المناسب لهذا المعنى والمتفق مع ما يهدف إليه المقام أو ما يوحي به من دلالات وغرض الكلام.

ومنه فالغرض والداعي من حذف الفاعل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ هو لفت النظر إلى كيفية خلق الإبل والتَّفكر في صنعها والتأمل في منافعها، التي تميَّزت وتفرَّدت بها عن غيرها من الحيوانات، وقد تنبَّه العرب بفطرتهم السليمة وعلمائنا الأوائل بفطنتهم ودكائهم - كما أشرنا قبل قليل - نتيجة النظر إلى الإبل والعيش معها إلى عجائبها وأشاروا إليها وتحدَّثوا عنها طويلاً، ورغم ذلك لم يصلوا إلى ما وصل إليه العلم الحديث (علم الأحياء) من معجزات وحقائق مذهلة لصفات أكثر غرابة وعجب في خلقها، وذلك بالبحث الدقيق واستعمال وسائل وأدوات مستحدثة.

فمن تلك الصِّفات والحقائق التَّشريحيَّة والوظيفية المعجزة للإبل نذكر ما يأتي (5):

أ- الإبل لا تتنفس من فمها ولا تلهث أبداً مهما اشتدَّ الحرُّ أو استبدَّ بها العطش، وهي

(1) - ينظر: عبد العزيز عتيق: علم المعاني. دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، ط1، دت، ص: 126-127.

(2) - ينظر: مصطفى شعبان المصري: المناسبة في القرآن. ص: 259.

(3) - المرجع نفسه. ص: 259.

(4) - البقاعي: نظم الدرر. 14/22.

(5) - ينظر: هيثم جمعة هلال: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن. ص: 187-189. أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 319-320.

بذلك تتجنب تبخر الماء من جسمها، وكذلك فإن الإبل لا تفرز إلا قدرًا بسيطًا من العرق عند الضرورة القصوى، ويستطيع جهاز ضبط الحرارة لدى الإبل أن يجعل مقدار اختلاف الحرارة نحو سبع درجات دون ضرر لجسمه؛ أي بين "34" درجة مئوية، و "41" درجة مئوية، وهذا التغير في مقياس الحرارة لدى الإبل ليس له نظير لدى الإنسان الذي تثبت درجة حرارته عند "37" درجة، فإذا ارتفعت أو انخفضت دل ذلك على مؤشرات مرضية في جسمه. والحقيقة العلمية في أمر درجة الحرارة لدى الجسم، أنه -أي الجسم- يكسب الحرارة من الوسط الخارجي المحيط به، ويكون اكتسابه للحرارة من هذا الوسط بقدر الفرق بين درجة حرارته ودرجة ذلك الوسط، ولولا أن الجمل ترتفع درجة حرارته إلى "41" درجة في هجير الصحراء الحارق لكان في الأمر خطر عظيم؛ إذ إنه على هذا النحو يعادل جسمه في حرارته بالوسط الخارجي الصحراوي، وعندها لن يكون الفرق كبيرًا بين درجة الحرارة الخارجية ودرجة حرارة الجسم، ويتبع ذلك أن تقل كمية الحرارة التي يمتصها الجسم، وهذا يعني أن الجمل الظمان أقدر على تحمل الحرارة من الجمل الريان.

ب- إن السبب وراء قدرة الجمل على تحمل الجوع والعطش حسب ما وضحه علماء الأحياء والفسيلوجيا (وظائف الأعضاء)؛ إنتاج الماء الذي هو بحاجة إليه من الشحوم المتوضعة في سنامه بطريقة كيميائية لا يمكن للإنسان أن يقلدها، فاحتياطي الدهون في الإبل كبيرٌ للغاية يفوق أي حيوان آخر، ومقارنة بالخروف "المشهور بإليته المملوءة بالشحم" نجد أنه في حين أن الخروف يحتزن زهاء 11 كغ من الدهن في إليته، نجد أن الجمل يخزن ما يفوق ذلك المقدار بأكثر من عشرة أضعاف "أي نحو 120 كغ" يستفيد منها الجمل بتمثيلها وتحويلها إلى ماء وطاقة وثاني أكسيد الكربون. ولهذا يستطيع الجمل أن يقضي حوالي شهر ونصف دون ماء يشربه.

ج- كُلية الجمل لها استعداد خاص لإخراج الأملاح في البول بعد أن تستعيد معظم ما فيه من ماء لترده إلى الدم. لذا للجمل قدرة خاصة خارقة على تجرّع محاليل الأملاح المركزة.

وعليه، ومما سبق نستنتج أنّ حذف الفاعل في سياق الآية وبناء الفعل للمجهول لتركيز الاهتمام على الحدث المفعول، بالتأمل والتفكير في هذا المخلوق العجيب الذي كان ولازال معجزة على مرّ العصور، وبذلك ليُستدل به على قدرة الفاعل وعظمة الخالق البارئ المصور الذي ليس كمثلته شيء، ولتشهد له بالألوهية، والرؤوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

## 2- دلالة حذف "من" وذكر "فوق" في آية وصف الطير:

قد يحذف لفظ في آية ويذكر في أخرى، ولم يكن هذا اعتباطياً، وإنما لغرض معين، ومن أمثلة ذلك في آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم قوله تعالى يصف الطير في جو السماء: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَيَقِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْنُ إِنَّهُ يُكَلِّمُ شَيْئاً بِصِيرٍ﴾ [المك: 19]. فما الداعي لترجيح حذف "من" عن ذكرها مقيدة بـ "فوق" في الآية؟ وما الغرض من ذكر "فوق" في هذه الآية وحذفها في آية مشابهة لها في سورة النحل من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 79]؟ وما وجه الإعجاز العلمي في الآية؟

تشير هذه الآية الكريمة من سورة الملك بالنظر إلى مشهد الطير في جو السماء، هذا المشهد الذي « يروونه كثيراً ولا يتدبرون معجزته إلا قليلاً. ولكن السورة تمسك بأبصارهم لتنظر وبقلوبهم لتتدبر، وترى قدرة الله الذي صور وقدر»<sup>(1)</sup>. إنه « مشهد واحد ذو منظرين. منظر الطير باسقاط أجنحتها صافآت أرجلها، ومنظرها كذلك قابضات. وهي صورة حيّة متحركة، يراها الناس كل لحظة، فيمرون بها غافلين، فهو يلفت إليها أنظارهم، ليروها بالحسّ الشعاع المتأثر، دليلاً على قدرته ورحمته»<sup>(2)</sup>.

فقد وجّهت هذه الآية الأنظار إلى الطير بالتأمل والتفكير في خلقها لأنها مظهر يستدل به على قدرة الله وعظمته، والطير جمع طائر وهو: «كل ذي جناح يسبح في الهواء، يقال: طار يطير طيراناً»<sup>(3)</sup>. وقد سمي بذلك لأن أصل جذره اللغوي "طير" «أصل واحد يدل على حقيقة الشيء في الهواء، ثم يستعاض ذلك في غيره وفي كل سرعة. من ذلك الطير»<sup>(4)</sup>. وقد ورد هذا الجذر في القرآن الكريم تسع وعشرين مرة بمعاني مختلفة، غير أن اسمي الطير والطائر الدالين على الحيوان ورد عشرين مرة. مرة واحدة بصيغة المفرد جاءت نكرة (طائر) في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38]. وتسع عشرة مرة بصيغة الجمع: خمس عشرة مرة معرفة (الطير) في: [البقرة: 260، آل عمران: 49، المائدة: 110، يوسف: 36، والنحل: 79، الأنبياء: 79، الحج: 31، النور: 41، النمل: 16، و 17، و 20، سبأ: 10، ص: 19، الملك: 19]. وأربع مرات نكرة (طير) في: [آل عمران: 49، المائدة: 110، الواقعة: 21، الفيل: 3].

(1) - سيد قطب: في ظلال القرآن. 3630/29/6.

(2) - سيد قطب: التصوير الفني في القرآن. ص: 69.

(3) - الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. ص: 528، مادة: "طير".

(4) - ابن فارس: مقاييس اللغة. مادة: "طير".

وفي تفسير وتأويل هذه الآية جاء في الجامع لأحكام القرآن: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْلَدِرُوا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَيَقْبِضْنَ﴾ أَي: كَمَا دَلَّلَ الْأَرْضَ لِلْأَدَمِيِّ ذَلَّ الهَوَاءَ لِلطَّيُورِ. وَ ﴿صَفَّتْ﴾ أَي بِأَسْطَاتٍ أَجْنَحَتَهُنَّ فِي الْجَوِّ عِنْدَ طَيْرَانِهَا، لِأَنَّهِنَّ إِذَا بَسَطْنَهَا صَفَّتْنَ قَوَائِمَهَا صَفًّا. وَ ﴿يَقْبِضْنَ﴾ أَي يَضْرِبْنَ بِهَا جُنُوبَهُنَّ. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ: يُقَالُ لِلطَّائِرِ إِذَا بَسَطَ جَنَاحَيْهِ: صَافٌ، وَإِذَا ضَمَّهُمَا فَأَصَابَا جَنْبَهُ: قَابِضٌ، لِأَنَّهُ يَقْبِضُهُمَا» (1).

كما جاء في تفسير القرآن العظيم: «قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْلَدِرُوا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَيَقْبِضْنَ﴾ أَي: تَارَةً يُصَفِّقْنَ أَجْنَحَتَهُنَّ فِي الْهَوَاءِ، وَتَارَةً تَجْمَعُ جَنَاحًا وَتَنْشُرُ جَنَاحًا ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ أَي: فِي الْجَوِّ ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ أَي: بِمَا سَحَّ رَهْنٌ مِنَ الْهَوَاءِ، مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ أَي: بِمَا يُصْلِحُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿[النحل: 79]﴾» (2).

وفي سرِّ إيثار لفظة "يَقْبِضْنَ" على "قَابِضَاتٍ" وسبب مجيء الفعل بدل الاسم في هذا النَّصِّ القرآني يقول الزمخشري: «فإن قلت: لم قيل: و"يَقْبِضْنَ"، ولم يقل: و"قَابِضَاتٍ"؟ قلت: لأنَّ الأصل في الطَّيْرَانِ هو صَفُّ الأَجْنَحَةِ، لِأَنَّ الطَّيْرَانَ فِي الْهَوَاءِ كَالسَّبَّاحَةِ فِي الْمَاءِ، وَالْأَصْلُ فِي السَّبَّاحَةِ مَدُّ الْأَطْرَافِ وَبَسْطُهَا. وَأَمَّا الْقَبْضُ فَطَارِيئٌ عَلَى الْبَسْطِ لِإِسْتِظْهَارِ بِهِ عَلَى التَّحْرُكِ، فَجِيءَ بِمَا هُوَ طَارِيئٌ غَيْرٌ أَصْلِيٌّ بَلْفِظِ الْفِعْلِ عَلَى مَعْنَى أَنْتَهُنَّ صَافَاتٍ، وَيَكُونُ مِنْهُنَّ الْقَبْضُ تَارَةً بَعْدَ تَارَةٍ، لَمَّا يَكُونُ مِنَ السَّابِحِ» (3). فالمقرَّر في علم النَّحْوِ أَنَّ الْاسْمَ يَفِيدُ الْاسْتِمْرَارَ وَالثَّبُوتَ، وَيَفِيدُ الْفِعْلُ التَّجَدُّدَ وَالْحَدُوثَ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ «لَمَّا كَانَ غَالِبَ حَالِ الطَّيْرِ فِي السَّمَاءِ هُوَ صَفُّ الْأَجْنَحَةِ اسْتُخْدِمَتْ صَيْغَةُ اسْمِ الْفَاعِلِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الثَّبُوتِ، وَلَمَّا كَانَ الْقَبْضُ يَتَجَدَّدُ أَحْيَانًا حَالًا بَعْدَ حَالٍ اسْتُخْدِمَ الْفِعْلُ الْمَضَارِعُ» (4)؛ فَالْفِعْلُ «يَقْبِضُ» مَضَارِعٌ دَالٌّ عَلَى الزَّمَنِ الْعَامِّ الْمَمْتَدِّ مِنَ الْمَاضِي إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ، لِأَنَّ صِفَةَ الطَّيْرَانِ مَلَازِمَةٌ لِلطَّيْرِ أَبَدًا مِنْذُ أَنْ كَانَتْ، وَقَدْ جَاءَ الْقَبْضُ بِصَيْغَةِ الْمَضَارِعِ لِيُعْطِيَ هَذِهِ الدَّلَالَةَ الزَّمْنِيَّةَ الْخَاصَّةَ لِلْقَبْضِ الَّتِي هِيَ حَرَكَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ أَبَدًا، عَلَى عَكْسِ صِفِّ الْأَجْنَحَةِ الَّتِي هِيَ صِفَةٌ ثَابِتَةٌ» (5).

(1) - القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 127/21-128.

(2) - ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 180/8.

(3) - الزمخشري: الكشاف. 175/6.

(4) - عبد الحميد هندأوي: الإعجاز الدلالي في القرآن الكريم. ص: 137.

(5) - بكرى عبد الكريم: الزَّمَنُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ - دراسة دلالية للأفعال الواردة فيه. دار الكتاب الحديث، القاهرة، مصر، ط 1، 1421هـ / 2001م، ص: 127.

أما في قضية الحذف والذكر في هذه الآية الكريمة: ﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتٍ وَيَقِضْنَ<sup>٤</sup> مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ وبالمقارنة مع ما ورد في القرآن الكريم، فإن الحذف جاء على حرف الجرِّ "من"، الذي كثيراً ما يقترن بظرف المكان "فوق" (\*) في التعبير القرآني، غير أن في هذه الآية جاءت "فوق" مطلقة غير مقيّدة به.

فقد «جاءت "فوق" في القرآن الكريم اثنين وأربعين مرة، مقيّدة بمن ومصاحبة لها تارةً، ومطلقة غير مصاحبة تارةً أخرى، وهي بتجزؤها ومصاحبتها محسوبة بحسبان دقيق لا يجوز غيره، ومقسمة على ثلاثة أقسام:

أ- قسمٌ تجب فيه "من" قصداً للملامسة والملاصقة والقرب الشديد، والفوقية المقابلة جداً لما تحتها.

ب- قسم لا تجوز فيه "من" أبداً لأنّ المعنى ياباه، وطابع الأشياء بخلافه.

ج- قسم يجوز فيه الأمان، لهذا المعنى أو ذاك بحسب المعنى المراد» (1).

وفي الآية الكريمة جاءت "فوق" مطلقة غير مقيّدة بـ "من"، فحذف "من" في سياق هذه الآية يحافظ على حياة الطير وحرّيته، لذا « في هذه الآية لا يجوز ذكر "من" أبداً؛ لأن الطير يطير في الفضاء بعيداً عن رؤوس الناس ولو وجدت "من" لكان الطيران ملامساً للرؤوس، وهذا غير مناسب ولا معقول، ولا مقبول، بل لو كان هذا لأنقرض الطير؛ لأنّه في تناول الناس يمسكونه أو يجسونه، ويأكلونه في كلّ حين، ومتى شاءوا، وعليه فحذف "من" هذه حافظ على حياته وحرّيته » (2). ومثال ذلك أيضاً من حذف "من" في التعبير القرآني ودلالته، قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّهَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق:6]، حيث لا يجوز ذكر "من" هنا مطلقاً؛ لأن وجودها يجعل السماء ملامسة لهم وبها تنعدم الحياة نتيجة للجاذبية، ولقساوة الحالة الجوية في انخفاض حرارتها أو شدة حرّها، وانعدام الهواء، أمّا اطلاق "فوقهم" يدلُّ على بعد المسافة بينهم وبين السماء، ويُشيرُ إلى أنّ كلّ ما علاك هو سماءٌ غيرٌ محدّدة بمسافة (3).

(\*)- فوق: «ظرف مكان مبهم أي غير محدّد المسافة، قد يكون الشيء ملاصقاً معه لِمَا تحته، وقد يبعُد عنه قليلاً، وقد يبعُد أميالاً، وقد يكون البعد هائلاً بحسب السنوات الضوئية، أو لا يستطاع حسابه حتى بها، ولا يعرف مداً إلا الله سبحانه. و"من" حرف لابتداء الغاية عند بعض النحاة، ولها وللتبويض عند آخرين». عائد كريم علوان الحريزي: "فوق" المقيّدة والمطلقة في القرآن الكريم دليل إجازي. مجلة اللغة العربية وآدابها. العدد: 8، ص: 11.

(1)- عائد كريم علوان الحريزي: "فوق" المقيّدة والمطلقة في القرآن الكريم دليل إجازي. ص: 11.

(2)- المرجع نفسه. ص: 14.

(3)- ينظر: المرجع نفسه. ص: 14.

هذا عن الحذف الذي جاء في سياق الآية، أما بالنسبة للذكر فقد وَقَفَ فضل حسن عباس إلى سرٍّ من أسرار الإعجاز القرآني، في ذكر "فوق" في سورة الملك قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتِ وَيَقِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بِصِيرٌ﴾ [المك: 19]، وعدم ذكرها في سورة النحل، بل ذكر فيها كلمة ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 79].

حيث يقول: «آية الملك جاءت في سياق التهديد والتبكي، والإنذار والوعيد لأولئك الذين يتعالون على الحق، ولهذا نقرأ قول الله تعالى قبلها: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [المك: 18]، كلمة "فوق" إذا جاءت لقصده وهدف، هذا الطير الصَّغِير، هذا المخلوق الضَّعِيف فوقهم، فلماذا التعالي؟!

أما سورة النحل - وهي سورة النِّعَم - فلقد جاءت الآية الكريمة فيها في سياق تعداد نِعَم الله - تبارك وتعالى - كما تشهد الآيات التي قبلها والتي بعدها، ولذا لم يشر للفوقية فيها، بل ذكرت كلمة "التسخير" وتسخير الطير نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى»<sup>(1)</sup>.

وفي السِّيَاق ذاته أشار فضل حسن عباس إلى فرق آخر في الآيتين؛ في ذكر حرف العطف "الواو" في آية الملك، وعدم ذكرها في آية النحل حيث يقول: «آية الملك جاء فيها حرف العطف "الواو"، وهو يقتضي معطوفاً عليه وهذا المعطوف عليه فعل فيه تبكي لأولئك، أي: أغفلوا فلم يرو؟! أعملوا فلم يرو؟! فالاستفهام إنكاري توبيخي، ولكننا لا نجد هذا الحرف في سورة النحل، فتعالى الله علواً كبيراً»<sup>(2)</sup>.

وبالمناسبة فقد أجاب الرازي عن سبب إيثار اسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ في آية الملك في قوله: ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [المك: 19] دُونَ اسم الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ بِخِلَافِ مَا فِي سُورَةِ النَّحْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: 79] معللاً ذلك بقوله: «فَمَا الْفَرْقُ؟ قُلْنَا: ذَكَرَ فِي النَّحْلِ أَنَّ الطَّيْرَ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ فَلَا جَرَمَ كَانَ إِمْسَاكُهَا هُنَاكَ مَحْضَ الْإِلَهِيَّةِ، وَذَكَرَ هَهُنَا أَنَّهَا صَاقَاتٌ وَقَابِضَاتٌ، فَكَانَ إِلْهَامُهَا إِلَى كَيْفِيَّةِ الْبَسْطِ وَالْقَبْضِ عَلَى الْوَجْهِ الْمُطَابِقِ لِلْمَنْفَعَةِ مِنْ رَحْمَةِ الرَّحْمَنِ»<sup>(3)</sup>.

(1) - فضل حسن أحمد عباس: لمسات ولطائف من الإعجاز البياني للقرآن الكريم. دار النفائس، الأردن - عمان، ط 1، 1437هـ/2016م. ص: 197.

(2) - المرجع نفسه. ص: 197-198.

(3) - فخر الدين الرازي: تفسير الرازي. 71/30.

ومنه، فذكر "التسخير" في آية النحل ليأتي التّركيز عليه بأنّ الطّير مسخّرات في جوّ السّماء، وأنّهنّ لا يمسكهنّ إلّا الله، وفي ذلك إشارة إلى التّفكّر والبحث في خلق هذا الطّير على هذا النّحو من بيان وتكوين وأنظمة ذلّت له الطّيران في الجوّ. أمّا ذكر "فوق" في آية الملك للتّركيز على هيئة الطّيران في انقباض الأجنحة وبسطها، كما أنّ إيثار الفعل المضارع "يقبضن" على اسم الفاعل "قابضات" للفت النّظر إلى هيئة القبض والتّركيز عليها من دون البسط؛ لأنّ الأصل الثّابت في الطّيران صفّ الأجنحة وبسطها والقبض طارئ، وبالقبض يستلزم البسط، وفي ذلك إشارة للتّفكّر والتدبّر في عملية الطيران، وهنا يكمن وجه الإعجاز العلمي في الآية الكريمة. فالعلم الحديث يرى أنّ: « الطّيور تتمكّن من الطّيران لأشياء عديدة في تكوينها؛ أهمّها شكل الجسم الانسيابي، والبسطة في الأجنحة المزوّدة بالريش، والعظام الجوّفة الخفيفة، والأكياس الهوائية التي بين الأحشاء، وهي متعلقة بالرئتين، وتمتلئ بالهواء عند الطّيران فيصبح وزن الجسم خفيفاً»<sup>(1)</sup>.

أمّا في السّبب العلمي في كون الطّيور فنّانة بارعة في الطّيران، هو أنّ وزن جسمها يكون متعادلاً مع مساحة الأجنحة والقوة العضلية بالإضافة لتمتّعها بجسم ورأس مخروطي انسيابي متوافقاً تماماً مع المقدمة وأجنحة متفّقة تماماً مع الديناميكية الهوائية، واتبعت في تصنيع أجنحة الطائرات ودفة مؤخّرة "الذنب" وعظام مجوّفة، كما أنّ الريش مملوء بالهواء مما يجعل الكثافة منخفضة»<sup>(2)</sup>.

لا يتوقّف الإعجاز في خلق الطير عند حدود الصّفات الشّكلية والتّشريحيّة المحكّمة التي وهبها الله عزّ وجلّ، ولكن يتعدّى ذلك إلى القدرات الفائقة التي أعطاها الخالق العظيم لهذه المخلوقات الضّعيفة فمكّنتها من إتقان عمليّة الطّيران والمناورة في جوّ السّماء بذكاء ودقة بالغين<sup>(3)</sup>. وإن بدت هذه العمليّة معقّدة فإنّها لا تخرج عمّا لحّصته آية الملك في كلمتين: ﴿صَفَّتْ وَيَقْبِضْنَ﴾.

فقد توصّل العلم الحديث إلى حقيقة علميّة مفادها أنّ الطّيران لدى الطّيور يتمّ بعمليتين أساسيتين هما: الصّفّ أو التّحليق "Gliding or Soaring"، والقبض أو الخفق "Flapping". والصّفّ أو التّحليق هو بسط الجناحين إلى أقصى امتداداتها، دون تحريكهما على هيئة سطح انسياب هوائي "Air foil" حكاها الإنسان في صنع جناحي الطائرة. ومن الذّكاء الفطري الذي وهبه الله -تعالى- للطّيور ما يمكّنها من ركوب متن التّيارات الهوائية أو الرياح، في عملية تسمى عملية

(1) - هيثم جمعة هلال: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. ص: 259.

(2) - بدر الدين عبد الكريم أحمد: الإعجاز الهندسي في القرآن الكريم - إشارات دلالات معاني. أصل الكتاب رسالة ماجستير، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط1، 1432هـ - 2011م، ص: 136.

(3) - ينظر: زغلول النجار: الحيوان في القرآن الكريم - من آيات الإعجاز العلمي. ص: 424.

التزج الديناميكي "Dynamic gliding or soaring". والطيران بواسطة الصّف أي الانزلاق المستمر "Constant Gliding" شائع في الطيور الكبيرة خاصة إذا أرادت التحرك لمسافات بعيدة<sup>(1)</sup>.

أمّا القبض أو الرّفرفة فهي طريقة الطيران المثلى لمسافات قصيرة، وتنتشر بالأخص بين الطيور الصّغيرة الحجم. وهذه الطريقة تستدعي حركتين سريعتين هما الضرب بالجنّاحين إلى أسفل ثم إلى أعلى، والحركة الأولى تدفع بالطائر إلى الأمام، والثانية تدفع به إلى الأعلى... وتغيير درجة ميل أي من الجنّاحين يستطيع الطائر تغيير اتجاهه في الهواء حيث يشاء، ومهما كانت سرعة الرّياح من حوله، ويعينه في ذلك ذنبه الذي يلعب دورًا مهمًا في تلك المناورات. ويستطيع الطائر أن يحقق رفع جسمه إلى أعلى بسرعة الضرب بجنّاحيه إلى أعلى وأسفل مستخدمًا في ذلك عضلات صدره القويّة<sup>(2)</sup>.

وبذلك توصل العلم الحديث -أيضًا- إلى نوعين من الطيران يستخدمهما الطائر حين التحليق في جوّ السّماء طيران لمسافات بعيدة يستعمل فيها الصّف، وطيران لمسافات قريبة يستعمل فيها القبض.

وعليه، ومما سبق يتضح أنّ الآية الكريمة تحمل وجهين للإعجاز، وجها هو الإعجاز اللّغوي البلاغي، وهو الحذف والدّكر من غير إخلال بالمعنى، والثاني هو إعجاز علمي في خلق الطير، وتكوينه وبنائه وهيئة الجوّ وتسخير له ليحلّق فيه باستعمال أهم وسيلتين للطيران الصّف والقبض للمسافات البعيدة أو القريبة.

(1)- ينظر: زغلول النجار: الحيوان في القرآن الكريم- من آيات الإعجاز العلمي. ص: 425.

(2)- ينظر: المرجع نفسه. ص: 426.

### المبحث الخامس:

## السياق الخارجي والحقائق العلمية في آيات خلق الإنسان والحيوان

اعتمدنا في الفصل التطبيقي السابق على عناصر أربعة للكشف عن الدلالة السياقية الخارجية (غير اللغوية) لآيات الإعجاز العلمي في خلق السماء والأرض، والتي تتمثل في: السياق التاريخي والسياق الثقافي، والسنة النبوية، وأقوال الصحابة، وفي هذا الفصل سنعمد عنصرين آخرين مهمين جداً؛ لتعلقهما المباشر بالسياق الخارجي للنص القرآني، ولأثرهما البالغ في فهم النص وتحديد دلالاته للوصول إلى حقيقته المعجزة، وسيكون التطبيق على آيات مصطفاة من الإعجاز العلمي في خلق الإنسان والحيوان، وهذا ما سنكشفه فيما يأتي:

### المطلب الأول: السياق الاجتماعي (الظروف الاجتماعية)

ترتبط اللغة بالمجتمع ارتباطاً وثيقاً حتى أنّ اللغويين المحدثين أصبحوا متفقين على أنّ اللغة نشاط اجتماعي يقوم به الإنسان. فهي ليست مجرد مُعبّر عن الفكر كما تُعرّف قديماً<sup>(1)</sup>، بل إنها مجموعة أعراف اجتماعية لأتّما مرتبطة بنشاط المجتمع، وتسير في ركابه، وتصوّر أنماط سلوكه وأبجهااته، ومن ثمّ فإنّ اللغة تسير على هدى حركة المجتمع وما فيه من عادات وتقاليد وأفكار وسلوك.

وبذلك دعا قسم من الدارسين إلى تسييق الوحدة اللغوية، أي دراسة العلاقة الموجودة بين الظواهر اللغوية والاجتماعية وهذا ما يُعرف بالسياق الاجتماعي للغة؛ بمعنى فهم اللغة من خلال عادات المجتمع وتقاليد<sup>(2)</sup>.

والسياق الاجتماعي يشمل عدداً كبيراً من العوامل، من بينها المجموعات الاجتماعية التي ينتمي إليها المتحدث والمتلقي والتعامل الاجتماعي ونوعية هذا التعامل والمعرفة المشتركة بين المشتركين في الكلام، وقد تكون معرفة عامّة "ثقافية" أو معرفة خاصّة "أي مرتبطة بالتعامل نفسه"<sup>(3)</sup>.

(1) - ينظر: خليل خلف بشير العامري: السياق غير اللغوي في النصّ القرآني. مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية، المجلد 5، العدد 4، 2008. ص: 1295.

(2) - ينظر: سمير داود سليمان: الدلالة السياقية في سورة الإسراء. ص: 20.

(3) - ينظر: هيدسون: علم اللغة الاجتماعي. ترجمة: محمود عياد. عالم الكتب، القاهرة - مصر، ط 2، 1990م، ص: 354.

لذا فإن « السِّيَاق الاجتماعي متمم للمعنى لا يمكن الاستغناء عنه في تفسير اللغة » (1) .

إن دراسة السِّيَاق غير اللُّغوي الاجتماعي لنصِّ قرآنيّ هو: « محاولة في فهم الظروف التي راعاها القرآن الكريم عندما خاطب قومًا عكفوا على عبادة الأصنام والأوثان إذ أنزل القرآن بلغتهم ولسانهم ليفهموه وليتدبروا آياته. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم:4]. فأمرهم بنبد الأصنام التي لا تضرُّ ولا تنفع وعبادة الله الخالق البارئ المصور، ومنَّ عليهم بالصادق الأمين. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [آل عمران:164]. فراح الرسول ﷺ يصدح برسائله طوال بعثته وتحمل من الأذى والألم الشيء الكثير وقد سجَّل القرآن حياة المسلمين وما عاناه الرسول ﷺ معهم من المشركين والكافرين والمنافقين فكان لكل واحد من هؤلاء سياقه الخاص حتى اقترن سياق مقالهم بسياق حالهم» (2) .

وقد تضمَّنت الكثير من آيات القرآن الكريم عادات العرب وتقاليدهم، ومن ثمَّ لا يمكن تفسير الآية القرآنيَّة وإظهار معناها إلاَّ بالرجوع إلى تلك العادات والتقاليد (3) .

ومنه فالسِّيَاق الاجتماعي يُفيدنا كثيراً في التَّعرُّف على « عادات وقيم وأخلاق اجتماعيَّة تحدَّث عنها القرآن الكريم وماهيَّة العلاقات الاجتماعيَّة زمن الدَّعوة الإسلاميَّة ومقارنتها بالعلاقات زمن الجاهليَّة، ولا يمكن فهم كثير من الآيات ما لم نخط إحاطة تامة بالحوادث التَّاريخيَّة التي تتعلَّق بنزول بعض الآيات أو السور» (4) .

كما أنَّ للسِّيَاق الاجتماعي أثرٌ كبير في فهم النَّصِّ القرآني وترجيح المعنى الصَّحيح، فهو متمم للمعنى، ولا يمكن الاستغناء عنه في تفسير آيات الدُّكر الحكيم. ومن نماذج ذلك في النَّصِّ القرآني على سبيل المثال:

(1) - خليل خلف بشير العامري: السِّيَاق غير اللُّغوي في النَّصِّ القرآني. ص: 1295.  
(2) - المرجع نفسه. ص: 1294.  
(3) - ينظر: سمير داود سليمان: الدَّلالة السياقيَّة في سورة الإسراء. ص: 20.  
(4) - خليل خلف بشير العامري: السِّيَاق أنماطه وتطبيقاته في التَّعبير القرآني. ص: 56.

## 1- أثر السياق الاجتماعي في آية تحديد عدة المرأة (المطلقة والأرملة):

في كثير من آيات الأحكام راعى القرآن الكريم هذا السياق من خلال تشريعاته السمحاء فيما يتعلّق بالعلاقات الاجتماعية للأسرة المسلمة كأمر الزواج وتربية الأبناء ورضاعتهم وكسوتهم، وبمشكلات العلاقات الزوجية والطلاق والانفصال، وبالميراث وما يتعلّق به من قسمة ووصايا وغير ذلك، وفي هذا المقام اخترنا الحديث عن إحدى العادات الاجتماعية السيئة التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي وجاء الإسلام بأحكامه القيمة وعدّل فيها إلى أحسن حال، ولم يكن هذا التعديل اعتباطاً أو لتحسين أمور العلاقات الأسرية والاجتماعية فحسب، وإنما وراءه سرٌّ عظيم وإعجاز علمي مبهر لم يظهر نوره إلا في هذا العصر الحديث عصر العلم والتكنولوجيا، وهذا ما سنتحدّث عنه ونكشفه فيما يأتي:

لقد كان سائداً في المجتمع الجاهلي أن المرأة إذا اختلفت مع زوجها وطُلقَت، أو التي توفي عنها وترملت، فإنه ليس لها فترة محددة للعدة، حالها كحال المرأة غير المسلمة في الدول الغربية في وقتنا الحالي، فلا شرعاً يحدّد العدة، ولا قانوناً يحمي الطرفين وحقوقهما وواجباتهما كما هو الحال مع أحكام الإسلام الشرعية.

فقد أخرج أبو داود وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية: أنّها طُلقَت على عهد رسول الله ولم يكن للمطلقة عدة فأنزل الله عزّ وجلّ حين طُلقَت أسماء بالعدة للطلاق قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعَوِّلُهُنَّ أَحَدٌ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 228]. فكانت أوّل من أنزلت فيها العدة للمطلقات (1).

إنّ أصل الفعل المضارع ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ في هذه الآية الكريمة هو لِيَتَرَبَّصْنَ، بصيغة الأمر، فعدل عنه إلى صيغة الخبر. وفائدة التعبير عن الأمر بصيغة الخبر هو تأكيد الأمر، ممّا ينبغي أن يتلقّى بالقبول والمساورة إلى الإتيان به، يقول الزمخشري: «فإن قلت: فما معنى الإخبار عنهن بالتربص، قلت: هو خبر في معنى الأمر، وأصل الكلام: وليتربصن المطلقات، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنّه ممّا يجب أن يتلقّى بالمساورة إلى امتثاله، فكأنّ امتثلن الأمر بالتربص، فهو

(1) - ينظر: عبد الفتاح عبد الغني القاضي: أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين. ص: 40.

يخبر عنه موجودًا، ونحو قولهم في الدعاء: رحمك الله، أُخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة»<sup>(1)</sup>.

إذًا، فالسياق اللغوي للآية هو أن الله يأمر المطلقات بالتربص. لكن سياق حالها يحدثنا عن إحدى عادات العرب قبل الإسلام حيث لم يكن للمرأة عدّة تعتدّها لطلاق، فجاء الإسلام وأمرها بالامتثال والالتزام بأمر الشرع بالتربص.

كما لم يكن للطلاق في الجاهلية حدٌ ولا عددٌ؛ فقد كان للعرب في عهد الرسول ﷺ طلاق ومراجعة في العدة؛ فالرجل كان إذا طلق امرأته ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها كان له ذلك وإن طلقها ألف مرة، فقد جاء في تفسير المنار أنه «كان للعرب في الجاهلية طلاق ومراجعة في العدة ولم يكن للطلاق حدٌ ولا عدد فإن كان لمغاضبة عارضة عاد الزوج فراجع واستقامت عشرته، وإن كان لمضارة المرأة راجع قبل انقضاء العدة واستأنف طلاقًا ثم يعود إلى ذلك المرة بعد المرة أو يفيء ويسكن غضبه، فكانت المرأة العوبة بيد الرجل يضارها بالطلاق ما شاء أن يضارها، فكان ذلك ممّا أصلحه الإسلام من أمور الاجتماع»<sup>(2)</sup>.

فقد أخرج الترمذي والحاكم وغيرهما عن عائشة قالت: «كان رجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة وإن طلقها مائة مرة وأكثر، حتى قال رجل لامرأته والله لا أطلقك فتبيني، ولا أويك أبدًا، قالت وكيف ذلك؟ قال أطلقك فكلمت عدتك أن تنقضي راجعتك. فذهبت المرأة فأخبرت النبي ﷺ فسكت حتى نزل القرآن ﴿الطَّلِقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْنَاهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعْتَدُوا اللَّهَ فِئًا خِفْتُمْ أَلَّا يُعْتَدُوا اللَّهَ فَلَإِ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 229]»<sup>(3)</sup>.

كما كان الرجل في الجاهلية «يطلق امرأته، ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها، ثم يطلقها، يفعل ذلك ليضارها، ومن هؤلاء ثابت بن يسار الأنصاري طلق امرأته حتى إذا لم يبق على انقضاء عدتها إلا يومان أو ثلاثة راجعها، ثم طلقها مضارة لها، [أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير]»<sup>(4)</sup> فأنزل الله

(1)- الزمخشري: الكشاف. 440/1.

(2)- محمد رشيد رضا: تفسير المنار- تفسير القرآن الحكيم. مكتبة المنار، القاهرة-مصر، ط2، 1366هـ/1947م، 381/2.

(3)- محمد رشيد رضا: تفسير المنار- تفسير القرآن الحكيم. 381/2. التفسير الموضوعي للحافظ المتقن. ص: 36.

وينظر: عبد الفتاح عبد الغني القاضي: أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين. ص: 40.

(4)- عبد الفتاح عبد الغني القاضي: أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين. ص: 42.

في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرِفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرِفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 231].

كما كانت المرأة المطلقة في الجاهلية تلاقى من العنت ما يتفق وغلظ الجاهلية وانحرافها. تعضل فتمنع من الزواج حتى يسمح مُطلِّقها ويأذن! أو يعضلها أهلها دون العودة إلى مطلقها، إن أراد أن يتراجعا<sup>(1)</sup>. حتى أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ آزَكُوا لَكُمْ وَأَطَهَرُوا لِلَّهِ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 232]. ف «عن معقل بن يسار: أنه زوّج أخته رجلاً من المسلمين، فكانت عنده، ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت عدتها فهويها وهويته، فخطبها مع الخطّاب، فقال له أخوها: يا لكع أكرمتك بما وزوجتكها فطلّقتها، ثم جئت تخطبها والله لا ترجع إليك أبداً، فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إليه فأنزل الله تعالى هذه الآية، فلمّا سمعها معقل، قال: سمعاً لربي وطاعة، ثم دعاه، وقال له: أزوّجك وأكرمك»<sup>(2)</sup>. [أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي]

لقد تبين من سبب نزول هذه الآيات من سورة البقرة أن الحكمة من تحديد عدّة الطلاق الذي تحلّ فيه المراجعة بطلقتين هي رفع الظلم والضرر عن المرأة. يقول محمد رضا: «فإن هذه الآيات كلّها نزلت في إبطال ما كان عليه الناس من سوء معاملة النساء في الطلاق، فجميع الوقائع التي كانت تقع على العادات الجاهلية كانت تُعد من أسباب النزول لها»<sup>(3)</sup>.

جاءت آيات الطلاق في سورة البقرة ليبيّن الله فيها بعض أحكام الطلاق كعدّة المطلقة وعدد الطلاق وأحكام أخرى تتعلق بالطلاق، كما أوردت عدّة المتوفى عنها زوجها في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: 234].

ثم ليفصّل في سورة الطلاق الحالات التي لم تفصّل فيها -سورة البقرة- يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا

(1)- ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن. 251/2/1.

(2)- عبد الفتاح عبد الغني القاضي: أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين. ص: 43.

(3)- محمد رشيد رضا: تفسير المنار. 396/2.

يَخْرُجُ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ<sup>١</sup> وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْرِجُكَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا<sup>٢</sup> فَإِذَا بَلَغَنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ لَكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا<sup>٣</sup> وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ<sup>٤</sup> إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ<sup>٥</sup> قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا<sup>٦</sup> وَالَّتِي يُبْسِنُ مِنَ الْمَيْمِضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ<sup>٧</sup> وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ<sup>٨</sup> وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا<sup>٩</sup> ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ<sup>١٠</sup> وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا<sup>١١</sup> أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيْقِوْنَ عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ<sup>١٢</sup> فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَارَفْتُمْ فَانْزِعُوا عَنْهُنَّ أُخْرَى<sup>١٣</sup> لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا<sup>١٤</sup> [الطلاق: 1-7].

إنَّ هذه الآيات من مطلع سورة الطلاق إلى الآية السابعة تضمَّنت أحكام الطلاق والعدَّة والسكنى والتَّفقة والرِّضاع خلالها « ولم تدع شيئاً من أنقاض الأسرة المفكَّكة بالطلاق إلاَّ أراحته في مكانه، وبَيَّنت حكمه، في رفق وفي دقَّة ووضوح»<sup>(1)</sup>.

فقد تضمَّنت الآية الأولى بيان الوقت الذي يُمكن أن يقع فيه الطلاق الذي يقبله الله ويجري وفق سننه<sup>(2)</sup>: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ<sup>١٥</sup> وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ<sup>١٦</sup>﴾ [الطلاق: 1].. ف« عن ابن عمر: أنَّه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ فتغيَّظ رسول الله ﷺ ثم قال: "ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض وتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسه، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء" وقرأ النبي الآية<sup>(3)</sup>» [أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما]

كما تضمَّنت حقَّ المطلقة في فترة العدة وواجبها في البقاء في بيتها - وهو بيت مطلقها - لا تخرج ولا تُخرج إلاَّ أن تأتي بفاحشة مبينة: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ<sup>١٧</sup>﴾ [الطلاق: 1]. وحقُّها بعد انقضاء العدة في الخروج لتفعل بنفسها ما تشاء، ما لم يكن الرِّزق قد راجعها وأمسكها في فترة العدة، لا يضارُّها ويؤذيها بهذا الإمساك ويعطلُّها عن الرِّزاق، ولكن لتعود الحياة الرِّزقيَّة بينهما بالمعروف: ﴿فَإِذَا بَلَغَنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ<sup>١٨</sup>﴾

(1) - سيد قطب: في ظلال القرآن. 3594/28/6.

(2) - ينظر: المصدر نفسه. 3593/28/6.

(3) - عبد الفتاح عبد الغني القاضي: أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين. ص: 235.

[الطلاق:2]... وهذا مع الإشهاد على الإمساك أو الفراق: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق:2]<sup>(1)</sup>

ولمَّا بَيَّنَّ اللهُ في سورة البقرة مدة العدة للمطلقة ذات الحيض - وهي ثلاثة قروء بمعنى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات على خلاف فقهي - في قوله: ﴿وَأَلْمَلَقْتِ يَرْبَصَ بِنَافْسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة:228] بَيَّنَّ هنا هذه المدة بالنسبة للآيسة التي انقطع حيضها وللصغيرة التي لم تحض: ﴿وَالَّتِي يَسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أُرْتَبِتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق:4] وبَيَّنَّ عِدَّةَ الحامل: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:4]<sup>(2)</sup>. فقد روي «عن أبي كعب، قال: إنَّ ناسًا من أهل المدينة لما نزلت الآية التي في سورة البقرة في عدد من عدد النساء قالوا: بقي عدد من عدد النساء لم يذكرن الصغار والكبار اللَّاتِي قد انقطع حيضهن وذوات الحمل، فأَنْزَلَ اللهُ الآية»<sup>(3)</sup>.

ولقد أشكل هذا الشرط ﴿إِنْ أُرْتَبِتُمْ﴾ في قوله: ﴿وَالَّتِي يَسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أُرْتَبِتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق:4] على بعض الأئمة وقد أزال سبب التزول هذا الإشكال حيث عيَّن دلالة الشرط؛ فكان معنى ارتاب هنا معنى خاص بسبب التزول، لا يُبيِّن عنه السياق اللغوي، ولا يسعف به المعنى المعجمي لأنَّ المعجم يخلو من هذه الدلالة التي أضافها سياق الحال لهذا الفعل، ففي المعجم ارتاب به: اتهم. ومادَّة "ر ي ب" تدور في فلك معنى الشك، أمَّا معنى الإشكال والجهل فهو معنى جديد أضافه سبب التزول هنا. وبذلك تجلَّت في هذه الآية أهميَّة سياق الحال في ردِّ المفهوم الخاطئ والاستدلال الخاطئ وإزالة الإشكال ودفع اللبس والعموض<sup>(4)</sup>.

وبالإضافة إلى ذلك فصَّلت سورة الطلاق حكم المسكن الذي تعتدُّ فيه المعتدة ونفقة الحمل حتى تضع: ﴿أَسْكُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكُنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:6] ثم حكم الرضاة لولد المطلقة حين تضعه، وأجر الأم على الرضاة في حال الاتفاق بينها وبين أبيه على مصلحة الطفل بينهما، وفي حالة إرضاعه من أخرى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْحَمْنَ أُمَّهِنَّ وَاتَّمَرُوا بِبَنَاتِكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاَسَرْتُم فَمَا تَرْضَعْنَ لَهُنَّ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق:6]. ثم زاد حكم النفقة والأجر في جميع الحالات تفصيلاً فجعله تابعاً لحالة الزوج وقدرته: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ

(1) - ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن. 3593/28/6.

(2) - ينظر: المصدر نفسه. 3593/28/6.

(3) - عبد الفتاح عبد الغني القاضي: أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين. ص: 236.

(4) - ينظر: فريد عوض حيدر: فصول في علم الدلالة. ص: 150.

عَلَيْهِ رِزْقُهُ، فَيُنْفِقُ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَنْهَاءً ﴿[الطلاق: 7]﴾<sup>(1)</sup>.

إذًا، فهذا عن السياق الاجتماعي وسياق الحال لأحكام الطلاق في سورتي البقرة والطلاق، والسؤال المطروح الآن ما الحكمة الاجتماعية من العدة؟ وهل من وراء تشريع عدة الطلاق حقائق علمية؟

لما أنزل الله تعالى أحكام العدة وشرعها فإنه كان من وراء ذلك حكم اجتماعية وطبية جليلة استخلصها علماء الفقه منذ نزول هذه الأحكام الشرعية، يمكن تلخيصها فيما يأتي<sup>(2)</sup>:

أ- براءة الرحم من الحمل، فقد قال الفقهاء: إن حكمة العدة هي الحكم ببراءة الرحم من الحمل حفظاً للأنسب من الاختلاط والشك، فبالعدة يحصل الثبوت.

ب- احترام الحياة الزوجية وتقديرها وعدم نسيان الفضل بين الزوجين: فالعدة جزء من الحزن والحداد عليها بعد أن انفصلت عراها بطلاق أو بموت رب الأسرة، ولا بد للحزن والحداد من وضع نهاية له حتى لا تتصدع نفسية المرأة، فجعل الإسلام نهاية الحداد بنهاية العدة، يحق لها بعدها أن تزوج وتبني أسرة جديدة.

ج- فتح مجال العودة إلى بناء الأسرة المتهدم بحادثة الطلاق: لأن الحفاظ على الحياة الزوجية وتماسك الأسرة مما اهتم به الإسلام.

ومن أجل هذه الحكمة حظر الإسلام أن تُخطب المعتدة، وحرّم العقد عليها واعتبره باطلاً؛ أي أن الإسلام جعل العدة فرضاً شرعياً وحقاً للزوج وحقاً للأسرة لكي يراجع فيها كل من الزوجين صفحات سلوكهما ووضعهما، وقد يجدان أن الأفضل أن يعودا إلى الحياة الزوجية السابقة وأن يُصحح كل منهما سلوكه ويتحاشى تكرار أخطائه.

ولما كانت حكمة العدة الطبية هي التأكد من براءة الرحم من الحمل أو الانتظار حتى الوضع (لدى وجوده)، فإن لهذا التأكد علاقة بالطب يمكن توضيحها ببيان النقاط التالية<sup>(3)</sup>:

أ- التأكد من خلو الرحم من الحمل لا يحصل إلا بمرور ثلاثة قروء أو ثلاثة أشهر؛ لأنه قد يحدث نطفة في الشهر الأول، بسبب تعشيش البيضة، أو بسبب حدوث التلقيح قبل الطمث المبكر

(1) - ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن. 3493/28/6-3494.

(2) - ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 990.

(3) - ينظر: المرجع نفسه. ص: 991.

بأيام قليلة، أو بسبب وجود رحم مضاعف وهذا نادر، وقد يكون بأسباب أخرى مرضية.

ب- وقد يحدث نزف في الشهر الثاني ثم يتكرر بسبب الإصابة بالرّحم العدادية التي تصيب المشيمة في أشهر الحمل الأولى.

ج- والتأكد من الحمل يحصل أيضاً في الشهر الثالث من حدوثه، ويصبح شبه يقيني بعد مضي أربعة أشهر وعشرة أيام. فما كل انقطاع في الطمث يدل حتماً على حصول الحمل؛ لأنه ينقطع أيضاً في ظروف عديدة منها: اضطرابات سن اليأس، وفي بعض حالات حالة الرضاع، أو بسبب آفة عامة كالسُّل وفقر الدّم وغير ذلك.

إذا فقد فسّر الفقهاء والأطباء العدة للنساء للتأكد من خلوّ الرّحم من جنين، كما أنّها مهلة للصُّلح بين الزوجين، وهذا صحيح، ولكن هناك سبباً آخرًا اكتشفه العلم الحديث يؤكّد حكمة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وأحكام الشريعة الإسلامية المتعلقة بتحديد فترة العدة " 120 يوماً" وهو:

أنّ السائل الذكري يختلف من شخص إلى آخر، كما تختلف بصمة الأصبغ، وأن لكل رجل شفرة خاصة به. كما أكّد العلماء أنّ المرأة تحمل داخل جسدها ما يشبه الكمبيوتر الذي يخزن شفرة الرّجل الذي يعاشرها، فإذا تزوّجت برجل آخر بعد الطلاق مباشرة أو دخلتها أكثر من شفرة كما دخل فيروس لهذا الكمبيوتر، فيصيبه بالخلل والاضطراب والأمراض الخبيثة<sup>(1)</sup>.

وقد ثبت علمياً أن أوّل حيض بعد الطلاق يزيل 32% إلى 35% والحيضة الثانية تزيل 67% إلى 72% من بصمة الرّجل والحيضة الثالثة تزيل 99.9% من بصمة الرّجل، ويكون الرّحم تطهّر من البصمة السابقة واستعدّ لاستقبال شفرة بصمة جديدة دون إصابات بأذى. لذلك فإنّ ممارسات الدّعارة والزّانيات يُصنن بالأمراض الفتاكة كالسرطان والإيدز والزّهري والتّقرحات وغيرها لاختلاط السّوائل المنوية في الرّحم، ولذلك شرّع الله العدة للمرأة "ثلاثة أشهر" تمكث مدّة لتطهير رحمها ومسالكها من آثار الزّوج السّابق وبنفس المدّة التي شرعها الإسلام لتستطيع استقبال شفرة جديدة دون إصابتها بأذى، أمّا عدّة الأرملة فإنّها تحتاج وقتاً أطول لزوال الشّفرة، فقد أجريت الدّراسات على المطلقات والأرامل فأثبتت التّحليل أنّ الأرملة تحتاج وقتاً أطول من المطلقة لسيان هذه

(1)- ينظر: محمد الصالح ناجحي: خلق الإنسان في القرآن. ص: 88.

الشفرة؛ وذلك يرجع لحالتها النفسية، حيث إن الحزن يُثبت البصمة لديها بشكل أقوى فتحتاج للمقدار الذي قال عنه عز وجل: (أربعة أشهر وعشراً) لتزول بصمة ماء الرجل نهائياً<sup>(1)</sup>.

ولقد اعتنق الإسلام مؤخرًا العالم اليهودي (روبرت غيلهم) - الذي كان في معهد ألبارت أنشطاين، والمختص في علم الأجنة-، بمجرد معرفته للحقيقة العلمية وإعجاز القرآن في سبب تحديد عدّة الطلاق للمرأة، بمدة ثلاثة أشهر. وقد دفعته تلك الحقيقة للقيام بتحقيق في حي أفارقة مسلمين بأمريكا، تبين أن كل النساء يحملن بصمات أزواجهن فقط، فيما بينت التحريات العلمية في حي آخر لأمريكيات متحدرات أنهنّ يملكن بصمات متعدّدة من اثنين إلى ثلاث، ممّا يوضح أنهنّ يمارسن العملية الجنسية خارج الأطر الشرعية المتمثلة في الزواج.

وكانت الحقيقة مذهلة للعالم حينما قام بإجراء التحاليل على زوجته ليعين أنّها تمتلك ثلاث بصمات، ممّا يعني أنّها كانت تخونه، وذهب به الحد لاكتشاف أنّ واحداً من أصل ثلاثة أبناء فقط هو ابنه، وعلى اثر ذلك اقتنع أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي يضمن حصانة المرأة وتماسك المجتمع، وأنّ المرأة المسلمة أنظف امرأة على وجه الأرض<sup>(2)</sup>.

وعليه، وممّا سبق نستنتج أنّ:

بمعرفةنا للسياق الاجتماعي لآيات تحديد عدّة المرأة المطلقة أو الأرملة، وقفنا على ما كان عليه الناس في الجاهلية من سوء معاملة النساء المطلقات، وقد تبين من أسباب نزول هذه الآيات أنّ الحكمة من تحديد عدّة الطلاق هي رفع الظلم والضرر عن المرأة.

أمّا بمعرفةنا للحقيقة العلمية لهذه الآية المعجزة أدركنا السبب العلمي المعجز وراء تحديد مدّة العدّة بثلاثة أشهر للمطلقة وأربعة أشهر وعشرة أيام للأرملة. والتي مفادها أنّ جماع الزوجين ينتج عنه ترك الرجل لبصمته الخاصة لدى المرأة، وأنّ كل شهر من عدم الجماع يسمح بزوال نسبة معينة، وبعد انقضاء العدّة تزول البصمة كلياً، ممّا يعني أنّ المطلقة أو الأرملة تُصبح قابلة لتلقّي بصمة رجل آخر. فإنّ لم تعتد المرأة بعد طلاقها أو ترمّلها مباشرة فقد تصاب بأضرار وأمراض خطيرة. وهذا ما توصّل إليه العلم الحديث وأكّده دراسات وأبحاث أجراها فريق بحثي أمريكي، كان قد أقرّها القرآن الكريم وأحكام الشريعة الإسلامية المتعلقة بتحديد فترة العدّة قبل أربعة عشر قرناً.

(1)- ينظر: محمد الصالح ناجحي: خلق الإنسان في القرآن. ص: 83-89.

(2)- ينظر: المرجع نفسه. 87-88.

## 2- أثر السياق الاجتماعي في آية تحريم الخمر:

تعدُّ ظاهرة الخمر من العادات السيئة التي كانت مُنتشرة بكثرة في الجاهلية، كما أنَّها اليوم من أعقد المشكلات التي يبحث الغرب عن حلول لها منذ عقود طويلة لكن دون جدوى. فقد كانت "الخمر" من أساسيات الحياة الجاهلية لا وبل كانت جزءاً لا يتجزأ من التقاليد المتغلغلة في المجتمع الجاهلي، يسرفون في شربها، «ويجعلونها من المفاخر التي يتسابقون في مجالسها ويتكاثرون، ويديرون عليها فخرهم في الشعر ومدحهم كذلك»<sup>(1)</sup>. ولأهميتها العظيمة عندهم أطلقوا عليها أسماء عديدة «كالصهباء والخندريس والراح والمعققة والبابلية والمشعشعة، وكم كان لحباب كأسها أو لحبابها في الكأس جرس موسيقي يسري في عواطف وخلجات الشعراء منذ قدم الأزل»<sup>(2)</sup>.

وإذا أردنا أن ندرك عمق تغلغل هذه الظاهرة في المجتمع الجاهلي، يجب أن نعود إلى الشعر الجاهلي؛ حيث نجد فيها عنصراً أساسياً من عناصر المادة الأدبية، كما أنَّها عنصر أساسي من عناصر الحياة كلها<sup>(3)</sup>. ونحو ذلك ما قاله الأعشى:

فَقَدْ أَشْرَبَ الرَّاحَ قَدْ تَعْلَمِينَ \*\*\* يَوْمَ المَقْلَمِ وَيَوْمَ الظُّعْنِ  
وَأَشْرَبُ بِالرَّيْفِ حَتَّى يَقَالَ \*\*\* قَدْ طَالَ بِالرَّيْفِ مَا قَدْ دَجَنَ

وقول امرؤ القيس:

وَأَصْبَحْتُ وَدَعْتُ الصِّبَا عَيْرَ أَنِّي \*\*\* أُرَاقِبُ حَلَّاتِ مِنَ العَيْشِ أُرْبَعَا  
فَمِنْهُنَّ قَوْلِي لِلنَّدَامَى: تَرَفَّقُوا \*\*\* يَدَا جُونَ نَشَاجًا مِنَ الخَمْرِ مَرَعَا  
وَمِنْهُنَّ رَكْضُ الخَيْلِ تَرْجُمُ بِالْفَنَا \*\*\* يُبَادِرْنَ سِرْبًا آمِنًا أَنْ يَفْرَعَا

وهكذا هم كانوا في جهلهم وضلالهم حتى برز فجر الإسلام، ووُضع المنهج الرباني الصحيح للقضاء على هذه الظاهرة واستئصالها من جذورها الاعتقادية الفاسدة، ف«لم يبدأ المنهج الإسلامي في علاج رذائل الجاهلية وانحرافاتهما، من هذه الرذائل والانحرافات.. إنما بدأ من العقيدة.. بدأ من شهادة لا إله إلا الله.. وطالت فترة إنشاء لا إله إلا الله هذه في الزمن حتى بلغت نحو ثلاثة عشر عاماً، لم يكن فيها غاية إلا هذه الغاية! تعريف النَّاسِ بإلههم الحق وتعبيدهم له وتطويعهم لسلطانه..»

(1)- سيد قطب: في ظلال القرآن. 973/7/2.

(2)- السيد الجميلي: الإعجاز الطبي في القرآن. تقديم محمد متولي الشعراوي. دار الهلال، بيروت، 1990م ص: 117.

(3)- ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن. 663/5/2-664.

حتى خلصت نفوسهم لله؛ وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيرة إلا ما يختاره الله.. عندئذ بدأت التكاليف - بما فيها الشعائر التعبدية - وعندئذ بدأت عملية تنقية رواسب الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والأخلاقية والسلوكية.. بدأت في الوقت الذي يأمر الله فيطيع العباد بلا جدال. لأنهم لا يعلمون لهم خيرة فيما يأمر الله أو ينهي عنه أيًا كان»<sup>(1)</sup>.

ومع هذا لم يكن تحريم الخمر أمرًا مفاجئًا، بل أخذ الإسلام في التدرج والرفق حين حرم هذه الظاهرة وقضى عليها، كما هيئ لها كل الظروف الحالية التي تيسر الطاعة والتنفيذ. وإن في ذلك لحكمة بليغة كما يقول محمد علي الصابوني « وذلك أن القوم ألفوا شرب الخمر، وأصبحت جزءًا من حياتهم، فلو حرمت عليهم دفعة واحدة لشق ذلك على نفوسهم، وربما لم يستجيبوا لذلك النهي، كما تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: "أول ما نزل من القرآن سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول ما نزل: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا"»<sup>(2)</sup>.

فجاء التحريم على ثلاثة مراحل، ولكل مرحلة سياق حال خاص بها، وفيما يأتي نذكرها على التوالي:

**المرحلة الأولى:** مرحلة التنفير المباشر منه، بتحريك الوجدان الديني والمنطق التشريعي للتنبية لما فيه من إثم وضرر جسيم بالمقارنة بمنافعه الضئيلة، وفي هذا إيجاء بأن تركها أولى. وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا قُلٌّ فِيهِمَا إِنَّمَا كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 219].

فقد قيل في سياق حال هذه الآية أنها « نزلت في عمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل، ونقر من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: أفتنا في الخمر والميسر؛ فإنهما مذهبة للعقل مسلبة للمال. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ»<sup>(3)</sup>.

وبتأمل السياق اللغوي لهذه الآية نلاحظ مجموعة من النقاط منها<sup>(4)</sup>:

- (1) - سيد قطب: في ظلال القرآن. 974-973/7/2.
- (2) - علي الصابوني: روائع البيان - تفسير آيات الأحكام من القرآن. مكتبة الغزالي، دمشق، سورية، ط3، 1400هـ - 1980م، 273/1.
- (3) - الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي: أسباب نزول القرآن. رواية: بدر الدين الأرياني، تحقيق: ماهر ياسين الفحل. دار الميمان للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 1426هـ/2005م، ص: 186.
- (4) - ينظر: خلود العموش: الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق. عالم الكتب الحديث أريد، لبنان، جدار للكتاب العالمي عمان - الأردن، ط1، 1429هـ/2008م. ص: 421-422.

أ- في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ...﴾. فسؤالهم عن الحكم قد يعني استعدادهم للقبول بأي حكم يأتي، ومع ذلك، فإن علم الله بأحوالهم واستحكام هاتين العادتين فيهم جعل التحريم الصريح يتأخر وجاء الجواب ﴿قُلْ﴾، ومضمون هذا القول ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ﴾ وهو جواب فيه تقديم وتأخير لِيُسلط الضوء على موضع السؤال من جهة، وليعلق السائل بموطن الإثم الكبير في هذه الحالة، وليضع نوعاً من الثفور بينهم وبينه، حيث إن الخمر والميسر هما مناط هذا الإثم.

ب- وفي قوله: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ﴾ جاء الإثم موصوفاً بوصف تضخيمي ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، وجاءت المنافع منكراً، وجاءت كلمة الإثم الدالة على المفرد لتوحي بجنس الإثم كله، بينما جاءت منافع بصيغة الجمع ليدل على أنها مهما كثرت فهي معدودة؛ أما الإثم فهو توالدي، كلُّ إثم يفضي إلى آثام عديدة غير متناهية.

ج- وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ جاء الإثم سابقاً للمنفعة لتعليق الذهن بالإثم وليس بالنفع؛ فالإثم هو القاعدة، والمنفعة هي الجزء العارض اليسير؛ فالإثم أكبر من النفع.

**المرحلة الثانية:** مرحلة التحريم الجزئي في أوقات الصلاة، وفي هذا تضيق لفرص مزاوله عادة الشرب، وكسر عادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي، لتقارب معظم أوقات الصلاة، وبذلك تفتت حدة العادة ويمكن التغلب عليها<sup>(1)</sup>. وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَارِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا ۗ﴾ [النساء: 43].

قيل في سياق حال هذه الآية أن: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾ «نَزَلَتْ فِي أَنْاسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَحْضُرُونَ الصَّلَاةَ وَهُمْ سُكَارَى، فَلَا يَدْرُونَ كَمْ يُصَلُّونَ وَلَا مَا يَقُولُونَ فِي صَلَاتِهِمْ»<sup>(2)</sup>.

كما روي عن «أبي عبد الرحمن، عن علي بن أبي طالب قال: صنع عبد الرحمن بن عوف

(1)- ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن. 229/2/2.

(2)- الواحدي: أسباب نزول القرآن. ص: 288.

طعامًا، ودعا أناسًا من أصحاب محمد ﷺ، فطعموا وشربوا، وحضرت صلاة المغرب، فتقدم بعض القوم فصلى بهم المغرب، فقرأ: ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ فلم يقمها، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (1).

المرحلة الثالثة: مرحلة التحريم الكلي أو النهي الجازم في جميع الأوقات، وجاء ذلك في قوله

تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۗ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴾ [المائدة: 90-91]

فقد روي في سياق حال هذه الآية عن « مُصْعَبُ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنِ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ، فَقَالُوا: تَعَالَى نَطْعُكَ وَنَسْقِيكَ خَمْرًا. وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ الْخَمْرُ، فَأَتَيْتُهُمْ فِي حُشٍّ - وَالْحُشُّ: الْبُسْتَانُ - فَإِذَا رَأْسُ جَزُورٍ مَشْوِيٍّ عِنْدَهُمْ، وَدُنُّ مِنْ خَمْرٍ، فَأَكَلْتُ وَشَرِبْتُ مَعَهُمْ، وَذَكَرْتُ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرِينَ، فَقُلْتُ: الْمُهَاجِرُونَ خَيْرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ. فَأَخَذَ رَجُلٌ لَحْيِي الرَّأْسِ فَضَرَبَنِي بِهِ فَجَدَعَ أَنْفِي، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيَّ - يَعْنِي نَفْسَهُ - شَأْنَ الْخَمْرِ: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾. رواه مسلم عن أبي خنيمَةَ» (2).

كما قيل في سبب نزول آيات التحريم أن عمر بن الخطاب كان يدعو الله في كل مرة أن يبين لهم في الخمر بيانًا شافيًا ف « عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ ﴾ [البقرة: 219]. فدعني عمر ففرت عليه، فقال: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي النَّسَاءِ: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَرَىٰ ﴾ [النساء: 43]. فكان مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَقَامَ الصَّلَاةَ يُنَادِي: لَا يَفْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سَكَرَانَ. فدعني عمر ففرت عليه، فقال: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾. فدعني عمر ففرت عليه، فلما بلغ إلى قوله: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴾. قال عمر: أنتهينا» (3).

ولقد قال العلماء أن قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ

(1)- الواحدي: أسباب نزول القرآن. ص: 288-289.

(2)- المصدر نفسه. ص: 357.

(3)- المصدر نفسه. ص: 358.

رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ [المائدة: 90-91] يدلُّ على تحريم الخمر من وجوه منها<sup>(1)</sup> :

أ- تصدير الجملة بـ ﴿ إِنَّمَا ﴾ الدالة على الحصر، معناها ليس الخمر إلا الرّجس وعمل الشيطان.

ب- أنه سبحانه قرنها بعبادة الأصنام، وجعلها رجسًا، وجعلها من عمل الشيطان، ومن المعلوم أنه لا يصدر منه إلا الشرّ البحت.

ج- أنه أمر بالاجتناب، وظاهر الأمر للوجوب، وأنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحًا كان الارتكاب خيبةً وممحقّةً.

د- ذكر أنّها شرٌّ أنواع المفاسد المنتجة، فقد ينتج عنها التّعادي والتّباض والصدُّ عن ذكر الله وعن الصلّاة خصوصًا.

هـ- سوق الكلام بطريق الاستفهام في قوله: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ كأنه قيل: قد تلي عليكم ما هو كافٍ في باب المنع، فهل أنتم منتهون، أم أنتم على ما كنتم عليه في الجاهليّة، وكأنكم لم تزجروا ولم توعظوا.

وهكذا، فقد انتهج الإسلام الخطة السليمة لتحريم الخمر تحريمًا قاطعًا والقضاء عليها من عمق جذورها، هذه الآفة التي أطلق عليها رسول الله ﷺ "أم الخبائث" لما فيها من أضرار فادحة في النفس والجسد والعقل والمال.

فقد أكّدت الدراسات العلميّة ذلك وقَرَّرَ العلماء الغربيون أنّها من أصعب الإشكالات التي يعانون منها وعجزوا أن يجدوا لها دواءً أو حلًّا، فهذا السّيّناتور الأمريكي "وليم فولبرايت" يقول عن مشكلة الخمر: "لقد وصلنا إلى القمر ولكنّ أقدامنا مازالت مُنغمسةً في الوحل، إنّها مشكلةٌ حقيقيّةٌ عندما نعلم أنّ الولايات المتّحدة فيها أكثر من 11 مليون مدمن خمر، وأكثر من 44 مليون شارب خمر". كما نقل البروفسور شاكيت أنّ 93% من سكان الولايات المتّحدة يشربون الخمر وأنّ 40% من الرّجال يعانون من أمراض عابرة بسببه و 5% من النّساء و 10% من الرّجال يعانون من أمراض مزمنة متعدّدة<sup>(2)</sup>.

(1)- ينظر: ابن خليفة عليوي: جامع النقول في أسباب النزول وشرح آياتها. مطابع الإشعاع، السعودية، الرياض. ط1، 1404هـ، 603/1-604.

(2)- ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 1041. ينظر: يوسف الحاج أحمد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة. ص: 620.

ونشرت مجلة اللانست (The Lancet) البريطانية -وهي أشهر المجلات الطبية في العالم- مقالاً عام 1987م بعنوان "الشوق إلى شرب الخمر" جاء فيه: إذا كنت مشتاقاً إلى الخمر فإنك حتماً ستموت بسببه. كما ذكر المؤلف أن أكثر من 200 ألف شخص يموتون سنوياً في بريطانيا بسبب الخمر<sup>(1)</sup>.

فمن تأثيرات وأضرار الخمر على جسم الإنسان التي أثبتتها الدراسات والأبحاث العلمية وأقرها الأطباء حديثاً ما يأتي<sup>(2)</sup>:

أ- يؤدي مرور الخمر في الفم إلى التهاب وتشقق اللسان، كما يضطرب الذوق، نتيجة ضمور الحليمات الذوقية، ويجف اللسان، وقد يظهر سيلان لعابي.

ب- الخمر توسع الأوعية الدموية الوريدية للغشاء المخاطي للمريء مما يؤدي إلى تفرجه وحدوث نزف خطير، وقد تبين أن 90% من المصابين بسرطان المريء هم مدمنو الخمر.

ج- يؤدي إلى احتقان الغشاء المخاطي للمعدة وزيادة إفراز حمض كلور الماء والبيسين (Pepsine) مما يؤدي إلى الإصابة بتقرحات ثم نزف، وعند المدمنين: تُصاب المعدة بالتهاب ضموري مزمن يؤدي للإصابة بسرطان المعدة.

د- تؤثر الخمر على القلب، فتعتل عضلته، حيث يسترخي القلب ويُصاب الإنسان بضيق في التنفس وإعياء عام، ويضطرب نظام القلب، مع تضخم الكبد وتورم القدمين، وقد ينتهي بالموت.

هـ- تؤثر أيضاً تأثيراً خطيراً في الكليتين فقد ثبت أنه عندما يمر الكحول منهما مع الدم يحدث فيهما تهيجاً والتهاباً. فإذا توالى هذا التهيج والالتهاب فإن نسيج الكليتين يصاب بالتلف، فقد دلت التجارب والإحصائيات على كثرة الإصابة بالتهاب الكلي نتيجة إدمان تعاطي المسكرات.

و- التناول المتكرر للخمر يؤدي إلى نقص عناصر أساسية لازمة للجسم كالپوتاسيوم

والكالسيوم، والمغنسيوم، والزنك، والفوسفات، مؤدياً إلى أعراض مرضية.

ز- يؤثر الخمر على الجهاز العصبي تأثيراً فورياً وواضحاً، حيث إن الخلايا العصبية أكثر الخلايا عُرضة لتأثيرات الكحول.

ح- تؤثر الخمر على الحالة النفسية، فيسبب القلق والأرق والأوهام والوسواس والهلاوس،

وفقد التركيز، وربما الإقدام على الانتحار.

(1)- ينظر: نايف منير فارس: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 511.

(2)- ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص 1038-1040 ، وينظر: أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 251-252.

إذًا، فقد أثبت الطب الحديث أضرار الخمر الفادح في العقل والجسم والنفس حتى قال بعض أطباء ألمانيا: اقلوا لي نصف الحانات أضمن لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات، والبيمارستانات (مستشفى الأمراض العقلي) والشجون<sup>(1)</sup>.

وعليه، ومما سبق يتضح أنّ الإسلام في تحريمه للخمر انتهج منهجًا صحيحًا أوّل ما راعى فيه الوضع والظرف الاجتماعي للإنسان الجاهلي آنذاك، حيث كانت الخمر متغلغلة في تقاليدهم، متلبّسة بعاداتهم ومألوفها، فجاء التحريم في القرآن الكريم على مراحل وخطوات حتى لا يحمّلهم ما لا طاقة لهم على حمله، وجعل لكلّ مرحلة سياق حال، وذلك ليهيئ لهم الأجواء المناسبة لتنفيذ الأوامر الإلهية الحكيمة. وكانت المرحلة الأخيرة التحريم فيها قاطع، وفي ذلك التحريم حكمة أنّها ﴿رَجَسُ مَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانِ﴾، والرجس هو الشيء القذر والنجس، وعن هذا الرجس والقذارة ينتج ويتسبب أضرار أشارت الآية إلى أهمّهما، وهي:

أولاً: الضرر الاجتماعي المتمثّل في علاقة المسلم بأخيه، في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: 91]. وقد أكّدت الإحصائيات أنّ معظم المشاكل الاجتماعية كنتفكك الأسرة وتشريد الأطفال وارتفاع معدلات الجريمة سببها شرب الخمر وتعاطي المخدرات.

ثانياً: الضرر التعبدي المتمثّل في علاقة العبد برّبّه أثناء الذكر والصلاة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: 91].

أمّا الأضرار الأخرى المتعلقة بصحة الإنسان فتركها للعلم ليكشف جانبها منها اليوم بالوسائل والآلات المستحدثة ويؤكد بذلك إعجاز القرآن الكريم في تحريمه الخمر.

(1)- ينظر: محمد علي الصابوني: روائع البيان، 1/281.

### المطلب الثاني: السياق الحالي ( أسباب النزول )

السياق الحالي أو المقامي هو ما اصطلح عليه المفسرون بأسباب النزول، ويقصد به «الأحداث والوقائع الملازمة للنص القرآني»<sup>(1)</sup>. ويُعرف سبب النزول بأنه «عبارة عن حادثة وقعت في زمن النبي ﷺ، واقتضت إنزال آية أو آيات تبين حكم الله فيها، أو هو سؤال وجه من أحد الحاضرين إلى النبي ﷺ، فنزلت الآية، أو آيات مجيبة عن هذا السؤال»<sup>(2)</sup>.

فللكثير من آيات الذكر الحكيم سبب أو مناسبة لنزولها، ووقائع وأحداث ملازمة لها، كلها حصلت في زمن رسول الله ﷺ فقرّر على أساسها تنبيه، أو تحذير، أو تحريم، أو إباحة لأمر معين. ولا تُعدّ الحادثة «سبباً في إنزال الآيات إلا إذا وقعت في عهد رسول الله ﷺ، أمّا الحوادث التي وقعت في عهد الأنبياء السابقين، وقصّها الله علينا في القرآن الكريم من تكذيب الأمم لرسولها، وما حاق بالأمم المكذبة من العذاب، فلا تعتبر هذه الحوادث سبباً في إنزال الآيات، وكذلك الحوادث المستقبلية التي أخبرنا الله تعالى بها في القرآن؛ كأحوال اليوم الآخر، وما فيه من نعيم وعذاب، فلا تعتبر هذه الحوادث من أسباب النزول»<sup>(3)</sup>.

وقد جاء الاهتمام بمناسبة النزول من قبل المفسرين وعلماء علوم القرآن لتتمكّن من فهم النصّ القرآني واستخراج دلالاته، بوصفه نصّاً نزل مُنجمًا -مُفرّقًا- تبعاً لتنوع الأحداث والوقائع، فلم ينزل كلّ في مكان واحد، ولا زمان واحد، ولا لحدث واحد، ولهذا احتاج فهمه إلى معرفة مكان النزول وزمانه ومناسبته حتى يمكن تفسيره<sup>(4)</sup>. قال الواحدي: «ليس بالإمكان تفسير الآية القرآنية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها»<sup>(5)</sup>.

فمعرفة سبب النزول أثر كبير في تدبّر النصّ القرآني وتفسيره وفهمه فهماً صحيحاً، ومن أمثلة ذلك في آيات الإعجاز العلمي في خلق الحيوان ما يأتي:

(1) - طاهر سليمان حمودة: دراسة المعنى عند الأصوليين. الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، دط، 1983م. ص: 222.  
(2) - عبد الفتاح عبد الغني القاضي: أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين. ص: 5.  
(3) - المصدر نفسه. ص: 5.  
(4) - ينظر: أمل حامد بدر: ملامح أسلوبية في سورة القيامة. ص: 184.  
(5) - الواحدي: أسباب نزول القرآن. ص: 41.

## 1- أثر السياق الحالي في تدبر آية خلق البعوضة:

من آيات الإعجاز العلمي في خلق الحيوان، التي كان لها ملابسات وسبب لنزولها قوله تعالى في البعوضة وما فوقها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۚ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَتَقَضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا ءَامَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: 26-27]

يقول أبو السعود إن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ...﴾ «شروع في تنزيه ساحة التنزيل عن تعلق ريب خاص؛ اعتراضهم من جهة ما وقع فيه من ضرب الأمثال؛ وبيان لحكمته؛ وتحقيق للحق؛ إثر تنزيهها عما اعتراضهم من مطلق الريب؛ بالتحدي؛ وإلزام الحجر؛ وإفحام كافة البلغاء من أهل اليمدر والوبر»<sup>(1)</sup>؛ فإله سبحانه وتعالى لما بين بالدليل القاطع كون القرآن معجزاً، -وتحداهم في أكثر من موضع بأن يأتوا بمثله، ولما عجزوا شرعوا في القدح في فصاحة القرآن وإعجازه- أورد ههنا شبهة أوردتها الكفار قدحاً في ذلك وهي: أنه جاء في القرآن ذكر النحل والدباب والعنكبوت والتمل، وهذه الأشياء لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فاشتمال القرآن عليها يقدح في فصاحته فضلاً عن كونه معجزاً، فأجاب الله تعالى عنه بأن صغر هذه الأشياء لا يقدح في الفصاحة إذا كان ذكرها مشتتاً على حكم بالغة<sup>(2)</sup>. وهذا الجواب يسمى جواب اعتراض، كما يقول ابن القيم «فكأن معترضاً اعترض على هذا الجواب أو طلب حكمة ذلك فأخبر تعالى عما له في ضرب تلك الأمثال من الحكمة وهي إضلال من شاء وهداية من شاء، ثم كأن سائلاً سأل عن حكمة الإضلال لمن يضلُّه بذلك فأخبر تعالى عن حكمته وعدله وأنه إنما يضل به الفاسقين»<sup>(3)</sup>.

فقد جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة ثلاث روايات<sup>(4)</sup>:

الرؤية الأولى: عن ابن عباس في رواية أبي صالح: لما ضرب الله سبحانه هذين المثلين للمنافقين: يعني ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17] وقوله: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُورٌ يُجْعَلُونَ أَصْنَعُهُمْ فِي ءَادَانِهِمْ مِنَ الصَّوْعِقِ﴾

(1)- أبو السعود: تفسير أبو السعود. 123/1.

(2)- ينظر: فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 144/2.

(3)- ابن القيم: بدائع الفوائد. ص: 1550.

(4)- ينظر: الواحدي: أسباب النزول. ص: 125-126. وينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. 363/1.

حَدَرَ الْمَوْتَ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿البقرة: 19﴾ قَالُوا: اللَّهُ أَجْلٌ وَأَعْلَىٰ مِنْ أَنْ يَضْرِبَ الْأَمْثَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً ﴿إلى قوله: ﴿أَوْلَيْتَكَ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ .

الرَّوَايَةُ الثَّانِيَّةُ: عن الحسن وقتادة: أَنَّ اللَّهَ لَمَّا ذَكَرَ الذُّبَابَ وَالْعَنْكَبُوتَ فِي كِتَابِهِ وَضَرَبَ لِلْمُشْرِكِينَ بِهِ الْمَثَلَ؛ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ إِنَّكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿الحج: 73﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41] ضَحِكْتَ الْيَهُودُ وَقَالُوا: مَا يُشْبِهُ هَذَا كَلَامَ اللَّهِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ.

الرَّوَايَةُ الثَّلَاثَةُ: فِي رِوَايَةِ عَطَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ آلهَةَ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: 73]، وَذَكَرَ كَيْدَ الْآلِهَةِ فَجَعَلَهُ كَبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، قَالُوا: أَرَأَيْتَ حَيْثُ ذَكَرَ اللَّهُ الذُّبَابَ وَالْعَنْكَبُوتَ فِيمَا أَنْزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَىٰ مَحْ مَد، أَي شَيْءٍ يَصْنَعُ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ.

فهذه الآيات « تشبي بأن المنافقين - وربما كان اليهود والمشركين - قد وجدوا في هذه المناسبة منفذاً للتشكيك في صدق الوحي بهذا القرآن، بحجة أن ضرب الأمثال هكذا بما فيها من تصغير لهم وسخرية منهم لا تصدر عن الله، وأن الله لا يذكر هذه الأشياء الصغيرة كالذباب والعنكبوت في كلامه!.. وكان هذا طرفاً من حملة التشكيك والبلبله التي يقوم بها المنافقون واليهود في المدينة، كما كان يقوم بها المشركون في مكة.

فجاءت هذه الآيات دفعا لهذا الدس، وبيانا لحكمة الله في ضرب الأمثال، وتحذيرا لغير

المؤمنين من عاقبة الاستدراج بها، وتطمينا للمؤمنين أن ستزيدهم إيمانا» (1).

إن الملاحظ من سياق هذه الآية الكريمة من سورة البقرة أنها تشتمل على وجوه من رعاية

حال المتكلم أو مقامه (2):

(1) - سيد قطب: في ظلال القرآن. 50/1/1.

(2) - ينظر: عبد الحميد هنداري: الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم - دراسة نظرية تطبيقية. دار البشير: الشارقة - الإمارات، دار عباد الرحمن: دط، دت، ص: 55-60.

الأول: رعاية مقام الحق سبحانه فيما تكلم به عن نفسه، وهو يشمل الآية كلها دون قول الذين كفروا.

الثاني: رعاية حال الكفار فيما حكى القرآن عنهم: ﴿مَا ذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا...﴾.

فالموضع الأول يُبيّن مقام الحق سبحانه في ردّه على هؤلاء اليهود والمشركين في استنكارهم أن يضرب الله تعالى المثل بالأشياء الحقيرة، ومما يدل على رعاية مقام المتكلم في الآية: - ابتداء الآية بالتوكيد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أن يضرب مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا ﴿الذي يدل على عظمة المتكلم وجلاله وقوة خطابه وصلابته في تأكيد أن ما يقرّره الحق سبحانه هو الحق الذي لا مرية فيه، وأن حقارة الأشياء أو صغرها لا تمنع ربّ العزة جلّ وعلا من ضرب المثل بها تعليماً لعباده وبيانا لهم، وهل يستحي الخالق من خلقه الذي هو دليل إعجازه؟

ب- مبالغة ربّ العزة تبارك وتعالى في اختيار أعظم الأشياء التي يضرب بها المثل احتقاراً وضالة ليمثّل بها، ويبيّن أنّه لا يستحي من ذكرها إمعاناً في تحدي هؤلاء الكافرين، وإمعاناً في توبيخهم وعدم الالتفات إلى سخافتهم، بل على العكس من ذلك يبالغ في تقرير ما نفوه وما لم يرضوا به غير عابئ بما تُمليه عقولهم وقلوبهم المريضة. ويظهر ذلك كُله من اختيار كلمة "بعوضة" وهي من أصغر الحشرات وأحقرها، ثم التّركي إلى ذكر ما فوقها.

أمّا بالنسبة للموضع الثاني وهو رعاية حال الكفار فيما حكى القرآن عنهم: ﴿مَا ذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا...﴾، فإنّه واضح الدلالة في الكشف عن حال هؤلاء الكفار وسوء أديهم مع الله تعالى، وجرأتهم عليه، وتبجّحهم في مقالاتهم، وقد جاءت صياغة الآية مُطابقة لحال هؤلاء المتكلمين بهذه المقولة، فالاستفهام هنا استفهام إنكار، أي بمعنى النفي. فسؤالهم هذا «هو سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته، المقطوع الصلّة بسنة الله وتدييره، ثم هو سؤال من لا يرجو الله وقاراً، ولا يتأدّب معه الأدب اللائق بالعبد أمام تصرفات الرّب، يقولونها في جهل وقصور في صيغة الاعتراض والاستنكار، أو في صورة التّشكيك في صدور مثل هذا القول عن الله» (1).

إِذَا، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمَعْجِزَةِ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَسْتَصْغِرُ شَيْئًا يَضْرِبُ بِهِ مَثَلًا وَلَوْ كَانَ فِي الْحُقَارَةِ وَالصَّغَرِ كَالْبُحُوضَةِ، أَوْ مَا فَوْقَهَا مِنَ الْخَلْقِ، وَذَلِكَ تَحَدِّيًا لِلْكَفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَتَوْبِيخًا لَهُمْ. وَأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى حِينَ يَضْرِبُ الْأَمْثَالَ - وَلَوْ كَانَ بِالْبَعُوضَةِ - فَإِنَّهُ يَدْعُو النَّاسَ أَنْ يَتَفَكَّرُوا فِيهَا، وَيَمَعْنُوا النَّظَرَ فِيهَا، وَأَنْ يَسْتَفِيضُوا فِي الْبَحْثِ حَتَّى يَرِسَخَ الْإِيمَانُ فِي نَفْسِهِمْ وَيَزْدَادَ، فَهُوَ الْخَالِقُ وَفِي خَلْقِهِ يَكْمُنُ الْإِعْجَازُ، هَذَا الْإِعْجَازُ الدَّلَالُ عَلَى الْقُدْرَةِ وَبِدَائِعِ الصَّنْعَةِ وَيَشْهَدُ بِحِكْمَةِ الْخَالِقِ. فَمَا هِيَ الْبَعُوضَةُ؟ وَمَا الْمَقْصُودُ بِ"فَمَا فَوْقَهَا"؟ وَلَمْ يَضْرِبِ اللَّهُ بِهَا مَثَلًا؟ وَمَاذَا خَصَّ الْأُنْثَى بِالذِّكْرِ؟ وَأَيْنَ يَكْمُنُ وَجْهَ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؟

لقد ورد لفظ البعوضة في القرآن الكريم مرّة واحدة - نكرة مفردة مؤنثة - في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۚ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰلسِقِينَ ۗ﴾ [البقرة: 26].

وفي معنى لفظ ﴿بَعُوضَةً﴾: جاء في القاموس المحيط أن "البعوضة": «البقّة، ج: بعوض»<sup>(1)</sup>، وجاء في البحر المحيط أن البعوض « طائرٌ صَغِيرٌ جَدًّا مَعْرُوفٌ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ صِفَةٌ عَلَى فُعُولٍ كَالْقُطُوعِ فَعُلِبْتُ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الْبَعْضِ بِمَعْنَى الْقَطْعِ»<sup>(2)</sup>. وعرفها ابن عاشور في التحرير والتنوير بأنها « حَشْرَةٌ صَغِيرَةٌ طَائِرَةٌ ذَاتُ خُرْطُومٍ دَقِيقٍ تَحُومُ عَلَى الْإِنْسَانِ لِتَمْتَصَّ بِخُرْطُومِهَا مِنْ دَمِهِ غِذَاءً لَهَا، وَتُعْرَفُ فِي لُغَةِ هَدَابِلِ بِالْحُمُوشِ، وَأَهْلُ ثُونِسَ يُسَمُّونَهُ التَّامُوسَ وَاحِدُهُ التَّامُوسَةُ وَقَدْ جُعِلَتْ هُنَا مَثَلًا لِشِدَّةِ الضَّعْفِ وَالْحُقَارَةِ»<sup>(3)</sup>. وقيل في البعوض أنه: «من عجائب خلق الله تعالى؛ فإنه صغيرٌ جدًّا وخُرْطُومُهُ فِي غَايَةِ الصَّغَرِ ثُمَّ إِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ جُحُوفٌ ثُمَّ ذَلِكَ الْخُرْطُومُ مَعَ فَرْطِ صِغَرِهِ وَكُونِهِ جَوْفًا يَعْوَصُ فِي جِلْدِ الْفِيلِ وَالْجَامُوسِ عَلَى ثُخَانَتِهِ، كَمَا يَضْرِبُ الرَّجُلُ إصْبَعَهُ فِي الْحَبِيبِ، وَذَلِكَ لِمَا رَكَّبَ اللَّهُ فِي رَأْسِ خُرْطُومِهِ مِنَ السَّمِّ»<sup>(4)</sup>.

أمّا حديثًا وفي علم الحشرات، تُعرَفُ البعوضُ ةً بأنها «حشرة ضئيلة الحجم من ثنائيات الأجنحة (Diptera)، تتبع عائلة ضخمة من الحشرات تعرف باسم (Family Culicidae)، وتضمُّ

(1)- الفيروزبادي: القاموس المحيط، ص: 117.

(2)- أبو حيان: تفسير البحر المحيط، 262/1.

(3)- ابن عاشور: التحرير والتنوير، 362/1.

(4)- فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، 148/2.

ما بين الألفين والثلاثة آلاف نوع من البعوض. وتأتي في المرتبة الثانية تعدادًا بعد النمل»<sup>(1)</sup>.

وهي من الحشرات الملازمة للإنسان في كثير من الأماكن وهي مؤذية جدًا، وتنقل له بعض أسوأ الأمراض، والبعوض أنواع كثيرة، ومن أخطرها الأنواع الثلاثة الآتية<sup>(2)</sup>:

أ- بعوضة الإنفيل: التي تنقل طفيل مرض الملاريا، مرض البرداء، وهذا الطفيل خطير، كما تنقل طفيليات العديد من الأمراض الأخرى، مثل: طفيل مرض الفلاريا الذي يسبب داء الفيل، وتنقل فيروس حمى التهاب الدماغ المعروف باسم الحمى الدماغية.

ب- بعوضة الكيولكس: التي تنقل كلا من طفيل مرض الفلاريا وفيروس الحمى الدماغية.

ج- البعوضة الزاعجة: التي تنقل فيروسات الحمى الصفراء والحمى الدماغية، أو حمى داء الركب أو حمى الركب النازفة أو حمى تكسير العظام.

أمّا في معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ عند المفسرين نقلًا عن أهل التأويل، فيه قولان<sup>(3)</sup>:  
أحدهما: أن معناه: فما فوقها في الكبر؛ أي: أن يكون المراد فما هو أعظم منها في الجثّة كالذباب والعنكبوت والحمار والكلب، فإنّ القوم أنكروا تمثيل الله تعالى بكلّ هذه الأشياء، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، وابن جرير، والقرّاء.

والثاني: فما فوقها في الصغر، فيكون معناه: فما دونها في الصغر، والحجارة، كما إذا وُصف رجلٌ باللؤم والشح، فيقول السامع: نعم، وهو فوق ذلك، يعني فيما وصفت، وهذا قول الكسائي وأبي عبيدة.

وعليه يكون لفظ "فوق" صالح للمعنيين؛ فقد يُجُلُّ على العلو، فإذا قيل هذا فوق ذاك، فإنما معناه أنه أكبر منه، وقد يكون الفوق بمعنى: دون. فهو إذاً من الأضداد، ومثله: الجون؛ يُقال: للأسود الأبيض. والصريم: الصبح، والليل. والحلل: الصغير، والكبير<sup>(4)</sup>، ولذلك «كان لإختياره في هذه الآية دون لفظ أقل، ودون لفظ أقوى مثلاً موقّع من بليغ الإعجاز»<sup>(5)</sup>.

(1)- زغول النجار: الحيوان في القرآن- من آيات الإعجاز العلمي. ص: 175.

(2)- ينظر: محمد عزيز مخلف الفهداوي: الإعجاز العلمي في الحشرات الطائرة التي ذُكرت في القرآن الكريم. مقال. مجلة العلوم الإسلامية. العدد الحادي عشر، 2015م. ص: 331-332.

(3)- ينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. 207/1. ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير. 55/1. فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 148/2.

(4)- ينظر: ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير. 55/1.

(5)- ابن عاشور: التحرير والتنوير. 362/1.

ومن هذين القولين رجحَ أَكْثَرُ الْمُحَقِّقِينَ - على قول الرازي - المعنى الثاني لوجود منها<sup>(1)</sup> :

أ- أن الـمَقْصِدَ مِنْ هَذَا التَّمْثِيلِ تَحْقِيرُ الأَوْثَانِ، وَكُلَّمَا كَانَ الـ مُشَبَّهُ بِهِ أَشَدَّ حَقَارَةً كَانَ الـمَقْصُودُ فِي هَذَا البَابِ أَكْمَلَ حُصُولًا.

ب- أن العَرَضَ هَهُنَا بَيَانٌ أَنَّ اللّٰهَ تَعَالَى لَا يَمْتَنِعُ مِنَ التَّمْثِيلِ بِالشَّيْءِ الحَقِيرِ ، وَفِي مِثْلِ هَذَا الـمَوْضِعِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الـ مَدْكُورُ ثَانِيًا أَشَدَّ حَقَارَةً مِنَ الأَوَّلِ، يُقَالُ: إِنَّ فُلَانًا يَتَحَمَّلُ الدُّلَّ فِي اكْتِسَابِ الدِّينَارِ، وَفِي اكْتِسَابِ مَا فَوْقَهُ، يَعْنِي فِي القَلَّةِ؛ لِأَنَّ تَحْمُلَ الدُّلِّ فِي اكْتِسَابِ أَقَلِّ مِنَ الدِّينَارِ أَشَدُّ مِنْ تَحْمُلِهِ فِي اكْتِسَابِ الدِّينَارِ.

ج- أن الشَّيْءَ كُلَّمَا كَانَ أَضْعَرَ كَانَ الإِطْلَاعُ عَلَى أَسْرَارِهِ أَصْعَبَ، فَإِذَا كَانَ فِي نَهَايَةِ الصَّعْرِ لَمْ يُحِطْ بِهِ إِلَّا عِلْمُ اللّٰهِ تَعَالَى، فَكَانَ التَّمْثِيلُ بِ هِ أَقْوَى فِي الدَّلَالَةِ عَلَى كَمَالِ الحِكْمَةِ مِنَ التَّمْثِيلِ بِالشَّيْءِ الكَبِيرِ.

ومنه، فالمقصود بالفوقية في الآية الكريمة عند علمائنا الأوائل هو: الزيادة في حجم الممثل به، فهو ترقُّ من الصَّغِيرِ لِلْكَبِيرِ، أو الزيادة في المعنى الذي وقَع التَّمْثِيلُ فِيهِ، وهو الصَّعْرُ، والحَقَارَةُ، فهو تَنْزُلٌ مِنَ الحَقِيرِ لِالأَحْقَرِ<sup>(2)</sup>.

ولقد جاء التَّرجيح للمعنى الثاني وذلك لدلالة سياق النَّصِّ القرآني عليه فهو « إمعان في التَّحدي، ومبالغة في الاستهزاء بالكفار وعدم المبالاة بأفكارهم واعتقاداتهم الفاسدة»<sup>(3)</sup>.

هذا عن معنى ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ في التَّفاسير الأولى أمَّا إِذَا رَجَعْنَا إِلَى التَّفاسير الحديثة فَإِنَّا لَا نَجِدُ اختلافاً كبيراً بينهما في دلالتها، ففي تفسير الآيات الكونية لزلغول النجار يرى أَنَّ التَّعبير بـ ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ « يشمل المعنيين المتضادين معاً أي ما يفوقها ضالة في الحجم حتَّى لا يرى بالعين المجردة، وما يفوقها ضخامة في البنيان، وكذلك يشمل هذا التَّعبير القرآني أخطار البعوضة كما يشمل أخطار غيرها من الكائنات الدقيقة التي لم تكن معروفة في زمن الوحي بالقرآن، والكائنات التي تفوقها حجماً؛ لأنَّ الفوقية في اللُّغة تعني الزيادة والعلوُّ في صفة يوضِّحها السِّياق»<sup>(4)</sup>.

ولمَّا لم يكن في زمن الوحي من يدرك من الكائنات الحيَّة ما هو أدقُّ من البعوضة، وذلك من

(1)- ينظر: فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 148/2-149.

(2)- ينظر: الألوسي: روح المعاني. 207/1.

(3)- عبد الحميد هنداوي: الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم. ص: 58.

(4)- زغلول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. 81/1.

مثل: الفيروسات، والبكتيريا، والطحالب، والفطريات، وغير ذلك من الكائنات الدقيقة جاءت الصياغة القرآنية المعجزة بقوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ ، كذلك في زمن الوحي لم يكن يدرك الناس روعة بناء البعوضة، ودقة خلقها، وحقيقة خطرها فكانوا يستهينون بها، أمّا اليوم وفي زماننا - زمن العلم والتقدم التقني - فالبعوضة مع ضآلة حجمها فإنها تعجز البشرية كلها عن الإتيان بشيء مثلها، كما تقف عاجزة أمام أخطار هذه الحشرة الصغيرة - التي تبلغ في خطرها على حياة الإنسان أنها تُعدُّ اليوم واحدة من أخطر الآفات الحشرية على الإطلاق - على الرغم من كل مستويات التقدم التي حققتها إنسان هذا العصر (1).

فلقد اكتشف العلم الحديث أن للبعوضة صفات خلقية عجيبة ومُعجزة يقف الإنسان مذهولاً أمامها، منها (2):

أنَّ في رأس البعوضة مئة عين وهي على شكل خلية النحل، وفي فمها ثمان وأربعون سنّاً، وفي صدر البعوضة ثلاثة قلوب. وفي أرجلها مخالب إذا أرادت أن تقف على سطح خشن، ولها محاجم إذا أرادت تقف على سطح أملس. وللبعوضة خرطوم فيه ستُّ سكاكين، أربع سكاكين تُحدث في جلد الملدوغ جرحاً مرتبّعاً، ولا بد من أن يصل الجرح إلى وعاء دمويّ، والسكّينتان الخامسة والسادسة تلتقيان لتكوّنا أنبوباً لامتنصاص دم الملدوغ.

كما أنَّ للبعوضة عدّه أجهزة، فهي تملك جهاز تحسس "رادار"، أو مستقبلات حرارية، بمعنى أنَّ البعوضة لا ترى الأشياء بأشكالها وألوانها، بل بجرارتها، فلو أنَّ بعوضة وُجدت في غرفة مظلمة فإنها ترى فيها الإنسان النَّائم ، لأن حرارته تزيد على درجة أثار الغرفة، وحساسية هذا الجهاز واحد من الألف من درجة الحرارة المتوية.

وتملك أيضاً جهازاً للتخدير، لأنها لو وقفت على جلد الإنسان وغرست خرطومها فيه لقتلها، لكنها تخدّر موضع لسعها، وحينما يزول أثر المخدّر يشعر الإنسان بألم اللسع، في حين أنَّ البعوضة تطير في جوّ الغرفة. فهي تخدّر الجلد وتمتص ما شاءت من الدّماء.

وجهازاً لتحليل الدّم، فما كلُّ دم يناسبها، فقد يُعجبها دم هذا النَّائم ولا يعجبها دم أخيه وهم على سرير واحد، فتعكف على الأول، وتترك الثاني.

(1) - ينظر: زغلول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. 81/1-82.

(2) - ينظر: محمد راتب النابلسي: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة - آيات الله في الأفاق. ص 405-406. وينظر: يوسف الحاج أحمد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة. ص: 510-511.

وجهازاً لتميع الدم الذي تمتصه من الإنسان، حتى يتيسر له المرور عبر خرطومها الدقيق ولا يتخثر فيه.

كما أثبت علم الحشرات الحديث أن أنثى البعوض تختلف وتتميز عن ذكرها في أشياء كثيرة منها (1) :

- أ - أن الأنثى هي التي تنقل الأمراض، وهي الأشد قوة وأكثر تعقيداً.
- ب - الأنثى هي التي تنتشر في المنازل وتنشر الأمراض، أما الذكور لا تظهر إلا في موسم الزواج فقط.
- ج - وأن الأنثى هي التي تلدغ وتمتص الدماء، وليس الذكر.
- د - وأن الأنثى في امتصاصها للدماء فهي لا تمتصه لتغذى عليه، ولا لتستفيد به هي لنفسها؛ لأن غذاء البعوض عامة هو خلاصة الزهور، وإنما تمتص الدماء لتغذية بيضها؛ فأنثى البعوض تحمل بيضات وهذه البيضات تحتاج إلى بروتين لتكبر، وهي بهذه الطريقة تحافظ على دوام نسلها.
- وهنا ندرك سرّاً وسبباً في ضرب الله عز وجل المثل في القرآن بالبعوضة الأنثى من دون الذكر، وذلك لما تتميز به الأنثى عن الذكر.

وأخيراً يجدر بنا أن نشير أن هناك تقاطع وتعانق دلالي في هذه الآية المعجزة بين السّياع اللغوي والحقائق العلمية في خلق البعوض في نقاط منها (2) :

أن تنكير لفظ ﴿بَعُوضَةً﴾، وإيراد اسم الموصول "ما" مكرراً في هذا النص القرآني المعجز يشير إلى تعدد أنواع البعوض، فضلاً عن شمول كل مآ هو دونها حجماً، وما هو أكثر منها ضخامة، وكل ما دونها أو أكثر منها ضرراً من مخلوقات الله.

أن إفراد لفظ ﴿بَعُوضَةً﴾ وتأنينه يشير إلى عيشة البعوض عيشة فردية سوى في حالة التزاوج وإلى تمايز الأنثى على الذكر في هذه الحشرة الخطيرة، وإلى تفرد الأنثى وحدها -دون الذكر- بهذا الخطر الداهم، وهي حقيقة لم يعرفها الإنسان إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

(1) - ينظر: أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 375-374.

(2) - ينظر: زغلول النجار: الحيوان في القرآن الكريم - من آيات الإعجاز العلمي. ص: 178-179.

## 2- أثر السياق الحالي في بيان آية تحريم الميتة ولحم الخنزير:

إنَّ أهميَّة معرفة السِّيَاق الحالي (أسباب النُّزول) للنَّص القرآني لا تتوقَّف عند مجرَّد معرفة الحقائق التاريخية المتعلِّقة في الهيكل التَّركيبي للنَّص، أو فهم النَّصِّ واستنباط دلالاته، بل بالإضافة إلى ذلك فإنَّ التَّحقيق بشأن الأسباب والأحداث يُؤدِّي إلى فهم "حكمة التَّشريع" خصوصًا في آيات الأحكام حيث إنَّ خصوصيَّة فهم الحكمة أو العلة تساعد الفقيه على أن يقوم ومن خلال إحدى الأحداث الجزئية أو الخاصَّة إلى تعميمه على الأمور والحالات المشابهة ويقوم بعملية القياس<sup>(1)</sup>.

ومن آيات الأحكام (التَّشريع) التي كان لها ملاسبات وأحداث مصاحبة لموضوعها، تلك الآيات التي نزلت في تبيان الحلال والحرام من المأكولات، والتي ذكر فيها جميعًا تحريم الميتة، ولحم الخنزير، وهي أربع:

قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 173].<sup>ط</sup>

وقوله تعالى من سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُرْدِيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْنَقُوا بِالْأَنْزِلِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: 3].

وقوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَنْ رَبِّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: 145].

وقوله تعالى من سورة النحل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَنْ رَبِّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 115].

إنَّ ترتيب هذه الآيات على حسب ورودها في المصحف، لكن إذا نظرنا إلى ترتيبها حسب الزَّمان والمكان (المكي والمدني) الذي نزلت به، والذي يروى أو يقال بهما النَّصُّ نجده يختلف عن هذا ترتيب، حيث نجد سورتي الأنعام والنحل هما الأولين لأنَّهما مكَّيتان ثم سورتي البقرة والمائدة لأنَّهما مدنيَّتان، وعلى هذا الأساس ننظر في سياق حال هذه الآيات فيما يأتي:

(1)- ينظر: حيدر علوي نجاد: فهم النص في سياقه التاريخي. ص: 68-69.

## أ- آيتي التحريم في سورة الأنعام والنحل (المكيتين):

لقد نزلت هذه الآية من سورة الأنعام ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٥) ﴿بِمَكَّةَ الْمَكْرَمَةَ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِي الشَّرِيعَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ شَيْءٌ مُحَرَّمٌ غَيْرَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ؛ الْمَيْتَةِ، وَالْدَّمِ الْمَسْفُوحِ وَلَحْمِ الْخِزِيرِ (1)﴾.

في تفسير هذه الآية يقول الطبري: « هذا إعلام من الله - جل ثناؤه - للمشركين الذين جادلوا نبي الله وأصحابه في تحريم الميتة بما جادلوهم به، أن الذين جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذي حرّمه الله، وأن الذين زعموا أن الله حرّمه حلالاً قد أحله الله، وأنهم كذبوا في إضافتهم تحريمه إلى الله» (2).

وفيما روي عن أهل التأويل في السياق الحالي والسياق الاجتماعي (\*) لهذه الآية، أنه كان في الجاهلية يبيحون أنواعاً من الأكل ويجرمون أنواعاً أخرى دون علم ولا بينة ولا أساس، فنزلت هذه الآية لـ «يقرر لهم ما حرّمه الله عليهم من هذا كلّهُ. ما حرّمه الله حقاً عن بينة ووحى، لا عن ظنٍّ ووهم، والله هو صاحب الحاكمية الشرعية، الذي إذا حرّم الشيء فهو حرام، وإذا أحله فهو حلال؛ بلا تدخّل من البشر ولا مشاركة ولا تعقيب في سلطان الحاكمية والتشريع» (3). فقد جاء في تفسير الطبري « عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه في قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ قال: كان أهل الجاهلية يجرمون أشياء ويحلّون أشياء، فقال -الله لنبيه-: قل لا أجد مما كنتم تُجرّمون وتستحلّون إلا هذا: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾» (4).

أمّا سورة النحل فالمروي أنّها نزلت بمكة بعد سورة الأنعام، وقد بيّن فيها الله -هي الأخرى- الحلال والحرام من الذبائح في قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

(1) - ينظر: ابن عطية: المحرر والوجيز. ص: 670.

(2) - الطنبي: جامع البيان عن تأويل أي القرآن. 632/9.

(\*) - لا يفرق بعض الدارسين المحدثين بين السياقين (السياق الحالي والسياق الاجتماعي)، ومنهم من يعد السياق الاجتماعي من سياق الحال متكاملاً على كون اللغة ظاهرة اجتماعية لا يمكن فصلها عن المجتمع والسياق الاجتماعي. في حين نجد بعضهم يفرق بينهما في كون سياق الحال سياقاً مؤقتاً يتصف بالأنية عند النطق بالكلام أو عند كتابته، أم السياق الاجتماعي فهو سياق سائد يتصف بالثبات أو الدوام، ويبدو أن هذا الكلام لا ينطبق على النص القرآني؛ لأن سياقه يتناول جميع الأغراض والمقاصد الأساسية التي تدور عليها جميع معاني القرآن إلى جانب النظم الإعجازي والأسلوب البياني. ينظر: خليل خلف بشير العامري: السياق غير اللغوي في النص القرآني. ص: 1297.

(3) - سيد قطب: في ظلال القرآن. 1225/8/3.

(4) - الطنبي: جامع البيان عن تأويل أي القرآن. 632/9.

إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِنَا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ [النحل: 114-117].

وفي تفسيرها يقول الطبري هي: « إعلامٌ من الله عباده أن ما كان المشركون يُحرمونه من البحائر والسوائب والوصائل، وغير ذلك [...] إذ كان ذلك من خطوات الشيطان، فإن كل ذلك حلالٌ لم يحرم الله منه شيئاً »<sup>(1)</sup>. فالله تعالى في سياق آية النحل يوجه الخطاب للناس بأنه لم يحرم عليهم إلا الميتة والدم ولحم الخنزير، وما ذبح للأنصاب، فسمي عليه غير الله، لأن ذلك من ذبائح من لا يحل أكل ذبيحته.

فالظاهر من هاتين الآيتين المكيّتين (الأنعام والنحل) أن توجيه الخطاب فيهما مختلف: فآية الأنعام الخطاب فيها موجه للمشركين، فقد أنزلت بيانا للحكم الذي أمر به الله في سياق الاحتجاج على المشركين المنكرين لمضمونه، بما كانوا يجعلون ويحرمون بأهوائهم، ويفترون على الله تعالى ولم يكن سياقها بيانا من الوحي في ذلك فجاءت بحصر النفي والإثبات على القاعدة.

أمّا آية النحل فالخطاب فيها موجه للناس كافة، فهي نزلت مؤكدة لمضمونها في خطاب الناس كافة وهم أمة الدعوة في سياق منة الله تعالى عليهم ومطالبتهم بشكرها، فإن سورة النحل هي السورة التي خصّ أسلوبها بسرد النعم الإلهية على العباد<sup>(2)</sup>.

#### ب- آيتي التحريم في سورة البقرة والمائدة المدنيّتين:

نزلت سورة البقرة بعد الهجرة النبويّة، ولقد جاءت آية التحريم فيها في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ [البقرة: 172-173].

إن الخطاب في سياق هذين الآيتين من سورة البقرة موجه للمؤمنين خاصة، بأنه تعالى ذكره أباح لهم الحلال الطيب مما رزقهم، كما وجههم للشكر إن كانوا يريدون أن يعبدوه وحده بلا شريك، ثم بيّن لهم المحرمات من المأكّل نصّاً وتحديداً باستعمال أداة القصر "إنما"؛ ففي ذلك «

(1) - الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. 388/14.

(2) - ينظر: السيد الجميلي: الإعجاز الطبي في القرآن. ص: 112.

استُنفِثَ بيانِي، ذَلِكَ أَنَّ الإِدْنَ بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ يَثُ يُرْ سُوْأَلٌ مِّنْ يَسْأَلُ مَا هِيَ الطَّيِّبَاتُ فَجَاءَ هَذَا الإِسْتِنْفَافُ مُبَيِّنًا لِلْمُحْرَمَاتِ وَهِيَ أَضْدَادُ الطَّيِّبَاتِ، لِتُعْرَفَ الطَّيِّبَاتُ بِطَرِيقِ الِ مُضَادَّةِ المُسْتَفَادِ مِنْ صِيغَةِ الحَصْرِ، وَإِنَّمَا سَلَكَ طَرِيقَ بَيَانِ ضِدِّ الطَّيِّبَاتِ لِإِلَاحِ تِصَارٍ؛ فَإِنَّ المُحْرَمَاتِ قَلِيلَةٌ، وَلِأَنَّ فِي هَذَا الحَصْرِ تَعْرِيفًا بِالمُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَثِيرًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَحْلَوْا الِ مَيْتَةَ وَالدَّمَ، وَلَمَّا كَانَ القَصْرُ هُنَا حَقِيقِيًّا لِأَنَّ المُخَاطَبَ بِهِ هُمُ الِ م.مُؤْمِنُونَ وَهَمُ لَا يَعْتَقِدُونَ خِلَافَ مَا يُشْرَعُ لَهُمْ، لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا القَصْرِ قَلْبُ اعْتِقَادِ أَحَدٍ وَإِنَّمَا حَصَلَ الرَّدُّ بِهِ عَلَى المُشْرِكِينَ بِطَرِيقَةِ التَّعْرِيفِ» (1).

أما آية المائدة فهي آخر ما نزل من آيات التحريم والتحليل للمأكولات، وكما هو معهود من السور المدنية الإطناب، ومن السور المكية الإيجاز، وبالمقارنة بآتي التحل والأنعام، نرى أن آية التحريم وإباحة ما أحله الله من المأكولات في سياق سورة المائدة جاءت مفصلة، في قوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرَ الحَرَامَ وَلَا الهَدَى وَلَا القَلْبِدَ وَلَا ءَامِينَ أَلْبَيْتِ الحَرَامِ يَبْنَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الِ الِّ وَالنَّفْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الِ الِّ وَالْعُدُونَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [المائدة: 2].  
 وقوله: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالمُنْخَنِقَةُ وَالمَوْفُوذَةُ وَالمُتْرَبَةُ وَالمُطَيِّحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْنَقُوا بِالأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ﴾ [المائدة: 3].  
 وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهَا مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا ءَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا ءَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ [المائدة: 4].

لقد قيل في سبب نزول الآية الثانية من سورة المائدة: أنه روى ابن عباس رضي الله عنهما أن المشركين كانوا يحجون البيت، ويهدون الهدايا، ويعظمون المشاعر وينحرون، فقال المسلمون: يا رسول الله إنما هؤلاء مشركون فلن ندعهم إلا أن نغير عليهم فأنزل الله تعالى هذه الآية (2).

وفي سياق حال الآية الرابعة جاء في "أسباب النزول" للواحدي قوله: « قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: نَزَلَتْ هَذِهِ الِ فِي عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ وَزَيْدِ بْنِ المِهلِ الطَّائِيَيْنِ، وَهُوَ زَيْدُ الحَيْلِ الَّذِي سَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدَ الحَيْبِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمَا جَاءَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَوْمٌ نَصِيدُ بِالكِلَابِ وَالبُرَاةِ، وَإِنَّ كِلَابَ آلِ ذَرِيحٍ وَآلِ أَبِي جُوَيْرِيَةَ تَأْخُذُ البَقَرَ وَالحُمَرَ وَالطَّبَّاءَ وَالضَّبَّ، فَمِنْهُ مَا تُدْرِكُ

(1) - ابن عاشور: التحرير والتنوير. 115/2.

(2) - ينظر: محمد علي الصابوني: روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن. 524/1. وعبد الفتاح عبد الغني القاضي: أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين. ص: 88.

ذَكَاتُهُ، وَمِنْهُ مَا يُقْتَلُ فَلَا تُدْرِكُ ذَكَاتُهُ، وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ الْمَيْتَةَ، فَمَاذَا يَحِلُّ لَنَا مِنْهَا؟ فَزَلْتُمْ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلُّ أُمَّةٍ لَكُمْ أَلْطَيْبَتْ﴾ . يَعْنِي الذَّبَائِحَ . ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ . يَعْنِي: وَصَيْدُ مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ، وَهِيَ الْكَوَاسِبُ مِنَ الْكِلَابِ وَسِبَاعِ الطَّيْرِ» (1) .

أَمَّا فِي الْآيَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ عَدَّدَ اللَّهُ فِيهَا عَشْرَةَ مُحْرَمَاتٍ مِنْ قَبِيلِ الْمُطْعُومِ « وَهَذِهِ الْمُحْرَمَاتُ هِيَ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَسْتَحِلُّونَهَا فَحَرَّمَهَا الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَهِيَ: الْمَيْتَةُ، الدَّمُ، لَحْمُ الْخَنزِيرِ، مَا ذُبِحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، الْمُنْحَنَقَةُ، الْمَوْقُودَةُ (الْمَقْتُولَةُ ضَرْبًا)، الْمُرْتَدِّيَّةُ (السَّاقِطَةُ مِنْ عَلْوٍ فَمَاتَتْ) النَّطِيحَةُ (الْمَقْتُولَةُ بِنَطْحٍ أُخْرَى)، (مَا أَكَلَ السَّبْعُ) بَعْضُهُ إِلَّا إِذَا أُدْرِكُ قَبْلَ الْمَوْتِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَذَبْحُ، الذَّبْحُ الشَّرْعِيُّ، وَمَا قَصِدَ بِذَبْحِ النَّصْبِ (الْأَصْنَامِ) وَكَذَلِكَ حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِسْتِقْسَامَ بِالْأَقْدَاحِ الَّتِي هِيَ - عَلَى زَعْمِهِمْ - اسْتِشَارَةٌ لِلْأَلِهَةِ فِي أُمُورِهِمْ، فَإِنْ أَمَرْتُمْ أَتَمُّرُوا، وَإِنْ نَهَيْتُمْ انْتَهَوْا، وَبَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ هَذَا فَسْقٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» (2) .

إِذَا، فَمُحْرَمَاتُ الطَّعَامِ جَاءَتْ فِي أَرْبَعِ سُورٍ مِنْهَا الْمَكِّيَّةُ وَمِنْهَا الْمَدِينِيَّةُ، وَهِيَ أَرْبَعَةٌ بِالْإِجْمَالِ كَمَا جَاءَتْ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ السَّابِقَةِ (الْأَنْعَامُ، النُّحْلُ، الْبَقَرَةُ)، وَعَشْرَةٌ بِالتَّفْصِيلِ كَمَا جَاءَ بَيَانُهَا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، يَقُولُ الرَّازِيُّ: «فَثَبَّتْ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ الْأَرْبَعَةَ دَالَّةٌ عَلَى حَصْرِ الْمُحْرَمَاتِ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعِ؛ سُورَتَانِ مَكِّيَّتانِ، وَسُورَتَانِ مَدِينِيَّتانِ، فَإِنَّ سُورَةَ الْبَقَرَةَ مَدِينِيَّةٌ، وَسُورَةَ الْمَائِدَةَ مِنْ آخِرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْمَدِينَةِ، فَمَنْ أَنْكَرَ حَصْرَ التَّحْرِيمِ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعِ إِلَّا مَا خَصَّه الْإِجْمَاعُ وَالذَّلَائِلُ الْقَاطِعَةُ كَانَ فِي مَحَلٍّ أَنْ يُخْشَى عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ حَصْرَ الْمُحْرَمَاتِ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعِ كَانَ شَرْحًا ثَابِتًا فِي أَوَّلِ أَمْرِ مَكَّةَ وَآخِرِهَا، وَأَوَّلِ الْمَدِينَةَ وَآخِرِهَا، وَأَنَّ تَعَالَى أَعَادَ هَذَا الْبَيَانَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْأَرْبَعِ قَطْعًا لِلْأَعْدَارِ وَإِزَالَةً لِلشُّبُهَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ» (3) .

إِنَّ مَعْرِفَةَ سِيَاقِ حَالِ أَوَّلِ آيَةِ نَزَلَتْ فِي التَّحْرِيمِ وَالْإِبَاحَةِ لِلْمَطَاعِمِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ لَهُ أَثَرٌ مَهْمٌ فِي رَفْعِ تَوْهَمِ الْحَصْرِ عَمَّا يَفِيدُ بِظَاهِرِهِ الْحَصْرَ (4) فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، فَقَدْ ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ فِي مَا نَقَلَ عَنْهُ الزَّرْكَشِيُّ إِلَى عَدَمِ إِرَادَةِ الْحَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحْرَمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ

(1) - الواحدي: أسباب النزول. ص: 337.

(2) - محمد علي الصابوني: روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن. 1/524.

(3) - فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب. 132/20-133.

(4) - ينظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن. 1/23.

عَبْرَبَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ [الأنعام: 145]. وذلك لأن: «الكفار لما حرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة والمحاذاة جاءت الآية مناقضة؛ فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحلتموه [...]»، والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة؛ فكأنه قال: لا حرام إلا ما حللتموه من الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ولم يقصد جُلّ ما وراءه؛ إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحلال»<sup>(1)</sup>. فالشّافعي فيما ذهب إليه في دفع توهم الحصر في هذه الآية الكريمة استند إلى سياق الحال الخاص بها ليقرّر ذلك.

إذًا، فقد بيّنت هذه الآيات القرآنية الكريمة بما لا يدع مجالاً للشكّ، تحريم كافة المأكولات التي أشارت إليها، وأنّ من يأكل أيّاً منها يكون قد ارتكب محرّماً وفَسَقَ عن أمر الله، وإنّ هذا التحريم الذي جاء به الإسلام لم يأت عفواً أو صدفة إنّما هو لحكمة اقتضاها الله سبحانه وتعالى، ولتقديره الخير للناس بعلمهم أو دون علم منهم، يقول الشّعراوي: «لكل تحريم حكمة قد تكون ظاهرة، وقد تكون خافية، فالقرآن قد نزل على رسول أمي في أمة أمية لا تعرف المسائل العلميّة الشديدة التعقيد، وطبّق المؤمنون الأوائل تعاليم القرآن لأنّ الله الذي آمنا به إلهًا حكيمًا هو قائلها، وهو يريد صيانة صنعته»<sup>(2)</sup>. فما الحكمة العلميّة والطبيّة من تحريم الميتة ولحم الخنزير؟ وهل من حقائق علميّة موثّقة تبين علّة هذا التحريم؟

لقد كشف العلم الحديث جانبا من حكمة الله عزّ وجل، في تحريمه لتلك المأكولات من لحوم الحيوانات، والتي تتمثّل في أضرارها الصّحية وأخطارها على حياة الإنسان.

وإنّ لحوم الميتة، هي أولى الخبائث التي حرّمها الله سبحانه وتعالى، والميتة في عرف الشّرع هي: «ما مات ولم يُدكّه الإنسان لأجل أكله تذكية»<sup>(\*)</sup> جائزة [...] وحكمة تحريم ما مات حتف أنفه - أي بدون فعل فاعل - أنه يكون في الغالب ضارًا لأنّه لا بد أن يكون قد مات بمرض أو ضعف أو لِسمة خفيّة ممّا يسمى الآن بالميكروب انحلت به قواه أو ولّد فيه سمومًا، وقد يعيش ميكروب المرض في جثة الميت زمنًا، ولأنّه مما تعافه الطّباع السّليمة وتستقدره وتعدّه خبيثًا»<sup>(3)</sup>.

(1) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن. 23/1.

(2) - محمد متولي الشعراوي: معجزات القرآن والأنبياء. إعداد: عبد الرحيم محمد متولي الشعراوي، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، مصر، دط، دت، ص: 171.

(\*) - التذكية في المصطلح الإسلامي هي: "الذبح بطريقة معينة، حيث يخرج الدّم من جسّم الحيوان، ولا يَبِثُّ ذلك إلا بقطع الوريد الرّئيسي فقط، وأن يمتنع الذابح عن قطع الرأس حتّى تستنير العلاقة بين المَخ والقلْب. إنّ نبضات القلب تدفع الدّم كله إلى خارج الجسم، وإذا بقيت علاقة بين المَخ وبين القلب، استمرّ القلب في النبض، وبذلك يندفع الدّم كلّهُ إلى خارج الجسم، حيث يصير الحيوان المذبوح طاهرًا مطهرًا". يوسف الحاج أحمد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المطهرة. ص: 658.

(3) - محمد رشيد رضا: تفسير المنار. 134/7.

ولقد تحقّق علمياً الأضرار الناجمة عن أكل الميتة، وظهر خطرهما على حياة الإنسان؛ وذلك لأنّ موت الحيوان دون تذكّيته يؤدي إلى احتباس كل دمه في جسده، وتتوقف الدورة الدموية، ممّا يؤدي إلى تعفن وتفسّخ وتكاثر تلك الجراثيم التي تكون في الحالات العادية موجودة بصورة طبيعية في مختلف أجزاء الجسم وخاصة الجهاز الهضمي، وتبدأ العضلات بالتصلب وتكون أحماض خاصة وتنشط البكتيريا التي تنمو دون غاز الأكسجين، فتعمل على زيادة تفسّخ الجثة وتحلّلها وفسادها، وينتج عن ذلك مركبات ذات رائحة كريهة، وغازات تؤدّي إلى انتفاخ الجثة، كما قد يموت الحيوان بسبب مرض معيّن تنتقل جرثومة المرض إلى الإنسان فتؤذيه وقد تهلكه كما في مرض السلّ والحمرة الخبيثة وجراثيم السلمونيلا وداء الكلب<sup>(1)</sup>.

وهذا الذي يحدث للميتة التي لقت حتفها دون ذبح شرعي، يحدث مع الميتة بسبب الاحتراق أو بسبب الرضّ سواء كان بالوقد أو التردّي، أو بواسطة النطح من حيوان آخر، وكذلك ما أكل السبع. وبالإضافة إلى ذلك فالاحتراق يزيد من سرعة تعفن الجثة، والرضّ يسبب انتشاراً للدّم تحت الجلد وداخل اللحم والأنسجة فتعجّل بتحلّلها وفسادها، وما تحمله السباع من جراثيم وكائنات دقيقة فتأكل بين أنيابها تؤدي نفس النتيجة بأنسجة الحيوان ولحمه ممّا يجعله يشكّل خطراً داهماً على حياة الإنسان حينما يأكل لحمه<sup>(2)</sup>.

ولقد انتهى أكل الميتة في أوروبا حديثاً، بعد اكتشاف الجراثيم، وقد كان المسلمون قد انتهبوا عنها قبل أربعة عشر قرناً من الزّمان، يقول جون هانفر لارسون (كبير أطباء المستشفى الرسمي في كوبنهاغن): « إنَّ القوانين عندنا في أوروبا تحرم جميع أنواع الميتة»<sup>(3)</sup>.

أمّا الخنزير الذي وصفه الله وصفاً دقيقاً في قوله جلّ ذكره: ﴿أَوْلَحْمٍ خِزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام:145]، فهو من أقدر وأنجس الحيوانات على الإطلاق، يأكل العشب واللحم، والجيف والجرذان والقمامة، كما يأكل فضلاته وفضلات غيره من الحيوانات، كسول، جشع، وله طباع من أقبح الطبائع والعادات، ففيه الغباوة، والقذار، وفيه سوء الخلق، ولا يعفّ في نكاحه حتى عن أمّه<sup>(4)</sup>.

(1) - ينظر: جمعة سمين قادر: الإعجاز الطبي في القرآن الكريم. مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية. المجلد: 7، العدد: 3، لسنة: 2012، ص: 5. وينظر: عبد الله المصلح: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 299.

(2) - ينظر: عبد الله المصلح: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. ص: 300.

(3) - أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. ص: 534.

(4) - ينظر: محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن-آيات الله في الأفق. ص: 317، وينظر: زغلول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. 529/1.

إنَّ هذا الحيوان ينقل العديد من الأمراض الخطيرة للإنسان، كما يصيب آكله بأشدَّ الأمراض فتكًا بالبشر ومثال ذلك:

أ- الأمراض الطفيلية: ومنها:

-مرض تينيا سوليم (Tenia solium): وتُسمى دودة لحم الخنزير، وهي دودة شريطية الشكل يتراوح طولها بين مترين وأربعة أمتار، ويبلغ عرضها نحو ثمانية ملليمترات، تصل إلى الإنسان عن طريق أكل لحم الخنزير، وهي أشدُّ الديدان على الإطلاق فتكًا بمن يُصابُ بها. وهذه الدودة ليس لها فم أو قنّاة هاضمة، بل تمتصُّ خلاصةً غذاءِ المريض بواسطة سطح جسمها كُلُّه، ممَّا تسبّب له اضطرابات معويّة ومعديّة شديدة، وسوء هضم، وفقر دم، وضعف الأعصاب، والاكتئاب، والوسواس، إلى غير ذلك من الأعراض التي تجد تفاصيلها في كُتب الطب<sup>(1)</sup>.

-مرض تركينا اسبيرالز (Trichinellaspiralis): وتسمى ديدان التريخينا وهي من الديدان الأسطوانية، وهي من أخطر الطفيليات على الإنسان وتُسبّب في أمراض روماتيزمية عديدة والتهابات عضليّة مؤلمة يؤدّي إلى انتفاخ العضل وصلابته، مما قد يؤدي إلى إقعاد المريض، أو إلى وفاته بعد أن يصاب بالتهاب المخ والنخاع الشوكي والسحايا المحيطة بهما<sup>(2)</sup>.

ب- الأمراض البكتيرية: كالسّل الرئوي، والكوليرا التيفويدية، والحمّى المالطيّة وغيرها.

ج- الأمراض الفيروسية: كالتهاب الدّماغ، والتهاب عضلة القلب، والأنفلونزا، وغيرها.

د- الأمراض الجرثومية: مثل جرثوم "التوكسو بلازما جوندي" الذي يسبّب الإصابة بالحمّى

والإنهاك البدنيّ، وتضخّم الكبد والطّحال، أو إلتهاب الرئتين وعضلات القلب، أو التهاب

السحائيّ، بالإضافة إلى فقد السّمع والبصر<sup>(3)</sup>.

هذه نماذج عن الأضرار الجسدية التي يسببها الخنزير لآكل لحمه، وبالإضافة إلى ذلك هناك داءٌ أعظم وأخطر وهو تأثيره على شخصيّة الإنسان وسلوكه، فيصاب آكله بداء الدّيائة وعدم الغيرة، وهذا ما يتجلّى واضحًا في كثير من المجتمعات الغربيّة، التي تنتشر فيها الكثير من حالات الشذوذ الجنسي كتبادل الزوجات والمعاشرات الجماعية<sup>(4)</sup>.

(1)- ينظر: محمد وصفي: الإعجاز الطبي في القرآن الكريم. قراءة وتعليق: مدحت يوسف السبع، دار الفضيلة. القاهرة- مصر، ط، دت، ص: 160-161.

(2)- ينظر: زغول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. 540/1.

(3)- ينظر: يوسف الحاج أحمد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة. ص: 649.

(4)- ينظر: المرجع نفسه. ص: 651.

الآن، ومن خلال هذه الأمراض والأضرار التي يسببها لحم الخنزير لآكله والتي كشفها الطبُّ الوقائي حديثاً تبين لنا الحكمة العلميّة من تحريم أكل الخنزير، وهي الحفاظ على الصّحة والنّفس وذلك من رحمة الله بنا، لكن قد يقول قائل فلم خلق الله هذا الحيوان ما دام حرّم أكله؟ إنّ الله لا يخلق شيئاً إلاّ لحكمة ما، وإنّ خلق هذا الحيوان إلاّ لوظيفة ومهمّة لا يقدر عليها غيره، يقول أحد العلماء الغربيين: « إنّ هذا الحيوان له وظيفة في تنظيف الأرض من الجيف، والأوساخ، والنّجاسات، هذه مهمّته، فإذا ببعض النّاس يجعلونه طعامهم الأوّل»<sup>(1)</sup>.

وعليه، وممّا سبق نستنتج:

أنّ السّياق الحالي والسّياق الاجتماعي، ومعرفة الزّمان والمكان "المكّي والمدني" الذي نزلت فيه آيات التّحريم والتّحليل، ساهمت كلّها في توجيه دلالة نصوصها، وأزالت بعض الإشكالات عنها، ورفع توهم الحصر عمّا يفيد بظاهرة الحصر - كما رأينا سابقاً -.

أنّ الحقائق العلميّة التي أقرّها العلم الحديث في لحوم الميتة والخنزير بيّنت لنا الحكمة العلميّة الطّبيّة من تحريم لحومها، لما تسببه من أمراض وأضرار خطيرة على النّفس، الذي يُعدُّ الحفاظ عليها أحد الضّروريات الخمس في الشّريعة الإسلاميّة (حفظ الدّين، حفظ النّفس، حفظ العقل، حفظ النّسل، حفظ المال).

(1) - محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن - آيات الله في الأفاق. ص: 318.

خاتمة

## خاتمة

سعى هذا البحث المتواضع إلى تقديم دراسة نظريّة تطبيقية ، هدفها الرئيس الكشف عن المسلك الذي تسلكه اللغة سياقياً في تجلية المعنى وإبرازه، وتوجيه الدلالة وتحديدها، من خلال آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وما تتضمنه من حقائق وإشارات علمية وصل إليها العلماء المتخصصون وكشف عنها العلم الحديث. وقد أثمرت الدراسة جملة من النتائج هذه أهمها:

- 1 . أنّ النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ نِظَامَ لُغَوِيٍّ وَأُفُقِ كُلِّ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ، وبمعاني ودلالات ألفاظه، وعباراته، وأساليبه اللغوية يرتقي المتفكر والمتدبر فيه إلى ذلك الأفق ويُترجم النَّصَّ إلى نوع من الحياة.
- 2 . أنّ لإعمال العقل بالتدبر والنظر في النظم اللغوية تتجلى دلالة السياق من النص القرآني، وإعماله بالتفكير العلمي والتأمل في الآفاق والأنفس يتوصل إلى اكتشاف الحقائق العلمية فيه. فلأصل في تحديد دلالة السياق من النص القرآني والأصل في اكتشاف الحقائق العلمية فيه هو إعمال العقل بالتدبر والتفكير.
- 3 . أهمّ وسيلة لمعرفة دلالات النظام اللغوي للنص القرآني هي التدبر في سياق آياته وموقع الكلام من الوقائع والأحوال، فالله سبحانه وتعالى جعله محلاً للتدبر والتفكير يقول تعالى: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: 29]، وأكبر سبب وأعظمه في اكتشاف آيات الإعجاز العلمي هو التفكير العلمي في القرآن الكريم والتدبر لآياته الكريمات والتفكير في الكون والإنسان والآفاق؛ فالتفكير العلمي هو السبيل الوحيد لرؤية الأدلة التي يحملها القرآن الكريم، والتي تُثبت مصداقية نزوله من عند الله تعالى. يقول تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: 53].

4 . من خلال استعراضنا لمفهوم القرآن والعلم لغةً واصطلاحاً، تبين لنا أنّ القرآن كتاب جليل وفوق قدرة البشر واستطاعتهم، لذا فالتفاسير حوله تعددت وتنوعت، ومنه تشعبت الدراسات بتشعب الوجوه والمشارب، فكان القرآن ولا يزال المصدر الأول لكل علم. وأنّ العلم هو الإحاطة التامة بالشيء وحقيقته وكميَّاته وجزئياته. لذا فهو غير مُرادف للمعرفة أو اليقين أو الإدراك لأنّه - هذه المصطلحات - تنحصر في الإحاطة الجزئية أو البسيطة للشيء، فهي أخص من العلم. وبما أنّ

القرآن الكريم أنزله الله سبحانه لكافة الخلق، عربيهم وأعجميهم، عالمهم وجاهلهم، فهو كتاب هداية وتشريع، ودستور جامع للحياة الإنسانية المثلى. وأنّ العلم هو اللُّغة المتداولة والمتعارف عليها في هذا العصر، لذا فلا بدّ أن يوجد في القرآن كل ما يتناسب مع حاله، وما يصلح دليلاً على إعجازه. وعلى ذلك كان الإعجاز العلمي لغة للتخاطب وسبيلاً للدعوة خاصة مع الذين لا يتقنون اللُّغة العربية ولا يفقهون بياتها وبلاغتها.

5. أنّ لفظتي "معجزة" و"إعجاز"، لم تردا في القرآن الكريم، كما أنّ دلالة مشتقات مادّة "عجز" في القرآن لا تحمّل أيّ معنى لمفهوم المعجزة، ولكن في المقابل نجد أنّ هناك ألفاظاً مستخدمة قرآنيّاً في الدلالة على معنى "المعجزة" قريبة من معناها وتدلّ على ما تدلّ عليه، وتُطلق على ما قدّمه الرُّسل لأقوامهم من حُجج وبراهين للدلالة على صدق رسالتهم وتأييد الله لهم. وهذه الألفاظ هي: "الآية، البينة، البصيرة، السلطان، البرهان". وأنّ المعاني اللُّغويّة لهذه الكلمات الخمسة "الآية، البينة، البصيرة، السلطان، البرهان" كلّها تقريباً تشترك في الدلالة على الحجّة والبيان والدليل. فهي قريبة من معنى "المعجزة" لكن لا يمكن أن تكون مرادفة لها وذلك لأنّه أولاً: لا يوجد ترادف في القرآن كما يرى معظم العلماء، وثانياً: أنّها تشمل جزءاً من معنى المعجزة المتمثّل في الدليل على بُوة مدّعي الرّسالة لا المعنى الكلّي المتمثّل في الأمر الخارق للعادة.

6. تعدّد أوجه الإعجاز في القرآن الكريم يتعدّد جوانب النّظر فيه، فمنهم من رأى ذلك في روعة معانيه، وشموليّتها، واتّساقها، ودقّة صياغتها، وقدرتها على مخاطبة النّاس باختلاف مداركهم وأزمانهم، ومنهم من رأى ذلك في جمال بيانه ودقّة نظمه وكمال بلاغته. ومنهم من أدرك أنّ إعجاز القرآن في كمال تشريعه أو في منهجه التّربوي الأخلاقي الفريد، أو في الأحداث التّاريخية أو الإشارات العلميّة التي تضمّنها أو غيرها؛ ومن هنا يمكن القول أنّ النّصّ القرآنيّ معجز في وجهي النّص، وهما وجه الألفاظ واللُّغة والبلاغة وهو ما يطلق عليه الإعجاز اللّغوي، ووجه المعاني والمضمون والموضوع وهو ما يطلق عليه الإعجاز الموضوعي. وأنّ الإعجاز اللّغوي عام موجود في كلّ آيات القرآن المبين بكلّ حروفها وألفاظها وتراكيبها ونظّمها وأساليبها ودلالاتها، بخلاف الإعجاز الموضوعي وما يحتويه من أوجه عديدة ومختلفة فالإعجاز فيها جزئي؛ أيّ أنّه يقع في بعض من آيات النّصّ القرآنيّ المعجز، وهذه الأوجه يظهرها الله جلّ ذكره على يد من يريد وقتما يريد.

7 . أنَّ وُجوه الإعجاز في القرآن الكريم تُعدُّ أسراراً، يأذن الله جلَّ ثناؤه بإظهارها كلما تحلَّى المتفكر والمتدبِّر في آياته بالكياسة والتأدب والدِّق السليم، وعرف قواعد وأسس اللُّغة العربيَّة وفنون البلاغة وأساليبها. وكلِّما زاد التدبُّر في النِّظم القرآني والتَّفكر في آيات الله الكونيَّة تجلَّت نواح من نواحي إعجازه، وقام البُرهان على أنَّه من عند الله. وأنَّ ما يُميِّز أوجه الإعجاز في النَّصِّ القرآني هو أنَّها مُتعدِّدة ومُتجدِّدة ومُطلقة لا يحدُّها علمٌ ولا زمنٌ، فالعقول لم تصلْ حتى الآن إلى إدراك نواحي الإعجاز كُلِّها وحصرها في وجوه معدودات، ففي كلِّ زمن تبرز وتظهر لنا أوجه جديدة لا تنقطع ولا تتناهى، تُبهرنا وتزيِّدنا إيماناً بأنَّ هذا القرآن هو آيةُ الله ومُعجزته الباقية الخالدة في خلقه.

8 . الإعجاز العلمي هو: تحدي العقل البشري بتلك الإشارات العلميَّة الواردة في النَّصِّ القرآني الصَّريحة دلاليًّا، والموافقة للحقائق العلميَّة المكتشفة في العصر الحديث المستقرَّة والمتفق عليها، وبالتالي تُثبت سبق القرآن الكريم لها، وتُظهر صدق الرسول ﷺ في نبوته ودعواه. وهو أيضاً: شكل أو صورة من صور التفسير العلميِّ - الذي هو اجتهاد بشريِّ لحسن فهم دلالة الآية القرآنية، في ضوء ما ثبت وترجحت صحته من حقائق ونظريات العلوم الكونية - فإذا ما تمَّ التَّحقُّق من القضيَّة العلميَّة المرادُ بحثها أو تفسيرها وأصبحت من الحقائق العلميَّة المسلَّم بها، انتقلت من مرحلة التفسير إلى مرحلة الإعجاز، فالتفسير العلميُّ أو سَع من الإعجاز العلميِّ بل يستوعب في نناياه الإعجاز العلمي ومن ثمَّ يكشف عنه ويظهره.

9 . أنَّ لاستخراج وجه الإعجاز العلمي من النَّصِّ، والتَّوفيق بين حقائق القرآن وآياته الكونيَّة، وبين الاكتشافات العلميَّة الحديثة، لابد من إتباع طرق وقواعد متفق عليها بين العلماء؛ أهمُّها وجود الإشارة إلى الحقيقة العلميَّة في النَّصِّ القرآني بشكل واضح لا مربة فيه، وثبوت الحقيقة العلميَّة ثبوتاً قاطعاً وتوثيق ذلك توثيقاً علمياً متجاوزة مرحلة الفرض والنَّظرية إلى القانون العلمي. وأنَّ بإظهار ما في كتاب الله تعالى من وجوه الإعجاز العلمي وبمراعاة ميادينه ومجالاته، أهميَّة عظمى وفوائد جلييلة منها: استمرار إشراقات القرآن، واستمرار البناء العلمي والعطاء القرآني، ونشأة البحوث والدِّراسات، وتواجد العقليات العلميَّة التي تبني الأمم وتقيم الحضارات.

10 . لوضع تعريف شامل كامل "للسِّياق" وجد الدارسون إشكاليَّة، وصرَّحوا بصعوبة ذلك

في عديد من مباحثهم، ونعتقد أن ذلك راجع لأسباب عدَّة أهمُّها أنَّ السِّياق من المصطلحات

العلمية الشائعة المتداولة، فيرى بعض الدارسين أنه مفهوم واضح ولا يحتاج إلى تعريف وتحليل.. وإذا ما حاولوا ضبطه وتحديدده بدقة بدا لهم الأمر غامضاً وعصبياً وعسيراً على عكس ما كانوا يتوقعوا.. هذا من جهة ومن جهة أخرى أن الأقدمين لم يضعوا له تعريفاً على الرغم من أنهم صرّحوا بوجوده وعملوا به تطبيقياً.

11 . من خلال ما استقرّناه من مفاهيم لغوية واصطلاحية لمادة "س و ق" خلصت الدراسة إلى تعريف عام موجز للسياق "السياق هو تتابع منتظم متسلسل في ظرف معين لغرض الوصول إلى غاية محدّدة. فسياق النصّ مثلاً عبارة عن وحدات لغوية (أصوات وكلمات وجمل) متتابعة منتظمة، ذات موضوع محدّد متّسق مع الظروف والملابسات الخارجية المحيطة به، لغرض الوصول لغاية معينة وهي تحقيق التّواصل". ومنه فالسياق ينقسم إلى قسمين: سياق لغوي؛ يتمثل في البنية اللغوية. وسياق غير لغوي؛ يتمثل في الظروف المحيطة بالحدث اللغوي. وهذان السياقان متضفران ولا يتفرّقان، غايتهما تحقيق الإبلاغ والتّليغ، ووظيفتهما توجيه دلالة النصّ.

12 . أثبت البحث أن العرب قد سبقوا الغربيين في الاهتمام إلى السياق، وإن لم يستخدموا المصطلحات نفسها، لأنّ القضية ليست قضية مصطلحات بقدر ما هي قضية فكر ومنهج في التحليل اللغوي والدلالي منه على وجه الخصوص. وقد استعمل العرب السياق كوسيلة لغاية أسمى وهي تفسير القرآن وكشف مواطن إعجازه البياني، في حين أن المحدثين الغرب كانت دراستهم للسياق متأخرة نوعاً ما، لكن ذات أسس علمية ومعايير محدّدة. وذلك لأنّ دراستهم للسياق جاءت في مجال علوم اللسان وهدفهم الأساسي خدمة لغتهم.

13 . احتلّ السياق بشقيه أهمية خاصة لدى النحاة واللغويين العرب الأوائل، حين تنبّهوا إلى أهمية دراسة التّركيب في سياقه الذي قيل فيه، وكذا من خلال إدراكهم للعناصر اللغوية التي تعين على تحديد الدلالة كطبيعة جرس الكلمة، أو بنيتها الصّرفية أو النحوية، ووقفوا ملياً على طبيعة النّظام الذي تصاغ فيه الجملة الدّالة - هنا نكون مع السياق اللغوي- وبما يكتنف هذا السياق من ملابسات خارجية تشمل موقف المتكلّم، وحال المخاطب، والمتغيّرات التي يجري فيها الخطاب - وهنا نكون مع السياق الحالي - فالنحاة القدامى اهتمّوا بتلك المبادئ التي تعدّ اليوم من صميم النّظرية السياقية وقد لاحظنا ذلك حين درسنا عناصر السياق عند النحاة.

14 . اهتمَّ البلاغيون بفكرة السِّياق اهتماماً كبيراً إلى درجة أنَّهم جعلوا السِّياق هو البلاغة ذاتها حين عرّفوا البلاغة بأنّها مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وفي إطار معالجتهم لفكرة " لكلِّ مقام مقال" تعرّضوا لشقّي السِّياق، السِّياق اللُّغوي والسِّياق غير اللُّغوي. حيث تتجلى عنايتهم بالسِّياق اللُّغوي في دراستهم "للنّظم" أو التّركيب، بأنّ لا ميزة للكلمة ولا قيمة لها في حال أفرادها، وإنما تتحدّد دلالتها وقيمتها في نظمها. كما تتّضح عنايتهم بسِّياق الحال بتأكيدهم على ضرورة مراعاة البليغ لمقتضيات الأحوال والمقامات، مثل: حال المتكلّم، والمخاطب، والظُّروف الاجتماعيّة والنّفسيّة والزّمنيّة والمكانيّة المحيطة بهما.

15 . جاء الاهتمام بالسِّياق عند دارسي القرآن الكريم، لخدمة النّظم الحكيم وإدراك معانيه، فنال حظاً وافراً في دراساتٍ عديدةٍ ومتنوّعةٍ منها ما هو متعلق بالتّفسير ومنها ما هو متعلق بأصول الفقه وغيرهما من العلوم والدّراسات المتّصلة بالقرآن والحديث النبوي الشّريف. وعلى خلاف اللُّغويين والبلاغيين نجد مصطلح السِّياق بصريح لفظه ومصطلحات أخرى قريبة من مفهومه وردت في مؤلّفات الأصوليين والمفسّرين ودارسي علوم القرآن في مواضع عدّة، غير أنّهم لم يصرّحوا بمفهومه كما جاء في البحوث اللُّغويّة الحديثة.

16 . أنّ السِّياق عند الغربيين ظهر الاهتمام به في ضوء الدّراسات اللُّغويّة الحديثة، كأداة تستند عليها اللّغة لتحقيق هدفها الأسمى وهو التّواصل، فهو بمثابة العنصر الفاعل في توضيح الكلام، بل في صحّته والوصول به إلى درجة القبول في مبناه ومعناه. ولم يغدو السِّياق نظريّة قائمة بذاتها بل من أهم نظريّات المعنى إلاّ في منتصف القرن الماضي والفضل في ذلك يعود إلى العالم الإنجليزي فيرث ( Firth ) الذي صاغ من فكرة السِّياق نظريّة علميّة. فقامت النظريّة السِّياقية عند فيرث على النّظر إلى المعنى بوصفه وظيفة في السِّياق. وأحدثت بذلك تغييراً جوهريّاً في النّظر إلى المعنى... وقد استخدم السِّياق في هذه النظريّة بمفهوم واسع بحيث يشمل : السِّياق الدّاخلي: ويتمثّل في العلاقات الصّوتيّة والصّرفيّة والنّحويّة والدّلاليّة بين الكلمات داخل تركيب معيّن، والسِّياق الخارجيّ: ويتمثّل في السِّياق الاجتماعي، أو سياق الحال بما يحتويه، وهو يشكّل الإطار الخارجيّ للحدث الكلامي.

17 . كشفت نتائج الإحصاء لآيات الإعجاز العلمي عن جملة ملحوظات منها: حضور موضوع الكون وما يحتوي من خلق السّماء والأرض، وخلق الإنسان والحيوان في حوالي سدس آيات

القرآن الكريم ممّا يؤكد محوريتها وأهميتها، وغلبة نصوص السّماء والأرض عن نصوص الإنسان والحيوان. كما أنّ هناك من آيات الإعجاز العلمي في خلق السّماء قد اشتركت في إعجازها العلمي مع آيات في خلق الأرض، وهذا يدلُّ على أنّ الآية الواحدة قد تحمل عدّة مفاهيم ودلالات علميّة، وعليه يمكن أن يستشهد بها عن حقائق علميّة مختلفة دون أن يختلَّ بمقصود النّص أو معناه. وقد جاءت آيات الإعجاز العلمي عديدة ومتنوّعة، وبأسلوب بلغ منتهى الدّقة العلميّة واللّغوية في التّعبير؛ فقد أشار القرآن إلى بعض الحقائق العلميّة وسبق في تقريرها قبل أن يصل إليها العلماء بألف وأربعمائة سنة، وأحاط سياقها النّصي بأسلوب بلاغي بياني معجز، شامل لدلالات لغويّة معجميّة وصوتيّة وصرفيّة ونحويّة مختلفة؛ ممّا يؤكّد على أنّ النّصّ القرآني معجزة لغويّة وعلميّة في آن واحد.

### 18 . تبين من خلال الدّراسة التّطبيقية أنّ آيات الإعجاز العلمي احتوت ظواهر صوتيّة كثيرة

ومتنوّعة، تتجلى من خلالها دلالة السّياق اللّغوي في النّصّ القرآني، ويتقرّر مفهومها العلمي. ومن أمثلة تلك الظواهر الصّوتيّة ووظيفتها في تحديد الدّلالة وتّصوير المشهد في النّصّ القرآني، ظاهرة الإيحاء الصّوتي للكلمات القرآنيّة؛ فقد وظّف السّياق الصّوتي في آيات الإعجاز العلمي أصواتاً ذات صدق دلالي تشيع جواً خاصّاً من المعاني تتلاءم مع ما صوّره القرآن الكريم من ظواهر في الكون أو في خلق الإنسان والحيوان، هذا فضلاً عن الدّور الكبير الذي يؤدّيه تكرار الصّوت في اللفظة القرآنيّة أو في ألفاظ متتابعة في سياق آيات الإعجاز العلمي في إبراز المعنى المراد، وتّصوير للموقف وإيحاء بما يدلُّ عليه، وذلك اعتماداً على ما يُشيعه الجرس الصّوتي من نغم. وقد لوحظ تعانق وتناغم بين الدّلالة السّياقيّة (المعجمية والصوتية) لألفاظ تلك الآيات ومفهومها العلمي؛ فتوافقت أصوات تلك الألفاظ ومضمونها، بل وجاءت منسجمة مع معناها اللّغوي ومؤكدّة لدلالاتها العلميّة.

### 19 . أمّا فيما يخصّ السّياق الصّرفي فقد تبين من خلال النّماذج التّطبيقية أنّ التّعيرات التي

تحصل في بنية الكلمة تؤدّي إلى تغيير في الدّلالة، فكلُّ زيادة في المبنى تفضي إلى زيادة في المعنى. ومن أمثلة ذلك دلالة الأفراد والتثنية والجمع؛ ودلالة اسم الفاعل، ودلالة المؤنث والمذكر، ودلالة الأوزان الصّرفيّة، وكان ممّا لوحظ أنّ كل صيغة أتت عليها الألفاظ في نظم آيات الإعجاز العلمي شكّلت المحور الرّئيس فيها، وحاكت معنى سياقها العام، و أوحى بدلالاته اللّغويّة والعلميّة على السّواء؛ فعبرت بدقّة متناهية عن المعنى اللّغوي والمفهوم العلمي للآيات، وساعدت على فهم وتأكيد الحقيقة العلميّة لها، فكانت بمثابة مفتاح للتّعقل والتّدبر لتلك الآيات.

20 . كما لوحظ الدور البارز للسياق النحوي في كشف دلالة التركيب في الآيات المعجزات في خلق السماء الأرض وخلق الإنسان والحيوان ، وتجليه معناها وتوجيهه، وتحديد دلالتها العلمية وتحققها، وذلك من خلال دلالة هذه القرائن النحوية: دلالة التحول في زمن الفعل ، دلالة التقديم والتأخير، دلالة حروف المعاني، دلالة الحذف والذكر. وقد اتضح من خلال النماذج التطبيقية أن الآية الكريمة تحمل وجهين للإعجاز، وجها هو الإعجاز اللغوي البلاغي، والثاني هو إعجاز علمي في خلق الكون وما فيه. وإذا كان الإعجاز اللغوي في القرآن إعجاز مقال، فإن الإعجاز العلمي في القرآن إعجاز حال والقرآن وإن لم يتعرض للإعجاز العلمي بلسان المقال، لأن من حكمة الله تعالى وبلاغة كتابه، أن يأتي خطابه مناسبا لما برع به قوم كل نبي في كل زمان، "مراعاة المقال لمقتضى الحال" كما يقول أهل البلاغة في تعريفها.

21 . وفيما يخص السياق الخارجي "غير اللغوي" فإن أهميته تتمثل في إزالة الغموض الذي قد يكتنف بعض الآيات التي قد يعجز السياق الداخلي أحيانا في تشخيص الدليل الذي يرشدنا إلى المعنى، هذا بالإضافة إلى دوره البارز في تصوير مشاهدتها بالزمان والمكان والحديث السابق له، وبالتالي قد تزيد السياق القرآني وضوحا وصورا أكثر تفصيلا؛ بمعنى أن المعالجة اللغوية قد تكون غير دقيقة في تحديد المعنى، وعليه يتطلب إحالة النص المراد معالجته إلى المحيط الخارجي أو ما يعرف بالسياق غير اللغوي . وقد اعتمدت الدراسة التطبيقية ستة عناصر للكشف عن الدلالة السياقية الخارجية (غير اللغوية) لآيات الإعجاز العلمي في خلق السماء والأرض وخلق الإنسان والحيوان، والتي تتمثل في: السياق التاريخي، والسياق الثقافي، والسنة النبوية، وأقوال الصحابة، وأيضا السياق الاجتماعي (الظروف الاجتماعية) والسياق الحالي (أسباب النزول). ومن خلال النماذج التطبيقية تبين أهمية هذه العناصر وأثرها في الكشف الدلالي للآية المعجزة من جهة، وتأكيد الحقيقة العلمية وإقرارها من جهة أخرى.

22 . إن فهم القرآن الكريم وتفسيره علميا لا يتم إلا في ظل السياق العام بنوعيه اللغوي وغير اللغوي، ولا يحصل هذا الفهم ولا ذلك التفسير إلا بمعاينة تطبيقية للآيات بمنهج كشف يكشف تفاصيل المعاني المحيطة بالآية، ويسهم في بناء الصورة العامة للمعنى ؛ لذا فاعتماد المنهج السياقي في دراسة النص القرآني، منهج سديد يساعد على فهم النص في مستوياته اللغوية المتعددة، الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والبلاغية، ومستوياته غير اللغوية الحالية المتمثلة في أسباب

النزول، والظروف الاجتماعية والثقافية المتصلة بالنص، وكل المفاهيم والمبادئ التي تسهم في بيان المراد. ولقد عدَّ السياق من أهمِّ دلائل الإعجاز القرآني، لما يفرزه من تعدد المعاني والأغراض، والترجيح بين الوجوه، وبناء الدلالات، ومنع التأويلات البعيدة.

23 . السياق وأبعاده، الركيزة الأساسية التي يُعتمد عليها في فهم المعنى، واللبنة الأساس في قواعد التفسير العلمي للقرآن الكريم، إذ يُعدُّ الرابطة الأهم في تحديد الدلالة وتوجيه المعنى، وترجيح بعض المعاني على بعض. لذا على الباحثين أن يفيدوا من المنهج السياقي في الدرس اللغوي والدلالي، على المستويين التَّنظيري والتطبيقي. وعليهم الاستفادة من الحقائق العلمية في فك رموز بعض النصوص التي تتجسَّد فيها المعاني العلمية، بالاعتماد على البحث اللغوي مقرونًا بالمفاهيم العلمية المعاصرة . كما على الباحثين في الإعجاز العلمي أن يضعوا نصب أعينهم عند بيان وجه الإعجاز العلمي في الآية القرآنية قضية السياق القرآني؛ لثراه بالمباحث الهامة والدقيقة، ولمساهمة في التقليل من كثرة الاختلافات والملازمات في وجهات النظر، وتحديد المساحة التي يجوز الاختلاف فيها، كما يدفعهم إلى التفكير العميق والتحقيق الدقيق عند دراسة النص القرآني، ولما فيه من الخير العميم، والفائدة الكبيرة في تنقية وغريلة الآراء الصحيحة من السقيمة. وأيضًا على المفسر أن يراعي السياق وأبعاده المختلفة أثناء التفسير العلمي للقرآن إن كان يريد من بحثه أن يكون بحثًا متكاملًا. فيكون السياق من أحد أدلته المنطقية، ولا يقع في لي عنق الآيات لتوافق الفكرة المطلوبه.

هكذا.. فقد كان القرآن وما زال وسيظلُّ مرجعًا، ونبراسًا للعلم لهداية البشرية علمائها

قبل بسطائها، وسيظلُّ هو السراج الوهاج الذي يمدُّ النفس بنور هدايته ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ

الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

[طه:114]

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل متقبلاً وأن يغفر ما وقع فيه من نقصٍ أو زللٍ،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

قائمة

المصادر والمراجع

## قائمة المصادر والمراجع

## القرآن الكريم

برواية حفص عن عاصم. المدينة النبوية للنشر الحاسوبي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة.

## المؤلفات القديمة والحديثة

- 1- إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ. مكتبة الأنجلو المصرية، ط 2، 1963م.
- 2- إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط 4، 1961م.
- 3- إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية. التعااضدية العمالية للطباعة والنشر، تونس، صفاقس، د ط، دت.
- 4- أحمد الحملاوي: شذذ العرف في فن الصرف. تعليق: مصطفى السقا. دار ابن الجوزي، القاهرة، ط 1، 2017م.
- 5- أحمد أبو الوفاء عبد الآخر، كارم السيد غنيم: المعجزة الخالدة "مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة". ط 1، 1426هـ-2005م.
- 6- أحمد بدر: أصول البحث العلمي و مناهجه. المكتبة الأكاديمية، دط، دت.
- 7- أحمد جاد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية. دار الغد الجديد، القاهرة، مصر، ط 1، 2018م.
- 8- أحمد رضا: معجم متن اللغة - موسوعة لغوية حديثة. دار مكتبة الحياة، بيروت، 1378هـ - 1959م.
- 9- أحمد شوقي إبراهيم: موسوعة الإعجاز العلمي في الحديث النبوي. دار النهضة، مصر، ط 4، 2006م.
- 10- أحمد عمر أبو شوفة: المعجزة القرآنية. تقديم: أحمد دتلو ومحمود دتلو، دار الكتب الوطنية: بنغازي، ليبيا، ط 3، 2006م.
- 11- أحمد مختار عمر: لغة القرآن دراسة توثيقية فنية. مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ط 2، 1418هـ - 1997م.
- 12- أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة. مساعدة: فريق عمل، عالم الكتاب: القاهرة، مصر، ط 8، 2008م.
- 13- أحمد مختار عمر: علم الدلالة. عالم الكتب، القاهرة، (ط 5)، 1998 م.
- 14- أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط 1، 1946م.
- 15- أحمد مصطفى متولي: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية. طبعة جديدة منقحة ومزودة، دار ابن الجوزي القاهرة، مصر، ط 2، 1435 هـ/ 2014م.
- 16- أحمد مومن: اللسانيات النشأة والتطور. ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، (ط 4)، 2008م.
- 17- أحمد ياسوف: جماليات المفردة القرآنية. إشراف و تقديم: نور الدين عتر- أصل الكتاب رسالة ماجستير في الآداب دار المكي، دمشق- سوريا. ط 3، 1430هـ-2009م.
- 18- أحمد ياسوف: دراسات فنية في القرآن الكريم. دار المكتبي، دمشق، سورية، ط 1، 1427هـ/ 2006م.
- 19- أسامة نعيم مصطفى: الإعجاز العلمي في الإنسان والحيوان. جسور للنشر والتوزيع. المحمدية، الجزائر، ط 1، 2011م.
- 20- أسعد خلف العوادي: سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة. دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 1432 هـ / 2011م.
- 21- الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسن بن محمد): المفردات في غريب القرآن. مكتبة نزار مصطفى الباز، دط، دت.
- 22- الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق، سورية، الدار الشامية، بيروت، لبنان، ط 4، 1430هـ-2009م.
- 23- إقبال علوي: بور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية، مراجعة منهجية. مجلة روافد، الكويت، ط 1، 2007م.
- 24- الألويسي (البغدادي أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دط، دت.
- 25- أمينة طيبي: الدراسة فوق التشكيلية عند الفلاسفة المسلمين. مجلة التراث العربي، كلية الآداب، جامعة الجبيلي، اليايس، الجزائر.
- 26- ابن الأنباري عبد الرحمن بن محمد: الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين. تحقيق جودة مبروك محمد مبروك، راجعه رمضان عبد التواب. مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 1، دت.
- 27- ابن الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد "ت 577هـ": البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة دار الكتب، 1970م.
- 28- أيمن المصري: أصول المعرفة والمنهج العقلي. المركز الثقافي العربي، دت، دط.
- 29- البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل): صحيح البخاري. دار ابن كثير دمشق، بيروت. ط 1، طبعة جديدة مضبوطة ومصححة ومفهرسة، 1423هـ-2002م.
- 30- بدر الدين عبد الكريم أحمد: الإعجاز الهندسي في القرآن الكريم-إشارات دلالات معاني. أصل الكتاب رسالة ماجستير، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط 1، 1432هـ-2011م.
- 31- البقاعي (برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر ت 885هـ): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، دط، دت.
- 32- بكري عبد الكريم: الزمن في القرآن الكريم - دراسة دلالية للأفعال الواردة فيه. دار الكتاب الحديث، القاهرة مصر، دط، 1421 هـ / 2001م.
- 33- تحسين عبد الرضا: الصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث. دار دجلة، الأردن، عمان، ط 1، 2011م.

- 34- تركي بن سعيد بن فهد الهويمل: خواص القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية. "أصل الكتاب رسالة دكتوراه"، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 1429هـ.
- 35- تمام حسان: اجتهادات لغوية. عالم الكتب، القاهرة، مصر، (ط1)، 2007.
- 36- تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها. دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، دط، 1994م.
- 37- تمام حسان: الأصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 1982.
- 38- ابن تيمية (تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم): مقدمة في أصول التفسير، تحقيق: عدنان زرور. ط2، 1972م.
- 39- ابن تيمية (تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم): مجموع الفتاوى، تحقيق: أنور الباز، عامر الجزار، دار الوفاء، ط3، 1426هـ - 2005م.
- 40- الثعلبي (الهمام أبو إسحاق أحمد ت427هـ): الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي. تحقيق أبو محمد بن عاشور. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ-2002م.
- 41- الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر): كتاب الحيوان. تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ط2، 1384هـ-1965م.
- 42- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين. تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة- مصر، ط7، 1419هـ/1998م.
- 43- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين. تحقيق وشرح عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط7، 1419-1998.
- 44- جاسم محمد عبد العبود: مصطلحات الدلالة العربية دراسة في ضوء علم اللغة الحديث. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1428هـ/2007م.
- 45- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. تحقيق: محمد رضوان الداية وفايز الداية، دار الفكر دمشق، سورية، ط1، 1428هـ/2007م.
- 46- ابن جنبي (أبو الفتح عثمان): الخصائص. تحقيق محمد علي النجار. دار الكتب المصرية، مصر، (د ط).
- 47- الجوهري (اسماعيل بن حماد): الصحاح - تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط4، 1990م.
- 48- ابن الجوزي (الإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ت597هـ): زاد المسير في علم التفسير. المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط3، 1404-1984م.
- 49- ابن القيم الجوزية (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب): الفوائد. تحقيق: ماهر منصور عبد الرزاق، كمال علي الجمل، دار البقین للنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ط3، 1420هـ/1999م.
- 50- ابن القيم الجوزية: بدائع الفوائد. تحقيق: علي بن محمد العمران. إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد. دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، دط، دت.
- 51- ابن القيم الجوزية: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. تحقيق: عبد الرحمن بن حسن قائد، دار علم الفوائد، دط، دت.
- 52- الحافظ بن حجر العسقلاني: الموسوعة الحديثية. جمع وإعداد وليد بن أحمد الحسين الزبيدي وآخرون. سلسلة إصدارات الحكمة 12، تصدر عن مجلة الحكمة بريطانيا، ليدز، ط1، 1422هـ-2002م.
- 53- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي): الإحكام في أصول الأحكام. دار الحديث، القاهرة، ط2، 1404.
- 54- حسام أحمد فرج: نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري. تقديم سلمان العطار ومحمود فهمي الحجازي. مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 1430هـ/2009م.
- 55- حسام أحمد قاسم: تحولات الطلب ومحددات الدلالة مدخل تحليل الخطاب النحوي. دار الآفاق العربية "القاهرة" ط1، 1428هـ/2007م. ص: 114.
- 56- حسن ضياء الدين عتر: المعجزة الخالدة. دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ط3، 1415هـ-1994م.
- 57- حسن طيل: أسلوب الإنفاذ في البلاغة القرآنية. دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، دط، 1998م/1418هـ.
- 58- حسن عباس الأنصاري: العلم في رحاب الله - الأدلة العلمية على وجود الله ووحدانيته. المكتبة العالمية، القاهرة، مصر، دط، دت.
- 59- حسن عباس: حروف المعاني بين الأصالة والحداثة. اتحاد الكتاب العرب. دط، دمشق، 2000م.
- 60- حسين خمري: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال. دار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 1428هـ/2007م.
- 61- حلمي خليل: الكلمة - دراسة لغوية معجمية. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، دط، 2011م.
- 62- حليلة مدرس بوداود: معجزة حروف القرآن. دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران - الجزائر، دط، دت.
- 63- أبو حيان (محمد بن يوسف الأندلسي): تفسير البحر المحیط. تحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ / 1993م.
- 64- خالد فائق العبيدي: المنظار الهندسي للقرآن الكريم. دار المسيرة، دط، دت.
- 65- خديجة محمد الصافي: أثر المجاز في فهم الوظائف التحويلية وتوجيهها في السباق. دار السلام، مصر، ودار الوعي، الجزائر، ط2، 2012/1433 م.
- 66- الخطابي (أبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم): بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3.
- 67- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، دط، دت.
- 68- ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون): المقدمة. تحقيق وتقديم عبد السلام الشداوي، بيت الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، ط1، 2005م.

- 69- خلود العموش: الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق. عالم الكتب الحديث أريد، لبنان، جدار للكتاب العالمي عمان، الأردن، ط1، 1429هـ-2008م.
- 70- خليفة بوجادي: محاضرات في علم الدلالة مع نصوص وتطبيقات. بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، ط1، 2009.
- 71- ابن خليفة عليوي: جامع النقول في أسباب النزول وشرح آياتها. مطابع الإ شعاع: السعودية، الرياض. ط1، 1404هـ.
- 72- ابن دقيق العيد ( محمد بن علي بن وهب بن مطيع أبو الفتح تقي الدين القشيري): إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام تحقيق: محمد حامد الفقي، مراجعة: أحمد محمد شاكر. مطبعة السنّة المحمّديّة، دط، 1372هـ-1953م
- 73- رابح بوحوش: البنية اللغوية لبردة البوصيري. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1993.
- 74- الرازي (محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر): التفسير الكبير "مفاتيح الغيب". دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1401هـ-1981م.
- 75- راشد سعيد شهوان: الضوابط الشرعية لقضايا الإعجاز العلمي في القرآن والسنة والمسائل الحديثة في العلم والإيمان. دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1431هـ-2010م.
- 76- رجاء وحيد دويدي: البحث العلمي أساسياته النظرية وممارساته العلمية. دار الفكر دمشق، سورية، ط1، 2002م.
- 77- ردة الله بن ردة الطلحي: دلالة السياق. أصل الكتاب رسالة دكتوراه، سلسلة الرسائل العلمية (33)، معهد البحوث العلمية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، (ط1)، 1424هـ.
- 78- رشاد محمد سالم: مع القرآن الكريم في إعجازه اللغوي لطائف وأسرار. دار عباد الرحمن، القاهرة، مصر، ط4، 1437هـ-2017م.
- 79- الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى): النكت في إعجاز القرآن. صححه عبد العليم. مكتبة الجامعة المليّة الإسلامية دهلي.
- 80- الرماني والخطابي وعبد الفاهر الجرجاني: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. تحقيق وتعليق: محمد خلف الله ومحمد زغول سلام. دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، 1976م.
- 81- الزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السري (ت 311هـ): معاني القرآن وأعرابه. شرح وتحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتاب، بيروت، لبنان. ط1، 1408هـ-1988م.
- 82- الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله): البرهان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، ط3، 1404هـ-1984م.
- 83- زغول راغب محمد النجار: مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. دار المعرفة بيروت، لبنان، ط1، 1430هـ-2009م.
- 84- زغول النجار: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. مكتبة الشروق الدولية. القاهرة، مصر، ط1، 1428هـ/2007م،
- 85- زغول النجار: الإعجاز العلمي في السنة النبوية. دار النهضة، مصر، ط5، 2012م
- 86- زغول النجار: السماء في القرآن الكريم من آيات الإعجاز العلمي. دار المعرفة، بيروت، ط4، 1428-2007م.
- 87- زغول النجار: الأرض في القرآن الكريم من آيات الإعجاز العلمي. دار المعرفة، بيروت، ط1، 1426هـ-2005م.
- 88- زغول النجار: الحيوان في القرآن الكريم من آيات الإعجاز العلمي. دار المعرفة، بيروت، ط1، 1427هـ-2006م.
- 89- الزمخشري: (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار العبيكان، الرياض، السعودية، ط1، 1418هـ-1998م.
- 90- الزمخشري: أساس البلاغة. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، طبعة جديدة منقحة ومصححة، 2012م.
- 91- سامر إسلامبولي: دراسة في الروح والنفس والتفكير. تقديم: جودت سعيد وندرة اليازجي، دط، دت، ص: 161.
- 92- سامر إسلامبولي: ظاهرة النص القرآني تاريخ ومعاصرة. الأوائل للنشر والتوزيع سورية، دمشق، ط1، 2002م.
- 93- سامر إسلامبولي: علمية اللسان العربي وعالميته - تأسيس نظرية دلالة الأصوات العربية فيزيائياً. تقديم: مازن الوعر. دراسة نهضوية، دمشق، سوريا، ط1، 2011م، دت، دط.
- 94- سامر إسلامبولي: القرآن بين اللغة والواقع. تقديم: سمير حسن ومحمد الحباش. دار الأوائل، دمشق، سورية، دط، 2005
- 95- ابن السراج (أبو بكر محمد بن سهل النحوي البغدادي): الأصول في النحو. تحقيق عبد الحسين الفتلي. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1417هـ-1996م.
- 96- سعد الدين السيد صالح: المعجزة والإعجاز في القرآن الكريم. دار المعارف القاهرة، مصر، ط2، 1993.
- 97- السعدي (عبد الرحمن بن ناصر): تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المئان. تقديم عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، و محمد بن صالح العثيمين. مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط2، 1431هـ/2010م.
- 98- أبو السعود محمد العمادي الحنفي (900هـ-982هـ): تفسير أبي السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، دط، دت.
- 99- سعيد إسماعيل صيني: قواعد أساسية في البحث العلمي. مؤسسة الرسالة: بيروت، لبنان، ط1، 1994م.
- 100- سعيد إسماعيل علي: القرآن الكريم رؤية تربوية. دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1421هـ-2000م.
- 101- سعيد حسن بحيري: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات. مكتبة لبنان ناشرون بيروت، لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط1، 1997م.
- 102- السمعاني (منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي ت 489): تفسير القرآن. دار الوطن، الرياض، السعودية، ط1، 1418هـ-1997م.
- 103- السمين الحلبي أحمد بن يوسف ت 756هـ: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون. تحقيق أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، سورية، دط، دت، 770/10.
- 104- سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر): الكتاب. تحقيق وشرح عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط3، 1408هـ-1988م.

- 105- السيد الجميلي: الإعجاز الطبي في القرآن. تقديم محمد متولي الشعراوي. دار الهلال، بيروت، 1990م.
- 106- السيد الجميلي: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2002م.
- 107- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن. دار الشروق، القاهرة، مصر، ط17، 1425هـ-2004م.
- 118- سيد قطب: في ظلال القرآن. دار الشروق، القاهرة، مصر، ط32، 1423هـ-2003م.
- 109- ابن سيدة ( أبو الحسن علي بن إسماعيل) : المخصص. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. دط، دت.
- 110- السيوطي (أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر): الإتقان في علوم القرآن. تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، دط، دت.
- 111- السيوطي: علم المناسبات في السور والآيات. تحقيق: محمد بن عمر بن سالم بازمول. المكتبة المكيّة، باب العمرة، مكة المكرمة، ط1، 1423هـ - 2002م.
- 112- السيوطي: لباب التّقول في أسباب النزول. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1422 - 2002 م.
- 113- الشاطبي: ( أبو إسحاق إبراهيم بن موسى النجدي) : الموافقات. تقديم: بكر عبد الله أبو زيد، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ-1997م.
- 114- الشافعي (محمد بن إدريس): الرسالة. تحقيق: أحمد محمد شاكر. دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، (دط)، (دت).
- 115- الشريف الجرجاني(علي بن محمد بن علي): كتاب التعريفات. تحقيق: محمود رأفت الجمال. المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، ط1، 2013م.
- 116- شعبان محمد إبراهيم: الأرض والنبات نظرة علمية وخواطر إيمانية. الدار العلمية للنشر والتوزيع، مصر، الإسكندرية، ط1، 1432هـ-2011م.
- 117- شعبان محمد إسماعيل: المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية. دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1430هـ - 2009م.
- 118- شلتاغ عبود: أثر التشابه الأسلوبى في القرآن الكريم. دار المحجة البيضاء، بيروت، لبنان. دط، 1424هـ-2003م.
- 119- الشنقيطي ( محمد الأمين بن محمد المختار الجكني): أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد. دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط1، 1426هـ.
- 120- صالح بلعيد: نظرية النظم. دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2004م.
- 121- صلاح الدين ززال: الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري. الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، (ط1)، 1429هـ-2008م.
- 122- صلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني. دار عمار، عمان الأردن، ط1، 1421هـ-2000م.
- 123- صلاح عبد الفتاح الخالدي: تعريف الدارسين بمناهج المفسرين. دار القلم، دمشق، ط3، 1429هـ-2008م.
- 124- الطاهر بومزير: التواصل اللساني والشعرية - مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكسون. الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت لبنان ومنشورات الاختلاف الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 1428هـ - 2008م.
- 125- طاهر سليمان حمودة: دراسة المعنى عند الأصوليين. الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، دط، 1983م.
- 126- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير): جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1422هـ-2001م.
- 127- ابن عاشور محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1984م.
- 128- أبو الهلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل): كتاب الصناعتين، ط1، 1320هـ.
- 129- أبو الهلال العسكري: الفروق اللغوية. تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والنشر، القاهرة، مصر، دط، دت.
- 130- ابن عطية (أبو محمد عبد الحق الأندلسي): المحرر والوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تقديم: مجد مكي، دار ابن حزم، طبعة جديدة منقحة ومرتبّة، دت.
- 131- أبو عمر يوسف بن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله. تحقيق: أبو الأشبال الزهيري. دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط1، 1414هـ-1994م.
- 132- عادل بن علي الشدي: التفسير العلمي التجريبي للقرآن الكريم جذوره وتطبيقاته والموقف منه. مدار الوطن للنشر: الرياض، السعودية، ط1، 1431هـ-2010م.
- 133- عالم سبيط النيلي: النظام القرآني مقدمة في المنهج اللفظي. مكتبة بلتو، بغداد، ط2، 2003م.
- 134- عامر الكفيشي: حركة التاريخ في القرآن الكريم. دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ-2003م.
- 135- عباس أمير: الإعجاز القرآني التبيان-التكوّن-القراءة. دار أسامة، الأردن-عمان، دط، دت.
- 136- عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية. نهضة مصر للطباعة، القاهرة، دط، دت.
- 137- عبد الله بن عبد العزيز المصلح: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تاريخه وضوابطه. دار جياذ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط3، 1432هـ/2011م.
- 138- عبد الله بن عبد العزيز المصلح وعبد الجواد صاوي: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة "منهج التدريس الجامعي". دار جياذ للنشر والتوزيع، ط1، 1429هـ-2008م.
- 139- عبد الله بن يوسف الجديع: المقدمات الأساسية في علوم القرآن. مؤسسة الريان، بيروت، لبنان، ط1، 2001م.
- 140- عبد الجليل مرتاض: علم اللسان الحديث في القرآن. دار هومة، الجزائر، دط، 2013 م.
- 141- عبد الحميد محمود طهاز: المعجزة والإعجاز في سورة التّمل. دار القلم، دمشق، دار المنارة، بيروت، ط2، 1422هـ - 2001م.

- 142- عبد الحميد السيد: دراسات في اللسانيات العربية- المشاكلة، التنعيم، رؤى تحليلية. دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1425هـ - 2004م.
- 143- عبد الحميد هندأوي: الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية. دار عباد الرحمن، القاهرة، مصر، ط1، 1434هـ-2013م.
- 144- عبد الحميد هندأوي: الإعجاز الصرفي للقرآن الكريم- دراسة نظرية تطبيقية. دار عباد الرحمن، القاهرة، مصر، ط1، 1434هـ-2013م.
- 145- عبد الحميد هندأوي: الإعجاز الدلالي للقرآن الكريم- دراسة نظرية تطبيقية. دار عباد الرحمن، القاهرة، مصر، ط1، 1434هـ-2013م.
- 146- عبد الحميد هندأوي: الإعجاز الأسلوبي في القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية. دار عباد الرحمن، القاهرة، مصر، ط1، 1434هـ-2013م.
- 147- عبد الدائم الكحيل: الموسوعة المصورة في الإعجاز العلمي. الإعجاز العلمي في الكون. دط، دت.
- 148- عبد الرحمان بوردع: منهج السياق في فهم النص. سلسلة: كتاب الأمة، عدد: 111، 1427هـ- 2006م.
- 149- عبد السلام حمدان اللوح: الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. أصل الكتاب رسالة ماجستير، آفاق للطبع والنشر، غزة، فلسطين، ط2، 1423هـ-2002م.
- 150- عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر: تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين دراسة وتطبيق. سلسلة الدراسات القرآنية 4، سلسلة محكمة تصدر عن جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، دبي، ط1، 1428هـ/2007م.
- 151- عبد العزيز بن محمد بن عبد الله السحبياني: جوامع كلم القرآن وشواهد الإعجاز. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ط1، 1429هـ-2008م.
- 152- عبد العزيز عبد المعطي عرفة: قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية. عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ-1985م.
- 153- عبد العزيز عتيق: علم المعاني. دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، ط1، دت، ص: 126-127.
- 154- عبد العليم عبد الرحمن خضر: الطبيعيّات والإعجاز العلمي للقرآن الكريم. الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط1، 1406هـ-1986م.
- 155- عبد الفتاح عبد العليم البركاوي: دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث - دراسة تحليلية للوظائف الصوتية والبنوية والتركيبية في ضوء نظرية السياق. دار الكتب، مصر، دط، دت.
- 156- عبد الفتاح لاشين: صفاء الكلمة "من أسرار التعبير القرآني". دار المريخ للنشر، الرياض، دط، 1403هـ-1983م.
- 157- عبد القادر عبد الجليل: علم اللسانيات الحديثة. دار صفاء، عمان، ط1، 2002م-1422هـ.
- 158- عبد القادر محمد الحسين: معايير القبول والرد لتفسير النص القرآني. تقديم: علي جمعة. دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، سورية، ط2، 1433هـ-2012م.
- 159- عبد الكريم بكار: فصول في التفكير الموضوعي منطلقات ومواقف. دار القلم، دمشق، سورية، ط5، 2008م.
- 160- عبد الكريم الخطيب: الإعجاز في دراسات السابقين - دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، دار الفكر العربي، ط1، 1974م.
- 161- عبد المجيد الزندانى وسعاد يلدروم ومحمد الأمين ولد الشيخ: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، دت.
- 162- عبد النعيم خليل: نظرية السياق بين القدماء والمحدثين - دراسة لغوية نحوية دلالية. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2007م.
- 163- عبد الواحد حسن الشيخ: التناظر الصوتي والظواهر السياقية. مكتبة الإشعاع، ط1، 1419هـ-1999م.
- 164- عبد الواحد حسن الشيخ: العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي. مكتبة الإشعاع، مصر، ط1، 1999م.
- 165- عبده الراجحي: فصول في علم اللغة. دار المعرفة الجامعية، 1998م.
- 166- عدنان الرفاعي: المعجزة الكبرى "معجزة إحدى الكبر". دار الخير، دمشق، سوريا، ط1، 2006م.
- 167- عدنان محمد زرزور: علوم القرآن الكريم وأعجازه. دار الإعلام، الأردن، عمان، ط1، 1426هـ-2005م.
- 168- عدنان الشريف: من علم الطب القرآني الثوابت العلمية في القرآن الكريم. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، 2001م.
- 169- عدي جواد علي الحجار: الأسس المنهجية في تفسير النص القرآني. العتبة الحسينية المقدسة، العراق، كربلاء. ط1، 1432هـ-2012م.
- 170- عرفات فيصل المتاع: السياق والمعنى - دراسة في أساليب النحو العربي. مؤسسة السياح للطباعة والنشر، لندن، ط1، 2013م.
- 171- العطري بن عزوز: صياغة الإنسان بين العلم والإيمان. دار الأوطان، الجزائر، ط2، 2012م.
- 172- عطية محمد عطية: الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم. دار يافا العلمية، عمان، الأردن، ط1، 2012م.
- 173- عقيد خالد حمودي العزاوي: علم الدلالة دراسة وتطبيقات، دار العصماء، دمشق، سورية، ط1-2012م.
- 174- علاء عبد الأمير شهيد: الدلالة المعجمية والسياقية في كتب معاني القرآن - دراسة موازنة. دار الرضوان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1433هـ-2012م.
- 175- علي آيت أوشان: السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة. دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1421هـ-2000م.
- 176- علي جاسم سلمان: موسوعة معاني الحروف العربية. دار أسامة للنشر والتوزيع. الأردن، عمان، دط، 2003م.
- 177- علي جمعة محمد وآخرون: الموسوعة القرآنية المتخصصة. إشراف وتقديم: محمود حمدي زقزوق. دط، دت.

- 178- على الصابوني: روائع البيان- تفسير آيات الأحكام من القرآن. مكتبة الغزالي: دمشق، سورية، ط3، 1980م.
- 179- علي حميد خضير: دلالة السياق في النص القرآني. الأكاديمية العربية في الدانمرك، أصل الكتاب رسالة ماجستير. 1435هـ/2014م.
- 180- علي محمد محمد الصلابي: المعجزة الخالدة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم براهين ساطعة وأدلة قاطعة. دار المعرفة، دط، دت.
- 181- عماد الدين مخلوف عبد الحلیم: تأملات فنية في الآيات الكونية- دراسة جمالية وفق نظرية التصوير الفني في القرآن الكريم. المكتبة العصرية للنشر والتوزيع. المنصورة، مصر، ط1، 2017.
- 182- الغزالي(محمد بن محمد أبو حامد الطوسي): إحياء علوم الدين. دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2005م.
- 183- الغزالي: المستصفى من علم الأصول. دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1403هـ.
- 184- الغزالي: جواهر القرآن. تحقيق: محمد رشيد رضا القباني. دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط3، 1411هـ-1990م.
- 185- أبو نصر الفارابي: إحصاء العلوم. تقديم وشرح: علي بو ملح. دار الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 1996م.
- 186- ابن فارس ( أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا): معجم مقاييس اللغة. تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، مصر، (دط)، 1399 هـ - 1979م.
- 187- فاضل صالح السامرائي: معاني الأبنية في العربية. دار عمار، عمان، الأردن، ط2، 1428هـ-2007م.
- 188- فاضل صالح السامرائي: معاني النحو. شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، مصر، ط2، 1423هـ-2003م.
- 189- فتح الله أحمد سليمان: مدخل إلى علم الدلالة. مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1412 هـ - 1991 م.
- 190- فتحى عبد الرحمن جروان: تعليم التفكير مفاهيم وتطبيقات. دار الفكر، عمان، الأردن، ط3، 1428هـ-2007م.
- 191- الفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ت607هـ): معاني القرآن. تحقيق ومراجعة: محمد علي النجار، دار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، مصر، ط1، دت.
- 192- فرحان بدري الحربي: الأسلوبية في النقد العربي الحديث دراسة في تحليل الخطاب. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2003م.
- 193- فريد الأنصاري: بلاغ الرسالة القرآنية من أجل إيصار آيات الطريق. دار السلام، القاهرة، مصر، ط1، 1430هـ-2009م.
- 194- فريد عوض حيدر: فصول في علم الدلالة. مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط3، 2011م.
- 195- فضل حسن عباس: إعجاز القرآن. منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمان، الأردن، ط2، 1997م.
- 196- فضل حسن أحمد عباس: لمسات ولطائف من الإعجاز البياني للقرآن الكريم. دار النفائس. الأردن، عمان، ط1، 1437هـ-2016م.
- 197- فضل حسن عباس وسناء فضل عباس: إعجاز القرآن الكريم. دط، دت.
- 198- فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي: خصائص القرآن الكريم. مكتبة العبيكان، الرياض السعودية، ط9، 1997م.
- 199- فهد خليل زايد: الإعجاز العلمي والبلاغي في القرآن الكريم. دار النفائس، عمان، الأردن، ط1، 1428-2008م.
- 200- فهد محمد الشعابي الحارثي: الاتصال اللغوي في القرآن الكريم- دراسة تأصيلية في المفاهيم والمهارات. منتدى المعارف، بيروت، لبنان، ط1، 2014م.
- 201- الفيومي (أحمد بن محمد بن علي المقري): المصباح المنير. تحقيق عبد العظيم الشناوي. دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، دت.
- 202- الفيروزياي (مجد الدين محمد بن يعقوب): معجم القاموس المحيط. ترتيب وتوثيق: خليل مأمون شيخا. دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1428هـ-2007م.
- 203- الفيروزياي (مجد الدين محمد بن يعقوب): بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. تحقيق: عبد العليم الطحاوي، دار الكتب، القاهرة، مصر، دط، 1412هـ-1992م.
- 204- عبد الفتاح عبد الغني القاضي: أسباب النزول عن الصحابة والمفسرين. خرج أحاديثه وشرح غريبه: أحمد عبد الرزاق البكري، دار السلام، القاهرة، مصر، ط8، 1424هـ-2003م.
- 205- القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر): الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ-2006م.
- 206- قطب الريسوني: النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر- مدخل إلى نقد القراءات وتأصيل علم التدبر القرآني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1، 1431هـ - 2010 م.
- 207- كارم السيد غنيم: الإشارات العلمية في القرآن الكريم بين الدراسة والتطبيق. دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1415هـ-1990م.
- 208- ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي): تفسير القرآن العظيم. تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط2، 1420هـ-1999م.
- 209- أبو البقاء الكوفي (أيوب بن موسى الحسيني): الكتابات - معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. إعداد: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1419هـ-1998م.
- 210- كمال بشر: التفكير اللغوي بين القديم والجديد. دار غريب، القاهرة، دط، 2005 م.
- 211- كمال بشر: علم الأصوات. دار غريب، القاهرة، مصر، (دط)، 2000م.
- 212- ينظر: كمال بشر: علم اللغة الاجتماعي. دار الثقافة العربية، 1994م.
- 213- ليبي بيضون: الإعجاز العلمي في القرآن. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ-2003م.
- 214- لويس معلوف: المنجد في اللغة والأدب والعلوم. المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط19، (دت).
- 215- ماهر أحمد الصوفي: الموسوعة الكونية الكبرى. تقديم: محمد سعيد رمضان البوطي وآخرون، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 1429هـ-2008م.

- 216- الماوردي ( أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ت450هـ): النكت والعيون (تفسير الماوردي). مراجعة وتعليق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.
- 217- مبارك مبارك: معجم المصطلحات الألسنية (فرنسي - انكليزي - عربي). دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1995 م.
- 218- المرشد (أبو العباس محمد بن يزيد): المقتضب. تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة. لجنة إحياء التراث، القاهرة، ط3، 1415هـ/1994م.
- 219- المثني عبد الفتاح محمود: نظرية السياق القرآني - دراسة تأصيلية دلالية نقدية. دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ط1، 1429هـ-2008 م.
- 220- محمد أبو القاسم حاج محمد: العالمية الإسلامية الثانية - جدلية الغيب والإنسان والطبيعة. دار الهادي، بيروت- لبنان، ط1، 1425هـ/2004م.
- 221- محمد أحمد أبو بكر أبو عامود: البلاغة الأسلوبية - تصوير الموت في القرآن نموذجاً - تقديم: عبد الرحيم محمود زلط. مكتبة الآداب: القاهرة، مصر. ط1، 1430هـ/2009م.
- 222- محمد أحمد خضير: الدلالة والتركيب والسياق دراسة تطبيقية. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 2010م.
- 223- محمد إقبال عروي: دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية - مرجعية منهجية. روافد، الكويت، ط1، 2007م.
- 224- محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ط2)، 1419هـ - 1999م.
- 225- محمد الصادق قمحاوي: البرهان في تجويد القرآن. عالم الكتب. بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ-1985م.
- 226- محمد الصالح نجاحي: خلق الإنسان في القرآن. دار الشيماء للنشر والتوزيع، نقاوس، بانتة، دط، 2015م.
- 227- محمد الصرايرة: آيات للموقنين. شركة الشهاب للنشر والتوزيع، باب الواد، الجزائر، دط، دت.
- 228- محمد القاضي: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم - رؤية في التفسير من خلال اللغة والسياق. الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر. ط1، 1430هـ/2009م.
- 229- محمد الأوراعي: لسان حضارة القرآن. الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف: الجزائر العاصمة-الجزائر، دار الأمان، الرباط، ط1، 1431هـ-2010م.
- 230- محمد بكر نوفل، فريال محمد أبو عواد: التفكير والبحث العلمي. دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1431هـ-2010م.
- 231- محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري: الطبقات الكبرى. تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1988م.
- 232- محمد بن سعد الدبل: النظم القرآني في سورة الرعد عالم الكتب، دار النشر للطباعة الإسلامية، مصر دط، دت.
- 233- محمد بن عبد الكريم الجزائري: توجيهات القرآن العظيم. مؤسسة المعالي للنشر والإعلام، ط1، 1434هـ-2013م.
- 234- محمد جمال الدين القاسمي: تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل. تعليق محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية، ط1، دت،
- 235- محمد حسن الشريف: معجم حروف المعاني في القرآن الكريم مفهوم شامل مع تحديد دلالات الأدوات. مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط1، 1417هـ-1996م،
- 236- محمد حسن حسن جبل: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم. مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2010م
- 237- محمد حسين علي الصغير: الصوت اللغوي في القرآن. دار المؤرخ العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ.
- 238- محمد حماسة عبد اللطيف: التحو والدلالة مدخل إلى دراسة المعنى التحوي-الدلالي. دار غريب، القاهرة، دط، 2006م.
- 239- محمد راتب النابلسي: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الآفاق. دار المكتبي سورية دمشق، ط2 "منقحة ومعدلة"، 1426هـ-2005م.
- 240- محمد رشيد رضا: تفسير المنار - تفسير القرآن الحكيم. مكتبة المنار، القاهرة، مصر، ط2، 1366هـ-1947م
- 241- محمد سالم صالح: الدلالة والتعبير النحوي - دراسة في فكر سيبويه. دار غريب، القاهرة، ط1، 2006م.
- 242- محمد سالم صالح: أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية ودور هذه النظرية في التوصل للمعنى. قسم اللغة العربية، كلية المعلمين بمحافظة جدة.
- 243- محمد شحرور: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة. الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، سورية، دمشق، دط، دت.
- 244- محمد شلبي شتيوي: من قضايا القرآن دراسة وتحليل. سلسلة مقارنة الأديان، النجدي للصف والإخراج التصويري، ط2، 1428هـ-2008م.
- 245- محمد عابد الجابري: فهم القرآن الحكيم "التفسير الواضح حسب ترتيب النزول" مطبعة دار النشر المغاربية، عين السبع، الدار البيضاء. ط1، 2009م.
- 246- محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس. دار الشروق، القاهرة، مصر، ط7، 1421هـ/2001م.
- 247- محمد علي الصابوني: التبيان في علوم القرآن. دار البعث قسنطينة-الجزائر، ط3، 1407هـ-1986م.
- 248- محمد علي الخولي: معجم علم اللغة النظري. مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1982م.
- 249- محمد عنبر "الشيء في ذاته": معلم لبناء الوجود كما هو معلم للعلم والفلسفة. دار القلم، دمشق، سوريا، دط، دت.
- 250- محمد الغزالي: نظرات في القرآن. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط6، 2005م.
- 251- محمد الغزالي: عقيدة المسلم. دار الشهاب للطباعة والنشر، بانتة، الجزائر، دط، دت.
- 252- محمد الغزالي: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم. دار الشروق: القاهرة، مصر، ط4، 1420هـ-2000م.
- 253- محمد فكري الجزار: لسانيات الاختلاف. الهيئة العامة لقصور الثقافة، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، سبتمبر 1995 م، كتابات نقدية شهرية (43) - سور الأزيكية.
- 254- محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. دار الكتب المصرية، مصر. دط، دت.

- 255- محمد محمد يونس علي: المعنى وظلال المعنى - أنظمة الدلالة في العربية. طبعة مزيدة ومنقحة، دار المدار الإسلامي، بيروت- لبنان، دط، 2007.
- 256- محمد مختار الشيباني: بلاغة الاستفهام التقريري في القرآن الكريم دراسة أسلوبية. مؤسسة كنوز الحكمة، الأبيار، الجزائر، دط، 1432هـ-2011م.
- 257- محمد قطب عبد العال: من جماليات التصوير في القرآن الكريم. سلسلة "دعوة الحق"، رابطة العالم الإسلامي- مكة المكرمة. السنة التاسعة، العدد99، العام 1410هـ-1991م.
- 258- محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن. أخبار اليوم، إدارة الكتب والمكتبات، دط، دت.
- 259- محمد متولي الشعراوي: مختصر تفسير الشعراوي. إعداد وتقديم: عبد الرحمن محمد متولي الشعراوي، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، مصر، دط، دت.
- 260- محمد متولي الشعراوي: معجزات القرآن والأنبياء. إعداد: عبد الرحيم محمد متولي الشعراوي، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، مصر، دط، دت.
- 261- محمد وصفي: الإعجاز الطبي في القرآن الكريم. قراءة وتعليق: مدحت يوسف السبع، دار الفضيلة. القاهرة، مصر، دط، دت.
- 262- محمود أحمد صالح الدوسري: عظمة القرآن الكريم. دار ابن جوزي للنشر والتوزيع، الدمام، السعودية، ط1، 1426هـ.
- 263- محمود البستاني: التفسير البنائي للقرآن الكريم. مشهد مجمع البحوث الإسلامية، ط1، 1424ق/1382ش.
- 264- محمود السعمران: علم اللغة- مقدمة للقارئ العربي. دار النهضة العربية، بيروت، دط، دت.
- 265- محمود صافي: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة. دار الرشيد دمشق، لبنان، طبعة مزيدة، ط3، 1416هـ-1995م.
- 266- محمود عكاشة: التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة - دراسة في الدلالة الصوتية، والصرفية، والنحوية، والمعجمية- دار النشر للجامعات، القاهرة مصر، ط1، 1426هـ - 2005م.
- 267- محمود عكاشة: الدلالة اللفظية. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة، (دط)، 2002م.
- 268- محمود محمد عيسى: السياق الأدبي - دراسة نقدية تطبيقية. جامعة المنصورة، كلية التربية بدمياط، دط، 2004م.
- 269- محي الدين درويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه. دار اليمامة ودار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط7، 1999م.
- 270- مختار لزرع: اللسان اللغة والكلام من التفريط السبقي إلى الإفراط النسقي. دار الكتب الحديث، القاهرة، ط1، 2010
- 271- مرفه عبد الجبار سقا: التفسير والإعجاز العلمي في القرآن ضوابط وتطبيقات. تقديم: نور الدين عتر، بديع السيد اللحام، حمزة حمزة، دار محمد الأمين، دمشق، سوريا، ط1، 1431هـ- 2010م.
- 272- مريم شمس: الإعجاز الطبي في القرآن "دراسة نقدية تحليلية". تعريب: زهراء يكانه. دار الهدى بيروت لبنان، ط1، 1426هـ-2005م.
- 273- مسعود بودوخة: السياق والدلالة. بيت الحكمة، العلمة - الجزائر، (ط1)، 2012م.
- 274- مصطفى أحمد عبد العليم: العلاقات النصية في القرآن الكريم - دراسة نحوية لجهود المفسرين. جامعة القاهرة - كلية دار العلوم.
- 275- مصطفى أكرور: مخارج وصفات الحروف العربية عند جمهور علماء التجويد. دار الخلدونية. الجزائر، ط1، 1434هـ-2013م.
- 276- مصطفى شعبان المصري: من الإعجاز اللغوي في القرآن دراسة لغوية أسلوبية في مناسبة اللفظ لسياق الحال. تقديم: عبده الراجحي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ط1، 2012.
- 277- مصطفى شعبان المصري: المناسبة في القرآن - دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين اللفظ والسياق اللغوي. تقديم: طاهر سليمان حمودة، دار الكتب والوثائق القومية- المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ط2، 2015م.
- 278- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. راجعه واعتنى به: درويش الجويدي. المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، 1424هـ-2003م.
- 279- مصطفى مسلم: مباحث في إعجاز القرآن. دار مسلم، الرياض، السعودية، ط2، 1416هـ-1996م.
- 280- معتصم السيد أحمد: الهرميوطيقا في الواقع الإسلامي بين حقائق النص ونسبية المعرفة. دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 1430هـ-2009م.
- 281- مكي بن أبي طالب القيسي: الهداية إلى بلوغ النهاية (تفسير مكّي). كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، الشارقة، الإمارات، ط1، 1429هـ-2008م.
- 282- مناع القطان: مباحث في علوم القرآن. مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، دط، دت.
- 283- منصور محمد حسب النبي: الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث. دار المعارف القاهرة، مصر، دط، دت.
- 284- منصور محمد حسب النبي: الرياح نعمة وبقية/ الماء لغز الحياة، سلسلة: الكون كتاب الله المنظور آيات ودلالات. دار الفكر العربي. القاهرة، مصر. 2010م.
- 285- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب. طبعة جديدة محققة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، دت.
- 286- مهدي صالح سلطان: في المصطلح ولغة العلم. كلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد، 2012م.
- 287- مهدي أسعد عرار: جدل اللفظ والمعنى دراسة في الكلمة العربية. دار وائل للنشر، عمان، الأردن، ط1، 2002م.
- 288- مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، طبعة منقحة، 1989م.
- 289- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط: مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 1425هـ- 2004م.
- 290- مصحف الحافظ المتقن: التفسير الموضوعي للحافظ المتقن مع أسباب النزول وشرح المفردات. كتابة: عثمان طه. حراء للطباعة والنشر، مملكة البحرين، ط1، 1429هـ-2008م.
- 291- معجم المعاني الجامع - معجم عربي عربي. نسخة إلكترونية.

- 292- نادى درويش محمد: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وصلته بمنهج الدعوة الإسلامية. مكتبة الإيمان القاهرة، مصر، ط1، 1432هـ-2011م.
- 293- نايف منير فارس: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. دار ابن حزم، بيروت لبنان، دار ابن كثير: حولي، الكويت، ط1، 1431هـ-2011م.
- 294- نصر الدين بن زروق: دروس ومحاضرات في اللسانيات العامة. مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، ط1، 2011م.
- 295- نصر حامد أبو زيد: مفهوم النص. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، بيروت-لبنان، ط1، 2014م.
- 296- بدیع الزمان سعید النورسي: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز. تحقيق: إحسان قاسم الصالحي. شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ط3، 2002م.
- 297- النيسابوري (أبو عبد الرحمن إسماعيل بن أحمد الحيري): وجوه القرآن. تحقيق وتعليق: نجف عرشي، مراجعة: ناصر النجفي. مؤسسة الطبع والنشر الأستانة الرضوية المقدسة، ط2، 1432هـ.
- 298- نعمان بوقرة: النظرية اللسانية عند ابن حزم الأندلسي قراءة نقدية في مرجعيات الخطاب اللساني. من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2004 م.
- 299- نعمان شعبان علوان: مقدمة في الإعجاز القرآني. مجلة الجامعة الإسلامية "سلسلة الدراسات الإنسانية"، المجلد الثامن عشر، العدد الأول، يناير 2010م.
- 300- نعيم الحمصي: فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ-1980م.
- 301- نوارى سعودي أبو زيد: الدليل النظري في علم الدلالة حسب المقرر الرسمي للجامعات الجزائرية. دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، 2007م.
- 302- نوال لخلف: الانسجام في القرآن الكريم -سورة النور أنموذجاً. تقديم: بركاهم العلوي . مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع ، الأبيار ، الجزائر ، دط ، 1432هـ / 2012م.
- 303- هادي نهر: اللسانيات الاجتماعية عند العرب. دروب للنشر، عمان، الأردن، ط4، 2011م.
- 304- هادي نهر: علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي. تقديم علي أحمد. دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2007/1427م.
- 305- هشام طالب: بناء الكون ومصير الإنسان - نقض لنظرية الانفجار الكبير. دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ-2006م.
- 306- ابن هشام عبد الأنصاري: معنى اللبيب في كتب الأعراب. تحقيق عبد اللطيف محمد الخطيب. السلسلة التراثية (21)، ط1، الكويت ، 1423هـ - 2002م.
- 307- عبد الحميد الفراهي الهندي: دلائل النظام. المطبعة الحميدية، ط1، 1388هـ.
- 308- هيثم جمعة هلال: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. دار العزة والكرامة للكتاب، وهران، الجزائر، ط1، دت.
- 309- الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي: أسباب نزول القرآن. رواية: بدر الدين الأرغواني، تحقيق: ماهر ياسين الفحل. دار الميمان للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 1426هـ/2005م.
- 310- وليد ظاهري: المعجزة الخالدة الإعجاز البياني والعلمي والتاريخي في القرآن الكريم. دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، 2006م.
- 311- وهبة الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي. دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 1406هـ-1986م.
- 312- يوسف أبو العدوس: الأسلوبية الرؤية والتطبيق. دار المسيرة، عمان، الأردن، ط1، 1427هـ / 2007م
- 313- يوسف الحاج أحمد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة. مكتبة دار ابن حجر، دمشق، سورية، ط2، 1424هـ-2003م.
- 314- يوسف القرضاوي: العقل والعلم في القرآن الكريم. مكتبة وهبة، القاهرة، مصر. ط1، 1416هـ-1996م.
- 315- يوسف المرعشي: إعجاز القرآن والدلالات الصرفية. دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1432هـ-2011م.
- 316- يونس ملال: منهج تدبر القرآن الكريم في ظل جدلية النص والعقل والواقع. دط، دت.

## المؤلفات المترجمة

- 317- آن رويول ، جاك موشال : التداولية اليوم علم جديد في التواصل. ترجمة سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني. مراجعة: لطيف زيتوني. المنظمة العربية للترجمة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط1، 2003م.
- 318- بيار جيرو: علم الدلالة. ترجمة منذر عياشي، دار طلاس، سورية، ط1، 1988م.
- 319- جوديث جرين: التفكير واللغة. ترجمة وتقديم: عبد الرحيم جبر. الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1992م.
- 320- جون لانز: اللغة والمعنى والسياق. ترجمة عباس صادق الوهاب، مراجعة: ديونيل عزيز، دار الشروق الثقافية العامة، العراق، بغداد، ط1، 1987م.
- 321- جيمس براينت كونانت: مواقف حاسمة في تاريخ العلم. ترجمة: أحمد زكي. دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1963م.
- 322- ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة. ترجمة وتقديم كمال محمد بشر. دار الشباب، الجيزة، مصر، دط.
- 323- هديسون: علم اللغة الاجتماعي. ترجمة: محمود عياد. عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط2، 1990م.

## المؤلفات الأجنبية

- 324 - Bussmann Hadumod : Routledge dictionary of language and linguistics . traducers : Gregory P.Trauth and Kerstain Kezzazi, Routledge, New York, 2006.
- 325- Chris Baldick :The concise Oxford dictionary of literary terms. Oxford university press ,Oxford ,UK, 2001.
- 326- Cynthia A. Barnhart : student's dictionary of American English ,Facts of file . New York- USA, 2008.
- 327- David Crystal: Dictionary of linguistics and phonetics. Blackwell Publishing ,Malden M.A ,USA - 6th edition ,2008.
- 328- Dominique Le Fur et autres : Le Robert ,Dictionnaire des synonymes, nuances et contraires. Le Robert ,Paris, 1<sup>ère</sup> édition ,2005..
- 329- R. Jakobson: Essais de linguistique générale. les éditions de minuit, Paris, 1963.
- 330- Jean Dubois : Dictionnaire de linguistique. .
- 331- Dictionnaire de l'académie française : France , 5<sup>ème</sup> édition , JJ Smith. IMP-LIB ,Paris 1798,tome :1.
- 332- Paul Imbs et Bernard Quemada ,Trésor de la langue française version informatisée.

## الأطروحات الجامعية

- 333- أحمد مصطفى أحمد الأسطل: أثر السياق في توجيه شرح الأحاديث عند ابن حجر العسقلاني. رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، 2011/1432م.
- 334- بلقاسم منصور: الآراء النحوية في كتاب "اللغة العربية معناها ومبناها" دراسة وصفية تحليلية. رسالة ماجستير في اللغة والأدب العربي، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2013م.
- 335- تهاني بنت سالم بن أحمد باحويرث: أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معنى المتشابه اللفظي في القصص القرآني دراسة نظرية تطبيقية على قصص نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام. رسالة ماجستير، تخصص: تفسير وعلوم القرآن، جامعة أم القرى، 1427هـ - 2007م.
- 336- حكيمة جبي: السياق التداولي في كلياته ودمته لابن المقفع. مذكرة ماجستير في السيميائيات وتحليل الخطاب، لغة وأدب عربي. جامعة ميلودي معمري، تيزي وزو، الجزائر.
- 337- خليل بن عبد الله بن عبد الرحمن الحدري: منهجية التفكير العلمي في القرآن الكريم وتطبيقاتها التربوية في المؤسسات الجامعية المعاصرة تصور مقترح". رسالة دكتوراه في الأصول الإسلامية للتربية، جامعة أم القرى،السعودية، 1422هـ.
- 338- رزيق بوزغاية: قيام الساعة في القرآن الكريم منلوية النص ومرجعته. رسالة دكتوراه في اللغويات، قسم اللغة وآدابها، جامعة منتوري، قسنطينة، 2012م-2013م.
- 339- سامية بن يامنة: سياق الحال في الفعل الكلامي - مقارنة تداولية. رسالة دكتوراه في اللسانيات، جامعة وهران، الجزائر 2010 - 2011م.
- 340- سعد بولنوار: آليات تحليل الخطاب في تفسير أضواء البيان للشنقيطي - تحديد المفاهيم النظرية. دكتوراه العلوم في اللغة العربية وآدابها، تخصص: الأدب العربي ونقده، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، 2011/ 2012م.
- 341- شادي محمد جميل عايش: دلالة سياق اسم الفاعل في الحديث النبوي الشريف صحيح مسلم نموذجاً. رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة الشرق الأوسط، 2012م.
- 342- عبد الرحمان عبد الدايم: النسق الثقافي في الكناية. مذكرة ماجستير، تخصص: لغة وأدب عربي، فرع: النظرية الأدبية المعاصرة، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، 2011م.
- 343- عبد الوهاب محمود إبراهيم حنايشة: التفكير وتتميته في ضوء القرآن الكريم. أطروحة ماجستير في أصول الدين، جامعة النجاح الوطنية، نابلس فلسطين، 2009م.
- 344- عمر حيدوسي: السنن الإلهية و تفسير القرآن الكريم في العصر الحديث. رسالة دكتوراه في العلوم الإسلامية تخصص كتاب وسنة جامعة الحاج لخضر باتنة، 2011/2012م.
- 345- فضيلة بلعالم: السياق وأثره في المعنى عند سيد قطب في ظلال القرآن نموذجاً. مذكرة ماجستير، جامعة وهران، 2004-2005م.
- 346- فضيلة عظيمي: أثر السياق في التركيب القرآني من خلال كتاب البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة بن ناصر الكرمانني ت505هـ. مذكرة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة.
- 347- فوزية جميل عبد الكريم داود: البحث الدلالي عند محمّد رشيد رضا في تفسير المنار للقرآن الكريم. رسالة ماجستير، جامعة آل بيت، كلية الآداب والعلوم، الأردن، 2000-2001م.
- 348- فهد بن شنوي بن عبد المعين الشنوي: دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام - دراسة نظرية تطبيقية. رسالة ماجستير، تخصص: تفسير وعلوم القرآن، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، 1426هـ - 2005م.

- 349- فلاح خير الدين: أثر اختلاف القراءات القرآنية في بيان صور الإعجاز القرآني. رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، 2013-2014م.
- 350- قويدر قيطون: الإعجاز النفسي في الخطاب القرآني -دراسة استقرائية تحليلية. أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2014/2015م.
- 351- لعرايبي نورية: أثر الترابط النصي في بناء الدلالة سورة الأعراف نموذجاً. ماجستير في اللسانيات جامعة وهران، الجزائر، كلية الآداب، اللغات والفنون، 2011-2012م.
- 352- محمد المهدي حمادي رفاعي: السياق في كتب التفسير الكشاف وتفسير ابن كثير نموذجاً. رسالة ماجستير، جامعة حلب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوريا، 2004م.
- 353- مختارية بن قبيصة: أثر السياق اللغوي في تفسير الزاوي. أطروحة دكتوراه في اللسانيات، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 1432هـ/2012م.
- 354- مراد حاج محند: السياق ودوره في استنباط الأحكام النقدية التراثية. مذكرة ماجستير في النقد والبلاغة، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2012م.
- 355- نايف حامد همام الشريف: التربية الإسلامية وقضية التفكير العلمي. رسالة دكتوراه، في الأصول الإسلامية للتربية، جامعة أم القرى، السعودية، 1411هـ/1990م.
- 356- نضال رسمي محمد العامودي: أثر إثراء محتوى منهاج العلوم بمضامين الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في تنمية مهارات التفكير العلمي والمبادئ العلمية لدى طلاب الصف السابع بغزة. رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة-فلسطين، 1435هـ-2013م.
- 357- هبة سعيد فارس: الإعجاز العلمي في آيات بداية الكون ونهايته دراسة موضوعية. رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة. 1432هـ-2011م.
- 358- يوسف يوسف: النظام اللغوي في القرآن الكريم مقارنة قصدية سورة الكهف أنموذجاً. أطروحة دكتوراه في اللغة والأدب العربي، جامعة وهران، الجزائر، 2013-2014م.

## المقالات والمدخلات

- 359- إدريس حمد هادي: إسناد الفعل وسوس إلى الشيطان والنفس وتعدته بالحروف في القرآن. مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد 27، العدد 6، 2019 م.
- 360- أمين الرباط وعبد الحكيم العبد: بعض وجوه الإعجاز في القرآن والسنة في ضوء علم اللسانيات وبلاغة الخطاب، اللغة- بين الوظيفية والإبداعية "ظاهرة-نظرية-جمالية"، مجلة فكر وإبداع، مركز اللغات والترجمة أكاديمية الفنون، دت.
- 361- باديس لهويمل: التداولية والبلاغة العربية. مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري - جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، العدد 7، 2011.
- 362- أمل حامد بدر: ملاحم أسلوبية في سورة القيامة. مجلة آداب البصرة، جامعة البصرة، عدد: 66/2013م،
- 363- بشير سعيد سهر المنصوري: السياق الثقافي وتحليل النص. مجلة أبحاث البصرة "اللسانيات"، المجلد 30 العدد: "2-1" 2006.
- 364- جمعة سمين قادر: الإعجاز الطبّي في القرآن الكريم. مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية. المجلد: 7، العدد: 3، لسنة: 2012.
- 365- جنان محمد المهدي: الإيقاع الصوتي الإيحائي في سياق النص القرآني. مجلة كلية التربية للبنات، المجلد 21 (4) 2010م.
- 366- حامد علي أبو صعيديك: ألفاظ الخلق والنشأة في القرآن الكريم دراسة دلالية. المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد 9، العدد 1، صفر: 1434هـ/ كانون الثاني: 2013م.
- 367- حسين علي ريس: إعجاز القرآن في بنان الإنسان. مجلة ديالى، عدد: 58، 2013م.
- 368- حسين محمد زغوط: المفاهيم النظرية لسياق الحال ومكوناته عند محمد الطاهر بن عاشور. مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 38، العدد 1، 2011م.
- 369- حسن منديل العكيلي: نظرات في إعجاز القرآن. بحث شارك به في ندوة إعجاز القرآن في كلية التربية للبنات/ جامعة بغداد 2001/2002 نشر في مجلة الكلية مجلد 15 عدد 1 للعام 2003.
- 370- حمدان رضوان أبو عاصي: الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى. مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، المجلد 17، العدد 2، يونيو 2009م.
- 371- حيدر علوي نجاد: فهم النص في سياقه التاريخي. تعريب: أحمد القزويني. مجلة البصائر، العدد 39، السنة: 1427هـ - 2006 م.
- 372- خليل خلف بشير العامري: السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني. مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، مجلد 9، العدد: 2، 2010م.
- 373- خليل خلف بشير العامري: السياق غير اللغوي في النص القرآني. مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية، المجلد 5، العدد 4، 2008.
- 374- رانا أمان الله: بور القرآن الكريم في نشر اللغة العربية وبقائها. مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب لاهور، باكستان، العدد 22، 2015م.

- 375- زيد عمر عبد الله: السياق القرآني وأثره في الكشف عن المعاني. مجلة جامعة الملك سعود، م15، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية، 2، 1423هـ-2003م.
- 376- ستار جبار هاشم: السياق الدلالي لحروف الجواب في القرآن الكريم "بلى" و"تنعم" أنموذجا. مجلة المصباح، العدد: 25، ربيع: 2016م-1436هـ.
- 377- سمية زكي رشيد وباسر أحمد عبد الله العكدي: معجزة القرآن الكريم. مجلة التربية والعلم، مجلد16، عدد1، 2009م
- 378- سمير داود سلمان: الدلالة السياقية في سورة الإسراء. مقال. جامعة البصرة، كلية الآداب، دت.
- 379- صديق أحمد مالك: الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم. مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، العدد23، 1432هـ-2011م.
- 380- عاطي عبيات ويحي معروف: جماليات دلالات التنثية والصور البلاغية والنغم الموسيقية في سورة الرحمن. مجلة: بونة للبحوث والدراسات، العدد: 17، ربيع الأول-شعبان 1433هـ/يناير-يونيو 2012م.
- 381- عائذ كريم علوان الحريزي: فوق "المقيدة والمطلقة في القرآن الكريم دليل إجازي. مجلة اللغة العربية وآدابها. العدد: 8
- 382- عبد العزيز بن ردة الطلحي: مصطلح السياق the context النشأة والمفهوم والتطور قراءة في الفكر اللغوي المعاصر، بحث مقدم للمشاركة في مؤتمر المصطلح اللساني الحديث عند علماء اللغة العرب المعاصرين- التأصيل والتعريب، جامعة مؤتة - الأردن، 1429هـ/ 2008م.
- 383- عبد الله علي الهتاري: تحولات الأفعال في السياق القرآني وأثرها البلاغي. مجلة الدراسات الاجتماعية، العدد الثاني والعشرون، يوليو-ديسمبر 2006م.
- 384- علي أسعد: تطبيقات التفسير العلمي استطراد أم استدلال. مجلة التراث العربي. دمشق، العدد: 115، 2009م.
- 385- علي الطاهر شرف الدين: التوازم بين آيات الله القرآنية وآياته الكونية. بحث مقدم ل: المؤتمر العلمي العالمي الثاني مؤتمر التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الكون، محرم 1430هـ-يناير 2009م.
- 386- عماد الدين عثمان: حوار مع زغلول النجار. مجلة: الوعي الإسلامي. العدد 424 ذو الحجة 1421هـ- فبراير / مارس 2001.
- 387- عمر الجيدي: أثر القرينة في توجيه الأحكام - نظرات في تاريخ المذهب المالكي. مجلة دعوة الحق، الرباط-المغرب، عدد: 238، 1404هـ - 1984 من الموقع: [www.habous.gov.ma](http://www.habous.gov.ma)
- 388- غياث بابو: دلالة العدول في صيغ الأفعال دراسة نظرية تطبيقية. مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، السنة الثالثة، العدد12، شتاء 1391هـ/2013م.
- 389- قتيبة فوزي جسام عبد الواحد الراوي: الإعجاز العلمي وعلاقته بالمنهج التجريبي المعاصر. مجلة الأستاذ، عدد201 سنة 1433هـ-2012م.
- 390- ماهر عيسى حبيب: التغير الدلالي بين المعنى السياقي والمعنى المعجمي. مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، سورية، المجلد 81، جزء3، 2006م.
- 391- محمد آيت بتسقييل: من أدلة الصدق والإعجاز في القرآن-الإعجاز العلمي. بحث في علوم القرآن، كلية العلوم الإسلامية-جامعة المدينة العالمية، شاه علم-ماليزيا.
- 392- محمد الدسوقي: أثر الابتداء بحروف المعاني والوقف عليها في بلاغة المعنى القرآني واتساعه. مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية. العدد الرابع، ذو الحجة 1438هـ.
- 393- محمد خازر المجالي: مصطلح "التفكر" كما جاء في القرآن الكريم-دراسة موضوعية. مجلة الشريعة والقانون، العدد 23، ربيع الأول 1426هـ- مايو 2005م.
- 394- محمد عزيز مخلف الفهداوي: الإعجاز العلمي في الحشرات الطائرة التي تُكرت في القرآن الكريم. مجلة العلوم الإسلامية. العدد الحادي عشر، 2015م.
- 395- مرفه عبد الجبار سفا: منهج التفسير الموضوعي في أبحاث التفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم. بحث مقدم لمؤتمر التفسير الموضوعي للقرآن الكريم واقع وافاق، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الشارقة، جمادى الأولى 1431هـ- أبريل 2010م.
- 396- مفلح بن دخيل الأكليبي: المناهج التعليمية في العالم الإسلامي بين الإعجاز العلمي في القرآن والسنة والمعطيات المعاصرة. مقدمة للندوة الدولية: بعنوان: "مكانة الإعجاز العلمي في المنظومة التعليمية للدول الإسلامية" جامعة محمد بن عبد الله -فاس المغرب من: 21-22/مارس/2014م.
- 397- هدى هشام إسماعيل: سورة التكويد دراسة لغوية أسلوبية. مجلة كلية الإمام الأعظم، العراق، المجلد/العدد10، 2010
- 398- هناء محمود شهاب: القرائن الدلالية في الحديث النبوي الشريف. مجلة آفاق الثقافة والتراث، السنة 13، عدد: 51، 1426هـ-2005م
- 399- وضاح كافي حلومي محمد العزاوي: أثر السياق القرآني في الترجيح بين المعاني. الجامعة الإسلامية. مجلة الكلية، جامعة الإمام الأعظم، العراق، مجلد 13، 2011م.

## المواقع الالكترونية

- 1- موقع بوابة دار المعارف الإخبارية <https://daralmaref.com>
- 2- موقع جامعة الشرق الأوسط. <https://meu.edu.jo>
- 3- موقع جامعة الملك عبد العزيز <http://www.kau.edu.sa>
- 4- موقع رياض العلم [www.riyadhalelm.com](http://www.riyadhalelm.com)

- 5- موقع شبكة ضياء الأكاديمية المفتوحة : <http://diae.net>
- 6- موقع عبد الدائم الكحيل للإعجاز العلمي في القرآن والسنة : [www.kaheel7.com](http://www.kaheel7.com)
- 7- موقع الفلق، سلسلة إصدارات الفلق، [www.alfalaq.com](http://www.alfalaq.com)
- 8- موقع محمد سعيد ربيع الغامدي [www.mohamedrabeeea.com](http://www.mohamedrabeeea.com)
- 9- موقع المجمع القرآني العربي وبرنامج فهرس جذور كلمات القرآن: <https://corpus.quran.com>
- 10- موقع المكتبة : <http://www.almaktabah.net>
- 11- وقع مكتبة عين الجامعة. <https://ebook.univeyes.com/90719/pdf>
- 12- موقع منتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية. [www.m-a-arabia.com](http://www.m-a-arabia.com)
- 13- موقع منتديات ستار تايمز [www.startimes.com](http://www.startimes.com)
- 14- موقع الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والإستراتيجية. <https://www.politics-dz.com>
- 15- موقع الموسوعة القرآنية <https://quranpedia.net>
- 16- موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة <https://quran-m.com>
- 17- موقع الدكتور نظمي خليل أبو العطا <http://nazmikhalil.com>
- 18- ويكيبيديا الموسوعة الحرة <https://ar.m.wikipedia.org>
- 19- حساب الدكتور أحمد العزي صغير على الفيسبوك [www.facebook.com](http://www.facebook.com)
- 20- حساب الدكتور محمد عبد السميع يونس على الفيسبوك [www.facebook.com](http://www.facebook.com)
- 21- حساب الدكتور محمد غلوش على الفيسبوك [www.facebook.com](http://www.facebook.com)
- 22- حساب المهندس الاستشاري رافع علي احمد على الفيسبوك [www.facebook.com](http://www.facebook.com)

# فهرس الموضوعات

## فهرس الموضوعات

الصفحة	المحتوى	الرقم
أ		مقدمة
1	النص القرآني بين النظام اللغوي والتفكير العلمي	مدخل
2	النص القرآني خصائصه وموضوعاته	أولاً:
4	خصائص النص القرآني	01
7	محتويات النص القرآني، الثابت والمتغير	02
9	النظام اللغوي للنص القرآني	ثانياً:
11	مميزات الصياغة اللغوية للنص القرآني	01
14	خصائص أسلوب النص القرآني	02
19	التفكير العلمي في النص القرآني	ثالثاً:
19	مفهوم التفكير العلمي	01
26	مجالات التفكير العلمي	02
29	العلاقة بين اللغة والتفكير العلمي	رابعاً:
29	أهمية اللغة في التفكير	01
31	أثر التفكير في اللغة	02
33	تأثير النص القرآني في اللغة والتفكير العلمي	خامساً:
33	تأثير النص القرآني في اللغة	01
35	تأثير النص القرآني في التفكير	02
37	استنتاج	
38	الإعجاز والسياق في القرآن - دراسة مصطلحية	الباب الأول
39		تمهيد
40	حقيقة الإعجاز العلمي في القرآن	الفصل الأول
41	القرآن والعلم، موقف القرآن من العلم	المبحث الأول
41	تحديد مفهوم القرآن، أسماؤه وأوصافه	المطلب الأول
41	المفهوم اللغوي للقرآن	01
44	المفهوم الاصطلاحي للقرآن	02
44	أسماء القرآن وأوصافه	03

47	مفهوم العلم لغةً واصطلاحاً	المطلب الثاني
47	العلم لغة	01
48	العلم اصطلاحاً	02
50	تصنيف العلوم عند العرب	03
53	موقف القرآن من العلم	المطلب الثالث
53	مادة "ع ل م" في القرآن ودلالاتها	01
57	العلم كما وصفه الله في القرآن ودعا إليه	02
59	مجالات العلم في القرآن ومنهجه في معالجتها	03
66	المُعْجِزَةُ والإعجاز، المصطلح والمفهوم	المبحث الثاني
66	تحديد مفهوم المعجزة القرآنية، شروطها وأنواعها	المطلب الأول
66	مفهوم المعجزة والفرق بينها وبين الاختراع	01
71	شروط المعجزة الإلهية وأنواعها	02
74	المُعْجِزَةُ في القرآن مُشْتَقَّاتُهَا، دَلَالَتُهَا وَخِصَائِصُهَا	المطلب الثاني
74	لفظ "معجزة" المشتقات والدلالة في القرآن	01
80	المقصود بمعجزة القرآن وخصائصها	02
86	مفهوم الإعجاز والفرق بينه وبين المعجزة	المطلب الثالث
86	إِعْجَازُ الْقُرْآنِ لُغَةً وَاصْطِلَاحاً	01
88	الفرق بين الإعجاز والمعجزة	02
90	المسيرة التاريخية لإعجاز القرآن وأهم أنواعه	المبحث الثالث
90	مسيرة الإعجاز عبر التاريخ الإسلامي	المطلب الأول
94	سِرُّ الإِعْجَازِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ	المطلب الثاني
97	أبرز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم	المطلب الثالث
98	الإعجاز اللغوي	01
103	الإعجاز الموضوعي	02
107	الإِعْجَازُ الْعِلْمِيُّ فِي الْقُرْآنِ تَحْدِيدًا وَتَأْرِيخًا	المبحث الرابع
108	مفهوم الإعجاز العلمي والفرق بينه وبين التفسير العلمي	المطلب الأول
108	تعريف الإعجاز العلمي في اصطلاح العلماء	01
110	العلاقة بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي	02
115	المسيرة التاريخية لفكرة الإعجاز العلمي في القرآن	المطلب الثاني
115	نشأة فكرة الإعجاز العلمي عند السلف	01
117	تطور فكرة الإعجاز العلمي في العصر الحديث	02

120	مواقف العلماء وآراؤهم من الإعجاز العلمي	المطلب الثالث
120	موقف المؤيدين للإعجاز العلمي و أدلتهم	01
123	فريق المانعين "المعارضين" للإعجاز العلمي	02
128	الحقيقة العلمية وضوابط منهجية البحث في الإعجاز العلمي	المبحث الخامس
128	تحديد مفهوم الحقيقة العلمية، سماتها وأنواعها	المطلب الأول
128	الحقيقة العلمية تعريفها وأهميتها	01
131	مستويات الحقيقة العلمية وأنواعها	02
132	المصطلحات المتصلة بالحقيقة العلمية	03
136	علاقة الحقيقة العلمية بالمعجزة القرآنية	المطلب الثاني
136	الوحي الإلهي مصدر الحقائق العلمية	01
138	تصنيف الحقائق العلمية حسب الآيات الكونية	02
141	منهج الأخذ بالحقيقة العلمية وأهداف أبحاث الإعجاز العلمي	المطلب الثالث
141	منهج الأخذ بالحقائق العلمية من النص القرآني المعجز	01
144	ضوابط ومنهجية الدراسة (البحث) في الإعجاز العلمي	02
151	أهداف أبحاث الإعجاز العلمي وأهميتها	03
155	استنتاج	
156	مجالات دراسة السياق قديماً وحديثاً	الفصل الثاني
157		تمهيد
163	مفهوم السياق في المعجم والاصطلاح وأهميته	المبحث الأول
163	السياق في المعجم والاصطلاح العربي والغربي	المطلب الأول
163	السياق في المعجم والاصطلاح العربي	01
171	السياق في المعجم والاصطلاح الغربي	02
176	السياق القرآني خصائصه وأبعاده	المطلب الثاني
176	مفهوم السياق القرآني وأهميته	01
179	أبعاد السياق القرآني	02
182	أهمية السياق والفرق بينه وبين مصطلحات مقاربة له	المطلب الثالث
182	الفرق بين السياق ومصطلحات مقاربة له	01
188	دور السياق وأهميته	02
193	السياق في دراسات النحاة واللغويين	المبحث الثاني
195	المصطلح والملاح	المطلب الأول
197	السياق اللغوي عند النحويين	المطلب الثاني

197	الصَّوْتُ وأثره في اختلاف المعنى والسيّاق	01	
203	دور السيّاق اللّغوي في ترّجيح دلالة الصّيغ الصّرفية	02	
205	أثر السيّاق اللّغوي في الجملة (التّركيب النّحوي)	03	
207	وظيفة السيّاق اللّغوي في توجيه الإعراب و ترّجيح المعاني	04	
208	سيّاق الحال عند النّحويين وعناصره	المطلب الثالث	
210	المتكلم	01	
211	المخاطب	02	
211	العلاقة بين المتكلم والمخاطب	03	
212	موضوع الكلام	04	
214	السيّاق في دراسات البلاغيين	المبحث الثالث	
216	المصطلح والملاح عند البلاغيين	المطلب الأوّل	
217	الحال ومقتضى الحال	01	
217	المقام	02	
218	المقال	03	
218	الحيز	04	
219	السيّاق اللّغوي عند البلاغيين	المطلب الثاني	
220	سيّاق الحال عند البلاغيين	المطلب الثالث	
223	السيّاق عند دارسي القرآن	المبحث الرابع	
226	المصطلح والمفهوم	المطلب الأوّل	
226	السيّاق	01	
227	المساق	02	
227	القرينة	03	
229	السيّاق اللّغوي عند دارسي القرآن	المطلب الثاني	
231	سيّاق الحال عند دارسي القرآن	المطلب الثالث	
235	السيّاق في دراسات اللّغويين الغربيين	المبحث الخامس	
236	أصول النّظرية السيّاقية	المطلب الأوّل	
239	النّظرية السيّاقية عند فيرث	المطلب الثاني	
243	تطور النّظرية السيّاقية وأهم مميّزاتها	المطلب الثالث	
243	ستيفن أولمان	01	
245	هاليداي	02	
246	أهم ما يميّز النّظرية السيّاقية لدى الدارسيين	03	
248	استنتاج		

249	آيات الإعجاز العلمي - دراسة تطبيقية	الباب الثاني	
250		تمهيد	
251	آيات خلق السماء والأرض بين الدلالة السياقية والحقائق العلمية	الفصل الأول	
252	إحصاء آيات الإعجاز العلمي في السماء والأرض وتصنيفها	المبحث الأول	
252	إحصاء آيات الإعجاز العلمي في السماء وتصنيفها	المطلب الأول	
253	آيات الإعجاز العلمي في خلق السماء	01	
254	آيات الإعجاز العلمي في خلق الأجرام السماوية	02	
258	آيات الإعجاز العلمي في الظواهر الجوية المناخية	03	
262	إحصاء آيات الإعجاز العلمي في الأرض وتصنيفها	المطلب الثاني	
262	آيات الإعجاز العلمي في شكل الأرض ومعادنها	01	
264	آيات الإعجاز العلمي في خلق الجبال والنبات	02	
267	آيات الإعجاز العلمي في خلق البحار والأنهار	03	
270	السياق الصوتي والحقائق العلمية في آيات خلق السماء والأرض	المبحث الثاني	
270	دلالة الصوت الإيحائي	المطلب الأول	
270	دلالة الصوت الإيحائي في آية الأجرام السماوية	01	
279	الدلالة الإيحائية لأصوات لفظ "شواظ" في آية خلق المعادن الكونية	02	
284	دلالة التكرار الصوتي	المطلب الثاني	
284	تكرار أصوات لفظ "صرصر" في آية خلق الريح وأنواعها	01	
289	تكرار أصوات لفظ "زلزل" في آية حركة الأرض واهتزازها	02	
296	السياق الصرفي والحقائق العلمية في آيات خلق السماء والأرض	المبحث الثالث	
296	دلالة الإفراد والتنثية والجمع	المطلب الأول	
296	دلالة إفراد المشرق والمغرب وتنثيتهما وجمعهما في آية خلق الظواهر الكونية	01	
302	دلالة تنثية "البحر" في آية خلق البحار	02	
306	دلالة صيغ المشتقات (اسم الفاعل)	المطلب الثاني	
306	دلالة اسم الفاعل في لفظي "الطَّارِق" و"النَّاقِب" في آية خلق السماء	01	
312	دلالة اسم الفاعل في لفظي "فالق" و"مخرج" في آية خلق النباتات	02	

319	السِّيَاق النَّحْوِيّ وَالْحَقَائِقُ الْعِلْمِيَّةُ فِي آيَاتِ خَلْقِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ	المبحث الرابع	
319	دلالة التَّحْوِيلِ فِي زَمَنِ الْفِعْلِ	المطلب الأوّل	
320	دلالة التحوّل عن الماضي إلى المضارع في آيات تصريف الرياح والسحاب	01	
329	دلالة التحوّل عن الماضي إلى المضارع في آية إنزال المطر وإنبات الأرض	02	
336	دلالة التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ	المطلب الثاني	
337	دلالة تقديم المفعول به في آية القمر ومنازله	01	
344	دلالة تقديم الجار والمجرور في آية زوجية النّبات والتّمرات	02	
349	السِّيَاقُ الْخَارِجِيُّ وَالْحَقَائِقُ الْعِلْمِيَّةُ فِي آيَاتِ خَلْقِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ	المبحث الخامس	
350	السِّيَاقُ التَّارِيخِيُّ وَالسِّيَاقُ الثَّقَافِيُّ	المطلب الأوّل	
350	أثر السِّيَاقِ الثَّقَافِيِّ فِي تَدْبِيرِ آيَةِ تَكْوِيرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ	01	
358	أثر السِّيَاقِ التَّارِيخِيِّ فِي فَهْمِ آيَةِ أَدْنَى الْأَرْضِ	02	
366	السَّنَةُ النَّبَوِيَّةُ وَأَقْوَالُ الصَّحَابَةِ	المطلب الثاني	
366	أثر السنة النبوية في تقرير آية السماوات السبع وطبقات الأرض السبع	01	
374	أثر أقوال الصحابة في تأييد واقعة آية انشقاق القمر	02	
378	آيَاتُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانَاتِ بَيْنَ الدَّلَالَةِ السِّيَاقِيَّةِ وَالْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ	الفصل الثاني	
379	إحصاء آيات الإعجاز العلمي في الإنسان والحيوان وتصنيفها	المبحث الأوّل	
379	إحصاء آيات الإعجاز العلمي في الإنسان و تصنيفها	المطلب الأوّل	
379	آيات الإعجاز العلمي في التخلُّق	01	
382	آيات الإعجاز العلمي في النّفس والعقل	02	
384	آيات الإعجاز العلمي في الحواس والإحساس	03	
386	إحصاء آيات الإعجاز العلمي في الحيوان وتصنيفها	المطلب الثاني	
386	آيات الإعجاز العلمي في الأنعام	01	
388	آيات الإعجاز العلمي في الحشرات	02	
389	آيات الإعجاز العلمي في الطيور	03	
391	السِّيَاقُ الصَّوْتِيُّ وَالْحَقَائِقُ الْعِلْمِيَّةُ فِي آيَاتِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانَاتِ	المبحث الثاني	
391	دلالة الصَّوْتِ الْإِيْحَائِيِّ	المطلب الأوّل	
391	الدَّلَالَةُ الْإِيْحَائِيَّةُ لِأَصْوَاتِ لَفْظِ "عَلَقَةٌ" فِي آيَةِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ	01	

395	الدلالة الإيحائية لأصوات لفظة "يَحْطِمَنَّكُمْ" في آية خلق النمل	02	
399	دلالة التكرار الصوتي	المطلب الثاني	
399	دلالة تكرار أصوات لفظ "تُوسِسُ" في آية خلق النفس	01	
404	دلالة تكرار أصوات لفظ "دُلُّلًا" في آية خلق النحل	02	
409	السياق الصرفي والحقائق العلمية في آيات خلق الإنسان والحيوان	المبحث الثالث	
409	دلالة المؤنث والمذكر	المطلب الأول	
410	دلالة تذكير و تأنيث الأنعام في سياق القرآن الكريم	01	
416	دلالة تأنيث العنكبوت في سياق القرآن الكريم	02	
421	دلالة الأوزان الصرفية	المطلب الثاني	
421	دلالة صيغة "سُلالة" في آية أطوار خلق الإنسان	01	
428	دلالة صيغة "يَصْعَدُ" في آية صعود الإنسان إلى السماء	02	
434	السياق النحوي والحقائق العلمية في آيات خلق الإنسان والحيوان	المبحث الرابع	
434	دلالة حروف المعاني	المطلب الأول	
435	دلالة حرف الاستفهام "هل" في آية ما قبل إيجاد الإنسان وبتأنيته	01	
441	دلالة حرف الجواب "بلى" في آية إعادة نشأة الإنسان وبعثه	02	
446	دلالة الحذف والذکر	المطلب الثاني	
446	دلالة حذف الفاعل في آية التفكر في خلق الإبل	01	
453	دلالة حذف "من" و"ذکر" "فوق" في آية وصف الطير	02	
459	السياق الخارجي والحقائق العلمية في آيات خلق الإنسان والحيوان	المبحث الخامس	
459	السياق الاجتماعي (الظروف الاجتماعية)	المطلب الأول	
461	أثر السياق الاجتماعي في آية تحديد عدّة المرأة (المطلقة والأرملة)	01	
469	أثر السياق الاجتماعي في آية تحريم الخمر	02	
476	السياق الحالي (أسباب النزول)	المطلب الثاني	
477	أثر السياق الحالي في تدبر آية خلق البعوضة	01	
485	أثر السياق الحالي في بيان آية تحريم الميتة ولحم الخنزير	02	
494		خاتمة	
503		قائمة المصادر والمراجع	
518		فهرس الموضوعات	

**ملخص الرسائل  
والكلمات المفتاحية  
بالعربية والفرنسية  
والانجليزية**

## مُلخَص رسالَةِ الدُّكتوراه

**العنوان:** آياتُ الإعجازِ العِلْمِيِّ في القرآنِ الكَرِيمِ بَيْنَ الدَّلالةِ السِّيَاقِيَّةِ والحَقائِقِ العِلْمِيَّةِ

**ملخص:** يعدُّ السِّيَاقُ أداةَ معرفيَّةٍ وإجرائيَّةٍ حديثَةٍ حَقَّقَتْ نجاحًا معتبرًا في دراسةِ النُّصوصِ على اختلافِ أنساقها المعرفيَّةِ في حقولِ العلومِ

الإنسانيَّةِ المختلفةِ، فضلًا عمَّا له من جذورٍ عميقةٍ في تراثنا العربي عُنِيَ به جمعٌ من العلماءِ القدامى في فهمِ دلالاتِ اللَّفظِ في النَّصِّ القرآنيِّ.

سعت هذه الأطروحة المتواضعة إلى تقديم دراسة نظريَّة تطبيقية، هدفها الرِّئيسُ الكشفُ عن المسلك الذي تسلكه اللُّغة سياقيًّا في تجلية المعنى

وإبرازه، وتوجيه الدَّلالة وتحديدِها، من خلال آياتِ الإعجازِ العِلْمِيِّ في القرآنِ الكَرِيمِ وما تتضمنه من حقائق وإشاراتٍ علميَّةٍ كشف عنها العلم الحديث.

وقد توصلت الدراسة إلى أنَّ فهم النَّصِّ القرآنيِّ وتفسيره علميًّا لا يتمُّ إلا في ظلِّ السِّيَاقِ العامِ بنوعيه اللُّغويِّ وغير اللُّغويِّ، ولا يحصل هذا الفهم ولا ذلك

التفسير إلا بمعاينة تطبيقية للآيات بمنهج كشاف يكشف تفاصيل المعاني المحيطة بالآية، ويسهم في بناء الصورة العامَّة للمعنى؛ لذا فاعتماد المنهج

السِّيَاقِيِّ في دراسة النَّصِّ القرآنيِّ، منهجٌ سديدٌ يساعد في فهم النَّصِّ، واستخراج كوامنه، وبيان مقاصده، في مستوياته اللُّغوية المتعدِّدة، الصَّوتيَّة والصَّرْفِيَّة

والنَّحويَّة والمعجميَّة والبلاغيَّة، ومستوياته غير اللُّغوية الحالية المتمثلة في أسباب النزول، ومكانه وزمانه، والحديث النَّبويِّ الشَّرِيفِ، والمعطيات التَّاريخيَّة

والاجتماعيَّة والثَّقافيَّة المتصلة بالنَّصِّ.

**كلمات مفتاحية:** القرآن، العلم، الإعجاز العِلْمِيِّ، التفسير العِلْمِيِّ، الحقيقة العِلْمِيَّة، الدَّلالة، السِّيَاق، السِّيَاق اللُّغويِّ، السِّيَاق غير اللُّغويِّ.

---

**Titre :** *les miracles scientifiques au sein des versets du Saint Coran entre sémantique contextuelle et vérités scientifiques*

**Résumé :** *Le contexte est un outil cognitif et procédural moderne, qui a connu un succès considérable dans l'étude des textes, de diverses formes cognitives aux différents domaines des sciences humaines, d'autant plus que ses origines authentiques sont imprégnées dans notre patrimoine arabe, et que les efforts consacrés par un groupe de linguistes anciens s'est concentré sur l'étude du contexte, afin de mieux comprendre les significations des mots du texte coranique.*

Cette modeste thèse avec ses deux volets: théorique et pratique, a comme objectif principal de découvrir contextuellement le cours du langage, dans le processus d'éclaircissement du sens, et l'orientation de la sémantique, et sa définition; or cet objectif n'est atteint qu'à travers la confrontation des versets de miracles scientifiques du saint Coran aux vérités scientifiques, prouvées par la science moderne. L'étude a conclu que la compréhension du texte coranique, et son interprétation selon une optique scientifique n'est guère possible qu'à partir du contexte général, avec ses deux variétés: linguistique et non linguistique, en s'appuyant sur une étude appliquée des versets, avec une approche révélatrice qui dévoile en détail les significations de ces versets, et contribue ainsi à la conception d'une image globale du sens. Par conséquent, adopter l'approche contextuelle dans l'étude des textes coraniques, semble être la bonne méthode pour comprendre le texte, extraire ses secrets et clarifier ses objectifs, et ce à travers ses niveaux linguistiques: phonétique, morphologique, grammatical, lexical et rhétorique. et ses niveaux extra-linguistiques ou situationnels qui sont représentés par les circonstances ou raisons de la révélation coranique, lieu et temps de survenue, le noble Hadith du prophète, et les données historiques, sociales et culturelles liées au texte.

**Mots-clés :** *Coran, science, miracles scientifiques, interprétation scientifique, vérité scientifique, sémantique, contexte, contexte linguistique, contexte non linguistique.*

---

**Title:** *The scientific miracle verses in the Holy Qur'an between contextual semantic and science facts*

**Abstract:** *The context is a new procedural and knowledge tool that has achieved a considerable success in studying texts of various cognitive formats in different fields of human sciences, In addition to its deep roots in our Arab patrimony, about it, was focused the interest of some ancient scholars for understanding the significance of words in the Qur'anic text.*

This modest thesis seeks to present theoretical and practical study, so the main goal is to reveal the course of language in clarifying and highlighting the meaning contextually, and directing and defining the semantics, through the scientific miracle verses of the Holy Qur'an, in front of its scientific facts, proven by modern science. This study concluded that the understanding and interpretation of the Qur'anic text scientifically can only take place in the global context, with the both types: linguistic and extra-linguistic context. Neither this understanding nor that interpretation occurs except by an applied examination of the verses with a revealing method to get the details of the significance that surround the verses, and contributes to build a global conception for the meaning; Therefore, adopting the contextual approach in studying the Qur'anic text, seems to be the right method for understanding the text, extracting its secrets, and clarifying its purposes, through its multiple linguistic levels: phonetic, morphological, grammatical, lexical and rhetorical. As well as through its non-linguistic or situational level represented in the circumstances of revelation, its place and time occurrence, the noble prophetic Hadith, and the historical, social and cultural aspects related to the text.

**Keywords:** *Qur'an, science, scientific miracles, scientific interpretation, scientific fact, semantics, context, linguistic context, extralinguistic context*